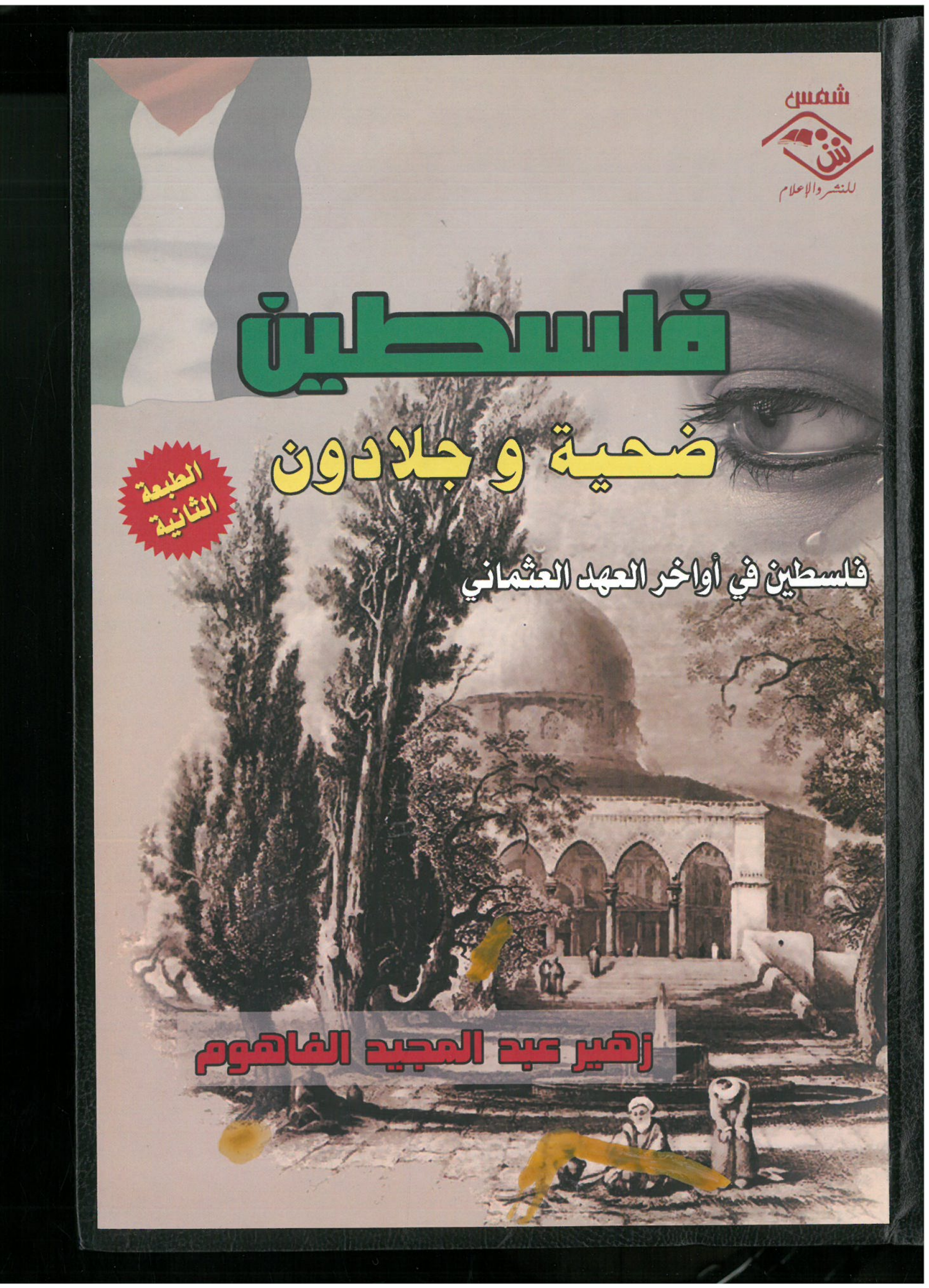

شمس
للنشر والإعلام
فلسطين
ضحية و جلادون
الطبعة الثانية
فلسطين في أواخر العهد العثماني
زهير عبد المجيد الفاهوم

شمس
للنشر والإعلام

فلسطين

ضحية و جلادون

فلسطين في أواخر العصر العثماني

زهير عبد المجيد الفاهوم

الكتاب : فلسطين : ضحية و جلادون
المؤلف : زهير عبد المجيد الفاهوم
الطبعة الثانية : القاهرة ٢٠١٢
رقم الإيداع : ٢٠١٢/٤٢٤١
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 101 - 7

الناشر
شمس للنشر والإعلام
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(+٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(+٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

إهـداء

{ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً } سورة الأحزاب - آية ٢٣

الشقيق الحبيب، الغائب جسدًا في ثرى دمشق العروبة.

الحاضر روحًا فوق ربوع فلسطين.

التي قضى فيها ربيع عمره وأسكنها.

شغاف قلبه بعد التهجير القسري.

المجاهد المرابط الصابر المحتسب.

خالد عبد المجيد الفاهوم.

طليعة الرعيل الأول من مؤسسي منظمة التحرير الفلسطينية.

وأول رئيس للمجلس الوطني الفلسطيني.

يا من لم يحن يومًا القامة.

ولم يطأطئ الهامة إلا لخالقه.

إلى روحك الطاهرة ... وإلى كل الصابرين المحتسبين.

من أبناء هذا الشعب المعطاء.

أقدم كتابي هذا على أمل أن يستريح أبطال فلسطين.

وأن يترجل فرسانها.

إن لم يكن في الحياة ... فبعد الرحيل

زهير عبد المجيد الفاهوم

فلسطين في شغاف القلب وأعماق الضمير

❋ فلسطين في منظور إلهي :

الأرض التي باركها الله تعالى.

{ سُبْحَانَ الَّذِي أسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الأقصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } سورة الإسراء- آية ١

❋ فلسطين في منظور نبوي :

أرض الرباط ومعدن المرابطين إلى يوم الدين.

- عن أبي أمامة البالي قال عن النبي ﷺ :

« لا تَـ ـالُ طَائِفَةٌ مِنْ أمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إلا مَا أصَابَهُمْ مِنْ لأوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ ».

قالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأيْنَ هُمْ؟ قالَ: « بِبَيْتِ الْمَقْدِس وَأكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِس »

- الرسول ﷺ يخاطب معاذ بن جبل: «إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدي، من العريش إلى الفرات، رجالهم ونساؤهم وآباؤهم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن اختار منكم ساحلاً من سواحل الشام أو بيت المقدس، فهو في جهاد إلى يوم القيامة».

❋ فلسطين في منظور أبنائها :

أجمل البلاد وهي الدرة اليتيمة بين كافة بلاد العالم ولا تماثلها أية دولة أخرى في العالم.

« أما فلسطين، فقد عرفت فلسطين كلها : سهولها وجبالها ومدنها وقراها والبادية.

تجولت فيها مرارًا في الصيف والخريف والشتاء والربيع، ولم أجُل فيها مرة إلا وعلت قيمتها في نظري.

لو اشتراها المشتري بكل مال العالم لكان الرابح.

ولو باعها البائع بكل مال العالم لكان الخاسر.

كل قطعة من الأرض قد تجد لها مثيلاً وعنها بديلاً إلا فلسطين، فلن تجد لها مثيلاً ولا عنها بديلاً. فيا حسن حظ من يشتريها وسوء حظ من يبيعها» [١].

(١) السكاكيني خليل : بين الوفاء والذكرى ص ٤١، رجل تربية وفكر وسياسة : عربي قومي وطني فلسطيني معاصر.

تمهيد

منذ قرون خلت ومع اضمحلال القوة المركزية الإسلامية، أضحى العالم الإسلامي - العربي، هدفًا يرمي من قبل دول الشرق والمغرب.

وقد بلغت ذروة الاستهداف في هجمات عالمية شرسة أهمها :

١- حرب الاسترداد : في شبه جزيرة أيبيريا (أسبانيا والبرتغال) والتي وصلت القمة، في سقوط غرناطة آخر معاقل لمسلمين في أسبانيا سنة ١٤٩٢م.

٢- خسارة المسلمين سيادتهم البحرية في البحر الأبيض المتوسط، البحر الأحمر، بحر العرب والمحيط الهندي لصالح السيادة الأوروبية البرتغالية، الأسبانية، الهولندية، الإنجليزية، والجمهوريات الإيطالية: جنوا، البندقية، بيزا وأمالفي.

٣- الحملات الصليبية المتتابعة التي اشتركت فيها جيوش أوروبا البرية وأساطيلها البحرية. وقد بلغت الذروة في معركة حطين ١١٨٧م الفاصلة التي انتصرت فيها قوات المسلمين مجتمعة، تحت قيادة السلطان صلاح الدين الأيوبي، وحطمت جموع الصليبيين مجتمعة تحت قيادة ملكهم غي دي لوزينان.

٤- في الوقت ذاته شرعت جحافل التتار - المغول الجرّارة تخترق الحدود الشرقية لديار الإسلام في منطقة ما وراء النهر (أوزبكستان اليوم). وانتهى الاجتياح بكبح الهجوم المغولي في معركة عين جالوت (منطقة بيسان اليوم) سنة ١٢٦٠م التي قادها السلطان المملوكي قطز، وكان على طليعة قواته القائد المظفر ركن الدين الظاهر بيبرس البندقداري. ولم يلبث مغول الغرب أن ذابوا وتمّ امتصاصهم واستيعابهم في الحضارة الإسلامية وغيره.

٥- وأخيرًا الهجمة الأوروبية الحديثة التي وصلت القمة في الحرب العالمية الأولى واحتلال المنطقة وتفتيتها وتقاسم أشلائها. وتلتها:

٦- الهجمة الصهيونية التي تم فيها احتلال فلسطين بكاملها وأجزاء من العالم العربي المجاور والمصادر التاريخية تصور لنا حالة اليأس التي اعترت الناس

في تلك الساعات الحالكة. وتدوي صرخات الألم والقنوط التي كان يطلقها علماء الأمّة. ولعل أعظم تلك الصرخات وأشدها نكاية في النفس تلك التي أطلقها المؤرّخ الكبير ابن الكثير في كتابه «الكامل في التاريخ» ج ٩ ص ٢٣٩ حين سمع باختراق المغول الحدود الإسلامية الشرقية.

يقول تحت باب « خروج التتار إلى بلاد الشام » سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، أي قبل اقتحام بغداد وتدميرها بـ ٣٨ سنة.

« لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًا لذكرها، فأنا أقدّم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك. فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا. إلا أني حثّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف. ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعًا فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقّت الأيام والليالي عن مثلها، عمّت الخلائق وخصّت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم - منذ خلق الله سبحانه وتعالى - آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً. فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا من يدانيها.

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس. وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين - البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس.

وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل. ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا ... ».

ونحن نقول : ما أشبه الليلة بالبارحة!

وهل يعيد التاريخ نفسه ؟

مدخل

قال التلميذ لأستاذه الشيخ[٢]: لقد أسميت كتابك « فلسطين ... ضحية وجلادون» ولقد عرفنا أن فلسطين هي الضحيّة، فمن هم الجلادون؟

أجاب الأستاذ الشيخ: إنهم كثيرون.

❋ وأولهم، الحركة الصهيونية المستفيد الأول والمنتفع الرئيس.

❋ وثانيهم، بريطانيا العظمى التي كانت أوّل من فكر بإقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، فسبقت بذلك الفكر الصهيوني ومشروعه. وهي التي أصدرت تصريح بلفور سنة ١٩١٧ وحوّلته من تصريح نظري إلى واقع ميداني، بعد أن نجحت في فرض انتدابها على فلسطين وأصبحت السيّد المطلق، وصاحب القول الفصل في كل ما يتعلق بالبلاد. ثم تحولت إلى حاضنة أمينة للحركة الصهيونية وبرنامجها في الوطن القومي اليهودي على التراب الفلسطيني.

❋ وثالثهم، عصبة الأمم التي صادقت على انتداب بريطانيا وأرفقته بصك الانتداب الذي يحدد مهمة ذلك الانتداب بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وبذلك تكون قد منحت الانتداب والتصريح ومشروع إقامة الوطن القومي اليهودي شرعية دولية.

❋ ورابعهم، هيئة الأمم المتحدة التي أقرت سنة ١٩٤٧ تقسيم فلسطين إلى دولتين : واحدة عربية والأخرى عبرية. وقد تم انتزاع ذلك القرار بالابتزاز والتهديد والرشوة والتخويف.

❋ وخامسهم، الولايات المتحدة الأمريكية التي حولت أروقة الأمم المتحدة ودهاليزها مسرحًا لسياسة العصا والجزرة، والترغيب والترهيب لإكراه الدول المعارضة والمترددة على تأييد التقسيم، وبذلك ابتزت موافقة ثلثي أعضاء الجمعية العمومية في الأمم المتحدة. وفي حقيقة الأمر لم تمثل الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الشأن إلا دور راعي البقر - الكاوبوي - الذي يحمل الهراوة بيد والذهب باليد الأخرى موزعة الوعد والوعيد.

---

(٢) السكاكيني خليل : بين الوفاء والذكرى ص ٤١، رجل تربية وفكر وسياسة : عربي قومي وطني فلسطيني معاصر.

❋ وسادسهم، الدول العربية «الشقيقة» الأخوة الأعداء، الحلفاء اللدودين، الخصم والحكم التي وقفت موقف المتفرّج، وهي ترى فلسطين العربية تتحول إلى أيدٍ صهيونية. وكان أقصى ما ساهمت به أول الأمر دفع ضريبة كلامية من تأييد ودعم لا رصيد لهما. وبعد إقرار التقسيم وجلاء بريطانيا عن البلاد أرسلت جيوشًا لم تكن مهيأة لدخول حرب مع اليشوف اليهودي، لا من ناحية عددية ولا من ناحية عسكرية: من تجهيز وتدريب وتسليح وقيادة. فكانت النتيجة المتوقعة هزيمة منكرة. هذا فضلاً على أن بعض الجيوش انصاعت لأوامر قيادتها السياسية التي تآمرت مع الحركة الصهيونية على دخول فلسطين لتنفيذ التقسيم.

❋ وأخيرًا وآخرًا سابعهم تلك الشرذمة من أهل البلاد العرب الفلسطينيين الذين باعوا دينهم وذممهم وضمائرهم وانضووا في خدمة الحركة الصهيونية، كان منهم الصحفيون وأصحاب الأقلام المأجورة والسياسيّون المرتزقة وتجار السلاح وبياع الأراضي والسماسرة وغيرهم وغيرهم. إنهم «الطابور الخامس» أو «جيش الظلال» كما يسميهم المؤرخ الإسرائيلي هليل كوهين في كتابه (٣).

---

(٣) כהןהלל: "צבאהצללים" – הוצאה עברית. ירושלים 2004

مقدمة

إننا لا نعدو الحقيقة حين نقول أنه قلما كتب عن موضوع تاريخي قدر ما كتب عن فلسطين وقضيتها، فها هي المكتبات العامة والخاصة تنوء بآلاف الكتب والمجلدات والمصادر والمراجع والمقالات والتحليلات. وهذه أقلام المؤرخين وعلماء الاجتماع والأدباء سيَّالة لا تكف عن الإصدار والنشر.

وقد بلغ زخم التأليف حد الطوفان، ولا عجب في ذلك فإن الإصرار على التاريخ وكتابته يؤدي دورًا هامًا في تشكيل الدول وهويتها وإضفاء الشرعية عليها وعلى أصولها ونظامها السياسي. ويقول روغان وشلايم في مؤلفهما «الحرب من أجل فلسطين» ص ص ١٨-٢٠: إن حكومات المنطقة تتمتع بكثير من السلطات المباشرة وغير المباشرة على عملية كتابة التاريخ.

وكتب تدريس التاريخ في المدارس يعود أمرها إلى الدولة حصراً. ومعظم الجامعات في الشرق الأوسط تديرها الدولة، كما أن أعضاء هيئاتها التدريسية موظفون في ملاك الدولة. وجمعيات التاريخ الوطنية والمطابع الحكومية تؤدي دور المصافي لإسقاط الروايات التاريخية «المارقة»، ونشر الحقائق التي تسمح بها الدولة. وبما إن الترقية في مؤسسات تدريس التاريخ مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالتزام الخط الرسمي، فإن المؤرخين لم يجدوا حافزًا للعمل على كتابة نقدية للتاريخ.

وقد دأب المؤرخون العرب والإسرائيليون على الكتابة بنمط يتميز بالتزام الخط القومي غير الناقد. ففي إسرائيل عكس المؤرخون ذوو النزعة القومية الذاكرة الجماعية للرأي الإسرائيلي العام بتصويرهم الحرب على فلسطين بأنها كفاح مرير من أجل البقاء، وعلى أنها نصر يكاد يكون معجزة.

وفي العالم العربي اتسمت روايات تاريخ الحرب الفلسطينية بالعبارات الاعتذارية وعبارات إرضاء الذات وتوجيه اللوم إلى الآخرين ونظريات المؤامرة؛ فالكتابات التاريخية ذات النزعة القومية، سواء لدى العرب أو الإسرائيليين تنحو منحى «نشدان الشرعية»، أكثر من ما تنحو منحى محاسبة الماضي محاسبة دقيقة.

وإن الحمل الثقيل الذي حملوه على كتابة التاريخ لإضفاء الشرعية على الأعمال القومية في حرب فلسطين قد تسبب إلى الخلط بين كتابة التاريخ والنزعة الوطنية في ما يمكن تسميته «بالتاريخ الرسمي».

وإن هذه النزعة في تجنيد موضوع التاريخ لتبرير النصر أو الهزيمة في الحرب هو صفة مشتركة بين إسرائيل والدول العربية. ولم يحجم أولئك «المؤرخون الرسميون» عن اعتماد أنصاف الحقائق والأساطير لإثبات ادعاءاتهم على مختلف انتماءاتهم.

فالمؤرخون الرسميون العرب هدفوا إلى تعزيز مصالح دولهم بتعبئة المواطنين الذين تلاشت أوهامهم نتيجة لهزيمة جيوش دولهم وضياع فلسطين العربية، في حين أن الروايات التاريخية الإسرائيلية الرسمية تسعى إلى تثبيت المصير الصهيوني، ولكن مع تخفيف المسؤولية عن العواقب السلبية للحرب.

هذه الممارسة حملت جيلاً جديدًا من المؤرخين الناقدين الإسرائيليين على النظر إلى تلك الروايات التاريخية بأنها نسيج من الأساطير فقامت - منذ أواخر سنوات الثمانين من القرن العشرين - بحملة على ما أسمته «الأساطير التأسيسية لدولة إسرائيل».

وقد أوقع هذا التوجه القومي غير الناقد الكثير من المؤرخين العرب والأجانب في أخطاء كثيرة وورطهم في مزالق ومطبات متعددة، فطمسوا أحداثًا وحرفوا وقائع تلبية لمصلحة عامة أو فئوية أو شخصية أو حزبية. الأمر الذي ألحق الضرر الفادح بالقضية وأصحابها.

إن الملفت للنظر في عملية الجنوح بالتاريخ ولي ذراعه هو آلية التلفيق والتزييف التي تعمل بإحكام كالآلة الدقيقة المزينة المشحمة التي تعمل في خط إنتاج متطور جاهز للفبركة في كل لحظة ومناسبة.

ولم تتوان الحركة الصهيونية عن استخدام تلك الآلة واستغلالها أحسن استغلال وجباية أفضل النتائج منها. وقد دأبت على مستويين:

أ. تحريف الحقائق والجنوح بالوقائع الميدانية.

ب. استعمال كافة الأساليب لتعرية تلك الحقائق من مصداقيتها لتتحول إلى روايات ضعيفة غير موثوق بصحتها.

على كل حال إن أول ما يتبادر إلى الذهن من كتابنا «فلسطين ... ضحية وجلادون» أن الفترة التي يغطيها، من أواخر القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى في نهاية العقد الثاني من القرن العشرين، هي فترة يخيل أنها تكاد تكون ساكنة خالية من الأحداث المفصلية في تاريخ العالم عمومًا والشرق الأوسط بصورة خاصة وفلسطين بصورة أخص.

ولكن لدى الإطلاع على الأحداث يقف الدارس مدهوشًا إزاء زخم الأحداث المفصلية التي طوّحت بالمنطقة وكان أبرزها:

١- صراع الحياة والموت الذي خاضته الدولة العثمانية، خصوصًا سلطانها عبد الحميد الثاني ١٨٧٥-١٩٠٨م، في سبيل بقائها واستمراريتها وإحباط مخططات دول الاستعمار الأوروبية لتصفيتها وتقاسم أشلائها. وكم شبهوا تلك الإمبراطورية «بالرجل المريض على البوسفور»، ودولهم «بأسراب الطيور الجارحة» أو «قطعان الوحوش المفترسة» التي تقف منتظرة رحيل الرجل المريض لتنقض عليه وتتقاسم جثته وتنهش أشلاءه ولحومه.

٢- المشهد الثاني من الأحداث انقسام يهود الشتات إلى تيارين متباعدين متباينين:

١) التيار الديني الأصولي الذي انقسم بدوره إلى فئتين :

أ- تيار يهود بلاد الشرق من رعايا الدولة العثمانية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وتركيا. وقد أطلق على أتباعه «السفراديم»

ب- تيار يهود الدول الأوروبية الذين انتشروا في جميع أرجاء القارة المذكورة ابتداء من روسيا في أقصى الشرق حتى حدود شبه الجزيرة الإيبيرية في الغرب. وقد أطلق على أتباعه «الأشكنازيم».

وقد شرعت شرائح من هذه المجتمعات تهاجر إلى فلسطين تحت غطاء ديني: إما مشيحياني أو شتاتي دون التطلع إلى أية مطامع سياسية أو سيادية.

٢) إلى جانب التيار الديني المنتشر في أوروبا تيار علماني يهودي عناصره الأثرياء وأصحاب النفوذ واليساريين والاشتراكيين والثوريين والانقلابيين ...

وقد قال هؤلاء إن اليهودية دين وليس قومية، وواجب اليهود الاندماج في مجتمعاتهم الأوروبية، وهم مدينون لها بالولاء والانتماء.

وقد انتهى أنصار هذا التيار الاندماجي إلى الفشل الذريع نتيجة لظروف ذاتية وموضوعية. وقد تزامنت تلك الظاهرة مع انبعاث العداء الأوروبي المسيحي لليهودية في ما أطلق عليه لاحقًا «باللاسامية». وقد توصّل يهود أوروبا إلى قناعة بعدم وجود مكان لهم على التراب الأوروبي. وكان لابد من إيجاد حل عاجل مباشر للمشكلة اليهودية على أرضية قومية في إطار كيان قومي: وطن قومي أو دولة أو كومنولث. فارتفعت الأصوات تدعو إلى قومية يهودية.

والجدير بالذكر أن هذه الدعوة تميزت بصفتين أساسيتين:

أ- منشؤها في المجتمعات الأوروبية وتأثرها بها. فلقد شكلت القومية الأوروبية الرحم والدفينة التي ولد ونما فيها جنين القومية اليهودية، فلا عجب أن تتأثر تلك القومية بأبرز قوميتين أوروبيتين، وهما:

القومية السلافية (الصربية)

القومية الجرمانية (الألمانية)

وكلتاهما تتباريان في العصبية العرقية والتطرف واليمينية.

ب- الدولة اليهودية المقترحة تتشكل على غرار الدول القومية الأوروبية الاستعمارية وتسعى لإقامة كيان قومي وراء البحار وتستولي على أوطان الغير وتقيم عليها مستوطناتها ومستعمراتها ملحقة الجور والظلم والضرر والاقتلاع والإجلاء والإحلال بالسكان الأصليين.

٣- أما المشهد الثالث في التحولات التي طرأت على منطقة الشرق الأوسط في الفترة المذكورة فكانت الحرب العالمية الأولى التي قلبت الخارطة الجغرافية - السياسية رأسًا على عقب.

فلقد تسرعت الدولة العثمانية وورطت نفسها في القتال إلى جانب دول المركز (ألمانيا وحلفائها)، فهيأت بذلك الظروف المواتية لانتحارها وتصفيتها وتحقيق الحلم الاستعماري القديم.

وقد تمّ ذلك ضمن اتفاقات أوروبية/ عربية/ صهيونية غريبة عجيبة متضاربة

متناقضة بلغ مجموعها سبعة يناقض كل منها الآخر. وكان أبرز تلك الاتفاقات ثلاثة:

أ- تفاهمات الشريف الحسين الهاشمي مع مكماهون (المعتمد البريطاني في مصر والشرق الأوسط). والتي انتهت بإعلان الشريف الثورة على الدولة العثمانية مقابل وعد هلامي مبهم، غامض وغير ملزم بنوع ما من استقلال بعض أقسام من الوطن العربي.

ب- اتفاقية سيكس - بيكو التي حطمت المنطقة إلى خمس شظايا وكيانات هزيلة ضعيفة مريضة متحاسدة متباغضة ودويلات قزمة وممالك طوائف لا حول لها ولا قوة اللهم إلا الاحتفاظ بالعرش والتاج. ونحن لا نزال نصلى سعير هذه الدول وبقاياها رغم مرور ما يقارب القرن على عقدها.

ج- تصريح بلفور، وهو «منحة مِن مَن لا يملك لمن لا يستحق». كان ذلك وعدًا بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي على التراب الفلسطيني على حساب أصحاب البلاد الأصليين العرب الفلسطينيين.

وقد انتدبت بريطانيا على فلسطين وحصلت على «صك الانتداب» من عصبة الأمم يلزمها بتهيئة البلاد لإقامة الوطن اليهودي.

إن تسلسل الأحداث وتعاقبها وادعاءات الحركة الصهيونية في الكثير من أساسيات وجزئيات المشروع الصهيوني لا تزال بحاجة ماسة إلى البحث العلمي والتدقيق والمساءلة.

وقد تصدى لاستيضاح صحة هذه الادعاءات أو بطلانها فئة من المؤرخين وعلماء الاجتماع الناقدين الإسرائيليين ممن أطلق عليهم لقب «المؤرخين الجدد» في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، في الفترة التي اعتبروها فترة ما بعد الصهيونية **Post Zionism**.

وقد رأى هؤلاء أن الحقائق، التي تخلو أحيانًا من الحقائق، أو أنها تحوي، في أفضل الأحوال، على أنصاف حقائق لا تزال بحاجة إلى البحث والاستقصاء. وقد أظهروا إن كثيرًا من هذه «المسلمات والثوابت الصهيونية» لا تقوم إلا على أسس مصطنعة من الرمال المتحركة، ولا تزيد عن كونها بيوتًا هشة من

الكرتون والورق آيلة للسقوط في كل لحظة عند هبوب أول نسمة ريح. ويرجع الفضل إلى هؤلاء في كشف الكثير من التزوير الاستشراقي والاستعماري والصهيوني ومحاولة إسقاطها واستعادة الحقيقة التاريخية كاملة غير منقوصة.

وقد سلط هؤلاء الأضواء على كثير من الأساسيات والجزئيات من الرواية التاريخية الرسمية أو شبه الرسمية الصهيونية مثل:

الهجرة الصهيونية الأولى بموجتيها الأولى والثانية ١٨٨١ـ ١٩٠٤م.

والهجرة الصهيونية الثانية ١٩٠٤ـ١٩١٤م.

ومنظمات الحراسة على مختلف أطوارها: بار - غيورا، هشومير والهاغاناة.

والمقولة الصهيونية انتصار الأقلية اليهودية على الأكثرية العربية ومثالها على ذلك مبارزة داوود لجوليات الجبار.

والمقولة الأخرى أن «فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» [١] وغيرها... وغيرها من الطروحات والأقوال وأبرزها قول وايزمن في خطاب له في اجتماع للاتحاد الفرنسي الصهيوني في باريس بتاريخ ٢٨ آذار/ مارس ١٩١٤ «ثمة بلد اسمه فلسطين وهو بلد بلا شعب. ومن ناحية أخرى هناك شعب يهودي لا يملك بلدًا» [٢].

وأننا نكتفي في مجال مقدمتنا هذه بتحليل المقولة الأخيرة لنبين زيفها وبطلانها:

حاولت الحركة الصهيونية أن تنفي التاريخ والجغرافيا في فلسطين وتنكر علاقة العرب بهما، فصوّرت فلسطين بلادًا جرداء قاحلة وهي عبارة عن صحار قفر ومستنقعات موحشة وكثبان من الرمال وأكوام من الحجارة لا ينبت فيها إلا الشوك والدردار. وأن معظمها أرض بور غير مزروعة.

أما الحقيقة فعلى النقيض، فمنذ قديم الزمان ذكر العهد القديم (التناخ) أن تلك البلاد عبارة عن أرض غزيرة تتدفق بالسمن والعسل (ארץ זבת חלב ודבש)

---

(١) القول للورد شافتسبري وزير خارجية بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر. وقد أصبحت مقالته المذكورة شعار الحركة الصهيونية، والغريب أن اللورد المذكور لم يكن يهودياً بل مسيحي بريطاني متصهين وقال قولته سنة ١٨٥٤ أي قبل ظهور الحركة الصهيونية بحوالي ثلاثة عقود. وكان من أوائل مساعدي هرتسل وأكثرهم وفاء له.
نور الدين مصالحة: طرد الفلسطينيين ص ٢٨ و٣ م.س. ص ٩.

(٢) م.س. ص ٩.

وكذلك عندما أرسل يشوع بن نون جاسوسيه ليجوسا خلال الديار الفلسطينية لاستطلاع أوضاعها عادا وهما يحملان قطفًا واحدًا من العنب ينوءان تحت حمله.

أما في العهد الحديث فأورد شاهد من أهلها، هو الأديب اليهودي أحاد هعام الذي زار فلسطين ١٨٩١ وعاد وهو يشيد بخصبها وخضرتها وذكاء ومهارة أهلها.

أما عن الشعب العربي الفلسطيني فقد أوردت الأدبيات الصهيونية أنه ليس شعبًا متكاملاً، وإنما هو عبارة عن مجموعات بشرية متفرقة وطوائف منتشرة هنا وهناك. وليس هناك أية رابطة تربطهم ولا مصلحة مشتركة تشدهم. أما انتماؤهم وولائهم فهو مصالحهم الذاتية ووطنيتهم المحلية (Local Patriotism).

وقد انعكس هذا التصور في كتاب هرتسل «بلاد قديمة جديدة»، وفي تصريح بلفور الذي وصف الشعب العربي الفلسطيني «بالطوائف غير اليهودية القاطنة الآن في فلسطين» Non Jewish communities Existing in Palestine.

أما اليهود في فلسطين فأسماهم الشعب اليهودي(Jewish People). وانعكست الفكرة في إجابة وايزمان عندما سئل عن رأيه في عرب فلسطين. قال: لقد أخبرني البريطانيون أن هناك بضع مئات من الزنوج (كوشيم) وأنه لا قيمة لهم. فالبلاد إذًا حسب رأيه ليست خالية من البشر فقط، وإنما من الحضارة أيضًا.

والمضحك المبكي في المجال المذكور أن تلك الطوائف غير اليهودية كانت تشكل حينذاك ٩٠٪ من السكان في حين لم تزد نسبة «الشعب اليهودي» عن ١٠٪ فقط.

ولا شك أنه كان لهذا التوجه أثره المباشر في الأحداث الكارثية اللاحقة التي حلت بشعب البلاد من العرب والمتلخصة بإنكار الاعتراف بالظلم والجور التاريخي الذي لحق بهم. فمن حين إلحاق الأذى والضرر بالفلسطينيين وحتى يومنا هذا لم يجر أي بحث جدي لاعتماد خطة أو القيام بأية أعمال تؤدي إلى إصلاح هذا الجو وتساعد على رفع الظلم وتخفيف المعاناة، ولو بشكل جزئي.

وقد كتبت صحيفة «هآرتس» في ملحقها بتاريخ ١٩٠٦/٥/٢٤ تحت عنوان «يعلمون ويصمتون» قالت فيه: إن في إسرائيل أجهزة إخراس وكمّ أفواه وظيفتها إسكات كل توجه ناقد لممارسات الحركة الصهيونية. واستأنفت

الصحيفة: أنه مما يساعد ويساهم في هذا الجو هو الانتصارات العديدة الساحقة التي حققتها الحركة على مدى طريقها. فالتاريخ يكتبه المنتصرون.

وقد ساعدت تلك الانتصارات على وثوق وإيمان الحركة بمصداقيتها وصحة دربها واستعلائها واستكبارها وغطرستها. وهذا هو الشعور والنمط السلوكي الذي ولد مع الحركة ورافقها كظلها على مدى مسيرتها حتى يومنا هذا.

وقد توصلت الحركة إلى القناعات التالية:

❋صدقها واستمرارها على نهجها وسياستها دون أن ترى أية حاجة إلى حل نفسها وإلغاء وجودها، أو حتى إلى تعديلات بسيطة أو جذرية فيها.

❋عدم الاعتراف بالظلم والعسف التاريخيين اللذين لحقا بالفلسطينيين، وبالتالي الإحجام عن أية محاولة للإصلاح أو حتى للتخفيف.

❋نهج سياسات الإخراس وكم الأفواه بحق الأصوات التي تتجرأ على النقد وتطالب بوضع حد للظلم الذي لحق بالفلسطينيين والمعاناة اليومية التي أصبحت نصيبهم في الحياة. وأن الإصرار على هذا النهج يعود إلى إرادة الأغلبية السكانية اليهودية في البلاد للمحافظة على امتيازاتها كأغلبية حاكمة مهيمنة مسيطرة قادرة على فرض إرادتها بالقوة والإكراه [٣].

(٣) يوجين روغان – افي شلايم: الحرب من أجل فلسطين. إعادة كتابة تاريخ ١٩٤٨ ص ص ١٨–٢٠.

الفصل الأول

الصهيونية

«حبة التفاح لا تسقط بعيداً عن شجرتها»

الصهيونية حركة يهودية - قومية - دينية - سياسية ظهرت وانتشرت بين يهود أوروبا في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر م. وقد تطورت من فكرة نظرية إلى مشروع استيطاني ميداني يرمي إلى إقامة كيان يهودي في فلسطين [١] هدفه:

١ـ إعادة اليهود [٢] من بلاد الشتات [٣] إلى فلسطين [٤].

٢ـ إنشاء دولة يهودية على التراب الفلسطيني.

من أجل تحقيق الهدف المذكور كان لا بد من تأمين:

أـ الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية في المرحلة الأولى.

بـ تغيير التركيبة الجغرافية - السياسية للبلاد باقتلاع الأغلبية العربية، واستبدالها بأغلبية يهودية في المرحلة الثانية، الأمر الذي يمكن تلخيصه بعمليتي: إجلاء وإحلال سكانيين.

أما كلمة صهيونية [٥] فقد اشتقت من الاسم العلم «صهيون» [٦] وهو تل يقع في المشارف الجنوبية الغربية لمدينة القدس. وقد وُسّعت التسمية، في وقت لاحق، لتشمل أيضًا مدينة القدس بأكملها، فسميت «مدينة صهيون» و«فتاة صهيون»[٧] ثم عمّمت لتشمل بعدها فلسطين بأسرها.

وقد أضفى اليهود على المدينة صفة القدسية بحجة :

أن الملك داود مدفون في تربتها.

وأن «يهوا» الإله يسكن فيها، فقد ورد في المزامير ١١/٩، «رنّموا للرب الساكن في صهيون».

---

(١) شوفاني إلياس: الموجز في تاريخ فلسطين السياسي ص ٣٠٩.

يعبّر عنها الفلسطينيين في الأدبيات الصهيونية

(٢) شيفات تسيون — שבתציון

(٣) آرتسوت هبزوا: — ארצות הפזירה

(٤) آرتس يسرائيل — ארץ ישראל (أي أرض إسرائيل)

(٥) تسيونوت — ציונות

(٦) صهيون — ציון

(٧) بت تسيون — בת ציון

ويذكر أن أول ذكر لكلمة صهيون ورد في العهد القديم (التناخ) في سفر صموئيل الثاني حين احتل داود يبوس (القدس لاحقاً) من اليبوسيين «وذهب الملك ورجاله إلى أورشاليم إلى اليبوسيين سكان الأرض. وأخذ الملك حصن المدينة: حصن صهيون وسمّاه مدينة داود» [٨].

أما الشخص الذي صكّ هذه الكلمة فهو رجل الفكر اليهودي النمساوي نتان برنباوم[٩] في صحيفة «التحرر الذاتي» الألمانية [١٠]. سنة ١٨٩٠. ويقول المسيري عبد الوهاب في كتابه «مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي» إن برنباوم هذا رفض التعريف الديني التقليدي للجماعات اليهودية باعتبارها جماعة دينية، وهو التعريف الذي كان سائدًا بين يهود العالم حتى القرن التاسع عشر. بدلاً عن ذلك تبنى تعريفًا علمانيًا يوحد بين القومية والعرق مستبعدًا الجانب الديني تمامًا. وقد أصبحت الصهيونية حسب هذا التصور حركة البعث القومي اليهودي الهادف إلى إنهاء حالة المنفى والشتات وعودة اليهود إلى أرض الأجداد لاستئناف تاريخهم.

▪ الرابطة والعودة :

وفي حقيقة الأمر لم تطرأ فكرة عودة اليهود إلى فلسطين إلا بعد الشتات اليهودي، بعد أن نجحت الإمبراطورية الرومانية في قمع ثورات اليهود في فلسطين وتشتيتهم في أصقاع المعمورة. ومن يومها لم ينفك بعض اليهود يحلمون بالعودة متمسكين بما أطلقوا عليه الرابطة أو العلاقة [١١]. وقد تجذّرت هذه الرابطة في أعماق النفسية اليهودية حتى ارتفعت إلى حد الفريضة الدينية التي تنص، ليس على العودة فقط [١٢]، وإنما على توطين البلاد[١٣]. وقد جهر اليهود بهذا الأمر في صلواتهم اليومية «لتنسني يميني إن نسيتك يا أورشليم» وأصبحت تحياتهم في الأعياد والمناسبات « اللقاء في أورشليم في العام القادم».

---

(٨) عير دافيد עיר דוד. الخولي صبري حسن: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الثاني من القرن العشرين ص ٩٠.

(٩) נתן ברנבאום

(١٠) Selbs Amanzipation

(١١) هزيقاه הזיקה

(١٢) هشيفاه השיבה

(١٣) يشوف هآرتس ישוב הארץ

وقد مرّ حلم العودة في طريق تحوّله من فكرة نظرية إلى واقع ميداني في مرحلتين:

١ـ المرحلة الدينية التي عبرت عن نفسها بحركة دينية مشيحيانية يهودية [١٤]، وهي عبارة عن حركة غيبية ذات طابع سلمي لا تتجاوز طموحاتها عودة المسيح اليهودي [١٥] المكلف بإعادة اليهود إلى أرض الميعاد.

وإلى أن تحين العودة بادرت مجموعات يهودية إلى التسلل إلى البلاد لتعيش فيها كأقلية دينية ينحصر نشاطها في ممارسات دينية بموجب تعاليم الشريعة اليهودية، وتأمين لقمة العيش بعيدًا عن أية تطلعات سياسية أو مطامع سيادية.

٢ـ مرحلة الصهيونية القومية ـ السياسية التي ظهرت في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر متأثرة بالقوميات الأوروبية الناشئة.

وقد نجح هذا التيار في تبني برنامج قومي ـ سياسي ـ استيطاني يرمي إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين، أو كما عبرت عنه الأدبيات الصهيونية بأسماء مختلفة: « كومنولث» تارة و«وطن قومي» [١٦] أخرى، على حساب السكان الأصليين من العرب.

أما الوسيلة لتحقيق الهدف فكانت:

أ ـ ابتياع أكبر مساحة من أراضي فلسطين.

ب ـ هجرة واستيطان يهوديين.

وكان على هذا التيار أن يتغلب على عقبتين: إحداهما موضوعية، والأخرى ذاتية.

✯ فالعقبة الموضوعية تمثلت في ضرورة تجاوز العراقيل والعقبات الخارجية.

✯ أما الذاتية فتتجاوز الخلافات والانقسامات الداخلية.

وقد تمخض عن هذا التيار الصهيوني عدة تيارات فرعية متعايشة حينًا، ومتنافرة أحيانًا، ولكنها انحصرت في الوسيلة والتفاصيل لا في الجوهر والهدف وأبرزها:

---

(١٤) هتوعاه همشيحيت התנועה המשיחית

(١٥) بيئات همشيح ביאת המשיח

(١٦) بايت لئومي בית לאומי

١- تيار الصهيونية الطلائعية [١٧].

٢- تيار الصهيونية السياسية - (الدبلوماسية) [١٨].

٣- تيار الصهيونية الروحانية [١٩].

٤- تيار الصهيونية العملية [٢٠].

٥- تيار الصهيونية التركيبية (التوفيقية) [٢١].

وقبل الخوض في التفاصيل يجدر بنا أولاً الإجابة عن بعض الأسئلة الأولية :

متى بدأ الوجود البشري في فلسطين؟

من توالى على سكنى البلاد من الشعوب والأعراق البشرية؟

متى بدأ الوجود اليهودي في البلاد؟

للإجابة لابد من العودة إلى البداية.

(١٧) هتسيونوت هحلوتسيت הציונות החלוצית

(١٨) هتسيونوت همدينيت הציונות המדינית

(١٩) هتسيونوت هروحانيت הציונות הרוחנית

(٢٠) هتسيونوت همعسيت הציונות המעשית

(٢١) هتسيونوت هسنتيت הציונות הסנתטית

فلسطين في فجر التاريخ

في الفترة المبكرة من التاريخ البشري كانت بلاد الهلال الخصيب (سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن، العراق) مسرحًا لهجرات بشرية واسعة من مختلف الشعوب والأعراق. لقد كانت من أكثر المناطق جذبًا للهجرات نظرًا لموقعها الجغرافي الوسيط في المنطقة ووفرة مياهها وخصوبة أراضيها، الأمر الذي بوّأها الأفضلية على غيرها من المناطق وجعلها محط أنظار القبائل والشعوب. كما جعلها محطة تبادل تجاري وحضاري، وممرًا للجيوش الغازية، وساحة للمعارك بين العمالقة من الغزاة [٢٢]. ويمكن حصر سلسلة الشعوب والأعراق كالتالي:

١- كان أول من حل من البلاد عرق بشري أطلقت عليه المصادر «عرق حوض البحر الأبيض المتوسط» وقد شكل النواة الأصلية لسكان البلاد. أما تاريخ هذا العرق فلا يزال مجهولاً. والدليل الوحيد على وجوده يعود إلى حوالي مائة ألف عام ق.م، فقد تم العثور على بقايا ذلك الإنسان القديم في مغائر متفرقة في أرجاء فلسطين، أشهرها مغارة جبال الكرمل، مغارة القفزة (في مدينة الناصرة) ومغارة الزطية (قرب الشاطئ الشمالي الغربي لبحيرة طبريا) وغيرها من المواقع.

٢- مع مرور الزمن طرأ على المنطقة عناصر عرقية جديدة تألفت من مجموعات بشرية متنوعة قدِمت من :

أ- المناطق الجبلية المرتفعة في أواسط آسيا وسهولها الشاسعة.

ب- شبة الجزيرة العربية وكانت هذه هجرة قبائل ساميّة أطلق علها «الهجرة السامية الصغرى».

ج- السهول الممتدة شرقي بحر قزوين و(الخزر) ممن ينتمون إلى العرق الهندو أوروبي مثل الحثيين والحويّين.

٣- «الموجة الساميّة» الكبرى التي غيرت ملامح المنطقة وتركيبتها السكانية. وقد انطلقت من شبه جزيرة العرب وغمرت الهلال الخصيب ومصر على شكل موجات بشرية عارمة متلاحقة كانت بدايتها سنة ٣٥٠٠ ق.م وأهمها موجتا:

(٢٢) شوفاني ص ٤٠.

١) الآشوريين والأكاديين في الألف الرابعة ق.م.

٢) الأموريين والكنعانيين والفينيقيين حوالي ٢٥٠٠ ق.م.

وقام الأموريون باستيطان سوريا (اليوم). والكنعانيون، وهم قبائل عربية، استوطنوا فلسطين (اليوم) وأنشئوا حضارة متقدمة، فكانت لهم حكومات ومؤسسات، وبنوا المدن وطوروا زراعة متقدمة، واستعملوا معدن البرونز، وقد شيدوا القصور والقلاع وحفروا الخنادق والأنفاق والقنوات لجر المياه. وأهم مدنهم يبوس (القدس لاحقًا) - شكيم (نابلس لاحقًا) - جازر (أبو شوشة لاحقًا)، بيسان. مجدّو - أريحا - عكا - يافا وغيرها؛ فقد وردت أسماء ١١٩ مدينة كنعانية على أعمدة هيكل الكرنك في الأقصر (مصر العليا).

أما الفينيقيون فاستوطنوا لبنان (اليوم) وأصبحوا سادة البحر الأبيض المتوسط.

٤– تبعت هذه الموجات موجات سامية أخرى أهمها:

الآراميون، المؤابيّون والعمونيون حوالي ١٥٠٠ ق.م.

الأنباط، اللخميون (المناذرة) والغساسنة خلال القرن الخامس م. وقد عاصروا عشية ظهور الإسلام، وبعضها عاصره.

استقر الأنباط في منطقة البتراء في شرق الأردن (اليوم).

اللخميون (المناذرة) وقد استقروا على التخوم الجنوبية الغربية من بلاد ما بين النهرين (العراق اليوم) تحت ظل الإمبراطورية الفارسية - الساسانية.

الغساسنة استقروا على تخوم بلاد الشام تحت ظل الإمبراطورية الرومانية البيزنطية.

٥– وقد تخلل هذه الموجات موجات بشرية من أعراق أخرى. ففي نهاية الألف الثانية ق.م هجرت قبائل مواطنيها الأصلية في شبه جزيرة البلقان (اليوم) وجزر بحر إيجه (اليوم) ومخرت عباب البحر الأبيض المتوسط وألقت مراسيها على الساحل السوري المصري. وقد أطلق العهد القديم (التوراة أو التناخ) [٢٣] على هذه القبائل اسم «القبائل السبع» و «الغزاة القادمين من البحر» [٢٤]. وكان أحد

(٢٣) التوراة – التناخ. תנ״ך– תורת נביאים כתובים وهو العهد القديم نفسه

(٢٤) جويي هيام. גויי הים

هذه الشعوب الفلسطينيين القادمين بحرًا من جزيرة كريت - كفتور [٢٥].

وقد ذكرت النقوش الهيروغليفية أن هذا الشعب اسمه بـ ل س ت - بلست Pelest الذي اشتق منه اسم «فلسطين» [٢٦] و«الفلسطينيين» [٢٧]، وباللاتينية بلستين Palestine وبليستا هي بلاد الفلسطينيين. وقد استقرت هذه الشعوب في القسم الجنوبي من السهل الساحلي الفلسطيني ابتداء من نهر العوجا (اليركون اليوم في منطقة رأس العين قرب مدينة يافا) حتى جنوب مدينة غزة.

وقد نجح الفلسطينيون في :

أ. إنشاء قوة عسكرية اعتمدت الأسلحة الحديدية والمركبات الحربية.

ب. إنشاء حضارة مزدهرة ترعرعت في المدن الفلسطينية: غزة، عسقلان، أسدود، عقرون، جت ويبنه.

ج. السيادة المطلقة على مسالك المواصلات البحرية في البحر الأبيض المتوسط حتى أن التوراة أطلقت عليه اسم «البحر الفلسطيني» وقد اختلط القادمون الجدد بالسكان الأصليين من الكنعانيين وغيرهم وأخذوا عنهم لغتهم بعد أن هجروا لغتهم الأصلية.

٦– وبين ١٤٠٠ –١٢٠٠ ق.م دخلت البلاد جماعات قبلية من أصول سامية وغير سامية أطلق عليها المؤرخون اسم العابرو أو العبرانيين. وربما كان من بينهم إبراهيم الخليل.

٧– والعرب المسلمون الذي فتحو بلاد الهلال الخصيب ومصر في المرحلة الأولى من الفتوحات في القرن السابع م.

على كلٍ، يمكننا التأكيد، بصورة لا تقبل الشك، أنه قبل أن تطأ أقدام العبريين أرض فلسطين، وقبل أن تنزل التوراة على موسى كانت الأرض مأهولة وعامرة بسكانها العرب على مختلف تسمياتهم. الكنعانيين، العمالقة، المؤابيين، الأموريين ... الخ ممن أوردت التوراة ذكرهم.

(٢٥) كفتور כפתים

(٢٦) بالأساس فلستين.

(٢٧) بالأساس فلستينيين.

وهذه الأقوام دخلت البلاد على شكل قبائل بدوية رحل، إلا أنها ما لبثت أن استقرت في مدن وقرى ثابتة، وانتظمت تحت حكم ملوك وأسست حضارة متقدمة امتدت من النهر إلى البحر.

وعلى هذا، فالإدعاء بالحق التاريخي للشعب اليهودي على فلسطين الذين قالت به الحركة الصهيونية مشكوك في أمره.

لأن العرب سبقوا اليهود في سكنى البلاد وتعميرها. واليهود، بالنسبة للوجود العربي، شعب وافد طارئ قدم إلى البلاد وأحتلها بالحديد والنار وفرض وجوده القسري على ترابها.

كذلك لم تعم الهيمنة والسيطرة والسيادة اليهودية على كافة أرجاء فلسطين من نهرها إلى بحرها، بل كانت سيطرتهم جزئية. [٢٨] [٢٩]

(٢٨) صفنيا ٢ – ٥.

(٢٩) الدباغ مصطفى: بلادنا فلسطين ج ١ ق. ص. ٤١٤.

■ إبراهيم الخليل

وتذكر التواريخ القديمة أنه قدم على المنطقة حوالي سنة ١٨٠٠ ق.م قادم جديد، ولا يعتبر هذا القادم موجة هجرة، فقد اقتصر على شخص واحد، هو إبراهيم الخليل، مع أهل بيته فقط. وقد شكل هذا القدوم مفصلاً مصيريًا في تاريخ أرض كنعان، فاليهود اعتبروه جدهم الأول وهم يتحدَّرون من صلبه، فمن هو هذا الوافد؟

أصله من الآراميين الذين استوطنوا بلاد الشام ثم هاجر قسم منهم إلى بلاد ما بين النهرين (العراق اليوم) حيث أسسوا مملكة بابل جنوب البلاد (في منطقة شط العرب اليوم)، فإبراهيم لم يكن عبرانيًا، وإنما آرامي (سرياني) كما ذكر العهد القديم «ثم تصرح وتقول أمام الرب إلهك: آراميا تائهًا كان أبي» [٣٠].

غادر إبراهيم مع زوجه سارة وابن أخيه لوط ووالده وأموالهم ومتاعهم وأنعامهم مدينة أور وتوجهوا شمالاً ونزلوا محطتهم الأولى «حران» أو «حاران» (قرب مدينة أورفة التركية الواقعة على رافد نهر بليخ وهو أحد روافد نهر الفرات). وفي حران توفى والده فقام بدفنه، ثم واصل رحلته إلى أرض كنعان (فلسطين) فنزلها وحطّ رحاله في مدينة شكيم (نابلس اليوم).

والسؤال: لماذا قضى الرب باقتلاع إبراهيم من وطنه ليغرسه ونسله في وطن جديد عامر بأهله، مزدهر حضارته؟

المصدران الرئيسيان لسيرة إبراهيم هما العهد القديم والقرآن الكريم، ولكن صورة إبراهيم تختلف في كل منهما تمام الاختلاف من البداية حتى النهاية.

فمن البداية تظهر الفوارق شاسعة عميقة، فالعهد القديم ينسب إبراهيم لوالده تارح [٣١]، حين ينسبه القرآن الكريم لوالده آزر [٣٢]. وقد أورد الجلالان في تفسيرهما أن اسم الوالد تارح، أما آزر فهو لقبه. وقد أطلق الاسمان على شخص واحد.

(٣٠) تثنيه ٥ – ٢٦

(٣١) تكوين ٢٧/١١.

(٣٢) في آية ٧٤ سورة الأنعام تفسير الجلالين ص ١٨١.

مع تقدم السيرة يكشف العهد القديم إبراهيم أنه أبو اليهود المتحدرين منه ومن زوجه سارة، كما هو جد الإسماعيليين العرب المتحدرين منه ومن زوجه هاجر. ولكن شتّان ما بين الزوجين والولدين. فالأولى هي الأثيرة، ربة الحسب والنسب والحظوة. وهي مولاه هاجر، الجارية المصرية المستوردة من منطقة الفرما (بورسعيد اليوم) لغرض الذرية والإنجاب. وقد ولدت سارة إسحق في حسن ولدت هاجر إسماعيل. وإسحق هو الابن الأثير والوارث الحقيقي لوالده، في حين ليس إسماعيل إلا ابن الجارية. وإسحق هذا هو والد يعقوب (إسرائيل) الذي أنجب أولادهم روبين، شمعون، لاوي، يهودا، يساكر، زبولون، يوسف، نفتالي، جاد، آشر ودان وهم آباء الأسباط.

أما القرآن فلا يضفي على إبراهيم صفة النبوة وحسب، وإنما هو أبو الأنبياء كامل الصفات، مطلق الإيمان بالله، فهو يبدأ من نعومة أظفاره في البحث عن الخالق.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٧٤} وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ{٧٥} فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ{٧٦} فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ{٧٧} فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ{٧٨} إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{٧٩}[٣٣].

واهتدى إلى وحدانية الله، فدعا قومه وقوم نمرود إلى الإيمان بالله وحده، ولكنهم أبوا الاستماع ورفضوا الدعوة وجعلوا أصابعهم في آذانهم وأصروا واستكبروا استكبارا.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ{٥١} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ{٥٢} قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ{٥٣} قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٥٤} قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ{٥٥}

(٣٣) سورة الأنعام آية ٧٤-٧٩ وتفسير الآية الكريمة في الجلالين ص ١٨١.

قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ{٥٦} وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ{٥٧} فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ{٥٨} قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ{٥٩} قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ{٦٠} قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ{٦١} قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ{٦٢} قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ{٦٣} فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ{٦٤} ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ{٦٥} قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ{٦٦} أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ{٦٧} قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ{٦٨} قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ{٦٩} وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ{٧٠} وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ{٧١}[٣٤]

على كل انتقل إبراهيم وأهله إلى أرض كنعان فحل أول الأمر في مدينة شكيم (نابلس اليوم).

ثم أخذ ينتقل في المنطقة الواقعة بين مدينة حبرون (الخليل اليوم) وبئر السبع. أما لوط ابن أخيه فقد استقر في سدوم على الشاطئ الغربي للبحر الميت. في حبرون أسلمت سارة روحها، ولم يلبث أن لحق بها زوجها ودفن الاثنان في مغارة المكفيلة (في الحرم الإبراهيمي اليوم)، التي كان أبتاعها إبراهيم من عفرون الحثي بأربعمائة من شواقل الفضة.

وقبل وفاة الزوجين تكشف لنا التوراة مشهد إبراهيم وهو ينصع لسارة فيطرد زوجه المستضعفة هاجر وولده الضعيف إسماعيل إلى المناطق القصيّة وراء الصحاري النائية المقفرة. وهنا يهيئ الله لهما سبل المعيشة، ويقوم إبراهيم وولده إسماعيل برفع قواعد البيت العتيق الكعبة.

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{١٢٧} رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{١٢٨}[٣٥].

(٣٤) م.س سورة الأنبياء ٥١-٧١.

(٣٥) م.س سورة البقرة ١٢٨-١٢٩

وكانت هاجر وولدها قد لقيا العسف والظلم والهوان قبل الطرد، فقد تدهور وضعهما وانحطت مكانتهما إلى الحضيض، بعد أن تمكنت سارة من الإنجاب.

ومن هنا لابد أن يتمتع ابنها، ولد السيد والسيدة، بالمنزلة الأثيرة والأفضلية في الحقوق والميراث في حين تقتصر مهمة ابن الجارية على «الحلب والصر» فلا عجب إذن أن نجد المصادر اليهودية تفتخر وتتباهى بإسحق وابنه أبوين للأمة العبرية في حين تغفل أمر أخيه ابن الجارية.

أما الميراث الموعود فليس بالقليل، فحين غادر إبراهيم أرض الكلدانيين إلى أرض كنعان لم يعده «الرب يهوا» بتملك الأرض الجديدة وحسب، بل أبرم معه عهدًا وعقدًا غير قابل للنقض بذلك، وكأنه سبحانه وتعالى، وكيل عقارات يعقد صفقة تجارية.

ثم أغدق الرب عليه وعلى نسله المنح والبركات والعطايا. والرب يهوا لا يخفي أن العهد المقطوع لم يكن إلا لإبراهيم ونسله من إسحق، لا لإسماعيل ونسله قال الرب:

أما أنا فهو ذا عهدي لك: وتكون أبا الجمهور من الأمم.

ولا يدعى اسمك بعد إبرام، بل سيكون اسمك أبراهام.

لأني أجعلك أبا الجمهور من الأمم.

وأثمرك كثيرًا جدًا وأجعلك أممًا.

وملوك منك يخرجون.

وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدًا أبديًا لأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدك.

وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكًا أبديًا وأكون إلههم.

وقال الله لإبراهيم: وإما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك في أجيالهم هذا هو عهدي الذي تحفظون بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك يختن منكم كل ذكر ... فيكون علامة بيني وبينكم ... فيكون عهدي في لحمكم عهدًا أبديًا.

وقال الله لإبراهيم: ساراي امرأتك فلا تدعوها ساراي بل سارة وأباركها وأعطيك أيضًا منها ابنًا.

أباركها فتكون أممًا، وملوك شعوب يكونون منها.

..... وقال إبراهيم ليت إسماعيل يعيش أمامك.

فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابنًا وتدعو اسمه إسحق.

وأقيم معه عهدًا أبديًا لنسله من بعده.

وأما إسماعيل فقد سمعت لك به.

ها أنا أباركه وأثمّره وأكثّره كثيرًا جدًا.

اثني عشر رئيس بلد، واجعله أمة كبيرة.

ولكن عهدي أقيمه من إسحق الذي تلده لك سارة.

في هذا الوقت من السنة القادمة (٣٦).

وهكذا قضت مشيئة الرب يهوا: الملك، العهد، الوعد، والميثاق لإسحق. أما إسماعيل فليس له إلا البركة وكثرة النسل ... وحسبه ذلك!

وحين قطع الرب عهده بمنح كل أرض كنعان ملكًا أبديًا لنسل إبراهيم من سارة لا يغيب عن ذهنه تحديد تخومها.

«لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

كما لا ينسى ذكر تلك الشعوب المحكوم عليها إلهيًا بالتشرد، الاقتلاع، العبودية أو الإبادة الجماعية وهذه الشعوب هي :

القينيين، القنزيين، القدوميين، الحيثيين، الفرزيين، الرفائيين، العموريين، الكنعانيين، الجرجاشيين، واليبوسيين (٣٧).

عشرة شعوب بالتمام والكمال لا يزيدون ولا ينقصون ... ولم يكتف «يهوا» بتعهد عام، بل لم تفته أدق التفاصيل فقد تعهد لإبراهيم ونسله (من إسحق) بـ :

- ✯ منحه أرض كنعان كاملة.
- ✯ جعله أمة كبيرة عظيمة.
- ✯ منحه البركات والتوفيق.
- ✯ محاربة أعدائه وإنزال لعناته عليهم تلاحقهم ليل نهار.
- ✯ جعله بركة لجميع شعوب الأرض.

---

(٣٦) تكوين ١٧.

(٣٧) م.س ١٥.

وقال الرب:
أذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك.
وأجعلك أمة عظيمة.
وأباركك وأعظم أسمك وتكون بركة.
وأبارك مباركيك.
وألعن لاعنيك.
وتتبارك بك جميع شعوب الأرض [٣٨].

وتنطوي صفحة من حياة إبراهيم لتتفتح صفحة أخرى تتكشف فيه المزيد من نواحي شخصيته التوراتية: تحزبه وانحيازه وانقياده الأعمى لسارة وابنها. وينعكس ذلك بالاستسلام الأعمى المطلق لنزوات الزوج وطلباتها المفرطة، حتى وأن سببت الكوارث للغير:

«ولما ينست سارة من الحمل دفعت بجاريتها المصرية هاجر إلى فراش إبراهيم فأخذت ساراي امرأة إبرام هاجر المصرية، من بعد عشر سنين لإقامة أبراهم في أرض كنعان، أعطتها لإبرام رجلها زوجة له».

فدخل على هاجر فحبلت ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينيها وقالت ساراي لإبرام ظلمي عليك أنا دفعت جاريتي إلى حضنك يقضي الرب بيني وبينك.
وقال إبرام لساراي: هو ذا جاريتك في يدك أفعلي بها ما يحسن في عينيك.
فأذلتها ساراي فهربت من وجهها.
فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية التي في طريق شور.
فقال: يا هاجر جارية ساراي: من أين أتيت وإلى أين تذهبين؟
قالت : أني هاربة من وجه مولاتي ساراي.
فقال لها ملاك الرب: ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها.
وقال لها ملاك الرب: تكثيراً، أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة.
وقال لها ملاك الرب: ها أنت حبلى فتلدين ابنًا وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع قولك.

(٣٨) م.س ١٢.

وأن يكون إنسانًا وحشيًا.
يده على كل واحد
ويد كل واحد عليه
وأمام إخوته يسكن [٣٩].

وتكشف لنا التوراة: صفحة جديدة من «مآثر إبراهيم».
المتاجرة بزوجته سارة:
وحدث جوع في الأرض فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرّب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديدًا وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته.
أني علمت أنك امرأة حسنة المنظر.
ويكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأتي فيقتلونني ويستبقونك. قولي أنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك.
فحدث، لما رحل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدًا ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إبرام خيرًا بسببها.
وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال.
فضرب الرب فرعون في بيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة إبرام فدعا إبرام وقال: ما هذا الذي صنعت بي.
لماذا لم تخبرني أنها امرأتك.
لماذا قلت: أختي، حتى أخذتها لتكون زوجتي.
فالآن: هو ذاك امرأتك، خذها واذهب.
فأوصى فرعون رجلا فشيّعوه وامرأته مع كل ما كان له [٤٠].

ويتكرر التصرف «الأخلاقي» إبرام يقدم زوجه ساراي إلى آخر، هو أبيمالك ملك جرار بصفتها شقيقته.
انتقل إبرام من هناك إلى أرض الجنوب ...

(٣٩) م.س ١٢.
(٤٠) م.س ١٢.

وتغرّب في أرض جرار. وقال إبرام عن سارة امرأته: هي أختي.

فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة.

فجاء الله إلى أبيمالك في حلم الليل.

وقال ها أنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها، فإنها متزوّجة ببعل.

ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب إليها.

فقال يا سيد: أ أمة بارة نقتل.

ألم يقل لي أنها أختي، وهي نفسها قالت هو أخي.

بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا.

فقال الله له في الحلم:

وأنا أيضًا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا وأنا أيضًا، أمسكتك عن أن تخطئ إليَّ، لذلك لم ادعك تمسّها فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبي فيصلي لأجلك فتحيا، وإن كنت لست تردّها فاعلم أنك موتا تموت أنت وكل من لك [٤١].

وغداة اليوم التالي أمر الملك بإحضار إبرام للاستجواب.

ثم دعا أبيمالك إبراهيم وقال له ماذا فعلت بنا.

وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت عليّ وعلى مملكتي خطيئة.

أعمالاً لا تعمل عملت بي.

... فقال إبراهيم إنّي قلت ليس في هذا الموضع خوف الله البتّة فيقتلونني من أجل امرأتي وبالحقيقة أيضًا هي أختي ابنة ابي غير أنها ليست ابنة أمي فصارت لي زوجة، وحدث لما أنا فيه الله من بيت أبي قلت لها هذا معروفك الذي تصنعين إليّ. في كل مكان نأتي إليه قولي عني: هو أخي [٤٢].

وفي هذه المرة أيضًا يقوم الملك بإغداق صلاته وعطاياه على إبراهيم وسارة.

غنمًا وبقرًا وعبيدًا وإماءً.

وردّ الزوج المصون سارة لزوجها وصرفهما.

---

(٤١) م.س ٢٠.

(٤٢) م.س ٢٠.

وتتابع الأحداث في سيرة إبراهيم لتصل الذروة في الامتحان الرهيب الذي يقضي بذبح الابن ويتفق كل من القرآن والتوراة على الحدث. ولكنهما يختلفان على شخصية الضحية ومكان الحدث.

فالتوراة تقول أن الابن هو إسحاق والقرآن يقول، بل إسماعيل. والتوراة تقول أن المكان جبل الموريا في أورشليم. والقرآن الكريم لا يذكر اسم مكان بعينه. وقد ذكر تفسير الجلالين ص ٥٩٥ «(اختلف في الموضع الذي أراد ذبحه، فقيل هو في مكة في المقام، وقيل في المنحر بمنى عند الجمار، وقيل على الصخرة التي بأصل جبل ثبير وقيل بالشام».

وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم. فقال له إبراهيم. تعال ها آنذا. فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحق واذهب. إلى أرض الموريا واصعد هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك [٤٣].

ولكن الله قدّر وعفا وفداه «بذبح عظيم».

ولم تتأخر مكافأة الرب فأغدق على الأب والابن البركات والوفرة العددية وحيازة أراضي العدو، مميزاً، بني إسرائيل عن غيرهم من شعوب الأرض ومانحًا إياهم المنزلة المفضلة. ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال. بذاتي أقسمت يقول الرب: إني من أجل أنك فعلت. هذا الأمر، ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك. مباركة، وأكثر نسلك كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر، وليرث نسلك باب أعدائهم.

ويتبارك بنسلك جميع أمم الأرض [٤٤].

أما القرآن فلا يفصح بالاسم عن الضحية، ولكن يفهم ذلك من خلال النص، فالابن الوحيد في تلك الفترة لم يكن إلا إسماعيل لأن إسحق لم يكن قد ولد بعد.

{ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ{١٠٢} فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ{١٠٣} وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ{١٠٤} قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي

---

(٤٣) م.س ٢٢.

(٤٤) م.س ٢٢.

الْمُحْسِنِينَ{١٠٥} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ{١٠٦} وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ{١٠٧} وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ{١٠٨} سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ{١٠٩} كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{١١٠} إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ{١١١} وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ{١١٢} وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ{١١٣} (٤٥).

ويأتي المشهد الأخير، فقبل أن يسدل الموت ستائره على إبراهيم يملي وصيته الأخيرة:

وأعطى إبراهيم إسحق كلّ ما كان له.

وأما بنو السراري اللواتي كنّ لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا.

وصرفهم عن إسحق شرقا إلى أرض المشرق وهو بعد حيّ.

أي لإسحق كل شيء، ولباقي الأخوة من أبناء السراري عطايا، تلاها طرد ونفي وإجلاء. وخلا الجو لإسحق وحده وتوفى إبراهيم بعد أن اطمأن وطابت نفسه واستراح ضميره!.

أما القرآن الكريم فينهي حياة إبراهيم بـ :

{ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{٦٧} (٤٦).

---

(٤٥) سورة الصافات ١٠١-١١٣.

(٤٦) م.س سورة آل عمران ٦٧.

■ الرب «يهوا» وشعبه الأثير

إن شالتميز والأفضلية اللذين حظى بهما إسحق وابنه يعقوب (إسرائيل) في حياتهما استمروا في نسلهما، فالعهد القديم يؤكد ويكرر أن الرب «يهوا» قد اصطفى بني إسرائيل وفضلهم على سائر شعوب الأرض. فبنو إسرائيل يتبوءون القمة، في حين يقبع باقي شعوب الأرض في المنزلة الدنيا.

وأهمية العهد القديم في هذا المجال أنه شكل الأساس الإيديولوجي والنمط الفكري والسلوكي للحركة الصهيونية في الفترة اللاحقة.

أن الرب يهوا لا يتوانى عن نصرة شعبه ومساندتهم في الشدة والرخاء، في السرّاء والضرّاء وحين البأس.

وهنا يكمن السؤال: هل هذا الرب عالمي لكافة شعوب العالم، أم هو رب بني إسرائيل وحدهم؟ أهو رب العالمين أم رب قبيلة؟

في المنظور اليهودي للتاريخ، وبالتالي لعلاقة الله بالكون وشعوبه، تبرز فكرة شعب الله المختار الذي اصطفاه الله ليحمل رسالته، وهو يحظى بسمات خاصة تميزه عن الآخرين، وهذا الاختيار الإلهي يضفي على اليهود صفة القدسية التي لا تملكها غيرهم من الشعوب «لأنك شعب مقدس للرب إلهك ... وقد اختارك الرب لتكون له شعبًا خاصًا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض» (٤٧).

وفي المنظور الطوباوي يرتبط اختيار الشعب باختيار الأرض، إذ أن للشعب المختار أرضه المختارة، هي أرض الميعاد، التي وعد الله إبراهيم بها ووعده، أن تكون لنسله من بعده وهم سيعودون إليها تحت راية المشيح في آخر الزمان.

والتوراة لا تكتفي بأن تعرض لنا صورة جليّة واضحة عن الرب يهوا وشعبه المفضل المختار، بل نراها، حتى قبل بداية التاريخ اليهودي، وقبل إبراهيم وعصره، تخلق المسوغات والمبررات لاغتصاب أرض كنعان من أصحابها، وتبيح سلبها وتشريد سكانها (٤٨).

---

(٤٧) تثنية ٢/١٤

(٤٨) شوفاني ص ص ٣٠٩-٣١٠.

فبعد انحسار طوفان نوح، كما يروي العهد القديم، خرج نوح ومن معه من الفلك ونزلوا اليابسة.

وهناك كانت الصدمة الأولى لكنعان ونسله!

وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك:

سامًا وحامًا ويافث. وحام هو أبو كنعان.

وابتدأ نوح يكون فلاحًا، وغرس كرمًا وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه.

فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه.

وأخبر إخوته خارجًا، فأخذ سام ويافث رداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما، ووجههما إلى الخلف فلم يبصرا عورة أبيهما فلما استيقظ نوح من خمره وعلم ما فعل ابنه الصغير فقال:

ملعون كنعان! عبد العبيد يكون لإخوته وقال! مبارك الرب إله سام.

وليكن كنعان عبدًا لهم (٤٩).

ففي الفتنة الأولى بعد الطوفان يبدأ نوح، كما ورد في المنظور التوراتي، بلعن أحد أبنائه ومباركة الآخرين.

ثم يقوم بتصنيفهم بين ملعون، يبقى عبدًا لأخويه، ومبارك يظل سيدًا مطاعًا.

وكان من الطبيعي أن يرجع بنو إسرائيل بجذورهم وبأصلهم إلى الابن المبارك وليجعلوا أصحاب الأرض الكنعانيين أبناء الابن المعلون كنعان! (٥٠).

بعد أن اصطفى يهوا شعبه المختار بدأ الشعور بالتفرّد والتميّز يتجذّر في أعماق الشخصية اليهودية. ألم تنص التوراة:

اتخذتكم لي شعبًا وأكون لكم إلهًا.

وتكونوا لي خاصّة من شعوب الأرض.

ألم يخلق هذا الأمر، في تلك الشخصية الشعور بالأفضلية، التميّز.

والالتزام بحمايتهم ورعايتهم، فيظهرهم على الأغيار ويملكهم أراضيهم وممتلكاتهم و... رقابهم.

---

(٤٩) تكوين ٩.

(٥٠) كنعان جورجي – العنصرية اليهودية ص ٣٢.

أما موسى فصعد إلى الله فناداه الرب من الجبل قائلاً.

هكذا تقول لبيت يعقوب وتخبر بني إسرائيل.

أنتم رأيتم ما فعلت بالمصريين، وأنا حملتكم على أجنحة النسور.

وجئت بكم إليّ، فالآن إن سمعتم بصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع شعوب الأرض، فإنه في كل الأرض.

وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدّسة، هذه هي الكلمات التي تكلم بها بني إسرائيل (٥١).

ومن هنا برزت صفة أخرى ميّزت التاريخ اليهودي: النظرة الفوقية الاستعلائية والتوجه العدائي لسائر شعوب الأرض من الأغيار: الحياة في نظرهم استقطاب:

بنو إسرائيل والأغيار، علاقة تناحر وعداء وسيادة وعبودية من ناحية وعلاقة تعاطف ومساندة وتلاحم فيما بين بني إسرائيل أنفسهم.

إذا أفتقر أخوك وقصرت يده عنك فأعضده غريبًا أو مستوطنًا فيعيش معك.

ولا تأخذ منه ربًا، ولا مرابحة بل أخش إلهك فيعيش أخوك معك.

إذا أفتقر أخوك وبيع لك فلا تستعبده كأجير، كنزيل يكون عندك إلى سنة اليوبيل يخدم عندك، ثم يخرج من عندك هو وبنوه معه ويعود إلى عشيرته، وإلى ملك آبائه يرجع..

وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم بينهم تقتنون عبيدًا وإماءً.

وأيضًا أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم يلدونهم في أرضهم فيكونون ملكًا لكم وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك تستعبدونهم إلى الدهر، أما إخوانكم بنو إسرائيل فلا يتسلّط إنسان على أخيه بعنف (٥٢).

فللأخوة: المساندة، العطف، وللأغيار: السيف، والحديد، والنار.

إنه نهج نحن وهم، نحن الحق وهم الباطل. نحن محور الخير وهم محور الشر.

---

(٥١) خروج ١٩.

(٥٢) لاوين ٢٥.

إنها سياسة العنف مع الغريب التي لم تولدّها المصلحة العامة لبني إسرائيل فقط، وإنما كانت أمرًا ربانيًا وفرضًا سماويًا مباشرًا أيضًا أملاهما ربّ غيور منحاز.

وقد برز النهج المذكور في الفترة المبكرة من تاريخ بني إسرائيل حتى قبل أن تطأ أقدامهم أرض الميعاد؛ ففي تيه سيناء يقص علينا سفر العدد (٣١/ ٧-١٨) نبأ المذابح التي ارتكبها بنو إسرائيل ببني مديان بأوامر مباشرة من «يهوا» وموسى.

وقد امتثل بنو إسرائيل للأوامر الربانية والنبوية وهاجموا وذبحوا الذكور وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا المواشي والممتلكات وأحرقوا الأرض وعندما عادوا، وهم غارقون بالدماء وغنائم الحرب، سخط عليهم النبي، لماذا؟

فلقد كان أمرهم ربهم رب الجيوش ونبيه موسى

انتقم نقمة لبني إسرائيل ثم انضم إلى قومك.

فكلم موسى الشعب قائلاً:

جرّدوا منكم رجالاً فيكونوا على مديان ليجعلوا نقمة الرب على مديان فتجندوا على مديان، كما أمر الرب، واقتلوا كل ذكر، وملوك مديان، قَتِلُوهم فوق قتلاهم. وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار التي أعطاك الرب إلهك.

هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جدًا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرّمها تحريمًا (٥٣).

وعاد المنتصرون، وهم غارقون في دماء الضحايا ينوءون بالغنائم ومثلوا بين يدي موسى.

وقال لهم موسى هل أبنيتم كل أنثى حية. إن هؤلاء كنّ لبني إسرائيل. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر. اقتلوها. لكن جميع الأطفال من النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر ابقوهنّ لكم حيّات(٥٤).

(٥٣) تثنية ٢٠/١٠ – ١٨.

(٥٤) عدد ٣١/١٥ – ١٨.

وفي التيه، وعلى أحضان مثل هذه الدموية، تبلورت شخصية بني إسرائيل وتشكّل وعيها الذاتي على أساس الاختيار الإلهي والتمايز عن بقية الشعوب، وشريعة موسى تبلورت بعد الخروج من مصر أثناء التجوال الطويل قبل الدخول إلى أرض كنعان.

وفي وادٍ من أودية سيناء، يعد الرب يهوا موسى بالوطن اليهودي.

إنما أنا الرب إلهكم الذي يخرجكم من تحت أثقال المصريين وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وأعطيكم إياها ميراثًا. أنا الرب وفي مكان آخر «الرب إلهنا كلّمنا في حوريب قائلاً:

كفاكم قعودًا في هذا الجيل تجوّلوا وادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من العربة والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر أرض كنعان ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات.

انظر قد جعلت أمامكم الأرض.

ادخلوا وتملّكوا الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم» (٥٥).

- **فكرة الوطن اليهودي :**

ومن هنا تنشأ فكرة الوطن عند بني إسرائيل. فالوطن هنا بلاد لم ينشأ فيها بنو إسرائيل ولم يتوارثوها جيلًا بعد جيل شأن سائر الشعوب في أوطانها، وإنما الوطن عندهم عبارة عن فكرة الاحتلال والاستيطان. وقد نشأت عن فكرة مؤداها: إن الإله وعدهم بأرض كنعان وطنًا لهم.

هذه، لا شك، حالة وحيدة في التاريخ أو قل حالة شاذة لأن المتعارف عليه أن تنشأ مجموعة من الناس، في أرض. أما بنو إسرائيل فقد ظهروا إلى الوجود أولاً ثم اتّجهوا إلى رقعة أرض كوطن لهم ثانيًا. فعندهم فكرة الوطن تأتي أولاً ثم يأتي الوطن الجغرافي ثانيًا. على كل حال تروي لنا التوراة أنه بعد تيه أربعين عامًا في قفار سيناء وبراريها أوصل النبي موسى قومه إلى المشارف الشرقية

(٥٥) تثنية ١/٨

لأرض كنعان. وقبل أن تطأ قدماه ترابها توفاه الله على جبل «نبّو» وخلفه في قيادة بني إسرائيل يشوع بن نون، وكان من قادة موسى وشريكه في جميع أعماله، ومن جملة الجواسيس الذين أرسلهم إلى أرض كنعان (٥٦).

■ الاستيلاء على أراضي الغير بالقوة:

إن نهب الأراضي ومصادرة أملاك الغير ليست ظاهرة جديدة وإنما لها جذور تاريخية - دينية عميقة. ويمكن اعتبارها أمرًا دينيًا يقارب الفريضة. وقد تكرر في العهد القديم «وكلم الرب موسى في عربات موآب على أردن أريحا قائلاً كلم بني إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون سكان الأرض من أمامكم وتمحون كل تصاويرهم وتبعدون أصنامهم المسبوكة وتخربون كل مرتفعاتهم وتملكون الأرض وتسكنون فيها لأني قد أعطيتكم الأرض لكي تملكوها وتقتسمون الأرض بالقرعة حسب عشائركم. وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا في أعينكم ومناخس في جوانبكم ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها ». عدد ٥٨/٢٢.

كذلك «كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم» تثنية ٢٢/١١.

وكذلك «إن الأرض التي وطئتها رجلك لكم تكون نصيبًا» يشوع ٩/١٤.

كذلك حين خاطب الرب يشوع بن نون بعد موت موسى «موسى عبدي قد مات فالآن اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لكم كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيتها» يشوع ٣/١.

■ بنو إسرائيل يجتاحون أرض كنعان:

في اللحظات الأخيرة التي سبقت الاجتياح أصدر يهوا أمر الساعة!

متى أتى الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل لتتملكها وطرد شعوبًا كثيرة أمامك ... سبع شعوب أكثر وأعظم منك ووضعهم الرب إلهك أمامك وضربهم.

فأنت تحرّمهم لا تقطع لهم عهدًا ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم فبنتك لا تعطي

(٥٦) كنعان ص ٦٠.

لابنه. وبنته لا تأخذ لابنك لأنه يردّ ابنك من ورائي فيعبد آلهة أخرى فيحق غضب الرب عليكم ويهلككم سريعًا.

ولكن هذا تفعلون بهم: تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخصّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.

ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب.

بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسمه لآبائكم (٥٧)..

وعشية الاجتياح لا يكرّر أوامره النهائية التي يتوجّب تنفيذها حين المواجهة مع سكان البلاد:

وإذا خرجت إلى الحرب على عدوك ورأيت خيلاً ومراكب.

قومًا أكثر منك فلا تخف منهم لأن معك الرب الذي أصعدك من أرض مصر.

وعندما تقتربون من الحرب يتقدم الكاهن ويخاطب الشعب.

ويقول لهم اسمع يا إسرائيل.

أنتم قد قربتم اليوم من الحرب على أعدائكم.

لا تضعف قلوبكم.

ولا تخافوا ولا ترتعدوا ولا ترهبوا وجوههم.

لأن الرب إلهكم سائر معكم لكي يحارب عنكم أعداءكم ليخلّصكم (٥٨).

وبعد سطور:

«حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح.

فإذا أجابتك للصلح وفتحت لك.

فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك.

وإذا لم تسالمك، بل عملت معك حربًا فحاصرها.

وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف.

(٥٧) تثنية ١/١٧

(٥٨) م.س ٤/١٠.

وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة.
كل غنيمة فتضمنها لنفسك.
وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك.
هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدًا، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا.
وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك.
نصيبًا فلا تستبق منهم نسمة ما» (٥٩).

وبدأ الاجتياح الدموي لأرض كنعان مصحوبًا بالويل والثبور وعظائم الأمور.

وتستمر ألسنة اللهب آتية على الأخضر واليابس، وتهوي الأسلحة الفتاكة مجرية الدماء انهارًا والدموع مدرارًا ... والويل للمهزوم!

ونقرأ تفاصيل حمامات الدم المسفوح، في سفر «يشوع»، سفر المذابح، والبداية مدينة أريحا.

- **سقوط أريحا ١١٨٦ ق.م:**

وتسقط المدينة بيد الغزاة، وتذوق الأمرّين: مجزرة جماعية، إبادة عامة تقضي على كل حي:
الرجال والنساء والشيوخ والأطفال والعجزة، المرضى والأصحاء باستثناء ... رحاب الزانية التي آوت جاسوسي يشوع بن نون اللذين دخلا البلاد يجوسانها لكشف عوراتها.
«صعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة.
وحرّموا كل ما في المدينة، من رجل وامرأة، من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير، بحدّ السيف ... ثم أحرقوا المدينة بالنار مع كل ما فيها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس جعلوها في خزانة الرب (٦٠).

وبعد إبادة كل من فيها وما عليها قام يشوع بصب سيل لعناته مصحوبة ببركات يهوا وحلف يشوع في ذلك اليوم قائلاً: ملعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبني

---

(٥٩) م.س ٤/١٠.
(٦٠) يشوع ٢١/٦.

هذه المدينة أريحا وكان الرب مع يشوع» (٦١).

وأضحت أريحا مثلاً وعبرة لمن يعتبر

- **وعـاي:**

وبعد أريحا يأتي دور عاي (قرب دير دابون شمال شرق رام الله اليوم). وهنا نجد يهوا يشمّر عن ساعديه وساقيه وينزل من عليائه ليشترك شخصيًا في المعركة و... المذبحة فنراه يرسم الخطط العسكرية وتكتيك القتال:
انسحاب وهمي بغية استدراج العدو ثم الإيقاع به في كمين محكم. ونجحت الخطة وسقطت المدينة واستبيحت وحرّمت.
«وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل والبرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعًا بحدّ السيف حتى فنوا.
إن جميع إسرائيل رجع إلى عاي وخربوها بحد السيف..
وكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثنى عشر ألفاً: جميع أهل عاي ويشوع لم يردّ يده حتى حرّم جميع أهل عاين لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها بنو إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذي أمر به يشوع
وأحرق يشوع عاي وجعلها تلاً أبديًا خرابًا إلى هذا اليوم.
وملك عاي علّقه على الخشب إلى وقت المساء.
وعند غروب الشمس أمر يشوع فانزلوا جثته عن الخشبة وطرحوها عند مدخل المدينة وأقاموا عليها رجمة حجارة عظيمة في هذا اليوم» (٦٢).

- **وجبعون:**

بعد ذلك يجيء دور جبعون وقصتها عجيبة غريبة:
حاول أهالي جبعون تجنب المصير المرير الذي ينتظرهم، فتحايلوا على يشوع يطلبون الأمان فأمنهم، على أنهم ليسوا من سكان أرض الميعاد، بل هم غرباء من خارجها. وعندما اكتشف خطأه لم يعد بامكانه التراجع وإلغاء الأمان الذي

---

(٦١) م.س ٢٦/٦ – ٢٧.
(٦٢) م.س ٢٣/٨ – ٢٨.

قطعه لهم فاكتفى بلعنهم. والقصة كما أوردتها التوراة.

« فقال رجال إسرائيل للحويين: لعلك ساكن وسطي فكيف أقطع لك هذا؟

فقالوا ليشوع: عبيدك نحن!

فقال يشوع: من أنتم؟ ومن أين جئتم؟

فقالوا: من أرض بعيدة جدًا، جاء عبيدك على اسم الرب الهك [٦٣].

وعندما اكتشف الخدعة صاح: ملعونون أنتم، فلا ينقطع منكم العبيد ومحتطبو الحطب وسقاءو الماء لبيت الاهي. وجعلهم يشوع ذلك اليوم محتطبي حطب وسقائي ماء للجماعة ولمذبحة الرب إلى هذا المكان الذي يختاره [٦٤].

- **وحاصور:**

وارتد يشوع إلى حاصور [٦٥].

«ثم رجع يشوع في ذلك الوقت وأخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف لأن حاصور كانت قبلاً رئيس جميع تلك الممالك.

وخربوا كل نفس بها؛ بحد السيف حرّموهم.

ولم تبق نسمة. واحرقوا حاصور بالنار.

فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكهم وضربهم بحد السيف.

حرّمهم كما أمر موسى عبد الرب.

غير أن المدن القائمة على تلالها لم يحرقها بنو إسرائيل ما عدا حاصور وحدها أحرقها يشوع. وكل غنيمة تلك المدن والبهائم نهبها بنو إسرائيل لأنفسهم [٦٦].

وأما الرجال فضربوهم جميعًا بحد السيف أبادوهم ولم يبقوا نسمة كما أمر الرب موسى عبده هكذا أمر موسى يشوع «وهكذا فعل يشوع لم يهمل شيئًا من كل ما أمر به الرب موسى [٦٧].

---

(٦٣) م.س ٩/ ٦ – ٩.

(٦٤) م.س ٩/ ٢٣.

(٦٥) حاتسور חצור

(٦٦) يشوع ٩/ ١٠ – ١٤.

(٦٧) م.س ٩/ ١٠ – ١٥.

- **وباقي البلاد:**

ويستمر سفر يشوع بإصحاحاته الأربعة والعشرين مفصلاً عملية الاجتياح المصحوبة بألسنة اللهيب وأنهار الدماء وشلالات الدموع واستباحة المحرمات، وخيّم على أرض كنعان الدمار والموت.

نجح الغزاة في الاستيلاء على أقسام كبيرة من أرض كنعان، خصوصًا داخل البلاد، في حين بقيت أورشاليم بيد اليبوسيين العرب والساحل بيد الفلسطينيين القادمين من جزيرة كريت [٦٨].

- **بداية التاريخ الحقيقي لبني إسرائيل:**

والمهم في هذا الاجتياح أنه كان نقطة البداية في التاريخ الحقيقي لبني إسرائيل. ويؤكد على هذا الرأي الان ديبو الذي توصل إلى نتيجة أن الشعب اليهودي لم يتبلور كشعب إلا بعد استقراره في أرض كنعان، وأن اتحاد الأثنى عشرة قبيلة في كيان واحد لا يبدو ظاهرة ذات أثر إلا بعد أن احتلت هذه القبائل أراض كنعانية. فالتاريخ الحقيقي لبني إسرائيل لم يبدأ إلا على أرض كنعان، وقبل ذلك كانوا قبائل متفرقة منفصلة، ولكل قبيلة نهجها ومخطط معيشتها. ولم يتم اتحاد تلك القبائل، في وقت لاحق، إلا في ذلك الكيان الذين أطلقوا عليه اسم «إسرائيل».

- **معالم الشخصية اليهودية:**

إن معالم الشخصية اليهودية لم تتطور إلا من خلال المعارك الدامية على الأرض الكنعانية التي برزت من خلالها العلاقة التي تربط الإله «يهوا» بشعبه، فهذا الإله هو رب الجنود الذي لا يكفّ عن رعاية شعبه وقيادته في المعارك وإلحاق الهزائم بأعدائه [٦٩]. إن هذه العلاقة التي تصر التوراة على اعتبارها «عقدًا إلهيًا» و «عهدًا ربانيًا» بين الإله يهوا وبني إسرائيل يتعهد الطرف الأول تأمين النصر والرعاية للطرف الثاني. مقابل العبادة وما يتمخض عن ذلك من خدمات وطقوس وشعائر وقرابين ومسمّنات.

---

(٦٨) دباغ نفسه ص ٥٣.

(٦٩) كنعان ص ٦٠.

وقد زاد بنو إسرائيل على ذلك بأن خلعوا على إلههم «يهوا» من صفاتهم فتشابهت طبيعته مع طبيعتهم: الجبروت، الطغيان، الرهبة، والدموية. فهو أشبه ما يكون بالإنسان البدائي المشغول بسفك الدماء والثأر والانتقام.

إنه ذو الشهيّة المفتوحة دائمًا لغنائم الحرب والقرابين ورائحة الدماء.

إنه يرسم الخطط العسكرية ويشترك في القتال فيُنصب الكمائن.

ويتقدم صفوف المقاتلين: أليس هو رب الجنود؟

إنه يأمر بالذبح والتقتيل والتدمير والاستباحة في غارات وحشية منفلتة العقال، متحررة من أي شعور بالذنب أو الرحمة أو تأنيب الضمير!

إنه يضطرم بالحقد والغضب وحب الثأر والانتقام!

إنه ظالم شرس قاس متعطش للدماء!

إنه نهم لا يشبع جوعه إلا جثث القتلى، ولا يطفئ ظمأه إلا الدم المسفوح والدمع المراق.

إنه يأمر بتحريم المدن بمن فيها وما فيها وما عليها.

وصفات الإله يهوا لم تتماثل مع صفات شعبه فقط، وإنما مع صفات يشوع أيضاً، فيشوع هو القائد المنقذ للمجازر البشرية والحيوانية والنباتية أيضًا.

إنه مقاتل شرس، منتقم، جبار. يدر ويقتل ويرفق كل ذلك بسيل دافق من اللعنات... وإنزال الأوبئة فيدمّر كلاً من: بابل، دمشق، كنعان، مؤاب، بصري، غزة، أسدود، أشكلون، عقرون، صيدون، مصر، حيرام، وحاصور.

ويصيح ... هل من مزيد؟

■ نقاء العرق :

مع اجتياح أرض كنعان وتبلور الشخصية اليهودية كشعب مختار وصفوة متميزة تبدأ مرحلة جديدة، هي رحلة المحافظة على نقاء العرق.

فالدم اليهودي يجب أن يظل نقيًا خالصًا. ولا يجوز أن يختلط بدم الأغيار. لقد كان هذا الشعار الدافع الأساسي لاتحاد أسباط بني إسرائيل الاثنى عشر بالإضافة إلى توثيق العرى فيما بين بعضها البعض والدفاع عن نفسها وممارسة الغزو والاجتياح. وقد برز هذا التوجه في فترتي حكم القضاة والأنبياء [٧٠].

---

(٧٠) هشوفطيم هنفيئيم השופטים , הנביאים

■ حكم القضاة :

«والقضاة» لم يكونوا يباشرون، كما توحي تسميتهم، وظائف قضائية، بل كانوا قادة حرب ورجال دولة وسياسة. وقد أطلق عليهم لقب «القضاة» لأن مهمتهم الرئيسية انحصرت في المحافظة على الشريعة اليهودية وتطبيق نصوصها بالإضافة إلى المهمات الأخرى.

وقد تولى القضاة قيادة بني إسرائيل، بعد وفاة يشوع، واستمر حكمهم ١١٢٥ - ١٠٢٥ ق.م بلغ عدد من تولى الحكم منهم ١٤ قاضيًا أبرزهم شمشون وجدعون. وقد تميّزت فترة حكمهم باستمرار القتال بين بني إسرائيل وسكان البلاد الأصليين من الفلسطينيين الكنعانيين واليبوسيين. وكانت أخطر معاركهم في تلك الفترة المعركة التي دارت بين بني إسرائيل تحت قيادة براق ودبوره. والفلسطينيين تحت قيادة سيسرا [٧١].

■ حكم الأنبياء :

أما الفترة الأخرى التي تم فيها التشديد على مبدأ نقاء العرق فكانت في عهد «الأنبياء» [٧٢]. فإن هذا التعالي والتقوقع الذاتي لاقى تأكيدًا وتشجيعًا وتجذرًا في أعماق النفس اليهودية بتبنّي إيديولوجية بثها شعراء وقصاصون ومشرّعون أطلقوا على أنفسهم اسم «الأنبياء» من أبرزهم أشعيا، أرميا، حزقيال، هوشع، عاموس، عوبديا، ميخا، ناحوم، حبقوق. ولعل أبرزهم كان عزرا ونحميا وخاصة الأول بسفره الذي يركز على الدعوة للاستعلاء والانغلاق للمحافظة على العرق. هؤلاء الأنبياء هم الذين وقفوا حاجزًا بين شعوبهم وشعوب الأرض وحالوا دون إنشاء مجتمع منفتح جديد قائم على التعايش والتعددية العرقية في المنطقة.

وكان من المفروض أن يتلاشى هذا الفكر المتجذر في المواجهة مع تلك الشعوب، لكن بني إسرائيل ظلوا متقوقعين في معتقداتهم الدينية، منكمشين على

---

(٧١) جاروي روجيه: فلسطين أرض الرسالات الإلهية ص ١١٨.

(٧٢) كنعان ص ٨٥.

أنفسهم، متشبثين بالعصبية القبلية العرقية يرفضون الاندماج في بيئة متعددة الأعراق والحضارات [٧٣].

■ حكم الملوك *

وقد تخللت الفترتين فترة حكم الملوك

فقد قام آخر القضاة صموئيل بتتويج شاؤول ملكًا. وبذلك انتهى عهد القضاة ليبدأ عهد الملوك حيث دخل بنو إسرائيل عهد التنظيم. وقد تولى شاؤول الحكم سنة ١٠٢٠ ق.م. وقد سقط قتيلاً في ساحة المعركة مع الفلسطينيين في مرج ابن عامر سنة ١٠٠٤ ق.م وانقسمت المملكة اليهودية بعد مصرعه إلى شقين متناحرين.

شق اعترف بداوود ملكًا.

وشق اعترف بأشبو شت بن شاؤول.

وانجلى الصراع الدموي عن نصر داود ١٠١٦–١٠٧٦ ق.م وكانت أبرز معالم حكم داوود.

- تمرد ابنه ابشالوم عليه ومطالبته بالعرش، وانتهى الصراع بسقوط الابن قتيلاً.
- حصار أور سالم [٧٤] (القدس لاحقًا) اليبوسية العربية، وقد تمنعت هذه المدينة وصمدت للحصار، ولكن أحد الخونة، داخل المدينة دلّ المهاجمين عن عورتها، وهو نفق تحت الأرض يوصل مياه نبع جيجون (سلوان اليوم) إلى المدينة. فتسللت قوات داود إلى المدينة عن طريق النفق وفاجأت المدافعين واحتلتها.

واختار داوود أور سالم عاصمة له وجعل مقره جبل صهيون حيث بنى قصرًا وقلعة وقد نجح في توسيع مملكته بالسيف.

والجدير بالذكر أن كثيرًا من قادة الجيش لم يكونوا من اليهود، وأبرزهم أوريا الحثّي القائد العام الذي أرسله داود في مهمة انتحارية ليتخلص منه، ليتزوج من

(٧٣) م.س ص ٥٧.

* ملاخيم – מלכים

(٧٤) أي مدينة السلام. وسالم هو آله السلم عند الكنعانيين. شوفاني ص ٨.

زوجه الحسناء بت شيبع [٧٥].

وعندما توفى داود دفن في أورشليم - القدس - في قلعته التي بناها على جبل صهيون.

■ حكم سليمان :

خلف داوود ابنه سليمان ٩٧٦ - ٩٣٦ ق.م بانقلاب داخلي حاكته والدته بت شيبع للإطاحة بولي العهد الشرعي أدونياهو، الابن البكر من الزوجة الأولى، وتنصيب ابنها سليمان ملكًا. وقد وسع سليمان مملكته ورفعها إلى المكانة العليا والمنزلة الرفيعة من القوة، العظمة، والحضارة. وقد نجح في مدّ حكمه على أنحاء البلاد عدا الساحل الذي ظل بيد الفلسطينيين، وشمال البلاد التي بقيت تحت السيادة الكنعانية. ولا شك أن الجوهرة التي توجّت مشاريعه العمرانية كانت بناء الهيكل المعروف باسمه هيكل سليمان [٧٦]، على طراز كنعاني «وبأيدي صناع كنعانيين» من مدينة صور.

وفي حقيقة الأمر كان التفسّخ والانحلال قد بدأ في أواخر عهد سليمان حتى أن بعض الأقاليم الحدودية أعلنت انفصالها عن المملكة. في حين كان السخط يعم معظم أوساط الشعب اليهودي وبدأت عوامل التحلل ومظاهر تطل برأسها علنًا تعبيرًا عن السخط على سياسة الملك في:

- الأعباء الضريبية المتزايدة التي فرضها أسلوب حياة البذخ والتبذير وإهدار الأموال العامة.
- الانحلال الأخلاقي والديني الذي اعتبرته الأوساط المحافظة خروجًا ومروقًا عن الشريعة وأصول الدين [٧٧].

بعد وفاة سليمان خلفه ابنه رحبعام، ولكن عشرة من الأسباط اليهودية الاثنى عشر طالبت بتخفيض الضرائب، فتوجهت إلى الملك الشاب :

(٧٥) بات شيفع — בת שבע

(٧٦) هيخال شلومو — היכל שלמה

(٧٧) جارووري ص ١٣٥.

- أن أباك ثقل نيرنا. أما أنت فخفف نيرنا! فأجاب :
- أبي أدبّكم بالسياط - أنا أؤدبكم بالعقارب!

فما كان من تلك القبائل العشرة إلا الانفصال وإقامة مملكة جديدة! أطلقوا عليها «مملكة إسرائيل» وملّكوا عليهم أحد الذين كانوا تمردوا في حينه على سليمان. وهو يربعام بن نباط، وكان قد نجح في الفرار والنجاة من براثن مليكه الغاضب والتجأ إلى مصر. وقد أعادته القبائل المنفصلة ونصّبته ملكًا عليها فاتخذ سبسطية عاصمة له.

وهكذا انقسمت مملكة سليمان إلى شطرين بعد أن دامت موحّدة ٨٠ عامًا في عهد داود وسليمان. أما المملكتان فهما: مملكتا يهود وإسرائيل.

١- مملكة يهودا في الجنوب وملكها، رحبعام بن سليمان وعاصمتها أور سليم.
٢- مملكة إسرائيل في الشمال وملكها يربعام بن نباط وعاصمتها سبسطية.

١- مملكة إسرائيل :

وقد تغلب على عرشها ملوك استولى معظمهم عليه بالاغتصاب، وليس بالطرق الشرعية، وقاموا بإدخال عبادة آلهة غريبة، وهي آلهة المصريين والفينيقيين والكنعانيين.

ثم أخذوا يتخلون عن السلفية اليهودية وتبنوا حضارة الأمم المجاورة وتزاوجوا معهم، حتى أن أحد ملوكهم أحاب بن عُمْري تزوج بأيزابيل ابنة ملك صور الكنعاني واعترف بالديانة الكنعانية وإلهها بعل. وقد استمرت مملكة إسرائيل في الحكم حتى أسقطها سنحاريب ملك الآشوريين بجيشه الذي يقوده تغلات غلاسر الثالث سنة ٧٢٢ ق.م.

وبذلك تكون مملكة إسرائيل قد عمرت مائتي سنة ونيف، وكانت قبل ذلك قد عمرت ضمن مملكة سليمان الموحدة ٧٧ عامًا.

٢- مملكة يهودا :

أما مملكة يهودا فقد عمرت ١٣٦ سنة بعد سقوط شقيقتها مملكة إسرائيل.

وكانت قوات الملك نحاريب إيّاه قد حاصرتها أيضًا، لكنها فكت الحصر بعد أن دفعت المملكة جزية فسلمت ولكن إلى حين [٧٨].

■ السبي البابلي :

في سنة ٥٨٦ ق.م دهمها الملك البابلي نبوخذ نصّر فدمرها وهدم الهيكل (الأول) وسبى اليهود إلى بابل فيما يسمى السبي البابلي الذي دام سبعين عامًا. ولم يطل حكم البابليين للبلاد إذ سرعان ما أسقطهم الفرس، وملكهم كورش، الذي سحق بابل وسمح لليهود بالعودة إلى صهيون سنة ٥٣٩ ق.م.

■ الإسكندر وخلفاؤه :

وقد فضل قسم من يهود بابل البقاء فيها ينعمون بخيراتها، في حين آثر قسم منهم العودة.

تلا ذلك ظهور الإسكندر الكبير ملك مكدونيا الذي اجتاح الإمبراطورية الفارسية وأسقطها واحتل بلادها. وبعد وفاته قسم خلفاؤه إمبراطوريته إلى شطرين:

أ- مملكة السلوقيين في بلاد الشام.
ب- مملكة البطالمة أو البطالسة في مصر.

أما اليهود المتواجدون في أرض كنعان فانقسموا تحت البطالسة إلى تيارين:

١- تيار معتدل اتسم بالمروة ومراعاة الظروف، فرضي بالتعايش والاستكانة في ظل حكم أجنبي، بل اعتمدت شرائح اجتماعية نمط حياة الحكام وتبنوا عاداتهم وتقاليدهم في المأكل والمشرب والملبس والمسكن. وقد أطلق عليهم المتشددون لقب «المتأغرقين» [٧٩] المتضمن الاحتقار والازدراء.

٢- تيار متصلب أصولي يرفض سيادة الأغيار ونمط حياتهم. ولم يكف هؤلاء عن الثورة والعصيان فثار المكابيون في أوائل القرن الثاني ق.م، إلا أن الملك انطيوخوس السلوقي قمع الثورة واحتل العاصمة أورشليم ودمر الهيكل ١٦٧-١٦٤ ق.م وحوله إلى معبد لآلهة الإغريق [٨٠].

---

(٧٨) هشفي هبابلي — השבי הבבלי
(٧٩) متيفنيم — מתייונים
(٨٠) مكابيم — מכבים

▪ الرومان وخراب الهيكل الثاني :

لم يطل حكم السلوقيين فقد اجتاحت الجحافل الرومانية، تحت قيادة بومبي، البلاد وقضت على حكمهم. احتل الفاتح الجديد مدينة أورشليم، لكنه ترك لليهود نوعًا من الحكم الذاتي.

وقد عين الرومان عشية ظهور السيد المسيح هيرودس ابن انتيباتر (والدته عربية من الأنباط) ملكًا على البلاد، فجعل سبسطية عاصمة له. وفي زمنه ظهر المسيح. وقد قام اليهود بثورة من ٦٦–٧٣م فهاجمتهم القوات الرومانية تحت قيادة القائد فسبسيان أول الأمر، وابنه طيطس بعده. وقد نجح هذا في قمع الثورة وأغرق البلاد بالدماء والدموع وهدم الهيكل الثاني، وشتّت اليهود، ولكنه أبقى على نواة يشوف*يهودي في منطقة الجليل شمالي البلاد.

وقد أصرت هذه النواة على التمسك بالشرعية والمؤسسات اليهودية، وقد شكلت اللبنة الأساسية لثورة ١٣٢–١٣٥ التي ثار بها اليهود تحت قيادة باركوخبا[٨١]. فاجتاح الإمبراطور الروماني هدريان البلاد وقمع الثورة، التي استمرت ثلاث سنوات ونصف، بالحديد والنار، وشتت اليهود للمرة الثالثة. وهذا هو الشتات الأكبر ثم أمر بهدم العاصمة أورشليم وأعاد بناءها على النمط المعماري الروماني، وأسماها «إيليا كابتولينا» وحظر على اليهود سكناها أو الدخول إليها.

أما اليهود فتشتتوا في أصقاع الأرض، ولكنهم لم ينسوا أرض الميعاد، وظلوا يحنّون للعودة إليها منتظرين المشيح اليهودي، وهذا هو التطلع الديني المشيحياني الذي ظل يراود أحلام يهود الشتات طوال القرون الوسطى[٨٢]. ولا تزال فئات واسعة وشرائح عريضة من اليهود المتدينين يؤمنون به حتى يومنا هذا، وينتظرون عودته في كل لحظة. وقد تمثل هذا التوجه بظهور عدد من المتنبئين الأدعياء الذين انتحلوا شخصيته[٨٣].

---

*مجموع السكان الذين يقطنون في منطقة جغرافية محددة. א. אבן שושן : מלן חדש כרך ראשון. ע.ע 549.

(٨١) بار كوخبا   בר כוכבא

(٨٢) بيئات همشيح   ביאת המשיח

(٨٣) כהן אהרון: שראלם הערבי עיי ٣٥

▪ الخلاصة :

ويمكننا تلخيص أهم معالم الفترة المذكورة بما يلي :

- غمرت أرض كنعان (فلسطين) موجات بشرية متعاقبة، كان أهمها الموجة الكنعانية العربية التي طبعت البلاد بطابعها. وتركت عليها بصمتها الحضارية والعمرانية والسكانية والدينية.

- دخل العبريون البلاد في القرن الثالث عشر ق.م وأقاموا مملكة لم تعمر أكثر من ٨٠ عامًا لم يشكلوا خلالها أغلبية سكانية، كما أن سيطرتهم لم تشمل كافة المناطق.

والحقيقة التاريخية تؤكد، بصورة لا تقبل الشك، أنه قبل أن تطأ أقدام العبريين أرض فلسطين، وقبل أن تنزل التوراة على موسى كانت الأرض مأهولة عامرة بسكانها العرب وغير العرب على مختلف تسمياتهم: الكنعانيين، العمالقة، المؤابيين، والأموريين ... ممن أوردت التوراة أسماءهم.

وقد وصلت هذه الأقوام على شكل قبائل بدو رحّل، إلا أنه ما لبثت أن استقرت في مدن وقرى ثابتة وانتظمت تحت حكم ملوك وأسست حضارة متقدمة من النهر إلى البحر[٨٤].

وقد مرت حياة العبريين في كنف الحضارة بتحولات جذرية فهجروا حياة البداوة والتنقل إلى حياة الاستقرار، كما تركوا المعيشة في المضارب والخيام إلى البيوت الثابتة[٨٥]. وتخلوا عن لبس جلود الماعز والأغنام لينعموا بالأقمشة الصوفية الملونة. أما المعابد فلقد بنيت على الطراز المعماري الأجنبي وزيّنت بالزخارف التي انتهكت تحريم الصور. وقد طال التغيير القطاع الديني أيضًا فتحول اسم يهوا اليهودي إلى إيل إله الكنعانيين وجمعوه على الوهيم[٨٦].

- حافظ اليهود على كيانهم كشعب منغلق يرفض الاندماج مع الغريب.

---

(٨٤) ליברכט הנס: הפלסטינים עבר והוה עיי ١١

(٨٥) أيل

(٨٦) الوهيم   אלוהים

وقد لخص المؤرخ الإنجليزي ولز H.G. Wills في كتابه «موجز تاريخ اليهود» وضع اليهود فقال: «كانت حياة العبرانيين في فلسطين تشبه حالة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم فتدوسه العربات والشاحنات باستمرار... ومنذ البداية حتى النهاية لم تكن مملكتهم سوى حدث طارئ في تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقيا. ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم [٨٧].

وعليه يمكن القول أن اليهود لم يدخلوا إلى فلسطين إلا في حقبة متأخرة ولم يحكموا سوى جزء من فلسطين حتى في ذروة عزّهم وتوسعهم. وقد تميّزوا بدخولهم في فترة متأخرة من الزمن، ولم يحكموا البلاد إلا فترة قصيرة نسبيًا، ناهيك بأنهم اتسموا بالعنف الدموي واستعداء شعوب المنطقة والجوار [٨٨].

بعد الشتات اليهودي الأكبر زمن الإمبراطور الروماني هدريان ١٣٢م انتشر اليهود في جميع أرجاء العالم المعروف في حينه، فاستقروا في الأوطان الجديدة. ومع ذلك ظلت شرائح كبيرة منهم، خصوصًا المتدينين الملتزمين بتعاليم العهد القديم، يتذكرون أرض الميعاد البعيدة ولم يفتأوا يحنون للعودة إليها وتوطينها في إطار المنظور التوراتي اليهودي.

وقد شرعت فئات يهودية تباشر العودة وتستقر في الأرض الموعودة، ولكنها ظلت بعيدة عن أي مطامح سياسية أو مطامع سيادية على البلاد ... فحسبهم العودة لممارسة الشعائر الدينية وإقامة الفرائض اليهودية.

مما تقدم يمكن التوصل إلى حقيقة، هي أن الحق التاريخي للشعب اليهودي على فلسطين الذي اعتمدته الحركة الصهيونية لاحقًا ليس بالأمر الثابت المفروغ منه. وهو يفتقر إلى البحث والتمحيص والمساءلة لأن:

١- العرب سبقوا اليهود في استيطان فلسطين وتعميرها. ولم يكن اليهود إلا شعبًا طارئًا على البلاد في وقت لاحق.

٢- وقد قدموا واجتاحوا مناطق من البلاد بالحديد والنار والكبريت وفرضوا وجودهم القسري على ترابها وسكانها.

(٨٧) كيالي عبد الوهاب: تاريخ فلسطين الحديث ص ١٨ – ١٩.

(٨٨) كيالي عبد الوهاب: تاريخ فلسطين الحديث ص ١٨ – ١٩.

٣- كذلك لم تعم الهيمنة والسيادة العبرية كافة أرجاء البلاد من نهرها حتى بحرها، بل كانت سيطرتها جزئية لأن مناطق شاسعة ظلت تحت السيادة الكنعانية والسيادة الفلسطينية.

وأما الفترة التي نجح فيها اليهود في فرض سيطرتهم على أرجاء البلاد فكانت قصيرة ولم تستمر إلا زمن الملك داوود وابنه سليمان ولمدة لا تزيد عن سبعين سنة فقط [٨٩].

(٨٩) אותו ע,עי״ ١٤–١٥.

الفصل الثاني

عودة اليهود إلى «أرض الميعاد»

«إدعاءات غيبية تتحول إلى واقع ميداني»

بعد نجاح الإمبراطورية الرومانية في قمع ثورات اليهود وتشتيتهم في أصقاع المعمورة توجه معظمهم إلى إحدى منطقتين:

١ـ بلاد الشرق الواقعة تحت حكم الإمبراطورية العثمانية الإسلامية خاصة في آسيا الصغرى (تركيا اليوم) وشمال أفريقيا وبلاد الشام. وقد استكانوا في بيئةٍ إسلاميةٍ، متسامحةٍ، مرحبّةٍ، مستظلين بحمايةٍ عثمانيةٍ «كأهل ذمّة»، آمنين غير مضّارين.

٢ـ دول أوروبا خاصة وسط القارة وشرقها حيث عاشوا تحت سيادة دولها المسيحية. وقد تنظم اليهود المشتتون - في المهاجر الأوروبية ـ في أوطانهم الجديدة في جاليات مغلقة متقوقعةٍ على نفسها.

▪ الحركة المشيحانية اليهودية

حافظت تلك الجاليات على شخصيتها واستقلاليتها، تفردّها، ديانتها، عاداتها وتقاليدها منتظرة، بفارغ الصبر، قدوم مشيح آخر الزمن اليهودي الذي سوف يعيدها إلى أرض الميعاد ويجدّد بناء الهيكل على جبل الموريا في أورشليم.

وقد أطلق على هذا التوجه «اليهودية المشيحانية» . وهو توجّه ديني محض ظل بعيدًا عن أية مطامع سياسية أو تطلعات قومّية سيادية، «فلم تشكل فلسطين في هذه الفترة سوى فكرة الهيكل أو المعبد الذي كان قائمًا ذات يوم» (١).

وقد أوحى هذا التوجه الديني الغيبي لبعض أدعياء النبوءة الكذّابين، المتنبئين الأفاكين، انتحال شخصية المشيح. فقاموا بالدعوة إلى إعادة اليهود إلى أرض الميعاد تحت قيادتهم وفي ظلّ راياتهم بصفتهم مشيحيي آخر الزمن. وقد شهدت الفترة المبكرة من التاريخ سلسلة من الحركات المشيحانية منها:

حركة أبو عيسى الأصفهاني، وهو يهودي فارسي من مدينة أصفهان. أظهر دعوته في أواخر القرن السابع م. (وهناك نصوص أخرى تقول: بل في منتصف القرن الثامن ميلاديًا) وقد نجح في تأليب جماعات يهودية من المؤيدين والمريدين من بابل (جنوب العراق) وإيران، وحاول الزحف بهم لاحتلال

---

(١) بديري هند أمين : أراضي فلسطين بين مزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ ص٨٣.

فلسطين. إلا أن جيوش الخلافة الإسلامية قضت عليه وقمعت حركته، وهي في المهد ويعتقد أتباعه أنه اختفى في كهف ليعود آخر الزمن. وقد أدخل الأصفهاني تعديلات على الشريعة اليهودية فجعل الصلوات ٧ بدل ٣، ومنع الطلاق متأثرًا بالدين المسيحي كما منع أكل اللحم وشرب الخمر والنواح في ذكرى هدم الهيكل.

وظهر بعد ذلك متنبّيًا آخر هو «دافيد الروئي» [٢] وهو يهودي من كردستان. وقد جمع حوله مقاتلين أشدّاء من المناطق الجبلية بعد أن غرّر بهم. وقد أعرب عن نواياه في الزحف على مدينة القدس لاحتلالها، وانتهى أمره بأن أقدم صهره على اغتياله بعد أن أغرته سلطات الخلافة بتعيينه واليًا على كردستان مكافأةً له على فعلته. وقد أُلقيَ القبض كذلك على إنسان آخر ادّعى المشيحية من اليمن وجرى إعدامه قبل أن يستفحل أمره.

بعد سقوط أسبانيا بيد الأسبان نفذ طرد منهجيّ شامل للعرب المسلمين واليهود. كان ذلك في أواخر القرن الخامس عشر، وأوائل السادس عشر الميلادي [٣]. فانتشروا في بلاد جديدة.

وتحت السيادة المسيحية والإسلامية، شاعت ظاهرة أدعياء النبوة بين اليهود المهجرين وكان أبرز المدعين ثلاثة:

١ـ دافيد هرؤوبيني [٤].

٢ـ شلومو مولكو [٥].

٣ـ شبتاي تسفي [٦].

وأولهم هرؤبيني ١٤٨٠ـ١٥٣٥م. متنبئ آخر أفّاك انتسب كذبًا إلى سبط رؤوبين اليهودي. وقد جهر بدعوته عام ١٥٢٤م. بعد أن استحوذ عليه وسواس بأنه هو المشيح المنتظر، فأخذ ينشرها مدّعيًا بأنه مأمور بإعادة بني إسرائيل إلى أرض الميعاد.

(٢) דוד אל רואי

(٣) כהן ע"40

(٤) דוד הראובני

(٥) שלמה מולכו

(٦) שבתאי צבי

توجّه إلى روما ليقابل البابا، كليمانص السابع، وفي طريقه التقى شلومو مولكو. قابل البابا وعرض عليه: دعم الأسباط اليهودية في قتال المسلمين الأتراك، وذلك بتقديم ٣٠٠ مقاتل يهودي يشاركون المسيحيين في طرد المسلمين من القدس. توجّه بعد ذلك إلى مدينة البندقية، فالبرتغال حيث التقى ثانية بمولكو، وشرع الداعيان ينشران دعوتهما المشيحيانية بين اليهود المتنصّرين محاولين إعادتهم إلى حظيرة الديانة اليهودية. وفي البرتغال التقيا الملك خوان الثالث، ثمّ توجها إلى أسبانيا لمقابلة ملكها شارل الخامس. وهناك تمّ اعتقالهما ووجهت لهما تهمتان: ١ـ تحويل مسيحيين إلى اليهودية. ٢ـ تدنيس الصليب المقدس. وقدّما إلى محكمة تفتيش أسبانية فزجّت بهما في غياهب السجون. وهناك قضى هرؤوبيني نحبه خلف القضبان، ويعتقد أنه مات مسمومًا [٧].

أما ثانيهم فهو المتنبئ الدجال شلومو مولكو ١٥٠٠ـ١٥٣٢، وأصله من يهود البرتغال الذين تنصروا كرهًا، واسمه المسيحي دياغو بيريس. وهو من اليهود المارانو وهم اليهود الذين تظاهروا بالمسيحية وأبطنوا اليهودية. اتصل بروؤبين للمرة الأولى، حيث كان هذا متوجهًا إلى روما لمقابلة البابا، وهناك نجح في إعادة مولكو إلى حظيرة الديانة اليهودية.

درس مولكو «ألقبلاه» اليهودية وتعمق فيها. وكان ذا خيال واسع وتهيؤات غيبية. وقد تبحّر في مسألة عودة المشيح والخلاص العتيد. انتحل شخصية النبي الياهو - الخضر - الذي قال إنه بُعث لتمهيد الطريق لقدوم المشيح الموعود. قرّر التوجه إلى روما لمواجهة الملوك المسيحيين ووزرائهم لينذرهم بقرب ظهور المسيح. ولما لم يجد آذانًا صاغية في روما توجّه إلى البندقية حيث التقى بروؤبيني، واتّحدا الاثنان في مهمة الإنذار بقرب قيام الساعة، ثمَّ شدّا الرحال إلى أسبانيا لمقابلة ملكها. وهناك تمّ اعتقالهما وحوكما. وأعيد مولكو إلى إيطاليا مكبّلاً حيث حكم عليه بالإعدام وتم تنفيذ الحكم فيه حرقًا بالنار [٨].

(٧) אנציקלופידיה יזרעאל כרך 22 ע" 667

(٨) אותו כרך 6 ע" 1801

أما ثالثهم وأشهرهم فكان شبتاي تسفي ١٦٢٦ - ١٦٧٦م المسيح الدجال. والده كان تاجرًا ميسور الحال من مدينة أزمير التركية. وقد استحوذ عليه وسواس أنه المشيح الموعود فأخذ يدعو لنفسه وينشر دعوته.

توجّه إلى القدس مرورًا بسالونيك (اليونان اليوم) مدّعيًا النبوّة ومثيرًا الضجّة والخلاف بين مصدّق ومكذّب، مكتسبًا المريدين هنا، والمخدوعين هناك، وعداء المعارضين في مكان ثالث.

وصل القدس واستقرّ بها واحتل مركزًا مرموقا. وقد وثقت به الجالية اليهودية المقدسيّة واختارته ليكون موفدها إلى مصر لجمع التبرعات المالية.

بعد إتمام مهمته في مصر بنجاح عرّج في طريق عودته على مدينة غزّة حيث نجح في إقناع حاخامها الأكبر نتان ألغزيّ بدعوته (٩).

عاد إلى القدس، ولكن بعد أن احتجز الأموال التي جمعها، وأبى تسليمها للجالية المقدسية، وأسرع مغادرًا المدينة، محمّلاً بالأموال المختلسة، إلى أزمير، مسقط رأسه. وهناك شرع يدعو لنفسه مكتسبًا الأتباع. وانتشرت دعوته بين يهود الدولة العثمانية، وخاصة في فلسطين، وعلى وجه التحديد في المدن: غزة، الخليل وصفد. ولكنّ حاخامات القدس وجاليتها اليهودية ظلّوا يناصبونه العداء ويتهمونه بالاختلاس.

رأى تسفي أن يعجّل بالخلاص فغادر أزمير متوجهًا إلى اسطنبول معلنًا نيته الجنونية - الانتحارية -: الإطاحة بالسلطان العثماني، خليفة المسلمين، وتحويل التاج إلى رأسه هو. وقد خشيَ يهود اسطنبول عاقبة هذا العمل الأرعن، وتأكّدوا أنه سوف لن يعود عليم إلا بالويل والثبور ويوردهم موارد الهلاك، فاستدركوا الخطر القادم وسارعوا بتقديم الشكاوى بحقّ هذا الأفاك.

ألقت السلطات القبض عليه وزجّت به في غياهب السجن في أبيدوس (شبه جزيرة غاليبولي على مضيق الدردنيل). ولكن سجنه الذي كان أشبه بالبلاط الملكي زاد من انتشار دعوته، وضاعف عدد مريديه، وتحوّل إلى محج لليهود. وهنا أمر السلطان أن يمثل هذا الدّعي أمامه في الحضرة السلطانية، ليقوم هو شخصيًا باستجوابه والتحقيق معه.

(٩) נתן העזתי

ولمّا مثل تسفي بين يدي السلطان أنكر دعوته، وتنصّل من أقواله وأفعاله وزاد بأن أشهر إسلامه متخليًا عن يهوديته، مُنكرًا لها، وتسمّى «بمحمد أفندي» وقد أشهرت زوجته إسلامها أيضًا وحذا حذوهما الكثير من الأتباع. وقد عفا السلطان عنه، ولكنه أمر بنفيه إلى ألبانيا حيث توفّى هناك في بلدة دولتشينا.

بعد موته لم تمت دعوته، ولم يتخل الكثير من المخدوعين عن الإيمان به، واشتهرت حركته التي أطلق عليها «الشبتائية الخلاصية» (١٠) على مدى قرن كامل.

واتسمت بعض الهجرات اليهودية اللاحقة إلى فلسطين بطابع الشبتائية.

بالإضافة إلى أولئك الأدعياء لابد من الإشارة إلى أفّاكين دجّالين آخرين، وإن كانوا أقلّ شأنًا منهم، مثل المتنبئ يعقوب فرانك (من بولنده) ١٧٢٦ - ١٧٩١م. الذي تقمّص شخصيّة شبتاي تسفي وجمع حوله المريدين. لكنّ حاخامات اليهود كفّروه وهرطقوه وفرضوا عليه الحرمان وانتهى به الأمر إلى أن تنصّر وتخلى عن يهوديته والغريب في دعوته فلسفته التي تتلخص في أن إدراك الخلاص لا يتحقق إلا عن طريق ارتكاب المعاصي والرذائل. فالإنسان لا يستطيع أن يسمو إلى السموات العلى إلا إذا سقط أولاً في حمأة الخطيئة والرذيلة. وعليه فإن على اليهود، كما قال، الانغماس في الرذائل، الخطايا، والآثام واستباحة المحرمات وانتهاك الحدود قبل الخلاص وعودة المشيح. فلا عجب إن ارتكب هو وأتباعه كل الموبقات والمباذل وبالغوا في الشهوات الجسديّة - الحيوانية وعاشوا حياة المجون والتحرّر من الضوابط والقيود الدينية والأخلاقية. وقد لخص دعوته بقوله: إنني لم آت بكم إلى هذا العالم لكي أسمو بكم، بل لأهبط بكم إلى قاع الهاوية حيث لا يستطيع الإنسان أن يصعد بقوته الذاتية. أما الهبوط إلى تلك الهاوية فهو لا يوجب ترك كل الأديان والمعتقدات فقط، بل يوجب أيضًا اقتراف أعمال آثمة غريبة. كما أعلن أنه سيخلص العالم من كل النواميس الموجودة وسوف يتجاوز كل الحدود. وقد أفتى بإلغاء الشريعة اليهودية وإيقاف مفعولها.

(١٠) هشبتاؤوت هجلوتيت השבתאות הגליתית

مع مرور الزمن، بدأ زخم التيار المشيحياني يخبو ويتلاشى بالتدريج لتحل محله دعوات للعودة إلى أرض الميعاد، تارةً على أُسُس اقتصادية وطورًا على أُسُس دينية أرثوذكسيّة شتاتية.

فمن ناحية ظهر، بعد هذا التوجّه المشيحياني، محاولات هامشية لاستيطان يهودي في بعض الأماكن في الديار المقدسة على أرضية اقتصادية؛ ففي القرن السادس عشر سعى يهودي من البرتغال اسمه جوزيف ناس للحصول على موافقة السلطان العثماني بالسماح لمجموعة من اليهود بجباية الضرائب في منطقة مدينة طبرية لمدة عشر سنوات بطريقة الالتزام. وكان له ما أراد، إلا أن سلوك تلك المجموعة اليهودية وجشعها وابتزازها أموال الناس أثار حفيظة السلطات، مما حدا بالسلطان إلى طردهم. بالإضافة إلى ذلك منح السلطان جوزيف ناس بعض حقوق الحكم والسيادة في المنطقة ذاتها لإقامة مشروع لصناعة النسيج يعمل فيه حرفيّون يهود، إلا أن المشروع فشل اقتصاديًا وأشهر إفلاسه [11].

وفي سنة ١٨٣٩ قبل ظهور الصهيونية بأكثر من أربعة عقود عرض الثري اليهودي موشه مونتفيوري على محمد علي باشا حاكم مصر وفلسطين في الفترة المذكورة استئجار أرض في فلسطين لمدة ٥٠ عامًا لإقامة مشاريع اقتصادية: زراعية وصناعية مقابل حصول محمد علي على ٢٠٪ من الأرباح وكان مونتفيوري يهدف بذلك إلى استقدام اليهود من شتى أنحاء العالم إلى فلسطين بحجة العمل.
ولكن محمد علي لم تنطل عليه تلك الألاعيب فرفض العرض.

من الناحية الأخرى بدأ تيار سلفي يدعو إلى العودة إلى أرض الميعاد على أساس ديني - أرتودكسي شتاتي.

(١١) بديري ص ٨٤.

▪ بداية الهجرة الدينية اليهودية إلى فلسطين اليهودية

اليشوف القديم [12].

انقسم يهود الشتات إلى فئتين:

١ـ المشيحيانية: وهو تيار الأغلبية ويرى وجوب الاستكانة في بلاد الشتات منتظرة قدوم المشيح.

٢ـ الشتاتية: وهو تيار الأقلية ويرى المبادرة بالعودة إلى أرض الميعاد. وهناك يقيمون منتظرين عودة المشيح. ولم تكن هذه الفئة تطمح إلى أية تطلعات سيادية على أرض الميعاد، فهذا الأمر يترك لحين عودة ذلك المشيح.

بادرت هذه الحركة الشتاتية إلى الشروع بهجرات فرديّة وجماعية محدودة ضئيلة العدد. وأخذت جموع المهاجرين اليهود الشتاتيين تصل الشواطئ الفلسطينية وتستقر في المدن المقدّسة الأربعة: القدس، الخليل، طبرية، وصفد.

وقد قدمت هذه الهجرة على موجتين:

أ. هجرة شرقية ـ سفرادية [13]   ب. هجرة غربية ـ أشكنازية [14]

أ. الهجرة الشرقية ـ السفرادية :

وعناصرها من اليهود المهاجرين الذين انطلقوا من المدن الرئيسية للدولة العثمانية خاصة اسطنبول وأزمير. وقد شكّل هؤلاء النواة الأساس لليشوف اليهودي في فلسطين.

وعند نزول المهاجرين إلى أرض فلسطين لم يُخيّب سكانها الأصليون من العرب

(١٢) هيشوف هفاتيق הישוב הותיק وهو مصطلح أطلقته الأدبيات اليهودية للدلالة على مجموع السكان اليهود في فلسطين في الدولة العثمانية قبل ظهور الحركة الصهيونية.

(١٣) هعلياه هسفرديت העליה הספרדית

(١٤) هعلياه هاشكنازيت העליה האשכנזית

والسفرديم "ספרדים" هم اليهود الشرقيون الذين هاجروا من أسبانيا والبرتغال إلى مناطق الدولة العثمانية ، وكلمة ספרד هي أسبانيا باللغة العبرية. أما الأشكناز אשכנזים فهم بالأصل يهود ألمانيا. ثم توسعت التسمية لتشمل كافة يهود أوروبا.

المسلمين والمسيحيين آمال الوافدين. اعتبروهم ضيوفهم فاستقبلوهم بأذرع مفتوحة وقلوب مفتوحة ورحّبوا بهم واحتضنوهم ولسان حالهم يقول: لا بأس عليكم. لكم ما لنا، وعليكم ما علينا. لا تظلمون ولا تُضارّون. فأنتم أهل ذمتنا ولكم علينا حق الجوار؛ وعاش هؤلاء الوافدون آمنين مطمئنين يتمتعون بالأمن والأمان والرعاية وحرية العبادة. وقد كان لهذه المعاملة الإنسانية أثرها المحمود في استمرار تدفق الهجرة في أوقات لاحقة.

على كلٍ يمكن القول إن عدد المهاجرين اليهود ظل محدودًا ضئيلاً، فلم يتجاوز عددهم، حتى مطلع القرن الثامن عشر، ستة آلاف نسمة فقط.

ولكن هذا الركود لم يستمر طويلاً، إذ أن الظروف الموضوعية للمنطقة تغيّرت بتغير الظروف السياسية المستجدّة، وذلك مع ظهور حاكم محلي جديد في شمال فلسطين ووسطها في منتصف القرن الثامن عشر. وهذا الحاكم هو ظاهر العمر ١٧٥٠ ـ ١٧٧٥م. وقد أملَت عليه مصالحه ضرورة تحسين علاقاته مع دول أوروبا في صراعه مع سلطات الدولة العثمانية. فبادر إلى رعاية مصالح تلك الدول. وعلى رأسها حماية ورعاية مواطنيها، بمن فيهم المهاجرون اليهود.

وتتلخص سياسة هذا الحاكم في محاولة كسب تأييد دول أوروبا لتدعمه في صراعه مع الدولة العثمانية التي كانت تخشاه وتخشى تطلعاته الانفصاليّة ومطامعه الاستقلالية. وقد رمى ظاهر العمر، برعايته الخاصّة للمهاجرين اليهود إلى تحقيق هدفين:

أ ـ التقرّب من الدول الأوروبية، فإن هؤلاء المهاجرين اليهود رعاياها.

ب ـ كسب دعم يهود الشتات كوسيلة ضغط من حكوماتهم على الدولة العثمانية للمحافظة على حكمه، ووسيلة لتسخير النفوذ المالي والسياسي اليهودي لخدمة مصالحه ولتثبيت حكمه.

وكان من أثر ذلك أن وُضِعت الأقليات العرقية والدينية، بمن فيهم اليهود، تحت الحماية القنصلية الأوروبية. وقد قامت القنصلية البريطانية في القدس بتبنّي الجالية اليهودية في فلسطين واعتبرت المهاجرين اليهود؛ من شتى أنحاء أوروبا؛ رعايا صاحب الجلالة ملك بريطانيا. كما مُنح الرعايا الأجانب الامتيازات

الخاصة بموجب «اتفاقية الامتيازات»(١٥) التي نصّت على منحهم وضعًا خاصًا ومكانة متميزة فوق القانون العثماني(١٦). فلا يجوز محاكمتهم أو اعتقالهم في المحاكم المحلية. هذا بالإضافة إلى امتيازات عديدة أخرى(١٧).

ولم تتوقف هذه السياسة بعد مصرع ظاهر العمر، بل استمرت في الفترة اللاحقة التي أعقبت موت أحمد باشا الجزار أيضًا، والتي تولّى الحكم فيها خليفتاه سليمان باشا الكرجي الملقب بالعادل وعبد الله باشا الجزار. كما أنها استمرت أيضًا في فترة الحكم المصري لفلسطين، زمن محمد علي باشا، والتي امتدت طيلة تسع سنوات ١٨٣١ـ١٨٤٠م.

وقد حرص هؤلاء الحكام جميعهم على رعاية الأقليات الأجنبية للأسباب نفسها. وقد نجم عن هذه السياسة ازدهار اليشوف اليهودي وتوسّعه.

ومع ذلك لم تسر الأمور كلّها على ما يرام فقد أبتلِيَ ذلك اليشوف بضربتين في فترة الحكم المصري:

• أولاهما: نشوب ثورات محلية فلسطينية عمت أرجاء البلاد. فقد ثار الأهالي، ليس على المصريين وحدهم وحسب، بل على حلفائهم اليهود أيضًا. وكانت أقسى الضربات وأشدّها فداحة وإيلامًا تلك التي نزلت على يهود الجليل الذين كانوا هدفًا للثورة.

• وثانيهما الزلزال المدمر الذي هزّ أركان البلاد وألحق بها الدمار الشامل خاصّة صفد وطبرية حيث تركهما خرابًا يبابًا وقاعًا صفصفًا. وتروي المصادر أن مجموع ضحايا الزلزال في كلتا المدينتين بلغ ٧٠٠ قتيلاً من العرب واليهود من أصل مجموع سكانهما الذي تراوح من ٢٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ نسمة، أي حوالي ٢٥٪ منها. وكان من النتائج المباشرة لهاتين الضربتين أن تدهور وضع اليشوف اقتصاديًا ومعنويًا. وبدا كأنه مُشرف على الانهيار والإفلاس لولا أن تداركته المساعدات المالية الضخمة التي تدفقت عليه من يهود الشتات فتزايد عدد السكان وعاد إلى الازدهار والنمو.

---

(١٥) Captulation

(١٦) Extra Territorial Status

(١٧) הסטוריה של ארץ ישראל כרך8 ע"189

ولم تكن هذه المعوقات الطارئة لتنجح في شلّ الهجرة اليهودية، إذ أنها لم تلبث أن استعادت زخمها، فتزايد اليشوف من ٦٠٠٠ في بداية القرن الثامن عشر إلى ٢٦٠٠٠ في سنوات الثمانين من القرن المذكور أي بتزايد نسبته أكثر من ٤٠٪. وعاد سيل المهاجرين يتدفق من بلاد الشرق، تركيا وشمال إفريقيا والهلال الخصيب وبلاد البلقان.

(أ / ١) هجرة يهود تركيا :

وأبرز رموز هذه الموجة الهجرة السفرادية التركية تلك التي حملت حاييم أبو العافية [١٨] الحاخام الأكبر بمدينة أزمير. ولقد لقى حال وصوله فلسطين الترحيب والتسهيلات من سيّد المنطقة وحاكمها ظاهر العمر الذي كان قد بسط حمايته ورعايته على جالية طبريا اليهودية بشكل خاص، وعلى الجاليات اليهودية في سائر أنحاء البلاد بصورة عامة. وقد توسعت تلك الجالية وانتشرت إلى مناطق جديدة في الجليل واستوطنت شفا عمرو، عكا وقرية البقيعة.

(أ / ٢) هجرة يهود شمال إفريقيا :

وقد حذا حذو الجالية التركية جاليات يهودية من شمال إفريقيا فأخذت تتدفق على البلاد بغزارة، الأمر الذي أوصلها إلى التساوي العددي مع موجة الهجرة التركية بل لم تلبث أن فاقتها عددًا وأصبحت تشكل أكثر من ٥٠٪ من اليشوف. وأشهر عائلات هذه الهجرة. عبو، شوشان، سمحون، ستهون، مزراحي وبهلول [١٩]

وقد تزامن مع هذه الهجرة تيار خفيف من مهاجري دول البلقان. وعند أفول نجم ظاهر العمر كان اليشوف اليهودي في فلسطين في أحسن أحواله. واعتبرت الفترة المذكورة العصر الذهبي في تاريخه. والجدير بالذكر أن هذا الحاكم قد عين عائلة فرحي اليهودية [٢٠] في خدمته فاستفادت وأفادت اليشوف ورعت عناصره وأمّنت مصالحه. وبعد مصرع ظاهر العمر استمرت تلك العائلة اليهودية تعمل في خدمة خلفائه، وكان لها اليد الطولى، والنفوذ غير المحدود، في إدارة شئون البلاد، خاصة الإدارية والمالية.

---

(١٨) حاييم أبو العافية ח"ם אבו אלעאפיה

(١٩) عبو.شوشان.سمحون.ستهون.مزراحي.بهلول עבו . שושן שמחון . סתהון . מזרחי . בהלול .

(٢٠) فرحي פרחי

ب. الهجرة الغربية ـ الاشكنازية :

في سنوات الثمانين من القرن التاسع عشر، أي بعد مرور أكثر من ثلاثة عقود من الزمن على انحسار الحملة المصرية على فلسطين، بدأت هجرة يهودية اشكنازية من دول وسط أوروبا وشرقها، وشكلت الشق الاشكنازي إلى جانب الشق السفرادي من اليشوف القديم. وقد كانت دوافع هذه الهجرة اشكنازية اقتصادية ـ دينية أيضًا شأنها في ذلك شأن الشق السفرادي.

وحال وصول هذه الهجرة الاشكنازية الجديدة إلى الأراضي الفلسطينية وجدت يشوفًا يهوديًا سفراديًا كان قد سبقها واستقر في البلاد.

تميزت هذه الهجرة بمنحناها الانعزالي المنغلق، المتقوقع والمنفصل عن اليشوف السفرادي، فلقد كانت تختلف عنه في كل الاختلاف في صغائر الأمور كما في كبائرها؛ في العادات والتقاليد، الطقوس والشعائر الدينية، المأكل والملبس والمشرب ونمط الحياة في كل أمر من أمورها.

تجمعت الهجرة الاشكنازية بسرعة قياسية، في نواة استيطانية مستقلة، بعيدة عن اليشوف السفرادي، مؤكدة على تميزها وتفردها وهويتها الخاصة المستقلة ورفضت كافة المحاولات والوساطات لدمجها في أي تنظيم يهودي قائم، مفضلة التمسك بنمط حياتها ولغتها الأصلية التي جلبتها معها من أرض الشتات الأوروبي إلى مكان هجرتها الجديدة في فلسطين.

وقد قدمت هذه الهجرة في تيارين: أ. تيار حسيدي [٢١] ب. تيار فرّيسي [٢٢]

أ. التيار الحسيدي :

بالأساس تجاذبت التيارات الفكرية الدينية للمجتمع اليهودي الأوروبي حركتان دينيتان متناحرتان:

١ ـ الحركة المشيحيانية [٢٣] التي تؤمن بالتصور المشيحياني اليهودي القائل بعودة المشيخ آخر الزمن [٢٤].

---

(٢١) هتنوعاه هحسيديت התנועה החסידית

(٢٢) هتنوعاه هبروشيت התנועה הפרושית

(٢٣) هتنوعاه همشيحيت התנועה המשיחית

(٢٤) هتنوعاه هجلوتيت התנועה הגלותית

٢ـ الحركة الشتاتية التي لم تقل بعودة المشيح كشرط مسبق للعودة إلى أرض الميعاد. وكان هذا التيار هو تيار الأغلبية، إلا أنه لم يكن متجانسًا داخليًا وتجاذبته تيارات متعددة وتحولت إلى انشقاقات وشروخات عميقة في صفوفه على أرضية دينية - عقائدية.

وقد انشق عن هذا التيار الشتاتي تيار حسيدي توفيقي آمن بأن الدعوة إلى الإسكتانة في بلاد الغرب لا تتناقض مع الدعوة إلى الهجرة الطوعية إلى فلسطين، وإن لم تكن على رأس سلم أولوياتها. وقد ظلت الحركة الانشقاقية الحسيدية متمسكة عمومًا بالتوجه الشتاتي، مركزة نشاطها واهتماماتها على المحافظة على الأصولية الدينية في الأوطان، وعلى استمرار التعايش في مجتمعات الشتات، وفي الوقت ذاته لم تر بأسًا في إفساح المجال لهجرة طوعية شريطة الحفاظ على تواصل وثيق مع يهود المهجر.

وقد انطلقت مجموعات، أفراد من عناصر هذا التيار مهاجرة فلسطين وأقامت مجتمعات صغيرة محافظة على هويتها وجذورها وتنظيمها الاجتماعي المغلق[٢٥]. ولم تزد هذه المجتمعات عن نقل مجتمعات الشتات إلى مكان الهجرة الجديد. فبدأت تظهر كيانات اشكنازية غربية من يهود ليطا، لتوانيا وسائر دول أوروبا الشرقية بنسخ طبق الأصل عن المجتمعات الأصلية، وشكلوا نواة الهجرة الدينية إلى أرض الميعاد.

وأبرز رموز هذه الهجرة باعل شمطوب (ذو الاسم الطيب) الذي وصل الشواطئ الفلسطينية مع هجرة ١٧٦٢م واستوطنت مدينة صفد. ولكن الموجة الرئيسية لهذا التيار كانت تلك التي وصلت البلاد بقيادة الحركة الحسيدية في روسيا البيضاء (بيلورسيا) واستوطنت مدينة صفد.

ولكن سرعان ما نشب نزاع بين عناصر هذه الهجرة وبين يهود صفد السفراديم الذين كانوا سبقوهم واستوطنوا المدينة قبلهم، فغادر القادمون الجدد لمدينة طبريا التي أصبحت المدينة الرئيسية لليهود في منطقة الجليل منذ القرن التاسع عشر، وبدأت تستقبل المهاجرين الاشكناز الذين أخذوا يتدفقون قادمين من أوروبا الشرقية.

(٢٥) הסטוריה של ארץ ישראל כרך 8/ עע" 198 - 199

وحال استقرار الجاليات الاشكنازية الجديدة في فلسطين بدأت تتوزع في كيانات منفردة مصنفة حسب المنشأ الجغرافي.

وقد أنشأت عناصر كل جالية بلاطات [٢٦] دينية يهودية منسوخة طبق الأصل عن بلاطات الوطن الأم. ومن الطريف أن هذه الجاليات لم تكن نسخة طبق الأصل عن الأصل الشتاتي فقط، بل أنها نقلت خلافاتها وتناحراتها من وطنها القديم إلى الوطن الجديد أيضًا. وقد اتسعت هذه الخلافات حتى عمت كافة المجتمعات اليهودية الاشكنازية في فلسطين وانتقلت إلى البلاطات الدينية اليهودية أيضًا. ومن أبرز البلاطات الاشكنازية كانت منظمة «حباد» الحسيدية الاشكنازية التي أنشأتها جالية روسيا البيضاء [٢٧].

ب. التيار الفريسي : [٢٨]

بعد مرور حوالي أربعين عامًا على الهجرة الحسيدية تدفق على فلسطين نوع آخر من المهاجرين اليهود القادمين من شرق أوروبا. كانت تلك «الهجرة الفريسية». ففي سنة ١٨٠٨م. وصل شواطئ البلاد مجموعة من طلاب المعاهد الدينية العليا من منطقة ليطا على بحر البلطيق وقد تميزت الهجرة المذكورة بكونها هجرة نخبة وصفوة الجالية اليهودية الليطائية.

وبعد وصولها فلسطين نشب خلاف داخلي بين عناصرها على أرضية اختيار مكان الإقامة وقد تم الاتفاق في نهاية المطاف، على اختيار مدينة صفد لمزاياها:

١ـ قربها من الموانئ الرئيسية للشاطئ السوري - الفلسطيني.

٢ـ قربها من الراعي الكبير لليشوف اليهودي الوزير حاييم فرحي الذي وزر لأحمد باشا الجزار وخلفائه من بعده.

وقد استقر عناصر هذه الهجرة في صفد وأقاموا فيها معهدًا دينيًا. ومن الطريف أن عناصر الهجرة المذكورة تجنبوا سكنى مدينة القدس خوفا من العرب المقدسيين الذين كانوا قد وقعوا ضحية عملية نصب واحتيال قام بها يهودي

(٢٦) الأدبيات اليهودية تطلق عليها اسم حتسروت חצרות. والمعنى الحرفي لها « بلاطات »

(٢٧) הסטוריה של ארץ ישראל כרך 8 עע" 199 – 200 وكلمة حباد – חב"ד مختصرة من الكلمات חב"דחיבה , בינה , דעת . أي محبة . بصيرة . معرفة.

(٢٨) هتنوعاه هيروشيت התנועה הפרושית

اسمه الحاخام يهودا هحسيد في أوائل القرن المذكور. وقد ظل العرب المقدسيون يكنّون العداء له ولكل مهاجر يهودي من أصل اشنكازي، في الوقت الذي ظل يرحبون بكل يهودي سفرادي.

أما العامل الآخر لنفور هؤلاء من سكنى القدس فكان العداء الشديد الذي يكنّه اليهود الشرقيون السفراديم للوافدين الجدد الذين يختلفون عنهم في كافة الأمور، وإن ادعوا أنهم أبناء جلدتهم وملتهم [٢٩]. ولم يطل المقام بعناصر التيار الفريسي في مدينة صفد، فلقد اضطر قسم منهم إلى مغادرتها إلى القدس بالذات بعد انتشار وباء قاتل، وقد قبل اليهود المقدسيون استضافة يهود صفد الفارين من الوباء وأسكنوهم بين ظهرانيهم، ولكن العلاقات ظلت فاترة معكرة يشوبها العداء والشكوك. فلقد كانت الفروق شاسعة والخلافات كبيرة من النواحي الاقتصادية، الدينية، ونمط الحياة واللغة. وظلت الهوة واسعة عميقة أكبر من أن تجسر.

(٢٩) אותו כרך 8 עע" 199 - 200

▪ اليشوف القديم ومصادر معيشته

بعد استقرار موجتي الهجرة الشتاتية: السفرادية والاشكنازية على التراب الفلسطيني كان لا بد من توفير مصادر رزق لعناصرهما.

كان اليشوف اليهودي القديم الذي سبق الموجتين المذكورتين في سنوات الثلاثين من القرن التاسع عشر يعتمد مصدرين لمعيشته:

- المهن والحرف اليدوية في مشاغل وورشات محلية ومنزلية.
- الأعمال الحرة: تجارة (جملة ومفرّق) وخدمات (بما فيها خدمات دينية وفندقية).

أما الزراعة فكانت غريبة عنهم، ولم يتعاطوها. حقًا قام بعض اليهود بالإقامة في الأرياف والقرى مثل البقيعة، كفر ياسيف، دير القمر، وحاصبيا، ولكنهم لم يقوموا بأي عمل زراعي، بل تعاطوا التجارة الزراعية أو الخدمات النقدية للقطاع الزراعي العربي (تسليف وإقراض). وأن عمل أحدهم بالصدفة، بالزراعة فإن الأمر يكاد يكون نادرًا ولا يتعدى أغراض الاستهلاك المحلي الفردي فقط[٣٠].

فلا عجب أن كان مستوى المعيشة لليشوف اليهودي هابطًا متدنيًا. والدخل لا يكاد يكفي لسد الرمق. لذا كان لا بد من تأمين مصادر دخل إضافية، وإلا فالعاقبة وخيمة وشبح الإفلاس والانهيار يتهدد الجميع. وأخيرًا جاء الفرج على شكل مساعدات مالية ضخمة، منتظمة ومتواصلة من يهود الشتات، فلقد استجاب هؤلاء لدعوات الاستغاثة التي أطلقها اليشوف، فلقد كانوا على يقين أنهم إن لم يتداركوه بالغوث الفوري، فإن مصيره سوف يكون مريرًا، وربما يهوي إلى الهاوية السحقية.

تدفقت المساعدات بقناتين:

أ- مخصصات نقدية ثابتة عرفت باسم «التوزيعة» [٣١].

ب- نشاط خيري [٣٢].

(٣٠) אותו כרך 8 עע" 266

(٣١) هحلوقاه החלוקה

(٣٢) הסטוריה של א"י כרך 8/219

وبدأت الأموال تتدفق بغزارة من وراء البحار، وجرى الدم الاصطناعي في شرايين اليشوف معيدة إليه الحياة، والزخم، فشهد ذلك اليشوف بين سنوات الثلاثين وسنوات السبعين من القرن التاسع عشر بداية انقلاب جذري وتحول أساسي في حياته وازدهاره.

أ. المخصصات النقدية ـ التوزيعة :

بعد أن تنادى يهود الشتات، خاصة في دول وسط أوروبا وغربها ويهود أستراليا والولايات المتحدة الأمريكية، واستجابوا لطلبات المساعدة، أنشأوا جهازًا تنفيذيًا لتنظيم عمليات الدعم والمساعدة التي تميزت بالدقة والتنظيم والسرعة والنجاعة. وأخذت تعمل وفق تخطيط مدروس وبرنامج مفصل. وكانت الفلسفة التي اعتمدتها هذه العملية الواسعة تتلخص في أن اليشوف اليهودي في فلسطين يؤدي مهمة مزدوجة:

- ترسيخ الوجود اليهودي وتوطيد أقدامه على التراب الفلسطيني.
- التفرغ لدراسة التوراة والعلوم الدينية وتكريس الوقت للفرائض والشعائر الدينية وأمور العبادة في أرض الميعاد. فعناصر اليشوف يجب أن يتفرغوا لدينهم « فعملهم هو توراتهم» [٣٣]. أما واجب يهود الشتات فالتكفل بمعيشة هذا اليشوف وكفاية طعامه وشرابه وكافة أمور معيشته.

تشكلت المنظمات الداعمة في كل مكان تجمع فيه اليهود في أرض الشتات، وشرعت تجمع الأموال وتحولها لليشوف. وقد أطلق على هذه الجمعيات «الجمعيات الشاملة» [٣٤]. وقد اقتصر نشاط كل جمعية على دعم أبناء طائفتها في اليشوف.

جمعت المبالغ المالية الطائلة وتكدست الأموال. وكان لا بد من تنظيم عملية تحويلها وصرف المبالغ المتكدسة. وقد تم الاتفاق بين الجمعيات على مبدأين لا يسمح بتجاوزهما:

(٣٣) תורתם אמנותם

(٣٤) تميخات هكولليم תמיכת הכוללים

١ـ المبالغ تحول إلى اليشوف اليهودي في فلسطين، بحيث تتكفل كل جمعية بدعم اليهود من أبناء مجتمعها، وعلى هذا الأساس انقسمت المساعدات إلى توزيعتين: أ. التوزيعة الاشكنازية ب. التوزيعة السفرادية
وتوزع كل منهما على حدة وبشكل منفصل مستقل.

٢ـ والشرط الوحيد لاستمرار صرف المبالغ هو تفرغ المنتفعين للتوراة والدراسات الدينية والعبادات.

بعد الاتفاق على مبادئ الصرف تمّ اتخاذ الخطوات التنفيذية التالية:

- أولاً: اقتطاع الميزانيات اللازمة للإنفاق على المؤسسات الدينية والاجتماعية من المبالغ المجموعة وتسمى هذه الميزانيات «الدعم الشامل» [٣٥].
- ثانيًا: دفع كافة الضرائب المستحقة على اليشوف للسلطة العثمانية.
- ثالثًا: المُتبقي يوزع على عناصر اليشوف وتسمى «التوزيعة الكبرى» [٣٦]، وهي نوعين:

أـ مخصصات توزع على كل عائلة بحسب عدد أفرادها (أي حسب الرأس) ويطلق عليها «توزيعة الحجم أو الكم» [٣٧].

بـ مخصصات توزع على النخب والخاصة ذات المكانة الدينية المرموقة المتميزة، ويطلق عليها اسم «مخصصات التقدم» وهي «توزيعة الكيف أو النوع» [٣٨]. وجرت العادة أن توزع المساعدات مرة واحدة في السنة، وفي المناسبات والأعياد.

والجدير بالذكر أن أموال الدعم الاشكنازية كانت تتجمع في هولندا تحت اسم «منظمة التجار والمستخدمين» في امستردام، ومن هناك تحوّل إلى فلسطين [٣٩].

(٣٥) هتميخا. هجدولا התמיכה הגדולה

(٣٦) هحلوقاه هدولا החלוקה הגדולה

(٣٧) دمي نيفش דמי נפש

(٣٨) قدماه קדימה

(٣٩) הסטוריה של א"י כרך8 ע" 219

ب. النشاط الخيري اليهودي: [٤٠]

بالإضافة إلى منظمات الدعم استجاب عدد من أثرياء اليهود المحسنين في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية لنداءات الاستغاثة. وكان من أبرزهم السير موشه مونتفيوري.

- **السير موشه مونتفيوري** [٤١]

كان أهم هؤلاء المحسنين: السيد موشه مونتفيوري المذكور، وهو يهودي إنجليزي من أصحاب رؤوس الأموال التي تتجاوز الملايين من الجنيهات الإسترلينية. كرس حياته لدعم اليهود ونصرتهم في كافة أنحاء دول الشتات بصورة عامة، وفي فلسطين بصورة خاصة. دأب على تقديم المساعدات السخية وضخّ الملايين لمساعدة الجاليات اليهودية في أماكن تواجدها، وعلى رأسها اليشوف اليهودي في فلسطين.

ولد موشه عام ١٧٨٤م من عائلة مونتفيوري، أسبانية الجذور، وكانت قد طردت من الأندلس إثر سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في أسبانيا سنة ١٤٩٢م، فغادرتها مع آخر المسلمين. انتقلت العائلة إلى إيطاليا وفي القرن الثامن عشر تحولت انجلترا وأخذت تمارس أعمالها في قطاع المصارف والصيرفة ونجحت في جمع ثورة طائلة، وصلت ذروتها أيام موشه هذا.

وحين بلغ موشه سن الثانية والخمسين ١٨٣٦م انتخب رئيسًا للجالية اليهودية في انجلترا وأوروبا، بالإضافة إلى تسلمه قمة الجهاز القضائي في انجلترا. في الوقت نفسه نجح في مضاعفة ثروته وتحول إلى إمبراطورية اقتصادية. وقد وطد مركزه المالي والسياسي والاجتماعي بإقامة علاقات حميمة وطيدة مع البيت المالك الإنجليزي.

التفت موشيه إلى الجاليات اليهودية فوجدها في شتى أنحاء العالم بحاجة إلى المساعدة فشرع يضخ الأموال؛ ففي عام ١٨٤٠ غمر يهود دمشق بمساعداته

(٤٠) פעילות פילנטרופית

(٤١) موشه مونتفيوري משה מונטפיורי Moshe Montfiore

المالية وفي ١٨٦٤ زار بلاد المغرب وهو في الثمانين من العمر، وتوجه إلى عاهلها أن يتكرم بمنح اليهود المغاربة حقوقا متساوية، شأن سائر رعاياه. واستجاب العاهل المغربي للطلب.

ومع ذلك يمكن القول أنه أولى اليشوف اليهودي في فلسطين خاص اهتمامه ومعظم مساعداته، فخصّهم بحصة الأسد، فبين السنوات ١٨٢٧ - ١٨٧٤. زار فلسطين سبع مرات كان آخرها عام ١٨٧٤ حين كان في التسعين من العمر.

وقد عمل في هذا المجال على مستويين:

١– اتصالات مع معظم الدول العظمى ذات الحول والصول والقول في المنطقة. وخاصة في بريطانيا، حيث بذل مساعيه لدى حكومتها ونجح في دفعها لتبني قضية اليهود في الدولة العثمانية بشكل عام، ويهود فلسطين بشكل خاص.

٢– العمل على توطين اليهود في فلسطين. وفي هذا نجح في تجنيد صديقه الحميم اللورد بالمرستون، وزير خارجية بريطانيا حينذاك، للقضية اليهودية.

وتؤكد الرسائل المتبادلة بين اللورد بالمرستون وبونسونبي[٤٢]. السفير البريطاني في العاصمة اسطنبول، طلب الأول من السفير أن يسعى لدى الحكومة العثمانية لفتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين لأن ذلك، حسب إدعاء الرجلين: الوزير وسفيره، كفيل بكسب تأييد يهود أوروبا ودعمهم و...... أموالهم، بالإضافة إلى الفائدة الإستراتيجية العظمى في الوجود اليهودي في فلسطين الذي يشكل حاجزًا بشريًا كفيلاً بإحباط مساعي «أعداء الدولة العثمانية» - المقصود محمد علي باشا والي مصر - في الاستيلاء على البلاد والمنطقة بأسرها [٤٣]..

أما مساعداته التي خصّ بها اليشوف في فلسطين فتمحورت في اتجاهين:

١– اتجاه مدني ركز فيه على مساعدة اليهود سكان المدن، خاصة يهود مدينة القدس.

٢– اتجاه زراعي سعى فيه إلى تحويل اليهود للعمل الزراعي.

(٤٢) Ponsonby

(٤٣) بديري ص ٨٦.

وكان مونتفيوري قد توصل إلى قناعة بوجوب التوجه إلى آفاق جديدة تتلخص في ضرورة تخلي اليهود عن الأعمال التقليدية مثل: الصيرفة والخدمات والتجارة، والتحول إلى العمل الجسدي، الزراعي على وجه التحديد. فلقد رأى في التحول لهذا القطاع هدفا وطريقًا لخلاص الشعب اليهودي [٤٤]. وكان قد توصل إلى هذه النتيجة بعد زيارته الثانية لفلسطين ١٨٣٩م التي دوّن في أعقابها: «كلي ثقة أنه، إذا قدر لمشاريعي الحياة والنجاح، فإن الخير سوف يعم الديار المقدسة. وبعد عودتي من فلسطين إلى انجلترا سوف أقوم بإنشاء شركة لفلاحة الأرض هدفها: تشجيع إخواننا يهود أوروبا على الهجرة إلى فلسطين، لأن كثيرًا منهم يهاجرون اليوم إلى الخارج (المقصود الولايات المتحدة الأمريكية ز.ف) ولكن لا شك أن الفائدة سوف تكون أشمل والخير أعم لو أنهم توجهوا إلى فلسطين. كلي أمل أن يشعر إخواننا العائدون إلى فلسطين بلمساتي على حياتهم اليومية».... موشه مونتفيوري: كتاب موشه مونتفيوري أ. نافون [٤٥]

ولا شك أن فكرة مونتفيوري «الزراعة» كانت مستوحاة من الفكر الاستعماري الأوروبي في مستعمرات ما وراء البحار، وتتلخص في الاعتماد على الحصول الزراعي وكيفية استغلاله. ومن هنا توصل إلى نتيجة مفادها وجوب ابتياع واستنجار قرى عربية كاملة في فلسطين مع أراضيها وفلاحيها وتوطين اليهود فيها كما ذكر سابقًا وقد قام فعلاً بعرض الفكرة على محمد علي باشا (سيد البلاد آنذاك) سنة ١٨٣٩م. فطلب استنجار قرى كاملة في مناطق الحولة، الجليل، أريحا، وجبال الخليل. وعرض على محمد علي دفع ضريبة العشر، ولكن هذا جابهه بالرفض محتجًا بمعارضة أهل البلاد للمشروع المقترح وحرصهم على عدم التفريط بأراضيهم. وقد لفظ المشروع أنفاسه الأخيرة مع انسحاب القوات المصرية من فلسطين سنة ١٨٤٠م [٤٦].

حقًا لم يكتب النجاح للفكر والمشروع الزراعي اللذين دعا لهما مونتفيوري، ولكن أهميتهما كمنت في أنه أشار إلى الاتجاه العتيد الذي سوف تنهجه الحركة الصهيونية فلقد كان ذلك إرهاصًا بالتوجه المستقبلي لتلك الحركة.

(٤٤) הסטוריה של א"י כרך 8 / 203
(٤٥) ראשית הציונות ע" 90
(٤٦) הסטוריהישל א"יאות ע" 204 משכנות שאננים

بعد فترة قصيرة كرس مونتفيوري جهوده، وخاصة أمواله، لمشاريعه العمرانية في مدينة القدس. وكانت باكورة أعماله سنة ١٨٥٧م بناء أول بيتين ومطحنة حبوب هوائية في المدينة لتأمين المسكن والطحين الرخيص ليهود القدس.

بعد ثلاث سنوات أي في سنة ١٨٦٠م أتم إنجاز مشروعه الإسكاني الكبير: بناء وحدات سكنية خارج أسوار مدينة القدس أسماها مشكنوت شأننيم (المساكن الآمنة) משכנות שאננים.

وشملت المرحلة بناء عشرين منزلاً، وقد ألحق بكل منزل حاكورة صغيرة لزراعة الخضراوات والبقول للاستهلاك الذاتي.

وقد تميز المشروع وأبنيته بالموقع الجغرافي الساهر الأخاذ والذوق الرفيع والأناقة المتناهية. واعتبر الجوهرة التي تتوّج إنجازات مونتفيوري.

في الوقت ذاته بني ذلك المحسن حيًا جديدًا إضافيًا لسكنى اليهود، وهذه المرة داخل الأسوار جنوب حارة اليهود في الزاوية الجنوبية الغربية من المدينة.

ثم بنى ملجأ لإيواء المهاجرين اليهود من هولندا، النمسا، وهنغاريا ووضعه تحت رعاية وإدارة قنصل النمسا في المدينة [٤٧].

وأتبع ذلك سلسلة من المشاريع المتنوعة أوقف ريعها على اليهود المقديسيين وقد شملت: مشاغل وورشات عمل ومدرسة مهنية لإناث.

ولم ينس ذلك المحسن اليهود غير المقدسيين، فبالإضافة إلى مساعدته المالية إبتاع لهم قطعة أرض في منطقة يافا وغرسها بالحمضيات وأوقفها على سكان المنطقة ليتعلموا ويعلموا في زراعة الأشجار المثمرة.

▪ استمرار التوجه للعمل الزراعي

إن التوجه للعمل الزراعي الذي بادر إليه مونتفيوري لم يتوقف بموته، بل تبعته محاولات إضافية في الاتجاه ذاته. ففي سنة ١٨٦٩م تم ابتياع قطعة أرض من القرية العربية قالونيا (غربي القدس). وكانت تلك أول أرض زراعية عربية يمتلكها اليهود. وقد باشر الملاكون الجدد بفلاحة الأرض دون أن يستوطنوا

(٤٧) אותו ע" 207

المكان، ولم يسكنوا القرية إلا في وقت لاحق في بداية القرن العشرين حين أنشئوا عليها مستوطنة موتسا اليهودية [٤٨]. ومع نهاية ١٨٨٠م كان اليهود قد أنشئوا خمس مستوطنات في فلسطين ابتاعوا أراضيها بحجة إنشاء محطات تجارب زراعية. وقد موِّلت جميعها بأموال مونتفيوري. وقبل ذلك تجند قناصل دول أوروبية للمساهمة في مجال تحويل اليهود للعمل الزراعي، ففي سنة ١٨٣٩ قام قنصل بريطانيا جيمس فن وزوجه بشراء أراض في منطقة القدس أنشئا عليها مزرعة لتجميع اليهود وتأمين عمل زراعي لهم [٤٩].

كذلك أنشأ قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في القدس أ- غاريسون (من فلادلفيا في الولايات المتحدة) مستوطنة في ضواحي القدس أسماها رفائيم [٥٠].

وتبع ذلك تنفيذ مشتريات يهودية لأراض في مناطق مختلفة من البلاد، فلقد ابتاع أحد عناصر اليشوف وهو غرشون هركابي [٥١]. أرضًا في منطقة صفد سنة ١٨٧٠م وغرسها بكروم العنب، وأوقف ريعها على مدرسة دينية يهودية في المدينة. وفي السنة ذاتها وصل البلاد مهاجر يهودي اسمه شمعون بارمان [٥٢]. كانت له خبرة واسعة في إقامة مستوطنات زراعية في أواسط أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. وقام بابتياع أراض زراعية عربية من أراض قرية أبو شوشة (قرب كيبوتس جنوسر [٥٣] اليوم على الشاطئ الشمالي الغربي لبحيرة طبريا) وحاول إقامة مستعمرة زراعية على أراضيها، لكن المشروع باء بالفشل.

أما الجاليات الاشكنازية اليهودية في طبريا فقامت بابتياع بيارة حمضيات شمالي المدينة. وأتبَعُوا ذلك بابتياع أراض إضافية في منطقة لوبية (بين الناصرة وطبريا). كما قامت عائلة عبو باحتكار غلة النيلة في منطقة الحولة وغور الأردن.

---

(٤٨) موتسا מוצא

(٤٩) بديري ص ١٢٧

(٥٠) رفائيم רפאים

(٥١) جرشون هركابي גרשון הרכבי

(٥٢) شمعون بارمان שמעון ברמן

(٥٣) كيبوتس جينوسار קיבוץ גנוסר

أما عائلة كوهين الصفدية فقامت بابتياع أراض عربية في قرى البقيعة، حرفيش، ترشيا والصمادة في منطقة الجليل. وقام يهود آخرون بابتياع كروم مغروسة بمختلف أنواع الأشجار المثمرة.

وقام إبراهيم باشا، أثناء الحكم المصري لفلسطين، بمنح بعض اليهود المستثمرين الفرنسيين نصف قرية الجرمق الواقعة على سفح الجبل شمالي الجليل.

وفي أواخر الفترة التي نحن بصددها، وعلى وجه التحديد في سنوات السبعين وأوائل الثمانين من القرن التاسع عشر، تم إنجاز مشروعين يهوديين يمكن إدراجهما ضمن الجهود الرامية إلى تحويل اليشوف إلى العمل الزراعي وهما:

- إنشاء المدرسة الزراعية مكفة يسرائيل سنة ١٨٧١ [٥٤].
- إنشاء مستوطنة بتيح تكفا (بوابة الأمل) سنة ١٨٧٨ - ١٨٨١ وهي أم المستوطنات [٥٥].

▪ **المدرسة الزراعية «مكفة يسرائيل» :**

لعل أبرز المحاولات للتحول للعمل الزراعي كان إقامة المدرسة الزراعية مكفة يسرائيل. كانت البداية عام ١٨٦٠ حين أنشأت شركة يهودية أطلقت على نفسها اسم «كياح» [٥٦] (بمعنى أن كافة بني إسرائيل شركاء متكافلون) وكان اسمها الأول «الاليانس» [٥٧] أي الاتحاد الإسرائيلي العالمي. وكانت الفلسفة من إقامة الشركة هي القناعة بأن التعليم الحديث يؤدي حتمًا إلى تحسين أوضاع اليهود من «النواحي الاقتصادية والاجتماعية والمعيشية» ويساعدهم على تأمين حقوقهم في الدول التي تحرمهم منها أو تنتقص منها. وعلى هذا الأساس بادرت الشركة، منذ اليوم الأول لتأسيسها، إلى إقامة شبكة المدارس والمعاهد التعليمية المهنية في دول حوض البحر الأبيض المتوسط.

---

(٥٤) مكفيه يسرائيل מקוה ישראל

(٥٥) بيتح تكفا פתח תקוה

(٥٦) כי"ח مختصر الكلمات כל ישראל חברים

(٥٧) اليانس אליאנס Alliance Israel Universelle

وفي إطار هذا النشاط التربوي التعليمي أقامت الشركة مدرستها الأولى في مدينة تطوان في المغرب سنة ١٨٦٢م. وقد نجحت في وقت لاحق عشية الحرب العالمية الأولى في إنشاء ١٨٨ مدرسة ومعهدًا في شمال أفريقيا ودول البلقان والشرق الأوسط. وكان أشهر مؤسساتها التعليمية في جزيرة جربة التونسية والمعهد الذي أقامته في مدينة أزمير التركية، ودار المعلمين في مدينة كازابلانكا (الدار البيضاء في المغرب).

وفي إطار هذا النشاط وجهت الشركة جهودها لليشوف اليهودي في فلسطين استجابة لطلبات ذلك اليشوف، خاصة الجالية اليهودية في القدس.

أوفدت الشركة مندوبها شارل (كارل) نيتر [٥٨] لدراسة الوضع الميداني في فلسطين واستطلاع أحوال اليشوف فيها. وبعد أن أتم نيتر مهمته عاد إلى فرنسا يحمل توصياته القاضية بوجوب تغيير القاعدة الاقتصادية لليشوف وتحويله تدريجيًا إلى الزراعة. والخطوة الأولى في هذا الاتجاه: تأسيس مدرسة زراعية.

وشرع ببناء مدرسة «مكفة يسرائيل». باشرت الشركة بالعمل. وكان السلطان العثماني قد منح كارل نيتر قطعة أرض بإيجار رمزي لمدة غير محدودة من الزمن لمدة ٩٩ سنة (والمعنى العملي للأبد) بأجرة سنوية قدرها ١٨٠٠ فرنك فرنسي لإقامة مدرسة زراعية عليها سنة ١٨٧٠م. وكانت تلك الأرض ملكًا لأهالي قرية اليازور العربية (قضاء مدينة يافا) يفلحونها ويتوارثونها منذ مئات السنين، وإن لم تكن مسجلة على أسمائهم بدوائر الطابو.

وعندما تيقن الفلاحون من الكارثة وأن أراضيهم تحولت بجرة قلم إلى غرباء وتأكدوا أنهم لن يخسروا الأراضي ومصدر الرزق فقط، بل قريتهم وبيوتهم كذلك، وأنهم سوف يقتلعون من وطنهم الصغير ليلقى بهم بين السماء والطارق وعلى قارعات الطرق، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، انتفضوا وأعلنوا رفضهم الصفقة الداركونية مؤكدين تمسكهم بالأرض والبيت. ولكن المؤامرة كانت أكبر منهم وأطرافها متعددة متشعبة: فالسلطات العثمانية قررت تنفيذ الصفقة والمضي بها حتى النهاية، فلقد أثملتها أموال الرشاوى.

(٥٨) שארל (קארל)ניטר

وكذلك دعم قنصل فرنسا شركة الإليانس ومندوبها نيتر يدعوى أن الشركة فرنسية: أما الدرك المحلي - الشرطة - فقد أصرّ على التنفيذ، بعد أن أعماه ذهب الرشاوى أيضًا. وقمعت الانتفاضة بقوة السلاح، ونجحت أطراف المؤامرة في سلب الأرض واقتلاع الفلاحين وتشريدهم، وتغلب الباطل القوي على الحق الضعيف. ولكن المقاومة استمرت ولكن دون جدوى، حتى أن أحد زعماء جمعية «محبة صهيون»[٥٩] قال في فترة لاحقة «أن الأرض التي منحتها الحكومة لكارل نيتر، بعد أن قبضت الرشاوى، كانت ملكًا للفلاحين العرب. وكان باستطاعة نيتر ابتياع تلك الأراضي من أصحابها بنفس المبالغ التي دفعت رشاوى ويتجنب بذلك إثارة حفيظة السكان وإثارة القلاقل ... فالفلاح العربي لن ينسى أبد الدهر أن نيتر سلبه أرضه وانتزعها منه عنوة وبقوة السلاح وبدون وجه حق» [٦٠] وتفرق الفلاحون أيدي سبأ، وبعضهم عاد مقهورًا ليعمل أجيرًا في الأرض التي كان بالأمس سيدها ومالكها.

أما المدرسة فلم تلق نجاحًا يذكر لأن هدفها المعلن، بالإضافة إلى زيادة الإنتاج ونجاعة العمل، كان نشر الثقافة الفرنسية في أوساط اليهود في بلاد المشرق، الأمر الذي جوبه بالعداء المرير من حاخامات اليهود والمسيطرين على اليشوف ومقدراته. ففي سنة ١٨٨٠م أي بعد مرور عقد من الزمن على إنشائها، لم يزد عدد طلابها عن الثلاثين فقط، ولم يتوجه أي منهم للعمل الزراعي [٦١].

- **أم المستوطنات - «بيتح تكفا» سنة ١٨٧٨ :**

في الوقت الذي كانت فيه مدرسة مكفة يسرائيل تعاني قلة عدد الطلاب، كان الحلم الذي يداعب يهود القدس بابتياع أرض زراعية في المنطقة ذاتها وإقامة مستوطنة زراعية عليها.

وقد تحقق هذا الحلم ونجحت عائلات يهودية مقدسية بابتياع أرض من عائلتي

(٥٩) هو ميخائيل بينس מיכל פינס

(٦٠) כהן אהרון ע" 65

(٦١) הסטוריה של א"י אותו עע" 230 – 231

د. جزماوي محمد ملكية الأراضي في فلسطين ١٩١٨ – ١٩٤٨ ص ٧٣.

قصار والطيان العاملتين بالصيرفة والربا. وكانت هاتان العائلتان قد استولتا على هذه الأرض بعد أن أغرقتا الفلاحين بالديون التي تحمل فوائد فاحشة وعجز هؤلاء عن السداد، فضلاً عن عجزهم من دفع الضرائب الحكومية وعرضت الأرض بالمزاد العلني، فرسا على العائلتين المذكورتين «ملبس» وهي من أخصب أراضي فلسطين وأفضلها موقعًا، لليهود المقدسيين.

ولم يكتف هؤلاء بالأراضي التي ابتاعوها، بل قاموا بابتياع أراض إضافية من أراضي قرية العباسية العربية وأنشئوا على القطعتين أول مستوطنة زراعية على التراب الفلسطيني أطلقوا عليها اسم بتيح تكفا (٦٢) ومعناها «بوابة الأمل أو باب الفرج» ولكن هذه المستوطنة لم يكتب لها العمر المديد، إذ سرعان ما نشب خلاف داخلي بين أصحابها الجدد.

وقد زاد من تردي الأوضاع شح المنتوج الزراعي العام ١٨٨٠م، وتزامن ذلك مع انتشار الأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعية من فيضانات وسيول وانتشار المستنقعات مع كل ما تحمله من مكاره صحية وحشرات سامة وناقلة للجراثيم، خاصة الملاريا. تضافرت هذه العوامل لتكره المستوطنين المقادسة على هجر المكان والعودة إلى قواعدهم، بعد أن بوّروا الأرض وهجروا المستوطنة وتركوها خرابًا يبابًا ينعق فيها البوم والغراب. إلا أن قسمًا من أولئك المنسحبين رأى العودة ثانية إلى العمل الزراعي على أرض أخرى كانت جمعية محبة صهيون قد ابتاعتها من أهالي القرية العربية «يهود».

ومع الهجرة الصهيونية الأولى ١٨٨١م عاد المالكين المقدسيين إلى موقع بيتح تكفا في ١٨ تشرين الثاني نوفمبر ١٨٨١م وأعادوا استيطانها. ولم يلبث أن انضم إليهم مجموعة من «محبي صهيون» الروس، وابتاعوا أرضًا من أصحابها القدامى المقدسيين وجددوا استيطان المكان.

وقد ترك المستوطنون الجدد الفلاحين العرب يفلحون الأرض بالضمان ... مؤقتًا.

وبعد فترة تفجر خلاف حول ملكية مساحة ٢٦٠٠ دونم، أدعى المستوطنون الروس ملكيتها في حين أدعى الفلاحون العرب أنها لم تكن بالأصل ملكًا لعائلتي

(٦٢) מוריס בני : קורבנות ע" 60 د. جزماوي نفسه.

قصار والطيان اللتين باعتاها لليهود المقدسيين؛ فهي لم تعرض بالمزاد العلني، ولم تنزع ملكيتهم عنها (٦٣).

انفجر الوضع حين طلب المستوطنون الروس في سنة ١٨٨٦م من الفلاحين العرب إخلاء الأرض، فثارت ثائرتهم وعرفوا أن ذلك لا يعني إلا الاقتلاع والتشريد فانتفضوا ثانية. ونشب اشتباك دموي بين الطرفين، وسقط الجرحى، وعم الدمار والخراب في القريتين العربيتين وفي المستوطنة اليهودية.

تدخلت السلطات وأرسلت دركها المسلح الذي سارع إلى حل المشكلة لصالح المستوطنين اليهود، بعد أن غرق بذهب الرشوة اليهودية. وقمعت الانتفاضة وتم اعتقال ٣١ من الفلاحين «الخارجين عن القانون» وأصبحت المستوطنة أمرًا واقعًا.

وقد تميزت بيتح تكفا بما يلي:

١- اتساع رقعة أراضيها المفتلحة التي بلغت ١٢-١٤ ألف دونم.

٢- نوعية المستوطنين إذ كانوا فئتين:

أ. نواة اليشوف القديم من اليهود المقدسيين.

ب. عناصر من جمعية «محبة صهيون» من المهجرين الروس.

وكانت تفصل بين الفئتين خلافات كبيرة، وهوة سحيقة، على أرضية الفروق الاجتماعية - الاقتصادية - الدينية - الثقافة وبلاد المنشأ.

والجدير بالذكر أن كل المبادرات والتوجهات والمشاريع المذكورة لا يمكن إدراجها ضمن محاولات لإقامة كيان سياسي - قومي - سيادي في فلسطين، فلم تكن هناك أية فكرة لإنشاء دولة قومية أو وطن قومي يهودي. ولكن أهميتها تعود إلى أنها كانت إرهاصًا بالطريق الذي سوف تنتهجه الحركة الصهيونية في وقت لاحق (٦٤).

(٦٣) د. جزماوي نفسه.

(٦٤) د. جزماوي نفسه.

▪ انتشار اليشوف اليهودي الفلسطيني في سنوات الثمانين من القرن التاسع عشر عشية ظهور الصهيونية

تميز اليشوف اليهودي في فلسطين حتى سنة ١٨٨٠م أي ما قبل الحقبة الصهيونية، بالتالي:

١ـ كونه يشوفا دينيًا بعيدًا عن التطلعات السياسية ـ السيادية.

٢ـ منحصرًا بالأساس، في المدن المقدسة الأربعة القدس، الخليل، طبريًا، وصفد.

٣ـ معتمدًا في معيشته على المعونات الخارجية.

وقد أخذ هذا اليشوف في التوسع والانتشار مع تزايد وتيرة الهجرة اليهودية إلى فلسطين فانتشر، بالإضافة إلى المدن الأربعة، إلى شتى أنحاء البلاد في الساحل والداخل في الأرياف والمدن الأخرى من فلسطين.

وقد تراوحت أعداد أولئك المهاجرين وتباينت أوضاعهم الاقتصادية بين مد وجزر، وازدهار وانحطاط حسب تطور الأوضاع في المنطقة التي سكنوها. فلقد خلفت الأحداث السياسية الاقتصادية العسكرية بصماتها على كل مكان، فنعمت مناطق بالتقدم والازدهار وأخرى ابتليت بالتأخر والكساد. وهناك مناطق توسّعت وأخرى تقلصت. وقد أثر ذلك على أوضاع السكان بمن فيهم الجالية اليهودية. ويمكن تصنيف اليشوف اليهودي بحسب موقعه فهناك:

١. اليشوف اليهودي في مدن الساحل.

٢. اليشوف اليهودي داخل البلاد وهو نوعان:

أ. اليشوف اليهودي في مدن الداخل.

ب. اليشوف اليهودي في الأرياف.

١. اليشوف اليهودي في مدن الساحل الفلسطيني:

ومدن الساحل هي: يافا، حيفا، عكا، وغزّة.

وقد تميّزت الجالية اليهودية في هذا القطاع بما يلي:

أ. معظمها تشكل من اليهود الشرقيين السفراديم، في حين ظلّ عدد الاشكناز الأوروبيين محدودًا، واقتصرت أعمالهم على الخدمات الفندقية والحِرف الأوروبية، خاصة تصليح الساعات.

ب. افتقار قطاع يهود مدن الساحل لرجال علوم دينية بارزين.

ج. تبعية مدن الساحل لمدن الداخل، فقد سلمت الجاليات اليهودية في الساحل بزعامة مدن الداخل وانقسمت تبعيتها لمدن منطقة الجليل أو لأثرياء اليهود في مدن الداخل [٦٥].

أ- الجالية اليهودية في مدينة يافا:

لعل أهم حدث طرأ على مدن الساحل الفلسطيني، في فترة الحكم المصري وما بعدها كان التدهور الحاد الذي أصاب مدينة عكا. فقد أفل نجمها ليعلو مكانه نجم مدينة يافا وذلك: لموقعها الوسيط بين البلاد وبفضل مينائها الذي أصبح البوابة الرئيسية لفلسطين. فتحوّلت المدينة محطة للمهاجرين، الحجاج، الزوار السيّاح والبحّارة على اختلاف جنسيّاتهم وأعراقهم.

وقد تطورت مدينة يافا منذ الاحتلال المصري لفلسطين ١٨٣١م وتضاعف عدد سكانها. بمن فيهم يهودها: فقد بدأت الهجرة اليهودية تتدفّق على فلسطين عبر مينائها. وكانت هجرة محدودة شحيحة أول الأمر، لكن الوضع سرعان ما تغيّر عقب حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا ١٨٥٣ ـ ١٨٥٥م. والتي انتهت بهزيمة الأولى وإكراهها على توقيع معاهدة استسلام تلزمها بتحسين أوضاع الأقليات الدينية. وقد أدّى الأمر إلى إفساح المجال أمام هجرة يهودية إلى فلسطين. وبدأ تدفق المهاجرين يغمر شواطئ البلاد. وقد زاد من زخم تلك الهجرة أن تضافرت معها عوامل مساعدة أخرى مثل: تطوّر المواصلات البحرية في البحر الأبيض المتوسط واستخدام السفن البخارية السريعة الآمنة بدل السفن الشراعية البدائية.

وقد اتّخذ بعض المهاجرين اليهود مدينة يافا محطة عبور لداخل البلاد، والبعض الآخر آثر الاستقرار فيها فشهدت، تبعًا لذلك، نموًا في عدد سكانها اليهود. أضف

(٦٥) הסטוריה של א"י אותו ע" 209

إلى ذلك تدفق هجرة يهودية، داخلية من أنحاء فلسطين إلى هذه المدينة النامية التي توفرت فيها أسباب الرزق، فلا عجب أن تضاعف عدد سكانها: عربًا ويهودًا.

أما اليهود فأخذوا يرسّخون مراكزهم ويوطدون أقدامهم في المدينة، وشرعوا ينتشرون ويتوسّعون، وبادروا إلى إقامة مؤسسات ثقافية - اجتماعية - دينية وخيرية وانطلقوا يزحفون باتجاه شمال المدينة حيث رأوا فيه مجال امتدادهم وتوسّعهم وشرعوا يبنون أحياء يهودية صرفة.

ففي سنة ١٨٨٦م. أسّسوا الحي اليهودي نفي تسيدق [٦٦]. وفي ١٨٨٨م أسسوا نفي شالوم [٦٧] لسكن التجار والنخب الثرية.

في الوقت ذاته أخذت الجالية اليهودية اليافاوية تتنامى اقتصاديًا أيضًا. فأسّست الشركات التجارية والاستثمارية، الأمر الذي ساهم في تنامي شريحة كبار الأثرياء وأرباب الأموال والتجار وأبرزهم: إبراهام شالوش - حاييم امزليج - يوسف موبال - حاييم شميرلنج - رؤوبين - بلاطنر [٦٨].

وكان بعضهم يُشغل، بالإضافة إلى إدارة مشاريعه الاقتصاديّة، مناصب نواب قناصل فخريين لدول أوروبية.

ب- الجالية اليهودية في مدينة حيفا:

لم تكن مدينة يافا هي الرابح الوحيد من أفول نجم عكا، بل استفادت مدينة حيفا من هذا الأمر أيضًا، وإن كان بصورة أقل. فقد كانت حيفا الميناء الرئيسي لشمال فلسطين. وفي البداية لم تزد حيفا عن كونها قرية صغيرة يسكنها صيّادو أسماك، ولكنها شهدت في الفترة المذكورة ازدهارًا ملحوظًا. وقد مرّت على المدينة التحوّلات نفسها التي مرّت على جارتها الجنوبية يافا، فقد سكنها مهاجرون يهود قدموا من شمال أفريقيا ومن تركيا، كما تدفق إليها يهود من الداخل خاصة

(٦٦) نفيه تسيدق נווה צדק
(٦٧) نفيه شالوم נווה שלום
(٦٨) ابراهام شلوش אברהם שלוש حاييم امزلج ח"ם אמדלג
يوسف موبال יוסף מויאל حاييم شميرلنج ח"ם שמירלינג
رؤوبينن بلاطنر ראובן פלאטנר

من عكا ومنطقة الجليل وجنوب لبنان. وقد أشار إحصاء مونتفيوري للسنوات ١٨٣٩، ١٨٤٩، ١٨٥٥، ١٨٥٦م. إلى الازدياد البطيء، ولكن المستمرّ المطرد، في السكان اليهود في المدينة [٦٩].

- ففي أواخر سنوات الثلاثين من القرن المذكور لم يتجاوز عددهم العشرات.
- وفي سنوات الخمسين من القرن المذكور ارتفع العدد إلى ٤٠٠ نسمة، بينهم ٣ عائلات اشكنازية، اعتمدت في معيشتها على معونات يهود القدس.
- وفي أوائل سنوات الثمانين ارتفع العدد إلى ألف نسمة بينهم ٢٠٠ نسمة من الاشكناز. وكان اليهود يسكنون بين ظهراني العرب المسلمين والمسيحيين في الأحياء والحارات العربية [٧٠] وقد برزت من يهود حيفا شريحة من كبار التجار والأثرياء أبرزهم ليئون [٧١] الذي شغل منصب قنصل فخري لهولندا. ومنذ سنوات الثلاثين من القرن التاسع عشر المذكور أخذ عدد السكان اليهود يتنامى وشرعوا يسكنون حارة اليهود الواقعة شرقي المدينة. وقد تضاعف عدد السكان من ١٥٠ إلى ٦٠٠ نسمة؛ بينهم قلة من الاشكناز الذين عملوا بالخدمات الفندقية والمهن الأوروبية، شأنهم في ذلك شأن يهود مدينة يافا. والجدير بالذكر أنه ممّا ساهم في تطوير المدينة وجود مغارة الخضر (الياهو النبي) جنوب شرق المدينة على سفح جبل الكرمل. وكانت محجًّا للعديد من الزوار والمتبركين وموفي النذور.

ج- الجالية اليهودية في مدينة عكا:

بعد انسحاب الحملة المصرية من فلسطين عام ١٨٤٠م فقدت عكا مركزها الإداري، السياسي والاقتصادي فتدهورت أوضاعها وخرب ما كان عامرًا منها وانحطت أحوالها الخاصة والعامة.

نتيجة لذلك تناقص عدد سكانها، بمن فيهم اليهود، تناقصًا ملحوظًا، بسبب شح موارد الرزق وبدأت الهجرة من المدينة إلى الخارج بحثًا عن لقمة العيش، ولم

(٦٩) הסטוריה של א"י כרך 8 / 210
(٧٠) הסטוריה של א"י כרך 8 / 210
(٧١) لينون ליאון

يبق في المدينة إلا النواة الأساسية من سكانها القدماء (شأنها في ذلك شأن جارتها مدينة صيدا). وقد انعكس هذا الوضع البائس في إحصاء مونتفيوري:

- ففي أوائل سنوات الثلاثين من القرن التاسع عشر بلغ عدد السكان اليهود ٣٣٠ نسمة.
- وفي ١٨٥٥م تناقص العدد من إلى ١٨٠ نسمة فقط. وقد عمل سكان المدينة من اليهود بشتى أنواع الحرف، والمهن اليدوية للاستهلاك المحلي. كما عملوا أيضًا في التجارة الصغيرة فافتتحوا حوانيت بقالة في قرى المنطقة. واستمر آخرون في العمل في صناعة النسيج القطني على النمط التقليدي القديم الذي عجز عن منافسة التكنولوجيا الحديثة في الغزل والنسيج. أمّا البقية فعملت في صيد السمك [٧٢].

ومن أبرز الشخصيّات اليهودية في عكا موشى بنتشي [٧٣] الذي جمع ثروة طائلة وشغل، طوال سنين عديدة، قنصلاً فخريًا لانجلترا.

د- الجالية اليهودية في مدينة غزّة:

كانت غزّة شبه خالية من اليهود أثناء حملة نابليون بونابرت على فلسطين. وقد غادرها اليهودي الأخير عام ١٨١١م.

أثناء الحملة المصرية أمر إبراهيم باشا أن يهدم الكنيس اليهودي الوحيد في المدينة وتستعمل حجارته لبناء قلعة عسقلان.

وفي سنوات الستين من القرن التاسع عشر تجدّد استيطان يهودي من مهاجري شمال أفريقيا للمدينة. وفي سنوات الثمانين والتسعين ازداد عدد السكان ليصل عشيّة الحرب العالمية الأولى إلى ٢٠٠ نسمة: بينهم ١١٠ نسمة من شمال أفريقيا و ٥٠ نسمة من اليهود الاشكناز [٧٤].

---

(٧٢) הסטוריה של א"י כרך 8 / 210

(٧٣) موشه بنتسي משה פינצי

(٧٤) הסטוריה של א"י כרך 8 / 211

اليشوف اليهودي في داخل البلاد

والمقصود بداخل البلاد:

أ- مدن الداخل: القدس، الخليل، نابلس، طبرية، وصفد.

ب- قرى الجليل: كفر ياسيف، شفا عمرو، والبقيعة.

أ- مدن الداخل:

١- الجالية اليهودية في القدس:

شهدت مدينة القدس تزايدًا ملموسًا في عدد سكانها نتيجة لتدفق الهجرة اليهودية إليها. ففي سنوات الثلاثين من القرن التاسع عشر بلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة. ثم ارتفع في سنوات الثمانين من القرن نفسه إلى ١٥ ألف نسمة وأصبحت المدينة الأولى في فلسطين في عدد سكانها اليهود.

رافق تزايد عدد سكان القدس تناقص مماثل في عدد يهود صفد والجليل. وقد أسفرت الهجرة اليهودية المتدفقة إلى القدس عن تغيير في التركيبة السكانية ليهودا، فقد تزايد عدد اليهود الاشكناز القادمين من شرق أوروبا وارتفعت نسبتهم من ١٧ ٪ إلى أغلبية من بين اليهود [٧٥].

وقد رافق هذا التنامي السكاني في عدد اليهود ازدهار اقتصادي، الأمر الذي شكلّ حافزًا للانتشار خارج أسوار المدينة، وفي الحي اليهودي الواقع جنوب غرب المدينة بعد أن ضاق بساكنيه.

وقد تم هذا الانتشار على مرحلتين:

أ- الخروج من الحي اليهودي داخل الأسوار واستئجار دور للسكن خارج الحي، ولكن داخل الأسوار، في الحياة الإسلامية والمسيحية. وقد انتشروا في المنطقة المحصورة بين حي الأردن في الغرب وحارة المغاربة في الشرق وحارة النصارى ومنطقة السوق في الشمال. وكانت عناصر هذا الانتشار الجديد من اليهود الاشكناز.

---

(٧٥) אותו ע"204

ب- مرحلة الانتشار الكبير خارج الأسوار، فبعد أن غصّت باليهود المدينة القديمة داخل الأسوار، ولم تعد هناك أية إمكانية إضافية لاستئجار دور سكن عربية. تفاقمت الأزمة واشتدت الضائقة السكنية، وكان لابد من إيجاد حل مستعجل لتلبية الطلب الذي فاق العرض.

تداعت الجمعيات والمؤسسات اليهودية بالتعاون مع ممولين محسنين من أثرياء اليهود لحل الشائقة، وكان على رأس المتقدمين للحل أرباب رؤوس الأموال وذوو الثراء العريض وأبرزهم موشه مونتفيوري وجيمس دي روتشيلد:

ففي عام ١٨٥٤م وصل البلاد موفد جيمس دي روتشيلد، وهو ألبرت كوهين، وفي عام ١٨٥٥ وصل موشه مونتفيوري بنفسه، تصحبه حاشية ضخمة من أبناء عائلته ومستشاريه ومساعديه وموظفيه. وقد تعهد بالقضاء على الضائقة السكنية لأبناء جلدته. وكانت تلك هي زيارته الرابعة لفلسطين فبنى الحي المعروف باسمه « حي مونتفيوري » المسمى «مشكنوت شأننيم»، بالإضافة إلى كنيس ومؤسسات خدمة صحية واجتماعية.

وانهالت بعد ذلك مشاريع البناء، وقد شمل البناء والتوسع اتجاهين

أ- توسع داخل أسوار المدينة في الأحياء الإسلامية والمسيحية. وكان التركيز منصبًا على بناء معاهد دينية شمال شرق حارة اليهود.

وتبع ذلك افتتاح الأسواق التجارية والحوانيت اليهودية، ثم لحق بإنشاء مؤسسات صحية - اجتماعية - ثقافية - دينية - وخيرية.

ففي ١٨٨٢م بنى ميتم (دار للأيتام) في شارع السرايا.

وفي ١٨٩٠م معهد ديني يهودي في منطقة «درب الآلام».

وفي ١٩٠٩م مدرسة دينية اسمها «حيي عولام» (الحياة الدنيوية) [٧٦].

ب- أما التوسع الثاني فكان الانتشار خارج أسوار المدينة، فبعد بناء حي مونتفيوري «مشكنوت شانئيم»، بنى الحي اليهودي الثاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأطلق عليه اسم «محنيه يسرائيل» [٧٧] (معسكر إسرائيل)

---

(٧٦) حي عولام — ח"י עולם

(٧٧) محنيه يسرائيل — מחנה ישראל

وخصص لسكن يهود شمال أفريقيا. وقد تم بناؤه بجهود ذاتية وتمويل خاص، ولم يلبث أن أطلق عليه «حارة المغاربة» [٧٨].

وفي سنة ١٨٦٩م بني حي جديد هو نحلات شفعا [٧٩] (ضيعة السبعة): والمقصود سبعة الشركاء الذين أسسوا «الشركة السباعية»، وهي مبادرة اشكنازية، وكانت معلمًا بارزًا في تاريخ يهود القدس، إذ سرعان ما أخذت تتشكل الشركات تباعاً، حاذية حذو الشركة السباعية. فظهرت شركات بناء البيوت في أحياء يهودية خارج الأسوار. ففي عام ١٨٦٤ بني حي مناه شعريم [٨٠] (البوابات المائة) إشارة إلى المبادرين المائة الذين أسسوا المشروع وفي ١٨٧٥ بني حي أيفن يسرائيل.

وفي السنة ذاتها ١٨٧٥ حي مشكنوت يسرائيل [٨١].

وفي ١٨٧٧ حي بيت يعقوب [٨٢].

وفي ١٨٧٥ حي كرياة نئمناه [٨٣].

وفي ١٨٦٨ حي نحلات شفعا [٨٤].

وفي ١٨٦٧ محنيه يسرائيل [٨٥].

وفي ١٨٧٢ حي يمين موشه [٨٦].

وتوالى بعد ذلك بناء الأحياء اليهودية : السفرادية، الاشكنازية، المغربية، الفارسية الكردية، البخارية وغيرها. وقد روعي في جميعها أن يتم البناء على شكل مجمعات سكنية محصنة محكمة الإغلاق، وكأنها قلاع، لتسهيل الدفاع عنها.

---

(٧٨) שכונת המוגרבים

(٧٩) نحلات شفعاه — נחלת שבעה

(٨٠) مناه شعريم — מאה שערים

(٨١) ابين يسرائيل ومشكنوت يسرائيل — אבן ישראל ומשכנות ישראל

(٨٢) بيت يعقوب — בית יעקוב

(٨٣) قرياه نئمناه — קריה נאמנה

(٨٤) نحلات شفعاه — נחלת שבעה

(٨٥) محنيه يسرائيل — מחנה ישראל

(٨٦) يمين موشيه — ימין משה

٢ـ الجالية اليهودية في الخليل:

الجالية اليهودية في الخليل كانت أقل الجاليات اليهودية شأناً، وكان نموها بطيئًا نظرًا للخوف الشديد الذي أبداه عرب المدينة من موجات القادمين الجدد.

وفي عام ١٨٤٠ عشية جلاء القوات المصرية، من فلسطين، كان عدد يهود الخليل ٣٠٠، وفي أوائل سنوات الثمانين، أي بعد أربعة عقود، لم يتجاوز العدد أربعمائة. وفي سنة ١٨٩٥ وصل إلى خمسمائة نسمة. واستقر هذا العدد دون زيادة حتى عشية الحرب العالمية الأولى.

وقد نعم يهود الخليل بحماية وجوار قريتي دورا وبيت جبرين العبريتين المجاورتين. والطريف أن جالية الخليل اليهودية خصّصت مرتبًا سنويًا لشيخ قرية دورا [٨٧] مقابل الحماية والجوار. وقد أدرج هذا المرتب تحت بند «مخصصات الشيخ الأسود» [٨٨].

وقد حافظ يهود الخليل، حتى سنوات السبعين من القرن المذكور، على التقوقع والانغلاق داخل حاراتهم. ولكن حين هاجر اليهودي الثري حاييم يسرائيل رومانو إلى المدينة سنة ١٨٧١، قادمًا من العاصمة اسطنبول، ابتاع قطعة أرض خارج المدينة القديمة وبنى عليها بيتًا فخماً. وفي أعقاب ذلك بدأت البيوت والمؤسسات اليهودية تبنى تباعًا.

أما مصدر عيشة يهود الخليل فكان: التجارة والحرف اليدوية، ولكن الاعتماد الأساسي ظل معتمدًا على مخصصات التوزيعة القادمة من وراء البحار.

وقد دأب يهود فلسطين عامة، ويهود الخليل بصورة خاصة، على زيارة الأضرحة والمقامات المقدسة في مغارة «المكفيلة» في الحرم الإبراهيمي للتبرك [٨٩].

(٨٧) هو الشيخ عبد الرحمن

(٨٨) ל "הרב השחור" . הסטוריה של א"י כרך 8/ 214

(٨٩) הסטוריה של א"י כרך 8 ע"215

٣ـ الجالية اليهودية في مدينة نابلس:

إن الظاهرة الغريبة التي ميزت يهود نابلس في الفترة المذكورة، تناقصهم المستمر، فمنذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين، ظلت أعدادهم تتراجع باطراد. والأسباب متعددة أهمها:

- الافتقار إلى مصدر رزق، فاليهودي النابلسي لم يصمد في المنافسة مع التاجر والحرفي النابلسي العربي القدير.
- تضامن وتلاحم المجتمع العربي النابلسي وتماسكه كالبنيان المرصوص إزاء أي تهديد خارجي.
- العداء النابلسي لليهود الغرباء.
- الافتقار إلى حماية قنصلية محلية كتلك التي تتمتع بها سائر الجاليات اليهودية في أنحاء البلاد.

وفي سنة ١٨٦٠ جرت محاولة لإنعاش الجالية اليهودية في المدينة، وذلك بتحويل عدد من اليهود المقادسة إليها، ولكنها باءت بالفشل الذريع.

في سنة ١٨٦٦ بلغ عدد اليهود في نابلس ٦٢٠ نسمة، عملوا في صناعة الحرير الطبيعي ومختلف أنواع الحرف اليدوية: إسكافية، صباغين، ساعاتية وغيرها.

وفي سنة ١٩٠٨ زار بن تسفي المدينة فلم يجد أثرًا لأي يهودي. أما الطائفة السامرية على جبل جرزيم فقد ظلت على حالها، وحافظت على كيانها ولغتها وعددها [٩٠].

٤ـ الجالية اليهودية في مدينة صفد:

الوجود اليهودي في مدينة صفد قديم، شأنه في ذلك شأن الجاليات اليهودية القديمة في أنحاء البلاد مثل: نابلس، القدس، الخليل ومنطقة الجليل، فهذه الجاليات حافظت على وجودها واستمراريتها من قديم الزمان. أما الاتجاه العام لكافة هذه الجاليات، باستثناء جاليتي نابلس والخليل، فكان التنامي والازدهار.

(٩٠) אותו 8/ 215

وقد تلقت جالية صفد اليهودية ضربات قاصمة أثناء الثورة الفلسطينية على الاحتلال المصري ١٨٣١–١٨٤٠م، فقد اعتبر اليهود حلفاء للمصريين المحتلين، وكذلك في الهزة الأرضية المدمرة التي تركت المدينة قاعًا صفصفًا. ولكن هذه الجالية لم تلبث أن استردت عافيتها وعاد إليها ازدهارها.

كانت النواة الأصلية للجالية اليهودية في صفد من الطائفة السفرادية التي هاجر عناصرها من شمال أفريقيا ولكن سرعان ما شرع ينضمّ إليها مهاجرون جدد من الاشكناز الذين قدموا من شرق أوروبا، وبدأوا يستقرون في المدينة مغيرين بذلك تركيبتها الديموغرافية اليهودية. فقد ارتفع عدد اليهود إلى ٤ آلاف نسمة في سنوات الثمانين من القرن التاسع عشر، بعد أن كان عددهم بالأصل لا يتجاوز المئات.

كان المهاجرون الجدد من الاشكناز معدودين على التيار الحسيدي. وقد قدموا من شرق ووسط أوروبا: روسيا، غالسيا، هنغاريا، ورومانيا.

وارتفع عدد اليهود في صفد عشية الحرب العالمية الأولى إلى حوالي عشرة آلاف نسمة تركزوا في حارة اليهود الواقعة على السفوح الغربية لقلعة المدينة.

تميز اليهود الصفديون بانغماسهم الكلي في النشاطات الدينية والاجتماعية. وقد انتشرت الكنس والمعاهد الدينية اليهودية في البلدة القديمة وفي سائر أرجاء المدينة. والجدير بالذكر أنه كانت تقام في ميرون من ضواحي المدينة مناسبة دينية هي زيارة ضريح الرابي شمعون بار يوحاي (٩١) وابنه على سفح جبل الجريق (ميرون) في مناسبة لاغ بعومر (٩٢).

وكانت تحيا في المقام ومحيطه الأدعية، والصلوات والدروشة وحلقات الذكر مصحوبة بالرقص والغناء والشعوذات من: حجب، تمائم، قراءة الكف، وصفات طبية للشفاء من الأمراض والتخلص من العاهات الجسمية، توسيع الرزق وتيسير الأحوال، استعادة قلب الحبيب، الشفاء من العقم، والعثور على العريس المنشود لطالبات الزواج من الآنسات والعوانس ... كل ذلك إلى جانب النشاطات

(٩١) رابي شمعون بار يوحاي   רבי שמעון בר יוחאי

(٩٢) لاغ بعومر   ל"גב בעומר

الدينية الخيرية والاقتصادية من بيع وشراء. وقد أضفت هذه المناسبة أهمية خاصة ومركزًا مرموقا على المدينة (٩٣).

٥– الجالية اليهودية في مدينة طبريا :

إن الضربتين اللتين حلتا بصفد لم تتجاوزا طبريا أيضًا؛ فلقد نكبت هذه أيضًا بالثورة الفلسطينية والزلزال المدمر. ولكن يهود طبريا لم يلبثوا أن استعادوا عافيتهم، خاصة بعد انسحاب القوات المصرية وعودة البلاد إلى الحكم العثماني المباشر، الذي رعى اليهود وحماهم بالإضافة إلى الحماية القنصلية البريطانية التقليدية.

عادت الهجرة اليهودية تتدفق على المدينة من دول حوض البحر الأبيض المتوسط ومن شرق أوروبا. وخلال فترة قصيرة تضاعف عدد يهود طبريا من ألف نسمة، عند نهاية الحكم المصري ١٨٤٠م، إلى ألفي نسمة من أوائل سنوات الثمانين ثم ارتفع إلى خمسة آلاف نسمة عشية الحرب العالمية الأولى.

وقد كانت تربط يهود طبريا علاقات وطيدة حميمة مع يهود شمال أفريقيا فأطلق على المدينة اسم «مكناس الصغيرة». وقد توطدت مكانة يهود طبريا خاصة بعد أن منح السلطان العثماني لقب «حاخام باشي» لحاخام المدينة الأكبر سنة ١٨٧٠م وكان من أثر ازدهار المدينة وتكاثر عدد سكانها اليهود، أن ازداد بناء دور العبادة والمؤسسات الدينية من كنس، مدارس ومعاهد دينية، فوصل عددها عام ١٩٠٩م إلى ٢٣. ومما ساعد على ازدهار المدينة أيضًا حماماتها المعدنية الطبية التي عادت بالفائدة العظيمة على سكانها عامة: عربًا ويهودًا (٩٤).

(٩٣) הסטוריה של א"י כרך 8 עמ" 211 -212

(٩٤) אותו עמ" 212 – 213

ب- اليشوف اليهودي في قرى الجليل :

بعد انسحاب القوات المصرية من فلسطين حل تراجع في عدد السكان اليهود في منطقة الجليل فالجالية اليهودية في قرية كفر ياسيف نزحت إلى حيفا، عكا وطبريا. أما في قرية شفاعمرو فقد تضاعف عدد سكانها اليهود في سنوات الأربعين. ذلك نتيجة لهجرة يهود مغاربة إليها. وقد أشار إحصاء مونتفيوري لعام ١٨٤٨م أن عدد يهود شفاعمرو بلغ ١٢٠ نسمة، وفي عام ١٨٥٥م بلغ ١٤٠ نسمة مع كنيس ومدرسة دينية. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وعلى وجه التحديد في ١٨٧٢م، تراجع العدد إلى ١٥ نسمة فقط. وفي سنة ١٨٨٠م قدمت ست عائلات يهودية وسكنت المدينة. وفي أوائل القرن العشرين غادرها اليهودي الأخير وانتقل إلى مدينة حيفا.

أما يهود قرية البقيعة، التي تتمتع بموقع جغرافي مميز، فقد اتخذها بعض الأثرياء من يهود طبريا منتجعًا صيفيًا وملاذًا من الأوبئة والأوخام التي تتعرض لها المدينة. وكان في القرية نواة لجالية يهودية صغيرة تعمل بالزراعة. ومع اقتراب نهاية القرن التاسع عشر أخذ عدد اليهود في القرية يتراجع رغم المحاولات اليائسة والمساعدات السخية التي قدمها مونتفيوري. ولكن ذلك لم يحل دون نزوح سكانها إلى الساحل. وفي سنة ١٩١٠م كانت القرية خالية تمامًا من أي وجود يهودي فيها (٩٥).

والخلاصة يمكن القول أنه حقًا شرعت بعض المجموعات والشرائح الدينية اليهودية تحقيق العودة إلى أرض الميعاد. ولكن لم يكن بإمكان هذا التوجه، حتى في أفضل حالاته، أن يخلق ما يزيد عن مجموعات سكانية يهودية بعيدة كل البعد عن خلق كيان سياسي و/أو سيادي مستقل أو شبه مستقل. إن أقصى ما أمكن تحقيقه تأمين تجمعات سكانية يهودية مبعثرة منتشرة هنا وهناك لا تكاد تسمن أو تغني من جوع.

---

(٩٥) אותו ע" 216

ولكن في أوروبا، الواقعة على الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط وما خلفها، بدأت ترتفع أصوات تدعو لإقامة وطن قومي لليهود على التراب الفلسطيني، حتى قبل أن يفطن أي من اليهود إلى هذا الأمر. لقد كانت تلك أصواتًا مسيحية أوروبية غير يهودية غردت خارج السرب اليهودي ويمكن تسمية أصحابها بالصهيونيين الأغيار أو الصهيونيين من غير اليهود.

الفصل الثالث

أوروبا تدعو لإقامة دولة يهودية في فلسطين

« باكورة الأصوات التي دعت إلى إقامة وطن قومي يهودي على التراب الفلسطيني لم تكن يهودية، بل مسيحية أوروبية»

لعل من أغرب الغرائب أنه طوال حقبة طويلة من الزمن لم يفطن أحد من اليهود بالمطالبة بكيان قومي يهودي في فلسطين؛ سواء كان دولة أو وطنًا قوميًا أو كومنولثًا. فحتى سنة ١٨٨١م لم ترتفع أصوات يهودية تؤمن بإمكانية تحقيق المطلب المذكور. وكان أقصى ما تطلع إليه اليهود: العودة إلى أرض الميعاد واستيطانها والعيش فيها بعيدًا عن أية سيادية قومية - سياسية.

ولكن الحال كان مغايرًا في دول أوروبا المسيحية التي تبنت هذا المطلب ورفعت ذلك الشعار. فمنذ مطلع القرن السادس عشر ظهرت في أوروبا فكرة إقامة دولة يهودية في فلسطين، وقد ترعرعت هذه الأفكار وانتشرت في المناخ السياسي الأوروبي: ويمكننا، منذ البداية، تصنيف الدول التي ساد فيها الفكر الصهيوني غير اليهودي [1] والداعي إلى المشروع الصهيوني بإقامة دولة يهودية في فلسطين إلى فئتين:

١. فئة الدول المبادرة إلى عودة اليهود وإقامة دولتهم في فلسطين. وهذه الدول هي إنجلترا وفرنسا. وكانت دوافعها دينية مذهبية واستعمارية مصلحية.

٢. فئة الدول التي لم تتطرق إلى هذا الشأن منذ البداية، ولكنها لم تلبث أن انضمت إليه لاحقًا عند الاتفاق على «مشروع بانرمان» الاستعماري سنة ١٩٠٨م، والذي دعا في بنده الثامن إلى إقامة دولة موالية للدول الاستعمارية ومعادية لشعوب المنطقة، تكون مهمتها وكيلاً لتلك الدول في المنطقة وقاعدة لها. وقد انضمت إلى هذا المخطط كل من هولندا، إيطاليا، البرتغال وأسبانيا.

أما بالنسبة للفئة الأولى فقد نشطت الدولتان المبادرتان إنجلترا وفرنسا على ثلاث مستويات:

١- مستوى كنسي مذهبي.

٢- مستوى حكومي رسمي.

٣- مستوى شعبي.

أما الدوافع الرئيسية لهذا المطلب فكانت:

١- دوافع دينية مذهبية: نشأت الفكرة المذكورة في مناخ الأفكار الدينية التي

---

(١) د. ناجي طلال محاضرات في الصهيونية ص٩

عمت أوروبا في القرن المذكور، فالمذهب البروتستانتي، المؤمن بالعهد القديم، سلم بالأفكار الدينية الاسترجاعية في حتمية عودة اليهود إلى أرض الميعاد.

٢- دوافع مصلحية استعمارية: فمع نشوء القوميات والرأسمالية واستعمار الأوربيين في القرن التاسع عشر عمت القارة أجواء سياسية دعت إلى خلق كيان غريب في قلب الشرق مهمته حراسة مصالح تلك الدول وخدمتها في المنطقة.

ولقد كانت العلاقة بين هذين العاملين: الديني والاستعماري علاقة جدلية متداخلة متشابكة. أما عناصرها فكانوا من دعاة الأصولية الدينية والاستعمار. وشكلوا كتلة بشرية متناغمة منسجمة بوحدة تخلخلت في المستويات الثلاثة المذكورة[٢]

١- الدوافع الدينية المذهبية :

تميز القرن المذكور بأنه كان قرن انتصار الرأسمالية القومية في القارة الأوروبية. وقد أطلق هذا الانتصار العنان لعملية تسابق استعماري وتكالب محموم على استعمار البلاد الواقعة وراء البحار في القارتين الآسيوية والإفريقية. ولا شك أن أحد المعالم الهامة لهذا النصر كانت سيادة الوعي والفكر القومي واستناده على اقتصاد من نمط جديد يقوم على أساس الإنتاج الواسع نتيجة للانقلاب الصناعي. وكان لا بد لهذه التوجهات الجديدة أن تعبر عن نفسها بالتوسع الاستعماري. وقد رافق هذا الزخم الاستعماري اهتمام زائد بالأفكار الدينية واستخدام الدين وسيلة لتسويغ المطامع الاستعمارية الأوروبية، بعد أن أضفى عليها مسحة دينية، إذ أن معظم الحملات الاستعمارية، إن لم يكن كلها، صاحبتها حملات دينية مسيحية تبشيرية.

وفيما يتعلق بالمسألة اليهودية فقد قاد أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة حملة نشاط ديني تحت غطاء إعادة اليهود إلى أرض الميعاد لتتم هدايتهم وتنصيرهم في وقت لاحق. وكان ذلك شرطًا أساسيًا لحلول العصر الألفي [٣].

(٢) شوفاني ص ٣١٠
(٣) منصور الحكيم : الإمبراطورية الأمريكية ص ١٣٢

وقد مثل هذه الدعوات الظاهرة التي أطلق عليها «صهيونية الأغيار» أو «الصهيونية غير اليهودية» وتركز هذا النشاط الديني بالأوساط البروتستانتية التي تأثرت بالعقيدة اليهودية ووصل ذروته في القرن المذكور. فلا عجب أن يشهد العصر اهتمامًا متزايدًا بالأفكار الدينية، وربما كستار للأطماع الأوروبية الاستعمارية عامة [٤]، والبريطانية بصورة خاصة، واستنادًا لذلك فقد كان ملائمًا لهذا التيار أن يطرح المشروع الصهيوني باستعمار فلسطين معتمدًا ركنين:

١- العقيدة البروتستانتية الجديدة.

٢- المطامع الاستعمارية.

وتعود جذور التأييد العقائدي البروتستانتي لليهودية إلى بداية حركة الإصلاح الديني في أوروبا في القرن السادس عشر. وقد أعادت الحركة الإصلاحية أفكار قديمة للظهور، وعلى رأسها فكرة البعث اليهودي للمسيحية [٥].

وقد تزعم هذه الحركة، ونظر لها الكاهن المسيحي الكاثوليكي الألماني مارتن لوثر. وقد أعلن عداءه للبابوية والكنيسة الكاثوليكية، وكتب كتابه الشهير «المسيح ولد يهوديًا» عام ١٥٢٣م. وقد شرح فيه آراءه المؤيدة لليهودية وأدان اضطهاد الكنيسة الكاثوليكية لليهود وقال إن اليهود هم «أبناء الرب، ونحن الضيوف الغرباء. وعلينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل ما يتساقط من فتات موائد الأسياد، تمامًا شأننا في ذلك شأن المرأة الكنعانية» [٦].

وعلق مارتن لوثر انتقاداته ومقولاته الخمس والتسعين التي تنتقد الكنيسة، ومنها صكوك الغفران، على باب الكنيسة، وطالب بإصلاح الكنيسة والعودة إلى الكتاب المقدس والإيمان بنبوءاته بكل ما يتعلق بإنقاذ إسرائيل وإقامة الدولة اليهودية على أرض الميعاد [٧].

(٤) منصور الحكيم : الإمبراطورية الأمريكية ص ١٣٢
(٥) م.س ص ص ٥٥-٥٧
(٦) منصور الحكيم : الإمبراطورية الأمريكية ص ١٣٢
(٧) م.س ص ص ٥٥-٥٧

ثم سعى مارتن لوثر إلى أن يتنصّر اليهود على المذهب البروتستانتي الجديد، ولكنه فشل في ذلك وحدث النقيض، فإن اليهود نجحوا في تهويد بعض أتباعه البروتستانت، فما كان منه إلا أن انقلب على اليهود وعاداهم وأصدر كتابًا هاجم فيه كل ما يتعلق باليهود وأكاذيبهم. وكان ذلك في سنة ١٥٤٤م (٨).

ثم شرع يطالب بطرد اليهود من ألمانيا وصاح: «من ذا الذي يحول دون اليهود وعودتهم إلى أراضيهم في يهودا؟ لا أحد! إننا سوف نزودهم بكل ما هم بحاجة إليه لرحلتهم. لا لشيء إلا لنتخلص منهم. أنهم عبء ثقيل يقوّض أكتافنا، أنهم بلاء وجودنا».

على كل، تمخض استمرار المذهب البروتستانتي في زخم تأييده لليهود ومرجعيتهم عن نتيجتين:

١ ـ انتشار المذهب البروتستانتي وحركته الإصلاحية في أوروبا.

٢ ـ فشله المستجد في ردته على اليهودية وتحركه المعادي لليهود. فقد عاد العهد القديم بأسفاره ونبوءاته إلى السيطرة على أفكار اللوثريين، فبرزت الحركة المسيحية البروتستانتية السياسية الصهيونية القائلة بحق اليهود في العودة إلى أرض الميعاد.

لقد وصل الغزو اليهودي للمسيحية البروتستانتية ذروته في عهد الثورة البيوريتانية في القرن السابع عشر، حيث تبنت الفكر البروتستانتي، ونجح في تقديس العهد القديم. وطالب البيوريتان حكومتهم الإنجليزية أن تعلن العهد القديم دستورًا للقانون الإنجليزي. وقد انعكس هذا الحماس في ظاهرة المواليد البروتستانت في الكنائس بأسماء عبرية بديلاً من أسماء القديسين المسيحيين. كما تم تغيير الاحتفال بقيامة المسيح إلى يوم السبت.

وفي منتصف القرن السابع عشر بدأ البروتستانت بكتابة معاهدات تقر بحق اليهود في العودة إلى أرض الميعاد وتوطينها. وقال أوليفر كرمويل، راعي الكومنولث البريطاني، أن الوجود اليهودي في فلسطين يمهد لعودة المسيح.

وقرر هنري فش في كتابه « البعث العلمي الكبير» أنه حين تذكر إسرائيل ويودا

(٨) م.س ص ص ٥٥-٥٧

وصهيون وأورشليم في العهد القديم فإن الروح القدس لا تعني إسرائيل الروحية، أو كنيسة الرب التي تتكون من المسيحيين، أو اليهود أو كلاهما. وإنما تعني إسرائيل التي انحدرت من صلب يعقوب. وينطبق الشيء نفسه على عودتهم لأرضهم وقواعدهم القديمة وانتصارهم على أعدائهم.

وتنبأ اللاهوتيون البروتستانت في إنجلترا واسكتلندا وهولندا في القرن السابع عشر أنه في أعقاب سقوط الإمبراطورية الرومانية سوف يبدأ تاريخ الرحلة الأخيرة للنهاية وسوف تكون «بداية النهاية»، وأن واجب الدول المسيحية الاستعداد لهذا الأمر الجلل.

أما الأحداث النهائية أي «نهاية النهاية»، فقد تنبئوا أنها سوف تبدأ بعد عام ١٢٦٠م. وقد انعكس كل ذلك في ضرورة إعادة التأييد والانحياز لليهود وإيقاف اضطهادهم في إرجاء العالم.

أما الحملات الصليبية الأوروبية لاحتلال بلاد الشرق الإسلامي فبدأت تمهيدًا بعودة اليهود إلى أرض الميعاد وإعادة بناء الهيكل والدولة اليهودية لتحقيق نبوءات العهد القديم.

لقد اعتبرت الانتصارات الأولى للاجتياح الصليبي جزءًا من الخطة الإلهية من نهاية العالم وخطوة نحو «الألفية السعيدة للمسيح». وهكذا ارتبطت توقعات المسيحيين في أوروبا بمعتقدات اليهود، وخصوصًا مع ظهور التنبؤات بعودة المسيح عام ١٦٤٨ و١٦٦٦م.

وعلى الرغم من فشل تلك التنبوءات وعدم تحققها بعودة المسيح، إلا أن البروتستانت لا يزالون يتحركون، فقاموا بإعادة دراسة تقاليد العهد القديم وأدخلوا العديد من التعديلات لتوافق معتقداتهم عقائدهم الجديدة.

وخاطب الشاعر الإنجليزي وليم بليك اليهود في أواخر القرن الثامن عشر قائلاً في قصيدة له :

استيقظي يا انجلترا!

استيقظي فأختك أورشليم تناديك (٩).

(٩) شولوش الكزاند – تحولات جذرية في فلسطين ص ٦٣

وقد تزعم هذا الطرح كل من بريطانيا وألمانيا اللتين تدينان بالمذهب البروتستانتي، فكان التطلع الأوروبي لغزو بلاد الشرق الإسلامي الذي انتهى بالمطالبة بدولة يهودي ذات دعوى مزدوجة.

١ـ المحافظ على رعايا الدولة الأوروبية المسيحيين ورعاية مصالحهم في أنحاء الدولة العثمانية.

٢ـ العمل لتحقيق نبوءة العهد القديم بقدوم المشيح وإعادة الدولة اليهودية.

وعلى هذا الأساس كانت المهمة الرئيسية للقنصل البريطاني الأول في مدينة القدس يونغ [١٠] ١٨٣٩م تأمين حماية اليهود، بالإضافة إلى إرساء قواعد المذهب البروتستانتي في البلاد. فمع وصوله للبلاد لمباشرة مهمته رأي أن المذاهب المسيحية الأخرى قد سبقت الكنيسة البروتستانتية وتفوقت عليها،وذلك لأنها كانت قد ارتكزت على قاعدة دينية كنيسة أرثوذكسية أو كاثوليكية، بينما الكنيسة البروتستانتية كانت تفتقر إلى مثل هذه القاعدة التي تمكنها من منافسة المذاهب الأخرى. وكان لا بد لهذا القنصل من تنسيق الأمور مع بروسيا (ألمانيا) البروتستانتية على المستوى الحكومي والكنسي لتعيين أساقفة الكنيسة البروتستانتية المزمع إقامتها، على أن يتناوب عليها أساقفة إنجليز وألمان وأن تتكفل الدولتان بالنفقات مناصفة. وبعد ذلك تباشر الأسقفية الجديدة مهماتها؛ وأولها رعاية اليهود والدعوة لإقامة دولتهم على الأراضي الفلسطينية.

باشر القنصل يونغ عمله بتأسيس أسقفية بروتستانتية أنجلو بروسية في القدس ١٨٤١م وبناء كنيسة بروتستانتية هي كنيسة المسيح ١٨٤٨م. وتبع ذلك تنصيب أسقف بروتستانتي استجابة لدعوات المؤسسة الدينية التبشيرية البريطانية التي كان أبرز مؤسساتها:

- الجمعية الكنسية التبشيرية [١١].
- الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود [١٢] التي تأسست ١٨٠٩م .

(١٠) Young
(١١) The Christian Missionary Society
(١٢) The Society for promoting Christianity among the jews

وقد تم اختيار الأسقف الأول مايكل سلومون الكزاندر، وهو يهودي متنصر، وعهد إليه بمهمتين:

١ـ خلق نواة لطائفة مسيحية بروتستانتية محلية في فلسطين:

٢ـ تنصير اليهود كمرحلة في طريق إعادتهم إلى فلسطين ... وكان هذا المسعى هو العزيز على قلب الإنجيلية البريطانية، فهو الهدف الأساس « للجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود».

وقد سعى الكزاندر لتحقيق الهدف بإنشاء طائفة بروتستانتية من اليهود المتنصرين. وبعد مساع حثيثة وجهود مضنية لتنصير اليهود كانت الحصيلة هزيلة، لم تحقق حتى الحد الأدنى المتوقع منها. فقد جوبهت المحاولة بمقاومة عنيفة شديدة من الطائفة اليهودية وحاخاماتها الذين نجحوا في إجهاضها. ومع ذلك فإن البروتستانت، بعد أن حصلوا على الاعتراف بهم كطائفة رسمية في الدولة العثمانية سنة ١٨٥٠، وضعوا الأساس المتين لممارسة مهمة الحماية والرعاية للجالية اليهودية.

وعلى هذا الأساس كان الدرس الأول الذي تعلمه الأسقف صموئيل غوباتث [١٣] الألماني الذي خلف الكزاندر. التخلي عن فكرة تنصير اليهود واستبدالها بمحاولة تحويل المسيحين الأرثوذكس والكاثوليك إلى المذهب البروتستانتي.

أما على المستوى الحكومي الرسمي فبعد أن باشر يونغ عمله لخص استنتاجاته في تقرير بعث به إلى حكومته في لندن ويقول فيه: « إن هناك فريقين سوف يطالبان في المستقبل بحق إبداء الرأي في الشأن الفلسطيني وهما:

١ـ اليهود الذين منحهم الله في الأساس ملكية هذه البلاد.

٢ـ البروتستانت أحفاد اليهود الشرعيون.

أما بريطانيا العظمى فهي الراعي والحامي الطبيعي لكلا الفريقين الذين يطمحان الآن بالاندماج في صفوف الطامعين المطالبين بفلسطين» [١٤]

(١٣) Samuel Gobbat
(١٤) شولش ، ص ٦٠

وقد خلف القنصل الأول يونغ القنصل الثاني فنّ الذي استمر في النهج ذاته وركز جهوده على رعاية اليهود وحمايتهم، واعتبر ذلك على رأس سلم أولوياته، فأخذ على عاتقه أن يكون الوصيّ العرّاب لليهود في شتى أنحاء فلسطين سواء كانوا من رعايا الإمبراطورية البريطانية أو رعايا دول أخرى.

ولا غرابة في ذلك فلقد كان مؤمنًا بفكرة الوطن اليهودي، فمنح اليهود تأييده المطلق، ويذكر في هذا المجال أن زوج فنّ، اليزابيت، كانت ابنة الكزاندر ماك كاول [١٥] أبرز رجال التبشير الديني البروتستانتي في بريطانيا. وكان مرشحًا لشغل منصب الأسقف البروتستانتي الأول في القدس، ولكنه تنازل لصالح مايكل سلومون، هذا الذي أصبح أول أسقف إنجليكاني في الديار المقدسة [١٦]. وتبع يونغ وفن قناصل أوروبيون يمثلون دولهم: فرنسا، وإيطاليا وروسيا، وألمانيا. وقد افتتحوا قنصلياتهم في المدن الفلسطينية: القدس، بيت لحم، الناصرة، يافا، اللد، الرملة، غزة، حيفا، عكا، طبريا وصفد.

وقد اضطرت السلطات العثمانية للموافقة على تعيين أولئك القناصل.

وانفرد القنصل البريطاني بمهمة تبني الجاليات اليهودية في أرجاء الدولة العثمانية عموماً، وفي فلسطين بصورة خاصة.

في نفس الوقت باشرت المؤسسات الدينية البروتستانتية الإنجليزية والألمانية برعاية المصالح اليهودية وتحولت بذلك مع حكومتيها إلى عرابي الجاليات اليهودية في فلسطين.

ولعل أفضل صورة للعلاقة العضوية للبروتستانتية البريطانية مع المسألة اليهودية تلك التي عبّر عنها د. وايزمن في مذكراته ص ١٨. يقول وايزمن: من حقك أن تسأل عن أسباب الحماس الإنجليزي للقضية اليهودية ولدعم اليهود وشدة تعاطف الإنجليز على أماني اليهود في فلسطين. والجواب أن الإنجليز، ولا سيما أصحاب المدرسة القديمة، هم أشد الناس تأثرًا بالتوراة (العهد القديم ز.ف) وأن تدين الإنجليز هو الذي ساعدنا على تحقيق آمالنا لأن الإنجليزي المتدين

(١٥) Alexander MC. Caul

(١٦) הסטוריה של א"י אותו עמ' 8

يؤمن بما ورد في التوراة من حتمية عودة اليهود إلى فلسطين. وقد قدّمت الكنيسة الإنجليزية من هذه الناحية أكبر المساعدات.

أما باقي الدول الأوروبية، خاصة فرنسا وروسيا فإنها لم تبد اهتمامًا خاصًا بالجاليات اليهودية ووجهت جل اهتمامها إلى الأقليات العرقية الدينية العربية الأرثوذكسية والكاثوليكية وإلى رعاية مصالحها ومشاريعها الاقتصادية في الدولة العثمانية [١٧] فالمصالح الفرنسيّة انحصرت بالأساس في كل من سوريا ولبنان واقتصرت على:

١. رعاية مصالح رعاياها ورعايا الدولة العثمانية من الكاثوليك.
٢. محاولة تغلغل ديني تبشيري ثقافي بشري في البلاد.
٣. توظيف رؤوس أموال فرنسية في المشاريع الاقتصادية وأهمها منشآت ميناء مدينة يافا.

أما روسيا فانحصر همها في :

١. حماية الرعايا الروم الأرثوذكس في الدولة العثمانية.
٢. تغلغل ديني تبشيري ثقافي اجتماعي في إطار فكرة "الدين في خدمة السياسة"
٣. الزحف جنوبًا باتجاه المياه الدافئة من البحر الأسود حتى البحر المتوسط.
٤. اقتطاع أكبر جزء من الدولة العثمانية وضمّها إلى الدولة القيصرية الروسية تحت شعار «تحرير المسيحية من النير العثماني» [١٨].

أما بالنسبة للمسألة اليهودية فتغافلت عنها، ولم تضعها على أجندة أعمالها.

٢- الدوافع الاستعمارية:

إن العلاقة المترابطة بين الدوافع الدينية المذهبية الإنجليكانية والمصالح الاستعمارية أملت، بشكل مباشر، على الدول الأوروبية سياساتها تجاه الشرق بصورة عامة، وتجاه اليهود بصورة خاصة. فلقد كان لكل دولة مصالحها الاستعمارية، ولبعضها منظورها الديني في إعادة اليهود إلى وطنهم وتأسيس

(١٧) شولش ، ص ٦٩- ٧٠

(١٨) م.س ، ص ٧٠ – ٧١

دولتهم على ترابه. ولكن كلا الشقّين التقيا في وجوب خلق كيان غريب في المنطقة تكون غايته حراسة مصالح الدول الاستعمارية والوقوف في وجوه شعوب المنطقة الأمر الذي تمّ الاتفاق عليه « بمشروع بانرمان» سنة ١٩٠٨م فقد بدأت جذور المشروع تترسخ منذ الحملة الفرنسية على الشرق. فلقد كان نابليون بونابرت هو أول من لفت الأنظار إلى أهمية منطقة الشرق وخطرها في تقرير مصير الصراع الاستعماري الدائر بين الدول الأوروبية. وقد قاد هذا الغازي قواته لاحتلال الشرق زاحفًا إلى مصر ثمّ فلسطين وتوجّه في ٢٠ شباط، فبراير، ١٧٩٩م إلى مدينة غزة وناشد يهود آسيا وأفريقيا دعم جهود فرنسا لاسترداد مدينة القدس. وقد وعد اليهود بإعادتهم إلى أرض الميعاد إن ساعدوه في تحقيق أهدافه، وطالبهم أن يدعموا القيادة الفرنسية لتتمكن من «استرداد العظمة الأصلية لبيت المقدس» إذا ساعدوا جيوشه على إنجاز مهمتها [١٩].

وفي نيسان/ أبريل من السنة ذاتها، أثناء حصار مدينة عكا، دعا اليهود مجددًا للسير تحت رايته لإعادة تأسيس القدس القديمة وقد وصف اليهود « بأنهم أمّة فريدة وصاحبة حق مشروع في وراثة فلسطين». وبذلك يمكن القول أنه أول الصهيونيين في العصور الحديثة [٢٠].

إن دعوة نابليون لم تحرّك لدى اليهود ردود فعل إيجابية بقدر ما حركت طروحًا مستقبلية في أوساط سياسية بريطانية ونبّهت إلى المخاطر التي يمكن أن يخلقها هذا التوجّه الفرنسي النابليوني على مصالح بريطانيا الاستعمارية [٢١].

وفشلت الحملة الفرنسية أمام صمود عكا واستبسال واليها أحمد باشا الجزار وعاد نابليون مخذولاً يجرّ ذيول الهزيمة. وتنفست بريطانيا الصعداء فلقد زال الخطر وأمنت مصالح الإمبراطورية. ولكن هذه العملية فتحت العيون على المخاطر التي تتربّص بها في المنطقة الحسّاسة [٢٢].

(١٩) شوفاني ، ص ٧٢
(٢٠) كيالي ، ص ٢٨ – ٢٩
(٢١) شوفاني ، ص ٣٢٥.
(٢٢) كيالي ، ص ٢٦

ولم تنقض فترة طويلة من الزمن حتى عاد الكابوس الفرنسي ثانية يقضّ مضجع بريطانيا العظمى، ففي سنة ١٨٦٠م، أي بعد ٦٠ سنة من حملة نابليون، حين كان التنافس الأوروبي الاستعماري في أوجه في الشرق طرح لاهارن السكرتير الشرقي للإمبراطور نابليون الثالث [٢٣] فكرة إنشاء دولة يهودية في فلسطين تكون موالية لفرنسا وركيزة لها في الشرق حين يحين القوت لتفكيك الدولة العثمانية. وتأكيدًا لهذا الطرح صدر في السنة ذاتها كرّاس «المسألة الشرقية الجديدة» يدعو إلى إعادة اليهود إلى أرض الميعاد تحت المظلة الفرنسية المحرّرة [٢٤].

ولم تترك الأحداث المتلاحقة بريطانيا العظمى منذ القرن التاسع عشر تنعم بالاطمئنان والأمان. فقد تتالت الأحداث المستجدة التي شكّلت تهديدًا للمصالح البريطانية.

كان أولّها الحملة المصرية التي شنّها محمد علي باشا، والي مصر على فلسطين، واحتلالها لمدة تسع سنوات ١٨٣١–١٨٤٠م.

وثانيها افتتاح قناة السويس ١٨٦٩م بإشراف وهندسة ودعم فرنسي المنافس اللدود لبريطانيا.

وثالثها الثورة العربية الوطنية التي قام بها الضابط المصري أحمد عرابي باشا في ١٨٨١م. وسعى فيها للإطاحة بحكم الخديوي الفاسد توفيق واستبداله بحكومة وطنيّة. فما كان من الخديوي إلا أن استنجد ببريطانيا واستنصرها على الثورة الوطنية. وقد استجابت بريطانيا لطلبه ووجّهت قواتها للإطاحة بالثورة وتثبيت حكمه وبالتالي احتلال البلاد. وهكذا فرضت بريطانيا سيادتها وهيمنتها على مصر وحالت دون قيام حكم وطني قد يهدد مصالحها [٢٥].

وقد بيّن رئيس حكومة بريطانيا بالمرستون سياسة حكومته في المنطقة وحصرها في النقاط التالية:

(٢٣) Laharanne
(٢٤) جارودي ، ص ٣١٣
(٢٥) Palmer Stone

أ. تأمين طريق بريطانيا - الهند عند المفصل المصري الفلسطيني.
ب. الحيلولة دون قيام كيان محلي قويّ في المنطقة قد يهدد المصالح البريطانية.
ج. إقامة كيان أجنبي غريب يتولى مسؤولية تأمين تلك المصالح ويشغل في الوقت ذاته وظيفة كيان وكيل للاستعمار البريطاني في المنطقة. ولم تجد بريطانيا أفضل من كيان يهودي «يضم ذلك الشعب المشرّد الذي يفتقر إلى وطن».

وعلى هذا الأساس قام بالمرستون بافتتاح أول قنصلية بريطانية في القدس أوكلت لها مهمة تبنّي قضية اليهود، كما أنه أعرب في بيان له صدر في ٧ شباط ١٨٤١م عن حماسه الشديد لقضية اليهود، باعتبارهم ضمانًا لأمن الإمبراطورية البريطانية ومصالحها. كما أكّد مسؤولية حكومته عن السعي الحثيث لتحقيق مشروع توطين اليهود مشدّدًا على دور بريطانيا كحارس طبيعي ليهود فلسطين.

فلا عجب إذن أن يكون القنصلان البريطانيان الأولان، في القدس يونغ وفنّ من أشد السياسيين حماسة واندفاعًا في هذا النهج [٢٦] «والناس على دين ملوكهم» فإن رئيس حكومتهم بالمرستون إياه كان من أكثر الناس اندفاعًا لعودة اليهود إلى أرض الميعاد. وقال إنهم لا بد أن يندمجوا في المصالح البريطانية في المنطقة. وقد طلب من سفيره يونغ أن يضع مهمة حماية اليهود ورعايتهم في سلّم أولويّاته. كما أنه أوعز لسفير بلاده في العاصمة اسطنبول أن يمارس الضغوط على السلطات العثمانية في سبيل إعادة اليهود. وقد برّر ذلك بأن دوافعه سياسية تصبّ في مصلحة بريطانيا وتتلخص في مساعدة الدولة العثمانية لاسترداد عافيتها بالاستعانة باليهود، وذلك بمنحهم حقوقًا كاملة، والاعتراف بهم كملة، ومنحهم حقوق «أهل ذمة» لأن ذلك يصب في الجهود البريطانية لمقاومة التغلغل الروسي [٢٧].

ولكن هذا المشروع باء بالفشل لتخوّف السلطات العثمانية من المطامع التوسعيّة لليهود وتشكيلهم خطرًا يتمثل في إمكانية انتقاص التراب العثماني، وبتر جزء عزيز من جسد الدولة [٢٨].

(٢٦) بديري ، ص ٨٧
(٢٧) كيالي ، ص ٢٥
(٢٨) شوفاني ، ص ٣٢٥

من الناحية الأخرى قابل اليهود سياسة بالمرستون بالفتور والإحجام. نظرًا لتخوفهم من ردود فعل عثمانية غاضبة، وبسبب الأوضاع الاقتصادية المتردية في الدولة التي لا تشجع على الهجرة والاستيطان في فلسطين [٢٩].

ولم ينثن بالمرستون عن سياسته فلقد قدّم هو وتشرشل (جد وينستون تشرشل) اقتراحًا بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين بعد انسحاب محمد علي، وادّعيا أنه لا يمكن ترك المنطقة تعيش في فراغ وتتعرّض لغزو جديد تقوم به دولة قوية بتهديد المصالح البريطانية [٣٠].

ولم يلبث بالمرستون أن قدّم اقتراحًا آخر باستخدام اليهود رأس حربة لقمع أية مطامع توسعية يقوم بها حاكم عربي محّلي تسوّل له نفسه إقامة دولة على مقربة من الشريان الرئيسي لطريق الهند - بريطانيا. وفي رسالة بعث بها إلى سفير بلاده في اسطنبول بتاريخ ١١ أغسطس ١٨٤٠م قال:
«إذا عاد اليهود إلى فلسطين تحت حماية السلطان العثماني، وبناء على دعوة منه، فإنهم سوف يتكفلون بإحباط كافة المخططات الشريرة التي قد يقوم بها محمد علي أو من يخلفه».

وقد دعا، تبعًا لذلك، إلى تهجير اليهود وتوطينهم في فلسطين ليشكلوا حاجزًا بشريًا يحول دون قيام دولة عربية قوية موحّدة تجمع المشرق العربي بمغربه. وقد وضّح في رسالته المنافع السياسية والماديّة التي تعود على السلطان من جراء تشجيع هجرة يهوديّة إلى فلسطين [٣١].

ولم تقتصر ضغوط وجهود بالمرستون، بتأييد إقامة دولة يهودية في فلسطين على البلاط العثماني، بل تعدته إلى دعوة دول أوروبا أيضًا «اقتفاء آثار كورش لتحقيق مشيئة الرب في إعادة اليهود إلى أرض الميعاد» [٣٢].

(٢٩) הסטוריה של א"י כרך 8 עמ' 8
(٣٠) شوفاني ، ص ٣١٨
(٣١) كيالي ، ص ٢٥ بديري ملاحظة رقم ١٣٥ وثيقة رقم ١١ رسالة القنصل إلى بالمرستون في ١٤ مارس. ملف وثائق فلسطين وزارة الإرشاد ١٢
(٣٢) جارودي ، ص ٣٢٦

إن هذا الفكر الاستعماري الداعم لإقامة دولة يهودية في فلسطين لم يكن مقصورًا على بالمرستون وحكومته فقط، وإنما شاركه الرأي شرائح واسعة عريضة من رجال الحكم والسياسة والفكر والصحافة في بريطانيا، أبرزهم: السير لورنس أوليفانت، المركيز سالزبوري، زانغويل، الكولونيل غاولر وليام يونغ، جيمس فن، كتشنر وهربرت صموئيل وغيرهم.

ففي سنة ١٨٦٧ صدر كتاب «مشروع استعمار الديار المقدسة» لـ موشه هس أحد كبار منظري الفكر القومي اليهودي. وقد طرحت فيه فكرة استعمار فلسطين، على شرط أن يتم التمهيد لها أولاً بإعداد نفسي وعسكري للعائدين اليهود حتى يتمكنوا من التصدّي لأصحاب البلاد الأصليين الذين وصفهم بأنهم «بدو رحل». كما أنه تنبأ أن عملية الاستيطان اليهودي لن تمر بسهولة لأنه يتوجب على أولئك المستوطنين مجابهة المقاومة العربية المحلية.

أمّا الكولونيل غاولر ١٨٦٩ - ١٨٩٦ فقد طرح فكرة توطين اليهود في فلسطين لحماية طريق المواصلات البريطانية إلى الهند ومستعمرات الشرق الأقصى [٣٣]
وفي سنة ١٨٧٥م طرح الدبلوماسي البريطاني جيمس نيل سفير بريطانيا في أستراليا، في كتاب له عن سوريا، أن لا مفرّ من استعمارها لتأمين طريق الهند. وقد رفض في كتابه الطريقة التي استخدمتها أوروبا في استعمار أمريكا لأنها، كما قال: «تحمل المخاطر والمآسي، ولا يمكن تكرارها بأية حال من الأحوال، فلا ينبغي إذن إلا استعمار سوريا بطريقة غير مباشرة، وذلك عن طريق اليهود الذين يرتبطون بالدول الأوروبية ارتباطًا عضويًا مباشرًا».

ولعل أشد المتحمسين لفكرة الكيان اليهودي كان لورنس أوليفانت ١٨٢٩- ١٨٨٨. ويعتبر هذا الناشط والرحالة والسياسي اليهودي البريطاني أحد أكبر دعاة الاستعمار الأوروبي وأحد غلاة الدعاة للوطن القومي اليهودي في فلسطين كأداة الاستعمار البريطاني في المنطقة.
وقد اتسمت سيرة أوليفانت بالغرابة فقد كان سياسيًا وفيلسوفًا ومبشرًا ورحالة وصحفيًا ونائبًا في آنٍ واحد. وكرس جزءًا من حياته للتعرف على العالم، وانتهى

(٣٣) شوفاني، ص ٣١٨

به الأمر إلى الإقامة في مدينة حيفا الفلسطينية الساحلية. وقد ألف كتابين:
١. حيفا.
٢. أرض جلعاد: رحلات في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين. وقد نشر بعد وفاته في سنة ١٨٨٩.

بذل أوليفانت جهده لإقناع السلطات التركية بالموافقة على استيطان يهودي في فلسطين تحت المظلة البريطانية. وقد التقى في دمشق مع والي المنطقة مدحت باشا الذي وافق على المشروع اليهودي في كل من جلعاد وعجلون والبلقاء موآب والساحل الشمالي الشرقي في البحر الميت، واستجلاب المهاجرين اليهود من شتى أنحاء العالم. أما الثمن الذي عرضه أوليفانت فكان:
١. دفع أموال طائلة للخزينة التركية.
٢. تحسين الصورة السياسية والإنسانية والديمقراطية للدولة التركية في عيون الغرب.

توجه بعد دمشق إلى العاصمة اسطنبول وقابل الصدر الأعظم (رئيس الحكومة) خير الدين باشا الذي بارك المشروع وجند له سبعة من الوزراء، إلا أن هذا المشروع العظيم اصطدم برفض السلطان عبد الحميد، ولم يقتصر موقف السلطان على الرفض فقط، بل تعداه إلى طرد الصدر الأعظم ووالي الشام والوزراء الذين باركوا المشروع، وبذلك ضاعت جهود أوليفانت بقرار السلطان المدعوم بتأييد كبار رجال الدولة من المسيحيين العرب الذين كانوا في موقع القرار في العاصمة. مما حدا بأوليفانت أن يشن حملة شعواء عليهم وينفث حقده وعداءه على أولئك المسيحيين العرب الذين يقفون حجر عثرة أمام تحقيق المشروع الاستيطاني اليهودي.
وقد ضمّن أوليفانت أفكاره ومواقفه في كتابه ولخصها في النقاط التالية:[٣٤]
١. تنمية موارد المنطقة لا يمكن تحقيقها إلا بإعادة الجنس الذي كان يملكها منذ ٣٠٠٠ سنة، وهم اليهود.
٢. عن طريق إقامة الكيان اليهودي في المنطقة تؤمن بريطانيا بنفسها مصالحها ومنافعها.

(٣٤) Lawrance Oliphant لورانس أوليفانت : أرض جلعاد : رحلات في لبنان وسوريا والأردن وفلسطين.

٣. العقبة الكبيرة التي تعترض المشروع تكمن في معارضة السلطان وكبار رجال الدولة من المسيحيين العرب وفي المسألة السكانية التي تتمثل في وجود عرب محليين في المنطقة. والحل الذي أرتاه لهذه المشكلة يتلخص في :

١. البدو الرُحّل يجري اقتلاعهم وطردهم في عملية ترانسفير جماعي.

٢. الفلاحون يوزعون في معزل ومحميات شأنهم في ذلك شأن الهنود الحمر في أمريكا.

٣. الباقون يُستخدمون عمالاً زراعيين أجيرين بأجور رخيصة وكأنهم عبيد عمل.

حقًا باءت جميع مقترحات وأفكار أوليفانت بالفشل، ولكنها نجحت في استثارة خيال السياسيين والعسكريين البريطانيين وأجَّجت حماسهم. كما حظيت مقترحاته بتأييد اللورد شافتسبري وزير خارجية بريطانيا، ودزرائيلي رئيس حكومتها، وهو يهودي الجذور، وشكلت أحد الدوافع لشراء الأخير أسهم مصر في قناة السويس ١٨٧٥م بعد اقتناعه بضرورة المحافظة على طريق الهند بالسيطرة على القناة، بالإضافة إلى وجوب إقامة دولة يهودية، لأن ذلك يعود بالخير العميم على الإمبراطورية ويحافظ على مصالحها.

ولعل هذه الفكرة كانت الدافع لادموند دي رتشيلد، الذي تعاون مع «أحباء صهيون» على تنفيذ مشروع استيطاني في مرتفعات الجولان، وعلى تأسيس شركة سكة حديد والحصول على امتياز في خلجان لرسو السفن في مواقع: عتليت، الطنطورة، وقيسارية على الساحل الفلسطيني (جنوب مدينة حيفا). وجميعها خطوات غايتها إحكام القبضة على الشرق.[٣٥]

أما المركيز سالزبوري فقد عزا فشل إقامة دولة يهودية في فلسطين (أو كما أسماها مستوطنة أو مستعمرة) إلى أن تلك المحاولات كانت تقوم على أساس ديني - عاطفي أكثر منها على أساس سياسي - اقتصادي - استراتيجي. وقد توصل إلى أن الفرصة سنحت لتحقيق المشروع بفضل التفاهم والتعاطف الذي يبديه الجمهور البريطاني [٣٦].

---

(٣٥) جارودي ، ص ٣٢٩.

(٣٦) جارودي ، ص ٣٢٠

أما زانغويل فخرج بنظرية مفادها: أنه كما أن التفتيش عن طريق إلى الهند قد أوصل إلى اكتشافات عديدة عادت بالخير العميم على الإنسانية، مثل اكتشاف شواطئ أفريقيا واكتشاف أمريكا وحفر قناة السويس فإن إقامة دولة يهودية وفلسطين تحمل في طياتها إمكانيات واسعة كذلك.

أما اللورد شافتسبري (المذكور سابقاً) السياسي والمفكر المسيحي المتعاطف مع اليهود فقد ركز على دور اليهود كوظيفة، وكانت هذه الفكرة إحدى اللبنات الأساسية في كتاباته التي دعا فيها إلى توطين اليهود في فلسطين «لأنهم جنس يتميز بتفوقه، مهارته ومثابرته، كما أن اليهود بإمكانهم توفير رؤوس الأموال الضخمة المطلوبة. بالإضافة إلى أنهم يشكلون أسفينا في سوريا يعود بالفائدة العميمة ليس على بريطانيا وحدها وحسب، وإنما على الغرب بأسره أيضًا. وقد انتهى شافتسبري إلى أن «تحويل اليهود إلى عنصر مفيد، بنقلهم إلى الشرق ليصبحوا مادة استيطانية بشرية هو الحل الوحيد للمسألة اليهودية» [٣٧]. ويذكر أن النهج ذاته استمر في فكر أساطين رجالات الفكر الاستعماري، خصوصًا أولئك الذين قاموا بأدوار خطيرة في تاريخ فلسطين مثل كرومر، كتشنر وهربرت صموئيل، وغيرهم [٣٨].

لقد كان القاسم المشترك لجميع المذكورين أعلاه فكرتين:

١. استخدام الكيان اليهودي المقترح بوظيفة وكيل للاستعمار البريطاني في الشرق.

٢. قيام بريطانيا بدور الحامي والعراب لهذا الكيان.

وإلى جانب هذا الزخم الكبير من الدعوة لإقامة دولة يهودية في فلسطين ظهر أيضًا تيار أدبي رومانسي في العهد الفيكتوري دعا هو أيضًا إلى التعاطف مع الشعب اليهودي وتأييد دولة يهودية تقام على التراب الفلسطيني. ولعل أبرز رموز هذا التيار كانت الأديبة جورج اليوت ١٨١٩-١٨٨٠م، واسمها الحقيقي ماري آن إيفانس، وقد بشرت في روايتها الأدبية «دانيال ديروندة» ١٨٦٧م

---

(٣٧) جارودي ، ص ٣٢٠

(٣٨) The land of Gilaad بديري ص ٩٠ - ٩١

بإقامة دولة يهودية. وقد لخصت فلسفتها، إن كل المفاهيم في الجنس، الدين، التقاليد والحنين إلى الماضي تدعو كلها إلى إعادة اليهود. وانتهت إلى القول أن عودة اليهود إلى فلسطين ضرورة تاريخية. كذلك اللورد بايرون في قصائده المسمّاة «الألحان العبرية» (٣٩).

وقد تدعمت فكرة الدولة اليهودية في الفكر البريطاني مع افتتاح قناة السويس ١٨٦٩م وابتياع بريطانيا أسهم مصر في القناة سنة ١٨٧٥. وفي تعاظم اهتمام بريطانيا في مصر وفلسطين. وأكدت صحافتها على أهمية البلدين وخلصت إلى أن المصلحة البريطانية تقضي بإقامة كيان موال لبريطانيا في كلا البلدين أو أحدهما على الأقل.

أن الحماس الشديد الذي ميز الدعوة البريطانية لإقامة الدولة اليهودية في فلسطين كان نابعًا من المنظور الديني المذهبي والمنفعة. بما فيه المنظور الاقتصادي، خصوصًا أن الداعين إلى عودة اليهود كانوا يتحدثون عن نقلهم بالسفن الإنجليزية على أن يبقى هذا الامتياز حكرًا على تلك السفن (٤٠).

---

(٣٩) הסטוריה של א כרך 8 עמ' 126

(٤٠) م.س. ، ص ١١٩

- مشروع بانرمان -

لم تبق الدعوة لإقامة دولة يهودية حكرًا على فرنسا وبريطانيا، إذ سرعان ما انضمت إليهما العديد من دول أوروبا أيضًا. ففي البداية كانت الساحة مسرحًا للتنافس الإنجلو ـ فرنسي، ولكن سرعان ما انضم منافس جديد هو ألمانيا، التي تحالفت مع الدولة العثمانية وأمنت مواطئ قدم لها في الشرق، مهددة بذلك المصالح الأنجلو ـ فرنسية.

إزاء هذا الخطر الألماني الداهم سعت بريطانيا لتشكيل جبهة استعمارية من فرنسا (عدو الأمس حليف اليوم)، هولندا، إيطاليا، البرتغال وأسبانيا. والهدف لجم التوسع والمد الألماني المتزايد.

وقد انتهت هذه المساعي إلى تشكيل لجنة تضم كبار المختصين في شئون الاستعمار عرفت باسم رئيسها بانرمان. وقد خرجت هذه اللجنة بتوصيات خطيرة سنة ١٩٠٨م عرفت باسم «مشروع بانرمان». ولعل أهم بنوده؛ البندان السابع والثامن، اللذان ينصّان على وجوب إقامة كيان غريب جديد في الشرق، والمقصود دولة يهودية. وتنص البنود:

١. الحيلولة دون سقوط أي من الإمبراطوريات والدول الاستعمارية.
٢. التركيز على أهمية منطقة الشرق باعتبارها حلقة الوصل بين الشرق والغرب.
٣. التأكيد على خطورة قيام عالم عربي موحد قوي تتوفر له كافة المقومات وعناصر القوة: من موارد بشرية واقتصادية وثروات طبيعية.
٤. التنبه إلى خطورة هذه المنطقة إذا دخلت مرحلة التصنيع وانتشار العلوم، الأمر الذي من شأنه تشكيل خطر داهم على الدول الاستعمارية ومصالحها وتعريضها إلى الانهيار.
٥. والواجب، إذن، العمل على إعاقة تقدم العالم العربي وعرقلة مساعيه في سبيل التطور وحرمانه من التعليم والتنظيم من أجل الوصول إلى مستوى معيشة لائق. وإن نجاح العرقلة والإحباط سوف يؤدي إلى إطالة عمر الاستعمار.
٦. والحل المقترح: دعوة الدول المشاركة في المشروع لاعتماد برنامج عمل

وخطة مدروسة تحول دون تطور المنطقة وتوحيدها وتحررها، وتعمل على إبقائها مفككة مجزأة تعاني التأخر، الجهل والفقر.

٧. وجوب العمل على فصل الجزء الآسيوي من المنطقة عن الجزء الإفريقي / أي فصل مصر عن سوريا.

٨. إقامة كيان غريب، موال للدول المشاركة في المشروع، ومعاد لسكان المنطقة على ذلك المفصل. الأمر الذي يحمل إشارة واضحة لدولة غريبة في فلسطين [٤١].

ويمكن تلخيص المشروع بما أورده نصه يقول:

« إن الخطر الذي يهدد الاستعمار يكمن في البحر المتوسط الذي يقيم على شواطئه شعب واحد يتميز بكل مقدمات الوحدة والترابط. ويجب أن تعمل الدول الاستعمارية على تفكيكه وإقامة حاجز بشري قوي وغريب يمكن للاستعمار أن يستخدمه أداة في تحقيقه».

والخلاصة يمكن القول أن الدعوة لإقامة دولة يهودية على أرض فلسطين انبعثت في البداية من فرنسا وانجلترا، ولكنها لم تلبث أن جذبت إليها معظم الدول الأوروبية التي كانت دوافعها إما دينية أو مصلحية استعمارية أو كلاهما معًا [٤٢].

(٤١) مسيري عبد الوهاب ، ١١٥٠

(٤٢) الخولي حسن صبري : مخطط بانرمان الاستعماري ، ص ص ١١٢ – ١١٦.

الشق الأوروبي يدعم الشق الحكومي - الكنسي

الحركة الألفية

في الوقت الذي كانت فيه بعض الدول الأوروبية تصر على إعادة اليهود إلى فلسطين وإقامة دولتهم على ترابها ظهر تيار شعبي مطابق يدعو الدعوة نفسها، وهذا هو تيار «الألفيين البروتستانت» وهو بروتستنتي الجذور، إنجليكاني المذهب ومركزه بريطانيا وألمانيا. وتتلخص إيديولوجيته في النقاط التالية:

١. الصراع الإسلامي المسيحي أزلي، وهو في حقيقته صراع الحق المسيحي مع الباطل الإسلامي.

٢. في الحروب الصليبية الأولى، في القرن الثاني عشر وما بعده، كان نصر المسلمين مؤزرًا وهزيمة المسيحيين الصليبيين منكرة.

٣. واليوم تعود المسيحية لتستجمع قواها وتسترد عافيتها لتشن هجومًا مضادًا بحرب صليبية جديدة.

٤. الحملة الصليبية الجديدة تتطابق في هدفها مع الحملات الصليبية الأولى، فكلتاهما تسعيان لطعن الإسلام في عقر داره واستخلاص الديار المقدسة من أيدي المسلمين. ولكنهما تختلفان في الوسيلة والأسلوب. فالصليبيون الأوائل اعتمدوا القوة والسلاح والجيوش لتحقيق الهدف، أما الألفيون فيعتمدون الإقناع والتبشير ونشر المسيحية بالحسنى. فلا عجب أن أطلقوا على حملتهم اسم «الحملة الصليبية السلمية» وتجري في المنظور العقائدي للألفية المسيحية التي تبنت رؤيا مشيحيانية أهم مرتكزاتها:

١– الدعوة لإعادة اليهود إلى أرض الميعاد وإقامة دولتهم عليها. تمهيدًا لعودة المسيح الذي سوف يقيم دولة الحق والإيمان بعد أن يزهق دولة الكفر والباطل في المرحلة الأولى.

٢– المرحلة الثانية تشمل تنصير اليهود، فمن يتنصر يَنْجُ ومن يرفض يهلك. وقد تبنّى هذه الدعوة «الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود». [٤٣].

(٤٣) كنعان ، ص ٢٦

٣ـ أن دولة المسيح الجديدة سوف تعمر ألف سنة بالتمام والكمال، وبعدها تقوم الساعة. ومن هنا أطلقت الحركة على نفسها «الحركة الألفية» [٤٤].

ومن أبرز رموز هذا التيار الداعيان الإنجليزيان اللورد شافتسبري وأوليفانت، وكذلك الأمريكي نوح مردخاي الذي شغل مناصب رفيعة. وقد قام في عام ١٨٢٥ بابتياع جزيرة «غراند إيلاند» [٤٥] على نهر نياغارا في الولايات المتحدة الأمريكية لإقامة دولة يهودية اختار لها اسم «دولة إرارات». ودعا العالم المسيحي للمساهمة في تحقيق الحلم اليهودي.

وقد انتشرت الحركة الألفية وعمت أوساطًا مسيحية واسعة في بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة. وأصبح شغلها الشاغل مصير اليهود وارتباطهم بأرض الميعاد. وقد رأت الحركة أن واجبها العمل على إعادة اليهود إلى فلسطين، والطريق إلى ذلك لا يكون إلا بهجرة يهودية وتحويل اليهود إلى العمل الزراعي[٤٦].

وقد أنتج الدعاة والمبشرون، الحجاج والبحاثون في شئون فلسطين كمية هائلة من الأدبيات حتى بات في وسع الناس في أوروبا في النصف الأول من القرن التاسع عشر أن يجدوا من المعلومات المفصلة عن فلسطين أكثر مما يجدون عن أي بلد آخر خارج أوروبا. وبات الرأي العام الأوروبي مقتنعًا بحق امتلاك الأراضي المقدسة قبل أي أرض أخرى خارج أوروبا [٤٧].

وقد ركزت هذه الحركة على ثلاثة محاور، وجميعها تصب في صالح المشروع اليهودي، وهي:

١ـ إعادة اليهود إلى فلسطين.

٢ـ حملة صليبية سلمية.

٣ـ استيطان أوروبي لفلسطين.

---

(٤٤) Christian Millenarians

(٤٥) Grand Island

(٤٦) הסטוריה של א כרך 8 עמ' 228

(٤٧) شولش ص ٧٤.

(٤٨) Resturation of Jews

١. إعادة اليهود إلى فلسطين [٤٨]

إن الفكرة المحورية التي شكلت العمود الفقري للمذهب الإنجليكاني تمركزت على «الخطة الإلهية لخلاص العالم» التي تتم على مرحلتين:

١ـ إعادة اليهود إلى أرض الميعاد وإعادة بناء هيكل سليمان على جبل الموريا.

٢ـ مجيء المسيح وإقامة دولة الألف سنة [٤٩].

وعندما تمت بلورة الفكرة وصياغتها في مطلع القرن التاسع عشر، أخذ منظروها يبحثون عن علامات الساعة التي تبشر بالعودة، فأشاروا إلى انهيار البابوية والإسلامية (أي الدولة العثمانية) هي من علامات الساعة.

وقد بدأوا يتحزرون، ويضربون أخماسًا في أسداس، عن ماهية تلك الدولة أو الشخص الذي سوف يقوم الرب باختياره ليكون الأداة الإلهية لتنفيذ العودة. وعندما هبط نابليون، بحملته الشرقية على مصر وسوريا، اعتقدوا أنه هو منفذ تلك الإرادة ولكن حين فشلت الحملة تحولت الأنظار إلى بريطانيا، وكأنها هي الدولة الموكول إليها تنفيذ إرادة الله. وانعكس ذلك في نشرة أذيعت خلال حرب القرم التي شنتها روسيا القيصرية ضد الدولة العثمانية ١٨٥٣ ـ ١٨٥٥ «هللي يا بريطانيا فلقد اختارتك يد القدر لتعيدي أتباع جنس يهودا، المهمل المشتت منذ أمد بعيد إلى ديارهم الجميلة». وقد انتشرت فكرة الإعادة بين أوساط عامة الشعب الإنجليزي وأصبحت مألوفة متداولة.

وفي أواخر سنوات السبعين من القرن التاسع عشر انزلقت تلك الفكرة في تيار الاستعمار وارتبطت بمشروعاته، ففي ١٨٧٨-١٨٧٩م طالب رجل الصناعة البريطاني شارلز وارين [٥٠]، وهو أحد الناشطين في «صندوق استكشاف فلسطين» [٥١]، تسليم الديار المقدسة، نظرًا لإفلاس الدولة العثمانية، إلى شركة شبيهة بشركة الهند الشرقية لمدة عشرين عامًا. وتقوم هذه الشركة بضمان الضرائب الحكومية المستحقة على فلسطين، بعد أن تدفع لدائني الدولة جزءًا من

---

(٤٨) Resturation of Jews

(٤٩) شولش ص ٧٦-٨٠

(٥٠) Charles Warren

(٥١) Survey of Western Palestine

الفوائد المستحقة لهم (٥٢). وسوف تكون مهمة الشركة أيضًا توطين اليهود في البلاد بصورة تدريجية بحيث تؤول، في نهاية المطاف، إلى ملكيتهم وتصبح تحت سيطرتهم بالكامل.

أما بالنسبة للعرب الفلسطينيين فقدّم حلاً مثاليًا «أنكر وجودهم وتساءل: وأنا أسأل بالمقابل، أين هم العرب؟» (٥٣).

أما كوندر المدير الشعبي «لصندوق استكشاف فلسطين «فلم ينكر وجودهم وتساءل، ولكن «... لا أحد أنسب، لتسلّم أمور تجديد فلسطين وتوجيه سكانها الحاليين في ميدان الزراعة، من أصحابها الشرعيين اليهود، الذين هم بطبيعتهم قوم مجدّون، مجتهدون وأذكياء. إن الفلاحين العرب المحليين هم في الواقع جاهلون، وجهلهم مطبق، متعصّبون، كذّابون، ومتزمّتون من الدرجة الأولى ... ومع ذلك فإنهم يملكون من الصفات ما يمكن أن يجعل منهم سكانًا نافعين لأهل البلاد. وقد رأى الاستفادة منهم، بالعمالة الرخيصة، بتحويلهم إلى حطابين وسقائي ماء» (٥٤).

٢. الحملة الصليبية السلمية:

كانت أوروبا المسيحية بشقّيها: الكاثوليكي والبروتستانتي، على مختلف تياراتهما، مجتمعة على أمور أربعة:

١ـ عودة المسيح.

٢ـ إقامة دولة يهودية تسبق قيام الساعة.

٣ـ وجوب استرداد فلسطين واستعادتها للحظيرة المسيحية.

٤ـ مواصلة الحملات الصليبية بوسائل غير عسكرية عن طريق النشاطات الدينيّة - التبشيريّة - الثقافية - الخيرية.

وصدرت التوجيهات والإرشادات تقول: «لا ينبغي أن نحيي فلسطين بقعقعة السلاح، بل بالبشائر الهادئة للمحبّة المسيحية، وبعون البحّاثة وبثمار العمل

(٥٢) شولش، ص ص ٧٦ – ٨٠

(٥٣) م.س.، ص ٧٩

(٥٤) م.س.، ص ٨٩

السلمي. إن رسل الغرب يتوجّب عليهم أن يكونوا مبشّرين بالإنجيل: أخوة وأخوات، يقدّمون الخدمات، معلمين ومعلمات ... وعلماء أيضًا. فعن طريق التعليم والخدمة والصبر تُدخل الديار المقدسة وسكانها تحت راية المسيح ... لا عن طريق القوة وسفك الدماء».

أما "غات"(٥٥) الذي عمل في فلسطين مدة طويلة، فكان يعتقد أن الكاثوليك سوف يخرجون من هذه المنافسة مكلّلين «بالنصر» إن العالم الكاثوليكي لن ينسى القبر المقدّس، ولن يتخلى بتاتًا عن الأماكن المقدسة، وينبغي لأزمنة الحروب الصليبية أن تعود. لا بل أنها عادت بالفعل! لأن المشروعات التي يقوم بها الكاثوليك في الأراضي المقدسة في الوقت الحاضر ليست إلا حملة صليبية غير دموية تخوضها الشعوب الكاثوليكية لاسترداد الديار المقدسة».

أما المستوطنون الألمان «الهيكليون الجدد» (٥٦) فقد تجنّدوا في صفوف الحملة الصليبية السلمية وطالبوا حكومة الرايخ الألماني، في بداية سنوات الثمانين من القرن التاسع عشر إتمام العمل الذي بدأه الإمبراطور الألماني فردريك باربروسا في الحملة الصليبية الثالثة التي تلت معركة حطين.

وقد غمرت حتى الحماس الديني شرائح عديدة من المجتمعات الأوروبية وأخذت تروّج لمدّ صليبي جديد! عسكري أو سلمي. فمنذ حروب القرم وقوافل الحجاج المسيحيين تتدفق منتظمة من غرب أوروبا ولا تكاد تتوقف.

كما أن أدبيّات الحروب الصليبية انفتحت في أوروبا وأخذت مجلاّت الأرض المقدسة تكرّس مساحات واسعة من صفحاتها لهذا الموضوع.

وقد استسلم كثير من الحجاج لمشاعر اقتفاء آثار الصليبيين الأوائل، فكتب فرنسي معاصر لحرب القرم «ما أسعد العيون التي سوف ترى القدس، بل الشرق كله، خاضعة مرة أخرى لدول الصليب. وكما كان الأمر من قبل في زمن الحروب الصليبية المجيدة، فها هي فرنسا تتصدّر اليوم ثانية دور طليعة الشعوب. إن فرنسا سوف تغدو الآن، ومرة ثانية، أداة بيد الله لتنفيذ خططه».

(٥٥) Gatt

(٥٦) Neu Templers

وقال أحد فرسان القبر المقدس، بعد الفتنة الأهلية في لبنان سنة ١٨٦٠م «إن حملة فرنسية جديدة أصبحت ضرورية إذا كانت النية أن ترفرف راية الصليب فوق أسوار القدس».

وفي ١٨٨٢م نظم الإكليروس الفرنسي رحلة حج جماهيرية زادت في حجمها عن رحلات الحج الروسية العملاقة. وقد اشترك في رحلة الحج الفرنسية هذه أكثر من ألف شخص فغمروا مدينة القدس ونصف مدينتي حيفا ويافا. وكان كل مشترك يحمل الصليب الأحمر، الذي حمله الصليبيون الأوائل، على صدره أو كتفه. وإلى جانب الرايات التي تحمل شعارات الزنبق البوربوني حملت الرايات شعار الصليبيين الأوائل «لتكن مشيئة الرب». وكتب مراقب محلي أن الحجاج الحاليين كانت لهم أهداف الصليبيين الأوائل نفسها، وإنما بمعنى أكثر شمولاً وبأسلحة غير دموية.

وفي الاجتماع العاشر للاتحادات الكاثوليكية في ألمانيا ١٨٥٨م ردّد المجتمعون دعاء الصليبيين: «أيها الرب، ساعد الأراضي المقدسة، حرّر القبر المقدس من أيدي الكفار» و «إن الزمن المسيحي الثالث بالنسبة للقدس سوف يبدأ».

وهكذا كان الناس مقتنعين أن استرداد فلسطين من أيدي المسلمين بات وشيكًا، وأخذت الحركة الألفية البروتستانتية تُوثّق عرى التحالف مع اليهود انتظارًا لعودة المسيح الوشيكة [٥٧].

وقد دوّن الألماني توبلر [٥٨] بحّاثة فلسطين المشهور، في كتابه عن مدينة الناصرة ص ٣٢٢ في أواسط القرن التاسع عشر: «إن الحملة الصليبية قد بدأت، وينبغي أن تكون القدس لنا». وكذلك ولف [٥٩] الذي صاغ للرأي العام في جنوب ألمانيا صورة فلسطين فقال: «بامتلاك الأماكن المقدسة يشعر المرء أن الاستيلاء السلمي قد أنجز، وأن التاريخ الذي انقطع سنة ١١٨٧م (سنة معركة حطين الفاصلة التي هزم فيها صلاح الدين الصليبيين) قد أعيد وصله» [٦٠].

---

(٥٧) شولش ص ٨٤

(٥٨) Tobler

(٥٩) Wolf

(٦٠) شولش ص ٨٣ – ٨٤.

أما تيرويت دريك [٦١] من «صندوق استكشاف فلسطين» فقد كتب في سنة ١٨٧٢م: لا أستطيع ألا أن أقول انه سوف يكون من الأمور الممتازة لو أن الحكومة العثمانية تغلبت على نفورها من بيع الأراضي للأجانب؛ أن قسمًا كبيرًا من هذه البلاد سوف يجد حين تتوفر الضمانات الصحيحة سوقا مواتية ثم أضاف «أما بعد أن يبعد عنها الفلاحون العرب أو يحولوا إلى أعضاء نافعين في المجتمع سوف يتضح للحكومة أن مداخلها قد ازدادت كثيرًا» [٦٢].

أما هوفمان [٦٣] رئيس جمعية الهيكليين الجدد فقد توصل في ١٨٨٠م إلى أن استبعاد العرب أمر غير ممكن لأنهم:

- يشكّلون الأغلبية الساحقة من السكان.
- كونهم أصحاب البلاد الشرعيين.
- وأنهم غير عزّل من السلاح.
- وأن الحكومة العثمانية وقوى الأمن فيها، المنظمة تنظيمًا حسنًا من الناحية العسكرية، سوف تتصدى لكل ما من شأنه المساس بالسكان العرب.

غير أن هذه الحركة بشقيها: الكاثوليكي والبروتستانتي لم تلبث أن أخذت تخبو وتتلاشى نتيجة لعوامل أهمها:

١. نمو الحركات القومية العلمانية الأوروبية التي لم تعد تهتم بالمنظور الديني الصليبي أو غيره، بل انصب همّها إلى التسابق للاستيلاء على مستعمرات جديدة وراء البحار.

٢. نشوء الحركة الصهيونية منذ ١٨٨١م وبداية الاستيطان اليهودي في فلسطين، وبذلك أخذت هذه الحركة تعمل في منأى عن الحركة الصليبية السلمية.

٣. الفشل المتلاحق للمشروع الصليبي الجديد فمن ناحية أخفق في تحقيق إنجازات ميدانية على الساحة الفلسطينية، ومن ناحية أخرى عجز عن تحقيق أي تقدم ملموس في إدخال الديار المقدّسة تحت راية المسيح [٦٤].

---

(٦١) Tyrwett Drake

(٦٢) شولش ص ٨٩

(٦٣) Hoffman

(٦٤) شولش ص ٨٥

٣. مشروعات الاستيطان الأوروبية في فلسطين:

لم تلق محاولات الاستيطان الأوروبي للديار المقدسة إلا نجاحًا محدودًا. ولكن دلالة ذلك الاستيطان وأهميته كمنت في أنه شكّل الطليعة والنموذج للاستيطان الصهيوني في مرحلة لاحقه.

بالنسبة للاستيطان الأوروبي تلاقت كل من التطلعات الاستعمارية والدينية في خطط التوسع الاستعماري. وقد تعالت الدعوات إلى استيطان أوروبي لفلسطين منذ منتصف سنوات الستين من القرن التاسع عشر، سابقة الاستيطان الصهيوني بعقد من الزمن.

وقد أوضحت صحيفة «هاي لاند» [٦٥] لقرائها:

«أن من المستحسن والمحبّذ أن يستوطن عدد كبير من الأجانب الأوروبيين البلاد. وأن الخصوبة الشهيرة لواحة أريحا، لسهل الشارون الساحلي، مرج ابن عامر وأماكن إضافية أخرى في فلسطين سوف تغدو بأيدي مستوطنين مجدّين أذكياء. وسوف تقام مستوطنات أوروبية صغيرة، ويقوم الفلاحون المحليّون ببيع أراضيهم، عن طيب خاطر، للمستوطنين الأوروبيين ولا يطلبون منهم مقابل ذلك أكثر من الخبز والحماية. وفي وسع المستوطنين حينذاك أن يستخدموا السكان الأصليين عمالاً أجيرين في الأرض».

أما أوليفانت، الدبلوماسي والناشط السياسي المسيحي الإنجليزي، الذي تقدم ذكره، فقدّم مشروعه الذي يتضمّن إقامة مستوطنة يهودية في منطقة البلقاء في شرقي الأردن. الأمر الذي حدا بالأدبيات الصهيونية اللاحقة أن تصفه بالمشروع الصهيوني النموذجي، دكما وصفت أوليفانت بالصهيوني النموذجي.

وقد حاولت صحيفة «هاي لاند» المذكورة إثارة حماس الأوروبيين لإقامة مستوطنات في فلسطين وانعقدت الآمال بهذا الخصوص على إنشاء مستوطنات أوروبية على اتجاهين:

١. مستوطنات للكاثوليك. ٢. مستوطنات للهيكليين الجدد الألمان.

---

(٦٥) Heigh Land

وعلى صعيد الواقع لم يكتب للمشروع الكاثوليكي أي نجاح ميداني؛ بينما ظلّ الإنجاز الذي حققه الهيكليون الجدد هامشيًا محدودًا.

على كل حال يمكن تحديد المشروع بـ :

أ- المشروع الفرنسي الكاثوليكي للاستيطان [٦٦]

في سنة ١٨٦٦م دعا هنري دونان H.Dunnant، مؤسس الصليب الأحمر، إلى تأسيس جمعية دولية لتجديد الشرق وبعثه، بحيث يكون هدفها الرئيسي: زرع فلسطين بالمستوطنات الكاثوليكية تحت حماية نابليون الثالث. وكان المفروض أن يحمل هذا المشروع طابعًا دوليًا يؤدي إلى تدويل فلسطين.

كان المشروع الفرنسي الكاثوليكي يحمل في طيّاته توطين اليهود في فلسطين بتمويل من أرباب المال اليهود الأوروبيين، وربما طرأ على بال الإمبراطور الفرنسي أن يتولى الرئاسة العليا لدولة عبرية صغيرة تستند، رغم كونها تحت الحماية الدوليّة، على فرنسا. كما يمكن لليهود أن يؤدّوا المهمة التي كان من المفروض أن تقوم بها كل من فرنسا وبريطانيا في مجال تمدين القارة الآسيوية وتحضيرها. إلى جانب ذلك قام المشروع الكاثوليكي الفرنسي الخاص بإنشاء المستوطنات الكاثوليكية في الديار المقدسة بتشجيع رحلات الحج أيضًا. وقد نال هذا المشروع، الذي هو من بنات أفكار المهندس الفرنسي المعروف وبحاثة فلسطين بيروتي [٦٧]، بركات البابابيوس التاسع.

أما بالو [٦٨]، فكان يعتقد في سنة ١٩١٨م أن أقل الصعوبات وأسهلها سوف يجده المرء مع الفلاح المحلي، فهو سوف يوافق عن طيب خاطر، على مغادرة فلسطين بكل سرور إذا توفرت له ظروف معيشة أفضل في بلد آخر مثل: سوريا أو بابل (العراق) حين تتم إحياء قفارها بالزراعة العصرية الحديثة.

بيد أنه على الرغم من كل هذا الزخم الفكري والمساعي الحثيثة، فإن المشروع الفرنسي الكاثوليكي المذكور لم يسفر عن أي نجاح ميداني.

---

(٦٦) شولش، ص ٨٧ – ٨٨

(٦٧) Pierotti

(٦٨) Ballod

ب- المشروع الألماني للاستيطان:

أما المشروع الألماني لاستيطان الديار المقدسة فدعا إليه كولمان (فينا- النمسا) الذي كان قد أجرى دراسة استطلاعية عن تضاريس الأرض في بلاد الشرق تمهيدًا لاستيطان جرماني لفلسطين على أرضية يقظة الوعي القومي الألماني. وكان ذلك في رسالة له: سداها الشوفنية ولحمتها العصبية العرقية الألمانية.

وقد اعتبر كولمان الشرق كلّه ميدان عمل مفتوح للعنصر الألماني، الأمر الذي وسم فكره بقدر ضئيل من المنطق والعقلانية.

وقد عمد صاحب المشروع إلى خداع قرّائه بأن صور لهم فلسطين بلدًا خاليًا من السكان، وحذّر المهاجرين الألمان من النزول إلى الأرض الفلسطينية متفرّقين ووحدانًا. وأشار عليهم أن يقوموا باستيطانها في مجموعات كبيرة. لا تقل الواحدة منها عن ألف رجل قادرين على حمل السلاح ليفرضوا وجودهم على القلائل من السكان المسلمين.

على كل حال كانت باكورة مشروعات الاستيطان الألمانية ومفخرتها: مستوطنات الهيكليين (التمبلريين) الجدد الألمان منذ عام ١٨٦٨م.

ويمكن القول، منذ البداية، إن هذه المستوطنات لم تحقّق هي أيضًا نجاحًا ملموسًا، فظل نجاحها محدودًا آخذًا في التراجع والاضمحلال والتلاشي.

والهيكليون الجدد هم طائفة دينية تقوية مسيحية ألمانية انشقت عن الكنيسة البروتستانتية الإنجليكانية الألمانية في عام ١٨٥٤م. وقد تأسست في مدينة فيرتمبرغ في جنوب ألمانيا. وأكّدت هذه الطائفة على عنصرين:

١. التعمق والتبحر في دراسة العهد القديم.
٢. الاعتماد على الممارسة الدينية الذاتية.

أما التسمية التي أطلقوها على أنفسهم «الهيكليّون» فلا تمت بصلة لفرسان الهيكل: الهيكليين الصليبيين الأوائل في القرن الثاني عشر م، بل لانتسابهم إلى الهيكل. وليس المقصود بالهيكل «هيكل سليمان» بل «الهيكل الإلهي» الذي تسعى هذه الفئة لإقامته في مدينة القدس.

وقد آمن الهيكليون أن حقهم الربّاني، الذي منحهم الإله، ينحصر في امتلاك الديار المقدسة. أمّا الآلية المباشرة لتحقيق الأمر فهي الهجرة.

وقد آمنوا كذلك إيمانًا مطلقًا بكل نصوص العهد القديم ولكنهم أوّلوه تأويلاً خاصًا بهم: فقالوا إن هدفهم الأسمى النهائي إعادة شعب الله المختار إلى القدس. أما شعب الله المختار فليس اليهود وإنما هم: طائفة الهيكليين.

حاول الهيكليون نشر عقيدتهم، أول الأمر، في وطنهم ألمانيا، ولكنّهم جوبهوا بمعارضة شديدة أبدتها كل من الحكومة، والكنيسة البروتستانتية التي اعتبرتهم منشقّين هراطقة. فتنكّرت لهم وتجاوبت مع الحكومة، فلاحقت زعماءهم ومنظّريهم وزجّت بهم في غياهب السجون (٦٩).

والنتيجة: لم يكتب لهذا التيار نجاح ملموس في الوطن الألماني وقد لخص الهيكليون مبادئهم في النداء الذي وجّهوه للشعب الألماني عام ١٨٦٠م وقالوا فيه: إن فكر الأمة الألمانية يجب أن ينصرف إلى إقامة الهيكل واحتلال فلسطين ... وفي سبيل ذلك يجب العمل على إقامة تنظيم مركز ألماني يتابع تقدم هذا العمل وتحقيقه. وقد شرعوا يطبقون ميدانيًا، ما دعوا إليه نظريًا، فبدأوا يهاجرون إلى فلسطين ووصلت طلائعهم شواطئ البلاد سنة ١٨٦٨م. وتحوّلوا للسكن في المدن الفلسطينية القائمة، خصوصًا مدينة القدس، ثم بدأوا يتحولون إلى الريف الفلسطيني.

وقد وصلت هجرة الهيكليين أوجها عام ١٨٧٥م حين وصل البلاد ٧٥٠ نسمة دفعة واحدة وأخذوا ينتشرون في البلاد. واستمر تدفق هجرتهم حتى عشيّة الحرب العالمية الأولى. ووصل أقصى عدد لهم ٢٢ - ٢٤ ألف نسمة (معظمهم تكاثر طبيعي). وقد نجحوا في إقامة ٤ تجمعات ألمانية هيكلية ملحقة بالمدن، تحوّلت لاحقًا إلى أحياء مدنية. و٣ مستوطنات زراعية.

١- تجمعات الهيكليين الألمان في المدن :

أقام الهيكليون المجمّعات السكانية التالية وكانت كلها ملحقة بالمدن الفلسطينية:

١. المستوطنة الألمانية في مدينة حيفا : وتأسست سنة ١٨٦٩م. وقد نجح

---

(٦٩) شولش ص ٨٨ -٨٩

أولئك الهيكليون في ابتياع أرض في حيفا (منطقة الألمانية اليوم) بواسطة سمسار محلي لأنهم ليسوا من رعايا الدولة ولا يحق لهم ابتياع أراض عثمانية. وقد سكن الحي أول الأمر ١٧٠ نسمة [٧٠].

٢. المستوطنة الألمانية في مدينة يافا.

٣. المستوطنة الألمانية في منطقة شارونة التي تبعد ٣ كم عن يافا. وقد تمّ ابتياع أراضيها على مرحلتين:

- المرحلة الأولى: تم ابتياع أرض مساحتها ١٢٠٠ دونم سنة ١٨٦٩ من جماعة من المسيحيين يرأسهم ج. آدمز. وكان قد اشتراها في وقت سابق من فلاحين محليين. وقد أقام الأمريكيون عليها مستوطنة زراعية. ولكنها لم تعمر طويلاً، إذ سرعان ما فشلت وفضل مؤسسوها العودة إلى أوطانهم في السنة ذاتها.

- وفي المرحلة الثانية جاء الهيكليون وابتاعوا تلك الأرض وزادوا عليها ابتياع ٥٠٠ دونم من أراضي ملك لدير الروم الأرثوذكس.

وفي سنة ١٨٧١ أقام الهيكليون مستوطنتهم الألمانية الجديدة وأطلقوا عليها اسم شارونة (هكرياه في تل أبيب اليوم) وسكنوها وأحاطوها بسور من الحجارة تتوسطه بوابة تفتح نهارًا وتغلق ليلاً بعد حلول الظلام.

٤. مستوطنة رفائيم في مدينة القدس خارج أسوارها (الألمانية اليوم قرب سكة الحديد القديمة) [٧١].

٢. <u>تجمعات الهيكليين الألمان في الريف</u> :

- مستوطنات الهيكليين الزراعية:

لم يكتف الهيكليون بمستوطناتهم المدنية الأربعة، بل سارعوا إلى إقامة ٣ مستوطنات زراعية جديدة بين ١٩٠٢ - ١٩٠٧ وهي:

١. ولهلما (اليم بني عطروت [٧٢] في منطقة اللد) سنة ١٩٠٣م.

٢. بيت لحم الجليلية (بين مدينة الناصرة وحيفا) سنة ١٩٠٦م.

(٧٠) הסטוריה של א" כרך 8 ע 143

(٧١) רפאים

(٧٢) بني عطروت בני עטרות

٣. فالدهايم (مجاورة لبيت لحم الجليلية، تسمى اليوم آلوني آبا) سنة ١٩٠٧م [٧٣].

- تقييم مشروع الهيكليين: ولتقييم مشروع الهيكليين في فلسطين يمكن القول: إن هدفهم الأساسي الذي يرمي إلى تغيير شكل الديار المقدّسة ومبناها لم يتحقق.وكان أقصى ما نجحوا في تحقيقه إدخال ٢٢ - ٢٤ ألف مهاجر هيكلي ألماني. وإقامة أربع مستوطنات مدنية وثلاث مستوطنات زراعية.

ولعل أهم أسباب الفشل الذي منوا به:

١- عداء الكنيسة البروتستانتية التي اعتبرتهم فئة منشقة مارقة.

٢- عداء حكومة الرايخ الألماني (بعد توحيد ألمانيا) وحكومة ولاية فيرتمبرغ) الولاية التي انبثقت عنها الحركة [٧٤].

كانت السياسة الرسمية لحكومة الرايخ تقضي بتجنب أي استيطان ألماني في فلسطين، فلقد كانت تلك الحكومة متحالفة مع الدولة العثمانية. وقد اعتبر قيصر ألمانيا فردريك ويليم الثاني نفسه صديقًا شخصيًا للسلطان العثماني عبد الحميد، وهو الذي أطلق على هذا التحالف باعتزاز وفخر اسم «تحالف القياصرة العظام». والقصد قيصر ألمانيا وإمبراطور النمسا والسلطان العثماني.

وقد اعتبرت حكومة الرايخ أن إنشاء مستوطنات ألمانية ذات طابع ديني - عقاندي مسيحي سوف يسيء العلاقات مع الدولة العثمانية.

وقد زاد من عداء حكومة الرايخ للهيكليين في فلسطين الخلاف الذي نشب بينهم وبين السلطات العثمانية على أرضية دفع الضرائب المستحقة عليهم.

وقد توصلت حكومة الرايخ، بنهاية الأمر، إلى أن وجود الهيكليين في فلسطين يشكّل عائقًا جديًا ويعمل على تعكير الأجواء بين الحليفين الألماني والعثماني.

وتوصّلت كل من حكومة الرايخ والكنيسة البروتستانتية الألمانية إلى أن البديل الوحيد لحركة الهيكلية هو تشجيع المؤسسات الرسمية على العمل في الميدان الفلسطيني.

(٧٣) الوني ابا אלוני אבא

(٧٤) شولش ص ٩١ - ٩٢ وأيضاً כהן هاش ٣ ص ٥٦

ونتيجة للعوامل المذكورة فتر الحماس الديني للهيكليين وتجمّد نشاطهم وانشلّت حركتهم. وجاءت أخيرًا الضربة القاضية التي أنهت وجودهم في فلسطين، وهي نشوب الحرب العالمية الأولى التي انتهت بهزيمة ألمانيا والدولة العثمانية، وانتهى بذلك النفوذ والوجود الألماني في الدولة.

ورغم كل ذلك ترك الهيكليون انجازات يعتدُ بها، فلقد أدخلوا إلى البلاد التقدم والتكنولوجيا العصرية ونجاعة العمل. كان تنظيمهم مثاليًا ومتميّزًا بالدقة والإتقان والدراسة العلمية من تخطيط وتنفيذ. ولم تكن هذه الصفات غريبة عن العقلية الألمانية. أما مستوطناتهم المدنية والريفية فلا تزال حتى يومنا هذا مضرب الأمثال في الجمال، الدقة، الذوق الرفيع، النظام، والانضباط. أما منازلهم ففي قمّة الروعة والأناقة: يميزها قرميدها الأحمر وهندستها المعمارية التي نجحت في الجمع بين الفنون المعمارية لمنطقة وسط أوروبا وغربها والهندسة المعمارية الإسلامية الشرقية بأعمدتها وأقواسها وحناياها وفناءاتها وزخارفها.

بالإضافة إلى المشاريع الاستيطانية نجح الهيكليون في إقامة مشاريع رائدة إضافية خاصة في قطاع النقليات والمواصلات البرية، فعبّدوا الطرق واستحدثا استخدام العربات - الحناطير في خطوط المواصلات خاصة خط حيفا - عكا - الناصرة، وخط يافا - القدس - بيت لحم.

وقد برز منهم المزارعون الممتازون والحرفيون الماهرون والتقنيون البارعون. فكان منهم أمهر الأطباء، المهندسين والفندقيين.

أما بالنسبة للمشروع اليهودي فقد قدّموا النموذج والمثال الذي يُحتذى. فقد كانت مستوطناتهم إرهاصًا بالنشاط الاستيطاني اللاحق، لقد برهنوا على الصعيد الميداني للمستوطنين اليهود، أن الاستيطان ممكن، وإمكانية نجاحه واردة وأن طرق الاستيطان مفتوحة ميسرة سالكة.

وخلاصة القول: لم تكن فكرة الدولة اليهودية في العصر الحديث إلا فكرة أوروبية المنبت والجذور أملتها العقيدة البروتستانتية والحاجة الملحّة للدول الاستعمارية، خاصة بريطانيا، لإيجاد وكيل غريب في منطقة الشرق يقوم بحماية المصالح الاستعمارية ويحول دون قيام حكم وطني محلي قوي قد يشكل خطرًا على تلك المصالح.

نشوء الفكر القومي اليهودي في البيئة الأوروبية

لاقت الدعوة المسيحية الأوروبية لعودة اليهود إلى أرض الميعاد وإقامة دولتهم عليها صدى واسعًا واستجابة عريضة لدى النخب اليهودية.

وقد تميز هذا الزخم باعتماد الفكر القومي. فمع نشوء الرأسمالية الأوروبية برزت على الساحة الأوروبية ظاهرتان:

١. ظاهرة نشوء القوميات الأوروبية التي تمخضت عنها.

٢. ظاهرة الاستعمار الأوروبي.

فالقومية الحديثة هي أوروبية المنشأ، بدأ ظهورها في القرن التاسع عشر في أعقاب الانقلاب الصناعي ونشوء طبقة جديدة هي الطبقة البرجوازية المدنية ذات المطامع الاستعمارية وصاحبة الشهية المفتوحة لاحتلال مستعمرات وراء البحار. وقد تكونت هذه القوميات الأوروبية على الأرضية المذكورة وتميزت بكونها أنانية، جشعة، متعالية، متغطرسة، عنصرية، شوفينية، عنيفة ذات طابع هجومي يهدف إلى بسط هيمنتها العسكرية الاقتصادية في جو استيطاني، ظلامي، توسعي، إذلالي، وأحيانًا إحلالي.

أما قومية الشعوب المستضعفة خارج القارة الأوروبية فكانت ذات طابع دفاعي تعبر عن محاولات الشعوب في التحرر القومي من نير الاستعمار - الأوروبي.

وقد انتقلت فكرة القومية الأوروبية إلى الفكر اليهودي الذي قال بالقومية اليهودية وأن اليهود شعب وقومية. وبهذه الصفة يجب إيجاد حل للمشكلة اليهودية. ولا يكون هذا الحل إلا بإقامة كيان مستقل، دولة يهودية في أرض الميعاد. وهذه هي الحركة الصهيونية التي نشأت في أوروبا في القرن المذكور على أعتاب القوميات الأوروبية فحذت حذوها وترسمت خطاها فاتسمت هي أيضًا بالصلف والتعالي والتطرف القومي.

ولعل أبرز هذه النخب الفكرية القومية اليهودية هم الذين أطلقت عليهم الأدبيات الصهيونية «المبشرين بالصهيونية» وهم الحاخام يهودا القلعي الحاخام تسفي هيرش كاليشر موشه هيس وليو (ليف) بنسكر وأولهم الحاخام يهودا القلعي [٧٥]

---

(٧٥) يهود القلعي   יהודה אלקלעי

١٧٩٧ـ ١٨٧٨م. ومسقط رأسه مدينة سيرايفو، فهو صربي يوغسلافي أصدر كتابًا «اسمعي يا إسرائيل» دعا فيه اليهود إلى:

١ـ القيام بمجهود ذاتي للخلاص.

٢ـ الهجرة الجماعية لفلسطين دون انتظار المسيح المخلص.

٣ـ اتحاد اليهود في تنظيم أطلق عليه كيان يهودي عمالي [٧٦].

٤ـ ابتياع أراض عربية فلسطينية عن طريق إنشاء صندوق مالي يهودي [٧٧].

ويذكر أن هذه الفكرة تبناها لاحقًا مؤتمر بازل عام ١٨٩٧م. وقد اعتمد القلعي في أفكاره الفكر الديني القومي السلفي فقال إن اليهودية أمّة. وأنهم عرق وقومية مميّزة، كما لوَّح القلعي بالعنصر الاقتصادي فقد أشار إلى الفوائد المالية والمادية الجمّة التي يمكن تحقيقها عن طريق استعمار فلسطين. وكانت تلك محاولة لجذب فقراء اليهود وإقناعهم بمشروعه. وقد وصف بأنه صهيوني قبل ظهور الصهيونيين.

ومن بولندا ظهر الحاخام تسفي هيرش كاليشر [٧٨] ١٧٨٥ـ ١٨٧٤م وألف كتابه «السعي إلى صهيون» [٧٩] وهو أول كتاب يصدر بالعبريّة. ودعا فيه إلى إقامة مستوطنات زراعية يهودية في فلسطين كخطوة مرحلية لاستيطانها. وقد أكد أن إيمان اليهودي لا يمكن أن يكتمل إلا إذا عاش على أرض فلسطين.

ويذكر أن هذا الطرح الزراعي، كان جديدًا على الفكر اليهودي القائم المبني على ممارسة الأعمال اليهودية التقليدية مثل الصيرفة والخدمات والتجارة والابتعاد عن العمل الجسدي. وكانت كتابات كاليشر وأفكاره هي الدافع لجمعية «الأليانس» لإقامة مدرسة مكفة يسرائيل.

وفي ألمانيا ظهر موشه هس ١٨١٢ ـ ١٨٧٥م وهو يهودي قام بتطوير أفكار كاليشر وتحويلها إلى نظرية قومية دينية متلاحمة. وهس أعتنق في البداية اليسارية الاشتراكية. وكان من أنصار كارل ماركس، ولكن لم يلبث أن تحول إلى

---

(٧٦) International Jewesh Body

(٧٧) אנצ'קלופידיה יזרעאל כרך א עמ' 195

(٧٨) الحاخام تسفي هيرش كاليشر רב' צבי הירש כאלישר

(٧٩) דרישת ציון The search for Zion

الفكر القومي الديني في منتصف القرن. لذا نراه يطعِّم أفكاره القومية الدينية بمصطلحات اشتراكية عمالية اكتسبها من صداقته السابقة مع الشيوعيين. ألف كتابين:

١ـ «روما والقدس» ١٨٦٢م. وطرح فيه فكرتين أساسيتين:

أ. أوروبا مقدمة على موجة عارمة من اللاسامية.

ب. والشرق مقدم على حركة تحرر قومي التي سوف تشتبك عاجلاً أم آجلاً مع الدولة العثمانية واقتراحه إقامة دولة يهودية في الشرق تقوم على خدمة مصالح الدول الإمبريالية الأوروبية.

٢ـ «مشروع استعمار الديار المقدسة» ١٨٦٧م.

وقد طرح فيهما فكرة استيطان مركزة للأراضي الفلسطينية، على أن يسبقها إعداد نفسي عسكري «للمستوطنين العائدين إلى أرض آبائهم ليتمكنوا من التصدي لأصحاب البلاد» الذين أطلق عليهم «البدو الرحل». وقد تنبأ أن عملية الاستيلاء على الأرض والاستيطان لن تمر بسهولة ويسر، ولا بد أنها سوف تجابه بمقاومة شرسة.

قال هس بفصل الدين عن الدولة. ودعا إلى إقامة مستوطنات يهودية تمتد على شريط يبدأ من مدينة السويس وينتهي بمدينة العريش، ومن نهر الأردن إلى البحر المتوسط فرأى المستوطنات على قناة السويس وعلى ضفتي نهر الأردن خطوة مرحلية على طريق إعادة اليهود إلى أرض الميعاد وإقامة الدولة اليهودية [٨٠]. وقد اقتبس هس فكرته المذكورة من الدعوة البريطانية، التي ارتفعت بعد فتح قناة السويس ١٨٦٩م، لإقامة سلسلة متواصلة من المستوطنات العسكرية، على طول طريق الهند والصين، تكون مهمتها الوحيدة حراسة القوافل البريطانية على ذلك الطريق.

وقد أتصف فكر هس بالنزعة العنصرية الاستعلائية التي تميز الفكر الاستعماري الذي آمن به. كما آمن بدور الدولة اليهودية المقترحة في خدمة الاستعمار فدعا إلى:

---

(٨٠) شوفاني ، ص ٣١٩

١ـ إنشاء دولة يهودية في فلسطين تحت المظلة الفرنسية تأخذ على عاتقها تأمين المواصلات بين القارات الثلاث: آسيا، أوروبا، وأفريقيا.

٢ـ توفير حصن آمن للمدنيّة الغربية في وجه البربرية الشرقية، فلقد نظر إلى الشعب العربي وإلى الشعوب الأفرو ـ آسيوية نظرة استكبار معتبرًا إيّاهم قبائل متوحشة، وبدوًا لا يزالون يعيشون على الفطرة.

فلذلك لا نستغرب أن يدعو اليهود للتدرّب العسكري والانتظام في وحدات عسكرية ليتمكّنوا من التصدّي للعدو البربري. وقد تنبأ هس في كتاباته بقرب ظهور لا ساميّة في أوروبا. وقال إن حل المشكلة اليهودية في أوروبا لا يتأتى عن طريق اندماج اليهود في مجتمعاتهم الأوروبية، وإنما بالتمسّك باليهودية التي تعتمد الدين والعرق.

وممّا يلفت النظر أن هس وجّه أكبر اهتماماته لليهود الشرقيين، وذلك لأن اليهود الغربيين كانوا منغمسين في عملية الاندماج ويستبعد إقناعهم، حسب رأيه، بالهجرة إلى فلسطين [٨١].

وقد لخص هس أفكاره بمرحلتين:

المرحلة الأولى هي مرحلة الاستيطان.

المرحلة الثانية والنهائية في المشروع اليهودي وهي إقامة وطن قومي يهودي في قلب الدولة العثمانية تتلخص مهمتها:

١. المحافظة على مصالح الاستعمار في الشرق.

٢. إدخال حضارة الغرب المتقدمة إلى بلاد الشرق المتأخرة.

أمّا ليو (ليف) بنسكر [٨٢] ١٨٢١ـ١٨٩١م، فهو طبيب روسي. كان في الأصل من دعاة الاندماج الذين يدعون إلى ترويس يهود روسيا. لكن المذابح التي نزلت باليهود في وسط أوروبا وشرقها أعادته إلى حضن اليهودية، فدعا إلى الهجرة من بلاد الشتات واللجوء إلى وطن ما في بقعة ما من الكرة الأرضية. لخص فلسفته في كتابه «التحرر الذاتي» الذي كتبه باللغة الألمانية ونشره غافلاً عن

(٨١) بديري ص ٨٨ – ٨٩.

(٨٢) Leon Leib Pinsker

ذكر اسمه كمؤلف. وفيه استعرض المشكلة اليهودية وطرح حلولاً لها. قال:

- إن الوجود اليهودي في بلاد الشتات أمر عبثي، وستكون عواقب كارثية وخيمة، لأن اليهود سوف يظلّون جسمًا غريبًا مكروهًا.
- أن التحرر المدني الذي يؤمن من الحقوق المدنية والسياسية والمساواة ليس هو الدواء الشافي الذي يؤمن الخلاص.
- والحل هجرة جماعية إلى أرض ما، وليس بالضرورة إلى فلسطين، يقام عليها وطن قومي للشعب اليهودي، وهذا الوطن القومي سوف يتم ابتياعه بالتدريج ليصبح اليهود فيه، في نهاية الأمر أغلبية سكانية ويتحوّلوا إلى دولة، وليس مجرد أفراد من اليهود.
- وتقوم هذه الدولة بتحقيق المساواة وتأمين الحقوق، فالتحرر الحقيقي لا يكون إلا بخلق مركز قوي يعيش فيه اليهود كشعب يتمتع بكيانه المستقل في وطنه الخاص.

وقد قام بنسكر بدعوة المموّلين اليهود في العالم لابتياع الأراضي المذكورة مهما صغر حجمها وقلت مساحتها، إما في أمريكا الشمالية أو أية ولاية أخرى ضمن الحدود الآسيوية التركية.

وقد وجد بنسكر ضالته في جمعية «أحباء صهيون» [٨٣] نشر أفكاره وأصبح أول رئيس لها. وفي هذه المرحلة بدأ يتحول من السعي إلى وطن ما في أية بقعة ممكنة على سطح الكرة الأرضية إلى المطالبة بفلسطين بالذات لتكون الوطن القومي للشعب اليهودي.

ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه حين أطلع على الصعوبات التي يواجهها المستوطنون اليهود في فلسطين، فارتد ثانية من الدعوة إلى فلسطين إلى بديل آخر، وهو البديل الذي نادى به الكونت دي هيرش، الأرجنتين بديل عن فلسطين.

تبع المذكورين الرعيل الثاني من رجال الفكر القومي من اليهود وأبرزهم:

(٨٣) حوففي تسيون חובבי ציון

- إبراهام مناحم أوسيشكن ١٨٦٣ - ١٩٤١م (٨٤).

يهودي روسي عاصر جمعية محبة صهيون (٨٥) وهو من زعماء الصهيونية السياسية فالصهيونية العملية. ألف كتابًا أسماه «برنامجنا» (٨٦) بعد أن قام بزيارتين لفلسطين: الأولى ١٨٩١م، والثانية في سنة ١٩٠٣م.

وقد عرض في كتابه:

- خطة الصهيونية العملية بإقامة «كتائب عمل» يهودية لتحقيق حلم العودة وإقامة الوطن اليهودي.
- تأسيس دولة يهودية في فلسطين.
- والوسيلة لذلك: احتلال فلسطين برمتها، أو معظمها على الأقل، وتحويلها ملكًا خاصًا لبني إسرائيل، لأنه بدون حق الملكية لن تكون هناك فلسطين يهودية.

ولكنه استأنف: بما أننا أضعف من أن نستولي على هذه الأرض بالاحتلال العسكري فيتوجب ابتياعها من أصحاب الفلاحين العرب الفلسطينيين.

ولمعرفة أوسيشكين بواقع الأمر في فلسطين فقد نادى بتملك تدريجي مرحلي للأرض، ورأى بذلك الأسلوب الأمثل لتملك الأرض واقتلاع عرب فلسطين وتهجيرهم. كما رأى كذلك إقامة مركز سياسي واقتصادي مركزي في فلسطين يكون باستطاعته استيعاب قسم كبير من الشعب اليهودي. ولم ينس أوسيشكين أن ينوه بتوفر المواد الخام ورخص الأيدي العاملة اللازمة لتطوير الصناعة (٨٧).

على كل حال يمكننا القول أن التحرك الأوروبي بالنسبة للمسألة اليهودية والداعي إلى عودة اليهود إلى فلسطين وإقامة دولتهم عليها لم يسفر عن نتائج ملموسة على المستويين النظري والميداني. وكان أقصى ما تمخض عنه تأثر نخب فكرية يهودية بالدعوة المذكورة فظهر رجال فكر يهود يقولون بالقومية اليهودية والعودة إلى أرض الميعاد.

---

(٨٤) ابراهام مناحيم اوسيشكين אברהם מנחם אוסישקין

(٨٥) حبات تسيون חבת ציון

(٨٦) הפרוגרמה שלנו

(٨٧) بديري ص ٩٧ – ٩٨ ، وأيضاً אנצ'קלופדיה יזרעאל כרך ו' עמ' 87

ولكن الساحة اليهودية في أوروبا لم تكن حكرًا على النخب المذكورة، فلقد ظهر تيار مناهض مضاد رافض لنظرية القومية اليهودية، ورافض لدعوى العودة إلى أرض الميعاد. وقد أنكر وجود قومية يهودية، وإن اعترف باليهودية دينًا فقط. كما رفض فكرة العودة بدعوى أن وطن اليهودي هو في مجتمعاتهم الأوروبية التي يعيشون فيها ويرون فيها مستقبلهم، وليس في أرض الميعاد.

وقد أطلق على هذه الحركة «الاندماج» (٨٨).

والخلاصة :

يمكن التأكيد أن المشروع الصهيوني ولد من صلب المشروع الاستعماري الأوروبي فالصهيونية لم تولد من فراغ بل انبثقت من رحم الرأسمالية الأوروبية في مرحلة تحولها نحو الإمبريالية العالمية.

وهناك من الباحثين من يحلل ولادة الصهيونية مترافقة مع ولادة الرأسمالية الأوروبية، أي قبل ثلاثة قرون من مؤتمر بازل. وأن الدول الأوروبية هي التي رعت هذه الولادة وحضنتها قبل أن تتبناها الحركة الصهيونية، وأن قادة الإمبريالية الرأسمالية الأوروبية وضغط الرؤى التوراتية حول عودة المسيح المرتقبة في مشروع سياسي استعماري تجاوز كل أحلام الصهيونية ولاقى تجاوبًا في الأوساط الشعبية الأوروبية المسيحية، خاصة البروتستانتية.

فالمشروع الصهيوني ليس بالأصل مشروعًا يهوديًا، بل هو مشروع الإمبريالية الأوروبية التي لا يهمها مصلحة اليهود أو غيرهم من الأديان والطوائف بقدر ما يهمها الربح الكبير الذي تجنيه من الاستعمار.

ويؤكد كثير من المؤرخين، كما أسلفنا، إلى أن النشاط الصهيوني لدى غير اليهود كان أسبق وأقوى، وكانت أصوات دعاته أعلى وأوضح، وأشهر دعاته سالزبوري، زانغويل، يونغ، فنّ، اللورد، بالمرستون، متفورد، غاولر، هكر، أوليفانت، وورد جود، تشرتشل وغيرهم وغيرهم.

---

(٨٨) نجيب الأحمد : فلسطين تاريخاً ونضالاً ص ص ٩٢ – ٩٣

ويستخلص من أفكارهم أن أسس المشروع الصهيوني كانت موجودة وواضحة المعالم عندهم، فهناك:

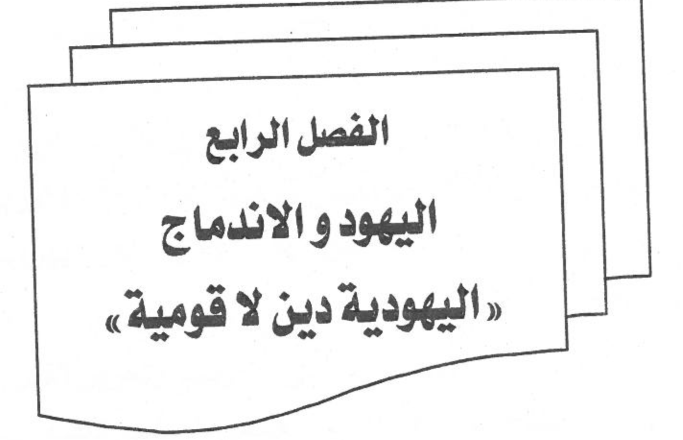
- الشعب اليهودي.
- وفكرة شعب الله المختار.
- وفكرة الرابطة مع فلسطين والوعد الإلهي.

وقد صاغوا هذه الأفكار في الإطار الاستعماري الاستيطاني واستخدموها قبل أن ينسبها اليهود لأنفسهم ويُصيغوها في أفكار منظريهم: القلعي، كالشير، هس وينسكروأوسيشكن وغيرهم [(٨٩)].

وخلاصة القول أنه يمكن التوصل إلى نتيجة أن الدعوات الأوروبية على الصعيدين: الاستعماري والديني المذهبي البروتستانتي، والدعوات القومية اليهودية المتعصبة التي تتمركز على ضرورة إقامة الوطن القومي اليهودي على التراب الفلسطيني، لم تزد عن أصوات ودعوات وتوجهات لم تنجح دائمًا في تجاوز الصعيد النظري. فلم تجر أية محاولة ميدانية لتطبيقها على أرض الواقع.

وكان ذلك نتيجة لعوامل متعددة متشابكة لعل أهمها ما أخذ يسود المناخات الأوروبية من تيار يهودي قوي، ومتنفذ يدعو إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم الأوروبية. وقد خلص هذا الفكر إلى القول أن اليهودية دين وليس قومية. والانتماء اليهودي ديني ويتوجب الفصل بين الدين والدولة. فاليهودي الروسي هو روسي، واليهودي الألماني هو ألماني وكذلك اليهودي الإنجليزي هو إنجليزي.

(٨٩) ناجي طلال: محاضرات في القضية الفلسطينية ص ص ٨٢ – ٨٥



- « ويهود أوروبا جزء عضوي من مجتمعاتهم الأوروبية، وهم يدينون لها بالولاء والانتماء ».
- « لا توجد قومية يهودية. إن أفراد أسرتي الذين عاشوا في هذا البلد من أجيال لا تربطهم بأية أسرة يهودية في أية دولة من دول العالم أية رابطة، أو أي اتصال، أو أي رأي، أو أية رغبة، ولا يجمعهم بهم أي أمر أكثر من أنهم يعتنقون، وبدرجات متفاوتة، الديانة نفسها ».

الوزير اليهودي مونتاغو
في حكومة اسكويث العمالية في بريطانيا

ـ التيار اليهودي الاندماجي [(١)]

سادت الجاليات اليهودية في الدول الأوروبيـة، في القرن التاسع عشر، تيارات فكرية عديدة كان أبرزها «التيار الاندماجي» الذي يدعو إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم الأوروبية باعتبارهم جزءًا عضويًا من تلك المجتمعات. وهم يدينون لها بـ« الانتماء والولاء».

وبطبيعة الحال كانت هذه الحركة على طرف نقيض من الحركة السلفية الدينية وما تفرضه من تقوقع وانغلاق وتطلعات توراتية، غيبية، استرجاعية من عودة المسيح والرجوع إلى أرض الميعاد وتوطينها [(٢)].

وقد انبثق هذا التيار الاندماجي من روح عصر النهضة (الرينيسنس) التي بدأت تعم أوروبا منذ أواخر القرن الخامس عشر، وتميزت بمحاولة الانفلات من قبضة الكنيسة ونمط حياتها. فمع انتشار روح النهضة بدأ في القارة الأوروبيـة تراجع في منزلة الكنيسة وتقهقر في الزخم الديني ودخلت المجتمعات الأوربيـة مرحلة العلمنة. ومع أن المسيحية كانت أكثر تأثرًا بهذا التحول، ولكن اليهودية تعرضت أيضًا لنفس العملية.

ولم تلبث أن تعالت الصرخات المطالبة بإطلاق الحريّات وتحرير الفكر من عقاله الـديني الـسلفي وإفـساح المجـال للفكـر العلمـي العملـي التقـدمي العقلانـي والعلماني[(٣)]. وقد تمخض عن هذا التحول تيار فكري جديد شاع في أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر وهو تيار «التنوير» [(٤)] الذي انطلق من إيطاليا وبريطانيا ودعا إلى:

١. تحكيم العقل والمنطق في التعامل مع شؤون الحياة: العلوم، الدين والفلسفة، الاقتصاد، الاجتماع، السياسة، الثقافة، الفنون، القانون، ووسائل الحكم.

٢. إحلال النهج التقدمي الجديد مكان النهج الكنسي التقليدي.

---

(١) تحاول الأدبيات الصهيونية أن تسم هذا التيار بالسلبية فتطلق عليه أسماء مثل الذوبان أو الانصهار :
ההתבוללות או היטמעות

(٢) جارودي ، ص ٢٦١.

(٣) المسكلاه השכלה או Enlightment

(٤) Encyclopedia Britanica vol p 886

ولم يقتصر هذا النهج على المجتمعات الأوروبية «المسيحية»، بل تجاوزه إلى المجتمعات اليهودية فلم تلبث أن ظهرت حركة تنوير يهودية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأبرز معالمها:

١ ـ رفض الفكر اليهودي النمطي السلفي النقلي الذي ينص على أن اليهودية دين وقومية. وخلص إلى أن اليهودية دين فقط، واليهود جزء من مجتمعاتهم الكبيرة في الوطن الأوروبي.

٢ ـ رفض فكرة العودة إلى أرض الميعاد، لأن ذلك لا يعني إلا غربة اليهود في مجتمعاتهم وعدم انتمائهم لأوطانهم. الأمر الذي يفضي بالضرورة إلى الانفصال وهجر الأوطان لصالح مجتمع جديد ووطن غريب بعيد.

وقد توطد هذا التوجه، على الصعيدين المسيحي واليهودي، واكتسب زخمًا مع نجاح الثورة الفرنسية ١٧٨٩ وما طرحته من فكر ليبرالي ـ علماني ومن شعارات الحرية الإخاء والمساواة وما انبثق عن ذلك من مناخات فكرية اجتماعية تدعو إلى الانفتاح وقبول الغير والتحرر وتحكيم العقل والمنطق. وقد توجهت الثورة إلى اليهود ودعت في قرارها الصادر عن الجمعية الوطنية عام ١٧٩١، إلى الاعتراف باليهود الفرنسيين، مواطنين متساوي الحقوق، ملغين بذلك القوانين المقيدة لحرياتهم ومعتقداتهم ونشاطاتهم. وتمخض عن ذلك حركة جديدة، أطلق عليها الأوروبيون «حركة التحرر ـ المساواة» (٥) دعت إلى التحرر والمساواة ودمج المواطنين والأقليات، بمن فيهم اليهود، في الحياة العامة.

وقد تأثرت أوساط يهودية واسعة بهذه الأفكار التي لاقت رواجًا، بصورة خاصة، في الأوساط الليبرالية ـ اليسارية ـ الاشتراكية ـ العلمانية ـ اليهودية، فأقبلت عليها، حتى أن بعض اليهود ارتدوا عن يهوديتهم واعتنقوا المسيحية، في حين انغمس البعض الآخر في الحياة السياسية ـ الثقافية ـ الفنية ـ الاجتماعية العامة.

وارتفعت أصوات الاندماجيين اليهود: إن أرض الميعاد هي الأوطان الأوروبية التي نعيش فيها. وهي بالنسبة لليهودي الإنجليزي إنجلترا وللألماني ألمانيا وللروسي روسيا....

(٥) جارودي، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢

وقد كان أبرز أوائل رموز حركة التنوير اليهودي: باروخ شبيتوزا ١٦٣٢ ـ ١٦٧٧م وهو سليل إحدى الأسر اليهودية الأسبانية التي اضطرت إلى الفرار من محاكم التفتيش الكاثوليكية الأسبانية وهاجرت إلى هولندا حيث ولد شبيتوزا ونشأ وترعرع.

ويعتبر شبيتوزا من أعظم رجال الفكر العالمي الذي عبر عن أرفع أشكال اليهودية العالمية من حيث تكامل الفكر اليهودي الحر مع عقلانية ديكارت، فهو يخضع الواقع والحياة، ابتداءً من الله وانتهاء بالمادة المحسوسة، لقوانين العقل الهندسي. وقد أوصلته دراساته اللاهوتية والسياسية إلى النتائج السياسية ـ الاجتماعية ـ الدينية لمفاهيم خاصة عن الحرية تتمثل في إنشاء دولة ديمقراطية ـ علمانية.

طرح شبيتوزا مسألة الشخصية اليهودية وتساءل: من هو اليهودي إذا ابتعد عن انتمائه الديني؟ ولم يجد حلاً للمسألة اليهودية إلا باعتناق «العالمية الأممية» والتعامل بالتسامح مع الغير والاعتراف بالآخر وقبوله.

وقد لاقت آراؤه أصداءً واسعة في جميع أرجاء القارة الأوروبية، خاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهما عصرا التنوير، كما أسلفنا.

وساهمت دعوته كذلك في انفتاح اليهود على العالم الخارجي بعد قرون عديدة من التقوقع والانغلاق وعالم الغيتوات.

وقد كان لهذا التوجه أثر كبير في إكساب اليهودية مرونة ومجالاً للمناورة وجعلها قادرة على عملية إصلاح ذاتية وعلى التحرر والانفلات من العادات والتقاليد السلفية وما يتبعها من جمود عام.

وقد أثارت أفكار شبيتوزا حفيظة حاخامات اليهود ودعاة السلفية فهرطقوه وزندقوه وحاولوا القضاء عليه. ولم يستعد شبيتوزا اعتباره إلا في عام ١٩٢٧ بمناسبة مرور ١٥٠ سنة على وفاته (٦).

أما «لوثر اليهود» المبشر بالعصر الجديد فكان موشه مندلسون ١٧٢٩ ـ ١٧٨٦م الذي يمثل أبرز المتنورين اليهود.

(٦) Desane

ولد مندلسون في ديسان[٧] في ألمانيا. ودرس في صغره التلمود والتوراة، واكتسب ثقافة واسعة عن طريق الإطلاع على أفكار مفكرين سابقين من اليهود، خاصة موسى بن ميمون «الرمبام»، فأخذ عنه أقواله نفي وجود تعارض بين الإيمان بالله والعقل الناقد.

سعى مندلسون جاهدًا إلى تحرير الدين اليهودي من السلفية الجامدة ودعا إلى الانفتاح على ثقافة الآخرين. خاصة على الغرب وحضارته، كما دعا إلى المحبة وسلام اليهود.

ترجم التوراة - العهد القديم - إلى اللغة الألمانية وأضاف لها شروحًا وحواشي وتفاسير، الأمر الذي أثار عليه حفيظة حاخامات اليهود فكفروه.

أصدر كتابًا اسماه «خلاص اليهود» دعا فيه إلى الفصل بين الدين والدولة.

ـ دول أوروبا تمنح اليهود المساواة

ولم يلبث أن اكتسب هذا التيار العلماني المنفتح زخمًا جديدًا فانطلق في اندفاعه كبيرة إلى الأمام حين اتخذت دول كبيرة عديدة في أوروبا قرارات بمنح رعاياها اليهود مساواة تامة في الحقوق. وكان في طليعة تلك الدول:

- ألمانيا : بأمر مباشر من القيصر فردريك ويليام الثاني.
- النمسا : بأمر مباشر أيضًا من الإمبراطور فرانس جوزيف الثاني.
- الولايات المتحدة الأمريكية : منحتهم الحقوق بموجب الدستور.
- فرنسا : ففي ٢١ ايلول / سبتمبر ١٧٩١ دعت «الجمعية الوطنية» إلى قومية فرنسية واحدة لا تنقسم، وإلى رفض اليهودية كقومية، وقبول اليهود كأفراد.

ولم يلبث هذا المثال الفرنسي أن عم جميع أنحاء أوروبا.

أما «ميثاق حقوق الإنسان والمواطن» الفرنسي فقد ضمن الحقوق والمساواة[٨] وكان نابليون بونابرت أول دعاة المساواة. وفي سبيل ذلك دعا في ٢٥ تموز يوليو ١٨٠٦م إلى اجتماع ضم مائة وأحد عشر زعيمًا من زعماء يهود فرنسا وإيطاليا المحتلة، وطرح عليهم السؤال التالي:

(٧) Desane

(٨) جارودي ، ص ٢٦٤

هل يرى اليهود في الفرنسيين إخوانًا لهم؟..

هل واجب اليهودي الفرنسي الدفاع عن فرنسا؟

وكان الجواب بالإجماع: «نحن فرنسيون، وأننا على أتم الاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيل وطننا فرنسا. اليهود ليسوا أمة. ويهود فرنسا ليسوا أمة! بل هم جزء لا يتجزأ من الأمة الفرنسية».

والجدير بالذكر أن نابليون دعا إلى عقد الاجتماع يوم السبت، منتهكًا بذلك حرمته. وقد لبى جميع المدعوين الدعوة، بمن فيهم المتدينون الذين يحافظون على «قدسية يوم السبت».

وسرَّ نابليون للجواب، لكنّه رأى التقدم خطوة إضافية إلى الأمام فدعا إلى عقد مجمع السنهدرين [٩] الذي يمثل كافة اليهود في أوروبا. وقد أعلن نابليون في دعوته: « نحن عازمون على منح اليهود الحقوق الأساسية عمليًا وميدانيًا، لا نظريًا فقط. ونحن نأمل أن يعتبر اليهود أن أورشليمهم هنا في فرنسا».

واجتمع السنهدرين في ٢ نيسان أبريل ١٨٠٧ بحضور مندوبين عن يهود فرنسا، إيطاليا، هولندا وألمانيا في حين تغيب مندوبو النمسا معارضين. وبعد مداولات ومناقشات خرج المجتمعون وهم متحمسون لنابليون، مؤيدون لخطواته واعتبروه «كورش المخلص». وأكدوا أنه لا يمكن اعتبار اليهود أمة بأي شكل من الأشكال [١٠].

أما يهود ألمانيا فوصلت منهم شهادة في سنة ١٨١٨ حين رفضت أغلبيتهم الساحقة الحركة الانعزالية وأعلنوا: نحن ألمان ندين باليهودية. والجرمانية تعني لنا الانتماء إلى شعب ووطن. أما اليهودية فليست إلا ديانة وملة. وما اليهود إلا طائفة دينية لا تعني إلا الإيمان والجذور فقط. أننا لسنا قومية يهودية، بل طائفة «دينية يهودية».

أما اليهود الاندماجيون الروس فرفعوا شعارهم: «برنامجنا تحويل يهود روسيا إلى روس» و «أننا نعيش في روسيا، لذا واجبنا أن نكون روسًا».

(٩) المجلس الديني الأعلى

(١٠) היהודים מראשית העת החדשה עמ' 39 – 41

وبلغت ذروة الاندماج حين حقق اليهود المساواة في القطاعين: العام والخاص، وإن ظلت هذه المساواة نظريًا حبرًا على ورق، فحصلوا على حق الانتخاب كناخبين ومنتخبين [11].

وقد توج هذا التوجه الاندماجي ظهور نخب فكرية يهودية فبرز الشاعر الفذ هاينرخ هايني، والفيزيائي العبقري ألبرت أينشتاين، صاحب «نظرية النسبية» وشبيتوزا في عالم الفكر، ومندلسون في عالم الموسيقى، وهو حفيد موشه مندلسون المذكور، وعائلة روتشيلد في عالم الاقتصاد والمال ودرزائيلي في عالم السياسة ولاسال في مجال الحركة الاشتراكية، وأصبح كل ذلك جزءًا من الثقافة والحضارة الأوروبية دون أن تحمل الطابع الديني اليهودي [12].

(١١) كيالي ، ٢٩

(١٢) جارودي ، ص ٢٦٥

ـ الاندماج يفشل

خطا يهود أوروبا خطوات واسعة في تحقيق المساواة. بدا، وكأن القدر قد بدأ يبتسم لهم، وأن الرياح تجري بما تشتهي سفنهم. فها هي مجتمعاتهم الأوروبية تفتح ذراعيها وقلوبها لاحتضانهم. وكان على المجتمعات اليهودية أن تختار أحد خيارين: فإما أن تعتبر نفسها مجموعة من مواطني الدول التي ينتمون إليها.. أو تعتبر نفسها قومية مختلفة، أجنبية وغريبة عن مجتمعاتها.

ادعى أنصار الخيار الأول أن اليهود أصبحوا مواطنين كاملي المواطنة في مجتمعاتهم الأوروبية، مندمجين في حياة تلك المجتمعات في شتى النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية،وأسهموا في تطور الثقافة الغربية.

أما أنصار الخيار الثاني فقالوا إن هذا الإنجاز نظري، وهو مجرد حبر على ورق، فالأمور على صعيد الواقع مختلفة، والغيوم السوداء لا تزال تغطي الأفق اليهودي.

في الصراع بين هذين التيارين رجحت كفة التيار الثاني. فلقد تضافرت عوامل عديدة لتفشل الاندماج وتقوّض مساعي الاندماجيين. ويمكن تصنيف هذه العوامل إلى نوعين: عوامل ذاتية و عوامل موضوعية.

أ- العوامل الذاتية:

تلخصت في المقاومة اليهودية الداخلية الفعالة، والمعارضة الشديدة للاندماج وقد اشترك في هذه المعارضة رجال الدين ورجال الفكر اليهودي، وكلهم اتفقوا على تميز الشعب اليهودي وتفوقه فهو شعب الله المختار ...

وكان أبرز رموز هذا التيار الحاخام ليفيا بن بلايل ١٥٥٠ ـ ١٦٠٩م براغ. وبرز على أرضية عصر تصدع المسيحية ونشوء القوميات الأوروبية فنهج على نفس المنوال القومي. وقال إن اليهودية ليست دينًا فقط، وإنما قومية أيضًا. ورأى أن المهمة الأولى لليهود هي أن يتشكلوا ضمن الإطار القومي لإقامة دولتهم [13].

(١٣) م.س ، ص ٢٦٩

أما بيرتس سميلانسكي [١٤] ١٨١٢ - ١٨٨٥م وهو يهودي روسي فقال إن اليهود أغراب في الدول التي يعيشون فيها. وهم موضع كراهية الشعوب المضيفة لأنهم يتمسكون بالروح اليهودية المتميزة. وقد هاجم حركة التنوير والاندماج ودعا إلى محاربتهما وأسماهما العقيدة الفارغة المفسدة والفاسدة لأنهما تدعوان إلى الذوبان والانصهار المتمثلين في الارتداد عن اليهودية واعتناق ديانات أجنبية غريبة. فالاندماج لا يعني في نهاية المطاف إلا اعتناق دين آخر والارتداد عن اليهودية [١٥].

وقد أبرز سميلانسكي الصهيونية كحل رسمي وبديل وحيد للشعب اليهودي.

أما ماكس نوردو ١٨٤٨ -١٩٢٣م [١٦] فقد وصف حياة اليهود الاندماجية بالبؤس والشقاء والتعاسة الروحية.

ويهودا القلعي، وقد ورد ذكره، وهو أبرز دعاة القومية اليهودية. استلهم أفكاره من الصراع القومي الذي خاضته شعوب البلقان ضد السيادة العثمانية. وقد رأى في استعمار فلسطين المفتاح والخلاص للشعب اليهودي. وقد دعا إلى السير على خطى القوميات الأوروبية خاصة الإيطالية والبولندية والهنغارية [١٧].

وموشه هس، ورد ذكره أيضًا، مفكر اجتماعي ألماني وهو أول من نادى بتحرير اليهودية على أساس عرقي عنصري، كان من أوائل المفكرين الغربيين الذين تبنوا نظرية العرق في التحليل التاريخي. وقد خلص إلى نتيجة مفادها أن التاريخ يدور حول صراع العروق، في حين يأتي صراع الطبقات في الدرجة الثانية. كما أن المؤسسات الاجتماعية هي وليدة العرق. وقد رأى أن الصدام بين الشعوب فطري موروث، وليس مكتسبًا. وقد توصل إلى نظرياته هذه بعد قطيعته مع صديقه ماركس وانجلز، فاعتمد فلسفة يهودية للتاريخ: هي مزيج من أفكار هيجلية وقومية. وقد ضمنها في كتابه «أورشليم وروما» ١٨٦٢م قابل فيه بين هيمنة القومية الإيطالية في أوروبا وهيمنة القومية اليهودية في القدس [١٨].

---

(١٤) פרץ סמילנסקי

(١٥) كنعان ، ص ١٠٠

(١٦) מקס נורדו

(١٧) جارودي ، ص ٢٧١

(١٨) جارودي ، ص ٢٧١

وآشر غنتسيرغ المشهور بـ «آحاد هعام»، أحد أفراد الشعب [١٩]، الذي رفض الاندماج ووصف اليهودي المندمج في مقالة «العبودية في الحرية» بالإنسان المستبعد أخلاقيًا وروحيًا.

وليو بونسكر ١٨٢١ - ١٨٩١م [٢٠] وقد ناهض هو الآخر الاندماج في كتابه ودعا إلى «التحرر الذاتي». وقال إن اليهود عنصر متميز عن باقي الشعوب، وهو غير قابل للذوبان في أي كيان آخر. وقد رأى أن الاستيطان هو الحل للمسألة اليهودية. وقد رفض الاندماج لأسباب موضوعية: فالمجتمعات ترفض التعامل مع اليهود على قدم المساواة [٢١].

وحاييم نحمان بياليك ١٨٧٣ - ١٩٣٤ [٢٢] وهو روسي، ويعتبر الشاعر القومي الذي حذر من الاندماج وأنذر من مخاطره. وقال في إحدى قصائده «الموت خير من الذوبان والانصهار».

وقد أذهله انحراف يهود روسيا إلى الاندماجية وانصرافهم إلى تحرير روسيا من الحكم القيصري، غير آبهين بالعنصر اليهودي، وقد انطلق ينظم أشعاره واصفًا الشعور بعدم الاطمئنان والإحساس بالوحشة والغربة في بلاد الشتات. وفي قصيدته «نادوا الأفاعي» عبر عن ألمه من انصهار اليهود في مجتمعاتهم.

وأهارون دافيد غوردون ١٨٥٦–١٩٢٢م وهو روسي أيضاً. وقد رأى في العرق ينبوع حيوية الشعب وإبداعه ومصدر قيمه الروحية والثقافية. وهو العنصر الأساسي الرئيس من عناصر القومية، وقال إن بقاء الشعب اليهودي عبر التاريخ يعود إلى ما أسماه « الفردية القومية» [٢٣] والانتماء العرقي. وهذا ما حال دون ذوبان اليهود وتلاشيهم. وقال «أن القوة الأساسية في داخل كل منا التي تناضل من أجل البقاء وتحقيق الذات هي انتماؤنا العرقي».

---

(١٩) אשר גינצבורג אחוד העם

(٢٠) ליו פנסקר

(٢١) جارودي ، ص ٣١٩

(٢٢) ח"ם נחמן ביאליק

(٢٣) National individualism

كذلك دعا موشه ليفي ليلينبلوم ١٨٤٣ - ١٩١٠م [٢٤] إلى رفض الاندماج ودعا إلى اعتناق الصهيونية والتمسك بأهدافها. وقد شدد على ذلك في كتابه «بعث الشعب اليهودي في أرض أجداده».

وقد تبعه في هذه الفكرة العديد من رجال الفكر اليهودي مثل الحاخام شموئيل موهيلفر ١٨٣٤ - ١٨٩٨م، ويوسف برنر الذي رأى «باليهودي المندمج المنصهر شخصًا غير سوي وغير طبيعي»، ورأى في الانصهار قوة سامة وهدامة.

بالإضافة إلى ذلك ساهم عنصر ذاتي في إفشال عملية الاندماج وهو عدم تقبّل اليهود أنفسهم لفكرة الاندماج لأنهم عنصر غير قابل للذوبان أو الاندماج، فهم شعب يعسر هضمه واستيعابه في مجتمعات غربية.

وفي هذه الأجواء المعادية للاندماج انبثقت أول جمعية «أحباء صهيون» التي رفضت الاندماج ولم تلبث أن فتحت فروعًا في جميع أنحاء رومانيا، بريطانيا، النمسا، والولايات المتحدة الأمريكية [٢٥].

لقد أجمعت كل هذه المجموعة الكبيرة من رجال الفكر والدين على رفض الاندماج، ورأوا فيه أخطارًا كامنة سوف تؤدي بالضرورة إلى الذوبان والانصهار في المجتمعات الأوروبية والانسلاخ عن الهوية اليهودية الأصلية الصافية.

ب- العوامل الموضوعية:

أما العوامل الموضوعية في إفشال الاندماج فتلخصت في عوامل:

أولها أن المجتمعات المسيحية الأوروبية ظلت تنظر إلى الجاليات اليهودية نظرة شك، ريبة، تخوف وعداء. فهي لا تزال تعتبر اليهود جسمًا غريبًا مجهولاً، يكتنفه الغموض، ويلفه الإبهام وتغلفه الأسرار والمؤامرات. فلا غرو أن تكون نظرتهم مزيجًا من الخوف، والعبرة والكراهية لكل من هو يهودي أو من يمت

(٢٤) موشيه ليف ليلمبلوم משהליב ליב לינבלום

(٢٥) كنعان ، ص ١٠٠

لهم بصلة. والمحصلة النهائية رفض التعايش والاختلاط باليهود، والتحفظ من فكرة إدماجهم في مجتمعاتهم.

وثانيها انحسار التيار الديني لصالح التيار القومي في كافة أرجاء أوروبا. وكان أثر المد القومي ظاهرًا في المجتمعات الأوروبية، فأخذت تتبنى الفكر القومي مكان طروحات التيار الاندماجي الذي كان في طور التراجع التدريجي. وقد قال منظرو هذا التيار القومي: إن القومية اليهودية هي الحل الوحيد للمسألة اليهودية، وانعكاسها لا يكون إلا بالانعتاق القومي اليهودي.

وقد اصطبغ الطرح القومي اليهودي بطابع بيئته القومية الأوروبية. وكانت هذه تدعو إلى تمجيد عنصري التاريخ والجغرافيا كمركبين أساسيين في القومية والتاريخ ينعكس في مآثر وبطولات الأجداد، والجغرافيا تنعكس في تمجيد الأوطان [٢٦].

والنتيجة السمو بكلا العنصرين إلى مرتبة القدسية واعتبارهما بمنزلة الدين الجديد، وقد كان النموذجان في هذه النزعة:

١- النموذج السلافي (الصربي).

٢- النموذج الجرماني (الألماني) [٢٧].

وقد ساهم هذا التوجه اليهودي على تكريس قدسية أرض الميعاد. أما المجتمعات المسيحية الأوروبية فقد كانت تلك هي إيديولوجية التعصب القومي التي لا تسمح لليهود، ولا لغيرهم من الأقليات، بالتحرر وتحقيق المساواة فكيف تسمح إذن بالتعايش والاندماج؟

من الناحية اليهودية اتخذ منظرو القومية اليهودية هذا الفكر الأوروبي نموذجًا ودعوا إلى تميز العرق اليهودي ورفض الاندماج.

إزاء هذا الاستقطاب لم تلبث أن تعالت صرخات شرائح المجتمع الأوروبي.

- ألا يسيطر اليهود على زمام الأمور في شتى نواحي الحياة الأوروبية؟
- ألا يحتلون مركز الصدارة في كل شأن من شؤونها؟

(٢٦) جارودي ، ص ٢٧١

(٢٧) كنعان ، ص ٩٨

- ألا يشغلون أرفع الوظائف وأسمى المناصب في الدولة؟
- أليسوا هم السادة المتحكمون في أسواق التجارة والمال والصيرفة؟
- ألا يقبضون بيد من حديد على المصارف والصحافة والأعمال الحرة، الوظائف الحكومية والأكاديمية؟
- ألا يتحكمون في مقدرات الأمة في السياسة والاقتصاد، والإعلام والثقافة؟
- أليسوا هم من يدير دفة الحكم ويوجه سفينة الدولة أين شاءوا، وكيف شاءوا ومتى شاءوا؟
- ألا يستخدمون الأموال والنقود للسيطرة على الحكام والشعوب؟
- ألا تسيطر عائلة روتشيلد اليهودية على الاقتصاد الأوروبي؟
- ألا يتحكم دزرائيلي اليهودي على عالم السياسة في بريطانيا؟
- ولاسال اليهودي على عالم الاشتراكية وتنظيماتها؟
- ألم يتولّ بسمارك المسيحي الألماني سدة الحكم، إلا بملايين اليهودي روتشيلد؟
- ألا يسيّر اليهود القيادات اليسارية والاشتراكية والليبرالية والثورية والراديكالية؟
- ألا يتلاعبون بمصير الأمم ومقدّرات الشعوب؟

وجنح الخيال بالرأي العام في أوروبا، وجمحت التهيّؤات والتصورات والنزوات بعقول الناس وعواطفهم. وانتشرت الإشاعات والقصص والأساطير تتدحرج متضخمة ككرة الثلج.

وبدأت موجة عارمة من الشكوك والمخاوف والعداء المرير التي سرعان ما تحوّلت إلى النقمة الطاغية، والكراهية العمياء، التي لا تعرف حدودًا [٢٨] صوبت سهام النقد والعداء تجاه الأقليات عامة، واليهود بصورة خاصة، وتركّزت على موضوعين:

١. بروتوكولات شيوخ صهيون.

٢. تهمة الدم.

(٢٨) ראשית הציונית עמ' 5 – 7

١. « <u>بروتوكولات شيوخ صهيون</u> »:

أما «بروتوكولات شيوخ صهيون» التي تسميها الأدبيات «بروتوكولات حكماء صهيون» فتنفيها المصادر اليهودية وتنكر وجودها وتقول إنها فرية اختلقها خيال الحركات اللاسامية، في حين يؤكدها خصومهم.

والبروتوكولات المذكورة تعرّف بأنها عبارة عن مجموعة محاضر الجلسات التي كان يعقدها شيوخ اليهود، أصحاب الحل والعقد، ممن يمثلون يهود الشتات. وكانوا يتداولون فيها أمور الساعة من الشؤون العالمية عامة، وشؤون اليهود بشكل خاص. ثم يتفقون على أفضل الوسائل للسيطرة على مقاليد الأمور. وكان يجري تدوين محاضر الجلسات المذكورة في سجل أطلق عليه « بروتوكولات حكماء صهيون». وقد تمخض عن هذه الاجتماعات برنامج سياسي، اقتصادي، استراتيجي، ديني، مالي لبسط السيادة اليهودية على العالم وابتزاز الحكام واستبعاد الشعوب.

٢. <u>تهمة الدم</u> :

أما تهمة الدم، التي تنفيها المصادر اليهودية أيضًا، وتسمّيها «فرية الدم» فتقول: إن اليهود اعتادوا أن يضحوا في عيد الفصح بفتيان أو بالغين مسيحيين لعجن فطيرة عيد الفصح «المصّه» بدمائهم. والجدير بالذكر أن هذه التهمة - الفرية، قديمة. وأول من أتى على ذكرها كان الرومان واليونان في القرن الثاني الميلادي. وتردد ذكرها في إنجلترا عام ١١٤٤م في الفرية المعروفة باسم «فرية كورفيتش».

وأشهر تهمة دم هي «فرية الدم الدمشقيّة» التي ادّعى فيها رهبان مسيحيون من دمشق على أعيان يهود واتهموهم باختطاف راهب كبوتشاني يدعى الأب توماس (أصله من جزيرة سردينيا) هو وخادمه الفتى المسلم في فبراير ١٨٤٠م وذبحهما ليعجنوا بدمائهما فطيرة المصّه. وقد كال الاتهامات القنصل الفرنسي في دمشق الكونت راتي منطون، وقام بالضغط على والي دمشق العثماني شريف باشا لاعتقال سبعة من زعماء اليهود الدمشقيين - أشهر أحدهم إسلامه وتوفى آخر في السجن. ثم أردف ذلك باعتقال ٣٦ شابًا يهوديًا، وهدم بعض البيوت

اليهودية أثناء البحث عن الجثتين.

ولم يصمت يهود أوروبا عن هذه الإجراءات وتحركت قوى الضغط اليهودية على الحكومات الأوروبية لإنقاذ يهود دمشق.

وقد اعتذرت الحكومات الأوروبية بحجة عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية. ولكن الضغوطات اليهودية نجحت في حالتين:

- مع حكومة بريطانيا ورئيسها بالمرستون.
- مع حكومة النمسا ورئيسها مترنيخ.

فاستجابت الحكومتان للضغوط وقامتا بالاتصال مع كل من محمد علي باشا سيد البلاد، ومع السلطان العثماني.

وقد شد مونتفيوري الرحال وقابل محمد علي شخصيًا، متوسطًا في القضية. لكن محمد علي ماطل وداور وتملص، وأحجم أخيرًا عن التدخل المباشر، فما كان إلا أن تدخل تسعة قناصل أوروبيين في الإسكندرية. ونجحت الضغوط فصدر فرمان سلطاني بإطلاق سراح المعتقلين اليهود ... وإعدام شريف باشا ... ونجح مونتفيوري في استصدار فرمان آخر ينعم بالحماية السلطانية على كل اليهود من رعايا الدولة العثمانية ويؤمنهم من تهم أخرى مماثلة في المستقبل (٢٩).

قضى على التهمة في دمشق، ولكن أصداءها جلجلت في العواصم الأوروبية.

ادعى المعادون لليهود أن الضغط اليهودي لفلف التهمة وأخفى الجريمة، وأن دم الراهب المسيحي وفتاه المسلم ذهبت هدرًا.

وقالوا إن الجريمة حقيقة وقد نفذت بسكّين يهودي، وبدم بارد مع سبق الإصرار والترصد. وصدرت المناشير النارية التي تطفح الحقد والكراهية والسموم وأخذت تهاجم اليهود وتطالب باتخاذ أقسى الإجراءات القمعية بحقهم.

اتهموهم بكافة المصائب والويلات التي تنزل بمجتمعاتهم المسيحية.

وبدأت الحركة المعادية لليهودية المعروفة بـ اللاسامية تطل برأسها.

(٢٩) אנצ'קלופדיה יזרעאל כרך 10 עמ' 296

ـ الحركة اللاسامية

وكان يتزعم هذه الحركة العنصرية الراهب البروتستانتي شتكر، والثوري الراديكالي ويليام مار. وقد تطرفا في عدائهما لليهود، إلى درجة الاستحواذ الجنوني والمرض النفسي.

وقد كان مار بالأساس من دعاة الديمقراطية والمؤمنين بها ومن أشد المتحمسين لها قبل أن يجنح للتطرف العنصري.

مع حلول سنة ١٨٤٨م أصبح زعيم العنصريين المتطرفين المعادين لليهود. وهو الذي صكّ مصطلح «اللاسامية». وتعني حرفيًا العداء لأبناء سام، وقام بتأسيس «العصبة اللاسامية» (٣٠) وأصدر كراسات نارية عديدة محشوة بالمواد السامة المعادية لليهود والمشبعة بمصطلحات عرقية مثل: العنصر، العرق، الدم.

ومع مرور الوقت أخذت اللاسامية تنتشر خاصة بعد ١٨٧٩م الأمر الذي حدا باليهود إلى الانتظام في منظمات دفاع أطلقوا عليها اسم «الكونترا» (٣١) وأخذت تنتشر في كافة أماكن وجود جاليات يهودية في ألمانيا، النمسا، هنغاريا، إنجلترا وفرنسا (٣٢).

(٣٠) Anti – Semitic League

(٣١) Contra

(٣٢) ראשית הציונית עמ' 5 – 11

تلاشي التيار الاندماجي

أخذت حركة الاندماج تتراجع بالتدريج، ولكنها ظلت تمسك بالرمق الأخير حتى لفظت أنفسها، وإن بقي منها فئات اندماجية مبعثرة هنا وهناك. كان ذلك أثر حادثين غيّرا مجرى الحياة اليهودية عامة وهما:

١. اغتيال القيصر الروسي الكزاندر الثاني.

٢. قضية الضابط اليهودي الفرنسي داريفوس.

١ـ اغتيال القيصر الكزاندر الثاني في روسيا :

كان ذلك في ٢ آذار مارس ١٨٨١م، مع بداية فصل الربيع في روسيا، حين اغتيل القيصر الروسي الكزاندر الثاني المعروف «بالقيصر المحرر» (٣٣). وقد قام بعملية الاغتيال مجموعة من الثوريين الراديكاليين الانقلابيين، من بينهم فتاة يهودية.وقد كان يهود روسيا يأملون نيل حريتهم وتحقيق المساواة على يد هذا القيصر الليبرالي الذي رفع شعار «دمج اليهود في المجتمع الروسي» ومنحهم حقوقا سياسية ومدنية كاملة. وكان كثيرًا ما يردد «برنامجنا ترويس اليهود في روسيا». وقد تجاوب اليهود مع هذه الدعوة فرفعوا شعارهم «بما أننا نعيش في روسيا فواجبنا أن نتروّس وبالسرعة الممكنة».

وانتشرت الإشاعات والأقاويل بين جماهير الشعب الروسي: اليهود اغتالوا القيصر لنسارع إلى ذبحهم والانتقام منهم!.. وأطلت الفتنة برأسها. عم الهلع في أوساط اليهود في جميع أنحاء روسيا، خاصة بعد أن بدأت النبوءات تتحدث أن القيصر الجديد، ابن القيصر المغدور، يعد العدّة للانتقام لدم والده. وهو مزمع على إعمال السيف في رقاب اليهود الضالعين في سفك دماء القيصر.

من ناحية أخرى سرت إشاعات إضافية تقول: سوف يتولّى الحكم نظام ثوري راديكالي فوضوي، وهو لن يتورع عن سفك دم اليهود والانتقام منهم.

وبعد دفن القيصر بدأت الإجراءات القمعية الدموية بحق اليهود على المستويين: الحكومي والشعبي. عمّت الملاحقات والمطاردات وأعمال الاضطهاد والاعتقال

(٣٣) אות ע' 29

والمذابح واستمرت من شهر آذار مارس ١٨٨١م حتى سنة ١٨٨٤م، ولم تتوقف إلا بعد أن وصل اليهود على شفا الانهيار.

كان ذلك فرصة ذهبية لليهود من مناهضي الاندماج فرفعوا أصواتهم قائلين: ألم نحذركم من عاقبة الاندماج؟ ألم نقل لكم أن الخلاص لا يكون عن طريق الاندماج، وإنّما بالهجرة وإقامة وطن يهودي! وكان على رأس من قال بهذه الدعوة رجال دين وفكر مثل ليلينبلوم، دوفنوف والحاخام موهيلفر.

٢ـ قضية درايفوس في فرنسا:

أما في فرنسا فقد طغت قضية الضابط اليهودي الفرنسي درايفوس على الأحداث وتحوّلت إلى أهم قضايا الجاسوسية خلال القرن التاسع عشر في فرنسا.

بدأت أحداث القضية بشكل درامي، وتسلسلت في شريط متحرك كلغز بوليسي.

الزمن : خريف ١٨٩٤م.

المدينة : باريس.

المكان : السفارة الألمانية في باريس.

الحدث : أحد عناصر المكتب الثاني (جهاز الاستخبارات) الفرنسي، وهي امرأة تعمل متخفية في السفارة الألمانية كعاملة تنظيف، تتسلل تحت جنح الظلام إلى مبنى السفارة وتقتحم جناح الملحق العسكري الألماني الواقع في جناح السكرتارية. واقتربت المتسللة من طاولة الملحق العسكري حيث تكدّست أكوام من الرسائل، فتناولت إحداها وخرجت دون أن يشعر بها أحد.

في صبيحة اليوم التالي سلّمت تلك المتسللة الرسالة إلى المسئولين في المكتب، فإذا بها مليئة بالمعلومات السرية الخطيرة والمفاجآت المذهلة. وكانت الرسالة عبارة عن وثيقة تحوي الخطة العسكريّة التي اعتمدتها وزارة الحرب الفرنسية لغزو جزيرة مدغشقر (٣٤)، كما كانت تحوي معلومات عن أسلحة ميدان ثقيلة والتشكيلات الجديدة للجيش الفرنسي. وقد جاء في الرسالة ما يلي:

«إلى الملحق العسكري في السفارة الألمانية، أعلمكم أنه لم تتوفر لديّ معلومات

(٣٤) الخولي ، ص ٥٧

جديدة، وعليه لا أرى حاجة للقاء إضافي معكم في الوقت الراهن. على كلٍّ أرفق لكم بعض المعلومات المثيرة (التي تتناول الجيش الفرنسي).

١ـ معلومة بخصوص الكابح الهيدرولي لمدفع ١٢٠ ملم وطريقة تشغيله.

٢ـ معلومة بخصوص وحدات الدعم العسكرية المساندة.

٣ـ معلومة عن التغييرات التي استحدثت على سلاح المدفعية.

٤ـ مرشد لمدفعية الميدان الجديدة.

واستأنفت الرسالة... «وأما أنا فانني أنوي الانضمام للمناورات العسكرية».

وقد قام المسئول الأمني الفرنسي بالإطلاع على الرسالة الخطيرة وحوّلها للقيادة العامة للقوات المسلّحة لاتخاذ الإجراءات. وقد توصّلت القيادة ووزير الحربية وكبار جنرالات الجيش إلى قناعة أن الخائن موجود في صفوف القيادة العامة للجيش الفرنسي.

في التحقيق تم التوصل إلى معلومة إضافية في غاية الخطورة: في مرحلة سابقة كان قد تم ضبط برقية سرّية طيرتها السفارة الألمانية في باريس إلى قيادة الجيش الألماني، احتوت البرقية معلومات سرّية عسكرية تتناول القوت المسلحة الفرنسية. وكانت البرقية، المكتوبة برموز الشيفرا، موقعة بالحرف «د».

وأسفرت نتيجة التحقيق أن «د» هذا لابد أن يكون الحرف الأول من اسم الضابط الفرنسي الخائن. وتم جرد أسماء الضباط الفرنسيين والذين يبدأ اسمهم بالحرف «د»، وكانت القائمة طويلة جدًا تجاوز عددها المئات من الأسماء. ولم يتوفر أدنى دليل على هويّة الضابط. وبدأ جهاز الاستخبارات يغربل الأسماء ويسقط أسماء الضباط الذين لا يرتقي أي شك في إخلاصهم ووطنيتهم لفرنسا وجيشها.

ومن بين أسماء الضباط المشتبهين بقي عدد قليل لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. وبعد غربلة إضافية وتحقيق واستقصاء شديدين، لم يتبقّ إلا اسم واحد هو ...... الضابط اليهودي الفرد درايفوس، ولا بد أن يكون هو الخائن بعينه!

وكان درايفوس الضابط اليهودي الوحيد الذي نجح في الترقي في سلّم الرتب العسكرية ووصل إلى القيادة العامة. ولا شك أن إلقاء التهمة عليه كان يتماشى مع الميل العام والسلوك النمطي الذي اعتاد اتهام اليهود، والتشكيك في إخلاصهم وولائهم ووطنيتهم.

وقد رأى بعض الضباط الفرنسيين أن الفرصة قد سنحت أخيرًا للتخلص من الضابط اليهودي، ولكن العقبة كانت أنه ليس من السهولة اتهام ضابط فرنسي كبير، حتى لو كان يهوديًا، بالخيانة العظمى، خاصة وأنه لا تتوفر أدلة بينه وإثباتات قاطعة، فالوثيقة المضبوطة لم تنص حرفيًا على اسم درايفوس وإنما أشارت إلى الحرف «د» فقط الذي لا يشكل أي دليل كافٍ للإدانة.

ومع ذلك تمّ اعتقال درايفوس، وسرت الإشاعات: درايفوس خائن. إنه الضابط اليهودي الذي طعن الجيش الفرنسي في الظهر!

وقد أججت الحملة وسعرتها صحيفة «الكلام الحر»[٣٥] وأصدرت في إحدى نشراتها بالبنط العريض الخبر التالي:

«بموجب أمر عسكري جرى اعتقال هام وخطير لمتهم بالخيانة العظمى. فما مغزى هذا التكتم والصمت؟»

وقررت النيابة تقديم المتهم للمحاكمة، ولكن من هو المتهم؟

تمكنت الصحيفة من كشف اسم المتهم: أنه الضابط اليهودي الفرنسي الفرد درايفوس.

صحيفة أخرى «الصليب» [٣٦] كتبت: «درايفوس عميل لليهودية العالمية التي قررت تحطيم الشعب الفرنسي، والسيطرة على الوطن».

وبدأت حملة معادي لليهودية قادها قوميون فرنسيون ورجال حكم ورجال دين وأخذت الصحف تغطي أخبار القضية بالتفصيل. وقدمت النيابة لائحة اتهام مدعمة بالشهادات والوثائق الصحيحة والمزيفة.

وجرت المحاكمة، وكانت عسكرية وسرية، في ١٩ ديسمبر ١٨٩٤، بعد أن نجح وزير الحربية ورئيس المكتب الثاني في إبراز وثائق ومستندات مزيفة مفبركة تدين درايفوس. ولم يصمد الدفاع أمام الشهادات وضغوطات الرأي العام والصحافة فتقوض وانهار وصدر القرار بإدانة درايفوس بتهمة الخيانة العظمى.

والحكم: السجن المؤبد في إحدى الجزر النائية في المحيط الهادي.

---

(٣٥) Liebre Parole

(٣٦) Croix

وبدأت إجراءات العقاب.

في الخامس من كانون الثاني- يناير ١٨٩٥: طابور الإذلال العلني وهو طابور عسكري لإذلال المتهم المدان وتلطيخ شرفه.

تم نزع الرتب العسكرية عن كتفي درايفوس.

وانتزع الشريطان الأحمران عن سرواله العسكري، والشرائط الحمراء التي تدل على انتماء حاملها للقيادة العامة.

وأخيرًا، سلّ سيفه من غمده وكسر نصله وسط صيحات الجمهور: «يحيا الوطن!» «يحيا الجيش!». واختلطت صيحات الجمهور بدقات الطبول.

وبعد طقس الإذلال غادر درايفوس لقضاء مدة حكوميته. وكانت نية السلطات متجهة أول الأمر، إلى ترحيله إلى جزيرة كاليدونيا في المحيط الهادي على مقربة من شرق أستراليا، ثم عدلت عن هذا الاتجاه وأمرت بترحيله إلى جزيرة الشيطان[٣٧] المواجهة لجزيرة غيانا الفرنسية على الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية لتكون منفاه بعد أن أمرت حاكم الجزيرة ببناء كوخ له، مساحته أربع ياردات مربعة، ليقضي فيه بقية حياته[٣٨].

ومضت سنة كاملة بقي درايفوس خلالها قابعًا في غياهب منفاه في الجزيرة النائية. وأقفل ملف الخيانة، ولكن إلى حين. فقد جرى في باريس تعيين جديد في جهاز الاستخبارات - المكتب الثاني، ثم تعيين الكولونيل بيكار رئيسًا لشعبة التجسس في المكتب المذكور. وخلال عمله وقعت بين يديه رسالة تجسس جديدة بعث بها جاسوس فرنسي يشغل منصبًا رفيعًا في القوات الفرنسية. والرسالة مرسلة إلى الجيش الألماني. وقد لاحظ بيكار أن الخط الذي كتبت به هذه الرسالة هو الخط نفسه الذي كتبت به الرسالة الأولى التي أدانت درايفوس.

وشرع بيكار يبحث عن صاحب الرسالة فتوصل إلى أن كاتبها هو الضابط استر هازي. وهنا حاول بيكار أن يعيد فتح ملف القضية، وإعادة المحاكمة على ضوء البيانات الجديدة، ولكن المسئولين رفضوا. وعادت القضية تشغل الصحف وتملأ

(٣٧) Lile du Diable

(٣٨) الخولي ، ص ٥٧ – ٥٨

الدنيا. انصب الغضب الشعبي على درايفوس الخائن، وتحول الضابط استر هازي إلى بطل قومي ورمز وطني، شريف، نظيف وضحية بريئة. وعم الغليان أوساطًا شعبية انتصرت لاستر هازي.

انتشرت المظاهرات وعمت الاحتجاجات وارتفعت الهتافات. والنتيجة في هذه الأجواء العكرة. إقالة بيكار من منصبه والزج به في غياهب السجن.

أما اليهود فانبروا للدفاع عن درايفوس. وتبنوا خطة دفاع مفادها: التهمة ملفقة، مصدرها العداء للسامية ودرايفوس ضابط بريء مخلص لوطنه فرنسا[٣٩]. كما أنبرى أيضًا بعض الصحفيين ورجال الفكر والأدب للدفاع عن درايفوس. وكان أبرزهم الأديب الفرنسي الكبير أميل زولا الذي أخذ ينشر مقالاته مدافعًا عن درايفوس في صحيفة «لا أورور» في ٣ شباط فبراير ١٨٩٨م. وأرسل كتابًا مفتوحًا لرئيس الجمهورية عنونه بـ «إني أتهم»[٤٠] اتهم فيه وزارة الحربية والمحكمة العسكرية بتضليل الرأي العام وإخفاء الحقائق وانتهاك حقوق المتهم درايفوس.

وقد تجاوبت مع هذا التحرك صحف عالمية في كل من إنجلترا وألمانيا، هولندا والولايات المتحدة الأمريكية، واتهمت السلطات الفرنسية بالتلفيق وحياكة المؤامرة ضد متهم بريء، هو درايفوس.

وكان هذا مدعاة لصحف فرنسية لتهاجم زولا وتتهمه بالكذب والتضليل وتؤكد إدانة درايفوس وتقول إن حملة زولا تهدف إلى تشويه سمعة الحكومة الفرنسية وإنه أداة بين اليهود.. قدم زولا للمحاكمة، لكنه تمكن من الهرب إلى إنجلترا.

وشن رئيس الحكومة الفرنسية حملة شديدة مضادة أكد فيها إدانة زولا ونفاق المدافعين عنه. أما البرلمان الفرنسي فأصدر بيانًا هذا نصه:

«البرلمان الفرنسي: يطلب من الحكومة أن تضرب، بيد من حديد، الشر الذي تموله رؤوس المال الأجنبية والذي يهدف إلى تبرئة ساحة الخائن درايفوس بعد أن أدين بإجماع قضاة المحكمة وبناء على شهادة ٢٧ ضابطًا فرنسيًا».

(٣٩) الخولي ، ص ٥٩

(٤٠) J. accuse

وفي التصويت البرلماني أيد البيان ٤٢٨ عضوًا وعارضه ٥٤ فقط أي نسبة ٩٠% مؤيدون.

وعمت موجه من العداء لليهود جميع أنحاء فرنسا وانطلقت حملة:

- تحشد الاحتجاجات ضد الوجود اليهودي في فرنسا.
- وتطالب بمقاطعة حوانيت اليهود ومتاجرهم.
- وطرد اليهود من فرنسا.
- وتجريدهم من حق الاقتراع: ناخبين ومنتخبين.
- وطرد الموظفين المسئولين من اليهود من الوظائف الحكومية والخاصة.
- وطرد الطلاب اليهود من المدارس الحكومية والمعاهد العليا والجامعات.

وانبعثت فرية الدم من جديد.

وفي انتخابات ١٨٩٦م فشل كافة المرشحين الذين طالبوا بإعادة فتح ملف درايفوس. من الناحية الثانية استمرت أوساط اليسار الفرنسي وأوساط ليبرالية تطالب بإعادة فتح الملف. بدا وكأن المشكلة لن تهدأ بتاتًا، وأن باب جهنم لن يغلق. ولكن ذات يوم تدخل القدر، فصادف أن أحد الضباط الفرنسيين في القيادة العامة كان يقلّب ملف درايفوس فاكتشف وثيقة مزيفة أخرى. ولم يكن المزيف إلا المسئول الذي خلف بيكار، وهو أحد ضباط المكتب الثاني. وقد شعر قادة القوات العسكرية أن القضية ملفقة حقًا، وأن درايفوس بريء فضغطت لإعادة فتح الملف. وأعيدت المحاكمة بعد مرور سبع سنوات. وصدر قرار جديد بتبرئة درايفوس. وخفتت الأصوات وهدأت النفوس. وأقفلت القضية ولكنها تركت بصماتها ليس على المجتمع الفرنسي فقط، بل على المجتمع الأوروبي واليهود أيضًا، وحولت مجرى حياة الكثيرين. وكان أحد الذين قلبت المحكمة ونتائجها حياتهم رأسًا على عقب الصحفي الدكتور تيودور هرتسل الذي أصبح أبا الصهيونية السياسية لاحقًا [٤١].

(٤١) ראשית הציונית עמ' 15 -28

الفصل الخامس

الحركة الصهيونية

الهدف الحصري فلسطين

والآلية

١. هجرة يهودية إلى فلسطين

٢. ابتياع الأراضي العربية الفلسطينية

٣. إقامة المستوطنات اليهودية على التراب الفلسطيني

كان صراع الحياة أو الموت الذي خاضته حركة الاندماج اليهودية عارضًا من عوارض الأزمة الخانقة التي انتابت المسألة اليهودية برمتها، فقد شهدت العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر تدهورًا حادًا في أوضاع يهود أوروبا في ثلاث مجالات رئيسية:

١- استفحال اللاسامية والعداء لليهود في أوروبا : وقد أخذت هذه الظاهرة تستشري وتعم كافة أنحاء القارة. ففي الشرق تفجرت الأوضاع عقب اغتيال القيصر الروسي الكزاندر الثاني واتهام اليهود بالضلوع في عملية الاغتيال. أما في غربها فقد أججت محاكمة الضابط اليهودي درايفوس الأحقاد ضد اليهود. والنتيجة تحول أوروبا إلى مرجل يغلي غضبًا وعداء لليهود.

٢- تلاشي التيار الاندماجي : الأمر الذي أطفأ بصيص الأمل في نفوس معظم اليهود، فقد كانوا يأملون بالتعايش والتحرر والمساواة عن طريق الاندماج. وها هو الأمل الأخير يخبو والآمال تتحطم على صخرة الواقع المرير!.

٣- التكاثر السكاني : ففي حقيقة الأمر لم تكن الموجة اللاسامية هي السبب الوحيد لضائقة اليهود. فلقد أضيف إليها عامل ذاتي، كان له أبعد الأثر في تفاقم الأوضاع وهو التزايد الطبيعي المطرد، ليس للأوروبيين وحدهم، وإنما ليهود أوروبا أيضًا. فعلى سبيل المثال تضاعف عدد يهود القارة الأوروبية خلال القرن التاسع عشر ووصل إلى ١٢ - ١٣ مليون نسمة، أي بنسبة ٢٥٠%[١] فلا عجب أن تضيق بهم سبل المعيشة وتتقلص مصادر الرزق. وظلت سحابة سوداء قاتمة الأجواء اليهودية التي علتها علامة استفهام كبيرة. أخذوا يبحثون عن آفاق جديدة ومجال حيوي آخر في أوطان جديدة. وارتفعت الصرخات:

- الحياة لم تعد ممكنة في أوروبا! / الأجواء عكرة تنذر بأوخم العواقب!
- الأوضاع حبلى بجسائم الأمور! / خطر الإبادة أو الطرد يلوح في الآفاق!
- فما العمل؟ وأين المفر؟

وجاء الجواب عفويًا، تلقائيًا ومباشرًا. الهجرة! الهجرة! يجب مغادرة الأراضي الأوروبية إلى أول مكان متاح ... وبالسرعة الممكنة قبل فوات الأوان!.

---

(١) הסטוריה של א"י כרך 8 ע" 260

الهجرة الصهيونية الأولى ١٨٨١ ـ ١٩٠٤م

جمع يهود أوروبا متاعهم وأموالهم، وباعوا عقاراتهم وحملوا معهم ما خف وزنه وغلا ثمنه وانطلقوا يهاجرون: كتلاً وأفرادًا، زرافات ووحدانًا إلى أوطان جديدة وراء البحار. اندفعوا بشكل تلقائي غريزي والصيحات تتعالى:

«أنج سعد فقد هلك سعيد!»

«أحمل نفسك وأنج بروحك واسلم بعائلتك».

بدأت الهجرة برشاش خفيف متفرق وبعدها أخذ يتزايد متحولاً إلى تيار جماهيري دافق يفتقر إلى تنظيم أو إرشاد أو توجيه. كان ذلك رد فعل غريزي أعمى عشوائي، فلقد صوتت الجماهير بأرجلها مفضلة الفرار من أوروبا التي تنذر بالمخاطر.

استمرت الهجرة المحمومة العشوائي شهورًا هدأت بعدها النفوس وانخفضت موجة الذعر وحل التروّي والتعقل والتفكير المنطقي مكان التسرع والهرولة الجنونية. فهذه الهجرة الجماعية بحاجة إلى هدوء الأعصاب وإعمال العقل والتخطيط المنظم والتنفيذ الدقيق.

وعلى هذا الأساس الجديد بدأت تتشكل جمعيات يهودية محلية في كافة أماكن تواجد اليهود في القارة الأوروبية. وقد أخذت هذه الجمعيات على عاتقها أمرين:

١ـ دعوة اليهود إلى الهجرة والعمل على إقناعهم بضرورتها.

٢ـ تنظيم عملية الهجرة وتنفيذها ميدانياً.

وقد نجحت هذه الجمعيات في كسب أوساط أوروبية في إيطاليا وفرنسا وألمانيا. مع حلول صيف ١٨٨١ في أعقاب اغتيال القيصر الروسي الكزاندر الثاني في ربيع تلك السنة، بدأت هجرة الملايين من يهود أوروبا من بلادهم. لكن إلى أين؟

الأغلبية الساحقة توجهت إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث الإمكانيات والمستقبل الزاهر الواعد. وهناك مجالات الاستيعاب مفتوحة على مصراعيها من كافة النواحي: السياسية، الدينية، الاقتصادية، الاجتماعية والحضارية وهناك تتوافر:

- مصادر الرزق الوفير.
- والحريات القومية والدينية والمدنية والسياسية
- الملاذ الآمن من المذابح والملاحقات.
- وهناك يمكن لليهود المهاجرين الانصهار في البوتقة الأمريكية.

ولماذا أمريكا بدل فلسطين؟

لقد رأى اليهود بفلسطين ماضيهم وتاريخهم، ولكنهم لم يروا فيها حاضرهم ولا مستقبلهم. فالاقتصاد والحريات تتبوأ المرتبة الأولى، وبعدها يندرج التاريخ والأمجاد والسلفية والعواطف في المرتبة الثانية [٢].

إن التوجه للولايات المتحدة الأمريكية ينقض إحدى الثوابت الصهيونية التي تدعي أن الرابطة التاريخية ـ العاطفية ـ الدينية تحتل الصدارة في سلم أولويات اليهودي. فجاءت هذه الهجرة لتثبت ميدانيًا أن العامل الحاسم هو العامل الاقتصادي وتأمين الحريات [٣].

وقد بلغ عدد المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية حتى سنة ١٩١٤ حوالي ٢,٥ مليون يهودي.

أما الأقلية فتوجهت إلى فلسطين وأماكن أخرى، فهاجر عشرات الآلاف من اليهود إلى دول الدومنيونات البريطانية (كندا، أستراليا، وجنوب أفريقيا) كما هاجر قسم منهم إلى المدن في وسط أوروبا وغربها.

ويمكننا تلخيص توزيع الهجرة الأولى كالتالي:

- الأغلبية ٨٩,٦% إلى الولايات المتحدة الأمريكية.
- الأقلية بنسبة ٣,٢% إلى فلسطين.
- والباقي بنسبة ٧,٢% إلى غرب أوروبا، أمريكا الجنوبية، كندا وأستراليا.

---

(٢) מוריס בני : קורבנות עמוד 27

(٣) קימרלינג ברוך : מהגרים , מתישבים , ילדים ע" 29

١. الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة الأمريكية

مع حلول سنة ١٨٨٢م بدأ مهاجرو أوروبا اليهود ينزلون الشواطئ الأمريكية. وفي حقيقة الأمر لم يكن هؤلاء هم اليهود الأوائل الذين تطأ أقدامهم تلك القارة، فلقد سبقهم إليها يهود كانوا قد هاجروا من أسبانيا، واستقروا، في بداية الأمر في مدينة نيو أمستردام، (نيويورك لاحقًا) في فترة الحكم الهولندي.

وقد استمر تدفق الهجرة اليهودية الأولى طوال ١٥٠ عامًا، أي من سنة ١٦٥٤م حتى القرن الثامن عشر. ولكن الإقبال على العالم الجديد ظل محدودًا ضئيلاً خلال الفترة المذكورة، ففي سنة ١٧٧٦ (سنة استقلال الولايات المتحدة) لم يتجاوز عدد اليهود ١٥٠ نسمة فقط، ولكن في أواسط القرن التاسع عشر، مع هجرة ١٨٨٢م بدأت تصل موجات المهاجرين اليهود الوافدين من وسط أوروبا وشرقها. محدثة تحولاً جذريًا. واستمر تدفق المهاجرين بزخم كبير وبدون انقطاع حتى سنة ١٩٢٤م. أي طوال ٤٢ سنة متواصلة، حين سن في السنة ذاتها قانون حظر الهجرة إلى البلاد [٤].

وحين نلخص المعدل العام للهجرة اليهودية الجديد في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر نتوصل إلى النتائج التالية:

الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ٨٥% من مجموع المهاجرين. وإلى أوروبا الغربية ١٣% من مجموع المهاجرين. وإلى فلسطين ٢% فقط.

أما النسبة المئوية لهجرة اليهود إلى الولايات المتحدة المستمرة بين السنوات ١٨٢٠ - ١٩٧٢ فكالتالي:

السنة	النسبة المئوية من سكان الولايات المتحدة	النسبة المئوية من يهود العالم
١٨٢٠	٠,٠٥	٠,١٦
١٨٥٠	٠,٢١	٠,٠٦
١٨٨٦	٠,٥٥	٤٤,٣
١٩٠٠	١,٤٥	١٠

(٤) ראשית הציונות ע"49

١٩٢٥	٣,٢٥	٢٧,١٤
١٩٤٥	٣,٢٥	٤٤,٨
١٩٧٢	٢,٩٤	٨٢

أما الأعداد المجردة للمهاجرين إلى فلسطين فكالتالي:

حتى نهاية القرن التاسع عشر : ٥٠ ألف نسمة.

وعشية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ : ٨٥ ألف نسمة.

ومع انتهاء الحرب المذكورة ١٩١٨ : ٦٥ ألف نسمة.

والأعداد المجردة المهاجرة إلى الدول الأخرى في سنة ١٩١٤ فكالتالي:

إلى الولايات المتحدة ٢,٥ مليون نسمة.

وإلى أمريكا الجنوبية والدومنيونات البريطانية (كندا، أستراليا، وجنوب أفريقيا) عشرات الآلاف فقط [٥].

أما التوزيع الجغرافي للمهاجرين اليهود في الولايات المتحدة كالتالي:

في سنة ١٩٠٠م سكن ٧٥% منهم في ١٦ مدينة، وكان في مدينة نيويورك لوحدها ٤٠% من مجموع المهاجرين [٦].

هذا وقد نقل المهاجرون الجدد معهم إلى وطنهم الجديد عاداتهم وتقاليدهم، لغتهم، نمط معيشتهم التي درجوا عليها في وطنهم الأصلي في أوروبا. فاستمرت الجاليات اليهودية تعيش في العالم الجديد بعقلية العالم القديم أوروبا. فلا عجب أن الهوة التي تفصل بين أولئك المهاجرين كانت سحيقة والفروق بينهم كانت كبيرة من الصعب جسرها أو اختصارها. وقد انقسموا تبعًا لذلك إلى ثلاثة تيارات فكرية دينية منتظمة:

أ. التيار الإصلاحي　　ب. التيار الأرثوذكسي　　ج. التيار المحافظ

وتميز كل تيار بهويته، شخصيته، استقلاليته، نظمه، شعائره وحاخاماته ورموزه.

(٥) מוריס ע" 27

(٦) ראשית הציונות ע"ע 49 – 54

أ- التيار الإصلاحي [٧]

وهو تيار براغماتي مرن تميز بالتجديد والانفتاح والابتعاد عن السلفية، دعا إلى الاندماج في المجتمع الجديد، وإلى نبذ كل ما يتعارض مع هذه الدعوة أو يعيقها. فأمر الساعة يوجب التأقلم والتعايش في البيئة الأمريكية. وتبعًا لذلك دعا إلى:

- إقامة الصلوات اليهودية باللغة الإنجليزية.
- إسقاط كل ما له ذكر أو علاقة بصهيون والقدس كمركز للشعب اليهودي.
- مرافقة الصلوات بأنغام موسيقى آلات القانون.
- القول بأن واجب كل يهودي التأقلم والتكيف للمجتمع الجديد.
- إسقاط كافة الدعوات الدينية التي تكرس الانعزال، الانغلاق، والتقوقع.
- اعتماد يوم الأحد عطلة أسبوعية بدل يوم السبت بعد أن أبطلوا معظم شعائر السبت.
- أهملوا التحريمات التي نصت عليها الشريعة اليهودية.
- اكتفوا بالصلوات القصيرة وقرأوا بعض الفقرات من أي كتاب آخر، بل حتى حلّ الكلمات المتقاطعة ويقوم أحد المتحدثين بإلقاء خطاب في أي موضوع كان.
- سمحوا باختلاط الجنسين في الصلوات.
- منعوا تغطية الرأس أثناء الصلاة واستخدام تمائم الصلاة (تفيلين) תפילין
- أطلقوا على كنسهم اسم هيكل مع العلم أن كلمة هيكل لا تطلق إلا على الهيكل الموجود في القدس.
- إعادة تفسير اليهودية على أساس عقلي منطقي ودراسة العهد القديم على أسس علمية.
- اعتماد الفتاوى كآلية للتحرر من الفرائض الدينية، فالمهم في نظرهم، هو روح العقيدة وجوهر الإيمان لا الطقوس والشعائر الدينية ونصوصها الحرفية.
- رفض كافة الفرائض الدينية التي لا تناسب المجتمع الجديد وقيمه الحضارية.
- الإعلان بصراحة، والالتزام المباشر العلني، بأن «صهيوننا هي الولايات المتحدة الأمريكية وأورشليمنا هي واشنطن».

---

(٧) הזרם הרפורמסטי

❋ والخلاصة سعوا إلى تعميق ولاء اليهود إلى الوطن والمجتمع الذي يعيشون فيه فهناك هيكلهم وليس في القدس.

أما جذور هذا التيار فهي ألمانية بالأساس، ولكنه لم يحظ في بلاد المنشأ بانتشار واسع، وإنما ازدهر وانتشر في الوطن الجديد، الولايات المتحدة، بعد هجرة ١٨٨٢م.

وقد تميز عناصر هذا التيار بالنجاح الاقتصادي.

ب- التيار الأرثوذكسي [٨]

وهو نقيض التيار الإصلاحي ويدعو إلى الالتزام بالسلفية الدينية والتمسك بها وبثوابتها وتطبيق الشرائع والفرائض، والتقيد بالأوامر والنواهي والحدود، التي أطلقوا عليها «فرائض صهيون» [٩] نصًا وروحًا دون تحريف أو تحوير أو تبديل. وقد تميز هذا التيار بالمحافظة والشديدة على ثوابت وضعها على رأس سلم الأولويات وهي:

- التمسك الشديد بقدسية يوم السبت.
- الالتزام بنظام التحليل والتحريم في المآكل والمشرب (نظام الكشروت) [١٠].
- المواظبة على تقديم المساعدات الدوْوية ليهود فلسطين في الدرجة الأولى، ولسائر اليهود في شتى أنحاء البلاد في الدرجة الثانية.

وقد قوي هذا التيار مع وصول مهاجرين جدد من أوروبا الشرقية، فتشكلت في الوطن الجديد الآلاف من الجاليات المنظمة من عناصر التيار المذكور، وحافظت على التواصل مع الجاليات اليهودية في الوطن الأوروبية. وقد شرعت تنظيمات هذا التيار بإنشاء المدارس والمعاهد الدينية والمؤسسات الخيرية والتوراتية اليهودية.

---

(٨) הזרם האורטודוכסי
(٩) متسفوت تسيون   מצוות ציון
(١٠) כשרות

ج- التيار المحافظ [(١١)]

وهو تيار وسطي توفيقي بين القطبين المتضادين المذكورين. أسسه يهود مهاجرون من شرق أوروبا من أتباع المذهب الأرثوذكسي. فبعد استقرارهم في البلاد الجديدة سعوا إلى الجمع بين التقليد والتجديد، العصري المستحدث والقديم، والمنقول والموضوع. فمن ناحية تجنبوا التميز عن الآخرين من أبناء المجتمع الأمريكي من العادات والتقاليد، والمأكل والمشرب والملبس ونمط المعيشة. ومن ناحية أخرى أبوا التخلي عن الأرثوذكسية اليهودية. والحل: الوسطية. نوع من التوفيق والمزج بين السلفية المحافظة والإصلاحية المتحررة. قالوا: لتكن حرية تجديد وانفتاح مع المحافظة على القديم. وقد نجح أعضاء هذا التيار في إنشاء مؤسسات دينية - اجتماعية - ثقافية ومراكز جماهيرية، نواد عامة، منظمات نسائية، فرق كشفية وشبكة تعليم خاصة بهم [(١٢)].

▪ سوق العمل ليهود الولايات المتحدة الأمريكية

بعد استقرار المهاجرين اليهود على الأراضي الأمريكية بدأوا يمارسون أعمالهم وقد توزعت هذه بين تارة، حرف ومهن، وظائف، خدمات، أعمال حرة، زراعة ومواصلات. ولكن الأغلبية ٨٥,٣٪ انصرفت إلى ممارسة التجارة. وقد حالف النجاح المهاجرين اليهود الألمان بوجه خاص فوصلوا القمة في عالم الأموال والمصارف والصيرفة، التسليف والسمسرة، وفي فرع الحوانيت والبقالات.

أما المهاجرون من شرقي أوروبا، وبصورة خاصة من روسيا، فانصرفوا إلى العمل المأجور عند أثرياء اليهود وأصحاب المصانع، خصوصًا في فرع التكستيل والملابس الجاهزة. وكانت ظروف عملهم، تشغيلهم وأجورهم مجحفة تميزت بالتدني والافتقار إلى الشروط الاجتماعية والخدمات الصحية، فانصرفوا إلى تشكيل نقابات عمالية لتعالج الأمور التالية:

(١١) הזרם הקונזרבטיבי
(١٢) ראשית הציונות ע"ע 63- 69

- تعيين أجور العمل وظروفه.
- إقامة مؤسسات خدمية: عيادات طبية، مؤسسات تعليمية وخيرية، تأسيس دور نشر، مسارح.. وغيرها. وبعد أن أشتد ساعد هذه النقابات ووطدت أقدامها أخذت توسع نشاطاتها من شؤون العمل إلى المجالات التالية:

- التدخل في شؤون البلاد الداخلية والخارجية والإدارية والسياسية.
- إنشاء مؤسسات لدعم اليهود ومساعدتهم في شتى أماكن وجودهم.

▪ منظمات يهودية في الولايات المتحدة الأمريكية

مع استقرار اليهود وترسيخ أقدامهم في العالم الجديد أخذوا ينشئون منظمات يهودية أمريكية هدفها: مد يد المساعدة والعون والدعم لليهود في الخارج. وأشهر تلك المنظمات:

١- منظمة بني بريت [(١٣)] أسسها يهود مهاجرون من ألمانيا سنة ١٨٤٣م وكانت أهدافها في البداية:

أ. مساعدة اليهود الوافدين حديثًا إلى الولايات المتحدة.

ب. مساعدة اليهود «المتبلدين» الذين استقروا في البلاد.

ولم تلبث الأحداث أن تطورت وأخذت المنظمة تمد يد العون والدعم إلى اليهود خارج الولايات المتحدة في شتى المجالات الاقتصادية - السياسية - الاجتماعية - الخيرية، وعلى رأسها مكافحة اللاسامية.

٢- من ظمة هياس [(١٤)] وقد تأسست في وقت متأخر نسبيًا في سنة ١٩٢٠م هدفها: مساعدة اليهود الذين تضرروا من الحرب العالمية الأولى.

٣- منظمة الجوينت [(١٥)] وهي أقواها وأوسعها انتشارًا.

(١٣) בני-ברית
(١٤) היאס
(١٥) ג'וינט Jewish Distribution Committee

منظمات يهودية في الولايات المتحدة الأمريكية

أصبحت الجالية اليهودية في مدينة نيويورك أكبر الجاليات الأمريكية وأغناها وأعظمها نفوذًا وتأثيرًا: ليس في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها فقط، وإنما في العالم كله أيضًا. وقد حصر يهود نيويورك أنفسهم أول الأمر، في مساحة ضيقة لا تتجاوز ٣ كم^2 في القسم الجنوبي من المدينة. وكان الاكتظاظ في هذه الرقعة الضيّقة رهيبًا وبلغ في سنة ١٩١٠م ٥٤٠ ألف نسمة.

وقد بدا، وكان الربيع يهودي محض، فأينما توجّهت وحيثما تلفت لا تجد إلا الأبنية اليهودية مثل الكنس (وقد بلغ عددها في السنة المذكورة أكثر من ٣٥٠ كنيسًا)، ومؤسسات خيرية يهودية، ودور نشر للكتب والصحف والمجلات والنشرات باللغة العبرية، التنظيمات والنقابات، أما اللغة فلم تكن تسمع إلا لغة الإيديش [١٦] التي يتكلم فيها الناس في الحارات الضيقة والأزقة المعتمة والدروب الفرعية المتفرعة والدور السكنية المتلاصقة.

حقًا صدق من قال: «أن نيويورك مدينة يهودية». ولكن مع مرور الزمن وتكاثر عدد السكان ضاق الحي اليهودي بساكنيه وبلغت الضائقة السكنية حد الاختناق، فكان لا بد من الانتشار خارجه. وبدأ الانتقال إلى الأحياء الجديدة المختلطة. وأخذ اليهود يندمجون في حياة المجتمع الأمريكي الواسع، المنفتح المتحرر المتسامح. وبدأت عملية الاختلاط فالزواج فالانصهار والذوبان. وقد اندمج اليهود في شتى نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ولعل أهم العوامل المساعدة على تسهيل العملية المذكورة:

- فصل الدين عن الدولة الذي نصّ عليه الدستور الأمريكي.

التعددية العرقية - الدينية - المذهبية التي ميزت الشعب الأمريكي.

---

(١٦) اللغة العبرية — الألمانية

٢. الهجرة الصهيونية إلى فلسطين

جمعيات «محبة صهيون» [١٧]

مع انطلاق الهجرة اليهودية الأوروبية بعد عام ١٨٨١م توجه ٣,٢% من المهاجرين إلى فلسطين وكان لا بد من تنظيم عملية الهجرة وتأمينها. بعد موجة الاندفاع العشوائي الأول للهجرة تأسست جمعيات يهودية لهذا الغرض. وقد بدأ تأسيس هذه الجمعيات في مدينة أوديسا في روسيا.

ثم أخذت تنتشر إلى سائر دول أوروبا، بولندا، ألمانيا، رومانيا، النمسا، الولايات المتحدة الأمريكية، فرنسا، وانجلترا. وقد أطلقت هذه الجمعيات على نفسها اسم «جمعية محبة صهيون» وعلى أعضائها «محبي صهيون» [١٨]. وبلغ عددها ١٤٠ جمعية وكان يتنازعها تياران:

١. تيار ديني يدعو إلى اعتماد الديانة اليهودية في الفكر والتنفيذ. وقد دعا إلى التحلي بالصبر والإناة والروية والامتناع عن التسرع والاندفاع والشروع بهجرة فورية تلقائية.

٢. تيار علماني يدعو إلى العمل الطلائعي والميداني والعودة الفورية المباشرة إلى أرض الميعاد. وقد اعتمد هذا التيار، الذي اصطبغ بالطابع القومي، الفكر الذي دعا إليه بنسكر في كتابه «التحرر الذاتي».

بدأت الجمعيات تصدر الصحف داعية إلى قضيتها، منها:

- صحيفتان باللغة العبرية هما: همليتس وهمجيد [١٩]
- وصحيفة باللغة الروسية.
- وصحيفة بلغة الإيديش.
- وصحيفة بالإنجليزية هي جويش كرونكل.

---

(١٧) אהבת ציון

(١٨) אגודת חבת ציון - חובב ציון

(١٩) "המליץ" ו "המגיד"

ويشير المؤرخ موريس [٢٠] إلى المبالغة المتعمدة التي عزتها الحركة الصهيونية لاحقًا إلى الدور الكبير والهام الذي قامت به هذه الجمعيات في خدمة الصهيونية. يقول إنه يتوجب عدم المبالغة في حجم هذه الجمعيات وقدراتها. فإن هذه الجمعيات كانت تعاني نقاط ضعف خطيرة منها:

- الانقسامات الفكرية الداخلية.
- وشح التبرعات وضآلتها، فلم يتحمس أحد من أثرياء اليهود البارزين للتبّرع بسخاء. فبلغ مجموع المبالغ التي جمعت من التبرعات واشتراكات الأعضاء ٥٠ ألف روبل (خمسة آلاف ليرة إسترلينية) في السنة، وهو مبلغ لا يسمن ولا يغني من جوع ولا يكاد يكفي للقيام بأمر ومصاريف أكثر من ١٥ عائلة يهودية تستوطن فلسطين. وقد رأت الجمعيات عدم صرف المبالغ النقدية مباشرة للعائلات، بل فضلت «التنقيط» بمساعدات عينية، بدل النقدية، حسب الحاجة مثل شراء بقرة للعائلة (أ)، أو ترميم سقف بيت للعائلة (ب)، أو شراء بذور وأسمدة للعائلة (ج)، أو شراء بعض الدونمات للعائلة (د).

وقد نجحت الجمعيات خلال ١٦ سنة من ١٨٨٣–١٨٩٩ في جمع مبلغ ٨٧ ألف ليرة إسترلينية مقابل ١,٦ مليون ليرة إسترلينية تبرع بها أدموند دي روتشيلد ليهود فلسطين عن غير طريق الجمعيات. وقد أمتد نشاط الجمعيات ليشمل طلاب جامعة بطرسبورغ الذين بدأوا ينتسبون لعضوية تلك الجمعيات، وكان الشرط الوحيد للقبول: كون المنتسب يهوديًا يؤمن بالوطن القومي اليهودي كحل وحيد للمشكلة اليهودية.

وكان أبرز تنظيم طلابي جامعي هو تنظيم طلاب جامعة خاركوف الذين انتظموا في جمعية أطلقوا عليها اسم «بيلو» [٢١] مختصر الشعار «(آل) بيت يعقوب لتذهبوا ونذهب» التي تركت بصماتها على المشروع الصهيوني خلال الخمسين سنة اللاحقة وأنجبت أبرز قادة إسرائيل [٢٢]. كانوا مجموعة من المثاليين الذين وضعوا نصب أعينهم إقامة دولة يهودية في فلسطين.

---

(٢٠) ע" 27
(٢١) ביל"ו
(٢٢) מוריס ע" 28

ـ توحيد جمعيات « محبة صهيون »

كانت كل جمعية من جمعيات محبة صهيون الـ ١٤٠ المتفرقة المنتشرة في وسط أوروبا وشرقها يعمل كل منها على حدة، وبشكل مستقل منفصل دون أي تنسيق فيما بين بعضها البعض.

وقد اقتضت الحاجة إلى وجوب توحيدها تحت سقف واحد. ومن أجل ذلك تم عقد مؤتمر كاتوفيتش (ألمانيا) في السادس من تشرين الثاني نوفمبر ١٨٨٤. حضره ٣٨ عضوًا يمثلون كافة الجمعيات.

افتتح المؤتمر أعماله بانتخاب ليو بنسكو رئيسًا، فأصبح الرئيس الأول والمنظر للجمعية الجديدة، وصار كتابه «التحرر الذاتي» دليل عمل لمستوطني محبة صهيون.

وقد أقر المؤتمر البنود التالية:

١. توحيد كافة الجمعيات الـ ١٤٠ في تنظيم واحد.
٢. إنشاء هيئة لدعم العمل الزراعي اليهودي.
٣. العمل على تيسير هجرة يهود أوروبا إلى فلسطين إن أمكن، فإن تعذر ذلك فإلى أي مكان آخر غيرها.
٤. العمل على تجنيد أموال عن طريق التبرعات والاشتراكات.
٥. اتخاذ أوديسا مقرًا للحركة.

وهكذا نرى أن الجمعية لم تحدد فلسطين بالذات خيارًا وحيدًا، بل خيار من بين بدائل أخرى أما فكرة الاستيطان الميداني على التراب الفلسطيني فلم تطرح إلا في وقت لاحق في المؤتمر العام لجمعية «محبة صهيون» المنعقد سنة ١٨٩٠ حين نجحت، بتأثير أبرز رموزها سميلانسكي وليلنبلوم إلى تحويل الهجرة على مشروع استيطاني في فلسطين بالذات. وكان أبرز مقرراتها.

١– ابتياع أراضي فلسطينية.
٢– استيطان زراعي يهودي على الأراضي التي يتم ابتياعها.

وقد تبع ذلك تكليف الجمعية لجنة يهودية بزيارة فلسطين وتقصي أحوالها ودراسة إمكانية الهجرة إليها. وحين عادت اللجنة كانت تحمل تقريرًا إيجابيًا.

أ. الهجرة إلى فلسطين ممكنة.

ب. إمكانيات المعيشة والاستيطان اليهودي متيسرة.

ومع انطلاق الهجرة الكبيرة إلى الولايات المتحدة توجهت أقلية إلى فلسطين. ويذكر أن عدد اليهود في فلسطين كان عشية تلك الهجرة، أي في سنة ١٨٣٦م، ٦ آلاف نسمة في حين بلغ عدد السكان العرب ٣٠٠ ألف نسمة [٢٣].

وقد قدمَت هذه الهجرة على موجتين:

١ـ الموجة الأولى بدأت عام ١٨٨١م وتوقفت بعد سنوات معدودة، نتيجة للحظر العثماني على الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

٢ـ الموجة الثانية بدأت عام ١٨٩٠ حين رفعت الحكومة العثمانية الحظر عن الهجرة وشرّعت أبواب فلسطين أمامها، فاستمر تدفق المهاجرين اليهود حتى سنة ١٩٠٤م.

١. الموجة الأولى من الهجرة الأولى إلى فلسطين لعام ١٨٨١م.

وصلت الموجة الأولى من هجرة ١٨٨١م على دفعات متتالية قام عليها ونظمها جمعية «محبة صهيون». وكان ضمن المهاجرين الأوائل مجموعة من ١٤ شخصًا (١٣ ذكرًا وانثى واحدة) من أعضاء جمعية «بيلو» وكان عناصرها من طلاب جامعة خاركوف الروسية. وقد أطلق عليهم اسم «البيلوبين» [٢٤] أو رجال بيلو وقد نزلوا شواطئ مدينة يافا وهم:

- مفلسون لا يملكون أي مبلغ من المال.
- غرباء عن أي عمل جسدي، ويفتقرون إلى الخبرات المهنية أو الحرف اليدوية. وقد واجهتهم المشكلة الأولى: كيف يؤمنون لقمة العيش؟

توجهوا إلى مدرسة «مكفة يسرائيل» وناشدوا مديرها هيرش إيجاد عمل لهم في أي مجال متيسر: في المدرسة أو في مزرعتها.

واحتار هيرش: بماذا يشغلهم، وهم يجهلون أدنى مبادئ الزراعة أو أي عمل آخر!

---

(٢٣) د. الخولي حسن صبري : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فسطين في النصف الأول من القرن العشرين، ص٣٤

(٢٤) בילויי"ם

▪ بداية الاستيطان ـ جمعية محبة صهيون

مع ذلك حاولوا العمل في المدرسة ومزرعتها، ولكنهم فشلوا وكانت خيبتهم بالغة. فغادروا «مكفة يسرائيل» والتجأوا إلى مستوطنة «ريشون لتيسون»، ولكنهم لم يصمدوا فيها إلا مدة قصيرة. انتقلوا بعدها إلى أرض أسسوا عليها مستوطنتهم «غديرا» [٢٥] سنة ١٨٨٤. وللأرض المذكورة قصة فإنها كانت ملكًا للقرية العربية «قطره». وقد اضطر أهل القرية إلى استلاف أموال، من متمول مراب فرنسي بالفائدة الفاحشة. وكانت الأموال التي استلفوها تنفق إما لتأمين لقمة العيش لأولئك الفلاحين أو لدفع الضرائب الحكومية الباهظة.

ولما عجز سكان القرية عن دفع الفوائد وسداد الدين رفع الفرنسي قضية حقوقية ضدهم في المحاكم العثمانية.

والنتيجة، عرضت أراضيهم للبيع بالمزاد العلني، ورسا المزاد على المتمول إياه. ولكنه ترك الفلاحين أصحاب الأرض، يفلحونها بالضمان. وبعد مدة باع تلك الأرض لجمعية «محبة صهيون». ووقع الخبر كالصاعقة على رؤوس فلاحي القرية وتأكدوا أن الأرض سوف تنتزع منهم وسيخسرون مصدر رزقهم وقريتهم، والسقف الذي يؤويهم.

ولما طالبت الجمعية التي ابتاعت الأرض إخلاءها رفض الفلاحون المغادرة وتشبثوا بالأرض والمنزل والقرية. فما كان من المستوطنين البلويين إلا أن اقتحموا الأرض عنوة وبالسلاح، وحاولوا طرد الفلاحين مستعملين السياط. ودافع الفلاحون ونشب اشتباك بالأيدي، ونجح الفلاحون في طرد المستوطنين واضطرارهم إلى الانسحاب إلى مستوطنتهم غديرا.

وهنا تدخل الدرك التركي، بعد أن ملئت جيوبه بذهب الرشوة، فاستعمل القسوة والقمع مع الفلاحين العرب واعتقل تسعة من قادتهم [٢٦].

وبعد مرور سنة تفجر الوضع ثانية، وذلك حين اتهم مستوطنو غديرا فلاحي قطره بسرقة أحد الخيول، فقاموا باختطاف أحد الفلاحين العرب واحتجزوه رهينة لحين إعادة الفرس.

---

(٢٥) גדרה

(٢٦) כהן ע" 66

اندفع فلاحو قطره لإنقاذ ابن قريتهم وهاجموا المستوطنة ونشب عراك بالأيدي تخلله إطلاق نار، دون وقوع ضحايا. وقد سارعت مستوطنتان يهوديتان مجاورتان هما «عقرون» و«ريشون لتسيون» لنجدة المستوطنين. وهنا تدخل الدرك التركي وفصل بين الطرفين، وقام بإطلاق سراح الرهينة واعتقل ٤ من الفلاحين (٢٧).

أما «غديرا» التي أرادها المستوطنون من بيلو مستوطنة نموذجية بموجب مقررات مؤتمر كاتوفيتش، فقد سكنها ٩ من الـ ٥٠ عضوًا الذين وصلوا إلى البلاد، وقاموا بابتياع ١٨٠٠ دونم من ابن القنصل الفرنسي في مدينة يافا، بالإضافة إلى ١٢٠٠ دونم كان اشتراها أفراد من اليشوف القديم.

حل «التسعة المختارون» على الأرض ليفلحوها ويقيموا عليها مستوطنة. وكانت البداية ١٨٨٤/٤/١٢م. وكان مخططًا إقامة المستوطنة على أساس كومونة ولكنها أديرت ميدانيًا من قبل مدير سكن خارج المستوطنة. ولم تلق التجربة في نهاية المطاف، أي نجاح فقام الأعضاء بعد مدة، من الزمن، بتوزيع الأرض والممتلكات بينهم، ولم يتبق من مبادئ بيلو شيء.

أما موجات الهجرة اليهودية الأخرى، التي وصلت مع بيلو، فقد كانت أكثر عددًا وأفضل تنظيمًا وقد حسبوا حسابًا لكل صغيرة وكبيرة ولكل شاردة وواردة واحتاطوا لكافة الأمور:

- كانوا قد أمنوا سلفًا رأس مال لا بأس به كانوا قد جمعوه.
- كما آمنوا أرضًا كانت جمعية «محبة صهيون» قد ابتاعتها وحجزتها لهم.

فلذلك لم تكد أقدامهم تطأ على الشواطئ الفلسطينية حتى توجهوا مباشرة إلى الأرض الجاهزة التي كانت قد أعدت لهم سلفًا. وبدأت المستوطنات الأولى تقام على أرض فلسطين، مستوطنة بعد الأخرى، وهي عبارة عن قلاع وحصون وجميعها تابعة لجمعية «محبة صهيون».

في الوقت نفسه وفي المرحلة الأولى في سنوات الثمانين من القرن التاسع عشر أقام محبو صهيون أربع مستوطنات في شمال فلسطين، كانت المسامير الأربعة

(٢٧) מוריס ע" 61

الأولى التي دقت في نعش فلسطين العربية. وهي: روش بينا - زخرون يعقوب، يسود همعلاه وبات شلومو (٢٨) وست مستوطنات في الجنوب هي: ريشون لتيسون - نس تيسونا - عقرون - غديرا - بئير طوفيا - وبيتح تكفا (٢٩).

وفي سنوات التسعين من القرن المذكور بنيت عشر مستوطنات إضافية: سبعة في الشمال هي: الخضيرة، شفيه، عين زيتيم، إيلانيه، المطلة مشمار هيردن ومحنايم (٣٠) وثلاثة في الجنوب هي: رحوفوت، موتسا، هر طوف(٣١).

أما المستوطنات الأربعة الأولى فلكل منها قصة:

١- ريشون لتسيون:

أولها مستوطنة ريشون لتسيون (الأولى لصهيون) تأسست عام ١٨٨٢م. وقد أقيمت على أراض القرية العربية «عيون قارة» على مساحة ٣٣٤٠ دونمًا. وكانت ملكية أرض القرية مقسمة بين الفلاحين والأخوين مصطفى وموسى الدجاني (كوشان طابور رقم ٧) من مدينة يافا.

وتبدأ القصة باتفاق بين جمعية «محبة صهيون» والسلطات التركية. فقد أعلن المسئولون الأتراك أن القرية قصّرت في تسديد الضرائب الحكومية، وسارعت السلطات التركية بأمر من المحكمة، بطرح الأراضي للبيع بالمزاد العلني. رسا المزاد على شخص يهودي اسمه حاييم امزليج (٣٢)، يشغل منصب نائب القنصل البريطاني في مدينة يافا فابتاع الأرض. ولم يكن امزليج هذا إلا وكيلاً سريًا لمشترين يهود، بلغ عددهم عشرة، أبرزهم تسفي ودافيد ليفونتين وهم من اليهود الروس (٣٣). وقد بقي هؤلاء العشرة في الظل وناب عنهم امزليج في إتمام صفقة الشراء. وتم تحويل ملكية الأرض على اسم المالكين الجدد بعد أن انتزعت من أصحابها الفلاحين العرب بغير وجه حق وبمفعول قانون جائر.

(٢٨) ראש פנה, זכרון יעקוב, יסוד המעלה, בת שלמה,
(٢٩) ראשון לציון, נסציונה, עקרון, באר טובוה, טתח תקוה,
(٣٠) חדרה, שט"ה,עין זיתים, אילנה, מטולה, משמר הירדן, מחנים
(٣١) רחובות, מצא, הר טוב
(٣٢) חיים אמזלג
(٣٣) צבידוד ליבונטין

إزاء انتفاضة الفلاحين، لم يسع حاكم المنطقة التركي إلا أن يلغي الصفقة ويعيد الأمور إلى سابق عهدها، ولكن إلى حين. فبعد أن هدأت النفوس واطمأنت القلوب بيعت الأرض ثانية إلى القنصل البريطاني في مدينة يافا. ولم يكن هذا إلا الحاخام اليهودي للمدينة مزنايغ (٣٤)، أما السعر فكان ١,٥ فرانك فرنسي للدونم الواحد!

وقام المالك الجديد بتحويل الأرض إلى ملكية جمعية محبة صهيون ... وكان الله بالسر عليمًا. ولم تلبث المستوطنة أن أخذت تتوسع بابتياع أراض جديدة إلى الغرب باتجاه البحر المتوسط.

٢ـ روش بينا:

أما المستوطنة الثانية فكانت روش بينا (٣٥) (رأس الزاوية).

أقيمت المستوطنة على أراضي قرية الجاعونة العربية ذات الموقع الاستراتيجي، فهي تسيطر على مداخل سهل الحولة من الشمال، وعلى منطقة طبريا من الجنوب، وعلى جسر بنات يعقوب الفاصل بين سوريا وفلسطين من الشرق وعلى منطقة صفد والجليل الأعلى من الغرب.

وكان يهوديان صفديان هما فريدمان وبشتون، قد ابتاعا، باسم ١٧ رب عائلة يهودية صفدية نصف أراضي قرية «الجاعونة» للفلاحة والاستيطان. ويذكر أن العملية تمت قبل ظهور الحركة الصهيونية فهي لا علاقة لها بالحركة الصهيونية ولا بذراعها الميداني «محبة صهيون»، شأنها في ذلك شأن بيتح تكفا.

بادر الصفديون بإيفاد وفود إلى يهود الشتات طالبين الدعم والمدد، لكن الحملة فشلت، وعادت الوفود خالية الوفاض. فما كان من العائلات الـ ١٧ الصفدية إلا أن غادرت الموقع وعادت أدراجها إلى صفد. وباءت المبادرة الصفدية بالفشل.

ولكن مع حلول عام ١٨٨٢ قدِمَ نوع جديد من المهاجرين. كانوا صهيونيين من «محبي صهيون» فرع رومانيا وقام مندوب شركة إعمار ـ فلسطين (٣٦) بابتياع

(٣٤) מזנאינג
(٣٥) ראש טינה
(٣٦) האגודה לישוב הארץ

أربعة آلاف دونم من اليهود الصفديين في ١٤ تموز ١٨٨٢م (٣٧). وأقام المستوطنون الجدد مستوطنة جديدة أطلقوا عليها اسم «روش بيناه» وأسكنوا فيها ٥٠ عائلة (١٢٠ نسمة) من يهود رومانيا، بعد أن اقتلعوا فلاحيا العرب، أصحابها الحقيقيين.

ويروي يتسحاق ابشتاين(٣٨)، وهو مدرس يهودي كان يعمل في إحدى المستوطنات، في شهادة له أمام المؤتمر الصهيوني المنعقد سنة ١٩٠٥م فيقول: أنه كان شاهد عيان لعملية اقتلاع العرب من الجاعونة. وأردف قائلاً «ولا يزال نحيب النساء العربيات وعويلهن المر يطنّ في أذني حتى اليوم. كان ذلك حين اقتلعن مع رجالهن ليرحل الجميع إلى منطقة حوران. وقد ركب الرجال الحمير وتبعت النساء ناحبات مولولات يطبق عويلهن الآفاق. وللحظة قصيرة توقفن ثم انكببن على الأرض يقبلن ترابها وحجارتها».

٣ـ «زخرون يعقوب» (٣٩)

المستوطنة الثالثة زخرون يعقوب (ذكرى يعقوب) تشرين الثاني نوفمبر ١٨٨٢م، أقيمت على أراضي كل من قريتي: زماين والطنطورة العربيتين. وبلغت مساحة أراضي المستوطنة ٦ آلاف دونم. وكان الموقع ساحرًا أخاذًا ويحتل مكانًا استراتيجيًا، فالقرية تقع على سلسلة «جبال الروحة» المحاذية لجبال الكرمل، وتسيطر على «وادي الملح»، وهو أحد المعابر الرئيسية التي تصل الساحل الفلسطيني بداخل البلاد.

وقد ابتاع الأرض المذكورة فرنسي اسمه جيرمين يشغل منصب قنصل فرنسا في مدينة حيفا. فقام بغرسها بكروم العنب لتصنيع النبيذ الفاخر للتصدير إلى فرنسا. وقد قام المالك الفرنسي ببيع أرضه لجمعية يهودية اسمها «اللجنة الرئيسية لشركة توطين فلسطين» (٤٠) وهي إحدى جمعيات محبة صهيون. وكان واسطة البيع ممثل روتشيلد في مدينة بيروت. وقامت الجمعية المذكورة بابتياع الأرض

(٣٧) الدباغ : ج ٦ ق ٢ ص ص ٢٤٢ - ٢٤٣.
(٣٨) אפשטיין
(٣٩) זכרון יעקוב
(٤٠) "הועד הראשי לישוב ארץ ישראל"

لحساب مالكين يهود مقيمين في رومانيا لغرض الاستثمار. لم يكن البيع من «شركة توطين فلسطين» إلى المشترين اليهود الرومانيين مباشرًا، بل تم بواسطة قنصل ألمانيا - النمسا المقيم في مدينة الإسكندرية المصرية، ويدعى إميل فرانك، ويعمل بالإضافة إلى عمله كقنصل، وكيلاً للسفن البريطانية في الموانئ العربية على سواحل بلاد الشام.

بدأ الاستيطان الميداني ٦ كانون الأول ديسمبر ١٨٨٢م وبقي اسمها «زمارين» حتى سنة ١٨٨٣م حين تحولت لإدارة البارون روتشيلد فغير اسمها إلى «زخرون يعقوب»، ويعقوب هذا هو والد البارون وعميد العائلة الثرية [٤١].

٤ـ يسود همعلاه [٤٢]

والمستوطنة الرابعة يسود همعلاه: وأقيمت على أراض القرية العربية «الزبير» وتقع في منطقة الحولة شمالي فلسطين. وقد ابتاعت الأرض شركة «نحلات سدية فاكيرم» [٤٣] على مساحة ٢٦٠٠ دونم في ١٨٨٣/٨/١٨م من قنصل فرنسا في مدينة عكا. وكان وكيل القنصل يهوديًا أسمه يعقوب عبّو [٤٤].

وقد ابتاعها هذا من مالك لبناني، وقد بدأ استيطان المكان في آذار ١٨٨٤م وسكنه مهاجرون يهود من بولندا [٤٥].

إن خلاصة الأوضاع للمرحلة المذكورة تمحورت حول الهجمة الشرسة والناجعة لتملك الحركة الصهيونية أراض عربية فلسطينية. ولا شك أن القمة الرئيسية كان النجاح في ابتياع أراضي مرج ابن عامر. وقد وضعت الإدارة الصهيونية نصب عينيها الاستيلاء على أكبر مساحة من الأراضي خاصة في هذه المنطقة. وقد نجح حانكين في ابتياع ٧١٣٦٥ دونم من أراضي المرج من العائلة اللبنانية سرسق، وذلك مع نهاية الحرب العالمية الأولى وبذلك أضيف هذا الرقم إلى ٩٠٠٠ دونم كان قد تم ابتياعها في سنة ١٩١٠م.

---

(٤١) ע" 73

(٤٢) יסוד המעלה

(٤٣) נחלת שדה וכרם

(٤٤) יעקוב עבו

(٤٥) הסטוריה של א"י כרך8 ע" 276

وقد استمرت الحركة الصهيونية في تحركاتها لابتياع أراض إضافية فنجحت في تملك مساحات كبيرة من ملاكيين خصوصيين، وقد بلغ مجموع ما تملكته الحركة ٢٠٠٠٠٠ دونم. وقد تمثلت النتيجة بالإضافة إلى امتلاك الأرض في إقامة ٢٠ مستوطنة زراعية يهودية في السنوات ١٩١٧ - ١٩٢٤. أما عدد المستوطنات الزراعية اليهودية المقامة في الجليل والسامرة والسهل الساحلي فبلغت ٧٤ مستوطنة سكنها ١٥٠٠٠ نسمة في سنة ١٩٢٢.

وكانت المحصلة النهائية للنشاط الصهيوني في الهجرة الأولى من سنة ١٨٨١ - ١٩٠٣ إدخال ٣٠ ألف نسمة أقاموا ٢٠ مستوطنة. وقد عاد كثير منهم إلى روسيا أو الغرب أو الولايات المتحدة. وحتى سنة ١٨٩٠ نجحت الحركة بمساعدة متبرعين محسنين في ابتياع ١٠٠ ألف دونم وحتى سنة ١٩٠٠، ٢٠٠ ألف دونم.

الفصل السادس

المشروع الاستيطاني الصهيوني يتعثر

«حساب السرايا أم حساب القرايا ؟!»

لم يكد المستوطنون اليهود الأوائل، مهاجرو الموجة الأولى، يستقرون في مستوطناتهم في فلسطين حتى طوحت بهم المصاعب والعراقيل. كان أولها الشعور بالغربة فقد انتقلوا من حياة الحضر إلى حياة الريف. فلقد كان عناصر الهجرة المذكورة معدودين على شريحة البرجوازية المتوسطة والصغيرة.

كانوا من المرفهين ذوي الياقات البيضاء والأكف الناعمة. وقد أصبح عليهم الآن ممارسة العمل الزراعي الشاق في ظروف مناخية، إقليمية صعبة لم يعتادوا عليها، فوقعوا فريسة الأمراض والأوبئة، خاصة مرض الملاريا الفتاك. فقد كانت تنقصهم المناعة الصحية والأدوية والأمصال ووسائل الطب الوقائي. لقد انتقلوا إلى حياة جديدة وأراض جديدة غريبة عنهم [١].

كان عليهم أن ينطلقوا، من نقطة الصفر، في أعمال زراعية جسدية قاسية، في الوقت الذي كانوا يفتقرون فيه إلى الأهلية، والكفاءة الجسدية والخبرات والجاهزية للصمود في ظروف الواقع الجديد. فلا عجب أن صدمتهم الصعوبات حال استقرارهم على التراب الفلسطيني:

فمن يجهز الأرض لاستقبال المواسم الزراعية؟

ومن يقوم بالحراثة والتسميد والتعشيب والتفريد والحصاد؟

ومن يحفر الآبار ويسلك القنوات المائية؟

ومن يقاوم عوامل الطبيعة وتقلبات الطقس والآفات الزراعية؟

أنى لهم كل ذلك، وهم أصحاب الأكف الناعمة.

أما العمل الزراعي فكانوا غريبين عنه:

فكيف يتعاملون مع الأدوات الزراعية ... ومع دواب العمل؟

كيف يشدون الدواب إلى المحاريث؟

كيف يقومون بحراثة الأرض؟

كيف ينقلون مياه الشرب من الينابيع والآبار البعيدة؟

كيف يجمعون روث الدواب والحطب الجاف لاستعماله مواد وقود وتدفئة وطهي؟

وكيف؟ وكيف؟ وألف كيف؟

---

(١) شوفاني ص ٣٢٢

وأخيرًا حلت بهم ثالثة الأثافي؛ الضربة القاصمة: نفاذ الأموال التي جلبوها معهم وبات خطر الإفلاس يتهددهم في الوقت الذي باتت خزينة «محبة صهيون» الممولة للهجرة والاستيطان خاوية فارغة.

وهكذا لم تكد تنقضي إلا شهور معدودة على بداية الاستيطان حتى بدأ المشروع الصهيوني يترنح موشكًا على الانهيار كبناء من الكرتون الهش.

توجه المستوطنون إلى جمعية «محبة صهيون» مستنجدين:

الغوث! الغوث! وإلا الموت!

المدد! المدد! وإلا الهلاك!

- **البارون روتشيلد يستجيب**

وسرعان ما تشكل وفد مشترك من مندوبي الجمعية ومندوبي المستوطنين، يرأسهم فاينبرغ [٢]، وهو أبرز زعماء مستوطنة ريشون لتسيون، وتوجهوا إلى باريس، وقابلوا الحاخام الأكبر ليهود فرنسا، الحاخام موهيلفر [٣] وأطلعوه على ضائقة المستوطنين وناشدوه الدعم وإلا ... فالعواقب وخيمة!

أصغى الحاخام إلى مطالب الوفد وسارع بدوره إلى الاتصال بالبارون جيمس أدموند دي ورتشيلد أصغر أبناء يعقوب جيمس دي روتشيلد، والملك المتوج للفرع الباريسي لعائلة روتشيلد، الثرية التي تسيطر على قطاعات عريضة من الاقتصاد الأوروبي والعالمي. ويطلق عليه السكاكيني في مؤلفه «يوميات خليل السكاكيني» ج ٢ ص ٥٣ لقب «كبير اليهود في هذا العصر».

ويذكر أن الجد المؤسس للعائلة هو مئير انشيل دي روتشيلد ١٧٤٤ - ١٨١٢م.

وقد توزع أبناء يعقوب الخمسة على العواصم الأوروبية الرئيسية وسيطروا على قطاعات واسعة من اقتصادها. وتحولت العائلة إلى إمبراطورية اقتصادية عالمية، عابرة للدول.

الأبناء الخمسة هم:

(٢) פיינברג

(٣) רבי מ הוליבר

انشيل دي روتشيلد وتسلم مركز فرانكفورت.

جيمس دي روتشيلد وتسلم مركز باريس.

شلومو دي روتشيلد وتسلم مركز فينا.

كارل دي روتشيلد وتسلم مركز نابولي.

نتان دي روتشيلد وتسلم مركز لندن [٤].

التقى المليونير الباريسي الحاخام ووفد المستوطنات وممثلي «جمعيات محبة صهيون» في أيلول / سبتمبر ١٨٨٢ واستمع لأقوال الوفد وأطلع على الوضع المنهار للمستوطنات وطلبات العون الفوري.

وكان جواب البارون إيجابيًا فوريًا ومباشرًا، حتى قبل أن يطلب مهلة للتفكير أو للتشاور مع عائلته ومستشاريه. استجاب للطلبات وأخذ على عاتقه:

١. تبني مستوطنة ريشون لتسيون.

٢. تمويل إقامة مستوطنة يهودية جديدة على حسابه الخاص (وهي مستوطنة عقرون لاحقًا) [٥].

٣. مساعدة ٥٠% من المستوطنات القائمة، التي شملت ٧٥% من مجموع المستوطنين.

مقابل ذلك اشترط البارون:

١- أن تبقى مساعداته سرًا طيّ الكتمان.

٢- وأن تكون دفعة لمرة واحدة فقط.

وقبل المستوطنون الشرطين وأبقوا اسمه سرًا مكتومًا، ولكنهم أطلقوا عليه لقب «المحسن» [٦].

وقبل أن يدفق البارون أمواله رأي أن يتصرف بحزم، شأن رجال الأعمال الذين يحسبون حسابًا لكل صغيرة وكبيرة، ولكل شاردة وواردة، فعهد إلى حد كبار مستشاريه المخلصين ميخائيل أورلنغر [٧] التوجه إلى فلسطين لدراسة الأوضاع

(٤) יהודים מראשית העת החדשה ע' 58

(٥) עקרון

(٦) הנדיב

(٧) מיכאל אורלינגר

وتقصي أحوال البلاد والمستوطنات. فتوجه هذا إلى فلسطين وزار مستوطنة ريشون لتسيون وعاد بتقرير إيجابي وتوصيات:

١ - تبنى المستوطنات واعتبار الأمر مشروعًا دينيًا - قوميًا - خيريًا.

٢ - إتباع «نظام الوصاية» (٨) في إدارة المستوطنات والإشراف على شؤونها.

قبل البارون بالتوصيات، ووفى بكافة التزاماته على الرغم من المعارضة الشديدة التي أبداها أفراد عائلته ومستشاره. انهمرت أموال البارون، وتحولت الدفعة الواحد دفعات سخية متتالية دون انقطاع، وتكاملت في مشروع مبرمج منهجي آخذ في التوسع التدريجي.

لم يكتف البارون بتقديم الدعم المالي وبناء المستوطنات، بل تجاوز ذلك إلى مجال جديد: وهو ابتياع أراض عربية فلسطينية، فبلغ مجموع ما ابتاعه من الأراضي ٩٠ ألف دونم معظمها في فلسطين، والقليل منها في شرقي الأردن.

تسلمت المستوطنات الأموال فازدهرت وانتعشت وعادت إلى الحياة.

وقد عبر عن ذلك، لاحقًا، أحد عناصر حركة بيلو فكتب:

«لقد توسعت ريشون لتسيون وتعاظمت وبرزت فيها «قوى جديدة» - إن حلم البارون أن تتحول هذه المستوطنة كلها إلى كرم كبير واحد، يتحقق بسرعة مذهلة: فحتى حينه تم غرس حوالي ٣٠٠ غرسة كرمة، بالإضافة إلى مختلف أنواع الأشجار المثمرة التي تأقلمت للبيئة المحلية من طقس وتربة. وبدأت تنمو بسرعة وتعطي الثمر الوفير بسخاء. حقًا أن عالمنا الجديد، عالم «ريشون لتسيون»، يعيش الآن «عصره الذهبي» (٩). ولم يقتصر الدعم الروتشيلدي على القطاع الزراعي وإنما تعداه إلى الاستيطان المدني داخل المدن أيضًا.

---

(٨) אפוטרופסית

(٩) ראשית הציונות ע" 188 وأيضًا חיסין: مذكرات أحد البيلويين

▪ خطأ الاستيطان

بعد دخول البارون الميدان الفلسطيني أصبح للاستيطان اليهودي خطان متوازيان: ١. خط البارون ٢. خط جمعية محبة صهيون

١. مستوطنات البارون :

بعد أن ضخ البارون ملايينه للمستوطنات القائمة تحول إلى الشق الثاني من مشروعه: إقامة مستوطنة/ مستوطنات يهودية جديدة من خاص أمواله.

وقد أنجز إقامة أربع مستوطنات هي: عقرون، بات شلومون شفيه، والمطلة.

أ. مستوطنة عقرون (١٠)

وأولها مستوطنة عقرون غربي رحوفوت اليوم (مزكيرت باتيا لاحقًا). وقد أقيمت على أراضي القرية العربية الفلسطينية «عاقر» على مساحة ٤٤٥٠ دونما. وقد قام شموئيل هيرش، مدير المدرسة الزراعية مكفة يسرائيل، الذي كان يعمل لحساب البارون، بابتياع مساحة ٢٦٥٠ دونمًا من أراضي قرية عاقر من عائلة الطيان اليافاوية. وقد استوطن الموقع ١١ عائلة يهودية مهاجرة قدمت من ليطا بتاريخ ١٨٨٤/٩/١٢م، كان قد تم اختيارها نظرًا لامتلاكها خبرة زراعية في وطنها ليطا.

وفي ١٨٨٤/١٢/١٤م قامت جمعية «محبة صهيون» بابتياع ١٨٠٠ دونم إضافي في المنطقة نفسها سلموها للعائلات الليطانية المذكورة.

وقد تم استيطان الموقع وبوشر بالعمل الزراعي تحت إدارة وإشراف موظفي البارون الذين وضعوا نصب عيونهم تحويل عقرون إلى مزرعة نموذجية.

ب. مستوطنتا : شفيه وبات شلومو (١١)

أما ثاني مستوطنات البارون فهي بات شلومو، وثالثها مستوطنة شفيّه.

---

(١٠) עקרון

(١١) שפייה ובת שלמה

وكلتاهما أقيمتا بأموال البارون . وهما تابعتان للمستوطنة الأم «زخرون يعقوب» من الناحيتين: الإدارية والخدمية وقد أسست بات شلومو في عام ١٨٨٩م على أراض اقتطعت من زخرون يعقوب [١٢].

وكذلك الأمر بالنسبة لشفيّه التي أسست سنة ١٨٩١ على مساحة ٦ آلاف دونم اقتطعت من زخرون يعقوب أيضًا.

وقد أديرت المستوطنتان من قبل موظفي البارون مباشرة بموجب نظام الوصاية الذي أمر به البارون وكان الدافع لتأسيس المستوطنتين المذكورتين الضائقة السكنية في المستوطنة الأم زخرون يعقوب. فلقد ضاقت هذه بسكانها الذين تضاعف عددهم، فما كان من البارون إلا أن قدم حله للمشكلة: بناء مستوطنتين تابعتين للمستوطنة الأم.

ج. مستوطنة المطلة

أما المستوطنة الرابعة التي أنشأها البارون فكانت «المطلة».

وقد أقيمت على مساحة ١٢ ألف دونم مكان القرية العربية الدرزية «المطلة» التي تقع على طرف الحد الشمالي الفلسطيني - اللبناني المعروف «بأصبع الجليل». وكان يقطن القرية مزارعون عرب من الطائفة الدرزية. وقد أصابهم ما أصاب إخوانهم الفلاحين العرب الفلسطينيين. سلبت أراضيهم بالغش والخديعة والقرصنة في وضح النهار، وحولت السلطة العثمانية الفاسدة المرتشية ملكية الأرض من فلاحيها الدروز إلى عائلة لبنانية ثرية متنفذة، وتحول الفلاح الدرزي صاحب الأرض من مالك إلى أجير في أرضه [١٣].

وفي سنة ١٨٩١ كان يقطن القرية مائة عائلة درزية. كانوا قد استقروا فيها قبل ٩٠ عامًا أخذوا يفلحون الأرض بالضمان من المالك اللبناني. فيقتطع الفلاح خُمس الغلة لصاحب الأرض والعشر للحكومة [١٤].

وعندما عجز الفلاحون عن دفع التزاماتهم، التي بلغت ٣٠% من المحصول،

---

(١٢) הסטוריה של א"י כרך 8 ע" 276

(١٣) كنعان ص ١٠٧

(١٤) כהן ע" 67

للمالك الغائب وللحكومة، حاولت قوة مسلحة من الدرك التركي اقتحام القرية بقوة السلاح لتحصيل المستحقات، ولكنها جوبهت بمقاومة عنيفة فانسحبت.

وهنا اندفع المالك اللبناني وقام ببيع الأرض للبارون عن طريق مندوبه في فلسطين المدعو يهوشع أوزوبتسكي وأصبح البارون المالك الجديد، ولكنه عجز عن اقتلاع أصحابها الحقيقيين، الفلاحين الدروز وعددهم ٦٥٠ نسمة واستبدالهم بمستوطنين يهود. ولكن البارون وزبانيته لم ييأسوا، بل استمروا في محاولات الاقتلاع طيلة أربع سنوات متواصلة، ولكنها باءت جميعها بالفشل فتمسك الفلاح العربي الدرزي بمسقط رأسه وتشبث بتراب أرضه وببيته وتربته، وظل البارون، وموظفوه عاجزين مشلولين.

ولكن التحول جاء من حيث لا يدري، ففي سنة ١٨٩٦ نشبت ثورة عربية في سوريا على الحكم التركي. وكان الدروز أحد عناصر هذه الثورة. وبعد أن نجحت القوات التركية في قمع الثورة، وإغراقها بالدماء، قامت بنفي زعماء الثورة إلى العاصمة دمشق.

وأتاح غياب الزعماء الوطنيين فرصة سانحة للبارون لاقتلاع الفلاحين وتم تنفيذ الأمر بتمثيلية قام بدور البطولة فيها رجال البارون وعناصر الدرك التركي.

ومشهد الافتتاحية في التمثيلية المذكورة: فرقة درك تركي تنتشر في أرجاء القرية باحثة عن جنود فارين من الخدمة العسكرية.

المشهد الثاني: وصول عربة محملة برجال البارون روتشيلد وذهبه. وبطبيعة الحال لم يكن تزامن وصول الدرك والعربة مصادفة، بل بناء على اتفاق مسبق.

المشهد الثالث: رجال الدرك يقومون باعتقال رجال القرية.

المشهد الرابع: رجال البارون يتدخلون ويتوسطون لدى الدرك لإطلاق سراح المعتقلين شريطة أن يوقع كل منهم على صك تنازل عن أرضه ومنزله، وقريته وحقوقه لقاء الإفراج عنه.

والمشهد الخامس: المقتعلون يوافقون ويطلق سراحهم، والأرض تتسرب مع المنازل والقرية برمتها، لملكية البارون. أما الذهب فيتسرّب إلى جيوب الدرك.

وغادر ٦٥٠ نسمة أراضيهم ومنازلهم وقريتهم وعيونهم تدمع قلوبهم تنزف.

المشهد السادس: بعد أيم معدودة يقتحم القرية الخالية ستون مستوطنًا يهوديًا ويحتلون البيوت الشاغرة ويسرحون ويمرحون في ربوعها المهجرة.

المشهد الأخير: المقتلعون: ماذا يفعلون؟ وإلى أين يتوجهون؟

إنهم لا يملكون شروى نقير بعد أن فقدوا الغطاء والوطاء والخبز والماء. هاموا على وجوههم يلتحفون السماء ويفترشون الأرض ويهيمون على غير هدى لينتهي بهم الطواف إلى قرية مجاورة في سهل الحولة قطنها دروز من بني جلدتهم. والقرية تكاد تكون معدمة، كما أنها كانت غارقة في المستنقعات وتنتشر فيها الأوبئة والأمراض.

وقد وصف أحدهم، هو يتسحاق ابشتاين [١٥]، الوضع أمام المؤتمر الصهيوني المذكور آنفًا: «إن انتزاع الأرض من أيدي الفلاحين العرب من أهل المطلة قد ترك في النفوس ندوبًا غائرة عميقة وجروحًا لا تندمل. أنهم لن ينسوا ذلك اليوم اللعين الذي سلبت فيه ممتلكاتهم وانتقلت إلى أيد غريبة.. في نهاية المطاف سوف يبذل هؤلاء المقتلعون كل ما في وسعهم لاسترداد ما سلبته منهم القوة الغاشمة».

ولم تنته التمثيلية عند هذا الحد، فلقد استجمع مقتلعو المطلة قوتهم وقاموا بمهاجمة المستوطنين الذين احتلوا منازلهم وقريتهم وأرضهم وانقضوا عليهم. الكرّة بعد الأخرى. وفي كل مرة كان الدرك التركي يتصدى لهم ويصليهم بنيرانه ويصد هجماتهم.

ولم تكتف السلطات العثمانية بحماية المستوطنين اليهود، بل لاحقت الفلاحين المقتلعين المشردين المظلومين، وسلطت عليهم زبانيتها يلاحقونهم بالاعتقال والتنكيل، ولكن دروز المطلة لم ينحنوا ولم يطاطنوا الرؤوس. فعاودوا الهجمات منزلين بالمستوطنين الخسائر الفادحة. وتزايدت وتيرة الهجمات وأصبحت تشكل خطرًا داهمًا، خصوصًا حين نجحوا في الاقتراب من المستوطنة وتطويقها وفرض حصار مشدد عليها.

وقد سارع موظفو البارون بتوسيط «رقيقي القلوب مرهفي المشاعر» من ذوي

---

(١٥) יצחק אפשטיין

الخير من الوجهاء والأعيان العرب «لحل الإشكال وفك الحصار الخانق».

وكان شرط الأهالي: العودة إلى أراضيهم وبيوتهم وقريتهم.

فأجاب الوسطاء: أنهم سوف ينقلون مطلبهم إلى البارون، وطلبوا مهلة أسبوع يفكون خلاله الحصار. وانخدع فرسان الدروز وفكوا الحصار، ولكنهم حين عادوا بعد أسبوع فوجئوا بقوات الدرك تنتظرهم. وحين اقتربوا من المستوطنة صبوا نيرانهم وصلوهم نارًا حامية، فما كان من المهاجمين إلا الانسحاب مهددين بالعودة بعد أسبوع.

وبعد أسبوع عاد الدروز ليجدوا أن موظفي البارون قد استغلوا المهلة ودخلوا في جوار (حماية) شيخ المتاولة الشيعة وسيد جبل عامل كامل الأسعد في قريته الطيبة مقابل خاوه دفعوها له عن طيب خاطر. لقد اشتروا الحماية بذهبهم.

استمر الصراع طول سنوات تمكن خلالها موظفو البارون من رشوة بعض زعماء الدروز في المطلة بمبلغ ٦٠٠ ألف فرانك فرنسي لتموت قضيتهم وليتخلوا نهائيًا عن قريتهم ومنازلهم وحقوقهم.

أما صغار الفلاحين فقد تركوا يلاقون مصيرهم المر، وقد تحولوا إلى حرّاثين أجيرين في الأراضي التي كانت بالأمس القريب ملكًا خالصًا لهم. ومن المضحك المبكي أن البارون عندما شاهدهم يعملون في أراضيه تعجب وصاح مستهجنًا: «ماذا يفعل هؤلاء الغرباء على الأرض اليهودية».

▪ نظام البارون في مستوطناته

أصبح البارون الآن شريكًا مباشرًا في الميدان الفلسطيني. وقد رأى أن المشاكل المستعجل التي يتوجب عليه معالجتها تتلخص في:

١. النظام الزراعي المعمول به في فلسطين.
٢. دراسة الجدوى الزراعية والمردود الاقتصادي لاستثماراته المالية.
٣. تنظيم أمور المساعدات.
٤. تنظيم أمور إدارة المستوطنات.

رأى البارون أن الزراعة المحلية هي المستوطنات اليهودية لا تتعدى النمط الزراعي التقليدي فهي تعتمد نظام الفلحة بموسميها الزراعيين المحدودين: الصيفي والشتوي.

أما قطاع تربية المواشي والحليب ومنتوجاته واللحوم والدواجن وزراعة الأشجار المثمرة فمعدوم.

وقد رأى البارون أن يتحول إلى التصنيع الزراعي بهدف التصدير، فقام بغرس كروم العنب لتصنيع النبيذ وتصديره إلى فرنسا. ومن أجل ذلك قام بإنشاء معصرتي النبيذ: الأولى في ريشون لتسيون والثانية في زخرون يعقوب.

وكان من نتيجة كل هذه المساعدات والتحولات أن عم الازدهارالاقتصادي المستوطنات اليهودية فتضاعفت مداخليها وارتفع مستوى معيشتها وتوسعت رقعة الأراضي المستغلة زراعيًا. وبدأت أعمال بنية تحتية عصرية على طريق تحديث الزراعة وعصرنتها أو «أوربتها» (نمط الزراعة الأوروبي).

والجدول التالي يعكس هذا التطور في الفترة التي نحن بصددها: (١٦)

المستوطنات	سنة ١٨٨٢م	سنة ١٨٩١م
عدد السكان	٦	١٤
مساحة الأرض بالدونمات	٤٨٠	٢٩٦٠
مساحة مفتلحة مأهولة	—	٤١,٥٥٢
حمضيات	—	١٧,٩
كرم عنب	—	١٠,٩٥٠
لوز وزيتون	—	١,٧٠٢
مجموع الأراضي المغروسة بالأشجار المثمرة	—	١٢,٨٣١

(١٦) הסטוריה של א"י כרך 8 ע"286

بعد ذلك تفرغ البارون لمعالجة النقطتين التاليتين: تنظيم أمور المساعدات المالية، وإدارة المستعمرات.

اتصف البارون بالصفات التي تميز رجال الأعمال: الدقة، والصرامة، الحزم والنجاعة. وكان اهتمامه بالجزئيات والثانويات لا يقل عن اهتمامه بالكليات فكان يدقق بأصغر الأمور كما يدقق بأكبرها.

كان ديدنه في العمل المثابرة والملاحقة، الشدة والصرامة التي وصلت أحيانًا إلى درجة الفظاظة والقسوة. وباختصار كانت القيمة العليا لديه نجاعة العمل وزيادة الإنتاج، حتى لو استعمل لتحقيق ذلك، العسف والطغيان. وبكل هذه الخلفية تقدم لإدارة مستوطناته. وكان أول قرار له تبني توصيات مندوبه أورلنغر: اعتماد نظام الوصاية.

▪ نظام الوصاية (١٧)

ويتلخص هذا النظام في اعتبار البارون الوصي والقيم الواحد الأحد على المستوطنات. وهو مطلق اليد وحر التصرف بكل ما يتعلق بالاستيطان من الناحيتين: البشرية والاقتصادية. إنه ليس المحسن وحسب، بل هو الرب الأعلى والمدير الفولاذي الصارم الرهيب أيضًا.

وعلى هذه الأرضية وضع أسس نظامه الصارم:

١. اعتبر نفسه الإدارة العليا والرأس المفكر والمدبر من مقره باريس. ومنه تصدر الأوامر والنواهي، المباحات والمحظورات. وما على الميدان اليهودي الفلسطيني إلا السمع والطاعة وتقبيل اليد.

٢. تسجيل كافة الأراضي على اسمه الخاص: سواء تلك التي ابتاعه بأمواله، أو تلك التي ابتاعتها المؤسسات الأخرى. وفي سبيل ذلك أكره المستوطنين على التوقيع على توكيل غير قابل للنقض حولوا بموجبه أراضيهم و... أرواحهم للبارون وفوّضوه إدارة مستوطناتهم بكل ما فيها ومن فيها. باختصار كانت تلك عملية استسلام دون قيد أو شرط.

(١٧) משטר האפוטרופסות

فيما يلي، على سبيل المثال نص كتاب توكيل وقعه مستوطنو زمارين (زخروف يعقوب) وسلموه عن يد، وهم صاغرون، للبارون في ١٨٨٣/٦/١٤م.

«إننا نضع أنفسنا تحت تصرفكم. زمارين هي ملك يمينكم. أننا نسلم أرواحنا ونلتزم، بموجب هذا التوكيل، بالانصياع لآرائكم وتوجيهاتكم بكل شأن من شؤون إدارة المستوطنة وتنظيم أمورها وتسيير شئونها.

إننا نمتثل، دون أدنى تردد، أو إبداء أية معارضة، لأية إدارة تقومون باختيارها لنا، وتكونون أنتم فيها مرشدنا.

إننا لا نتعهد بتنفيذ أي رأي أو أية نصيحة تقدمونها لنا وحسب، بل نخضع باستكانة وخضوع، لكافة الأوامر التي تصدرونها لنا» [١٨].

أما مسألة الإرشاد الفني والتنفيذ الميداني فقد أوكله البارون لطاقم موظفيه الفنيين الذين كان اختارهم بنفسه من بين صفوف مستخدميه الخصوصيين الموالين له، وأرسلهم إلى فلسطين وعهد إليهم بالإدارة والإرشاد الميداني. ولكنه كان أفهمهم أنهم تابعون له شخصيًا، وعليهم الامتناع عن تلقي أية أوامر أو تعليمات غير صادرة عنه. وهم مسئولون أمامه مسئولية مباشرة وشخصية.

والجدير بالذكر أن الأغلبية الساحقة من الطاقم الإداري كان من يهود منطقة الألزاس، في حين كان الخبراء التقنيون والفنيون والمرشدون الزراعيون من المسيحيين الفرنسيين. وأما عمال الخدمات (عمال، خدم، حراس ونقليات الخ) فأغلبيتهم الساحقة من مصر.

فكيف تقبل المستوطنون كل هذا العسف وهذه الدكتاتورية؟

كانت نظرة المستوطنين للبارون متفاوتة، فمن ناحية اعتبروه الأب، الراعي، العرّاب، والمحسن الكبير الذي أتاح لهم فرص الحياة والازدهار، ومن الناحية الأخرى اعتبروه دكتاتورًا، طاغوتًا من الطواغيت، وأطلقوا عليه لقب الطاغية، المستبد، متحجر القلب، متبلد المشاعر، المتغطرس، المتعالي. والنتيجة نظروا إليه نظرة مزدوجة، نظرة حب تشوبه كراهية، واطمئنان يصحبه خوف ونفور يرافقه تقرّب وتزلف، وإقبال يواكبه صدّ وألفه يمازجها غربة.

(١٨) הסטוריה של א"י כרך 8 ע"ע 281 – 282

وكان نظام الوصاية الذي اعتمده البارون هرمي المبني: فعلى القمة يستوي البارون: الرب الأعلى، الآمر الناهي.

وفي الوسط يقبع جهازه الإداري - الفني - الإرشادي والخدمي. وفي القاعدة يستكين المستوطن.

أما طواقم الموظفين فقد أباحوا لأنفسهم التدخل السافر المباشر الفظ في حياة المستوطن، حتى أدق تفاصيل حياته الشخصية، وسيطروا على مقدراته. وقد نهجوا سياسة القبضة الفولاذية التي تميزت بالفظاظة والقسوة والعسف والإذلال! ولا عجب «فالناس على دين ملوكهم». والأنكى من كل ذلك أن عددهم كان كبيرًا ففي سنة ١٨٨٨م، على سبيل المثال، بلغ عدد المستوطنين في ريشون لتسيون ٦٠ وعدد الموظفين ٤٠ [١٩]. أما في زخرون يعقوب فبلغ عدد الموظفين لا أقل من ٩٠.

وقد زاد من إحباط المستوطنين وشعورهم بالمرارة أنهم لم يكونوا بالأصل مهيئين للعمل الجسدي الزراعي، كما كانوا يفتقرون إلى الخبرات الزراعية.

وازدادت الهوة بين البارون والمستوطنين اتساعًا وعمقًا بسبب الفروق الفكرية والتوجهات الدينية أيضًا: فلقد تطلع البارون أن يسود مستوطناته مناخ ديني ونمط حياة سلفي. أما المستوطنون، وهم ممن قدموا من أوروبا فدانوا بالعلمانية والانفتاح الفكري والسلوك المتحرر ونمط حياة أوروبي - غربي - اشكنازي.

وفي النهاية وجد المستوطنون أنفسهم واقعين بين مطرقة البارون وطغيانه، وسندان رغد العيش والرفاهية التي أمنها لهم [٢٠].

وكانت النتيجة النهائية أن تحول المستوطنون إلى شريحة طفيلية تعيش على نفقة البارون، وإلى مجموعات أشبه ما تكون بالمتسولين على عتبات «المحسن» ينتظرون صدقاته وإحسانه ورغيف خبزه.

وقد عبر نوردو عن هذا الوضع المتردي بانتقاده اللاذع لمشروع البارون فقال: إن أعمال البارون في أرض الميعاد ليست إلا عبارة عن أعمال صدقة وإحسان ولا تمت بالصهيونية بصلة.

(١٩) הסטוריה של א"י כרך 8 ע"ע 281 – 282

(٢٠) הסטוריה של א"י כרך 8 ע"ע 281 – 282

أما الحركة الصهيونية فقد قيمت هذا التوجه بأنه خطأ جسيم، لأنه أفسد الروح الطلائعية للمستوطنين وأفرغ الحلم الصهيوني، في التوجه إلى العمل الزراعي، من مضمونه. فقد تحول المستوطن من عنصر نشيط فعال وعامل منتج يأكل خبزه بعرق جبينه إلى إنسان طفيلي، خامل، بليد، يتسول ويترفع عن القيام بأي عمل جسدي، فترهلت الأجسام وتصلبت الشرايين وغلظت الرقاب وانتفخت الكروش. وقنع المستوطن بالقيام بدور «الأفندي» ذي القبة البيضاء المنشّاة والكف الناعمة وأصبح يعتمد على العمالة والحراسة العربيتين. فالخدم العرب يقومون بكافة الأعمال: الزراعية والمنزلية، والحراس العرب يقومون بحراسة المستوطنات وبيوتها وحقولها. وقد تعامل المستوطن اليهودي مع عامله وحارسه العربي كما يتعامل المولى مع العبد وتطلع إليه بنظرة فوقية استعلائية.

وقد عبر عن ذلك البارون نفسه لوفد من المستوطنين كان قد قابله في عام ١٩٠٠م ليشكو إليه الموظفين، قال البارون لأعضاء الوفد زاجرًا مؤنبًا:

«أنكم تعتاشون يومًا بعد يوم على الأموال التي أدفعها دون أن تفكروا بمستقبلكم! لم يخطر ببال أحدكم أنه في يوم من الأيام، ستصبحون، عاجلاً أم آجلاً، عمالاً في أراضيكم، دون أن تتوقعوا الاعتماد على أي دعم خارجي، بعد أن أدمنتم على الكماليات وشيدتم البيوت واعتمدتم أنماط الحياة الرغيدة التي أشاهدها اليوم بأم عيني»(٢١).

- **المستوطنون يتمردون على البارون**

وكان لا بد أن يتفجر الوضع، في نهاية الأمر، بين البارون والمستوطنين.

في البداية حاول المستوطنون تفادي الصدام، والمواجهة، فلجئوا إلى التحلي بالأناة والصبر ومعالجة الأمور بالحسنى والتفاهم. فالمستوطنون لا ينسون البارون وأياديه البيضاء فقال البعض:

أليس البارون وليَّ نعمتنا؟ ألم يغمرنا بذهبه؟ ألا يجدر بنا غض الطرف عن تجاوزاته؟ ألا يجدر بنا تقبيل اليد التي امتدت لنا، بدل عضِّها؟

(٢١) אותו כרך 8 ע" 282

من الناحية الأخرى ارتفعت أصوات تقول: أليس البارون هو الطاغية المستبد الظالم القاسي متحجر القلب؟.. ألم يفرض علينا جوًا من الرعب والخوف؟ واستنفذ المستوطنون جميع وسائل التفاهم والحلول التوفيقية، لكنهم فشلوا.

وتفجر الوضع فكان التمرد الأول: كان أبطاله مستوطني ريشون لتسيون، فقد تنظموا في حركة احتجاج وطيروا أول الأمر، برقيات الشكاوى إلى البارون شخصيًا في باريس يشكون موظفيه ويتهمونهم بسوء المعاملة والبخل والشح والتقتير في تزويدهم بالبذور والسماد.

وتبع ذلك سيل من برقيات طيرتها باقي المستوطنات تشكو وتحتج.

من ريشون لتسيون في ١٨٨٣م و١٨٨٧م.

ومن روش بيناه وزخرون يعقوب في ١٨٨٨م.

ومن عقرون مرتين في ١٨٨٩م و١٨٩٢م.

وجاء جواب البارون سريعًا، حازمًا وقاطعًا. اتخذ موقفًا دعم فيه جهاز موظفيه ورفض شكاوى المستوطنات، بل هددهم: ما لم يغادر زعيم حركة التمرد بليقاند(٢٢) مستوطنة ريشون لتسيون، وعلى جناح السرعة، فإنه سوف يقوم بإيقاف مساعداته وتجميد دعمه.

فما كان من المستوطنين إلا الاستسلام والخنوع. وغادر بليقاند المستوطنة مهزومًا. وانتصر البارون. ولكن الهزيمة تركت في نفوس المستوطنين طعمًا مريرًا، وفي أجسادهم جراحًا غائرة.

وهدأت الأوضاع إلى حين. ولكن سرعان ما نشب تمرد ثانٍ في المستوطنة نفسها ريشون لتسيون. وكان أعم وأشمل. وفي هذه المرة أيضًا نجح البارون في قمع التمرد وإخماد الفتنة، ولكن الجو ظل عكرًا والطعم مريرًا ليس في فم المستوطنين وحدهم، بل في فم البارون أيضًا. وكان أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت بالبارون، في وقت لاحق، إلى التخلي عن مشروعه الصهيوني وتحويله إلى «شركة يكا» - شركة الاستيطان اليهودية في فلسطين(٢٣).

(٢٢) בליקנד

(٢٣) הסטוריה של א"י כרך 8 ע"

الشلل يصيب الهجرة والاستيطان

لم تكن العلاقات المتردية بين البارون والمستوطنين العامل الوحيد في تراجع زخم الهجرة والاستيطان، فلقد تضافرت، بالإضافة إلى ذلك، عوامل عديدة ساهمت في شل النشاط الصهيوني المتمثل في الهجرة والاستيطان. وأهم هذه العوامل:

١. الموقف العدائي للدولة العثمانية من الحركة الصهيونية. فقد اعتمد السلطان عبد الحميد الثاني منطلقًا إسلاميًا لمواجهة دول الغرب. وكان أهم عنصر في هذه السياسة المحافظة على التراب العثماني وعدم الانتقاص من السيادة الإقليمية لدار الإسلام. وقد رأى في الهجرة والاستيطان اليهوديين مسًا خطيرًا بهذه القاعدة. فالمستوطنون الصهيونيون ليسوا في نظره، إلا طابورًا خامسًا يعمل في قلب الدولة لصالح الغرب، خاصة روسيا القيصرية، أعدى أعداء الدولة، لأن معظم المهاجرين اليهود كانوا من رعايا تلك الدولة.

٢. من ناحية ثانية لم تكن السلطات العثمانية تسمح لنفسها أن تصم آذانها عن الضجة التي آثارها العرب الفلسطينيون الذين حذروا من الخطر الداهم على الدولة وعلى فلسطين المتمثل بالهجرة اليهودية، فهي تغيير للتركيبة السكانية لفلسطين والمنطقة. والاستيطان يقضم الأراضي الفلسطينية العربية ويقتلع الفلاحين ويشردهم في أصقاع الأرض.

وقد ابتدأ سيل الشكاوى، والعرائض ومذكرات الاحتجاج العربية والفلسطينية ينهمر على الباب العالي في العاصمة اسطنبول مع بداية هجرة ١٨٨١م. وكان أهم تلك البرقيات تلك التي وقعها ٥٠٠ من أعيان مدينة القدس ومنطقتها ينبهون فيها إلى مخاطر الحركة الصهيونية.

أما الأصوات والاستجوابات التي قدمها برلمانيون عرب في مجلس المبعوثين فلم تكن أقل تأثيرًا ووقعًا على السلطات.

وكان من نتائج الضغوط المذكورة أن استجابت لها الحكومة فأصدرت قيودًا على تحركات اليهود في فلسطين في الأراضي العثمانية وحظرت عليهم ابتياع

الأراضي وإقامة المستوطنات. ثم أصدرت الحكومة فرمانين: الأول عام ١٨٨٢م والثاني عام ١٨٨٤م حظرت بموجبها الهجرة اليهودية إلى فلسطين، فلم يسمح لأي يهودي مهاجر دخول البلاد باستثناء الحجاج ولمدة لا تزيد عن ثلاثة شهور.

ولم تنجح تدخلات الولايات المتحدة الأمريكية ووساطتها في إقناع الحكومة التركية بفتح أبواب الهجرة. وفي حقيقة الأمر لم تقم الولايات المتحدة بتلك المحاولات حبًا بالصهيونية واليهود، بل لأن ذلك البلد بدأ يشعر بوطأة الهجرة اليهودية إليها فحاول تحويلها إلى مسار آخر، هو فلسطين، وفي سبيل ذلك طلب السفير الأمريكي في اسطنبول من وزير الخارجية العثماني استيعاب المهاجرين اليهود في فلسطين. وقد رفضت الحكومة الطلب وعرضت إسكانهم في مناطق غير مأهولة في قرى وضواحي مدينة حلب أو على ضفاف نهر العاصي، أما بالنسبة لفلسطين فالرفض القاطع [٢٤].

٣. وكان العامل الثالث في تجميد حركة الهجرة والاستيطان الحظر الذي فرضته الحكومة الروسية على النشاطات والتنظيمات القومية، بما فيها نشاطات «محبة صهيون». فلقد اعتبرت أي نشاط قومي غير روسي خطرًا يهدد أمنها وسلامتها، وحظره واجب. وصدرت الأوامر بحلّ «جمعية محبة صهيون» وحظر نشاطاتها، فما كان من الجمعية إلا أن تحولت إلى العمل السري.

٤. وكان العامل الرابع ذاتيًا، فلقد عارضت شرائح عريضة واسعة من المجتمع اليهودي الحركة الصهيونية، وكان أبرزها التيارات التالية:

أ- التيار الديني الذي اعتمد العقيدة الدينية التي تنص على وجوب الاستكانة وانتظار قدوم المشيح اليهودي. وهو، هو الذي سوف يعيد اليهود إلى أرض الميعاد ويقيم دولتهم عليها، وليس الحركة الصهيونية العلمانية ولا غيره. وقد اعتقد عناصر هذا التيار أن أكبر الكبائر تسريع عملية قدوم المشيح بجهود بشرية واعتبروا ذلك كفرًا وهرطقة وأطلقوا على عملية التسريع هذه هي «تعجيل النهاية» [٢٥].

---

(٢٤) هيكل يوسف : القضية الفلسطينية تحليل ونقد ص ٣٢

(٢٥) דחיקת הקץ

ب- التيار العلماني من الاندماجيين وشريحة الأثرياء وأرباب رؤوس الأموال وذوي المناصب الرفيعة في الدولة. فقد آثروا البقاء في مجتمعاتهم يتمتعون بما وصلوا إليه وما حققوه من إنجازات ومكاسب.

ج- التيار الفكري من أوساط الانتلجنتسيا والنخب الفكرية اليهودية، وأبرز رموزهم الأديب أحاد هعام الذي قال إن:

- فلسطين لا يمكن أن تقدم الحل الشافي لمشاكل اليهود في العالم، فهي صغيرة الحجم، محدودة المساحة وشحيحة الموارد. فليس بإمكانها استيعاب الملايين وتأمين الحد الأدنى من المعيشة لهم.
- أرض الميعاد يجب أن تكون مركزًا روحيًا ونبراسًا مشعًا للشعب اليهودي في شتى أنحاء العالم. والمطلوب تهيئة النفوس قبل تهيئة البلاد.

هـ- وإلى كل هذه العوامل يضاف عامل خامس وهو عبارة عن مجموعة من عوامل موضوعية وأهمها:

- شح المساعدات الخارجية، خصوصًا بعد إفلاس جمعية محبة صهيون.
- عدم تعود المستوطنين العمل الجسدي وعدم تحملهم أعباء المعيشة.
- افتقارهم إلى الخبرة الزراعية.
- فقر الأراضي الفلسطينية فمعظمها؛ وتقدر نسبتها بحوالي الثلثين؛ أراض بور غير صالحة للزراعة.
- المناخ الصعب القريب من المستوطن القادم من وسط أوروبا أو شرقها.
- الأمراض والأوبئة التي تجتاح البلاد بصورة شبه دورية [٢٦].

إزاء هذه الصعوبات والعراقيل بدأ المشروع الصهيوني يترنح وبدأ المستوطنون يفكرون بالعد التنازلي، ووصلوا إلى نتيجة: إما حل فوري يأتي بالفرج وإما العودة من حيث أتوا وإما الهلاك! وقد بدأ كأن سيناريو الموجة الأولى يتكرر.

في هذا الجو القائم بدأت الهجرة الأولى تتراجع طيلة ست سنوات من ١٨٨٤ - ١٨٩٠م لم يطرأ خلالها أي تقدم ملموس في مجالات ابتياع أراضي عربية

(٢٦) شوفاني ص ٣٢٦

جديدة، أو إقامة أية مستوطنات، اللهم إلا مستوطنة واحدة صغيرة هي بنير طوفيا [٢٧] (بير طوفيا) سنة ١٨٨٧م وكانت صغيرة الحجم ولم يزد عدد سكانها عن ... الأربعين فقط.

تجدد الهجرة:

الموجة الثانية من الهجرة الأولى ١٨٩٠ - ١٩٠٤م

لم تطل فترة الشلل، فبعد ست سنوات بدأت الحواجز تتحطم وسرعان ما بدا الانفراج والتحرك في كل من الهجرة والاستيطان. ففي سنة ١٩٠٠م نجحت الحركة الصهيونية في إكراه الدولة العثمانية على رفع الحظر عن الهجرة اليهودية إلى فلسطين؛ فلقد تحركت الجاليات اليهودية في شتى أنحاء العالم، خاصة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وفي داخل الدولة العثمانية ذاتها وتجندت جميعها للضغط على الحكومة لرفع الحظر.

وقد استعملت تلك الجاليات ضغوطها السياسية والاقتصادية على حكومات أوروبا لتمارس نفوذها على الحكومة العثمانية لرفع الحظر. وكانت أهم الدول التي جندت في هذا السبيل بريطانيا العظمى التي استجابت للضغوط الصهيونية. قد كانت تأمل أن تنقل المهاجرين اليهود على متن سفنها. وقد ترأس النشاط الصهيوني البريطاني لورنس أوليفانت الذي لم يأل جهدًا في الضغط على حكومته لاستخدام نفوذها لدى الباب العالي في اسطنبول لرفع الحظر.

من جهة أخرى لم تبخل الحركة الصهيونية بأموالها التي أغدقتها على أصحاب الحل والعقد في العاصمة التركية لتذليل العراقيل من وجه الهجرة. أما التعامل مع المستوى المحلي من السلطة فلقد استعملوا معه الرشاوى أيضًا لتسهيل دخول المهاجرين إلى الأراضي الفلسطينية. وقبض هؤلاء الأموال وغضوا الطرف عن دخول مهاجرين يهود بطريق غير شرعية، وسمحوا لكل من هب ودب من اليهود بدخول البلاد إما بجوازات سفر مزيفة، أو على شكل حجاج

(٢٧) באר טוביה

يهود بإقامات مؤقتة لمدة ٣ أشهر تحولت بقدرة المسئول، إلى إقامات دائمة فمواطنة عثمانية.

أما الحظر الروسي على النشاطات السياسية للحركة الصهيونية، وعلى رأسها نشاط جمعية «محبة صهيون»، فقد التفت عليه الحركة بذكاء ومكر. فقد استغلت الاحتفالات «باليوبيل الذهبي» المئوي لميلاد مونتفيوري لبعث مجدد وعودة إلى العمل العلني بطرق قانونية.

عملت الحركة على أحياء نشاطاتها تحت شعار جمع الأموال للاحتفال بذلك اليوبيل فقامت بطبع صورة كبيرة وصغيرة للمحسن وبيعها. جانية من ذلك أموالاً طائلة.

وقد عقدت جمعية «محبة صهيون» مؤتمرها في كاتروفتش [٢٨] سنة ١٨٨٤م برئاسة بنسكر تحت شعار «ذكرى موشه مونتفيوري في الديار المقدسة» [٢٩] وأعلنت أن فلسطين هي المكان الوحيد لتحقيق حلم الوطن القومي اليهودي. كما تقرر إمداد المستوطنات القائمة بالدعم المالي والعمل على تأمين تصاريح إقامة دائمة لليهود في فلسطين.

وفي سنة ١٨٩٠م أعلن المؤتمر الرابع «لمحبة صهيون» عن نجاح مساعيه في الحصول على موافقة الحكومة الروسية على منح ترخيص مجدد للجمعية المذكورة والموافقة على دستورها ونشاطاتها. وهكذا تخطت الحركة الصهيونية العقبتين: التركية والروسية. وقد تحقق ذلك بفضل الضغوط الأمريكية على كل من الدولتين [٣٠]. وبذلك تم الانفراج واستعادت الهجرة اليهودية زخمها، وبدأت تتدفق مجددًا وتجددت حركة ابتياع الأراضي العربية الفلسطينية. واستمر هذا الزخم طيلة ١٤ سنة من ١٨٩٠ - ١٩٠٤م.

وقد تميزت هذه الحقبة بالوتيرة الغزيرة للهجرة والاستيطان. وكان العمود الفقري فيها «جمعية محبة صهيون». أما البارون فقد فترت همته وأخذت بصماته تتلاشى على الميدان الفلسطيني. حتى توقفت نهائيًا سنة ١٩٠٠م حين

---

(٢٨) kattrowitz

(٢٩) מזכרת משה מונטפיורי בא"

(٣٠) شوفاني ص ٢٢٣

حول مستوطناته إلى شركة يهودية اسمها «شركة الاستيطان اليهودية - يكا» [٣١] بعد أن «نقطها» بلا أقل من ٥ ملايين فرانك (٦٠٠ ألف إسترلينية).

ولم يعد للبارون أي ذكر إلا في: إقامة مستوطنة المطلة عام ١٨٩١م، وشفيه في العام نفسه أيضًا، وبات شلومو في سنة ١٨٨٩م، ومستوطنة بنير طوفيا (قرب قسطينة العربية المهجرة اليوم) سنة ١٨٩٦م، ومستوطنة بني يهودا [٣٢] في الجولان السورية سنة ١٨٩٦م أيضًا.

ويبدأ الاستيطان المجدد بعد عام ١٩٠٠م يتم في خطين:

١. خط استيطان «محبة صهيون» وهو استمرار لخط الاستيطان القديم.

٢. خط استيطان شركة «يكا» الذي هو استمرار لخط استيطان البارون.

١. مستوطنات «محبة صهيون»:

تنفست الحركة الصهيونية الصعداء بعد أن تراخت القبضة التركية عن الهجرة، والقبضة الروسية عن النشاط الصهيوني. وقد سارعت إلى فتح مكتب لها في مدينة يافا وظيفته ابتياع الأراضي للحركة.

وبدأت الهجرة اليهودية تتدفق على فلسطين في إطار الموجة الثانية من الهجرة الأولى وتسمى بـ«هجرة طومكين» [٣٣] وأخذ المهاجرون يستقرون على الأراضي الفلسطينية ويحصلون على إقامات دائمة بدل بطاقات الحج المؤقتة، وذلك بعد شراء ذمم الموظفين الأتراك وتسخير القناصل الأجانب لتأمين الحصول على تلك الإقامات.

وجاءت المرحلة الثانية بعد تأمين الهجرة، وابتياع أراض عربية. وقد نجحت في هذا المجال أيضًا بفضل الرشوات للموظفين الأتراك المسئولين عن تسجيل الأراضي وتعاون زعماء محليين مثل رؤساء وعائلات، شيوخ قبائل بدوية وسماسرة. وبدأت الأراضي الزراعية تتسرب من ملكية أصحابها إلى ملكية يهودية صهيونية [٣٤] وأخذت المستوطنات تنشأ وتقام وأهمها:

---

(٣١) יק"א

(٣٢) בני יהודה

(٣٣) עלית טומקין

(٣٤) شوفاني ص ٢٢٣

١– رحوبوت أقيمت سنة ١٨٩٠م على أراضي القرية العربية «دوران»، التي كان يملكها الفرد روك. وبلغت مساحة الأرض ١٠,٦٤٢ دونم. وكان المالك يضمنها للعشائر البدوية في المنطقة كمراع للمواشي. بقيت هذه المستوطنة مستقلة لم تلحق بإدارة البارون.

وقد قام أكبر سماسرة الأراضي اليهود، المدعو حانكين (٣٥)، بشراء الأرض لحساب جمعيات يهودية بولندية. وقد بقي المالكون الجدد في وطنهم بولندا وفلحوا الأرض من بعيد بالعمالة العربية المأجورة (٣٦).

٢– الخضيرة (٣٧) أقيمت سنة ١٨٩١م على أراضي القرية العربية «خضرة» على مساحة ٣٠ ألف دونم ابتاعها حانقين إياه، بعد ابتياع أراضي رحوفوت، من مالكها سليم الخوري. ويذكر أن الخوري كان يملك مساحات شاسعة أخرى في منطقة أراض الأغوار. وقد ابتاع حانكين الأراضي لمنظمات صهيونية روسية وأوكرانية.

وبقيت هذه المنطقة مستقلة ولم تلحق هي أيضًا بإدارة البارون (٣٨).

٣– عين زيتيم (٣٩) ١٨٩١م في الجليل الأعلى:

وقد أنشأتها شركة من روسيا البيضاء. وقد بدأت حياتها مستقلة غير أنها لم تصمد للصعوبات فانضمت إلى إدارة البارون.

٤– مشمار هيردن (٤٠) ١٨٩١م وكانت تسمى جسر بنات يعقوب، وأقيمت على أراض القرية العربية الزراعة وكانت مزرعة عائلية لعائلة ليرر في سنة ١٨٨٤م.

٥– موتسا (٤١) ١٨٩٤م

---

(٣٥) הנקין

(٣٦) הסטוריה של א"י כרך 8 ע " 277

(٣٧) חדרה

(٣٨) הסטוריה של א"י כרך 8 ע " 277

(٣٩) עין זיתים

(٤٠) משמר הירדן

(٤١) מוצא

٦– هرطوف (٤٢) ١٨٩٥م أقامتها جمعية بلغارية وجمعيات محبة صهيون.

٧– بئر طوفيا (٤٣) ١٨٩٦م مكان قسطينة العربية أقامتها جمعية «محبة صهيون».

٨– بني يهودا (٤٤) ١٨٩٨ في الجولان السورية : عمرت حتى الحرب العالمية الأولى.

٩– المطلة (٤٥) وأقامها البارون سنة ١٨٩٦.

١٠– محنايم (٤٦) ١٨٩٩م عمرت حتى ١٩٠٣.

٢. خط استيطان شركة «يكا»:

استمر خط البارون حتى سنة ١٩٠٠ ثم سلم مشروعه الاستيطاني لشركة «يكا» بعد أن كان قلص نشاطه إلى الحد الأدنى.

وشركة «يكا» بالأصل شركة استيطان زراعي يهودي أسسها البارون اليهودي الألماني هيرش ١٨٩١م لاستيعاب مهاجري روسيا اليهود وتوطينهم في الأرجنتين أو في أية دولة أخرى.

أما الدائرة المختصة بفلسطين من الشركة المذكورة فكان اسمها «بيكا» وهو مختصر شرة الاستيطان الفلسطينية اليهودية (٤٧).

ومع حلول عام ١٨٩٧م، بدأت بيكا تبدي اهتمامًا وتدخلاً في الاستيطان اليهودي في فلسطين فقدمت المساعدات لكل من المستوطنات التالية:

مشمار هيردن، نس تسيونا، الخضيرة، ورحوفوت.

وساعدت المستوطنين في توسيع رقعة أراضيهم المحتلة.

– مستوطنات يكا : وقد تركزت في منطقتين:

---

(٤٢) הר טוב

(٤٣) באר טוביה

(٤٤) בני יהודה

(٤٥) מטולה

(٤٦) מחנים

(٤٧) פיקא (palestine Jewish Colonial Association P.J.C.A)

أ- في المرحلة الأولى : منطقة الساحل الفلسطيني جنوبي مدينة حيفا في أوائل ١٩٠٣.

ب- في المرحلة الثانية : بعد اقتحام الميدان الفلسطيني شرعت «يكا» تركز مشترياتها في منطقة الجليل الأسفل في المنطقة الواقعة بين مدينتي الناصرة وطبرية من أوائل ١٩٠٩م.

أ- مستوطنات الساحل الفلسطيني:

أما في الساحل فقد نجحت بابتياع أراض عربية في سنة ١٩٠١م وأقامت عليها مستوطنتين:

- عتيلت (٤٨) : سنة ١٩٠١م على أراض كانت الحكومة العثمانية قد منحتها للشركة كامتياز لاستخراج الملح من مياه البحر الأبيض المتوسط.
- جفعات عادة (٤٩) : سنة ١٩٠٣م غربي مدينة الخضيرة ابتاعتها الشركة من عائلة الطيان اليافاوية.

ب- مستوطنات الجليل الأسفل:

أما في منطقة الجليل الأسفل فقامت الشركة بابتياع أراض أقامت عليها مستوطنة الشجرة اليهودية - إيلانية (٥٠) لاحقًا في كانون الثاني / يناير سنة ١٩٠٢م على أرض تقع مقابل قرية «الشجرة العربية». ابتاعتها من سليم العمري وإخوانه من دمشق. وكانت إيلانية أول مستوطنة يهودية تقام في الجليل الأسفل.

ولم تلبث أن أقيمت على تلك الأرض أربع مستوطنات إضافية هي:

أ- كفار طابور (٥١)، سنة ١٩٠١م على أراض قرية مسحة العربية. وكانت الشركة قد ابتاعتها من عائلة سرسق اللبنانية البيروتية.

(٤٨) עתלית

(٤٩) גבעת עדה

(٥٠) אילניה

(٥١) כפר תבור

ب- ملاحميا (٥٢) (مناحميا لاحقًا) وأقيمت على أراض ابتاعتها الشركة من سليم العمري وإخوانه من دمشق. وقد أطلق عليها اسم ملاحميا أول أمر ثم غير الاسم إلى مناحميا على اسم مناحم صموئيل جد هربرت صموئيل الصهيوني الذي شغل منصب أول مندوب سام بريطاني على فلسطين من سنة ١٩٢٠-١٩٢٥م.

ج- يفنئيل (٥٣) أقيمت في شهر تشرين الأول / أكتوبر سنة ١٩٠١ وتقع قرب نهر الأردن في وادي الفجاس على أراض يمّه العربية. وكانت الحركة الصهيونية قد ابتاعتها من سليم العمري وإخوانه أيضًا.

د- بايت فاغان (٥٤) (اتحدت مع يفنئيل لاحقًا) : تأسست سنة ١٩٠٣م وهي اليوم تابعة ليفنئيل أيضًا. ويذكر أن ابتياع الأراضي المذكورة في منطقة الجليل جوبه بمعارضة شديدة من «شكري العسلي قائمقام الناصرة، وأمين أرسلان قائمقام طبرية ونجيب نصار صاحب جريدة «الكرمل» الحيفاوية.

- باقي مستوطنات شركة يكا

ولم تلبث يكا أن وسعت نشاطاتها فنجحت في سنة ١٩٠١م بابتياع أراض عربية من عائلة الطيّان من أراضي قرية «كفر سابا» العربية وأقامت عليها مستوطنة كفار سابا اليهودية. وقد سكنها مستوطنون من مستوطنة بيتح تكفا.

ومع أن محاولات الشركة المذكورة لابتياع أراض عربية في سهل عكا قد باءت بالفشل، ولكنها نجحت في إنشاء مستوطنات في أماكن متفرقة أخرى أهمها:

١- بنير يعقوب ١٩٠٧م وبلغ عدد سكانها ١٥٠ نسمة.

٢- متسبيه كانون الثاني / يناير ١٩٠٨ في منطقة مدينة طبرية.

٣- كنيرت أ وكنيرت ب في الزاوية الجنوبية من بحيرة طبرية وهما مستوطنتان أقيمت الأولى في ١٩٠٨/٧/٦م والثانية سنة ١٩٠٩م عند مخرج نهر الأردن من البحيرة مكان القرية العربية «الصنبرة» وكانت من أجمل مدن فلسطين في العهد الأموي. وهي مشتى الخليفتين معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم، وفيها دعا الأخير لمبايعة ولده عبد الملك بن خليفة ولأخيه عبد العزيز بعده.

(٥٢) מלחמיה / מנחמייה

(٥٣) יבנאל

(٥٤) בית וגן - כפר אוריה الدباغ م.س.ج ٦ ق ٢ ص ٤٣٦

٤ـ روحاما ١٩١٠.

٥ـ المجدل أيلول/ سبتمبر ١٩١٠م على الشاطئ الغربي لبحيرة طبرية بين مصب وادي الحمام والريضيّة. وتبعد عن المدل العربية ٨ كم باتجاه الشمال الشرقي. وتقع في منتصف الطريق بين مدينة طبرية والطابغة على مسافة ٦ كم من كل منهما. وقد تم ابتياع الأرض من سليم العمري وإخوانه من دمشق.

٦ـ بوريا ١٩١٠م.

٧ـ كفار أوريا ١٩١٠م [٥٥] غربي القدس على أراض تملكها يهود مقدسيون من اليشوف القديم.

وإذا لخصنا الاستيطان اليهودي في الفترة ١٨٨٢م - ١٩١٤م في أكبر ٢٢ مستوطنة نخرج بالجدول التالي:

اسم المستوطنة	سنة تاسيسها	١٨٩١	١٩٠٠—١٩٠٤	١٩١٤
بيتح تكفا	١٨٨٢	٤٨٧	٨١٨	٣٣٠٠
ريشون لتسيون	١٨٨٢	٣٥٩	٦٢٥	١٤٠٠
روش بينا	١٨٨٢	٥٠٠	٥١٢	٧٠٠
زخرون يعقوب ومستوطناتها شفية، بات شلومو	١٨٩١ ١٨٨٩ ١٨٨٢	٥٧٠	١١١٥	١١٣٠
نس تسيونا	١٨٨٣	١٠٦	١١٩	٢٠٠
يسود همعلاه	١٨٨٣	١٢٣	٢٣٠	١٦٠
عقرون (مزكيرت باتيا)	١٨٨٣	٢١٥	٢٣١	٣٦٠
غديرا	١٨٨٤	٥٥٠	٤٤	١٨٠
بنير طوفيا	١٨٨٧	٤٠	١٢٤	١٧٠/١٨٠
رحوفوت	١٨٩٠	٣١٤	٢٢٢	١١٠٠
الخضيرة	١٨٩٠	—	١٣٢	٣٢٠
موتسا	١٨٩٤	—	٢٨	٤٠
هرطوف	١٨٩٥	—	٧٥	١٥٠
المطلة	١٨٩٦	—	٢٨٤	٣٠٠
السجرة	١٨٩٩	—	—	٢٠٠
يفننيل	١٩٠١	—	—	٥٠٠
كفار تابور	١٩٠١	—	—	١٠٠
كفار سابا	١٩٠٣	—	—	١٠٠
كنيرت مستوطنة	١٩٠٨	—	—	٤٩
دغانيا	١٩٠٩	—	—	٣٠
نحلات هودا	١٩١٤	—	—	١٠٠
بنير يعقوب	١٩٠٧	—	—	١٥٠

(٥٥) הסטוריה של א"י אותן ע" 275

بالإضافة إلى المستوطنات المذكورة يمكن إضافة عدد من المزارع اليهودية الخاصة التي كانت ملكية شخصية وهي:

- مزرعة عائلة ليرر [٥٦] التي تأسست ١٨٨٢م على أراضي «وادي حنين» العربية. وقد أصبحت نواة نس تسيونا لاحقًا.

- بيارة عائلة فلمان [٥٧] على أراض قرية كفرصمّيل العربية.

- مزرعة شوشنات هيردن [٥٨] قرب جسر بنات يعقوب على الحدود الفلسطينية السورية. أسسها مردخاي ليفونتين وهي التي شكلت نواة مستعمرة مشمار هيردن لاحقًا.

(٥٦) לירר

(٥٧) פילמן

(٥٨) שושנת הירדן

أما أعداد المهاجرين اليهود الذين وصلوا البلاد خلال الهجرة الأولى المذكورة فيبلغ ٦٠ ألف نسمة [٥٩]. وقد استقر نصفهم في فلسطين. بينما غادر نصفهم الآخر البلاد. وعلى هذا الأساس تشير الإحصائيات إلى أن عدد الذين بقوا في البلاد من الهجرة المذكورة يتراوح بين ٢٠ ـ ٣٠ ألف نسمة معظمهم من يهود روسيا، رومانيا، وبولندا.

والسؤالان اللذان يُطرحان في هذا المجال هما:

كيف بدأت تتسرب ملكية الأرض إلى الحركة الصهيونية؟

وماذا كان الوضع القانوني لملكية الأراضي الزراعية في فلسطين؟

وإذا لخصنا الوضع الديمغرافي العام لفلسطين في الفترة المذكورة نصل إلى نتيجة:

١ ـ أواخر القرن التاسع عشر بلغ مجموع السكان ٣٠٠ ألف نسمة منهم:

٢٧٠ ألف نسمة عرب مسلمون ونسبتهم ٩٠% من مجموع السكان.

و٢٠ ـ ٣٠ ألف عرب مسيحيون ونسبتهم ٧%.

و٧ ـ ١٠ ألف نسمة من اليهود ونسبتهم ٣%.

وفي سنة ١٨٨١ مع بداية الهجرة الأولى بلغ عدد السكان ٤٧٥ ألف نسمة منهم:

٤٠٠ ألف عرب مسلمون ونسبتهم ٨٦% من السكان.

و٤٢ ألف عرب مسيحيون ونسبتهم ٨% من السكان.

و١٣ ـ ٢٠ ألف يهود ونسبتهم ٦% من السكان.

والعرب المسلمون معظمهم قرويون يعتاشون على الزراعة ويسكنون في ٨٠٠ قرية معظمها في المناطق الجبلية، والأقلية يسكنون في المدن الداخلية. وهم مقسمون بين حضر وقرويون وبدو.

أما العرب المسيحيون فمعظمهم روم أرثوذكس والأغلبية يسكنون المدن الداخلية والأقلية في الأرياف وهم مقسمون بين حضر وريف.

---

(٥٩) הסטוריה של א"י כרך 8 ע" 278

أما اليهود (اليشوف القديم) فكانوا من المتدينين وسكنوا في المدن المقدسة الأربعة: صفد، طبريا، الخليل والقدس. وهم فقراء معدمون يعتمدون على عملهم في التجارة خاصة أصحاب الحوانيت والحرف اليدوية. كما يعتمدون في معيشتهم على المساعدات الخارجية: التوزيعة (الحلوقاة). وقسم معتبر منهم هم تلاميذ دين «عملهم توراتهم».

الفصل السابع

ملكية الأرض في فلسطين

«الأرض الفلسطينية هي لب الصراع ، فمن تملكها هيمن»

كانت الأراضي الزراعية المفتلحة في فلسطين ملكًا خالصًا لسكانها من الفلاحين العرب الفلسطينيين منذ الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي وحتى عام ١٨٥٨م. ففي العالم المذكور طرأ تحول جذري على الوضع القانوني للملكية على الأراضي. فنزعت ملكية معظم الأراضي من المالك الحقيقي وتحولت إلى مالك غريب، وتسربت إلى ملكية الأجسام التالية:

١- السلطان العثماني والدولة العثمانية التي أصبحت المالك لمساحات شاسعة من الأراضي الزراعية.

٢- مالكين برجوازيين من العرب الفلسطينيين وغير الفلسطينيين من سكان المدن الذين لا يعملون بالزراعة. وتتلخص نظرتهم إلى الأرض على أنها سلعة تجارية، وأصبح هؤلاء مالكين من صنف المالكين الغائبين.

٣- مالكين أجانب من غير العرب مثل قناصل ورعايا دول أجنبية من ألمان، أرمن، يونانيين، فرنسيين وغيرهم.

٤- وفي فترة لاحقة إلى ملكية الحركة الصهيونية.

فكيف طرأ هذا التحول ؟

وما ماهية قانون سنة ١٨٥٨ ؟

وكيف تملك هؤلاء الغرباء تلك المساحات من الأراضي؟

تصنيف ملكية الأرض
في فترة الفتوحات الإسلامية وبعدها

مع الفتوحات الإسلامية في القرن السابع ميلاديًا / الأول هجريًا، انساحت القبائل العربية الإسلامية في المناطق المفتوحة، واستولت على مناطق كاملة من الأراضي العامة غير المندرجة تحت باب الملكية الخاصة، وأصبحت تلك الأراضي ملكًا لهم يفلحونها ويعيشون على منتوجها ويتوارثونها جيلاً بعد جيل [(١)].

وكانت الشريعة الإسلامية، وهي القانون الوحيد المعمول به في الدول الإسلامية، قد نصت على:

١ـ رفض اعتبار الأراضي المفتوحة إقطاعًا للدولة، تمنحها لمن تشاء ومتى تشاء وبالشروط التي تشاء.

٢ـ إبقاء الأملاك الخاصة ملكًا خالصًا لأصحابها على أن يدفعوا:

أ. ضريبة العشر، وتبلغ ١٠% من المحصول، إن كانوا مسلمين، أو إذا افتتحت بلادهم صلحًا ومسلمًا.

ب. أما إذا كانت البلاد قد فتحت بالسيف، وفضل سكانها البقاء على دينهم وأحجموا عن اعتناق الديانة الإسلامية فيدفعون الجزية، وهي ضريبة تزيد قليلاً عن العشر [(٢)].

وقد اعتادت الدولتان المملوكية والعثمانية أن تقطعا مساحات واسعة من الأراضي الأميرية لأفراد متنفذين مقابل خدمات عسكرية (القتال مع قوات الدولة في زمن الحرب) أو خدمات مدنيّة (وظائف حكومية). والنوع الأول أطلق عليه «الإقطاع العسكري». أما النوع الثاني فهو «الإقطاع المدني».

وبناء على ذلك حصلت الأسر المتنفذة في بلاد الشام على إقطاعات واسعة في العهد المملوكي واستمر ذلك في العصر العثماني أيضًا. وكان أبرز تلك العائلات: الحسيني ـ النشاشيبي ـ التميمي ـ عبد الهادي ـ طوقان ـ الجيّوسي.

---

(١) حزماوي ص ٢١. ٣ـ م.س.ص ٢٧

(٢) حزماوي ص ٢١. ٣ـ م.س.ص ٢٧

ولكن لم يلبث أن ظهر في العهد العثماني عائلات إضافية قويّة منافسة تدعمها السلطة «فلكل زمان دولة ورجال». وقد تملكت هذه الأسر الناشئة ـ الصاعدة مساحات مترامية من الأراضي وكان أبرز تلك الأسر:

- عمرو والعزّة في منطقة الخليل.
- اللحام وأبو غوش في منطقة القدس.
- البرغوتي وبنو حارث في رام الله.
- قاسم وصادق الريّان في جمّاعين.
- البرقاوي في منطقة الشعراوية.
- الماضي على ساحل حيفا.
- دار الحاج محمد في منطقة مشارق البيتاوي.
- أبو كشك في ساحل يافا.
- عرب الهنادي والحواورة في عكا والجليل.
- عرب الصقور والغزاوية في غور بيسان [(٣)].

وقد ظل هذا الترتيب معمولاً فيه، دون تغيير أو تبديل، حتى في فترة الحكم المصري لفلسطين ١٨٣١ ـ ١٨٤٠م حين أجرت السلطة المصرية تغييرًا طفيفًا تناول مساحات الأراضي وحدودها بمسح شامل لأراضي فلسطين أسوة «بالروك المصري» الذي سبقه وطبق في مصر، والذي حدّد مساحات وحدود الأراضي الزراعية المصرية.

وقد استمر الترتيب المصري معمولاً به حتى عام ١٨٥٨م حين رأت السلطة العثمانية تنظيم أمر الملكية الزراعية وتسجيل الأراضي على أسماء أصحابها بموجب صك ملكية رسمي أطلقوا عليه اسم «كوشان» مسجل في دائرة تسجيل الأراضي «الطابو» فحتى تلك السنة لم تكن هناك صكوك ملكية. والأراضي كانت مسجلة كملكية جماعية أي مشاع. والعرف والعادة بالنسبة لمساحة الأراضي وحدودها هما المحكمان الوحيدان والمرجعية الأخيرة لإثبات الملكية [(٤)].

---

(٣) حزماوي ص ٢١. ٣ـ م.س.ص ٢٧

(٤) Stein Kenneth : The Land Question n Palestine p.21

تصنيف الأراضي

وكانت الأراضي جميعها قد صنفت إلى الأنواع التالية:

١ـ ملكية خاصة، وهي الأراضي الملك، وتقسم إلى نوعين:

أ. ملك رقبة وتكون ملكًا خالصًا لصاحبها وتحت تصرفه لجميع الأغراض: البيع والشراء، الإيجار والرهن. وهي تشكل كافة الأراضي الواقعة في المدن والأرياف. ومساحتها لا تتجاوز الـ ٧% من مجموع أراضي فلسطين [٥].

ب. ملك التصرف، أو ملك الانتفاع: أي أن ملكية الرقبة تعود للدولة، ولكن للمزارع الذي يشغل الأرض حق الانتفاع بخيراتها ومنتوجها الزراعي والحيواني. فهو يزرعها ويستغلها. كما أنه ينتفع كذلك بحقوق مطلقة على تلك الأرض فلا يمكن انتزاعها أو الانتقاص منها إلا بمسوّغ شرعي. وهذا الامتياز ينتقل بالوراثة. ويمكن اعتبار هذا النوع بمثابة «وضع اليد القانوني».

٢ـ الأرض الموات، وهي الأرض الأميرية التي لا تصلح للزراعة وتعود ملكيتها للدولة تسلمها لمن تشاء لإحيائها فتتحول إلى ملك رقبة لمن يحييها.

وشرط هذا النوع:

أ. ألا يكون بملكية أي كان، وإلا تكون قد خضعت للمنفعة العامة.

ب. وأن تكون الأرض مبوّرة.

ج. وتبعد أكثر من ميل ونصف وأكثر عن المناطق المأهولة بالسكان.

وقد بلغ مساحة هذا النوع ٥٠ ـ ٦٠ % من مساحة أراضي فلسطين ذلك بموجب إحصاء سنة ١٩٢٠م.

٣ـ الأرض المتروكة، وهي الأراضي الأميرية التي تندرج تحت بند ملكية الدولة التي تتركها لاستعمال الصالح العام مثل: الطرق، الجسور، قنوات المياه، المعابر وغيرها ... وغيرها وتسمى أيضًا «المحلول».

٤ـ الأراضي الوقف، والوقف هو حبس العقار لأغراض دينية و/ أو خيرية.

وهو نوعان:

(٥) يطلق على ملكية الرقبة Title وعلى ملكية الانتفاع Usufruct

أـ وقف ميري (أميري) ويسمى أيضًا «الأوقاف الخيرية» أو «الأوقاف العامة» أو «الوقف غير الصحيح». وهي الأراضي التي تحبسها الدولة وتخصص ريعها للأبواب التي تنص عليه الوقفية. وتكون خاضعة لإشراف إدارة السلطة الدينية ـ وزارة الأوقاف الإسلامية ـ وقدرت مساحة هذا النوع بين ٦٠٠ ألف ـ مليون دونم من أفضل أراضي فلسطين.

بـ وقف ذري أو «وقف ملك» أو «وقف صحيح»، وهي الأراضي الموقوفة من الملك الخاص لأغراض دينية أو / وخيرية ويحبس ريعها للأبواب التي نصت عليها الوقفية أيضًا. وتعهد إدارة هذا الوقف إلى ناظر الوقف أو متسلم الوقف وهو أحد الأشخاص أو الهيئات التي نصت عليها الوقفية أيضًا. وقد تراوحت مساحة هذا النوع من الوقف بين ٨٠ ـ ١٠٠ ألف دونم.

وبالإضافة إلى أراضي الأوقاف الإسلامية، وجد في فلسطين أراض موقوفة للوقف المسيحي، لمختلف الطوائف. وقد تركزت بصورة خاصة في منطقة القدس وفي شمال فلسطين الجليل وجبال الكرمل ومدينة حيفا.

٥ـ الأرض الميري أو الأميري، وهي ملك الدولة قانونيًا ونظريًا، أما في الواقع فتتوزع على كل من يفلحها، أي أن حق الرقبة للدولة وحق الانتفاع لمن يفلحها.

٦ـ الأراضي المحمية، وهي الأرض المشاع التي تكون بملكية جماعية وتستغل للمصالح العامة مثل بيادر القرية، مراع، إحراج للاحتطاب وما إلى ذلك. وتعود رقبتها للدولة أما حق الانتفاع، فللعموم.

٧ـ أراضي بيت مال المسلمين وهي الأراضي التي هجرها أصحابها أو المتروكة دون وريث.

والجدير بالذكر أن ٩٣ ـ ٩٥ % من مجموع أراض فلسطين كانت ملكًا للدولة: أراض أميرية سواء كانت ملك انتفاع، موات، متروكة، أوقاف عامة، محمية أو أراضي بيت المال.

وقد بقيت هذه التصنيفات سارية المفعول طوال الفترة، منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية العهد العثماني ١٩١٨م. وقد قبل الفلاحون الفلسطينيون بهذا الترتيب، تعايشوا معه واعتادوا عليه واعتبروه جزءًا من حياهم وأمرًا طبيعيًا

مسلمًا به. فكان التصرف بالأرض واستغلالها يتجدد من خلال العرف والعادة السائدين في كل مكان ومكان.

وتقول البديري: إن الفلاحين تحت الحكم العثماني تمتعوا بحقوقهم غير المنقوصة على أراضيهم جيلاً بعد جيل على مدى مئات السنين، فكان الفلاح يفلح أرضه ويعتاش على خيراتها ويورثها لخلفه. كان قانعًا بنصيبه في معيشته في القرى الزراعية (٦).

الزراعة في فلسطين

كانت الزراعة في فلسطين في العهد العثماني تقليدية بدائية تعتمد على العمل الجسمي ووسائل الزراعة وطرقها، نظام الموسمين الزراعيين: الشتوي والصيفي، أدوات العمل ودواب العمل ظلت بدائية جامدة غير متطورة يتناقلها الخلف عن السلف.

شكلت الزراعة الدخل الرئيسي للمزارع، ولكنه استعان بمعيشته على تربية بعض الدواجن والمواشي للاستهلاك الذاتي فقط، وهذه كانت تعاني من سوء التغذية والرعاية الصحية وكان مردودها هزيلاً. أما الزراعة فاعتمدت نوعًا واحدًا فقط هي «زراعة الفلحة» مع إدخال بعض الأشجار المثمرة خصوصًا الزيتون، اللوز، الكرمة، التين، والخضروات البعل.

أما الموسمان الزراعيان فكانا:

أ- الموسم الشتوي ويزرع فيه الحبوب مثل القمح والشعير والقطانة والترمس.

ب- الموسم الصيفي ويزرع فيه السمسم والذرة والبطيخ والشمام والخضروات البعل.

أما المحصول فكان شحيحًا هزيلاً، والأسعار متدنية لا تكاد تسد الرمق، والتسويق لا يتجاوز السوق المحلية.

وفي أواخر العهد العثماني أدخل فرعان جديدان على الزراعة:

أ- الفرع الأول هو فرع الحمضيات الذي أدخله المهاجرون الأرمن. وقد شمل

(٦) بديري ص٢٩ – ٣٨ حزماوي م.س ص٤٢.

كافة أنواع الحمضيات البرتقال، الليمون، الكباد، المندلينا. ولكن أهم هذه الأصناف كان البرتقال وأفضله «الشمّوطي» المخصص للتصدير. وقد أطلق عليه «برتقال يافا» (٧). وقد تميّز بقشرته الخشنة السميكة الكفيلة بحمايته من تقلبات الطقس ومن مشاكل النقليات.

ب- الفرع الثاني هو فرع الكرمة وبدأ مع الاستيطان الصهيوني لفلسطين. وقد بادر إليه البارون روتشيلد وقصد فيه الشروع في عملية التصنيع الزراعي المعدّ للتصدير. وكان المخطط تصنيع النبيذ الفاخر من الكرمة. وفي سبيل ذلك قام بزراعة مساحات واسعة بكروم العنب. ثمّ أنشأ معصرتين للنبيذ: الأولى في ريشون لتسيون، والثانية في زخرون يعقوب (٨).

قانون تسجيل الأراضي لسنة ١٨٥٨ (الطابو)

التدهور المستمر في وضع الزراعة العربية في فلسطين أوصلها إلى شفا الانهيار. فلقد تضافرت عوامل عديدة لتوصل هذا الفرع إلى الإفلاس وأهمها:

١- عوامل الطبيعة، مثل الفيضانات، انحباس الأمطار، تقلّبات الجو، اشتداد الحرارة والبرودة وآفات زراعية مثل الأوبئة والحشرات والجراد ...

٢- غارات البدو التي تنتهي عادة بالخراب والدمار والقضاء على الأخضر واليابس.

٣- انعدام الأمن وتعرض المدن والأرياف للصوص وقطاع الطرق وعصابات الإجرام وشذاذ الآفاق.

٤- ابتزاز الأهالي تحت باب الخاوة (الخوّة)، وهي بدل الحماية من عصابات الإجرام وقبائل البدو.

٥- الضرائب الحكومية المتراكمة الباهظة التي أثقلت كاهل الفلاح وقوّضت أركانه. وتروي لنا المصادر أصنافًا وأنواعًا من الضرائب، ممن نسمع ولا نسمع بها وأهمها:

(٧) Jaffa

(٨) حزماوي ص٥٣.

أ. ضريبة العشر وتبلغ ١٠% من المحصول.

ب. ضريبة الويركو وهي الضريبة المفروضة على الأراضي والمسقفات.

ج. ضريبة المواشي والأنعام.

د. ضريبة الطرق المعروفة بـ «الدربيّة».

هـ. البدل العسكري [٩].

بالإضافة إلى كل ذلك كانت هناك التبرعات القسرية لذوي النفوذ والسطوة في المناسبات والأعياد: الأعراس، الولادات، الوفيات، ومناسبات عديدة لا حصر لها. على هذه الأرضية سنّ قانون تسجيل الأراضي لعام ١٨٥٨م.

وقد قامت السلطات بتسجيل قسائم الأراضي على أسماء أصحابها بموجب السجل الفلسطيني، ودوّنت ذلك بكواشين (صكوك إثبات الملكية) في دائرة الطابو، وهي دائرة تسجيل الأراضي. ولم يطلب من مالك الأرض إلا التوجه للدائرة المذكورة ليثبت هويته ويتسلم كوشانه مقابل رسوم مالية رمزية [١٠]. وقد منح القانون مهلة ٦ أشهر لتسجيل الملكية في دائرة الطابو، فإذا لم تسجل الأراضي خلال هذه المدة فللحكومة حق طرحها في المزاد العلني ونزع ملكيتها [١١].

ـ عوائق تسجيل الأرض

لكن الفلاح الساذج البسيط كان يخشى هذا الإجراء المذكور الذي يقضي بوجوب تسجيل ملكية أرضه في دائرة الطابو مع أنه أتاح له ملكيته على أرضه بموجب صك رسمي، فقد أعتقد أن هذا الإجراء ما هو إلا خدعة حكومية هدفها:

١ـ فرض رسوم مالية وضرائب حكومية جديدة من ناحية، وتحصيل الضرائب المتراكمة المستحقة من ناحية أخرى.

٢ـ فخ حكومي لأجل تجنيدهم للعسكرية أولاً عمال السخرة المجانية، وسرعان ما انتشرت الإشاعات تذكي هذه المخاوف والشكوك...

• أيها الفلاحون ليس الكوشان إلا شركًا حكوميًا للإيقاع بكم!

---

(٩) م.س ص٤٢ وما بعدها.

(١٠) م.س ص٥٠ وما بعدها.

(١١) م.س ص٥٣.

• الحذار! الحذار! من المؤامرة التي حاكتها الحكومة بليل بهيم!

• القانون الجديد عبارة عن قضاء مستعجل وحبل مشنقة يوردكم موارد الهلاك!

٣ـ بالإضافة إلى المخاوف السابقة واجه قضايا تسجيل الأراضي الكثير من العراقيل، فلم تنفذ بشكل دقيق نتيجة لتقصير الجهاز الإداري العثماني الذي خصص لعملية التسجيل، فقد كان ينقص موظفي التسجيل النجاعة والخبرة والكفاءة ونظافة اليد.

٤ـ كما أن وجود المخاتير وشيوخ القرى ولجان التسجيل أدى إلى تفشّي الرشوة والمحسوبية فكان من الطبيعي أن يسجل المذكورون مساحات واسعة من الأراضي على أسمائهم دون معارضة.

٥ـ من ناحية أخرى فإن تعوّد الفلاحين على نظام المشاع كان عائقًا لإقدام هؤلاء الفلاحين على الاهتمام بقضايا التسجيل، خاصة إذا علمنا أن غالبية الأراضي الزراعية كان مشاعًا [١٢]. فلا عجب أن يشكل نظام المشاع عائقًا للتسجيل.

٦ـ كذلك أحجم كثير من الفلاحين عن تسجيل أراضيهم نتيجة لإفلاسهم وعجزهم عن تدبير رسوم التسجيل.

هذا فضلاً عن غرقهم حتى ذقونهم في الديون التي تحمل فوائد خيالية [١٣].

ويذكر أوهاجن أن أهالي قرية دير طريف قضاء رام الله، رفضوا تسجيل أملاكهم نتيجة للنفقات التي يتضمنها تسجيل الأراضي.

٧ـ ومن الجدير بالذكر أن البعض، وخاصة البدو، كانوا يرون في دعوتهم لتسجيل الأراضي انتقاصًا لكرامتهم، فهل لم يتعودوا على مثل هذه الأمور.

ويذكر عارف العارف أن البدوي، كان عندما يستدعي لتسجيل أرضه، يستل سيفه ويقول: «بهذا، لا بغيره، يؤيد الحق» [١٤].

وفي هذا المجال شاعت قصة في الشمال الفلسطيني، فعندما توجه مأمور الطابو إلى يوسف جرار شيخ آل جرار في قرية صانور، قضاء جنين، وطلب منه

---

(١٢) م.س ص٥٤.

(١٣) م.س ص٥٥.

(١٤) م.س ص٥٥.

تسجيل الأراضي، فما كان من الشيخ الجليل إلا أن أستل سيفه قائلاً: «هذا السيف هو طابور آل جرار» (١٥).

٨ـ بالإضافة إلى ذلك فإن طبيعة البدو والتنقل والترحال من منطقة لأخرى حسب المواسم لم يشجعهم على تسجيل أراضيهم.

وهناك بعض الحالات تظهر تخلي الفلاحين عن تسجيل أملاكهم. ففي قرية قطرة حيث وقعت عملية قتل في أحد حقولها، وقامت السلطات العثمانية باعتقال شيوخ القرية. وكانت الشبهة تدور حول مالك الأرض التي وقعت عليها الجريمة، وحتى يتجنب الفلاحون العقاب أنكروا ملكيتهم للأرض، فعمدت السلطات إلى تحويل ملكية هذه الأرض إلى قرية المير المجاورة. وقد حاول أهالي قطرة، عبثًا، استرجاع أراضيهم (١٦).

وكانت النتيجة النهائية تهرب الفلاحين من تسجيل أراضيهم بأسمائهم ولجأوا إلى إيقاف أراضيهم لبعض المؤسسات الدينية، لأن أراضي الأوقاف كانت معفاة من الضرائب والنتيجة ازدياد أملاك الأوقاف في فلسطين (١٧).

وعمد آخرون إلى تسجيلها بأسماء الأسر صاحبة الجاه والثراء والنفوذ، أو بأسماء أفراد متمولين أو تجار محليين أو شيوخ عائلات.

ويذكر محمد كرد على أن كثيرًا من القرى تنازلت عن أراضيها لأرباب النفوذ وأخذ القرويون ثمنها عباءات وغلايين أو قفة من البن أو رطلاً من التبغ أو أقة من البقلاوة (١٨).

واستفاد بعض شيوخ البدو من تهرب أصحاب الأراضي من تسجيل أراضيهم، فقاموا بتسجيل مساحات شاسعة من الأراضي بأسمائهم. وكانت السلطات تلجأ إلى طرح الأراضي، التي لم يسجلها أصحابها، بالمزاد العلني. فاستفاد المرابون من سكان المدن والقرى من ذلك، وقاموا بابتياع مساحات واسعة من الأراضي، وبأسعار رخيصة جدًا، تراوحت بين ٥ ـ ٢٥ قرش للدونم.

(١٥) م.س ص٥٦.
(١٦) م.س ص٥٦.
(١٧) م.س ص٥٥.
(١٨) خطط الشام جزء ٤ ص١٣٥.

٩ـ كما ساهمت مسألة التسليف والإقراض في فقد الفلاح أرضه بعد اضطراره لبيعها إلى كبار الملاك. وقد فقد كثير من الفلاحين أراضيهم نتيجة لتراكم الديون وعدم تمكنهم من تسديدها. فاضطر الفلاح للحصول على المال من أجل شراء البذار وسد نفقات العائلة، فأخوا يلجأون إلى المرابين لاقتراض الأموال لفترات قصيرة مدتها، من البيدر إلى البيدر بفائدة تتراوح ٤٠ ـ ٥٠ % في السنة (١٩).

وفي بعض الأحيان أن نظام التسليف الشائع في فلسطين هو: العشرة بخمسة عشر وكان معدل الفائدة ما بين موسمي البذار والحصاد (٥ ـ ٨ أشهر) تتراوح بين ٢٠ ـ ١٠٠ %.

وكان لا بد لكثير من الفلاحين، الذين يعتمدون على الاستدانة أن يتنازلوا عن أراضيهم للتخلص من الديون وفوائدها.

ويذكر غرانوت أنه في عام ١٨٨٠ بلغ عدد الفلاحين الذين تنازلوا عن أراضيهم بسبب الديون عشرة آلاف (٢٠).

وهكذا امتنعت الأغلبية الساحقة عن التوجه إلى دوائر الطابو لتسلّم الكواشين.

بحث الفلاح المسكين عن بديل يحمي به أرضه ويحافظ على ممتلكاته، فتوجّه متوسّلاً راجيًا النخب المحلية وأصحاب النفوذ والعلاقات ورؤساء العشائر وشيوخ القبائل أن يتفضلوا ويتكرموا ويقبلوا تسجيل الأراضي على أسمائهم، إلى أجل مسمى، لتبقى أمانة في أعناقهم يعيدونها لأصحاب في الوقت المناسب «واستجابت» هذه الشرائح «المتنفذة» وتكرمت بالتوجه إلى دوائر الطابو وسجلت أراضي الفلاحين المذعورين على أسمائهم، بعد أن دفعوا الرسوم، وبعد أن أغرقوا الموظف الحكومي المرتشي بذهب الرشاوى لييسر عملية النقل وهكذا تحولت الأراضي، بقدرة قادر وبجرة قلم الموظف المرتشي من ملكية الفلاحين إلى ملكية النخب المتنفذة. وقبل أن يجف المداد عن وثائق الملكية الجديدة كان المالك الجديد قد نسى أو تناسى، أن هذه الأراضي ليست ملكًا له، وإنما هي أمانة في عنقه، فاعتبر نفسه المالك القانوني صاحب حق التصرف

(١٩) حزماوي ص ٥٧.
(٢٠) Grannott : The Land system in Palestine p 59

المطلق فيها. وقد تكرر السيناريو الذي حدث للفلاح مع البدو حين تنازل أفراد القبائل عن ملكيتهم الخاصة وسجلوا أراضيهم على أسماء شيوخ عشائرهم.

ففي منطقة بئر السبع تم تسجيل ١٢ مليون دونم على أسماء شيوخ القبائل. أمّا الذين صمدوا وتجرّأوا وسجّلوا أراضيهم على أسمائهم في دوائر الطابو فقد أخذوا يعانون ظلم السلطات وتعسفها.

كان الفلاح مضطرًا إلى تحمل استبداد وعسف الجهاز الحكومي، القضائي والتنفيذي وذمته الواسعة وشهيته المفتوحة أبدًا للمال الحرام. فلقد بلغ فساد هذا الجهاز المرتشي حد التلاعب بالملكية العقارية الشخصية، ونقلها من شخص لآخر بعد القيام بتزوير الوثائق والمستندات.

أما الضائقة المعيشية فقد تزايدت، فبالإضافة إلى شح المحاصيل، وعبء الضرائب فرضت السلطات طريقة لتحصيل الضرائب القاسية. فلقد ضمنت جمع الضرائب لشريحة أطلقت عليهم اسم «الملتزمين» والطريقة «الالتزام» وبموجب هذه الطريقة يقوم الملتزم بضمان جمع الضرائب من قرية أو قضاء أو ناحية فيدفع للسلطة المبلغ المتفق عليه ويقوم هو بجباية ضريبة عالية تضمن رأس المال الذي دفعه للسلطة وربحه الشخصي. وقد بالغ أولئك الملتزمون باستبدادهم وتبلد مشاعرهم وبلغت قسوتهم واستهتارهم بأوضاع المكلفين، حتى وإن وصل الحد إلى سلخ الجلود وعصر القطرة الأخيرة من دمائهم.

والنتيجة استنزاف الفلاحين وإيقاعهم في هوة اليأس.

وكان على ذلك الفلاح إيجاد حل فوري للمشكلة المستعجلة: دفع الضرائب. فهو مضطر لتأمين أيّ مبلغ كان في أسرع وقت ممكن. ولكنه وجد جميع الأبواب موصدة في وجهه فمؤسسات الدعم والمساعدة مثل المصارف، التعاونيات، هيئات تصريف المحصول وجمعيات التسليف غير موجودة أصلاً.

أما الحكومة فهي أعجز من أن تقدم أية مساعدة لكونها عاجزة مفلسة.

كان على الفلاح أن يجد مصدرًا لتدبير المبالغ المطلوبة، المفروضة عليه.

وإلا ... فإن أرضه سوف تطرح للبيع بالمزاد العلني.

لم يتبقَّ أمامه إلا التوجه إلى المصدر الوحيد: المرابي الجشع، مصاص الدماء

الذي كان جاهزًا لتسليف المال، ولكن بفائدة فاحشة بلغ معدلها ٥% شهريًا، ولكنها وصلت في حدها الأقصى أحيانًا ٣٠٠% سنويًا، ولما عجز الفلاح عن دفع رأس المال والفوائد المتراكمة، تقدم المرابي للمحكمة بطلب سداد الدين.

وصدرت أوامر المحاكمة بطرح الأراضي في المزاد العلني ليبتاعها المرابون والصيارفة والأثرياء وسماسرة العقارات بأرخص الأثمان (٢١).

وكانت النتيجة لهذا الوضع المأساوي وخيمة.

١- هرب الفلاحين من أراضيهم وتبويرها.

٢- تحويل الأرض لملكية الشرائح الثرية المتنفذة.

ففي المجال الأول رفع الفلاح صاحب الأرض يده عنها، وتوقف عن فلاحتها وتركها منبتًا للشوك والدردار، أو مراع لقطعان مواشي البدو وأنعامهم.

ولم تتأخر الضربة التالية: فلقد سن قانون جديد هو قانون سنة ١٨٦٠م وينص على مصادرة كل أرض بورّت ثلاث سنوات وأكثر.

كما نص بند آخر على عدم السماح لأي كان أن يدعي ملكية أرض دون حيازته على كوشان. وأما من لا يملك مثل هذا الكوشان فيتوجب عليه استصدار واحد، وإلا فإن أرضه سوف تنتزع ملكيتها منه. وهكذا تحولت مساحات شاسعة إضافية من الأراضي لقمة سائغة في فم الحكومة لتتصرف بها كيف تشاء.

أما في المجال الثاني فتحولت الأراضي الفلسطينية من ملكية أصحابها الفلاحين إلى ملكية الحكومة أو أصحاب النفوذ والأثرياء، وانتقلت بذلك أراضي مرج عكا، مرج ابن عامر، سهل الحولة، السهل الساحلي بين مدينتي يافا وحيفا ومنطقة طبرية إلى ملكية تلك النخب البرجوازية الثرية (٢٢).

- ظهور شريحة المالكين الكبار الجدد

وتألفت من: السلطان عبد الحميد، عائلات عربية فلسطينية، عائلات عربية غير فلسطينية، مالكين أجانب، الحركة الصهيونية، مشتريات عائلة بيرغهايم ومونتفيوري ومالكين آخرين.

---

(٢١) כהן ע 46

(٢٢) حزماوي ص٨٥.

أ- أراضي السلطان عبد الحميد - الجفتلك - :

تملك السلطان عبد الحميد مساحات شاسعة من الأراضي الفلسطينية في مناطق: بيسان، أريحا، رفح، طبرية، مرج ابن عامر، الجليل الأدنى والأعلى (٢٣).

وقد بلغت مساحة أراضيه في منطقة غور بيسان ٥٠٠ ألف دونم. وكانت تلك الأراضي ملكًا لقبائل بدوية: البواطي، الزيناتية، الغزاوية والبشاتوة. ولما عجزت هذه عن دفع الضرائب صادرتها الحكومة وطرحتها للمزاد العلني فابتاعها السلطان عبد الحميد، ولكنه أبقى المزارعين يعملون فيها كأجيرين على القسم. وقد أطلق على أراضي السلطان الممتلكة «الجفتلكات السلطانية» أو «الأراضي المدوّرة» أو «الأراضي السلطانية».

ب- العائلات الفلسطينية:

أدى تهرب الفلاحين الفلسطينيين من تسجيل أراضيهم على أسمائهم إلى بروز شريحة من كبار ملاكي الأراضي في فلسطين. وقد تركزت بالأساس في المدن الكبيرة: القدس، غزة، يافا، حيفا، نابلس، طبرية، الناصرة، طولكرم، عكا، وغيرها من المدن الفلسطينية. بالإضافة إلى بعض القرى. وظهرت معظم العائلات الفلسطينية المالكة للأراضي بعد صدور قانون الأراضي العثمانية ١٨٥٨. وكان بعضها قد سبق وظهر في النصف الأول من القرن التاسع عشر نتيجة لنظام الالتزام: فعائلة أبو غوش كانت تتحكم بالأراضي الممتدة من البيرة حتى بيت لحم لتصل غربًا إلى السهل الساحلي ما بين الرملة وباب الواد. وفي منطقة الخليل كانت أشهر العائلات المتنفذة عائلة عمرو من قرية دورا، والعزة في بيت جبرين. وعبد الهادي في عرابة جنين وطوقان في نابلس وجرار في صانور (٢٤).

ولكن مع صدور قانون الأراضي المذكور أضيفت إلى ملاكي الأراضي عائلات جديدة. ويبين الجدول التالي توزيع الأراضي في مختلف أنحاء فلسطين على كبار المالكين سنة ١٨٥٩.

(٢٣) م.س ص٦٠.

(٢٤) م.س ص٦٠.

المنطقة	عدد المالكين	المساحة بالدونمات	معدل المساحة
القدس والخليل	٢٦	٢٤٠ ألف	٩,٣٢١
يافا	٤٥	١٦٢ ألف	٣,٦
نابلس وطولكرم	٥	١٢١ ألف	٢٤,٢
جنين	٦	١١٤ ألف	١٩
حيفا	١٥	٤١٤ ألف	١٩,٤
الناصرة	٨	١٢٣ ألف	١٥,٣٧٥
عكا	٨	١٥٧ ألف	٣١,٤١
طبرية	٦	١٧٣ ألف	١٢,١٧٦
المجموع ٢٤	١١٩	١,٥٠٤ ألف	٩,٧٥

أما الأسر الفلسطينية الإقطاعية التي كانت تمتلك مساحات واسعة من الأراضي فكانت أشهرها سبعة امتلكت ٣٧٠ ألف دونم وهي:

اسم العائلة	الموقع	المساحة بالدونم
الحسيني	القدس، أريحا، ومواقع أخرى	٥٠ ألف دونم
عبد الهادي	نابلس وجنين	٦٠ ألف دونم
التاجي الفاروقي	الرملة	٥٠ ألف دونم
الطيان	يافا	٤٠ ألف دونم
أبو خضرا	يافا وغزة	٣٠ ألف دونم
الشوّا	غزة	١٠٠ ألف دونم
الغصين (٢٥)	الرملة	٤٠ ألف دونم

(٢٥) م.س ص٦١.

بالإضافة إلى العائلات المذكورة برزت عائلات أخرى امتلكت مساحات واسعة من الأراضي حنّون - تل (طولكرم).

بيدس (الشيخ مونس).	الخليل (حيفا).
بيضون (عكا).	الفاهوم (الناصرة).
الطبري (طبريا).	جرار (جنين).
النمر (نابلس) [٢٦].	روك (يافا).

إن تسرب ملكية الأرضي من أصحابها الحقيقيين، وهم الفلاحون إلى الشرائح المتنفذة الجديدة كان مأساويًا، وإن لم يكن كارثيًا، فلقد بقيت الأراضي بملكية عربية فلسطينية على الأقل. ولكن الطامة الكبرى حلت حينما بدأت تتسرب تلك الملكية إلى أيد غير فلسطينية أبرزها:

أ. السلطان عبد الحميد.

ب. عائلات عربية غير فلسطينية.

ج. أفراد وعناصر أجنبية غير عربية.

د. الحركة الصهيونية [٢٧].

ج. العائلات غير الفلسطينية: السورية، اللبنانية، المصرية، والبهائية الإيرانية ولم يقتصر تسرب الأراضي الفلسطينية إلى أيدي كبار الملاك الفلسطينيين، السلطان عبد الحميد بل سرعان ما اقتحمت الساحة الفلسطينية عائلات ثرية متنفذة من بيروت ودمشق وأخذت تستثمر أموالها في ابتياع مئات الآلاف من الدونمات من الأراضي الفلسطينية، خصوصًا في شمال البلاد، بعد طرحها في المزاد العلني [٢٨].

وأشهر تلك العائلات على الإطلاق عائلة سرسق اللبنانية.

وقد حصلت على أول صفقة لها من الأراضي الفلسطينية سنة ١٨٦٩ حين ابتاعت ١٧ قرية من قرى مرج ابن عامر لحسابها وحساب الدائنين من ٣ عائلات لبنانية إضافية هي: بسترس، تويني، فرح.

(٢٦) م.س ص٦٣.

(٢٧) م.س ص٦٤.

(٢٨) م.س ص٦٦.

أما القرى فهي: جنجار، العفولة، خنيفس، تل الشمام، جباتا، تل النور، معلول، سمّونة، كفرتا، جيدا، بيت لحم، أم العمد، طبعون، قصقص، الشيخ بريك.

وقد امتلك نيقولا سرسق وحبيب بسترس ١٩ قيراطًا (الوحدة الكاملة ٢٤ قيراطًا) والتويني ٣,٥ ومتى وفرح ١,٥ قيراط. ثم ابتاع حصة سرسق بسترس وبعض الحصص الأخرى وأصبح المالك الرئيسي.

وبعد ٣ سنوات من الصفقة الأولى، وعلى وجه التحديد في ١٨٧٢ عقدت الحكومة صفقة بيع ثانية لسرسق والخوري، في القرى التالية المجدل الهريج، الحارثية، المأجور، الخريبة. واشترى سرسق ١٨ قيراطًا من الصفقة وسليم الخوري ٤ قراريط [٢٩].

ويقول أوليفانت [٣٠] الذي زار المنطقة في بداية الثمانينات من القرن ١٩ أن أشهر الظواهر الزراعية في فلسطين هي: بلا جدال، مرج ابن عامر.

وقد وقعت أراضي هذا المرج عام ١٨٧٢ بأيدي أحد الصيارفة ويدعى سرس فأصبح يملك ٧٠ ميلاً مربعًا من أجود أراضي فلسطين. وقد علمت أنه دفع ١٨ ألف جنيه ثمنًا لهذه الأراضي. وقد ذهب منها إلى خزينة الدولة ٦ آلاف جنيه فقط. أما الـ ١٢ ألف جنيه المتبقية فقد اختلسها كبار الموظفين الأتراك.

وتحول بذلك الفلاحين من ملاكي أرض إلى عمال أجيرين. وقد بلغ عددهم ٥ آلاف فلاح من ٣٠ قرية [٣١]. ويشير أوليفانت [٣٢] إلى سلطة سرسق ودكتاتوريته وتعسفه وإرهابه للفلاحين بأنه لم يجد وسيلة لحمل الأهالي على الاستجابة لطلباته إلا بالتلويح باسم سرسق، «وأقول ضمنًا أنه كان لي الشرف التعرف إليه. ولا يوجد أي كان يمارس سلطته الاستبدادية على رعاياه وعلى حياتهم أكثر من تلك السلطة التي يمارسها هذا المالك المليونير الذي يسعى كل عام لضم أراض جديدة له حتى أصبح محتمًا وقوع منطقة الجليل جميعها بيديه».

(٢٩) م.س ص٦٧.

(٣٠) أوليفانت لورانس : م.س ص٣٢٧.

(٣١) حزماوي ص٦٧.

(٣٢) أوليفانت لورانس : م.س ص٢٥١.

وكان يجني أرباحًا طائلة من المحاصيل التي يزرعها في مرج ابن عامر، وقد قدرت بـ ٢٠ ألف جنيه سنويًا، ويقول أوليفانت أنه سمع أنها تبلغ أحيانًا ٤٠ ألف جنيه.

وكان الفلاحون الذين استمروا بالعمل في أراضي سرسق كمزارعين أجيرين يدفعون عشر المحصول لسرسق، بالإضافة إلى عشر مجيديات عن كل فدان.

وقد كان على الفلاح المسكين أيضًا سداد عُشْر المحصول ضريبة حكومية وسداد فوائد الديون التي استدانها من سرسق [٣٣]. ويطالب أوليفانت (نفسه ص ٣٢٩) بالاستفادة من المثال الذي قدمه سرسق إياه فيقول: «...ومن المهم أن نلاحظ أن النجاح العظيم الذي حققه سرسق يعود إلى استخدام الأيدي العاملة المحلية. وإنه ربط الفلاحين معه كشركاء على قاعدة حولتهم إلى عبيد عمل يعتمدون عليه اعتمادًا مطلقًا.

بالإضافة إلى عائلة سرسق تملكت عائلات لبنانية وسورية أخرى أراضي واسعة في فلسطين مثل عائلات: العمري، والطيان، سلام، المطران، تويني، مدوّر، بسترس، الخوري، فؤاد، سعد، متى، فرح، جاعون، شامات، فضل، العكراوي، سالوم، بازو، القباني، شهاب، فرنسيس، دبكي، شام، فرحات، مارديني، بازة، الأسعد، دكروب، العويني وغيرهم.

إضافة إلى ذلك تملكت عائلات إيرانية مثل عائلة بهائي إيراني ومصرية مثل عائلة شديد مساحات شاسعة من الأراضي الفلسطينية [٣٤].

وبالإجمال يمكن القول إن مساحة فلسطين الإجمالية ٢٦٣٢٦٠٠٠ دونم: ثلثها صالح للزراعة وثلثها عبارة عن جبال وأودية وكثبان رمال وأراضي وعرة ومستنقعات وأراضي موات. والعائلات المتنفذة تملكت:

أ- ٤,٥ ميلون دونم بين مدينتي غزة وبئر السبع.

ب- وآخرون تملكوا وادي الحوارث بين مدينتي الخضيرة ونتانيا اليوم بمساحة ٣٠ ألف دونم.

---

(٣٣) حزماوي ص ٦٨.

(٣٤) م.س ص٦٩.

ج- وغيرهم ٦٤٠ ألف دونم في السهل الساحلي الشمالي.

د- وآخرون ٤٠٠ ألف دونم في مرج ابن عامر.

وكان لهذا الأمر عواقبه الوخيمة لاحقًا، فإن معظم الأراضي التي ابتاعتها الحركة الصهيونية كانت ملكًا لأولئك الملاكين.

هـ- المالكون الأجانب - رعايا الدول الأجنبية - الهيكليون الألمان - عائلات وأفراد وعناصر أجنبية غير عربية.

كذلك سارع أجانب إلى ابتياع أراضي عربية فلسطينية. فقبل صدور قانون تملك الأجانب لسنة ١٨٦٠م لم يكن بمقدور أي شخص أجنبي أن يبتاع أراض فلسطينية. وكان كل ما تمتع به أولئك الأجانب الاستظلال بظل الامتيازات [٣٥].

ولكن مع ازدياد ديون الدولة العثمانية وخضوعها لضغوطات وإملاءات الدول الأوروبية صدر قانون يسمح للأجانب (أفرادًا ومؤسسات وشركات) في التملك وابتياع الأراضي في كافة أرجاء البلاد. استغلت الدول الأوروبية القانون الجديد فشرعت تبعث رعاياها إلى فلسطين وتعمل على ابتياع الأراضي وإقامة المستوطنات. كذلك شمّرت الكنائس الأوروبية عن أيديها وشرعت بابتياع الأراضي. وأخيرًا قدِمَ الهيكليون الجدد الألمان، وابتاعوا الأراضي وأقاموا عليها ٤ أحياء ألمانية تابعة للمدن و٣ مستوطنات زراعية.

- عائلة بيرغايهم الألمانية اليهودية:

كذلك تم ابتياع أراض فلسطينية من قبل عائلات وأفراد أجانب. وكانت أكبر تلك العائلات عائلة بيرغهايم اليهودية الألمانية وهي من كبار التجار والمصرفيين اليهود وتتمتع بالحماية الألمانية. وقامت في ١٨٧٢من بابتياع أراضي من قرية أبو شوشة (منطقة الرملة) بلغت مساحتها ٥٠٠ فدان بمبلغ ٤٠ ألف قرش من الدولة بعد أن عرضتها هذه بالمزاد العلني لعجز الأهالي عن دفع الضرائب[٣٦].

هـ- مشتريات الحركة الصهيونية:

كان أهم من كل المشتريات الأجنبية هي مشتريات الحركة الصهيونية وتغلغلها ومشروعها في ابتياع الأراضي العربية الفلسطينية في ظل الامتيازات الأجنبية.

---

(٣٥) م.س ص٦٩.

(٣٦) م.س ص٧٢.

- **انتشار المستوطنات اليهودية على الأراضي المشتراة**

وتبع ذلك إنشاء مدرسة مكفة يسرائيل التي أقيمت على أراضي قرية اليازور العربية على مساحة ألفي دونم، بعد أن تم استئجارها لمدة ٩٩ سنة بأجرة سنوية قدرها ١٨٠٠ فرنك ذهب فرنسي. ثم تبع إنشاء مستوطنة بيتح تكفا على أراضي قرية ملبس في منطقة يافا على مساحة ٤ آلاف دونم. وتم ابتياع الأرض من تاجرين يافويين: سليم القصار وأنطون الطيان. تطورت المستوطنة في وقت لاحق وأضافت إلى ممتلكاتها ٨٥٠٠ دونم من أراضي قرية العباسية العربية.

وفي سنة ١٨٨٢ أنشئت ريشون لتسيون على مساحة ٢٣٤٠ دونم من أراضي القرية العربية عيون فارة. وفي السنة ذاتها أنشئت مستوطنة زخرون يعقوب على مساحة ٦ آلاف دونم من أراضي قرية زمارين العربية. وقد أن هذا غيض من فيض، ولم تلبث الحركة الصهيونية أن انقضت لابتياع الأراضي والاستيطان.

ظهرت الحركة الصهيونية بشهيتها المنفتحة للأرض فسارعت بتقديم العروض المالية السخية المغرية وبدأت عمليات ابتياع الأراضي التي شملت الصفقات العملاقة بين الحركة الصهيونية والمالكين الكبار الجدد الغائبين. وكانت السباقة في هذا المضمار عائلة سرسق البيروتية فباعت في منطقة مرج ابن عامر مساحات شاسعة من الأراضي على ٣ دفعات [٣٧].

- أولها صفقة أراضي مساحتها ٣٦٥٠٠ دونم.
- والثانية مساحتها ٥٠ ألف دونم.
- والثالثة مساحتها ٨٠ ألف دونم.

وتبعتها عائلة التويني فباعت للحركة الصهيونية أراضي من مرج عكا بلغت مساحتها ٨٠ ألف دونم.

أما سليم العمري وأخوانه من دمشق فباعوا ١٦ ألف دونم، من منطقة طبرية والجليل الشرقي [٣٨].

---

(٣٧) دباغ ج ١٠ ص ص ٥٠ – ٥٢

(٣٨) دباغ ج ١٠ ص ص ٥٠ – ٥٢

وعائلة القباني اللبنانية باعت مساحات شاسعة من الأراضي على دفعتين: [٣٩]

الصفقة الأولى ١٠ آلاف دونم في منطقة يافا.

الصفقة الثانية ٣٠ ألف دونم من وادي الحوارث [٤٠].

وعائلة قصار باعت ٤ آلاف دونم من أراضي القرية العربية أملبّس.

وعائلات بسترس، أسعد وفرح باعت أراضي في منطقة عكا. وعائلة سلام باعت مساحات [٤١] شاسعة من الأراضي في منطقة الحولة. ويلاحظ أن البيوعات المذكورة جرت في وسط فلسطين (لواء السامرة) وشمالها (لواء الجليل)، وأهمها بيوعات وادي الحوارث ومرج ابن عامر، لأنهما تابعان إداريًا لولاية بيروت حيث كانت العائلات المذكورة تتمتع بالجاه والنفوذ والصلات القوية مع السلطة. ولا شك أنه مما ساعد على تنفيذ هذه الصفقات كانت النظرة التي صنّف فيها الملاكون الجدد الأراضي. فلقد اعتبروها صفقات تجارية وسلع عادية تباع وتشترى حسب مردودها المادي، ولا قيمة دينية أو قومية أو وطنية أو تاريخية أو عاطفية لها.

أما الحركة الصهيونية فقد انقضت على هذه الفرصة الذهبية فتملكت الأراضي في منطقة مرج ابن عامر والسهل الساحلي (بما فيه وادي الحوارث) وغيرها. وفي حقيقة الأمر كان لتكالب الحركة الصهيونية على ابتياع الأراضي في فلسطين ما يبرره: فقد كانت الحركة موقنة أنه بدون تملك الأرض يستحيل تحقيق المشروع الصهيوني.

فكيف يمكن استيعاب آلاف المهاجرين اليهود؟

وكيف يمكن تأمين مصادر الرزق لهم؟

وكيف يمكن توطينهم وإسكانهم في البلاد؟

ويمكن تلخيص ظاهرة بيع الأراضي العربية للحركة الصهيونية بأنه على الرغم من القيود والعراقيل التي وضعتها الحكومة العثمانية على انتقال الأراضي الفلسطينية لملكية صهيونية، ورغم مقاومة العرب المحليين في فلسطين، فإن

---

(٣٩) دباغ ج ١٠ ص ص ٥٠ – ٥٢

(٤٠) منطقة الخضيرة – نتانيا وتسمى اليوم عميق حيفر עמק חפר

(٤١) Stein : ibid p 21-26

الحركة الصهيونية نجحت أن تمتلك حتى سنة ١٩١٧ أكثر من ٤٢٠ ألف دونم موزعة على ٥ مناطق هي:

١- الجليل الأعلى الشرقي.

٢- الجليل الأسفل الشرقي.

٣- منطقة الخضيرة - زخرون يعقوب.

٤- منطقة بيتح تكفا وكفار سابا.

٥- منطقة القدس.

وقد تم ابتياع معظم الأراضي إمّا من كبار ملاكي الأرض بعضهم من عرب فلسطين وبعضهم من سكان الدول المجاورة والباقي من الأجانب والأوروبيين.

ويجمل هيليل كوهين في كتابه «جيش الظلال - צבא הצללים - ص٣٠ والملاحظة رقم ٥٥ ص ٢٩٣» - المشتريات الصهيونية الكبيرة في الفترة المذكورة كالتالي:

١- سنة ١٨٨٠ تمّ ابتياع الأراضي التي أقيمت عليها نس تسيونة.

٢- سنة ١٨٨٢ تمّ ابتياع أراضي زخرون يعقوب من قنصل فرنسا في حيفا.

٣- سنة ١٨٨٢ تمّ ابتياع أراضي غديرا - גדרה

٤- سنة ١٨٩١ تمَّ ابتياع أراضي الخضيرة - חדרה - (٣٠ ألف دونم) من مالك محلي اسمه سليم الخوري.

٥- ابتياع أراضي قبيلة الدلايكة (أقيمت عليها مستوطنات يفنئيل יבנאל-، دغانيا דגניה أ - وكنيرت כנרת) من شيخ القبيلة الذي هاجر إلى الأردن.

٦- سنة ١٩٠٢ ابتياع أراضي من عائلة سرسق (١٠آلاف دونم) أقيمت عليها مستوطنة مناحمية - מנחמיה -.

٧- سنة ١٩٠٢ ابتياع أراضي من عائلة بيضون من عكا، أقيمت عليها مستوطنة بنيامينه - בנימיה -.

٨- سنة ١٩١٠ ابتياع الأراضي التي أقيمت عليها مستوطنة المجدل - מגדל.

٩- أما في الجليل الشرقي فتم ابتياع أراضي شاسعة في المنطقة الواقعة غرب بحيرة طبريا. وتمَّ عقد الصفقة بين مندوبي الحركة الصهيونية وأحفاد الأمير عبد القادر الجزائري.

و- مشتريات مونتفيوري:

وكانت بداية ابتياع الحركة الصهيونية للأراضي العربية في فلسطين عام ١٨٥٥ حين شرع مونتفيوري بعملية ابتياع أراضي بعد أن أصدر السلطان عبد الحميد فُرمانًا يسمح بابتياع الأراضي، فابتاع أرضًا في مدينة القدس أقام عليها حي مونتفيوري وابتاع أرضًا في موتسا غرب القدس أيضًا.

ز- مشتريات مالكين آخرين :

ويذكر أنه لم تقتصر بيوعات الأراضي على المالكين الغائبين، بل انضم إليه مالكون أجانب، فرنسيون، إنجليز، إيطاليون، أرمن، يونانيون وأمريكيون.

مع ذلك لم يكن بإمكان هذه البيوعات العربية لأجسام أجنبية، مثل الحركة الصهيونية وأفراد أجانب، لتغيير الوضع العام للملكية العقارية، وخاصة ملكية الأرض، في فلسطين وتحويلها إلى ملكية أجنبية، فإن النسبة المئوية العالية لملكية تلك الأراضي كانت بحوزة عرب فلسطين. وقد توصل إلى معرفة هذه الحقيقة تيار صهيوني جديد، وهو تيار الصهيونية - السياسية، ومنظره ثيودور هرتسل.

رأى هرتسل أنه من غير المجدي، بل من شبه المستحيل الاستمرار في عمليات الابتياع التدريجي للأراضي العربية، فدعا في «صهيونيته السياسية» إلى التخلي عن هذا التوجه وشدّد على عبثية شراء دونم عربي هنا ودونم عربي هناك. وقال بتحويل فلسطين إلى وطن قومي يهودي دفعة واحدة. وهذه هي صفقة العمر له وللصهيونية. وقال إن ذلك الأمر لن يتم إلا بمباركة وإشراف وتبني دولة أو دول عظمى لمشروع إقامة الوطن القومي اليهودي على التراب الفلسطيني.

وإذا لخصنا أوضاع الفترة المذكورة نتوصل إلى الحقائق التالية:

١ـ المستوطنون والمستوطنات اليهودية اصطدمت بالمشاكل والعقبات التي كانت أكبر بكثير من قدراتها وطاقاتها.

٢ـ ملايين روتشيلد لم تجد ولم تنقذ اليشوف اليهودي في فلسطين من ضائقته وأصبح المشروع الصهيوني على وشك الانهيار.

ولكن في اللحظات الأخيرة جاء الفرج وأنقذ الحركة الصهيونية من مصير محتوم، وذلك بظهور نوع جديد من الصهيونية وهو جديد في توجهه شديد في اندفاعه ومتميز في شبابه وهو الصهيونية السياسية التي جاء بها هرتسل.

الفصل الثامن

هرتسل : أبو الصهيونية السياسية

توجه صهيوني جديد :

لا للصهيونية الطلائعية العملية

ونعم لدولة أو دول عظمى تتبنى المشروع الصهيوني وتكون عرابة له

شكّلت سنوات الثمانين من القرن التاسع عشر م منعطفًا حادًا في تاريخ اليهود. فقد تميزت بحدثين كان لهما أبعد الأثر في مستقبل ذلك الشعب.

فمن ناحية، أثار اغتيال القيصر ألكزاندر الثاني عام ١٨٨١م موجة عارمة من العداء لليهود في شرق أوروبا ووسطها. الأمر الذي ولد الحركة الصهيونية في صيغتها الطلائعية بمركباتها الثلاث، محبة صهيون، البارون روتشيلد وشركة يكا.

من الناحية الأخرى، أثارت محاكمة درايفوس في فرنسا موجة عاتية من اللا سامية في غرب أوروبا، الأمر الذي ولد الصهيونية السياسية ومنظرها ثيودور هرتسل، كما تمخض، في وقت لاحق عن الدولة اليهودية [٤٢].

وقد تشابهت هذه الصهيونية السياسية بسابقتها الصهيونية الطلائعية بالاتفاق على الهدف: وهو إقامة الدولة اليهودية على التراب الفلسطيني. ولكنهما اختلفا في آلية التنفيذ. فالصهيونية الطلائعية كانت ميدانية عملية تطبيقية آلتها ابتياع الأراضي العربية وإحلال اليهود مكان العرب بعد إقامة مستوطنات يهودية. فهي إذن عملية محلية ميدانها فلسطين، وإقامة الدولة تنفذ بالتدريج والتقسيط. أما الصهيونية السياسية، وصاحبها هرتسل فآلتها التحرك السياسي الدولي العالمي وإقامة الدولة المنشودة دفعة واحدة وبمرسوم ورعاية دولية.

▪ ثيودور هرتسل (١٨٦٠–١٩٠٤م)

كان هرتسل هنغاري الأصل من مواليد مدينة بودابست، ولد سنة ١٨٦٠م لعائلة يهودية ميسورة الحال. انتقل مع عائلته إلى فيينا العاصمة النمساوية حيث التحق بجامعتها، في كلية الحقوق وتخرج منها عام ١٨٨٢م.

بعد تخرجه أحجم عن مزاولة المحاماة، رغم أنه حصل على شهادة الدكتوراه في القانون، وامتهن الصحافة والأدب وتخصص في النقد المسرحي.

وفي عام ١٨٩٠م عمل بالصحيفة الفيِنِية «فريه برسّي» (الصحيفة الحرة).

ويمكن تلخيص حياته قبل أن يعتنق الصهيونية بأنه كان منقطعًا عن الديانة

---

(١) صحيفة هآرتس הארץ عدد ١٨ آيار مايو ٢٠٠٥

اليهودية، غريبًا عن المجتمع اليهودي ومشاكله، جاهلاً بأمور الشريعة اليهودية. ورغم أنه كان ضليعًا ومتملكًا لناصيتي اللغتين الألمانية والفرنسية إلا أنه كان على جهل مطبق باللغة العبرية. لقد كان رجل فكر علماني أممي غريب عن اليهودية. وبعد أربع سنوات أوفدته الصحيفة إلى باريس ليعمل مراسلاً لها هناك. فقام بتغطية محاكمة درايفوس.

ـ هرتسل ومحاكمة درايفوس

كانت المحكمة نقطة تحول في حياته. فقد كان قبلها علمانيًا من دعاة الاندماج، بعيدًا كل البعد عن الديانة اليهودية. فقد نشأ على الثقافة الألمانية العلمانية فأعتنقها. وكان يرى أن على اليهود إما اعتناق المسيحية بصورة جماعية، أو الالتحاق بالتيارات الاشتراكية [٤٣]. وقد نفي في هذه المرحلة، أن يكون اليهود شعبًا يشكل قومية مستقلة، كتب: إذا عاد اليهود إلى البيت لاكتشفوا، صبيحة اليوم التالي، أنه ليس ثمة شيء يربط بينهم، فلقد ترسخوا خلال هذه القرون الطويلة في دول جديدة حيث أقاموا.

إلا أنه بعد المحاكمة بدأ يدعو للصهيونية والدولة اليهودية.

في البداية عبر عن توجهه العلماني الاشتراكي الاندماجي وتحفظه من الدين في سلسلة من اللقاءات والتصريحات. فقد قال للحاخامين الأكبرين ليهود إنجلترا وفرنسا «أنني لا أعتمد إطلاقا على أي عامل ديني».

وفي مناسبة أخرى رد سؤال: ما علاقتك بالتوراة؟

أجاب: «أنا مفكر حر ... وكل إنسان يبحث عن خلاصه بطريقته الخاصة».

وقال في موضع ثالث عن أرض الميعاد في رسالته المواجهة إلى مجلس أسرة روتشيلد يمكنني أن أخبركم كل شيء عن أرض الميعاد، عدا عن المكان الذي سوف تكون فيه من الكرة الأرضية. إن اختيار هذا المكان سوف يخضع لاعتبارات علمية تأخذ بالحسبان العوامل الطبيعية والجيولوجية والمناخية [٤٤].

ففلسطين لم تكن تمثل لديه أية دلالة وطنية، دينية أو تاريخية، وقيمتها الحقيقية تكمن في أنها تتيح لليهود استغلال أسطورة مترسخة قديمة.

(٢) شوفاني ص ٣٢٨ وناجي طلال ١٩

(٣) جارودي ص٤٤١ و م.س ٣٧

وفي ١٣ حزيران - يونيو ١٨٩٥م، حين تشكلت «جمعية اليهود» كتب:

«دعنا ندع إلى عقد مؤتمر لعلماء جغرافيين يهود لنحدد، بمعاونتهم، المكان الذي سوف نهاجر إليه ... وأنا، من حيث المبدأ، أقبل بفلسطين قبولي بالأرجنتين» [٤٥].

وفي حديث له مع زانغويل سخر من نقاء العرق اليهودي «أنا لا أستطيع تقبل مفهوم نقاء العرق اليهودي. ويكفي أن أرى الفروق في ملامح وجوهنا. نحن نعتمد على وحدة تاريخية ونحن أمة تضم سلالات بشرية متنوعة. وهذا وحده غير كاف لإقامة دولة يهودية. وليس هناك أمة صافية العرق» [٤٦].

كما أن هرتسل يسخر أيضًا من كافة الروايات النبوئية والغيبية الخاصة بفلسطين. وهو لا يهتم إلا بتلك الروايات الدينية التي تبرر الاستيطان.

وقد جاءت محاكمة درايفوس لتحوله عن أفكاره وتوجهاته، فقد أصبح يرى في اليهودية عاملاً وظيفيًا حاسمًا في تجميع اليهود وتوحيدهم وجمع كلمتهم وإعدادهم نفسيًا لتقبل الدعوة الصهيونية. فأخذ يؤكد على أهمية الدين وضرورة الاستفادة منه وتسخيره لخدمة أهداف الصهيونية وقال: «إن واجب الحركة الصهيونية استغلال الدين وتجييره لصالحها، فكان منطلقه في هذا الشأن «الدين في خدمة السياسة».

بالإضافة إلى قصر الرسالة الدينية اليهودية على الفائدة الوظيفية لم يكن هرتسل يعرف التوراة واللغة العبرية، فلغة التعبير لديه: الكتابية والشفهية كانت الألمانية. وقد ظل على جهل مطبق بالعبرية حتى يوم وفاته. ويروي أنه حين وقف خطيبًا في إحدى المناسبات وهتف بشعار الالتزام بعدم نسيان أورشليم كتبوا له الكلمات العبرية بحروف لاتينية ليقرأها على الجمهور [٤٧].

وقد دأبت الأدبيات الصهيونية على تمجيد هرتسل وتعظيم مزاياه فعرضته بصورة أقرب إلى المثالية، فهو أشبه ما يكون بالنبي صاحب الرسالة، أو المهدي المبشر بالخلاص. ولكن الأبحاث الحديثة تظهره بصورة أبعد ما تكون

(٤) شوفاني ص٣٢٨

(٥) صحيفة هآرتس הארץ عدد آذار – مارس ٢٠٠٥

(٦) ص ٣٢٨

عن تلك المثالية:

فـ هرتسل كان يكره مدينة القدس واقترح تدويلها.

كما دعا أن تكون اللغة الرسمية في «دولة اليهود» الألمانية.

وقد تنصر ابنه وانتحر، وابنته أدمنت تعاط المخدرات.

وكانت زيارته لفلسطين ومدينة القدس بائسة.

وحتى بنيته الجسدية حاولت المصادر المذكورة تزييفها فأظهرته بشكل الشخص طويل القامة ممشوق القوام، في حين لم يتجاوز طوله ١٦٥ سم (٤٨).

- الفكر السياسي لـ هرتسل

يمكن تلخيص الفكر السياسي لهرتسل فيما يتعلق بالمسألة اليهودية في النقاط التالية:

١ - المشكلة اليهودية تمخضت عن الحركة اللاسامية فكانت الرد والجواب عليها.

٢ - استحالة حل المسألة اليهودية في الإطار الأوروبي.

٣ - والحل يكمن في تأمين وطن قومي لليهود على بقعة ما من الكرة فالأرض الموعودة فلسطين لا تهمه بشكل خاص، فهو يقبل بأوغندا أو طرابلس أو قبرص أو الأرجنتين أو موزنبيق أما السبيل لتحقيق ذلك الهدف فتكمن في إيقاظ الوعي القومي اليهودي وتحويل اليهود عن التيار الاندماجي إلى التيار القومي.

وقد نشأ هذا التيار المذكور في بيئة القوميات الأوروبية فتأثر بها ونهج على منهاجها، وعليه فإن الصهيونية السياسية عقيدة قومية لم تولد من صلب الدين اليهودي، بل هي من نتاج القومية الأوروبية في القرن التاسع عشر. ولم ينتسب هرتسل إلى الدين وقد كتب في يومياته «إنني لا انقاد إلى أي وازع ديني» وقد شدد هرتسل على التفريق بين اليهودية كدين وعقيدة وقومية فقال «إن المسألة اليهودية بالنسبة لي ليست مسألة اجتماعية ولا دينية إنها مسألة قومية. وقد علقت صحيفة الواشنطن بوست في ١٣ أكتوبر ١٩٧٨: الصهيونية قضت أن يصبح الشعب اليهودي كيانًا قوميًا. وهذه هي الهرطقة. وقد أبرز ذلك في عنصرين:

(٧) הארץ 18 מרץ 2007

أ. النظرة القومية المتعصبة التي لم تكن إلا تجاوبًا مع الفكر القومي الشوفيني الذي عم أوروبا في الفترة المذكورة مقدسًا التاريخ والجغرافيا، العرق والوطن.

وعن العرق قال هرتسل «أن اليهود، وهم الأعلون ماديًا وأدبيًا قد فقدوا شعورهم بالترابط الجنسي. وأن هؤلاء اليهود الأقوياء سوف يعودون فخورين عندما يتفجر الاضطهاد» (٤٩).

أما عن الوطن فإنه حدد مكانه في أول الأمر في أية بقعة تحت الشمس ثم انتقل إلى تحديد مكانه: فلسطين بالذات. فقال: إن فلسطين هي وطننا التاريخي الأبدي. وهذا الاسم وحده سوف يشكل صرخة التجمع القومي لشعبنا (٥٠).

ب. النظرة الاستعمارية التي تتلخص في:

١ - الوطن الأوروبي قد ضاق بساكنيه والتزايد السكاني قد فاق الطاقة الاقتصادية للبلاد الأوروبية، والضرورة توجب البحث عن «أوطان جديدة»، مجال حيوي جديد، الأمر الذي لا يعني إلا البحث عن مستعمرات وراء البحار.

٢ - أما التغطية الأخلاقية لهذا الاستعمار فهي أن شعوب المناطق المستعمرة ليست إلا عبارة عن مجموعات من البرابرة المتوحشين. وأن مسئولية دول أوروبا المتحضرة هي تمدين وتحضير هؤلاء البرابرة وتعريفهم بالدين الحقيقي. وهذا هو ما أطلق عليه شاعر الاستعمار الأكبر الإنجليزي روديار كبلينج «عبء الرجل الأبيض» (٥١).

أما هرتسل فقد وافق على هذا الطرح وقال: «إن المهمة للدولة اليهودية المقترحة تتلخص في كونها مخفرًا أماميًا للحضارة الغربية في مواجهة شعوب المنطقة المتخلفين وتأمين التواصل مع دول أوروبا الإنسانية المتحضرة». أما مسئولية تلك الدول فتتلخص في المحافظة على هذا المخفر الأمامي وتأمين استمرار بقائه ووجوده لأن أمن تلك الدول لا يتحقق إلا بأمن هذا الكيان الذي

(٨) جارودي ص ٢٨٥

(٩) م.س ص٢٨٦

(١٠) R. Kipling : The white man's burden

يشكل الحاجز المنيع الذي يحمي أوروبا في مواجهتها مع البربرية الشرقية (٥٢).

ولم يفتأ هرتسل من تكرار مقولة الاستعمار الأوروبي: فقد أكد في الخطاب الذي ألقاه سنة ١٨٩٩م أن اليهود شعب مستعمر بطبيعته، وهم كانوا دومًا شعبًا كولونياليا، وقد أسهموا بقسط كبير في استعمار مناطق خارج الأوطان الأوروبية.

وقد حاول هرتسل اقتناع أرباب الصناعة ورؤوس المال اليهود باستعمار فلسطين فخاطبهم قائلاً: «في تلك البلاد تصنعون لأوروبا المواد الخام المجلوبة من مستودع آسيا الكبير» (٥٣).

كذلك تأثر هرتسل بنظرة الاستعمار الاستعلائية لشعوب المناطق المستعمرة، فقال: بالنسبة للسكان المحليين الذين يقطنون المنطقة التي ستمنح لليهود، فإنهم سوف يستفيدون بدورهم من الدولة اليهودية لأنها سوف تحمل جزءًا من ثمرات أوروبا وحضاراتها إلى آسيا المتخلفة وسكانها المتأخرين. وهو جزء من مسئولية الرجل الأبيض.

وقد تدرج هرتسل في نظرته للسكان المحليين في فلسطين من إمكانية استيعاب بعضهم، كما عبر عن ذلك في كتابه «دولة اليهود» (انظر لاحقًا) إلى تجاهل وجودهم ثم إلى إمكانية استعبادهم ثم اقتلاعهم وترحيلهم في عملية ترانسفير جماعي. وفي كتابه «دولة اليهود» تجاهل السكان المحليين من ناحية، ولكنه من الناحية الأخرى كتب للعين العربي الفلسطيني يوسف ضيا الخالدي سنة ١٨٩٩م: إن الصهيونية لا تشكل أي تهديد للوجود العربي، لأنه ليس في نيتها طرد العرب، بل على العكس من ذلك فإن اليهود النشيطين سوف يساهمون في تطوير العرب وتحقيق رفاهيتهم ومصالحهم. ولم تكن هذه الالتفاتة إلا جنوحًا استراتيجيًا عن فكرة الاستعماري فقال:

«بماذا تشبه عملية التفتيش عن الذهب في الترانسفال (جنوب أفريقيا)، حيث يشرف علماء طبقات الأرض ومهندسون على عملية تصنيع الذهب دون أن يتركوا أي شأن، مهما صغر، للصدف. هكذا نحن يجب أن نقوم بدراسة أرضنا

(١١) جارودي ص٣٢٩

(١٢) بديري ص٩٦

الجديدة ونمتلكها بالوسائل العصرية المرنة. وبهذه الوسائل نتمكن من احتلال البلاد ونؤسس دولة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً».

ويقول في مكان آخر: «وإذا ما انتقلنا إلى منطقة ما لم يعتد عليها اليهود وهي تعج بالحيوانات المفترسة، والأفاعي الكبيرة وغير ذلك فسوف نقوم باستخدام سكان البلاد، قبل ترحيلهم إلى بلاد أخرى، للقضاء على تلك الآفات» (٥٤).

وفي مكان آخر يقول: «لا يتم إنشاء الدولة الآن بالأسلوب ذاته الذي كان يستخدم قبل ألف سنة. فمن الغباء العودة بمستوى الحضارة إلى الخلف كما يقترح الكثير من الصهيونيين. فلنفترض، على سبيل المثال، أننا أجبرنا أن نخلي بلدًا ما من الوحوش، فيجب علينا أن لا نقوم بهذا العمل وفقًا لأسلوب الأوروبيين من القرن الخامس عشر، كأن نأخذ الرماح ونذهب وحيدين للبحث عن الدببة، بل يجب علينا تأليف جمعية صيد كبيرة نجمع فيها الحيوانات كلّها معًا ونلقي في وسطها القنابل القاتلة».

أما عن الترانسفير السكاني فكان يلمح إليه بين الفنية والأخرى، يتناساه مدة ثم يعود فيتذكره أخرى، ففي سنة ١٨٩٥ كتب:

«في الأماكن الجديدة التي سنقوم باستيطانها سوف تنفذ عملية تهجير تدريجية. ولسوف نبذل جهودنا لترحيل السكان المعدمين إلى ما وراء الحدود. دون أن نلفت نظرهم إلى هذا الأمر».

ثم يقترح الوسيلة التي يتم إقناعهم بها للرحيل، دون لفت نظرهم!

«نخلق لهم أماكن عمل ومصادر رزق في البلاد الجديدة التي سوف ينتقلون إليها، وفي نفس الوقت نضيق سبل العيش في وجوههم ونغلق أبواب العمل في مناطقنا أمامهم».

وفي ميثاق شركة الأراضي اليهودية اقترح أن تخوّل الدولة سلطة تهجير السكان المحليين. وفي أماكن أخرى اقترح مشروع ابتياع أراضي وترحيل الفقراء بحيث يتم ذلك بالحسنى واللين والإقناع، وبعد دفع تعويضات لهم.

ويمكن تلخيص طروحات هرتسل الاستعمارية في سطر واحد كتبه: «لتمنح لنا

(١٣) مجهول ص٣٨ شوفاني ص٣٢٩

السيادة على منطقة جغرافية من مناطق العالم تكون كافية لسد حاجيات شعبنا العادلة ... أما باقي الأمور فنحن كفيلون بها» [٥٥].

أما تحويل المسألة اليهودية إلى قضية سياسية دولية، فالقضية كما قال لا يمكن حلها إلا في «محفل الشعوب المتحضرة» بحيث تتكفل دولة عظمى أو دول عظمى بإقامة الوطن القومي اليهودي بموجب امتياز أو براءة [٥٦]. وعلى هذا الأساس كان هرتسل مقتنعًا أن العالم كله ملك خالص للرجل الأبيض فهو يمنح ما يشاء من المناطق متى شاء ولمن شاء من الناس ويحجبها عمن يشاء.

وقد رقى هرتسل بفكره السياسي المذكور بالمسألة اليهودية من المستوى القومي المحلي إلى المستوى الدولي العالمي. وقد قال في كتابه «دولة اليهود» ليست المسألة اليهودية في رأيي مسألة اجتماعية أو روحية، بل هي مسألة قومية. ولكي نحلها يجب تحويلها أولاً وقبل كل شيء إلى مشكلة سياسية دولية تُناقش في إطار جمعية الأمم المتحضرة في العالم.

وهذا تلخيص للقضية الصهيونية السياسية: اليهودية ليست دينًا، وإنما قومية.

وقد أدرك هرتسل منذ اللحظات الأولى أن مشروعه لن يكتب له النجاح بالاستناد إلى القوة الذاتية لليهود فقط، خصوصًا وأن المتعاطفين من اليهود مع المشروع الصهيوني كانوا أقلية هامشية ومن هنا توجه إلى طلب دعم دولة أو دول عظمى للحصول على «براءة دولية»، أي وضع الكيان اليهودي المقترح تحت حماية تلك الدولة أو الدول، فـ هرتسل كان مقتنعًا أن مشروعه سوف يظل حبرًا على ورق إن لم ينجح في تسويقه عالميًا [٥٧].

في حقيقة الأمر لم يأتِ هرتسل بجديد في هذا المضمار، فلقد سبقه إلى مثل هذه الأفكار والطروحات العديدة من رجال الفكر والقلم اليهود. فـ هرتسل لم يكن مفكرًا بمستوى هس، أو ضليعًا بالتراث اليهودي مثل كاليشر وهيرش والقلعي، أو رومانسيًا مثل بنسكر أو محللاً مثل برنباوم. وهو، وإن أتفق معهم في الهدف، اختلف معهم بالوسيلة والآلية. فهؤلاء دعوا إلى إقامة الوطن على مراحل

(١٤) ראשית הציונות עמ' 129
(١٥) Charter / זכיון
(١٦) جارودي ص ٢٩٥

وبالتدريج، بينما دعا هرتسل إلى الهدف ذاته في دفعة واحدة وبمرسوم دولي.

وقد عارض هرتسل الصهيونية الطلائعية على أساس:

كونها مشروعًا غير عملي ونتائجه غير مضمونة، بالإضافة إلى أن التنفيذ قد يستغرق المئات من السنين. ومن هنا نبعث معارضة هرتسل لابتياع أراضي عربية فلسطينية والاستيطان عليها، فهو لا يرى بذلك إنجازًا، بل حجر عثرة في سبيل الحركة الصهيونية، وفي سبيل مساعيها لاستصدار براءة دولية ومحاولة تجنيد دولة أو دول عظمى للمشروع.

وأغلب الظن أن هذا الفكر كان كامنًا أيضًا وراء معارضة هرتسل لابتياع أراضي قرية الفولة العربية في مرج ابن عامر سنة ١٩٠٣.

كذلك رفض الحلول عن طريق المشاريع الخيرية مثل مشاريع مونتفيوري، وأدعى أن حلولاً كهذه سوف تستغرق لا أقل من.. تسع مائة عام على الأقل [٥٨].

- كتاب هرتسل «دولة اليهود» [٥٩]

في سنة ١٨٩٦ أصدر هرتسل كتابه الأول «دولة اليهود» باللغة الألمانية. وقد وضع له اسمًا آخر هو «محاولة عصرية لحل المشكلة اليهودية». وقد لخص في كتابه مجمل أفكاره وطروحاته.

استهل الكتاب باستعراض للحركة اللاسامية في أوروبا وخطرها الداهم وقال: إن اللاسامية هي خصيصة حتمية لكافة المجتمعات المعاصرة. أما الحل فيكمن في إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في أي مكان على سطح الكرة الأرضية، دون تحديد مكان معين وقال: «سنقبل ما يُعطى لنا»[٦٠].

أما الوسيلة لتنفيذ الفكرة فتكون بإنشاء مؤسستين:

١ـ جمعية يهودية [٦١] تقتصر مهمتها على المجال السياسي وإجراء الاتصالات وإقامة العلاقات لتأمين الوطن القومي. والجمعية تعتبر النموذج الأمثل للمنظمة

(١٧) קימלינג עמ' 69
(١٨) Der Juden staat
(١٩) ראשית הציונות עמ' 129
(٢٠) Jewich Society

الصهيونية كممثل لليهود، حيث تتمتع بسلطة التفاوض مع الحكومات المختلفة للحصول على الأرض. ومنذ اللحظة الأولى طالب هرتسل أن تحصل هذه الجمعية على اعتراف دولي. وقد ورد في كتابه المذكور: يجب كسب الاعتراف بالجمعية كهيئة رسمية هدفها إنشاء حكومة. وعندما يتم الاعتراف بها تولد الدولة.

٢ـ شركة يهودية تقتصر مهمتها على الإعداد العملي ـ الميداني (٦٢). وقد افترض هرتسل أن تؤسس على نمط الشركات الاستعمارية العالمية مثل: شركة الهند الشرقية في الشرق الأقصى وشركة سيسيل رودس في أفريقيا.

وقد اقترح أن يكون رأس مال تلك الشركة خمسين مليون ليرة إسترلينية. وقال إن واجب تلك الشركة الاهتمام بمصالح اليهود المهاجرين وتصفية أموالهم، ثم الاهتمام بروؤس الأموال ونقلها إلى القطر الجديد وتوظيفها في ابتياع الأراضي وإقامة المستوطنات وتنظيم التجارة والصناعة والزراعة ...

إن هذا النهج يقوم على أساس الاستعمار الاستيطاني وهذا ما دفع الحركة الصهيونية أن تسمي هذه الشركة «الشركة اليهودية الاستعمارية».

وتتركز طروحات هرتسل في كتابه المذكور على النقاط التالية:

١ـ اليهود لن يتمكنوا من التغلب على الموجه اللاسامية في أوروبا، ولن يجدوا الأمن والأمان في تلك المجتمعات، بل في كيان سياسي مستقل لهم.

٢ـ المجتمع المسيحي الأوروبي معني بالتخلص من اليهود، وبذلك يكون هرتسل قد ربط اللاسامية بالصهيونية.

٣ـ حل المشكلة اليهودية لن يتأتى عن طريق الاندماج، وإنما بإقامة وطن قومي، ليس بالضرورة في فلسطين. ففلسطين لم تذكر بالنص إلا في مؤتمر بازل ١٨٩٧م (٦٣).

٤ـ تحويل قضية اليهود إلى قضية سياسية دولية تضمن فيها دولة أو دول عظمى قيام تلك الدولة ورعايتها بموجب براءة دولية. فالمسألة اليهودية في المنظور الهرتسلي ليست مسألة إنسانية، وإنما قومية. وفي سبيل حلها يجب

(٢١) Jewich Company

(٢٢) ناجي طلال ص ص ٣٦ – ٣٩

تحويلها أولاً إلى مسألة سياسية دولية تتطلب حلاً دوليًا شاملاً في جمعية الشعوب المتحضرة (٦٤).

ويلاحظ في الطرح المذكور بعض النقاط البارزة:

١. التشديد على العنصر القومي مكان العنصر الديني. فلم يشرط هرتسل أرض الميعاد وطنًا وحيدًا. كما أنه لم يعتمد النصوص التوراتية. ولا الشريعة اليهودية ولا أية مراجع دينية أخرى باعتبار أن اليهودية قومية أكثر من كونها دينًا. كما أنه لم يتطرق ولو بكلمة واحدة، إلى إحياء اللغة العبرية بصفتها لغة التوراة.

وقد انعكس هذا الفكر في كتابه الذي أطلق عليه اسم «دولة اليهود» ولم يطلق عليه اسمًا دينيًا هو «الدولة اليهودية». والفرق بين التسميتين جوهري كبير، فدولة اليهود تعني دولة تضم جميع عناصر الشعب اليهودي بمن فيهم المتدينون وغير المتدينين، بينما «الدولة اليهودية» فتعني حتمًا دولة يهودية دينية تعتمد الدين اليهودي والشريعة اليهودية دستورًا لها في نظامها وسياستها.

٢. طروحات هرتسل في كتابه عبارة عن خليط من الأفكار الغيبية والنظرة الاستعمارية والمشاريع الاستغلالية.

٣. الجمع بين القومية والارتباط العضوي بالرأسمالية. فالبراءة لا تعني على الصعيد الميداني إلا ربط الدولة المستقبلية الاستعمار المتمثل بدولة أو بدول عظمى.

٤. وقد تصور هرتسل أن جيلاً يهوديًا سوف ينشأ في فلسطين وهم «يهود العضلات».

وهكذا بدأ هرتسل حياته علمانيًا اندماجيًا وانتهى قوميًا صهيونيًا. بعد أن اختمرت فكرة الوطن القومي في ذهن هرتسل شعر أن الوقت قد حان لطرحها في الميدان فبادر إلى العمل في اتجاهين:

١. اتجاه الأوساط اليهودية.   ٢. اتجاه الأوساط الحاكمة العالمية.

(٢٣) ראשית הציונות 6 ממדינת היהודים

١. هرتسل يتوجه إلى يهود العالم:

توجه هرتسل إلى الجاليات اليهودية في شتى أنحاء العالم، محاولاً تسويق فكرة الوطن القومي. وكانت اتصالاته باليهودية العالمية على مرحلتين:

أ. مرحلة الاتصال بالنخب اليهودية المتنفذة ماليًا وسياسيًا.

ب. مرحلة الاتصال بالجماهير اليهودية.

أ- فعلى المستوى الأول كانت فاتحة توجهاته إلى الرأسمالية اليهودية وإلى أثرياء اليهود وأرباب رؤوس الأموال للحصول على دعمهم السياسي والمعنوي والمالي. قام بالاتصال بالبارون هيرش والبارون روتشيلد وغيرهما من أثرياء اليهود في أوروبا وحاول إقناعهم باستثمار أموالهم في توطين اليهود في دولة يهودية مستقلة، وشراء وطن قومي سواء كان في فلسطين أو في الأرجنتين. ولكنه اصطدم بالصد والرفض، فلقد استخف به الرأسماليون اليهود واستهانوا بمشروعه. فمعظمهم كان من دعاة الاندماج وأصبحوا جزءًا عضويًا من المؤسسات الحاكمة في بلادهم [٦٥]. وكان هناك أسباب إضافية للرفض منها:

١- الخوف من إثارة مخاوف وشكوك المجتمعات الأوروبية على اليهود وخاصة المتدينين منهم.

٢- الخوف من مقاومة العرب في فلسطين وما قد ينتج عن ذلك من اضطرابات وسفك دماء.

٣- الخوف من معارضة الدولة العثمانية.

٤- معارضة «محبة صهيون» الصهيونية الطلائعية العملية المطالبة بالتطبيق الميداني التدريجي على التراب الفلسطيني.

ب- بعد الفشل الأول لم ير هرتسل مناصًا من التوجه إلى الجمعيات والجماهير اليهودية محاولاً إقناعها بوجهة نظره وبمشروعه. وقد لاقى بعض النجاح في هذا المضمار، فلقد نجح في تجنيد نخب فكرية مثل نوردو، مارموراك، ولفسون وغيرهم. واستعان بهم على الجاليات اليهودية المبعثرة. وقد لاقت الدعوة ردود فعل متباينة، تراوحت بين الرفض القاطع والقبول المندفع، من الإقبال إلى الصد ومن التأييد إلى المعارضة.

(٢٤) شوفاني ص٣٢٨

واستقر الرأي أخيرًا على تعبئة الجماهير اليهودية ومحاولة تنظيم العمل تحت سقف واحد، فكان القرار بعقد مؤتمر يهودي عام يمثل كافة الجماهير اليهودية وكانت الدعوة «لمؤتمر بازل» سنة ١٨٩٧م [٦٦].

- مؤتمر بازل

أرسل هرتسل دعوات لحضور مؤتمر يهودي عام يعقد في ميونيخ (ألمانيا)، إلا أن حاخام المدينة الأكبر رفض استضافة المؤتمر لأسباب دينية. فوقع الاختيار على بديل آخر هو مدينة بازل (سويسرا).

وجهت الدعوة إلى ١٠٤ من ممثلي الجاليات اليهودية، بمن فيهم دعاة الاندماج وقوى معارضة أخرى، لكن الغالبية العظمى من المدعوين كانوا من يهود أوروبا المهددين بالبوغرومات والطرد من بلادهم.

افتتح الاجتماع في ٢٩آب أغسطس ١٨٩٧م في مدينة بازل في مبني الكازينو. وقد رفع عليه العلم العبري بلونَيهِ الأبيض والأزرق. وكتب على واجهة المبني «المؤتمر الصهيوني» تُتوّجه نجمة داود.

حضر الاجتماع ١٥٠ مندوبًا عن ٢٤ جالية معظمهم من جمعيات «محبة صهيون» واستمر ٣ أيام من ٢٩ - ٣١ آب أغسطس.

افتتح هرتسل الجلسة الأولى بكلمة ألقاها باللغة الألمانية. ثم تعاقب الخطباء الواحد بعد الآخر وكلهم يخطب إما بالألمانية أو الإنجليزية، ولم تلق أية كلمة باللغة العبرية.

لم تتناول الكلمات، أو المداولات التي تلتها، جوهر المشكلة اليهودية، وإنما انحصرت في الجزئيات والأمور الإجرائية وتعديل بعض التعابير اللغوية والقانونية، فعلى سبيل المثال جرى تغيير تعبير «دولة اليهود» إلى «رقعة الأرض» [٦٧] للشعب اليهودي. كما تم استبدال «حق دولي» بـ «حق عام». وكان الهدف من ذلك تضليل السلطات العثمانية والتستر عن النوايا الحقيقة

(٢٥) הקונגרס הציוני של באזל

(٢٦) נחלה ويقول معجم ספיר: إن هذه الكلمات تعني مساحة من الأرض بملكية شخصية، عائلية. أو ملكية شعب עמ' 72

باستعمال مصطلحات وتعابير لغوية مقبولة لا تثير المخاوف والشكوك لتفادي إثارة حفيظة السلطان وحكومته من ناحية أخرى، والتيارات الدينية اليهودية وأوساط أوروبية أخرى من الناحية الأخرى [٦٨].

وقد تمت الموافقة على إجراء التعديلات بعد تدخل هرتسل نفسه واقتراحه حلولاً وسطًا نالت موافقة الجميع [٦٩].

وبعد مداولات مطولة ونقاشات حامية، وأخذ ورد، وافق المؤتمر على القرارات:

١ - هدف الصهيونية إيجاد وطن قومي للشعب اليهودي واستيطانه زراعيًا وصناعيًا.

٢ - تنظيم اليهود في منظمات / هيئات محلية وعالمية تعمل بموجب القوانين المعمول بها في تلك البلاد.

٣ - تطوير المشاعر القومية وإيقاظ الوعي القومي اليهودي.

٤ - اتخاذ كافة الوسائل الكفيلة بالحصول على البراءة. ومن ضمنها إنشاء وكالة أو حركة تقوم بالعمل للحصول على تلك البراءة.

والملاحظ أن هذه القرارات لم تنص على فلسطين وطنًا قوميًا حصريًا لليهود.

أما مشكلة التمويل فكان الاقتراح أن تجري جباية تبرعات من يهود العالم، ومن اشتراكات عضوية للحركة الصهيونية العالمية.

وقام المؤتمر بتنظيم أعماله:

١ - انتخب أول رئيس له، هو هرتسل.

٢ - اعتبر نفسه ممثلاً ليهود العالم ويشكّل برلمانًا لهم.

٣ - انتخب لجنة تنفيذية، هي بمثابة حكومة مهمتها تنفيذ مقرّرات المؤتمر.

٤ - انتخب مجلسًا عامًا يتمتّع بصلاحيات المؤتمر ما بين كل دورة ودورة.

٥ - افتتح باب الانتساب للمؤتمر على أن يلتزم المنتسب بشرطين:

أ. دفع رسوم عضوية سنوية اسمها «شاقل» وتكون قيمتها فرانكًا فرنسيًا، أو ماركًا ألمانيًا، أو كرونيًا نمساويًا، أو ٢ شلينج إنجليزي.

---

(٢٧) מוריס עמ' 31 – 32

(٢٨) מוריס עמ' 31 – 32

ب. الالتزام بمقرّرات المؤتمر والهيئات المنبثقة عنه. ويمكن اعتبار هذه الهيئات مؤسّسات دولة في طور التكوين.

ولا شك أن المؤتمر استهدف الأمور التالية:

١ - استقطاب يهود العالم وربطهم بالمشروع الصهيوني.

٢ - استقطاب التأييد والدعم الدولي.

٣ - ربط الدولة العتيدة بمظلة استعماريّة، مع كل ما يتبع ذلك من تحويل للكيان العتيد إلى كيان وظيفته في خدمة الاستعمار. وإلى أن تتخذ الدول شكل الدول الاستعمارية. وقد كتب هرتسل إلى سيسيل رودوس «أبو الاستعمار الأوربي، وهو السمسار والتاجر الاستعماري الذي نجح في تحويل شركته الاستعمارية إلى دولة روديسيا في جنوب أفريقيا» في ١١ يناير - كانون الثاني - ١٩٠٢: أرجو أن ترسل لي نصًا يقول إنك قد فحصت برنامجي وإنك توافق عليه. وأنت تتساءل يا سيد رودوس لماذا أكتب إليك؟ والجواب هو أن برنامجي هو برنامج استعماري (يوميات هرتسل ج٣ ص ١٠٥). وهكذا وضع هرتسل نصب عينيه مشروع رودوس وكيانه الاستعماري كمثل أعلى يتوجب الاحتذاء به والسير على خطواته.

٤ - تحويل الفكر الديني اليهودي إلى فكر قومي سياسي.

انفض المؤتمر وتنفّس هرتسل الصعداء، فلقد شعر بالارتياح. لقد رأى في نجاح المؤتمر والموافقة على مقرّراته الخطوة الأولى على طريق تأسيس الوطن القومي اليهودي وقد عبّر عن ذلك في مذكراته في ٣ أيلول ١٨٩٧م، أيامًا بعد انفضاض المؤتمر، قال: «في بازل أقمنا دولة اليهود، ولو أنني تفوّهت بهذه الكلمات علنًا اليوم لجوبهت بموجات من السخرية والاستهزاء من كل صوب وناحية، ولكن بعد خمس سنوات على وجه الاحتمال، أو بعد خمسين سنة على وجه التحديد، سوف يعترف الجميع بذلك».

وتشاء الأقدار أن تتحقق نبوءة هرتسل بالكامل بعد خمسين سنة بالضبط حين أعلن عن قيام دولة إسرائيل في ١٥ أيار مايو ١٩٤٨ على كل حال يمكن القول أن مؤتمر بازل وصهيونيته السياسية قد اعتمدت ثلاث أركان لأيديولوجيتها

وهذه الأركان هي سياسية - قومية - استعمارية. وهي لم تكن بأي حال من الأحوال امتدادًا للبعد الروحاني للديانة اليهودية. وقد استغل الدين اليهودي كأداة لتحقيق هدف قومي سياسي. وقد آمن كثير من اليهود أن هرتسل انحرف بدينهم عن مبادئه الحقيقية، فاليهودية، في نظرهم، ليست هدفًا سياسيًا أو قوميًا بل ديني روحاني كما قال المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين في سنة ١٨٩٧.

تبع المؤتمر الأول مؤتمرات سنوية دورية ولا تزال تنعقد حتى يومنا هذا. وقد انبثق عنها العديد من المؤسسات والهيئات والدوائر التي مهّدت لتحقيق الهدف: إقامة الدولة على التراب الفلسطيني. فمنذ مؤتمر بازل ١٨٩٧م وحتى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م عقدت المنظمة الصهيونية، التي انبثقت عن مؤتمر بازل، عشرة مؤتمرات تمّ فيها تشكيل الهيئات التنظيمية والمالية لتنفيذ المشروع الصهيوني.

ففي سنة ١٨٩٩ أنشئ «صندوق الائتمان اليهودي للاستيطان» وهدفه تمويل الهجرة والاستيطان. وفي سنة ١٩٠٣م أنشئ له فرع في مدينة يافا هو «الشركة الأنجلو فلسطينية» لابتياع الأراضي [٧٠].

في المؤتمر الخامس المنعقد في لندن ١٩٠٥م أنشئ «الصندوق القومي الدائم لإسرائيل» [٧١] هدفه ابتياع الأراضي. وقد نجح، بأساليب ملتوية، بتنفيذ المشتريات الأولى بين سنتي ١٩٠٥ - ١٩٠٧م بابتياع أراضي بن شيمن، خلده، الرملة والقدس، كما اشترى أراض من قرية حطين في الجليل الأدنى.

وفي ١٩٠٨م أنشئ «المكتب الفلسطيني» كممثل للمنظمة الصهيونية فكان ذراعها التنفيذي - التخطيطي في فلسطين. وقد شمل نشاط ابتياع أراض، بناء المستوطنات، توطين المهاجرين ورعايتهم، وكان مديره التنفيذي في الأول آرثور روبين [٧٢].

وقد سعت كل هذه الهيئات لإقامة دولة يهوديّة في فلسطين.

---

(٢٩) החברה הארץ ישראלית Anglo - Palectine Company

(٣٠) הקרן קיימת לישראל (باختصار קק"ל)

(٣١) ארתור רופין شوفاني ص ٣٣١

- هرتسل يبحث عن دولة أم حاضنة لمشروعه:

أما هرتسل فبعد أن اطمأن إلى تطبيق الشق الأول من مشروعه، وهو تجنيد من يمكن تجنيده من يهود العالم وربطهم بمشروعه الصهيوني، تحول إلى الشق الثاني، وهو محاولة تجنيد دول العالم لمشروعه واستصدار براءة دوليّة.

٢- هرتسل يتصل بالأوساط الحاكمة الدوليّة

استعرض هرتسل موازين القوى الدولية تمهيدًا لمشروعه فشرع بعملية جس نبض واستطلاع لبحث إمكانيات تبني مشروعه من قبل دولة راعية.

وكان طلبه المحدد: تبني إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين. أما الثمن الذي يعرضه فمتعدد الجوانب:

١. دعم يهود العالم للدولة الراعية.

٢. تخليص الدولة الراعية من مواطنيها اليهود بعد تحويلهم إلى فلسطين.

٣. وضع الوطن المقترح في خدمة الدولة الراعية، وتحويل الوطن القومي إلى مخفر أمامي لحماية مصالح الدول الراعية.

٤. تحويل الوطن قاعدة للحضارة الغربيّة في مواجهة البربرية الشرقية، والعمل على نشر رسالة الرجل الأبيض [٧٣].

أ. المحطة الأولى : البلاط الألماني

قرّر هرتسل أن يجعل ألمانيا محطته الأولى لأسباب عدّة:

١. الجالية اليهودية الألمانية أكبرو أقوى وأغنى الجاليات اليهودية الأوروبية، فلا بدّ أن تتمتع بالنفوذ الواسع والتأثير الكبير على القيصر الألماني وحكومته.

٢. كون ألمانيا الحليف الرئيس للدولة العثمانية. والقيصر الألماني فريدريك ويليم الثاني صديق شخصي للسلطان العثماني عبد الحميد الثاني. وقد قدّر هرتسل أن يستجيب السلطان التركي لطلب صديقه وحليفه الألماني.

٣. الاستجابة لأمنية القيصر في التخلص من اليهود الألمان وإبعادهم إلى مكان ناءٍ في أقاصي الشرق. وقد عبَّر القيصر عن ذلك في سنة ١٨٩٨م حين كتب

---

(٣٢) شوفاني ص ٣٢٩

معربًا عن أمنية أن يتحول أبناء الشعب اليهودي إلى آفاق جديدة أخرى. وأضاف إلى تلك الأمنية العامل الديني فقال: «حقًا إن اليهود قد قاموا بقتل مخلصًا. ولكن نظرًا للقوة الكبيرة التي يمثلها رأس المال اليهودي في ألمانيا وفي العالم فمن المحبّذ أن يأخذ اليهود في حسبانهم أن راعيتهم الأولى هي ألمانيا».

وشدَّ هرتسل الرحال وتوجه إلى القيصر، وبذلك يكون قد مثل بين يديه مرّتين.
المرة الأولى في اسطنبول في مطلع سنة ١٨٩٨ حين كان القيصر يزور السلطان في بداية جولته بين العاصمة ومدينة القدس.
والثانية في تشرين الأول / نوفمبر ١٨٩٨م حين كان القيصر يزور القدس بعد لقائه السلطان، ويذكر أن السلطان كان قد أمر بفتح ثغره من سور المدينة المقدّسة تكريمًا لدخول الإمبراطور داخل المدينة.

ويروي أنه في طريقه إلى القدس عرّج القيصر على دمشق ووقف على قبر صلاح الدين الأيوبي وأعلن أنه الحامي لـ ٣٠٠ مليون مسلم.
في القدس رافق هرتسل وفد صهيوني مكوّن من خمسة أعضاء، فاستأذنوا في مقابلة القيصر. وافق القيصر وعيّن موعدًا للقاء في نوفمبر. في اللقاء عرض هرتسل أن يتوسّط القيصر لدى السلطان ليمنح اليهود وطنًا قوميًا في فلسطين.

أما المكافأة التي عرضها على القيصر فكانت مغرية:

١. قيام يهود ألمانيا، رعيّة القيصر، بالتصدي لأعدائه من العناصر الاشتراكية، اليسارية، الليبرالية والتحررية.
٢. قيام الحركة الصهيونية بخدمة المشاريع الاستثمارية الألمانية في الشرق.
٣. وقوف الحركة الصهيونية إلى يمين القيصر الألماني في صراعه مع الدول الاستعمارية المنافسة، خاصة إنجلترا، فرنسا وروسيا. فاقترح على القيصر أن يكون الوطن اليهودي المقترح محميّة ألمانية ملتزمة بسياسة «المجال الحيوي لألمانيا في الشرق» [٧٤]. ولا شك أن هرتسل كان مطلعًا على أحلام القيصر وعلى أطماعه في الشرق، خاصة المشروع المحبّب إلى قلبه: مد خط سكة حديد تربط بين عاصمته برلين بالعاصمة اسطنبول.

(٣٣) م.س ص٣٣٠

وحين بدأ هرتسل يتعرّض لهذه الجزئية الحسّاسة لم يكتف باقتراح مدّ الخط بين العاصمتين فقط، بل زاد وأخذ يشرح بحماس واندفاع عن اقتراح بمد خط سكة حديد يصل البحر الأبيض المتوسّط بالخليج الفارسي.

وكان هرتسل يشرح ويسهب ويتكلّم بحماس، في حين كانت عينا القيصر تبرقان وتلمعان. وغرق القيصر في أفكاره وأحلامه وأحلام اليقظة الوردية، وانفرجت أسارير وجهه. بدا كأنه وقع في الشرك الذي نصبه هرتسل ولا عجب! فالعروض مغرية:
مجال حيوي!
دولة محمية!
خطوط سكك حديدية تربط الشرق بالغرب!
وكيان وظيفته يضع نفسه تحت تصرف الإمبريالية الألمانية ومشاريعها في الشرق!... إنه أقصى ما يتمنّاه القيصر.

ولكنه استفاق فجأة على الواقع فطرح سؤالاً قصيرًا مباشرًا:
ولكن قل بكلمة واحدة، ماذا يجب عليَّ أن أطلب من السلطان؟ فأجاب هرتسل: شركتي وامتيازي اللتين أضعهما تحت الوصاية الألمانية [٧٥]. فانتفض القيصر مرعوبًا. ولكن هذا طلب رهيب! فكيف يمكنه أن يتقدّم به إلى السلطان؟ كيف يتجرأ على طلب اقتطاع قطعة غالية عزيزة من جسد الدولة العثمانية؟
كيف يمكن أن يطلب انتقاص تراب عثماني مقدّس، وبتر عضو من دار الإسلام؟

وكم بالحريّ عندما يجري الكلام عن فلسطين! الدرّة الثمينة التي تزيّن تاج السلطنة.. وقدسها.. ومسجدها الأقصى ؟ وهذا السلطان عبد الحميد بالذات معروف بتديّنه وتمسكّه بأهداب الإسلام وحرصه على المحافظة على التراب الإسلامي وعدم التفريط ولو بحبّة تراب واحدة!

وهبّ القيصر واقفًا، دون أن ينبس ببنت شفة. حافظ على صمت عميق واكتفى بأن يستمع دون رد، ويشتري دون أن يبيع. وعلم هرتسل ومن معه أن المقابلة انتهت فنهضوا منصرفين.

(٣٤) جارودي ص٣١٥

واجتمع القيصر بالسلطان دون أن يطرح أي موضوع يتعلق بالوطن القومي اليهودي أو بفلسطين، ولم يذكر هرتسل ومشروعه. فلقد اتخذ قراره القاطع: الامتناع عن التدخل في هذا الشأن وتجاهل الاقتراح الصهيوني.

وقد كتب هرتسل في وقت لاحق في مذكراته: «لقد أبدى القيصر تعاطفًا مع الحركة الصهيونية ولكنه لم يعلّق على المشروع: لا بالسلب ولا بالإيجاب».

أما القيصر فقد صرّح لاحقًا بعد لقاء هرتسل ووفده، أنه يؤيّد الجهود التي يبذلها اليهود في مجال الزراعة في فلسطين من أجل رفاهية الدولة العثمانية وتقدّمها طالما ظل اليهود يحترمون السيادة العثمانية ويدينون بالولاء للسلطنة العثمانية. وهكذا لم يتطرّق القيصر إلاّ إلى المجال الزراعي ورفاهية الدولة العثمانية، ولم يذكر بكلمة واحدة دولة اليهود ولم يشر إلى جعل فلسطين وطنًا قوميًا يهوديًا[٧٦].

ب. المحطة الثانية : هرتسل في البلاط العثماني

بعد فشل جهود هرتسل مع قيصر ألمانيا توجّه إلى عرين الأسد، أو إلى «كهف علي بابا والأربعين حرامي» [٧٧]، كما كتب، ليقابل السلطان وجهًا لوجه فعسى.. ولعلّ. كان ذلك في أيار ١٩٠٢م، والمكان يالدز قصر السلطان عبد الحميد في العاصمة. أما العرض، فدعم يهود العالم للدولة العثمانية ومساندتها في مواجهة أعدائها مدعومين بالذهب الصهيوني.

وفي حقيقة الأمر لم تكن تلك هي المحاولة الأولى لمقابلة السلطان العثماني، فلقد حاول قبل ٦ سنوات في حزيران يونيو ١٨٩٦ مقابلته، بوساطة طرف ثالث، ليعرض عليه الأموال مقابل الوطن القومي، ولكن السلطان رفض مجرد مقابلة هرتسل. وقال للوسيط: «انصحوا هرتسل ألا يحاول اتخاذ أية خطوات جدّية بهذا الخصوص. أنني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من هذه الأرض. فهي ليست ملكي! بل هي ملك لشعبي الذي ناضل في سبيل هذه الأرض ورواها بدمائه

(٣٥) خولي (ص ٧٨ – ٧٩)

(٣٦) מוריס עמ' 33 - وعمر فاروق سليمان بد الحميد خان بالوثائق ص١١٠ ר' הרצל תרשומות עמ' 130

وخاض حروبًا مريرة في سبيل إنشائها. ونحن على أتم الاستعداد أن نرويها بدمائنا قبل أن يستولي عليها أي كان. وإنّا لن نبيع أيَّ جزء من أراضي فلسطين فليحتفظ اليهود بملايينهم. أما إذا مزّقت إمبراطوريتي في يوم من الأيام، فإنهم يستطيعون حينذاك أن يأخذوا فلسطين دون أن يدفعوا أي ثمن. أما من ناحيتي فإن تقطيع المبضع لجسدي لأهون عليَّ من أن أرى فلسطين قد بترت عن إمبراطوريتي، إن هذا أمر لن يكون بتاتًا. وأنني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا بينما نحن على قيد الحياة. فأنا لا أسمح بإجراء عملية استئصال في بدن حي [٧٨].

في المحاولة الثانية لمقابلة السلطان وسّط هرتسل شخصًا اسمه ارميتوس فامبازي A.Vambezy وهو رحالة ومغامر هنغاري من أصل يهودي، كان قد غير وبدل ديانته لا أقل من خمس مرات وعمل أخيرًا قسيسًا. وكان صديقًا شخصيًا للسلطان. وقد نجح في الحصول على موافقة السلطان للمقابلة. وكان هرتسل قد أحتاط سلفًا لهذا اللقاء المصيري فأوعز للمؤتمر الصهيوني أن يؤمن له قبل الزيارة اعتمادات مالية ضخمة لشراء ذمة السلطان وحاشيته. فقام المؤتمر بفتح اعتمادات مالية لحساب هرتسل في أكبر المصارف الأوروبية والعثمانية: كريديه ليونيه في باريس / اريديز في برلين / لويدز في لندن / ومصارف عثمانية أيضًا.

توجه هرتسل إلى اسطنبول، وهو مدجج بأموال الصهيونية وذهبها الرنان، للقاء السلطان المثقل بالديون والمشرف على الإفلاس. وكان فامبيزي قد حذر هرتسل أن السلطان على درجة كبيرة من الدهاء والمكر وطول الباع في المفاوضات والمساومات وأنه يعتبر القدس مقدّسة قدسيّة مدينة مكة.

استمرت المقابلة ساعتين استهلها هرتسل مستأذنًا في الكلام. افتتح كلامه بسرد القصة اليونانية «أندرونيكوس والأسد».

قال: كان أندرونيكوس عبدًا في بلاد اليونان. وقد تمكن من الهرب من العبودية

(٣٧) الخولي ص١٠ جارودي ص٣١٩ وصالح مسعود بويصير جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ص٣١ وعمر فاروق سليمان : السلطان عبد الحميد خان ص ١١٠

ولجأ إلى الغابات طريدًا شريدًا هائمًا على وجهه. وقد صادفه أسد فارتعدت فرائصه وأيقن بالهلاك. لكن الأسد اقترب منه مستعطفًا مادًا له إحدى قوائمه. ولما فحصها أندرونيكوس تبين أن شوكة كبيرة قد انغرست فيها وتكاد تعطلها، فضلاً عما تسببه من الآلام المبرحة.لم يتردد أدرونيكوس فاقتلع الشوكة وخلص الأسد من آلامه. وانصرف كل منهما في حال سبيله.

مرت الأسابيع وألقي القبض على العبد الآبق. وحكم عليه بالإعدام فريسة للوحوش المفترسة. في حلبة المصارعة. وفي يوم تنفيذ الحكم أحضر أندرونيكوس وأطلق عليه أسد رهيب جائع. زأر الأسد زئيرًا رهيبًا وأنقض على أندرونيكوس ليفترسه، ولكنه توقف فجأة واقعًا بين يديه وأخذ يلحس يديه وقدميه ووجهه. لم يكن الأسد إلا أسد الغابة الذي خلصه أندرونيكوس من الشوكة، وها هو الآن يتعرف على منقذه ويرد له الجميل [٧٩].

كانت تلك هي القصة التي رواها هرتسل للسلطان. والمغزى: الأسد الجريح هو السلطان. والشوكة هي الديون الخارجية التي تثقل كاهل الدولة ومطامع دول الغرب بالسلطنة. أما أندرونيكوس فهو هرتسل وحركته الصهيونية، والعبرة: تخليص الدولة من ديونها ومن مطامع الدول الغربية، والمكافأة: فلسطين وطنًا قوميًا لليهود. فهم السلطان القصة ومغزاها وأجاب هرتسل: إنه صديق لليهود وأنه ملتزم بحمايتهم ورعايتهم.

وشعر هرتسل أنه يقترب من الهدف فأمعن في إعمال ذكائه وحنكته، فتزلف للسلطان مؤكدًا له أن ما يهمه وحركته الصهيونية هو مصلحة السلطان والدولة، وأن اليهودية العالمية سوف تقوم بتصنيع البلاد وتحبط مؤامرات الغرب الأوروبي. وأضاف: شرحت للسلطان أن الدول الأوروبية الكبرى تسعى لإبقاء الإمبراطورية العثمانية ضعيفة متخلفة. وهي تبذل ما في وسعها للحيلولة دون إصلاح الأوضاع فيها.

ثم أستأنف: أنت تبيعني وطنًا وأنا أتكفل بالأوضاع المالية، وأولها سداد الديون المستحقة على الدولة. وأن أصدقائي في مصارف أوروبا سوف يعملون على

(٣٨) ית הציוניות עמ' 137 - 141

إنجاز هذه المهمة على أحسن وجه حين أؤمن دعم جلالتكم. أما من جهتي فسوف أبقي يهود العالم متعاطفين مع دولتكم العليّة. وأنهى كلامه بتهديد مبطن: الوطن القومي اليهودي يعني فلسطين. وإذا لم يحصل اليهود على فلسطين فسوف يتوجهون إلى الأرجنتين. وفي هذه الحالة فإن الدولة ستخسر جميع الهبات المالية المعروضة.

وقد ذهل السلطان عندما تبين له أن المقصود هو فلسطين بالذات، فأشار لهرتسل مركزًا على الناحية الدينية بالنسبة له ولجميع المسلمين، ففلسطين بمنزلة مكة.

وهنا رد هرتسل: ولكن فلسطين مهد لديانات أخرى يا صاحب الجلالة!

ثم عاد وأكد للسلطان أن الحركة الصهيونية يمكن أن تقف في وجه المسيحية ومطامعها.

أجاب السلطان: لقد كنت دومًا صديقًا لليهود. وأنا، في دولتي العلية، اعتمد على المسلمين واليهود وليست لدي الثقة نفسها في الرعايا الآخرين. ومع ذلك يمكنكم اختيار أية منطقة من مناطق الدولة ... إلا فلسطين، فأنا لا أستطيع التفريط بحبة تراب واحدة من هذه الأرض. أنها ليست لي وإنما هي ملك لشعبي.

وانتهت المقابلة وخرج هرتسل يجر ذيول الخيبة والفشل. عاد وأنكبّ ليكتب رواية خيالية اسماها «بلاد قديمة جديدة» عرض فيها رؤيته للوطن العتيد في أرض الميعاد [٨٠].

ويطيب للكثير من المؤرخين الادعاء أن مواقف السلطان عبد الحميد المبدئية كانت الدافع لمؤرّخي الغرب والمستشرقين لتلطيخ سمعته وتشويه سيرته والإطاحة بحكمه في نهاية المطاف، فإن «جمعية الاتحاد والترقي» التي أطاحت بالسلطان كانت تدور في فلك الحركة الماسونية والصهيونية ويهود مدينة سالونيك «الدونمة» [٨١]. ويقول بار زوهر في كتابه «بن غوريون رجل وراء أسطورة ص٤٩ أن مدينة سالونيك كانت في الفترة المذكورة مدينة يهودية - بل

(٣٩) صحيفة هآرتس הארץ عدد ١٨ آيار مايو ٢٠٠٥

(٤٠) طائفة من اليهود الذين أشهروا إسلامهم في حين ظلوا يبطنون اليهودية ومركزهم مدينة سالونيك في اليونان. والكلمة تركية بمعنى مرتد، وهي مركبة من كلمتين مدغمتين، دو بمعنى اثنين ونمه بمعنى عقيدة أي أصحاب عقيدتين، واحدة ظاهرة، وهي الإسلام والثانية مبطنة وهي اليهودية.

هي المدينـة اليهوديـة الوحيدة في العالم. وهي التي أوفدت الزمـرة التي أبلغت السلطان بقرار العزل. والغريب أن أعضاء تلك الزمرة كانوا من الأجانب ليس بينهم أي تركي.

ويقول د. يـاغي فـي كتابـه «الدولـة العثمانيـة فـي التـاريخ الإسلامي الحـديث» ص٢٠٨ أن التحرّك ضد السلطان بدأ من سالونيك حيث كانت الحركة الثورية تعقد اجتماعاتها في المحافل الماسونية وتتلقى الدعم والغطاء والمساعدات المالية من يهود الدونمة واليهود الذين كان معظمهم يتمتعون بعضوية المحافل الماسونية. وقد أصبح كثير من الضباط الأتراك في سالونيك ماسونيين. وكان بإمكانهم أن يعقدوا اجتماعاتهم ويضعوا خططهم في منازل اليهود وهم آمنون.

ويقول يسري فودة في كتابه «الماسونية» ص ص ٤١-٤٢ : «ومن خلال استعراض أسماء الذين شاركوا في ثورة ١٩٠٨ نجد أن من الذين حملوا فتوى الخلع للسلطان عبد الحميد في قصره يالديز كان المحامي اليهودي الماسوني عمانوئيل قرصوه (كراسو لاحقًا) الذي أسس واحدًا من أهم المحافل الماسونية في الدولة العثمانية. وكان أبرز أعضائها. وهو أعظم يهود سالونيك شأنًا ومكانة، وقد شغل «الأستاذ الأعظم» للمحفل الماسوني. وكان يهوديًا خالصًا. وهو الذي أدخل طلعت باشا وجاويد بك في الماسونية. وكان صهيونيًا حتى النخاع، وعدوًا لدودًا للأتراك. وهو الذي اقترح على هرتسل رشوة السلطان لتأسيس دولة يهودية في فلسطين.

وقد تشكل أعضاء الوفد الذين حملوا أمر العزل، بالإضافة إلى قراصو نائب سالونيك اليهودي من: أسعد طوبطاي الأرناؤوطي، نائب إشقدار، وآرام أفندي الأرمني، وعارف حكمات باشا ناظر البحرية ذو الأصل المختلط، وطيار بك، وحيدر بك، وإسماعيل بك، وغالب باشا. وكلهم غير أتراك، كما أسلفنا. وقد علّق سكرتير السلطان، حين أبلغ بقرار الخلع، قائلاً: «ألم يجدوا سوى يهودي وأرمني ملحد ليبلغوا السلطان التركي، خليفة المسلمين بقرار خلعه».

وفي حقيقة الأمر يمكن اعتبار السلطان المذكور مظلومًا ومُفترى عليه، شأنه في ذلك شأن الدولة العثمانية. فللسلطان المذكور إيجابياته وسلبياته، إنجازاته

وعثراته، أضواءه وظلاله. ونحن، إذ نحاول إنصافه، لا بد لنا من استعراض سيرته وأعماله كما عرضها د. إسماعيل ياغي في م.س ص ص ١٨٣ - ٢٠٣.

السلطان عبد الحميد الثاني ابن السلطان عبد المجيد وأخو السلطان المخلوع مراد. ولد سنة ١٨٤٢. وتولى الحكم وهو في الرابع والثلاثين من العمر. استمر حكمه من سنة ١٨٧٦ إلى سنة ١٩٠٩ أي طوال ٣٣ سنة.

تعلم منذ صغره اللغتين الفارسية والتركية ودرس الكثير من أمهات الكتب على يد أساتذة متخصصين.

ويعتبر عبد الحميد من أعظم سلاطين الدولة العثمانية في عصر الانحطاط. وقد قام بأعمال جليلة في مجالات متنوعة متعددة لينقذ الدولة من الانهيار. فإن القرن التاسع عشر يعتبر قرن الإصلاحات في الدولة العثمانية. وحين أعتلى السلطان العرش كانت الإصلاحات في أوجها فاستمر بها وكثّف من زخمها. كانت باكورة أعماله إحياء الحياة الدستورية وإطلاق الحريات.

ثمَّ فصل بين السلطات: التشريعية والتنفيذية والقضائية.

وعمل على تجديد الجيش فاستقدم خبراء عسكريين ألمان لتدريب الجيش بعد أن جهزه بأسلحة حديثة. كما افتتح المدارس الدينية والعسكرية فأنشأ كلية للعلوم وكليات الآداب والحقوق والعلوم السياسية والتجارة البحرية ودار المعلمين العليا ومدارس ابتدائية ومتوسطة وعليا.

كما أنشأ أكاديمية للفنون الجميلة ومدارس عليا للتجارة والزراعة والبيطرة والغابات والتعدين وكذلك افتتح مدارس للصم والبكم والمكفوفين. كما أقام مدارس عليا في كل من دمشق وبغداد وبيروت وسالونسك وقونيا وغيرها.

كما أوفد البعثات العلمية إلى كل من فرنسا وألمانيا.

وأنشأ مؤسسة حديثة للمياه. وغرفًا للصناعة والزراعة والتجارة. واستحدث البلديات. ومدّ خطوط البرق. وأنشأ إدارة للبريد. ومد السكك الحديدية وأهمها سكة حديد الحجاز التي تصل بلاد الشام بالمدينة المنورة واهتمَّ بتعزيز المواقع العسكرية في منطقة الدردنيل وأنشأ مستشفى ودارًا للعجزة. ودارًا للفنون ودار النفوس العاملة ومعملاً للخزف.

ولم يقدَّر للسلطان أن يستمر في إصلاحاته، فلقد تكالبت عليه الضغوط الداخلية والخارجية وعملت على مقاومته وإفشال خططه.

أما أهم العوامل الداخلية فكانت فساد الجهاز البيروقراطي وعدم نجاعة الجهاز الإداري. بالإضافة إلى ذلك كانت الدولة ترزح تحت عبء الديون الخارجية التي قدّرت بـ اثنين ونصف مليار ليرة عثمانية. زد على ذلك المؤامرات الداخلية من أوساط مدنية وعسكرية انقلابية.

أما العوامل الخارجية فأهمها:

تآمر الدول الأوروبية والحركة الصهيونية.

الثورات القومية التي اندلعت في البلقان ووسط أوروبا مطالبة بالانفصال والاستقلال وكانت نتيجتها هزيمة الدولة العثمانية واعترافها باستقلال البوسنة والهرسك وصربيا والجبل الأسود وبلغاريا ورومانيا واليونان.

فما كان من السلطان إلا أن يعدل سياسته في الداخل والخارج فعدل عن سياسته الليبرالية واعتمد سياسة متشددة تعتمد ركنين:

١ ـ حكمًا مركزيًا أو توقراطيًا استبداديًا دكتاتوريًا فشدّد الرقابة وكثّف الشرطة والجواسيس والعيون وأطلق أياديهم في التعامل مع الرعية، فاستعملوا السجون والتعذيب والإعدام والاغتيال والنفي لإخراس الأصوات وكتم أنفاس المعارضة.

كذلك شدّد الرقابة على المدارس والصحافة والمنشورات والمطبوعات فأنشأ قسمًا في وزارة المعارف مهمته التضييق في مجالات حرية التعبير وقد أمر بمناهج إسلامية أصولية في المدارس تعتمد على الفقه الإسلامي وتفسير القرآن والحث على الأخلاق الإسلامية اعتقادًا منه أن المسلم الحقيقي لا يمكن أن يصبح ثوريًا.

في نفس الوقت أخضع المدارس التبشيرية للرقابة الشديدة وحرّم على المسلمين الالتحاق بها. وقد صادر بعض الصحف وعطل أخرى وفرض رقابة شديدة في الاجتماعات العامة.

وقد لاحق المنفيين السياسيين موكلاً لمهمة لعيونه ورجال السفارات العثمانية في الخارج. كما أخذ يبطش بكل من يدعو لتبني الفكر الأوروبي العلماني ممن

أطلقوا على أنفسهم لقب «الدستوريين». وكان هؤلاء قد شرعوا يشكلون الجمعيات السرية والعلنية والمدنية والعسكرية للإطاحة بالسلطان.

٢ ـ التحول إلى نهج سياسة إسلامية سلفية تعتمد على ركنين:

أ. إحياء الخلافة الإسلامية، فدولته دولة الخلافة وهو خليفة المسلمين. وفي هذا السبيل يضفي على حياته الكثير من مظاهر التقوى والورع، وأحاط نفسه برجال الدين واستصرخ المسلمين في كافة أنحاء العالم لدعمه وشدّ أزره.

كما أنشأ مدرسة للوعظ لإعداد الدعاة الذين شرع بإيفادهم إلى أصقاع الأرض لبث فكرته الإسلامية.

كما أخذ يغدق الأموال بسخاء على المدارس الدينية. وأهتم بتسخير الصحافة للدعاية له والترويج لسياسته. وبذلك يمكن القول أن السلطان استخدم سلاح الدين لمواجهة المؤامرات والأعداء في الخارج ولقمع المعارضة في الداخل.

ب. تبنى فكرة الوحدة الإسلامية في إطار «الجامعة الإسلامية» تعمل على حشد المسلمين ورص صفوفهم داخل البلاد وخارجها. وقد رأى السلطان في جامعته الإسلامية أفضل رد للمحافظة على سلامة أراضي الدولة والدفاع عن دار الإسلام إزاء اجتماع القوى الداخلية والخارجية عليه وعلى دولته.

ولعلّ أكبر داعية في هذا المجال وأشد رجال الفكر حماسة له كان المفكر الكبير جمال الدين الأفغاني ١٨٣٩ ـ ١٨٩٧م ويعتبر أكبر داعية للجامعة الإسلامية فلقد رفض الفكر القومي ودعا إلى الانتماء الإسلامي، فالإسلام يرفض القوميات.

وقد عبّر عن أفكاره في صحيفة «العروة الوثقى» التي كان يصدرها من باريس فكتب: لا جنسية (قومية) للمسلمين إلا في دينهم. ورابطة المسلمين الملّية (الدينية) أقوى من الرابطة العنصرية (القومية) واللغوية.

ومهما يكن من أمر فإنه لا بد من الإشارة إلى أن الهدف الأسمى الذي سعى إليه السلطان، وهو الحفاظ على سلامة دار الإسلام، كان مخلصًا شريفًا ولكن الوسائل التي لم يتورّع عن استعمالها كانت شديدة قاسية ظالمة أخذت البريء بجريرة المذنب والمخلص بذنب الخائن فعمّ الخوف والهلع وانتشر الرعب بين رعايا الدولة وأصبح شعار الناس: «أنجُ سعد فقد هلك سعيد».

كما يجب التنويه بالخبث والدهاء والمكر والذكاء الذي ميّز شخصية السلطان، حتى أن الأفغاني قال: «إن السلطان عبد الحميد لو وُزن بأربعة من نوابغ العصر لرجحهم ذكاء وسياسة خصوصًا في تسخير جلسائه». وخلاصة القول أنه على الرغم من كل ما روي عن السلطان من قبل الغرب والحركة الصهيونية من حملات تجن وتشهير وتشويه، إلا أنه نجح بسياسته الإسلامية أن ينقذ فلسطين من براثن الصهيونية، فلم يفرط بحبة تراب واحدة من ترابها رغم العروض المغرية التي قدّمها هرتسل. والنتيجة أنه يمكن القول بأن السلطان لم يذعن ولم ينحن أمام الضغوط الأوروبية والصهيونية والماسونية والقومية المعادية، وفضل أن يضحي بنفسه وبعرشه من أجل القدس وفلسطين.

على كل عاد هرتسل من عرين السلطان ليكتب روايته الجديدة «بلاد قديمة جديدة» ١٩٠٢ **Altneuland**.

روى هرتسل في روايته قصة صديقين شعرا بالملل والفراغ من الحياة اليومية الروتينية في أوروبا فقررا الاعتزال في جزيرة نائية في عرض المحيط. وفي سنة ١٨٩٨ أبحر الصديقان إلى جزيرتهما. وفي الطريق عرّجا على فلسطين ثم استأنفا الإبحار إلى الجزيرة. وهناك قضيا عشرين سنة ونيف، كان اليهود أثناءها قد عادوا إلى فلسطين واستوطنوها وعمروها.

قرر الصديقان العودة إلى الوطن، وفي طريق عودتهما عرّجا ثانية على فلسطين في سنة ١٩٢٣ بعد غياب ٢٥ سنة فشاهدا كيف تطورت البلاد وازدهرت بفضل الجهود اليهودية.

رأيا إحياء الأراضي القفر والموات وتعمير الخراب، حتى أن البلاد تحولت بجهود المستوطن اليهودي من صحراء قاحلة إلى جنة عدن. دولة عصرية متقدمة متحضرة. وماذا عن السكان الأصليين، والمقصود العرب الفلسطينيون؟

يقول هرتسل أن أفضل من يمثلهم شخص أفندي اسمه رشيد بك. وهو مهندس عربي من سكان مدينة حيفا ويشغل منصبًا حكوميًا رفيعًا في دولة اليهود.

ويبدأ رشيد يحدث الصديقين عن الخير والوفرة والتقدم الذي ينعم به السكان المحليون بفضل اليهود المهاجرين الذين حلوا البلاد وأحيوها، وعمموا خيراتهم

ليس على الإنسان وحده، وإنما على الجماد والحيوان والنبات أيضًا.

واستأنف رشيد: إن أولئك المهاجرين اليهود لم يعتدوا على حق العرب بالوجود، ولم يقوموا بمصادرة شبر واحد من أراضيهم، بل ساهموا في تقدمهم ورفع مستوى معيشتهم.

وتساءل أحد الصديقين: ألم يتقوض عالم السكان العرب بمجيء المهاجرين اليهود؟

فأجاب رشيد: ما هذا السؤال؟ قدومهم كان خيرًا وبركة. وكان أول المستفيدين من هذه النعم ملاك الأرض العرب، فقد باعوا أراضيهم للشركة اليهودية بأسعار مرتفعة. ومن لم يتسرع بالبيع احتفظ بأرضه انتظارًا لارتفاع الأسعار. أما أنا شخصيًا فقد بعت أرضي للشركة لأني رأيت أن ذلك أجدى وأنفع!

- وماذا عن أولئك الذين لا يملكون أرضًا، خصوصًا المسلمين؟

يا مستر كنغز كورت: إن سؤالك يتضمن الجواب، فإن هؤلاء المساكين الذين لا يملكون شيئًا، وبالتالي لم يكن لديهم ما يخسرونه، فتحت في وجوههم أبواب الربح وإمكانيات العمل بشروط جيدة، لم يكونوا يحلمون بمثلها. لقد نعموا بمستقبل أفضل. أرجو أن تنظر إلى أولئك الذين كانت أوضاعهم متردية بائسة، وبيوتهم حقيرة، وأولادهم مهملون، وأراضيهم مبوّرة، تر أن أوضاعهم تحسّنت ومستوى معيشتهم أرتفع إلى ما فوق خط الفقر. وها هم يقتربون بسرعة من الحياة السعيدة. وقد تحقق كل ذلك بعد أن عملوا أجيرين عند اليهود.

- ما أعجب تفكيركم أيها المسلمون، ألا ترون بالمهاجرين غزاة؟

- أيها المسيحي ما أغرب ما تقول! هل تعتبر أن ذلك الشخص الذي لم يسلبني أي شيء، بل على العكس من ذلك، قدم لي كل شيء لصًا؟

اليهود أثرونا، فلماذا توجه إليهم سهام غضبك؟ أنهم يعيشون بين ظهرانينا، إخوانًا لنا فلماذا لا نموت عشقًا وهيامًا بهم؟ (٨٢).

إن هرتسل في عرضه السطحي للمشكلة السكانية العربية في دولة اليهود توصل إلى أن العرب في الدولة المذكورة لا يزيدون عن كونهم مجموعة بشرية وفئة

---

(٤١) ראשית הציונות עמ 137 -141

سكانية مستضعفة مستكينة تفتقر إلى أية طموحات سياسية أو تطلعات قومية لا همّ لها إلا استجداء لقمة العيش من يد السيد اليهودي. وهم في نهاية المطاف بعيدون كل البعد عن كونهم شعبًا متكاملاً له جذوره ومقوماته وكيانه وحقوقه. والملفت للنظر أن هرتسل تعامل مع المجتمع العربي الفلسطيني ومشاكله الكبيرة وكأنه جسم واحد، ذو لون واحد وبعد واحد. وهذا تعميم لا يغفر له. وبهذا يكون قد تجاهل حقائق أساسية أهمها: وجود قومية عربية عريقة ذات حضارة عميقة الجذور تملأ الحيز الجغرافي وتشغل الناس.

أما المولى الصهيوني في فلسطين. كما صوره هرتسل، فهو منقسم على نفسه محتار في نهج السياسة التي يتوجب عليه اتخاذها مع العرب.

وقد نشرت صحيفة هآرتس في عددها ٩-٢-٢٠٠٩ مقالاً للبروفيسور شلومو أفنيري استعرض فيه وضع العرب في دولة اليهود كما عرضها هرتسل في كتابه «بلاد قديمة جديدة». قال: إن الصديقين اللذين هجرا وطنهما واعتزلا في إحدى الجزر لمدة ٢٥ سنة عادا إلى وطنهما. وفي الطريق عرجا على فلسطين سنة ١٩٢٣، فوجدا البلاد مشغولة بمعركة انتخابية. وكانت إحدى النقاط المطروحة: وضع العربي وحقوقه في دولة اليهود. وهنا يجدر التنويه أن الاعتراف بوجود عرب في فلسطين يناقض الطرح الصهيوني التقليدي لبعض متطرفي الصهيونية الذين ينفون أي وجود للشعب العربي في فلسطين.

كان يتصارع في الانتخابات تياران يمثلان حزبين متنافسين:

أولهما: حزب متطرف عنصري يعترف بوجود عرب، ولكنه ينكر عليهم حقوقهم ويدعو إلى فرض سياسة تمييز عنصري بحقهم. وقد أسس هذا الحزب مهاجر يهودي صهيوني اسمه د. غاير (وهي كلمة ألمانية ومعناها طير الرخمة القمّام الذي لا يعيش إلا على الجيف). وكان هذا الزعيم القمّام يقول: في دولة اليهود لا يجوز السماح لغير اليهود (والمقصود العرب) أن يتمتعوا بأي نوع من الحقوق. فالحقوق يجب أن تقتصر على اليهود فقط.

أما الحزب الثاني فهو حزب ليبرالي معتدل يدعو إلى التعايش السلمي بين جميع السكان ومنح الجميع حقوقا كاملة. فالدولة، وإن كانت دولة اليهود، هي دولة جميع مواطنيها.

وقد انتهى هرتسل في كتابه إلى نتائج أهمها:

١- التنبؤ بأن بعض مواطني الدولة اليهودية العتيدة مصابون بوباء العنصرية.

٢- الانتخابات تسفر عن انتصار الحزب الليبرالي وهزيمة الحزب العنصري مما حدا بزعيمه إلى مغادرة البلاد مهزومًا مدحورًا ... وإلى الأبد.

٣- إمكانية استيعاب السكان العرب والتعايش معهم، وتعيينهم في مناصب حكومية رفيعة وأفضل مثال على ذلك المهندس العربي رشيد بك.

٤- دولة اليهود تمنح جميع سكانها الحقوق والمساواة بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية أو القومية أو الجنسية فلا تمييز بين الرجل والمرأة.

ولا شك أن هرتسل في تصوره المبسط اليوتوبي عن الدولة أخطأ في أنه:

أ. صوّر البلاد صحار قاحلة ومستنقعات وأرض بور تكاد تخلو من السكان. أما السكان المحليون الذين يعيشون على هذه الأرض فهم لا يشكلون شعبًا بل هم عبارة عن مجموعات وشراذم وقبائل منتشرة من هنا وهناك: همها الوحيد الارتزاق وتأمين لقمة العيش بأية وسيلة كانت. ففي الرواية التي امتدت على ٣٣١ صفحة. لا يظهر في المرة الأولى في طريق الإبحار إلى الجزيرة سوى المستعمر اليهودي ومستوطنات روتشيلد، وفي المرة الثانية في طريق العودة يظهر المهاجر اليهودي وكأنه سيد البلاد. أما العرب فلا يظهرون إلا مرتين حين يصف المؤلف مهرجان الفروسية الذي قام به المستوطنون اليهود في مستوطنة رحوفوت. والثانية في المعركة الانتخابية لسنة ١٩٢٣. وهكذا شطب هرتسل بجرة قلم ٩٠% من السكان. فالسكان الوحيدون الذين أتى على ذكرهم هم اليهود، الذين بلغ عددهم ٤٥ ألف نسمة، ويشكلون ١٠% فقط من مجموع السكان.

أما الأغلبية السكانية من العرب فلا يعرفون الوطنية والقومية والحقوق، ولهذا توصل إلى استنتاج خاطئ.

ب. أن الدولة سوف تعيش بأمان وسلام. وأن السكان سوف يستقبلون المهاجرين بالورود والرياحين بعد أن يملئوا جيوبهم بذهبهم ثمنًا لأرضهم، أو ثمنًا لعرق جباههم الذي يبيعونه في أسواق العمل المأجور للمهاجر اليهودي.

ولم يكن هرتسل يتصور أن الدولة سوف تقوم على بحار من الدماء والدموع، وأن الفلسطينيين سوف يهبّون للدفاع عن أراضيهم وقراهم ومقدساتهم ووطنهم. فلذلك لا نعجب أن نرى البعض يتهم هرتسل بالعمى الفكري والسياسي.

إن العلاقة بين المستوطن المهاجر الطارئ وصاحب البلاد الأصيل لا تقوم على التعايش والاحترام والاعتراف بالحقوق وإنما على الفائدة والربح والخسارة. ويمكن تلخيص الطرح الهرتسلي في كتابه المذكور أنه أقرب إلى الشحطات الخيالية منه إلى الواقع السياسي.

أما البلاد التي وصفها فيمكن أن تكون أي مكان على سطح الكرة الأرضية إلا فلسطين. وإذا حاولنا تلخيص الفكر الهرتسلي في هذه الجزئية نصل إلى نتيجة أن هرتسل لم يفهم المنطقة ولا سكانها.

ج. المحطة الثالثة: هرتسل في بريطانيا ١٩٠٢ - ١٩٠٣:

توجه هرتسل إلى بريطانيا في سنة ١٩٠٢م ليعرض مشروعه على حكومتها، وكان قد سبق أن زار البلاد في سنة ١٨٩٦م وشرع في محادثات مع رئيس الوزراء وبعض الوزراء، خاصة تشمبرلن، وزير المستعمرات.

أما موضوع البحث فكان إسكان اليهود في منطقة ما من قارة آسيا ومنحهم حكمًا ذاتيًا تحت المظلة البريطانية.

وتمخضت المحادثات عن تشكيل لجنة بريطانية لدراسة مشروع هرتسل ووطنه القومي. وقد خلصت اللجنة إلى توصية بتخصيص منطقة «العريش» في شبه جزيرة سيناء لإقامة الكيان المقترح، على أن تجر إليه المياه العذبة من نهر النيل. ولكن المشروع لم يلبث أن جمد ولم يتخذ أي قرار بشأنه [٨٣].

أما في زيارة سنة ١٩٠٢م التي نحن بصددها فقد كان هرتسل مقتنعًا أن الورقة البريطانية هي الرابحة في ميدان التنافس الاستعماري، بالإضافة إلى أنها أقرب الدول الأوروبية إلى تفهّم المسألة اليهودية وتتعاطف معها.

وقد عبر عن تفاؤله، في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الصهيوني الرابع المنعقد

(٤٢) الخولي ص ٧٩

في لندن سنة ١٩٠٠ فقال: إن بريطانيا التي تهيمن على البحار السبعة هي وحدها التي سوف تفهمنا وتتفهم أهدافنا. ومن هنا سوف تنطلق الفكرة الصهيونية لتحلق عاليًا. أننا واثقون من ذلك [٨٤].

امتدت المفاوضات مع السلطات البريطانية ممثلة في تشمبرلن، وزير المستعمرات، طوال ٨ أشهر ابتدأت من تشرين الأول أكتوبر ١٩٠٢م وانتهت في آيار مايو ١٩٠٣م.

في تشرين الأول أكتوبر قدم هرتسل مذكرة إلى الخارجية البريطانية يقترح دولة يهودية في شبه جزيرة سيناء تكون قصبتها مدينة العريش.

ولم يتردد رئيس الحكومة في الاستجابة لفكرة الوطن القومي في وادي العريش في شبه جزيرة سيناء. وقد رحب كبار رجال الدولة والسياسيون البريطانيون بالعرض لاعتبارات دينية - ديموغرافية - أخلاقية - اقتصادية - استراتيجية. فهذا الكيان يمكن أن يستخدم:

١- خط دفاع أمامي عن مصر.

٢- حماية لطريق الهند.

٣- حاجز في وجه أي تغلغل استعماري: ألماني أو فرنسي أو روسي أو غيرها.

٤- حائل دون إقامة دولة عربية موحدة.

٥- تكفير عن الشعور بالذنب حيال مظاهر العداء لليهود.

٦- عوامل دينية تتعلق بالعقيدة الإنجليكانية وعودة المسيح وإقامة الدولة اليهودية.

٧- تحويل هجرة يهود شرق أوروبا من بريطانيا إلى الخارج.

والحقيقة أنه حين قدم هرتسل اقتراحه كانت بريطانيا تعاني من ضغط ديموغرافي نتيجة لتزايد عدد المهاجرين اليهود من شرق أوروبا، خصوصًا من روسيا وبولندا إلى إنجلترا عمومًا إلى العاصمة لندن بصورة خاصّة، وإلى أحيائها الشرقية بصورة أخص، الأمر الذي أدى إلى أزمة خانقة وضائقة شديدة أقلقت الشعب والحكومة، ونتيجة لذلك اضطرت الحكومة إلى تشكيل «لجنة

(٤٣) מוריס עמ' 33

ملكية» لدراسة الوضع، وإيجاد الحلول.

من الناحية الأخرى لم يلق العرض البريطاني بمنح العريش وطنًا قوميًا لليهود ترحيبًا وقبولاً عند كافة الأوساط اليهودية، فلقد لقي قبولاً عند البعض ومعارضة لدى الآخرين في داخل المؤتمر وخارجه. فالمؤيدون وافقوا باعتبار العريش حلاً مرحليًا للقفز على فلسطين في الوقت المناسب عندما تحين الظروف المناسبة.

أما المعارضون الذين تزعمهم شاب في مقتبل العمر اسمه د. حاييم وايزمان [٨٥] فرفضوا أي بديل آخر عن فلسطين [٨٦]. ولم تكن هذه المعارضة هي الوحيدة، فلقد انضم إليها مناهضون آخرون عارضوا المشروع على أسس موضوعية.

افتقار منطقة سيناء عمومًا، ووادي العريش بصورة خاصة، إلى المياه العذبة. وحين قدم اقتراح بجر مياه النيل إلى سيناء جوبه بالمعارضة الشديدة من قبل المعتمد البريطاني في مصر اللورد كرومر، الذي برر معارضته للمشروع بشقيه (منح العريش وطنًا قوميًا لليهود وجر مياه النيل إلى سيناء) بالأسباب التالية:

١ـ تحسبًا من ردة فعل الجماهير المصرية احتجاجًا على اقتطاع جزء من الوطن المصري لصالح كيان يهودي غريب دخيل.

٢ـ جرّ مياه النيل إلى سيناء يؤثر سلبًا على كميات المياه العذبة اللازمة للزراعة في مصر.

٣ـ تنفيذ المشروع يضاعف من مشاكل بريطانيا في مصر ويثير الرأي العام ضد الوجود الإنجليزي.

إزاء هذه المقاومة لمشروع العريش قدم هرتسل اقتراحًا بديلاً آخر وهو القبول بجزيرة قبرص وطنًا قوميًا للشعب اليهودي. فماذا كان رد تشمبرلن، رئيس الحكومة؟

ـ ولكن قبرص يسكنها يونانيون ومسلمون ونحن لا نستطيع اقتلاعهم من وطنهم لإحلال غرباء وافدين محلهم!

ـ هرتسل: المسلمون سوف يرحلون، أما اليونانيون فسوف يسعدهم أن يبيعوا

(٤٤) ד"ר חיים ויצמן

(٤٥) מוריס עמ' 33

أراضيهم بأسعار مغرية، ويتحولوا إلى أثينا أو جزيرة كريت [٨٧]. بالإضافة إلى ذلك إذا وافقت بريطانيا على المشروع فإنها سوف تحصل، وبضربة واحدة، على عشرة ملايين عميل سري لها في جميع أرجاء العالم يسرهم أن يضعوا أنفسهم في خدمتها. نعم إننا سوف نقيم في الوطن الجديد جزءًا من حائط لحماية أوروبا يكون قطعة من حصن منيع للحضارة الأوروبية يقف في وجه البربرية[٨٨].

أما بريطانيا فقد أصرت على رفض تقديم قبرص قربانًا على مذبح أطماع الصهيونية.

ـ المعارضة اليهودية تتصدى لهرتسل

صدم هرتسل لفشله المتكرر وانسدت الآمال في وجهه وانطفأت أحلامه الوردية. انتابه نوع من الاكتئاب والهموم، وزاد من تردي أوضاعه الشخصية أنه رأى نفسه يتقدم في السن دون أن يحرز أي إنجاز ميداني. وها هي السنوات تمر والحماس يخبو والطموحات تتلاشى كالسراب الخادع.

وبدأت المعارضة تشتد وتقوى ضده داخل المؤتمر وخارجه، ومن النخب والأوساط الشعبية وكان من أبرز المعارضين:

١ـ التيار الديني الأرثوذكسي:

فقد أنكروا هرتسل ومشروعه وعلمانيته ودولته التي سوف تقوم على الكفر، لأن الدولة الحقيقية لن تقوم إلا بعد مجيء المشيح. وقد احتجّت تلك الأوساط بأن كتاب «دولة اليهود» يحمل اسمًا سياسيًا لا دينيًا مثل «الدولة اليهودية» وقالوا أيضًا أن مشروعه لا يزيد عن كونه مغامرة سياسية سداها العلمانية ولحمتها النزعة المادية. وقد رفض هؤلاء المتدينون الانجرار وراء هذه البدعة وأخذوا يندّدون بالمغامرة المادية الخسيسة لهذا المفكر الذي أحل فكرة «الشركة اليهودية» محل فكرة «المركز الروحي اليهودي».

وقالوا إن المشروع الهرتسلي بمجمله هرطقة وخيانة للإيمان الديني اليهودي

(٤٦) جارودي ص٢٨٨

(٤٧) مسيري عبد الوهاب ص١٢٧

وادعوا أن الصهيونية تتناقض تناقضًا كليًا مع اليهودية، فالصهيونية تريد أن تعرّف الشعب اليهودي على أنه وحدة قومية، وتلك هرطقة، فلقد تلقى اليهود الرسالة من الرب، لا لكي يفرضوا عودتهم إلى الديار المقدسة ضد إرادة سكانها، فإن فعلوا ذلك فإنهم يتحملون النتائج، والتلمود يقول أن هذا الانتهاك سوف يجعل من «لحمكم فريسة للسباع في الغابة». وما المذبحة الكبرى إلا نتيجة من نتائج الصهيونية.

وفي السنة ذاتها التي انعقد فيها مؤتمر بازل في ١٨٩٧ عقد مؤتمر مضاد في مدينة مونتريال في كندا ليبحث في مقترح الحاخام يتسحاق فايتس ١٨١٩ - ١٩٠٠م، وهو أبرز الشخصيات اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد استنكر البيان الختامي للمؤتمر المذكور المحاولات التي تهدف إلى إقامة وطن قومي لليهود، فإن محاولات من هذا القبيل تكشف عن مفهوم ضال لرسالة إسرائيل.

وذكر البيان: نحن نؤكد أن هدف اليهود ليس سياسيًا أو قوميًا، ولكنه روحي. وهو يحمل عبء الإكثار من فرص السلام والعدالة والمحبة لجميع الناس. أنه يهدف إلى بناء عصر مشيحياني يعترف فيه كل الناس بانتمائهم إلى مجتمع واحد كبير يهدف إلى إقامة ملكوت الرب [٨٩].

٢ـ اليساريون، الاشتراكيون، الليبراليون والاندماجيون الذين قالوا إن وطن اليهود هو مجتمعاتهم الأوروبية.

٣ـ شرائح الأثرياء وأرباب رؤوس الأموال والوظائف العالية.

٤ـ الصهيونيون الطلائعيون، ورأس حربتهم جمعية «محبة صهيون»، الذين يدعون إلى هجرة، استيطان ووطن قومي بالتدريج وعلى مراحل.

٥ـ وانضم إلى المعارضين المنظمات اليهودية الكبيرة في أوروبا:

أـ المعهد الإسرائيلي الأليانس في فرنسا وفرعه في النمسا. Alliance Israelite Universelle de France

(٤٨) جارودي ص ٢٩٦ من المؤتمر المركزي للحاخمين الأمريكيين ص١٢٧ الكتاب السنوي الرابع ١٨٩٧ بديري ص ٩٤

بـ جمعية الاستعمار اليهودي. Association Pour la Colonisation

جـ المكابيون وجمعيات المثقفين في لندن.

٦ـ وأخيرًا: المعارضة من التيار الديني الإصلاحي الذين اعتمدت معارضتهم على أن اليهودية دين وليس قومية ويجب التصدي لكافة المحاولات التي تحاول الجنوح بها عن طريقها. وقالوا إن الله لا يقبل شعبًا على آخر ولا مكانًا على آخر [٩٠].

وقد تزعم المعارضة الصهيونيان ليلنبلوم وأوسيشكين. وأخذا يشنان حملة شعواء على هرتسل ويسلقانه بألسنة حداد تتلخص في أن المهم هو تحقيق إنجاز ميداني، لا اللهاث وراء سراب خادع ومحاولة اصطياد براءة دولية لا تسمن ولا تغني من جوع ولا تزيد عن كونها حبرًا على ورق [٩١]. والنتيجة: وصل هرتسل إلى شفا الانهيار فأطلق صرخة الم. قال: «اليوم بلغت الواحدة والأربعين من العمر، وبعد أيام تكتمل ست سنوات على بداية الحركة التي حولتني شيخًا هرمًا، منهكًا، خائر القوى، معدمًا مملقًا مفلسًا» [٩٢].

ومع ذلك استجمع قواه الخائرة وتوجه في يوليو تموز ١٩٠٣ إلى روسيا.

دـ المحطة الرابعة : هرتسل في روسيا القيصرية آب/ أغسطس ١٩٠٣م

توجه هرتسل إلى روسيا في حين كان البيت الصهيوني يحترق..

كانت الخلافات عارمة مصحوبة بمشاعر الإحباط، المرارة وخيبة الأمل. بدا وكأن العد التنازلي للحركة قد ابتدأ وها هي الحركة تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة. ولكن جاء الخلاص فجأة وبشكل غير متوقع، إذ انفجرت الأحداث الدموية في مدينة «كيشينييف» الروسية بعد الاحتفالات بعيد الفصح المسيحي الشرقي لسنة ١٩٠٣م.

قامت الاضطرابات ضد اليهود ونفذت البوغرومات التي أجرت الدماء اليهودية

(٤٩) م.س ص ٣٠٠

(٥٠) م.س ص ٢٩٠

(٥١) ראשית הציונות' 149

في الشوارع. ولم يكن مهندس تلك الأحداث والمشرف عليها والمنفذ لها إلا وزير الداخلية الروسي فياشسلاف بليفه [٩٣].

وعلت صرخات الجماهير الروسية الهيسترية :

اقتلعوا اليهود! دمروا معابدهم وحوانيتهم وانهبوا منازلهم!

وكانت النتيجة ٤٥ قتيلاً وألف جريح وتدمير ١٥٠٠ منزل يهودي. وفرضت على اليهود إجراءات قمعية وعمليات تنكيل رسمية.

وقد رأى هرتسل في تلك الحملة الدموية فرصته الذهبية. إنها الدم الاصطناعي الذي سوف يضخ الحياة في شرايين الحركة المحتضرة. ومن سخرية القدر أنها لم تكن تلك إلا نعمة اللاسامية.. ورب ضارة نافعة!

رأى هرتسل أن يستغل الأحداث فتوجه إلى سان بطرسبورغ ليقابل المسئولين الروس ويعرض عليهم مشروعه ويمنيهم بالتخلص من يهود روسيا المنخرطين في الحركات الاشتراكية الثورية [٩٤]. فالمصلحة مشتركة!

وهذه المرة وسّط صديقته الكونتيسة الروسية كورفيت بياتروفسكا [٩٥] لترتيب لقاء مع بليفه السفاح. ونجحت وساطة الكونتيسة، واستقبل الوزير الدموي هرتسل في سان بطرسبورغ في العاشر من آب/ أغسطس ١٩٠٣ [٩٦]. وكان هذا قد أصدر لسلة من التعليمات تقضي بتنفيذ إجراءات قمعية بحق اليهود مثل:

١ ـ حظر عقد اجتماعات صهيونية في روسيا.

٢ ـ حظر جمع أموال والتبرع لصالح الصهيونية.

٣ ـ حظر تحويل أموال الصهيونية أو إلى المصرف الصهيوني أو سائر المؤسسات الصهيونية [٩٧].

قالت الكونتيسة لهرتسل: الوزير سوف يسعد لمقابلتك والتحدث مع شخصية هامة مثلك. فهذا اللقاء قد يسفر عن هجرة اليهود من روسيا.

---

(٥٢) Vyacheslav Plehve

(٥٣) شوفاني ص ٣٣٠

(٥٤) K.Piatrovcka

(٥٥) جاروري ص ٣٢٠ – ٣٢١

(٥٦) الخولي ص ٩٥

جرى اللقاء في مكتب الوزير. وافتتح الوزير موجهًا الكلام لهرتسل:

ـ هل لي أن آمل ألا تفعل أي أمر غير مناسب في أعقاب لقائنا هذا؟ وأرجو ألا تنسى استغلال هذا اللقاء!

فأجاب هرتسل: لن أقوم باستغلاله، يا صاحب السعادة، إلا على الوجه الذي تأمرون به.

ـ نحن نتعاطف مع الحركة الصهيونية طالما تسعى لمغادرة بلادنا.

وما عليك إلا أن تعرض الآن مشروعك وأنا معك. ولكني أود أن أشير أن في مؤتمركم الصهيوني المنعقد في منسك عام ١٩٠٢م لاحظنا تغييرًا كبيرًا، لدى حاخامات اليهود. فلقد جرى هناك الحديث عن ثقافة قومية وتنظيم يهودي يتجاوز هدف إقامة دولة يهودية إلى أبعد من ذلك بكثير.

إن هذا الأمر لا يلازمنا!

وقام هرتسل يعرض للوزير تقييمه للمؤتمر المذكور مدافعًا عنه. ثم طلب من الوزير أن يزوّده بكتاب توصية بالمشروع الصهيوني موجه من قيصر روسيا للسلطان العثماني.

الوزير: إنك تسعى لإخراج اليهود من بلادنا؟ هل أنت يهودي حقًا؟

هرتسل: نعم أنا يهودي، بل أنا رئيس الحركة الصهيونية!

الوزير: إذن ما الذي يمكن أن نتبادله من آراء؟

ثم أخذ الوزير يعدد شكاوى القيصر من اليهود على كافة الأصعدة الدينية، والسياسية والاقتصادية وقال: صحيح أن عدد اليهود في بلادنا ٧ ملايين نسمة من بين ١٣٦ مليون روسي. لكنهم في حقيقة الأمر يشكلون ٥٠% من أعضاء الأحزاب اليسارية والحركات الثورية.

هرتسل: وكيف تعللون ذلك يا صاحب السعادة؟

الوزير: أعتقد أن هذه هي غلطة حكومتنا، فاليهود مضطهدون مسحوقون، وطالما تمنيت على القيصر الراحل الكزاندر الثالث إغراق ٦ ـ ٧ ملايين يهودي في البحر الأسود. أن ذلك لا يزعجني وأنا لا أزل عن هذا الرأي. ولكنه مستحيل فلا بد أن يعيش اليهود.

وأنهى بليفيه المقابلة دون أن يعد هرتسل بأي شيء أو أن يستجيب لطلبه. وكانت خيبة أمل كبيرة لهرتسل. فما كان منه إلا أن توجه لطرق باب آخر في روسيا وهو باب وزير المالية، الخصم اللدود والمنافس الرئيس لبليفيه.

وقد أبدى الوزير الجديد تعاطفه مع هرتسل ومشروعه ومع الشعب اليهودي. ولم يكن ذلك نابعًا عن قناعة ذاتية أو موقف مبدئي أو مشاعر إنسانية، وإنما قصد بموقفه هذا مناكفة خصمه بليفيه واستعداء هرتسل ومن يقف خلفه عليه. فقد كان يرجو أنه حين يخبو نجم بليفيه فإن نجمه هو سوف يحلق. وانتهى اللقاء بمحاولة أخيرة لاستعداء هرتسل الوزير على السلطات التركية فتساءل:

ما رأيكم يا صاحب السعادة، في تولي حراس أتراك حراسة كنيسة القيامة؟

وزير المالية: سيكون الأمر أدهى وأمر لو تولى الحراسة حراس يهود. ولكن ماذا تريد من حكومتنا ؟

هرتسل: أريد التشجيع.

وقبل أن يغادر هرتسل الأراضي الورسية سلمه بليفيه مذكرة تلخيصية:

أ- حكومة القيصر الروسي ترحب بالمشروع الصهيوني طالما يقتصر هدفه على إقامة دولة يهودية في فلسطين يرحل إليها اليهود الروس.

ب- حكومة القيصر تعارض بشدة تقوية التنظيم الثوري اليهودي والنشاط الصهيوني داخل حدود الإمبراطورية الروسية.

ج- الحركة الصهيونية يمكنها الاعتماد على دعم القيصر في كافة النواحي: ماليًا، معنويًا، تغطية وحماية ودعمًا مطلقًا لعملاء الحركة العاملين داخل حدود الدولة العثمانية إذا التزموا ببرنامج محدد، يقتصر على إقامة وطن يهودي بعيدًا عن روسيا [٩٨].

وعاد هرتسل من روسيا خالي الوفاض، اللهم من مجرد وعود كلامية. وأصيبت الحركة الصهيونية بشبه شلل تام. ولكن هذا الجمود لم يستمر فترة طويلة من الزمن إذ سرعان ما جاء الانفراج على شكل اقتراح جديد تقدم به تشمبرلن رئيس الحكومة الإنجليزي في أغسطس / آب سنة ١٩٠٣م.

---

(٥٧) جارودي ص ٣٢٠-٣٢١

▪ بريطانيا تعرض أوغندا وطنًا قوميًا لليهود

تلخص اقتراح تشمبرلن في منح أوغندا (شرقي أفريقيا) وطنًا قوميًا لليهود. وقد سارع هرتسل، يدعمه نوردو، بالترحيب بالعرض. ورأى أن يعرضه على المؤتمر الصهيوني السادس ١٩٠٢، وكان متأكدًا أن العرض سوف يحظى بموافقة الأعضاء وترحيبهم، فأوغندا هي فلسطين الجديدة، والأوضاع الدولية المتلاحقة تضيق الخناق حول عنق اليهود وتحتم عليهم القبول:

١- أحداث كيشنيف لا تزال تنبض، والجراح لا تزال تنزف.

٢- واللاسامية تجتاح أوروبا من أدناها إلى أقصاها.

٣- وهذه الولايات المتحدة الأمريكية من ناحية، وأوروبا الغربية من ناحية أخرى تقيدان الهجرة اليهودية وتضعان الضوابط للحد منها.

والجدير بالذكر أنه في الوقت ذاته الذي كان فيه تشمبرلن يقدم عرضه بأوغندا، كانت حكومته تعد لمشروع قانون يحدد الهجرة اليهودية إلى إنجلترا حتى أن أحد نواب البرلمان، وهو ماكس شير، اتهم بلفور، وزير الخارجية باللاسامية [٩٩].

وبناء عليه كان هرتسل على قناعة تامة أن الحل الوحيد المتاح للحركة الصهيونية هي القبول بالأمر الواقع الأوغندي.

انعقد المؤتمر السادس، وعلى جدول الأبحاث نقطة: الموضوع الأوغندي. افتتح هرتسل المؤتمر بكلمة ألقاها باللغة الألمانية واكتفى بعرض الاقتراح دون تعليق بالسلب أو الإيجاب. قال: «إن حكومة صاحب الجلالة تقترح على الحركة الصهيونية أوغندا، التي تقع في شرق أفريقيا كبلاد لجوء لليهودية العالمية.

حقًا إن البلاد الجديدة تفتقر إلى القيمة التاريخية والصهيونية التي تمتاز بها أرض إسرائيل، ولكنني لا أشك في أن المؤتمر سوف يتقبل هذه الهدية بمشاعر التقدير والاحترام الدافئة. إن الاقتراح ينص: استيطان يهودي أو تونومي في أفريقيا الشرقية، حكم يهودي، حكومة محلية يهودية ووزير يهودي حاكمًا للمنطقة المذكورة. وأنني أسمح لنفسي بتقديم هذا الاقتراح للمؤتمر. إن أوغندا ليست صهيون، وهي لن تكون بالنسبة لنا صهيوننا. وإن هذا الاقتراح لا يتعدى

---

(٥٨) م.س ص٣٢٦

كونه وسيلة للتخفيف على خروج اليهود، ولكن، وأرجو الانتباه لذلك، ليس على أساس قومي وسياسي».

من خطاب هرتسل في المؤتمر الصهيوني السادس لندن ١٩٠٣م (١٠٠).

بعد انتهاء الخطاب اختلطت موجات التصفيق الحماسي الحار إلى جانب صيحات الاستهجان والاستنكار والتنديد: انقسم الأعضاء بين مؤيدين، أطلقوا على أنفسهم لقب «الإقليميين» (١٠١)، و«جمعية الباحثين عن الأرض» وتلقبوا «بالأوغنديين» وترأسهم إسرائيل رانغويل، وكانوا أقلية، والمعارضين، وأطلقوا على أنفسهم «صهيونيي صهيون» (١٠٢)، وهم الأغلبية. صاح المؤيدون الإقليميون: نعم! أوغندا هي الحل الوحيد. الواجب إنقاذ اليهود في العالم. ورد المعارضون «صهيونيو صهيون»: أوغندا ليست فلسطين، ولن تكون بديلاً عن فلسطين في يوم من الأيام.

فجأة طرأ حادث درامي قلب الأوضاع في المؤتمر. قام أحد أقطاب المعارضة وغادر القاعة احتجاجًا وتبعه باقي أعضائها. وتفجرت الجلسة وتبعثر الاجتماع ودبت الفوضى واختلط الحابل بالنابل. ارتفعت الأصوات الغاضبة تندد بـ هرتسل وتجلجل:

خائن خائن! لا صهيونية بدون صهيون!

وامتقع وجه هرتسل وعلاه عرق بارد كالثلج، وأصابته القشعريرة وأخذ يرجو، يستعطف ويتوسل. وبعد جهد جهيد تم إقناع المنسحبين بالعودة إلى قاعة المؤتمر، بعد أن أصر هرتسل على وجوب التمسك بالوحدة، وقام بالإيضاح:

إن الاقتراح، حتى وإن تمت الموافقة عليه، لن يكون إلا حلاً مرحليًا وخشبة قفز إلى فلسطين.

وعاد المنسحبون وتم التوصل إلى حل وسط بين المؤيدين والمعارضين: إيفاد لجنة لدراسة الأوضاع في أوغندا وفحص إمكانيات وقدرات البلاد المذكورة على الاستيعاب وطرحت التسوية المذكورة للتصويت وكانت النتيجة:

---

(٥٩) ראשית הציונות' 152

(٦٠) טרוטריאליסטים

(٦١) ציוני ציון תורים עמ' 33

- موافقون = ٢٩٥
- معارضون = ١٧٨

متغيبون = ٨٠

وهكذا انفضّ المؤتمر بنظام، وبرضى الجميع.

سافرت اللجنة إلى أوغندا، وفي أثناء غيابها طرأ حادثان كبيران:

الأول : محاولة هرتسل إقناع كل من ملك إيطاليا والبابا بمشروعه.

والثاني : وفاة هرتسل.

هـ- المحطة الخامسة : هرتسل في روما في بلاط الملك فيكتور عمانوئيل (-١٢/٢٥- يناير ١٩٠٤) (١٠٣)

بعد زلزال الاقتراح الأوغندي حاول هرتسل طرق آخر الأبواب الأوروبية للحصول على موافقة لمشروعه وبراءته.

توجه إلى البلاط الإيطالي في ٢٥ كانون الثاني يناير عام ١٩٠٤م وقابل الملك فيكتور عمانوئيل ووزير خارجيته. وقد استقبل الملك ضيفه استقبالاً رسميًا حسنًا، ولكنه كان باردًا موصدًا كل الأبواب التي كان هرتسل يسعى لفتحها.

في اللقاء ذكر هرتسل للملك أن أحد أجداده العظام تعاون مع شبتاي تسفي المشيح الدجال. فأجابه الملك بفتور: حسبتك أحد الحاخامات.

أجاب هرتسل: كلا يا صاحب الجلالة، إن حركتنا ذات طابع قومي محض. ثم انتقل إلى باب آخر: ذكر للملك مشروع نابليون الرامي إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي.

فقاطعه الملك: إن ما كان يقصده نابليون تحويل اليهود المشتتين إلى عملاء له.

وأضاف: بالإضافة إلى ذلك فإن مشروعكم لا يعني إلا الإقامة في منزل شخص آخر!

وكان ذلك إيذانًا بإغلاق المناقشة وإنهاء المقابلة. لكن هرتسل لم يستسلم فرمى بآخر سهم في جعبته وطلب من الملك أن يفسح المجال للمهاجرين اليهود

---

(٦٢) المسيري ص ١٢٧

بالتوجه إلى طرابلس الغرب (ليبيا) ليعيشوا في ظل القوانين والتشريعات الإيطالية.

فقال الملك: آسف، إن تلك البلاد يقطنها سكان آخرون [١٠٤].

فأجاب هرتسل: ولكن تقطيع أوصال الدولة التركية بات وشيكًا.

وهذه نظرة تدل على أن تطلع هرتسل للعالم هو: إما أن يكون يهوديًا أو استعماريًا، ولا وجود للسكان الأصليين.

انتهى اللقاء وغادر هرتسل بلاط الملك فيكتور عمانوئيل الإيطالي وتوجه إلى الفاتيكان.

و ـ المحطة السادسة والأخيرة: هرتسل في الفاتيكان [١٠٥]

كانت مقابلة هرتسل مع الباب بيوس العاشر رسمية، ولكنها كانت فاترة. استمع البابا إلى طلب هرتسل: الوطن القومي والبراءة.

وكان موقف البابا قاطعًا:

اعلمه أن الكنيسة الكاثوليكية لا تستطيع دعم اليهود في مطلبهم، العودة إلى الديار المقدسة وإقامة دولتهم عليها [١٠٦].

وكان البابا يعبر بذلك عن موقف الكنيسة الثابت من مسئولية اليهود عن صلب السيد المسيح طوال ١٩ قرنا، وخلاصته:

١ ـ اليهود، بصلبهم السيد المسيح، قتلوا الإله.

٢ ـ شعب الله المختار هو شعب الكنيسة فقط.

٣ ـ العهد القديم صورة سابقة للعهد الجديد يرمز إليه ويبشر به.

٤ ـ وأن اليهود حين رفضوا الاعتراف بالمسيح، على أنه نبي الله وكلمته، قد عزلوا أنفسهم عن طائفة إبراهيم الخليل، فألغيت عنهم تبعًا لذلك. صفة شعب الله المختار. أما على رفضهم المسيح فقد عاقبهم الله وشتت شملهم وبعثرهم في أصقاع الأرض ولم يتيح لهم أي أمل في النجاة أو الخلاص.

---

(٦٣) جارودي ص ٢٨٩

(٦٤) מוריס: קרבנות ע" 33

(٦٥) شوفاني ص ٣٣٥

وقد رفض الباب التزحزح عن هذه الثوابت واعتذر عن دعم المشروع الصهيوني الهرتسلي [١٠٧].

وقد لخصت صحيفة يديعوت أحرونون في عددها الصادر في ٢٠٠٠/٣/٢١ عن الرفض القاطع للبابا للفكرة الصهيونية بأن أنهى مقابلته مع هرتسل بعرض الموقف الرسمي للفاتيكان بالنسبة لليهود «إن اليهود لم يعرفوا المسيح فلا يمكننا أن نعترف بشعب يهودي. أما اليهود الذين سوف يصلون إلى الديار المقدسة فسيجدون في انتظارهم رهبان يعملون على تنصيرهم».

وفي الحقيقة لم يبرئ الفاتيكان اليهود من دم المسيح إلا في المجمع المسكوني الذي انعقد في الفاتيكان سنة ١٩٦٥ الذي نص على أنه «مع أن سلطات يهودية قد ساقت، مع أنصارها، المسيح إلى الموت، إلا أن ما اقترف لا يمكن أن يتحمل وزره جميع اليهود الذين كانوا أحياء حينذاك، كما لا يتحمل وزره يهود عصرنا» [١٠٨].

▪ وفاة هرتسل : ٣ حزيران/ يونيو ١٩٠٤

أوصدت أخر الأبواب في وجه هرتسل، عاد إلى اليأس والقنوط، فالفشل يواكبه أينما حل وحيثما توجه، والحركة الصهيونية منقسمة على نفسها، ومعارضوه أقوى عدة وأكثر عددًا من مؤيديه.

استحوذت حالة من الاكتئاب واليأس على هرتسل وتدهورت حالته الصحية ووقع فريسة للمرض. لزم فراش مرضه في ضواحي مدينة فينا وأخذ يعاني سكرات الموت. وقد استسلم أخر الأمر للموت أثر فشل في عضلة القلب. وكان ذلك في ٣ حزيران يونيو ١٩٠٤ وعمره ٤٤ سنة. ودفن في فينا أول الأمر، لكن جثمانه نقل لاحقًا، بناء على وصيته، ودفن على جبل هرتسل جنوب غرب مدينة القدس (طريق القدس ـ عين كارم) [١٠٩].

وقد علقت صحيفة هآرتس عدد ٥ ديسمبر ٢٠٠٧ بمناسبة نقل رفات حفيده

---

(٦٦) מוריס עמ' 33

(٦٧) جارودي ص ٢٣٢

(٦٨) מוריס ע 33

نورمان ودفنه على جبل هرتسل إلى جانب جده في مدينة القدس بأن الكوارث لاحقت عائلة هرتسل حتى آخر فرد منها، وكأن عناصرها يعيشون «تراجيديا إغريقية قديمة». فقد أصيبوا جميعًا: ابنه وابنته بالأمراض النفسية المستعصية (الاكتئاب الشديد) وجميعهم ماتوا في سن مبكرة. أما الحفيد المذكور نورمان فقد أقدم على الانتحار بإلقاء نفسه من جسر في جادة ماساتشوسيتس في واشنطن.

▪ وبعد هرتسل

بعد وفاته عادت لجنة أوغندا تحمل استنتاجاتها وتوصياتها:
أوغندا غير صالحة للاستيطان الجماعي نظرًا لفقرها وشح مواردها وصغر مساحتها فإن طاقتها على الاستيعاب محدودة.

ولكن ذلك لم ينه الصراع داخل المؤتمر الصهيوني، والحركة الصهيونية، ففي المؤتمر السابع سنة ١٩٠٥ تمت المصادقة على توصيات اللجنة فتمرد المؤيدون لاقتراح أوغندا وتكرس الانشقاق بين الأقلية المنشقة المؤيدة لمشروع أوغندا التي أطلق عليها اسم «الأوغنديين» والأغلبية الرافضة للمشروع الأوغندي.

لم يقف الإقليميون مكتوفي الأيدي، بل سارعوا إلى التوجه للتفاوض مع الحكومة البريطانية. مبدين استعدادهم بقبول أوغندا. لكن هذه لم تلبث أن سحبت اقتراحاتها بضغط من اللورد دلمار.

لم ييأس زانغويل زعيم الإقليميين، بل استمر يسعى لوطن قومي في أي مكان متاح على سطح الكرة الأرضية. فطلب من الحكومة العثمانية طرابلس الغرب وطنًا قوميًا، لكنه جوبه برفض عثماني، فطلب أية منطقة متاحة أخرى في أستراليا أو كندا أو أنغولا. لكن جميع هذه المساعي باءت بالفشل، ووصل الوضع إلى الحضيض.

أما صهيونيو صهيون فقد انقسموا بدورهم إلى تيارين:

أ- الصهيونيون العمليون الطلائعيون الذين اعتنقوا الصهيونية العملية الداعية إلى استيطان ميداني تدريجي في فلسطين. وكان أبرز رموزه «جمعية محبة

صهيون».

ب- الصهيونيون السياسيّون الذين دعوا إلى الحصول على براءة ونبذ الحل المرحلي التدريجي. وهم تلاميذ المدرسة الهرتسلية.

وكانت من نتيجة هذه الانشقاقات أن تمزقت الحركة الصهيونية ووصل شقاها إلى حد القطيعة والعداء خصوصًا بعد انسحاب الإقليميين من الحركة الصهيونية تاركين المجال مفتوحًا لصهيونيي صهيون.

بدت صورة الحركة الصهيونية بائسة تدعو إلى الرثاء وهي تترنح موشكة على التهاوي والانهيار. ولكنها لم تلبث أن استعادت صحتها وزخمها إثر مذابح السنوات ١٩٠٣ـ ١٩٠٥ وقمتها مدينة كيشينيف الروسية التي خلدها الشاعر حاييم نحمان بياليك في قصيدته «في مدينة المذابح» בעיר ההריגה والتي أذنت بموجة عارمة من اللاسامية اجتاحت أوروبا، وأخذ اليهود يبحثون عن حل، ولم يجدوا غير الهجرة، فكانت الهجرة الثانية.

الفصل التاسع

الهجرة الصهيونية الثانية

١٩٠٤ - ١٩١٤م

أرضية الهجرة الثانية

زخم الهجرة اليهودية إلى فلسطين يتجدد

بعد أن تجاوز دور الاحتضار

مع رحيل هرتسل تفاقمت الأزمة في الحركة الصهيونية ولم تعد الأوضاع الداخلية والخارجية تبشر بأي خير.

فعلى الصعيد الداخلي تكرّس الانشقاق بين شقي الحركة: الطلائعي والسياسي. وقد أخذ الشق الأول يتعرض لهزّات عنيفة أصابته في الصميم:

فدعم البارون روتشيلد قد توقف.

وسيل المهاجرين قد شحّ أثر القيود التي فرضتها السلطات العثمانية على الهجرة. والضرائب الحكومية تثقل كاهل المستوطنين.

والظروف الموضوعية حولّت حياة المستوطن إلى جحيم: فهو يجهل العمل الزراعي، وبنيته الجسديّة لا تحتمل ذلك العمل الشاق. وظروف البيئة والمناخ من انتشار المستنقعات وما تحمله من أوخام وأمراض وأوبئة تفتك ذات اليمين وذات الشمال.

أما الصهيونية السياسية الهرتسلية فمزّقتها الانشقاقات والانقسامات، وهي عاجزة عن تحقيق أي إنجاز ميداني على الساحتين: الفلسطينية والأوروبية.

وبراءة هرتسل أصبحت كالوباء لا يستطيع أحد من الحكام أو المسئولين تحمّلها أو حتى سماعها. أما الساحة الأوروبية فقد تفجّرت الأوضاع عن موجة عارمة، من اللاسامية الجديدة بين السنوات بين ١٩٠٣ - ١٩٠٥م وكان فاتحتها مذابح كيشينيف الروسية في ١٩٠٣م [(١)].

ارتفعت الأصوات الأوروبية على المستويين، الحكومي والشعبي، مطالبة بالتخلص من اليهود وترحيلهم إلى خارج القارة.

انسدّت الآفاق في وجه اليهود في أوروبا واكفهّرت سماؤهم بالغيوم السوداء منذرة بالويل وعظائم الأمور. فتجدّدت الصيحات:

الهجرة! الهجرة! يجب استئناف الهجرة بأي ثمن كان، وبالسرعة الممكنة.

على كل حال يمكننا إجمال العوامل الإضافية التي دفعت اليهود إلى المطالبة بالهجرة. فبالإضافة إلى موجة العداء لليهودية تضافرت أيضًا:

١. عوامل ديموغرافية : فقد تزايد عدد اليهود في أوروبا حتى ضاقت بهم

---

(١) "בעיר ההריגה" אנציקלופדיה יזרעאל כרך 13 עמ' 3895. ור מוריס עע 34

حاراتهم وأحياؤهم وقصّرت المقدرة الاقتصادية للبلاد عن تزويد الحاجات الأساسية للمعيشة، فنضبت الموارد وشحّت الأعمال وانتشرت البطالة.

٢. عوامل سياسية : نبعت عن سياسة مبرمجة مخططة للحكومات الأوروبية لحمل اليهود على الهجرة، فاستعملت التعسف والظلم والتمييز بحقهم.

٣. عوامل اقتصادية: بحثًا عن مصادر رزق ولقمة العيش في أوطان جديدة.

▪ تركيبة الهجرة الثانية

وصلت الموجات الأولى من الهجرة الثانية شواطئ فلسطين، وخاصة مدينة يافا. ونحن لا نستبق الأحداث حين نقول، بكل تأكيد، إن الأدبيات الصهيونية بالغت في أهميتها ونوعيتها. فقد صوّرتها بالهجرة العقائديّة المثالية النموذجية، وعناصرها يتمتّعون بوعي قوميّ وحس طبقي وفهم تاريخي وشعور وطني مرهف. وادعت أن أقل ما يقال فيهم إنهم كانوا فوق مستوى البشر. لقد وصفتهم بأنهم من الشبان في ربيع العمر أصحاء الأبدان، مثقفين، من خيرة طلاب الجامعات والمعاهد العليا ممن يؤمنون بالمثل والاشتراكية والمتحمّسين لبناء مجتمع اشتراكي عامل. أما استعدادهم للتضحية بكل ما يملكون، حتى بأرواحهم، في سبيل مثلهم فلا حدود له.

أما حقيقة الأمر فإن الصورة المذكورة لم تكن دقيقة تطابق الواقع. وأقل ما يقال عن هذا الوصف أنه تعميم مضلّل، ومحاولة إضفاء صفات الجزء على الكل.

وقد توصّلت أبحاث تاريخية اجتماعية حديثة إلى تحديد صورة أكثر علمية ودقة عن الهجرة المذكورة. وكان أحد الذين عملوا على استقصاء حقيقة الأوضاع غور الروئي في كتابه «أميغرنتيم» أي المهاجرون [٢]. وقد توصّل إلى نتائج جديدة، فبالأساس انقسمت الهجرة إلى فئتين:

١. الأغلبية: وبلغ عددها ١,٢ مليون نسمة، ونسبتها ٩٧% من مجموع المهاجرين، توجهت إلى الولايات المتحدة الأمريكية [٣].

(٢) אל רואי גור : אמייגרטים ملحق صحيفة هآرتس הארץ عدد يوم ٢-٦-٤

(٣) بلغت نسبتها ٩٧,٥ ٪ من مجموع اليهود المهاجرين

٢. الأقلية : وبلغ عددها ٣٠ - ٤٠ ألف نسمة، ونسبتها ٣% من مجموع المهاجرين، توجهت إلى فلسطين [٤].

أما تركيبة الأقليّة التي وصلت إلى فلسطين فقد انقسمت إلى شريحتين:

أ. شريحة الأقليّة : وعناصرها من الشباب الطلائعي العقائدي ويتراوح عددهم بين ١٠٠٠ - ٢٠٠٠ نسمة فقط. ونسبتهم ٣ - ٦% من مجموع المهاجرين الذين وصلوا فلسطين.

ب. شريحة الأغلبية : وتتراوح نسبتها ٩٤ - ٩٧% من المهاجرين.

وكانت من العائلات كثيرة العدد من الطبقات المسحوقة المعدمة. وقد وصلوا إلى الشواطئ الفلسطينية، كما يصفهم شاهد عيان يهودي في صحيفة «هيوم» [٥] سنة ١٩٠٧ وهم يفتقرون:

- إلى المال.
- وإلى أيّة رابطة عاطفيّة أو دينية أو وطنية تربطهم بالبلاد.
- وإلى أيّة تخصّصات مهنية ومهارات فنية تؤمن العمل وكسب لقمة العيش.

باختصار، لم يكونوا مهيّئين لظروف الحياة الجديدة في الوطن الجديد.

أما جهلهم بأوضاع البلاد وظروفها وأحوالها وسكانها فكان مضرب الأمثال. وحين نزلوا شواطئ مدينة يافا (بوابة فلسطين) انتشروا كالأشباح في أزقتها وحاراتها، وأخذوا يهيمون على غير هدى لاعنين اليوم الذي هاجروا فيه.

ولم يلبثوا أن بادر بعضهم بافتتاح حوانيت صغيرة متلاصقة كعلب الكبريت. فهذا يبيع بضعة أرغفة من الخبز. وذاك زجاجات من النبيذ وثالث بعض رؤوس من البصل. وآخرون انحطوا إلى أسفل الدرك الأخلاقي فعملوا بالسمسرة الممنوعة. وآخرون قوّادون تاجروا باللحوم البشرية في سوق الرقيق الأبيض، فأخذت أحياء مدينة يافا وزقاقاتها وفنادقها تعجّ ببنات الهوى من عناصر الهجرة، وآخرون مارسوا النصب والاحتيال حتى على المهاجرين أبناء جلدتهم فباعوهم تذاكر سفر مزورة، أو احتجزوهم بمختلف الحجج والأعذار في الفنادق ليستنزفوا أخر درهم من أموالهم.

(٤) بلغت نسبتها ٢,٩ ٪ من مجموع اليهود المهاجرين

(٥) היום

ويصف لنا ميخائيل بار زوهر في مؤلفه «بن غوريون - رجل وراء أسطورة» ص٢٥ مشاهد من موجة الهجرة الصهيونية الثانية قال: «تدفق تيار رفيع من المهاجرين الشبان - كانوا ينزلون في ميناء يافا، شادّين في ملابسهم الأوروبية وسط الجمهور العربي، يتحدثون الأيديش، الروسية والبولندية. كانوا شبابًا، لكن معظمهم مسلوب القوة الجسدية ويجهلون الشؤون الزراعية. كان يلعج بهم الإيمان التام والتصميم العنيد والتقشف».

أسقطت المجهودات الجسدية والملاريا والجوع الكثير من الضحايا بينهم. وفضل كثيرون من الباقين الهروب من تلك البلاد البغيضة في السفينة الأولى التي أبحرت من يافا.

ويقول بن غوريون: «مع مرور الأيام (في وقت لاحق ز.ف) بأن تسعة من مجموع كل عشرة كانوا قد هاجروا في الهجرة الثانية غادروا البلاد».

لم يحقق «المعجزة الكبيرة» في التاريخ اليهودي وهي العودة للأرض آلاف الطلائعيين كما قال بعد ذلك صهيونيون محترفون. «الطلائعيون كانوا مئات، وأحيانًا عشرات، من الشبان المنهكين، المرضى والجائعين. أما الحديث عن شعب كامل عاد للعمل في الأرض فلا يعدو عن كونه مجرد أسطورة».

وقد زاد من تردّي أوضاع هذه الأغلبية من المهاجرين أن دوائر الهجرة الصهيونية تحفظت منهم ولم ترحب بهم مفضّلة تحويلهم إلى الولايات المتحدة واستبدالهم بشريحة العقائديين الشبان.

وطالما قدم مناحم شاينكين [٦] وأرثور روبين من دائرة الاستخبارات الصهيونية تقاريرهما التي توحي بأن البلاد في غنى عن مثل هؤلاء المعدمين المفلسين، والأفضل تحويلهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية . وكثيرًا ما كان يردّدان القول أن الهدف الصهيوني لا يمكن تحقيقه بأمثال هؤلاء المملقين الذين يعانون من المشاكل الصحية والاقتصادية والنفسية. وعلى هذا الأساس رفض شاينكن معظم الطلبات التي قدّمت إليه للهجرة إلى فلسطين فأوصى برفض ٦١% منها وقبول ٢١% منها بشرط أن يكونوا محتاطين على مبالغ معقولة من المال. وأن يهاجروا، أول الأمر، فرادى بدون عائلاتهم.

(٦) מנחם שינקין

وفي سنة ١٩٠٨ كتبا إلى أوتو فيربورغ منتقدين مظهر المهاجرين وسلوكهم، وادّعيا أنهم يقللون من قيمة اليهود في عيون السلطات التركية وعيون الأهالي المحليين وقالا: «نرى لزامًا علينا أن نشير إلى أن هذه الهجرات تقلل من قيمتنا. يومًا بعد يوم، في عيون الموظفين والأهالي. فهؤلاء لا يرون إلا يهودًا مهاجرين فقراء معدمين مسحوقين من حثالة البشر، وهم لا يلبسون إلا أسمالاً بالية ولا يقدّمون أيّ خير للبلاد». وانهيا « ما لم يهاجر إلينا متموّلون يهود من العاصمة اسطنبول فإن كلمة يهودي سوف تظلّ مرادفة للفقر، الضعف والمهانة».

ولكن توجه الاستخبارات والدوائر الرسمية اليهودية في الحد من هجرة هذه الشريحة لم يكلل بالنجاح، فقد استمر هؤلاء المهاجرون من عامة الشعب يضلون البلاد لأن إمكانياتهم المالية لم تسمح لهم بالهجرة إلى أبعد من فلسطين.

كان الوضع صعبًا، وإمكانية استيعابهم أصعب فاضطر ٧٥% ممن وصلوا إلى البلاد، إلى العودة من حيث أتوا، ولم يلبث أن لحق بهم ٥٠% من المتبقين، بمن فيهم بعض عناصر شريحة الطلائعيين. وهكذا بلغت نسبة العائدين ٨٧,٥% من مجموع المهاجرين [٧].

أما شريحة الأقلية من الشبان الطلائعيين العقائديين الذي صمدوا في البلاد، ونسبتهم لا تتجاوز الـ ١٢,٥% من المتبقين فحاولت الأدبيات الصهيونية أن ترسم لهم بروفيلاً سيكولوجيًا اجتماعيًا خاصًا، فبالإضافة إلى كونهم طلاب جامعات ومعاهد عليا، وكونهم عازبين في مقتبل العمر فإنهم اعتنقوا الاشتراكية والتقدمية ودانوا بالإلحاد. ووصل بعضهم إلى حد التطرف والعنصرية في أقواله وأفعاله [٨]. ولقد غفلوا طروحاتهم بهالة من الثورية القومية، واستخدام القوة والعنف تجاه الداخل والخارج. لقد حملوا معهم فكرة العنف المسلح لفرض وجودهم القسري على السكان العرب [٩] المحليين، فبالنسبة للداخل قالوا بحرب الطبقات وسيادة دكتاتورية الطبقة العاملة وتخويلها القوة السياسية المطلقة [١٠].

(٧) קימרלנג עמ' 68

(٨) شوفاني ص ٣٣٩

(٩) קימרלינג עמ' 71. כהן עמ' 52 – 53

(١٠) קימרלינג עמ' 85

أما بالنسبة للخارج فقالوا بوجوب تأمين قوة عسكرية يهودية مسلحة [١١].
وقد دعت هذه الشريحة إلى العمل الجسدي ورفض حياة المهجر ونمط معيشته واقتصاده.

أما بالنسبة للبروفيل النفسي فقد حملوا معهم سيكولوجية الإنسان الخائف المرعوب. فالمذابح والملاحقات الرهيبة التي تَذَوّقوها في الوطن الأوروبي ترسخت في أعماقهم وتحولت إلى مركب أساسي من شخصياتهم وضمائرهم. ويمكن وصفهم أنهم عانوا من «عقدة كيشينيف»، فنقلوها معهم إلى الوطن الجديد في فلسطين. ولكنهم استبدلوا روسيا بفلسطين والشعب الروسي بالشعب العربي الفلسطيني. تناسوا في نهاية الأمر العدو الروسي، واحلوا محله العدو العربي الفلسطيني. واللاسامية الروسية الحقيقة بلا سامية عربية موهومة. وقد انتباهم الرعب والوسواس فتصوروا أن وراء كل شجرة وتحت كل حجر يكمن عربي معاد.

وقد تركت هذه الشريحة بصماتها ليس على الهجرة الثانية فقط، وإنما على اليشوف اليهودي في فلسطين في حاضره ومستقبله خاصة من الناحية التنظيمية والناحية العقائدية المتزمتة [١٢]. وأبرز رموز هذه الشريحة الكسندر زايد، غوردون، بن غوريون، إسحق بن تسفي، مانيا واسرائيل شوحط وغيرهم. وقد قاد هؤلاء سفينة الحركة الصهيونية في فترة الانتداب البريطاني وفترة استقلال الدولة.

وكان غوردون رمزًا للعمل الزراعي، وضرب المثل بنفسه في ممارسة العمل الجسدي رغم شيخوخته، وأصبحت صورته «الشيخ والمعول» رمزًا ومثلاً يقتدى في الأوساط الصهيونية.

وقد قاد الباقون اليشوف اليهودي في ساعاته المصيرية فكان منهم رئيس دولة مثل بن تسفي ورئيس حكومة مثل بن غوريون وواضعو السياسة الأمنية.

---

(١١) شوفاني ص ٣٣٩

(١٢) אלכסנדר זאיד גורדון בן גוריון י צחק בן צבי מניה

▪ أزمة الهجرة الثانية

بعد وصول موجات الهجرة المذكورة إلى الشواطئ الفلسطينية تصوروا أنهم حلوا بلادًا بكرًا خالية من السكان والحضارة. وإن، إن وجد بعض السكان، فإنهم لا يتعدون شراذم بشرية مبعثرة هنا وهناك، أو مجموعات بدوية لم تتخط دور البداوة بعد. وأن هذه الشراذم لا تبالي بالتخلي عن أرضها التي لا تعرف قيمتها، كما أنها لا تكترث بالقيام بالعمالة المأجورة عند السيد اليهودي المهاجر الجديد. ومن غير المستبعد أن تكون هذه التصوّرات مستمدة من رواية هرتسل «بلاد قديمة جديدة» التي صادف نشرها في سنة الهجرة نفسها ١٩٠٤م.

وكانت المفاجأة في انتظارهم حال ما وطئت أقدامهم تراب فلسطين وجدوا بلادًا عامرة بالمدن والقرى والموانئ والسكك الحديدة والمزارع والبساتين.
رأوا شعبًا متمدنًا متحضرًا له مؤسساته وديانته. وقد صدموا حين تأكدوا أن هذا الشعب لن يسلم بالتخلي عن أرضه ووطنه، وأنه لن يستقبل المهاجرين الجدد بالورود والرياحين و... بالأحضان.

ذهل الوافدون وأصابهم الإحباط بعد أن اصطدموا بالواقع. وقد زاد من إحباطهم حين وجدوا يشوفًا يهوديًا قائمًا يكن لهم العداء ويرفض تقبلهم أو استقبالهم. وحين توجهوا إلى عناصر هذا اليشوف طالبين العمل في المستوطنات الزراعية جوبهوا بالصد والرفض؛ فهؤلاء راضون عن عمالهم وحراسهم العرب. فالعامل العربي والحارس العربي يكد ويخلص في عمله مقابل دريهمات معدودة لا تكاد تسمن أو تغني من جوع، فلا عجب أن يرفض المستوطن القديم تشغيل المهاجر الجديد، بل ينصحه بالعودة من حيث أتي ... وبالسرعة الممكنة.

إزاء الوضع المذكور اضطر ٨٧,٥% من أولئك المهاجرين إلى العودة إلى أوطانهم. أما الـ ١٢,٥% المتبقين وبلغ عددهم ٣٠ـ ٤٠ألف نسمة، قد مكثوا في البلاد واستقروا بها، وعملوا في المدن والأرياف في مختلف الأعمال: الوظائف الحكومية، الخدمات المصرفية والفندقية والمنزلية، اشتغلوا حرفيين في الأشغال اليدوية، وفي التجارة والسمسرة والبقالة وبيع المفرق والجملة وسائر الأعمال الأخرى.

الطروحات الفكرية لشريحة الأقلية العقائدية من الهجرة الثانية

انصرفت الأغلبية العظمى من الـ ١٢,٥% إلى البحث عن عمل لتأمين لقمة العيش. أما الأقلية وهي شريحة النخبة العقائدية والتي تراوح عددها من ألف - ألفي نسمة فقد حاولت التطبيق الميداني لأفكارها وطروحاتها التي تميزت بالاتجاه القومي العنصري المتزمت فدعت، تحت مسميات مختلفة وشعارات مضللة، إلى تهويد فلسطين في كافة قطاعات الحياة. وأهمها:
تهويد الأرض والتجارة والعمل والحراسة.

١. تهويد الأرض :

أما «تهويد الأرض» فأطلقوا عليه مسميات أخرى مثل «تخليص الأرض» و «غزو الأرض» أي تحريرها وتخليصها من «براثن المغتصب العربي»، والهدف من ابتياع الأراضي العربية من مختلف المصادر العربية وغير العربية، الحكومية وغير الحكومية، وتسجيلها على اسم الشعب اليهودي ملكًا أبديًا.وبذلك يتم «إنقاذ الأرض من الأغيار». وقد قال هرتسل «حين نحتل البلاد يجب أن ننتزع ملكية الأرض الخاصة من أيدي أصحابها، وسنحاول تشجيع الفقراء منهم على النزوح إلى البلدان المجاورة، وذلك عن طريق سد إمكانيات العمل والعيش».

وبادرت المؤسسات الصهيونية في حملة ابتياع الأراضي من الحكومة وكبار المالكين الغائبين العرب، وغير العرب الذين يقطنون بعيدًا عن أراضيهم في فلسطين وخارج فلسطين الذين تملكوها من السلطات العثمانية بطرق قانونية ملتوية تدعمها الرشوات.

أما المزارعون المقيمون على تلك الأراضي والذين توارثوها خلفًا عن سلف، وكابرًا عن كابر فكانوا يكرهون على مغادرتها. وكثيرًا ما كان أولئك الفلاحون يرفضون التنازل عن أراضيهم وبيوتهم وقراهم ويعتصمون على الأرض للحيلولة دون استيلاء المالكين الغرباء الجدد الذين كانوا يلجأون إلى القانون واستخدام رجال الدرك العثماني لطرد المعتصمين، باعتبارهم خارجين عن القانون. وهذا ما حدث مع مهجري قرية الجاعونة وقرية المطلة ومكفة يسرائيل وبيتح تكفا وغيرها.

وكانت جمعية «الصندوق القومي الدائم لإسرائيل» (الكيرن كييمت) التي جعلت هدفها الوحيد ابتياع الأراضي قد نصت في نظامها في المادة الثالثة: «أن كل أرض يتم تملكها تعتبر ملكية يهودية، وتسجل على اسم الصندوق. وتبقى على هذا الحال إلى أن تسجل على اسم الشعب اليهودي ملكًا غير قابل للتصرف». كما نص دستور الوكالة اليهودية كذلك أن الأملاك اليهودية التي يتم استملاكها لا تكون قابلة للتصرف. ولا يحق لأيّ مستوطن يهودي أن يحول، أو يجير عقد إيجاره إلى طرف آخر غير يهود. كما لا يحق إسكان غير اليهود في المستوطنات اليهودية. كما نص عقد صندوق الكيرن كييمت الذي يبرم بين المستوطن اليهودي والحركة الصهيونية، ممثلة بالصندوق القومي المذكور مالكة الأرض، على شرط أن يتعهد المستأجر بموجبه بعدم تشغيل غير اليهود.
وإذا أخل المستأجر بالشروط وشغل عمالاً عرباً، سرًا أو جهرًا، يتم إلغاء العقد وتفسخ الاتفاقية.

وأما المادة السابعة من الدستور فتلزم المستوطن والمستأجر أن يسكن في المستوطنة وأن يمارس عمل الزراعة بنفسه أو بمعونة أسرته. وإذا كان مضطرًا فيمكنه استخدام عمالة مأجورة على أن تكون يهودية خالصة

٢. غزو التجارة :

عملت الحركة الصهيونية على مقاطعة المنتوجات والسلع العربية، واصرت إلا يبتاع اليشوف اليهودي إلا المصنوعات اليهودية. وحين يدخل الباعة المتجولون العرب الأحياء اليهودية في المدن المختلطة لبيع بضائعهم كان يتجمهر حولهم المتعصبون ويقلبون عرباتهم وبسطاتهم، ويبعثرون بضائعهم على الأرض ويدوسونها بأقدامهم وسط تهليل الجمهور.

٣. غزو العمل ـ العمل العبري :

ويقضي هذا باستخدام العمالة اليهودية فقط والاستغناء عن العمالة العربية.
وقد انعكس هذا الشعار في فكر غلاة عناصر الهجرة الثانية ومن أبرزهم بن غوريون ١٨٨٦-١٩٧٢ وأوسيشكين ١٨٨٣-١٩٤١م وهو روسي. وطرح أفكاره في كتابه «برنامجنا» ١٩٠٤م وحمل فيه بشدة على المستوطنين اليهود

الذين يستخدمون عمالة عربية وطالب باستبدالها بعمالة عبرية. وقال: إن أحد الأهداف الرئيسية للهجرة إلى فلسطين هي بسط قبضة العمال اليهود على العمل وإبعاد العرب عنه. كما شكل فريق من المستوطنين «جمعية الشباب الإسرائيلي» لتهديد كل من يخالف أمرهم في مقاطعة العمالة العربية وقاموا بحملات ضد اليهود الذين يستخدمون العمال العرب. وأبرز الأمثلة على ذلك: الحملة التي نظموها ضد مدير بنك أنجلو - فلسطين لاستخدامه عمال بناء عرب في بناء منزله الخاص. وقد نجحوا في الضغط على المصرف لإنهاء عمله، كما قام البعض الآخر بإحراق منزله.

في سنة ١٩٠٨م قررت «شركة تطوير أراضي فلسطين» غرس مساحات من أراضي منطقة بن شيمن، بين اللد والقدس، بالزيتون تخليدًا لذكرى هرتسل واستخدمت عمالاً عربًا فما كان من العمال اليهود في منطقة اللد إلا أن عقدوا اجتماعًا احتجاجيًا. وقام فريق منهم باقتلاع أشجار الزيتون المغروسة حديثًا وغرس أشجار زيتون أخرى ولكن ... بأيد يهودية وطالبوا «بمحو هذا العار». وقد دفع هذا التصرف الإدارة الصهيونية في فلسطين إلى إصدار تعليماتها إلى مديري أقسامها بالامتناع عن استخدام العمالة العربية وأصبح هذا الأمر بمثابة قانون مُلزم.

وكانت الفروق بين ظروف العامل العربي وشروط عمله تختلف اختلافًا كليًا عنها لدى العامل اليهودي. وقد قال حاييم أرلوزوروف في سنة ١٩٢٦: في كل مكان في البلاد وجد فيه العامل اليهودي ممسكًا بالفأس والمحراث نجد العامل العربي الرخيص يرافقه كظله. لقد اصطدم العامل اليهودي ذو المستوى الأوروبي الرفيع بمنافسة البدائي ابن الشعب الجار الذي لا تزيد مطالبه كثيرًا عن الصفر. كان العامل اليهودي الذي يعمل ٨ ساعات يوميًا، بأجر يومي يتراوح من ١٧,٥ - ٣٥ قرشًا، يقابله العامل العربي الذي يعمل ١٢ ساعة يوميًا بأجر يتراوح ٨- ١٢ قرشًا في اليوم.

وإن التمييز لم يلحق بساعات العمل والأجر فقط، وإنما تعداه إلى نوعية العمل أيضًا. فلقد صنف العمل ثلاثة مستويات: عليا ووسطى ودنيا.

فالعليا مثل تقنيب الكرميات أو غرس أشجار الحمضيات وما شابه يجب أن تكون حكرًا على اليد العاملة اليهودية.

والوسطى مثل: قطف الزيتون أو عناقيد العنب فيجب أن تنتقل تدريجيًا إلى الأيدي اليهودية.

والدنيا مثل التعشيب والتفريد ووسائل الأعمال التي تتطلب مجهودًا جسيمًا شاقا فلتبق حكرًا على الأيدي العاملة العربية.

وقد برر يوسف فيتكين «أحد عناصر الهجرة الثانية» استخدام الأيدي العاملة العربية - رغم صعوبة الأمر ومرارته، وفضلها عن اليد العاملة اليهودية بأن العامل العربي: قوي البنية، مستعد للعمل في أي عمل متاح، راض بأجر زهيد. وهو كثير العمل قليل الطلبات.

بالإضافة إلى ذلك فهو لا يعمل كعامل فقط، وإنما كخبير ومرشد زراعي أيضًا.

أما العامل اليهودي فعلى نقيض ذلك: ضعيف البنية، يفتقر إلى القوة البدنية وطاقته على التحمل والعمل محدودة. وهو كثير الطلبات باهظ التكاليف، ولا يرضى العمل بدون شروط اجتماعية وتأمينات صحية وأجازات سنوية.

والخلاصة:

إن العامل العربي على أتم الاستعداد للعمل من مطلع الشمس حتى غروبها دون تحديد عمل. بينما العامل اليهودي يصر على ٨ ساعات عمل في اليوم.

وكان خيار المستوطنات يتراوح بين استخدام عمالة عربية رخيصة، وعمالة يهودية مكلفة.

٤. تهويد الحراسة :

أما «تهويد الحراسة» أو «غزو الحراسة» فيعني الاستغناء عن الحراس العرب واستبدالهم بحراس يهود، وكان هذا المجال أبرز مجالات التهويد:

في الأساس كانت حراسة المستوطنات ومرافقها: سكانها، بيوتها وممتلكاتها توكل للحراس العرب الذين أطلقوا عليهم شتى الأسماء حراس، نواطير، مخضرين ... وكان المستوطنون اليهود يقومون بدفع أجور هؤلاء الناس من جيوبهم الخاصة.

وقد استمر الوضع حتى ١٩٠٧م، ففي عيد العرش اليهودي الموافق ٢٠ أيلول سبتمبر ١٩٠٧م اجتمع لفيف من زعماء الهجرة الثانية في غرفة بن تسفي وتداولوا أمر الحراسة. وكان أبرز الحضور: مانيا وإسرائيل شوحط وإسرائيل جلعادي والكسندر زايد. وقد اتفق الحضور على وجوب تغيير الوضع، فاقترح إسرائيل شوحط استبدال الحراسة العربية بقوة نظامية مركزية محدودة العدد تكون على أهبة الجاهزية للانطلاق في أية لحظة إلى أية جهة لتؤدي أية مهمة توكل إليها. واقترح أيضًا أن يتم المشروع على مرحلتين:

١ـ المرحلة الأولى وتقتصر على حراسة المستوطنات والمحافظة على أمنها، بحيث تكون القوة الموكلة بهذا الأمر محدودة العدد والمهمات.

٢ـ المرحلة الثانية، وتشتمل إقامة سلسلة متواصلة من المستوطنات الأمنية على امتداد الحدود الفلسطينية. ويتركز في كل مستوطنة حراسها. وعند الحاجة يتجمع هؤلاء ليشكلوا قوة موحدة تحت قيادة واحدة.

أ. منطقة بارغيورا

لقى اقتراح شوحط القبول وشرع في الليلة ذاتها بتشكيل قوة حراسة عبرية وأطلقوا عليها اسم «بار غيورا»، وهو اسم أحد قادة الثورة اليهودي على الإمبراطورية الرومانية.

وقد اعتبر المؤسسون منظمتهم نخبة مصطفاة طلائعية تكون نواة مسلحة مهمتها حراسة يهودية فورية في المرحلة الأولى واحتلال فلسطين لاحقًا. وشرعوا يمارسون عملهم في الحراسة بعقود عمل في الجليل الأسفل (مستوطني مسحة والشجرة) وشفيه. وفي منطقتي المركز والساحل.

بـ منظمة هشومير

واستمر الوضع حتى سنة ١٩٠٩ حين تحولت منظمة بارغيورا إلى منظمة «هشومير» (الحارس). ففي السنة المذكورة، أثناء انعقاد المؤتمر القوي للحراس اجتمع أعضاء من حزب بو على تسيون عمال صهيون من عناصر الهجرة الثانية.

وكان أبرزهم: مانيا واسرائل شوحط / اسرائيل جلعادي / مندل بورتو غالي

وانتهوا إلى أنه قد حان الوقت لإقامة منظمة حراسة مركزية كبيرة معترف بها تحل محل منظمة بارغيورا، على أن تكون مسلحة وشبه سرية هدفها حراسة المستوطنات اليهودية وأراضيها.

وقد بوشر بإقامة المنظمة الجديدة التي أطلقوا عليها اسم «هشومير» وقد اختاروا شعارًا لها هو «بالدم والنار يهودا سقطت وبالدم والنار يهودا سوف تنهض». وهذا بيت شعر مقتبس من قصيدة للشاعر يعقوب كوهين قاله على لسان أحد قادة الثورة اليهودية زمن الزمان. وجعلت المنظمة هدفها «شق طريق الصهيونية بيدٍ على المحراث وأخرى على السيف».

وشرعت المنظمة الجديدة في العمل. وقد استمرت تعمل بموجب العقود التي تعاقدتها بارغيورا. وخلال ٤ سنوات تعاقدت مع المستوطنات: مسحة، كفار طابور، الخضيرة ريشون لتسيون، ورحوفوت، وتوسع عملها ليشمل في نهاية الأمر، عشية الحرب العالمية الأولى، ٤٣ مستوطنة، يقطنها ١٢ ألف نسمة. ولم يشمل التوسع الناحية العددية فقط، وإنما شمل مجالات العمل، فلم تعد مهمة المنظمة حراسة المستوطنة وحدها فقط، بل اتسع ليشمل المستوطنة وجميع مرافقها وما يتبعها من أدوات عمل ودواب عمل ومزروعات.

ومع ذلك ظل عدد أعضائها العاملين محدودًا لا يتجاوز المائة، ولكنهم وظفوا ٢٠٠ حارس يهودي بالأجرة.

وقد تميزت هشومير بميزتين رئيستين:

- أولها: اعتماد أعضائها أسلوب بارغيورا في طريقة العمل التي اقتبسوها عن الحراس العرب. فلقد تعلموا اللغة العربية العامية بمختلف لهجاتها. كما تزيوا بلباس الحراس العرب: الكوفية والعقال، وتسلحوا بمثل أسلحتهم. وقلدوهم في المأكل والمشرب والعادات والتقاليد والسلوك ونمط المعيشة، كما حذوا حذوهم في أساليب الحراسة، اقتفاء الآثار وطرق القتال من سرعة وخفة ومرونة ومناورة وفروسية وكر وفر.

- وثانيها: القناعة بأن أعضاء هشومير مجبولون من طينة خاصة مميزة من غير طينة المستوطنين، بل من غير طينة البشر، فهم الأبطال الخارقون

المتفوقون. أنهم شريحة الصفوة من خيرة المقاتلين. أنهم النخب الممتازة التي لا تعرف الخوف ولا تهاب الموت!

فلا عجب، إذن أن ينعكس ذلك في نظرتهم الاستعلائية الفوقية إلى الغير. فلقد تميز سلوكهم بالتعالي والتكبر، الغطرسة، والاستفزازية والعدوانية. حتى أن المستوطنين اليهود من أبناء جلدتهم لم يسلموا من أذاهم، كما لم يسلم منهم العرب الفلسطينيون بطبيعة الحال.

فبالنسبة للعرب لم يكتف أعضاء هشومير بطرد الحراس العرب، بل تجاوزوا ذلك إلى طرد العمال العرب أيضًا وإكراههم تحت التهديد والوعد والوعيد، على ترك أعمالهم عند اليهود ليتم استبدالهم بعمال يهود.

ولم يلبثوا أن تجاوزا ذلك، في فترة لاحقة بعسكرة العمل العبري وذلك بإنشاء كتائب عمل مسلحة لتفرض العمل العبري بقوة السلاح وأطلقت عليها «كتائب العمل».

ثم صعّدوا تطرفهم ضد العرب بالتدخل في الخلافات على الملكية بين العرب واليهود، فدعموا الادعاءات اليهودية، وشهروا أسلحتهم في وجه العربي، وقد ساهموا بذلك، على تثبيت الوجود اليهودي وساهموا في عملية اقتلاع الفلاح العربي وتشريده من أرضه. وكانت أشرس ممارساتهم وأشدها وحشية تلك التي جرت في غور بيسان، السهل الساحلي، مرج بن عامر ومنطقة المركز.

أما بالنسبة للمستوطن اليهودي فكانت وطأتهم شديدة أيضًا. فإنّ التجاوزات التي مارسوها مع العرب لم تلبث أن نقلوها إلى اليهود أيضًا في قطاع الاستيطان فقاسى هؤلاء الأمرّين من جبروتهم وهسفهم ونظرتهم الاستعلائية، الأمر الذي أثار حفيظة هؤلاء. وها هو أحدهم يكتب شاكيًا لاعنًا الساعة التي استخدمهم فيها. يقول: «منذ اللحظة التي تسلمت فيها منظمة «هوشمير» الحراسة لم تعد كرومنا ملكًا لنا. أنني لا أشعر أن كرمي ملكي الخاص. أنني أطالب باستعادة كرمي».

وقد بلغ شعور الاغتراب من هذه المنظمة إلى حد أن منظمة «هشومير هتسعير» (الحارس الشاب - وهي غير منظمة هشومير) حظرت على أعضائها التجند في

صفوف منظمة هشومير. لذلك لا نستغرب أن تبدأ هذه المنظمة بالاضمحلال والتلاشي وتتناقص عقود عملها حتى جاءت الضربة القاصمة التي قضت عليها القضاء المبرم، ذلك مع نشوب الحرب العالمية الأولى حين أصبح فرض الأمن والنظام والانضباط من مهمات الاحتلال البريطاني، ومن بعده الانتداب. فلم تعد هناك أية حاجة لمنظمات عسكرية أو شبه عسكرية للحراسة.

وانحلت المنظمة إلى حين، ولكن مع تجدد الانتفاضات العربية في فلسطين ١٩٢٠ و١٩٢١ و١٩٢٩ و١٩٣٥ و٣٦-١٩٣٩م ضد الانتداب وحلفائه الصهيونيين عادت المنظمة إلى الحياة والعمل مرة أخرى.

وخلاصة القول عن إيديولوجية التهويد ما قاله أحد المهاجرين الأوائل هو موشه منوحين. الذي هاجر إلى فلسطين سنة ١٩٠٤م، فأشار إلى ظهور بوادر نزعة عنصرية تشوبها نزعة بالانعزال عن شعوب الأرض. وأضاف، وهو شاهد عيان للفترة المذكورة.

إن الشعارات التي ارتفعت كانت:

- لا تعاملوا طبيب أسنان عربي.
- لا تشتروا من تاجر عربي.
- لا تشتروا من بقال أو بائع فواكه أو بائع متجول عربي.

وأضاف: في حوزتي وثيقة مذهلة تروي قصة إبعاد العرب. وإبعاد العرب تعبير مخفف والأصح القول: طرد العرب بقسوة من بيوتهم وديارهم.

مهاجرو الهجرة الثانية يتحولون للعمل الزراعي

محاولات عناصر الهجرة الثانية لإيجاد عمل في مستوطنات الهجرة الأولى باءت بالفشل. فلقد فضل المستوطنون العمالة العربية المأجورة وأخذ المهاجرون يعانون من البطالة وخيم عليهم شبح الجوع.

ولكن حدث في سنة ١٩٠٨م انقلاب غيّر مجرى حياتهم. ففي السنة المذكورة وافقت المنظمة الصهيونية، بتأثير من حاييم وايزمان اعتماد «الصهيونية التركيبية» التي كانت حلاً وسطًا بين صهيونية محبة صهيون الطلائعية والصهيونية السياسية الهرتسلية وزاوجت بينهما.

وقد تضمنت الصهيونية التركيبة الجديدة: السعي للحصول على البراءة جنبًا إلى جنب مع العمل الطلائعي الميداني على الأرض الفلسطينية.

وبذلك أخذت المنظمة على عاتقها دعم الاستيطان الزراعي.

وقد تم افتتاح «المكتب الفلسطيني» في شهر نيسان أبريل ١٩٠٨م بإدارة أرثور روبين ١٨٧٦ ـ١٩٠٨م وأهدافه:

- تحفيز الاستيطان الزراعي في فلسطين.
- تولي إدارة شئون المستوطنات.

وقد تلا ذلك استيطان زراعي ميداني مجدد للمنظمة الصهيونية. وحين وصل روبين للبلاد لمزاولة عمله رأى ضائقة مهاجري الهجرة الثانية العاطلين عن العمل، وتوصل إلى نتيجة أنه ما لم يتداركهم بحل فوري فإنهم سوف ينهارون، ولن يتمكنوا من الصمود فترة أطول. فلا بد إذن من ارتجال حل سريع. فباشر روبين بتنفيذ مخطط كان قد أعدّه على عجل ويشمل مرحلتين:

أ- مرحلة تدريب أولئك المهاجرين على العمل الزراعي بإشراف خبراء زراعيين.

ب- والمرحلة الثانية استيعابهم في الأعمال الزراعية في مستوطنات جديدة تقام على أراض تملكها المنظمة. وكانت أولى المستوطنات في المرحلة المذكورة:

١- مستوطنة كنيرت

أقيمت المستوطنة على أرض تملكتها الكيرن كييمت، مساحتها ٢٠٠٠ دونم على الشاطئ الجنوبي الغربي من بحيرة طبرية على أنقاض قرية «الدليكة» العربية. وكان بها أطلال وبناية خاربة مهجورة وخان كبير.

لجأ عناصر من الهجرة الثانية إلى الخان أول الأمر، ثم توسعوا فأضافوا أبنية ومرافق وقاموا بفلاحة الأرض فزرعوها في السنة الأولى - الحبوب والبطاطا.

كانت تلك البداية في المستوطنة الأولى للهجرة الثانية.

٢- كيبوتس دغانيا

بعد كنيرت جاءت الخطوة التالية. توجهت مجموعة من العمال إلى روبين طالبين منحهم أرضًا لاستيطان زراعي، على أن يكونوا متحررين من أية رقابة أو تمويل أو إرشاد تقني، قالوا له: «أتركنا وشأننا، أعطنا الأرض وحسب، ونحن

كفيلون بتدبير أمورنا بأنفسنا. أننا نتكفل بالقيام بجميع الأعمال لوحدنا دون مساعدة أحد، غير معتمدين إلا على جهودنا الذاتية دون تدخل خارجي».

كانت تلك مغامرة خطيرة وتجربة جريئة باهظة التكاليف.

ولم يتردد روبين، استجاب لهم وسلمهم في ديسمبر / كانون الأول ١٩٠٨م أرضًا في «أم الجون» (والبعض يسميها أم جوني. انظر عراف شكري: المواقع الجغرافية في فلسطين ص ٩٥) شرقي مخرج نهر الأردن وأطلقوا عليها اسم دغانيا. وكان ذلك الكيبوتس الأول في فلسطين.

وقد التزم أعضاء الكيبوتس بمبادئ قيدوا أنفسهم بها أهمها:

أ. التقيد بمبدأ العمل العبري، فالعمل يجب أن يقوم به اليهود فقط، وكان نظام العمل هذا هو النموذج الأساس لعمل الكيبوتسات اللاحقة.

ب. العمل يجب أن يقوم به المستوطنون أنفسهم. وهو مشترك للجميع كما هي الحياة شراكة.

شرعوا في العمل وذاقوا الأمرَّين بسبب جهلهم بالعمل الزراعي خاصة، والعمل الجسدي بصورة عامة. لكنهم تعلموا بطريقة التجربة والخطأ.

لم يعتمد المستوطنون صنفًا واحدًا من الزراعة، بل فضلوا الزراعة المختلطة المتنوعة:

١. الفلحة.
٢. الأشجار المثمرة.
٣. تربية الدواجن والمواشي.
٤. الخضروات.

أما تنظيم نمط الحياة اليومية فكان على أساس مشترك:

١. مؤسسات ومرافق عامة مشتركة للجميع.
٢. مطبخ مشترك.
٣. قاعة طعام مشتركة.
٤. حمامات ومنافع مشتركة.
٥. غرفة أطفال مشتركة لجميع أطفال الكيبوتس.

أما الأمهات الوالدات فيتركن أطفالهن تحت رعاية مؤسسات الطفولة في الكيبوتس ويتوجهن لمباشرة أعمالهن اليومية.

وقد قامت الكيبوتسات اللاحقة على هذا النمط:

١. إدارة ذاتية للمزرعة.

٢. عمل ذاتي يقوم به الأعضاء.

٣. الشراكة في كل شيء من المكتبة العامة إلى أدوات الإنتاج والمنتوج.

٤. المساواة للجميع.

وكانت أشهر الكيبوتسات: الشجرة اليهودية - إيلانيه، في الجليل الأسفل اللتين اجتذبتا كثيرًا من عناصر الهجرة الثانية أبرزهم بن غوريون.

- هجرة يهود اليمن

إن انتعاش النشاط الزراعي بعد أن باشر المكتب الفلسطيني عمله، تطلب أيد عاملة زراعية إضافية.

وقد شعر عناصر الهجرة الثانية، الذين تم استيعابهم في المستوطنات والكيبوتسات الجديدة، بالحاجة الماسة إلى تلك الأيدي فتوجهوا إلى الخزان البشري اليهودي في اليمن حيث لن تعترض صعوبات كبيرة استحضارهم إلى فلسطين.

أرسل رجال المكتب الفلسطيني موفدًا لليمن سنة ١٩١١ اسمه شمونيل يفننيلي، وهو أحد أبرز رجالات الهجرة الثانية ليقنع يهود اليمن بـ «واجبهم الديني» الهجرة إلى أرض الميعاد: أرض السمن والعسل. وقد نجح في إقناع بعض هؤلاء السذج فانطلقوا زرافات ووحدات وعائلات وأفرادًا، شيبًا وشبانًا، أصحاء ومرضى وانطلقوا عبر البراري والقفار والجبال والوديان إلى أرض الميعاد ليعملوا في العمل الزراعي المأجور. وقد أشارت الإحصائيات أن عدده بلغ سنة ١٩١٣م ٣١٠ عمال من أصل ١٥٠٠ عامل زراعي يهودي أي بنسبة ٢٠٪.

خلاصة الهجرة الثانية إلى فلسطين

١. انطلقت من وسط أوروبا وشرقها إلى فلسطين مدفوعة بعوامل دينية - اقتصادية - ديمغرافية.

٢. كانت بأغلبيتها العظمى من الفقراء الهاربين من الاضطهاد الأوروبي والباحثين عن الأمن والأمان ولقمة العيش.

٣. الأقلية من الهجرة المذكورة كانت دوافعها أيدلوجية مبدئية.

٤. كثير من المهاجرين، ممن لم يتم استيعابهم، عادوا أدراجهم ولم يبق في البلاد إلا حوالي ٣٠ ألف نسمة منهم حوالي ٢٧ - ٢٨ ألف يسعون وراء الرزق و١٠٠٠ - ٢٠٠٠ من العقائديين.

٥. دعت الشريحة العقائدية إلى تهويد البلاد، والتوجه إلى خلق اقتصاد يهودي مغلق، مستقل ومنفصل عن الاقتصاد العربي الفلسطيني. وسعت إلى تطبيق هذا النهج، ولو باستعمال السلاح والقوة. وقد نادت بـ:

تهويد الأرض / تهويد العمل / تهويد الاقتصاد / تهويد الحراسة

ورفعوا شعاراتهم:

- أطردوا العمال العرب.
- ولا تشغّلوهم.
- قاطعوا التاجر العربي.
- قاطعوا الطبيب العربي
- لا تشغّلوا الحراس العرب.
- قاطعوا الصناعة العربية.
- استبدلوا المنسوجات العربية باليهودية والبضائع العربية باليهودية والأيدي العاملة العربية باليهودية.

والنتيجة: لا يمكن وسم هذه الشريحة، التي صبغت الهجرة الثانية بصبغتها، إلا بالنزعة الأيديولوجية والعقائدية ذات التوجه القومي العنصري المتطرف المصحوب بنزعة عسكرية. وهذا ما أشار إليه موشه منوحين حين قال عن

الهجرة الثانية أنها «أفرزت بوادر نزعة عسكرية مصحوبة باتجاه الانعزال عن باقي شعوب الأرض وداعية إلى عدم التعامل إلا مع اليهود. الأمر الذي لا بد أن يؤدي إلى حتمية التصادم مع العرب الفلسطينيين».

وفعلاً: كان الصدام الأول في سنة ١٩٠٨م في عيد البوريم في مدينة يافا حين قام مجموعة من الشبان اليهود بالاعتداء على عامل عربي. وقد شهد على ذلك ليفونتين أحد مؤسسي ريشون لتسيون مدير البنك أنجلو - فلسط(الآبك)، وكان شاهد عيان، فاتهم الحاكم التركي بتأجيج الاضطراب ثم وصف الشباب من حزب «بو علي صهيون» وهم يتجولون مسلحين بالنبابيت والهراوات والسكاكين والبنادق ويتعاملون بغطرسة واستعلاء مع العرب.

ويلخص يوسف أيوب حداد في كتابه «هل لليهود حق ديني أو تاريخي في فلسطين» ج٢ ص ص ٢٩٤ - ٢٩٦ فيقول: إنه من المؤكد أن ولادة الحركة الصهيونية لم تكن متأتية من عامل ديني، بل كانت ردة فعل على اللا سامية وعلى حركة الاندماج. ومن المؤكد أن دولة إسرائيل لاحقًا لم تنشأ بإرادة إلهية بل إنها نشأت بدافع سياسي لا ديني، ولقد نشأت بتزاوج مصالح بين البرجوازية اليهودية والتطلعات الاستعمارية يدعمها المنظور الديني الإنكليكاني.

وقد استمر زخم الهجرة الثانية عقدًا كاملاً من الزمن طوال ١٩٠٤ -١٩١٤م دأبت خلاله على: - ابتياع الأراضي الفلسطينية.

- إدخال المهاجرين إلى البلاد واستيعابهم فيها.
- بناء المستوطنات.

ولكن لا يخطر ببال أحد أن الساحة الفلسطينية كانت خالية خاوية تسمح للحركة الصهيونية بالتخطيط والتنفيذ كما يحلو لها، فقد تفاعلت في الساحة المذكورة قوى رئيسة تتعايش حينًا وتتناحر أحيانًا في علاقة جدلية. وهذه القوى هي:

١- السلطة العثمانية الحاكمة.
٢- العرب الفلسطينيون.
٣- الحركة الصهيونية.

فكيف تعاملت وتعايشت وتناحرت وتصادمت هذه القوى فيما بين بعضها البعض؟

الفصل العاشر

فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين

فلسطين ريشة في مهب الريح

تتجاذبها القوى الفاعلة في الميدان الفلسطيني

عملت على الساحة الفلسطينية في الفترة المذكورة ثلاث قوى فاعلة:

- السلطة التركية الحاكمة
- العرب الفلسطينيون
- اليشوف اليهودي

وقد تشابك نشاط هذه القوى في ثلاثة محاور مركزية :

١. محور العلاقات التركية العربية
٢. محور العلاقات التركية الصهيونية
٣. محور العلاقات العربية الصهيونية

١. العلاقات التركية العربية:

في أوائل القرن السادس عشر ميلاديًا، اجتاحت القوات العثمانية التركية بلاد الشرق الأوسط وفرضت سيادتها على المنطقة.

ومن أجل تقييم الدور التاري ي الذي اضطلعت به هذه الإمبراطورية العثمانية على مسرح الأحداث عمومًا، وعلى الساحة الفلسطينية بصورة خاصة، يجب الإشارة منذ البداية إلى التوجّه السلبي والتشويه والإساءات المقصودة التي وجّهها معظم المؤرخين للإمبراطورية المذكورة.

لا شك أن تلك الإمبراطورية مفترى عليها. فقد شُوّهت سمعتها، لطخ تاريخها وسوّدت صفحتها في العالم عمومًا، وفي عيون العرب بصورة خاصة. فلقد تمّ تصوير الأتراك العثمانيين كأمة بربريّة متعطشة للدماء، لا تحسن إلا القتل والتدمير. أما بالنسبة للعرب فقد تمّ رسم صورة بعيدة عن الحقائق والواقع تتلخص فيما يلي:

١. العرب يكرهون الأتراك، كما أن الأتراك يكرهون العرب.
٢. والأتراك استعمروا العرب، أذلوهم طيلة أربعة قرون وفرضوا عليهم التأخر والجهل والفقر.

بيد أن هذه النظرة السطحية البعيدة عن الدقة لم تلبث أن عُدِّلت بفضل الأبحاث والتحليلات والنتائج التي توصل إليها مجموعة من المؤرخين الغربيين الثقات

مثل: جب، باون، هيد، وبرنارد لويس وغيرهم (1). وقد قدّم هؤلاء صورة حاولوا جعلها موضوعية متوازنة نسبيًا تُقوّم بعض ما تشوه.

ويقول زين زين في كتابه «نشوء القومية العربية». وهو كتاب صغير الحجم كبير القيمة والدلالة العلمية: «إن تلك الاتهامات بحق الدولة العثمانية هي عبارة عن عبارات ومفاهيم جارفة لا تصوّر العلاقات التركية العربية».

وقد انبرى المؤلف في كتابه «لإزالة ما علق في أذهان بعض الناس من مغالطات في طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين العرب والأتراك» (2). وهو يعزو هذا التشويه المتعمّد إلى عوامل أهمها:

الفكر الاستشراقي المغرض المعادي لكل ما هو مسلم وشرقي، فالدولة العثمانية كانت درع الإسلام، ولا بدّ من تشويه صورتها، كما تقضي مدارس الاستشراق الغربية. وقد أنجبت هذه المدارس مجموعة من المحللين والمستشارين والمؤرّخين ورجال الحكم الذين ساروا على نهج أساتذتهم المستشرقين.

وممّا ساعد على تثبيت هذا التشويه، وتأكيد هذه المغالطات الهزيمة التي منيت بها هذه الدولة في الحرب العالمية الأولى، فكثرت سكاكين الذبح والسلخ، وبحّت أصوات الموتورين المهاجمين فهللوا وكبرّوا للمنتصر وسكبوا الملح والنار والكبريت على جراح المهزوم.

وصمتت أصوات المدافعين، وخيم الجهل على هذا الموضوع! فمعظم من تناول تاريخ العثمانيين سطحيون ردّدوا شعارات لم يكلفوا نفوسهم عبء البحث عن حقيقتها والإطلاع على الوثائق التاريخية، بل قالوا ما قال به المستشرقون، وعمدوا إلى الانحياز والتجّني، وقد أعمى الجهل والتعب أبصارهم وبصائرهم(3).

ويؤكد جب وباون في مؤلفهما «المجتمع الإسلامي والغرب» (4) أن كثيرًا من الآراء الشائعة فيما يتعلّق بتاريخ تركيا ومصر في القرن التاسع عشر هي آراء خاطئة. ويستطرد المؤلفان «.. . وكدنا نحن نسلّم حين أقدمنا على كتابة بحثنا

(1) Gibb, Bowen , Heyed, B, Lewis

(2) زين نور الدين: نشوء القومية العربية ص٢١

(3) م. س. ص٢٠-٢١

(4) Islamic Society and the west

هذا لذا نرى من واجبنا عرض الوثائق والمعطيات التي حدت بنا إلى تبديل رأينا في هذا الأمر تبديلاً كاملاً» (5). فالفكرة العامة المأخوذة عن الدولة العثمانية مصبوغة بالأفكار المسبقة والتفكير النمطي.

ويعتقد زين أن هذه الفكرة السلبية عن الدور التاريخي للدولة العثمانية وعلاقتها مع العرب ينبع أيضًا من تعميم الأوضاع الفاسدة التي سادت المنطقة بأسرها في العقود الثلاثة الأخيرة من حياة تلك الدولة وهي الفترة التي ساد فيها الفساد وعمّ الظلم وانتشرت الفوضى وهيمن الاستبداد. فقد عمّم معظم المؤرّخين، واقنعوا معهم الرأي العام. إن ما جرى في هذه العقود الثلاثة من القرن التاسع عشر ينطبق على امتداد حكم العثمانيين طيلة أربعة قرون حكم العثمانيين، فقد توصّلوا إلى استنتاجات خاطئة مستمدّة من تاريخ العقود المذكورة ليقولوا أنّ العرب عانوا الويلات طيلة فترة الحكم العثماني وعانوا ما عانوه طيلة ٤٠٠ سنة.

إن إصدار مثل هذه الأحكام بعيد كل البعد عن الحقيقة، وليس هناك ما يبرّر القول إن الأتراك اضطهدوا العرب إلا في العقود الثلاثة الأخيرة من الحكم العثماني، في حين كان الأتراك أنفسهم يعانون هم أيضًا من ظلم الحكم وفساده.

وليس صوابًا القول إن العرب طوال ٤٠٠ سنة أمّة مستضعفة ترزح تحت النير التركي، وأن البلدان العربية قد نهبت خيراتها وخيّم عليها الفقر من جراء الاحتلال التركي.

كذلك ليس صحيحًا القول إن العرب المسلمين لم يكن يسمح لهم بتقلّد السلاح أو التجنيد في الجيش التركي، لأنه كانت هناك وحدات عربية كاملة تخدم في ذلك الجيش. وقد وصل كثير من المجنّدين العرب أعلى المراتب والمناصب العسكريّة في صفوف القيادة.

أما في قطاع الوظائف المدنية فقد شغل عدد كبير من النخب العربية وظائف عالية في الدولة. وكانوا، كمسلمين، يُعتبرون شركاء للأتراك، ويشتركون معهم في كافة الحقوق والواجبات، فالوظائف العالية، والعسكرية المدنية مفتوحة للعرب. كما كان للعرب تمثيل برلماني وأصبح كثير منهم وزراء ورؤساء

(5) زين ص١٣١

حكومات، ومنهم من أصبح شيخ الإسلام أو قائدًا عسكريًا أو واليًا (٦).

وكان الأتراك ينظرون إلى الولايات العربية نظرية احترام وإكبار دون سائر الولايات، لأنهم عرب «والعرب مادة الإسلام» والنبي محمد عربي والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين.

كان الأتراك يعلمون أنّهم لم يشيدوا إمبراطوريتهم العظمى إلا بفضل الإسلام وتحت راية الإسلام، كما أن سلسلة الانتصارات الحاسمة التي أوصلتهم إلى ذروة المجد لم تتحقق إلا بالعقيدة الإسلامية، وبفضلها أصبحت إمبراطوريتهم أشبه بالظاهرة الطبيعية كما وصفها نولز (٧) بأنها «تهزأ بالعالم ثمّ ترعد فتمطر دمًا وخرابًا. وأنك لن تجد ما يشبهها رهبة وخطرًا. وأن الحدود التي سوف تضيفها لملكها لن تكون إلا في أقاصي المعمورة من مشرق الشمس إلى مغربها»(٨).

ويقول برنارد لويس: كانت الإمبراطورية العثمانية، منذ تأسيسا حتى سقوطها، دولة تكرس قواها في سبيل نصرة الإسلام وحمايته من أي اعتداء خارجي. ولقد ظل العثمانيون طوال ستة قرون، غارقين في حروب دموية مع الغرب المسيحي. وكانت إستراتيجية هذه الإمبراطورية الإسلامية تتلخص في:

- فرض حكم إسلامي على أكبر رقعة ممكنة من الأراضي الأوروبية ونشر الإسلام في ربوعها.
- شن حرب دفاعية، استباقية أو تأخيرية، لإحباط أي هجوم قد يقوم به الغرب المسيحي المعادي.

لقد كانت الإمبراطورية العثمانية بمثابة الإسلام نفسه. وفي التواريخ العثمانية عندما يتطرّق المؤرخون إلى ولايات الإمبراطورية يشيرون إلى كونها «دار الإسلام» ويطلقون على جيوشها «جيوش الإسلام» وعلى الرئيس الديني «شيخ الإسلام» (٩). وكانت الشعوب التي تتكون منها الإمبراطورية تعتبر شعوبًا

(٦) م. س ص٢٧
(٧) Knolles
(٨) زين ص١٦
(٩) م. س ص٢٨-٢٩

إسلامية تشكلت تحت مظلة «أمة الإسلام»، ولم تصطبغ بصبغة تركية عرقية قومية إلا في أوائل القرن العشرين (بعد سنة ١٩٠٨م) بتأثير الفكر القومي الأوروبي.

أما بالنسبة للعرب فقد تيقنوا، منذ البداية، أنهم جزء لا يتجزأ من تلك الإمبراطورية ونسيج من نسيجها، فعندما فتح الأتراك العثمانيون الأقطار العربية لم يفاجأ السكان المحليون بنظام حكم جديد، بل وجدوا فيه استمرارًا لما سبق، فالدين هو الدين ذاته، والمذهب هو المذهب ذاته. وقد نهج الأتراك على منح الزعماء المحليين استقلالاً داخليًا مثل جان بردي الغزالي في دمشق وفلسطين وفخر الدين المعني في الشوف في لبنان، والأميرين عسّاف ومنصور التركمانيين في كسروان وجبيل، وبني سيفا في عكّار وطرابلس في لبنان أيضًا. أما اللغة فإنها على الرغم من فرض اللغة التركية لغة رسمية، فكانت تكتب بالحروف العربية، وأرقامها عربية ودخلتها مفردات ومصطلحات عربية (١٠). كما أن الصلاة والآذان وقراءة القرآن في جميع أنحاء الإمبراطورية كانت بالعربية، وأسماء سلاطين آل عثمان أسماء، إلا أقلّهم، عربية، محمد، سليم، مراد...

أما القانون فهو القانون الإسلامي والشريعة، التي هي العمود الفقري للدولة، هي الإسلامية، والسيادة العليا لشيخ الإسلام، وهو الآمر الناهي حتى على السلطان نفسه.

كذلك الأختام تحوي كلمات عربية تزيّنها الآيات القرآنية. أما ألقاب السلطان العربية وتشمل الواجب المقدّس الملقى عليه وعلى دولته. فالسلطان يلقب «بالغازي المجاهد، سيف الله حامي المؤمنين وبلادهم، خادم الحرمين الشريفين، حامي القدس الشريف، وإمام المسلمين» ولم يلبث سلاطين آل عثمان أن أصبحوا خلفاء للعالم الإسلامي بعد سقوط دولة مماليك مصر.

وهكذا فإنه، بالنسبة للعرب المسلمين، لم تكن الدولة العثمانية في نظرهم دولة أجنبية غريبة مادامت تستظل بالإسلام، والأتراك، مع الغالبية العظمى من العرب، كانوا يشعرون أنهم أعضاء في أمة إسلامية عظيمة يربطها دين واحد

(١٠) م. س ص٣٤

وولاء واحد وحاكم واحد[١١]: هو السلطان العثماني.

لقد توصّلوا إلى نتيجة مفادها أن الإسلام جمع العرب والترك في عروة وثقى وصهرهم في بوتقة واحدة. فالحكم العثماني كان في نصّه وروحه حكمًا إسلاميًا يقوم على الشريعة الإسلامية المقدّسة المعصومة، وغير القابلة للتبديل والتغيير والتحريف [١٢].

والخلاصة فإن:

- الحكومة الإسلامية العثمانية هي حكومة الله.
- والخزينة العثمانية هي خزينة الله.
- والجيش العثماني جيش الله.
- والوُلاة العثمانيون هم عمال الله.
- وواجب الرعية السمع والطاعة [١٣].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ).

والإمبراطورية، بجملتها، ليست جسمًا غريبًا محتلاً. بل إنها أشبه ما تكون بأخويّة دينية.

إن عدم الشعور بالغربة من الحكم العثماني انعكس في ردود الفعل العربية، فإثر هزيمة المماليك في معركة مرج دابق الفاصلة ١٥١٦م انفتحت سوريا الكبرى في وجه الاجتياح العثماني فاندفعت قواتّه متقدمة جنوبًا دون مقاومة تذكر. وكانت المقاومة الوحيدة التي جابهتها في فلسطين في ضواحي منطقة خان يونس، حيث بادر فرسان المماليك بشن هجوم مضاد على الجيش العثماني، ولكنه سرعان ما تحطم تحت ضربات المدفعية العثمانية الجبّارة، وبدأت وفود السكان من الحضر والريف والبادية تتوافد على معسكر السلطان سليم في خان يونس لتقدّم له فروض الطاعة والولاء.

مع ذلك حدثت بعض الانتفاضات الشعبية في مدن جنوب فلسطين، خاصة في الرملة وغزة نتيجة لعاملين:

(١١) م. س ص٢٥
(١٢) م. س ص٣١
(١٣) م. س ص٢٨-٢٩

١ - قربها من الحدود المصرية، المعقل الأخير للمماليك.

٢ - استمدادهم التشجيع من الهجوم المملوكي في خان يونس.

إلا أنه لا يمكن اعتبار تلك الانتفاضات ثورة عامة أو مقاومة شاملة، بل لم تزد عن كونها هبّات محلية وانتفاضة موضعيّة [١٤].

استكانت البلاد للحكم الجديد، واستسلمت النفوس للنجم العثماني الصاعد، خصوصًا بعد أن رافقه ازدهار اقتصادي ورواج تجاري. فلقد تزامنت الفتوحات العثمانية في بلاد الشام ومصر مع الفترة الذهبية لعصر «سليمان القانوني». وقد تقدمت البلاد في فترة حكمه وعمّ الازدهار الاقتصادي نتيجة الأمن واستقرار الأوضاع، وسياسة الانفتاح الاقتصادي والمبادرة الحرّة والتطوير والعمران.

كانت مشاريع السلطان سليمان كبيرة ومتنوعة وشملت الأبنية ومباني الحكم والمؤسسات، وكان أهمها في مدينة القدس.

- تجديد بناء المسجد الأقصى ومنطقة الحرم الشريف.
- وخلال سنتي ١٥٣٨ ـ ١٥٤٠م أعاد بناء السور الحالي للقدس على أنقاض السور المملوكي، وكان شبيهًا بسور العاصمة اسطنبول.
- مد مياه الشرب إلى المدينة، فلقد كانت تفتقر إلى المياه العذبة، فجّرت إليها المياه من البرك المسمّاه باسمه «برك سليمان» الواقعة خارج المدينة. كما بني قربها سبلاً لسقاية البشر والدواب.
- أنشأ داخل الأسوار سبلاً أخرى بما فيها سبيل في منطقة الحرم وآخر خارجه.
- اعتمد سياسة تشجيع التجارة والحرف اليدويّة في المدينة [١٥].

ولم ينحصر العمران والازدهار على القدس وحدها، بل عم البلدان العربية أيضًا ويقول جب وباون: إن سوريا أكثر من أيّة دولة أخرى، استفادت ماديًا من جراء ضمّها للإمبراطورية العثمانية، وذلك نتيجة للعلاقات التجارية التي أقامتها مع الأقطار الأخرى [١٦].

(١٤) הסטוריה של א "י כרך 7 עמ' 97
(١٥) אותו כרך עמ' 98
(١٦) زين ص٢٧

كذلك لم يحاول الفاتح الجديد تغيير التركيبة السكانية، فلم يجر أي نوع من التهجير السكاني أو إدخال عناصر غريبة إلى المنطقة. وكان أقصى ما قام به تعيين ولاة أتراك لفترة زمنية محدودة يعودون بعدها لأوطانهم. وكان وجود رموز السلطة العثمانية في المناطق المدنية شبه معدوم. أما في الأرياف فمعدوم.

وقد منحت السلطات الأقطار العربية حكمًا ذاتيًا، فالبلدان العربية لم تحكم في فترة حكم السلطان سليم حكمًا مباشرًا. وقد دل على ذلك ملفات الدوائر الرسمية وقوائم تقدير الواردات المتعلقة بسوريا والعراق.

كذلك لم تخضع الجزيرة العربية للحكم العثماني المباشر، ولم يكن الحرمان الشريفان يدفعان الخراج، بل كان الأمر على نقيض ذلك فإن الحكومة العثمانية دأبت على إرسال مبالغ كبيرة سنوية من المال واردات مصر [١٧].

وقد عزّز هذا النظام التوجهات شبه الاستقلالية في الأقاليم، وقد اكتفت العاصمة بأمرين:

١ـ جباية الضرائب.

٢ـ الدعاء للسلطان من منابر المساجد أيام الجمع وفي الأعياد والمناسبات.

تدهور الدولة العثمانية ومحاولات الإصلاح

لكل شيء نهاية وكان لا بدَّ للزخم العسكري الاقتصادي العثماني أن يصل حدّه. فبعد قرون بدأ نجم الإمبراطورية الصاعد في الهبوط. لقد وصلت الأوج وحان وقت السقوط.

بدأت عوامل الانحلال والتفكك الداخلي تنخر ببطء في جسد الدولة. وانعكس الأمر في تدهور مؤسسات الدولة وأجهزة الحكم فعمّ الفساد وانتشرت الرشاوى وسادت الفوضى في كافة المجالات المدنية والعسكريّة في المركز والأطراف. وبدأت الحكومة المركزية تفقد سيطرتها على الأقاليم. ولم تلبث أن ظهرت زعامات محلية، عائلية وقبلية، تسلمت زمام الأمور بأيديها وفرضت أمنها وسيادتها وهيمنتها على الرعية. فعمّ الظلم والاستبداد وذاق الناس الأمرين وكان لا بد من تغيير الأوضاع ومحاولة إصلاح الحالة المتردية.

(١٧) م. س ص١٦

■ دعاة الإصلاح من الأتراك والعرب

بدأت نخب تركية وعربية (إسلامية ومسيحية)، ممن يهمها صالح الدولة ومن الغيورين عليها، تطالب إصلاح الأوضاع.

كانت الدوافع عديدة، فبالإضافة إلى تردّي الأوضاع وفساد أجهزة الحكم، ساهم في التحرك عوامل إضافية أهمها: احتكاك الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي، الأمر الذي أدّى إلى تسرّب الأفكار الأوروبية إلى الشرق.

كما ساهمت العلاقات التجارية بين الشرق والغرب على تعزيز الروابط ودخول أنماط الحياة الأوروبية إلى الشرق. فكان هناك استيراد بضائع وسلع غربية جديدة، ودخول عادات وتقاليد وأنماط سلوك ومعيشة أوروبية في مختلف مجالات الحياة اليومية: المأكل والمشرب والملبس والمسكن. هذا بالإضافة إلى تأثيرات إضافية في قطاع التربية والتعليم ونشر العلوم والتحول التدريجي إلى التفكير العلمي الناقد المبدع.

وفي حقيقة الأمر انطلقت باكورة الدعوات للإصلاح من النخب التركية المنفتحة على الغرب.

أـ دعاة الإصلاح الأتراك:

كانت باكورة محاولات الإصلاح تلك التي قام بها السلاطين. ويقول د. ياغي (م. س.) ص ص ١٤٥-١٧٢: كانت ذروة محاولات الإصلاح محاولة السلطان محمود الثاني سنة ١٨٠٨-١٨٣٦م معالجة الأوضاع المتدهورة. فلقد استشعر ذلك السلطان عوامل الانهيار فحاول تدارك الأوضاع قبل فوات الأوان.

رأى أن رأس الفساد كانت القوات الإنكشارية ذات الماضي المجيد والحاضر البائس التعيس. فحاول القضاء عليهم وتصفيتهم جسديًا في السنة الأولى من حكمه. ولكن محاولته لم تحقق هدفها المنشود [١٨].

لكن السلطان لم ييأس بل استمر في محاولات الإصلاح باستخدام الضباط الإنجليز لتدريب القوات البحرية والضباط الألمان لتدريب القوات البرية.

(١٨) م. س ص٤١

ولم تقتصر إصلاحات السلطان المذكور على المجال العسكري فقط، بل تعدتها إلى المجالات المدنية أيضًا فأنشأ مدرسة للطب في العاصمة وأوفد البعثات العلمية إلى أوروبا، كما أوجد نظامًا للبريد ووسع نطاق الشرطة المدينة ووزع على الأهالي نشرات ومطبوعات تحوي معلومات عن الأمراض المعدية وطرق الوقاية منها.

ولم يتاح للسلطان المذكور إتمام المهمة التي بدأ بها، فلقد تمكنت المعارضة العسكرية من القوات الإنكشارية من اغتياله.

ولم تنقطع محاولات إصلاح الجيش زمن السلاطين اللاحقين. وانتهت بالنجاح في إنشاء جيش عصري أطلق عليه اسم «النظام الجديد» و«العسكر الجديد».

وقد تبع تلك المحاولات إصدار مرسومين سلطانيين ينصان على الإصلاحات:

- أولهما مرسوم خطي شريف همايون الذي قرأ في حفل رسمي كبير في قصر غول خانه في ٣ نوفمبر ١٨٣٠ في عهد السلطان عبد المجيد وكان ذلك أول عهد دستوري في تاريخ الدولة العثمانية وقد وضع قواعد الإصلاح على المبادئ الأوروبية من حيث أنه كفل تأمين كافة شعوب الإمبراطورية على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم مهما تنوعت جنسياتهم ودياناتهم. كذلك شمل المرسوم إصلاح نظام الضرائب وأنظمة جديدة للخدمة العسكرية.

والجدير بالذكر أن هذا المرسوم كان نتيجة ابتزاز وإملاء فرضتهما بريطانيا على الدولة كثمن لإنقاذها من براثن محمد علي حاكم مصر الذي وصلت قواته المصرية إلى أبواب العاصمة اسطنبول وهدّد كيان الدولة العثمانية.

- وثانيهما مرسوم «التنظيمات الخيرية» الذي صدر في ١٨ فبراير سنة ١٨٥٦ في أعقاب انتصار القوات الروسية القيصرية على القوات العثمانية في حرب القرم سنة ١٨٥٤ - ١٨٥٦. وكادت الدولة الروسية أن تقضي على الدولة العثمانية لولا تدخل كل من بريطانيا وفرنسا اللتين أوقفتا روسيا عند حدّها وحافظتا على سلامة أراضيها.

وقد أكد المرسوم الثاني على النقاط الرئيسية التي نصّ عليها المرسوم الأول: وأهم بنوده:

١- تأمين حقوق وأرواح جميع رعايا الدولة دون تمييز في الدين أو الجنس.
٢- إصلاح شئون الدولة على النمط الأوروبي.
٣- تمثيل الطوائف غير الإسلامية في مجالس الأقاليم.

ويمكن تلخيص المبادرات السلطانية للإصلاح بأنها تناولت مختلف أجهزة الدولة ودوائرها، فبالإضافة إلى إصلاح الجهاز العسكري تم إصلاح النظام القضائي والاقتصادي والتعليمي والإداري، فلقد اتضح أنه يستحيل إصلاح النظام العسكري دون إصلاح باقي الأجهزة، فلا يمكن إنشاء جيش عصري حديث في دولة تفتقر إلى الإدارة المدنية القادرة على تلبية مطالب هذا الجيش ولا بد أن تقترن وتتزامن الإصلاحات العسكرية بالإصلاحات المدنية.

تلا محاولات الإصلاح السلطانية محاولات إصلاح ثانية قام بها عناصر من النخب والقيادات الفكرية التركية التي حاولت فرض الإصلاح من الأعلى، لقد أطلق هؤلاء على أنفسهم لقب «الأتراك العصريين».

والجدير بالذكر أن هؤلاء قد ظهروا بتأثير الفكر العلماني الأوروبي من سنوات الستين من القرن التاسع عشر. وتمحور هذا الفكر في أول الأمر حول نقطتين:
١. انتقاد لأداء الحكومة وأعمالها.
٢. برنامج للإصلاح الدستوري.

وقد شملت هذه النخب الأوساط الثقافية من أدباء وشعراء ورجال فكر ومن أبرزهم نامق كمال، ضياء باشا وإبراهيم شناسي.

وقد استجاب سلاطين تلك الفترة للزخم الإصلاحي فقام السلطان عبد العزيز ١٨٦١-١٨٧٦م بحملة إصلاحات:

بدأ بتنفيذ العديد من المشروعات العامة وأدخل تحسينات على وسائل المواصلات. واهتم باستثمار الموارد الطبيعية. وأوجد نظامًا تعليميًا علمانيًا يتألف من المدارس الابتدائية والثانوية المفتوحة لكافة الطلاب على مختلف دياناتهم.

وأنشأ محكمة عليا (ديوان الأحكام السلطانية) تتكون من عدد متساو من الأعضاء المسلمين والمسيحيين. وأنشأ مجلسا للدولة على النمط الفرنسي سمّاه «شوراي دولت» أي مجلس شورى الدولة ومنحه اختصاصات تشريعية وإدارية

وتكون أعضاؤه من المسلمين والمسيحيين. كما سنّ «قانون الولايات» قسمت الدولة بموجبه إلى ولايات، والولايات إلى صناجق، وكل صنجق إلى أقضية، وكل قضاء إلى مديريات.

ويحكم كل ولاية وال يساعده مجلس إدارة مكون من رئيس الهيئة القضائية ورئيس المالية ورئيس الديوان ورئيس الشئون الخارجية وأربعة آخرين اثنان منهما منتخبان من قبل المسلمين وآخران من قبل غير المسلمين.

وفي مجلس الإدارة أنشئت محاكم عليا (ديوان الأحكام العدلية). كذلك أسس مدرسة «غلاطة سراي» تخرّج جهاز الحكم والجهاز البيروقراطي الذي يباشر عمله بعد التخرج. وقد بلغ طلاب تلك المدرسة في سنة ١٨٦٩ ست مائة طالب مسلمين، مسيحيين ويهود.

أما نتيجة كل تلك المحاولات فلم تحقق أهدافها، وذلك نتيجة: مقاومة التيار الديني الإسلامي السلفي المتشدّد. وعرقلة الدول الأوروبية لتلك المحاولات.

تلت المحاولة المذكورة محاولة ثالثة دعت إليها جمعية «تركيا الفتاة» التي سرعان ما قضى عليها السلطان المذكور، ولكنها لم تلبث أن تجدّدت على شكل جمعية «الاتحاد والترقي». ولم تقع هذه في خطأ سابقتيها فباشرت نشاطها في باريس بعيدًا عن متناول يد السلطان وزبانيته. وقد نشطت في أوساط الأتراك المنفيين. ونجحت في ضم شرائح من المعارضة إلى صفوفها وتمكنت في نهاية المطاف من الإطاحة بالسلطان وتولت الحكم.

ب ـ دعاة الإصلاح من العرب المسلمين والمسيحيين

أما الرعايا العرب فقد انقسموا في المرحلة المذكورة إلى تيارين:

أ. الأغلبية التي تكونت من العرب المسلمين وبعض فئات من المسيحيين. وقد طالبت بالإصلاح تحت سقف الدولة العثمانية وضمن إطارها.

ب. الأقلية، وعناصرها من المسيحيين الموارنة في جبل لبنان، دعت إلى الانفصال عن الدولة والاستقلال.

وقد برز دعاة الإصلاح العرب بتياريهما على أرضية:

- فساد الحكم العثماني.
- تردّي الأوضاع العامة: الداخلية والخارجية في الدولة.
- الحكم الدكتاتوري للسلطان عبد الحميد.

١- دعاة الإصلاح من العرب المسلمين:

والعرب المسلمون، وإن قبلوا بسياسة السلطان في المحافظة على دار الإسلام في إطار الجامعة الإسلامية، إلا أنهم رفضوا طغيانه، فالغاية لا يمكن أن تبرر الوسيلة. وكان أقصى ما طالبوا به الإصلاح فقط، ويمكن القول إنه حتى في أحلك الظروف لم يخطر ببال الأغلبية الساحقة من العرب المسلمين بتر الوطن العربي عن جسد الدولة الأم. فلم ترتفع في الفترة المذكورة أية مطالب انفصالية على أرضية قومية. فالسواد الأعظم من العرب كان من المسلمين الذين لا يشعرون إلا بالانتماء الديني الإسلامي. فالمؤمنون، في جميع أطراف الدولة، إخوان لا تفرقهم العصبيّات والمذاهب، فلا جنسية غير الجنسية المشتركة التي يكفي لثبوتها شهادة أن «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

إن الدعوة الإسلامية لا تعرف القوميات أو الأعراق أو العنصريّات.

فوطن المسلم ليس له حدود جغرافية لأنه يمتد مع امتداد العقيدة، أنه وطن معنوي، لأن الدين أمر معنوي. فالمسلم أينما حلّ في بلاد إسلامية، فهو في وطنه [١٩]. والولاء للدين وليس للقومية ولا للسياسة.

ولعل السبب الرئيس لخفوت صوت الجمعيّات الاستقلالية الانفصالية يرجع إلى عدم تقبل الدين فكرة القوميات، فهذه الفكرة لم تكن قد وجدت طريقها إلى قلب العامة بعد. وكان الانتماء والولاء للدين وحده. أما العروبة على أساس قومي، وفي مثل هذه البيئة، فكانت لا تزال بعيدة المنال [٢٠].

- **أبرز دعاة الإصلاح المسلمين**

أخذ دعاة الإصلاح المسلمون ينظمون أنفسهم في إطار جمعيات سرية، أسوة بالجمعيات المسيحية. وقد ذهب هؤلاء إلى أن الإصلاح لا يمكن أن يتحقق إلا

(١٩) م. س ص٤٣

(٢٠) م. س ص٦٠-٧٠

بالعودة بالإسلام إلى منابعه الأصلية الصافية واعتماد المؤسسات الإسلامية في الحكم والتنفيذ. وقد لخصّوا أفكارهم بالمطالبة بقيادة إسلامية تترأس وحدة إسلامية تعتمد الشريعة نصًا وروحًا.

وأشهر رموز هذا الفكر ثلاثة:

١. الشيخ محمد عبده ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م.
٢. عبد الرحمن الكواكبي ١٨٤٩ ـ ١٩٠٢م.
٣. محمد رشيد رضا ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م.

١) الشيخ محمد عبده

وكان أولهم، وهو مصري، يعتبر أعظم مصلح في الإسلام كما وصفه جب. وقد دعا إلى تحرير الفكر الإسلامي من عبودية التقليد.

وكان يعزو تأخر المسلمين إلى:

١ـ جهلهم حقيقة دينهم. ٢ـ استبداد حاكمهم.

وقد اعتمد في برنامجه الإصلاحي الأركان التالية:

١ـ تطهير الإسلام من التراكمات المفسدة، ومن الطقوس والبدع.
٢ـ الدفاع عن الإسلام من غزو التيارات الفكرية المستوردة: العلمانية منها والمادية ومن الهجمات المسيحية.
٣ـ معارضة احتلال دول غربية لبلاد إسلامية.

٢) الشيخ عبد الرحمن الكواكبي

أما ثانيهم عبد الرحمن الكواكبي فهو سوري حلبي من أشد المناهضين للاستبداد الحميدي. وقد ترك كتابين لخص فيهما زبدة أفكاره وهما:

١ـ طبائع الاستبداد ١٩٠١م ودعا فيه إلى القضاء على الاستبداد الحميدي.
٢ـ أم القرى ١٩٠٣م ودعا فيه إلى إحياء الخلافة الإسلامية [٢١].

وعلى الرغم من أن تعاليم الشيخ المتعلقة بإحياء الإسلام وتوحيد العالم الإسلامي لا تختلف في جوهرها عن تعاليم باقي النخب الفكرية الإسلامية، إلا أنه

(٢١) م. س ص٥٨

تميز عنهم أنه فرق بين المسلمين العرب من المسلمين ومن غير العرب. لقد أكد على المكانة الخاصة التي يجب أن يتبوأها العرب في الإسلام بفضل لغتهم وشرف نسبهم. وقد رأى أن عرب شبه الجزيرة العربية هم المؤهلون لإعادة مجد الإسلام، وذلك لأن العناية الإلهية قد حمتهم من الفساد الخلقي الذي ألم بالأتراك.

ولكن مهاجمته للأتراك لم تجعل منه قوميًا عربيًا، فولاؤه أولاً وأخيرًا لانتمائه الإسلامي. ونقده المرير واعتراضه الشديد على سلاطين آل عثمان كان بسبب ابتعادهم عن الإسلام وتقديمهم المصلحة الخاصة على مصلحة الإسلام. أما تفضيله للعرب على الأتراك فلا يرجع إلى أساس قومي، بل إلى أساس ديني، فالعرب، وهم مادة الإسلام، يفضلون الأتراك في إخلاصهم للدين فهم حماة الإسلام والذائدين عن حياضه. والخلاصة أن منطلق الكواكبي كان دينيًا، شأنه في ذلك شأن محمد عبده. وقد حاول أن يبرهن أن الإسلام نظام ديني يصلح لكل زمان ومكان، وأن الشريعة الإسلامية هي شريعة إلهية، عملية وأداة صالحة للحكم. وكان يعتقد أن الإصلاح من السياسيين القوميين في كل من مصر وتركيا هم قوم ملحدون لأن منطلقهم قومي ولا يركز على أسس دينية إسلامية، وقد دعا إلى:

- بعث إسلامي.
- إنشاء جامعة إسلامية.
- الإطاحة بالسلطان عبد الحميد واستبدال استبداده بحكم دستوري [٢٢].

٣) الشيخ محمد رشيد رضا :

وأما ثالثهم محمد رشيد رضا فأصله من ضواحي مدينة طرابلس اللبنانية. قضى معظم حياته في القاهرة. وهناك أسس مجلة «المنار» ١٨٩٨م. ولم يكن فكره يختلف عن فكر سلفيه. وقد حلل عوامل الضعف الإسلامي وأعادها إلى ١٦ عاملاً وأهمها [٢٣]:

(٢٢) م. س ص٧١
(٢٣) م. س ص٧١

- الإيمان المطلق بالقدرية.
- الخلافات المذهبية.
- الانفلات الفكري، وسيادة التعصب وانعدام التسامح.
- التسليم الأعمى للكلمة المكتوبة وكأنه أمر إلهي أو آية قرآنية منزلة.
- النظرة العدائية للعلوم.
- عدم معرفة قيمة الوقت.
- إهمال المرأة.

وقد دأب على منهجه المذكور إلى أن غيّرت جمعية «الاتحاد والترقي» سياستها ودعت إلى إحياء القومية التركية الطورانية بدل الإسلام فتحول رشيد إلى الدعوة للانتماء العربي كوزن مضاد لدعوة الطورانية والتتريك. وقد دعا إلى توحيد الأقطار العربية ووصف السلطة الحاكمة التركية بأعداء الدولة والإسلام. وأصبح رشيد من دعاة الحكم الذاتي ضمن إطار الدولة العثمانية.

٢- دعاة الإصلاح من العرب المسيحيين :

كان من الأصوات الأولى التي دعت إلى الإصلاح جريدة «لسان الحال» لصاحبها إلياس سركيس، اللبناني، وهي من أقدم الصحف العربية.

وقد نشرت الصحيفة مقالاً سنة ١٨٧٨م في أعقاب الإجراءات القمعية التي قام بها السلطان عبد الحميد من إلغاء الدستور وحل البرلمان وطرد المصلح مدحت باشا (أبو الدستور) من رئاسة الحكومة وإقصائه إلى سوريا حيث عيّن واليًا عليها.

وقد ورد في المقال: «استبشر أهل البلاد خيرًا وأملوا أن الإصلاح سوف يتم على يدي هذا الوالي بعد أن طرده السلطان. غير أن سياسة القوة والضغط التي كان يمارسها السلطان أسفرت عن شلل الحركات الإصلاحية فتوارى دعاتها عن الأنظار وباشروا العمل في الخفاء، وهاجر بعضهم إلى خارج البلاد واختاروا باريس أو القاهرة أو جنيف مقرًا لهم».

ولم تقف النخب المسيحية المطالبة بالإصلاح مكتوفة الأيدي، بل باشرت هي أيضًا بإنشاء جمعيات تعني بأمور الثقافة والعلوم وإحياء اللغة العربية وأهمها:

«جمعية العلوم والفنون» سنة ١٨٤٧م.

«الجمعية العلمية السورية» سنة ١٨٥٧م وأبرز رموزها أدباء مسيحيون لبنانيون، ناصيف اليازجي أبرز دعاة الإصلاح ١٨٠٠ - ١٨٧١ وبطرس البستاني ١٨١٩ - ١٨٩٣م [٢٤].

استمرار محاولات الإصلاح

نخب إسلامية ومسيحية

استمر الإصلاحيون العرب: مسلمون ومسيحيون يطالبون بالإصلاح تحت سقف الدولة، ولكن مطالبهم لم تقع على آذان صاغية، بل كانت صرخة في واد. وأخذت الهوة التي تفصل العرب عن الأتراك تتسع وتتعمق، ليس نتيجة لسياسة السلطان عبد الحميد الاستبدادية فقط، فلقد كان قد عزل ونفي، وإنما نتيجة للسياسة الرعناء التي نهجتها السلطة الحاكمة «لجنة الاتحاد والترقي».

إن تحول تلك اللجنة إلى الدعوة للقومية التركية «الطورانية» ومحاولة تتريك الشعوب والابتعاد عن الديانة الإسلامية واستبدالها بالديانة الوثنية الجاهلية التي كان يدين بها الأتراك قبل دخولهم الإسلام، دفع العرب الابتعاد عن الأتراك فشرعوا يرفعون شعارات تتجاوز المطالبة بالإصلاح إلى المطالبة باللامركزية وبالحكم الذاتي. وكان أبرز رموز هذا التيار حزبين:

١. «الحزب العثماني للامركزية في الحكم» وقد تأسس في القاهرة سنة ١٩١٢م وأطلق على نفسه «حزب اللامركزية». والمؤسسون كانوا من المسلمين والمسيحيين العرب من المهاجرين اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين. وقد دعا الحزب إلى تقسيم الدولة إلى أقاليم حسب معايير قومية.

وافتتح له فروعًا في كل من دمشق، بيروت، نابلس ويافا.

وقد عقدت الجالية العربية في باريس، بالتعاون مع الحزب المذكور، أول مؤتمر عربي بين ١٨ - ٢٣ حزيران يونيو ١٩١٣م وطرحت على بساط البحث نقطتين رئيسيتين:

---

(٢٤) م. س ص٧١

- حقوق العرب في الدولة العثمانية.
- إصلاح إداري على أساس لا مركزية في الحكم.

وقد أثار مؤتمر الحزب مخاوف السلطات التركية. فحاول إسكندر - عمون، وهو مسيحي كان قد انتخب نائبًا لرئيس المؤتمر، بتبديد هذه المخاوف فذكر في خطابه: توهّم بعض أنصار النظام المركزي أن الغرض من النهضة العربية الانفصال عن الدولة. وهذا أمر بعيد عن الصحة فإن الأمة العربية لا تبغي إلا استبدال شكل الحكم الفاسد بحكم يرجى منه الإصلاح والنجاح لنا ولهم، وهو الحكم على أساس قاعدة اللامركزية.

نقول إن العرب لا يبغون الانفصال عن الدولة، وإنما يريدون إصلاحًا. والنتيجة أن الأمة لا تريد الانفصال عن الدولة، ولا نصرة حزب على حزب، أو جنس على جنس وإنما تبغي استبدال نظام الحكم الحالي بنظام يناسب حاجة العصر.. ومعنى هذا أننا نريد حكومة عثمانية، لا تركية ولا عربية يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات، ولا يستأثر أحد بحق من الحقوق، ولا يحرم غيره من حق من الحقوق: لا بداعي الجنس ولا بداعي الدين سواء كان عربيًا أو تركيًا أو أرمنيًا أو كرديًا أو مسلمًا أو إسرائيليًا أو درزيًا [٢٥].

٢. أما الحزب الثاني الذي تجاوز الدعوة إلى الإصلاح إلى المطالبة باللامركزية فكان حزب «العربية الفتاة» على نمط «تركيا الفتاة» وسُمّي «بالفتاة» اختصارًا. أسسه في باريس في ١٤ تشرين الثاني نوفمبر ١٩١١م طلبة من سوريا. إثر حادث فردي: فبعد أربعة أيام من الإطاحة بالسلطان عبد الحميد، سمع طالبان من الطلاب العرب الذين يدرسون في العاصمة، وهما أحمد قدري من دمشق وعوني عبد الهادي من نابلس، ضابطًا تركيًا يتهم العرب بالخيانة لأنهم يساندون السلطان عبد الحميد. وقد سأل الطالبان ذلك الضابط لماذا لم يتهم الأتراك الذين دعموا السلطان أيضًا؟ وقد توصلا إلى نتيجة: وجوب تأسيس حزب عربي شبيه بالحزب التركي «تركيا الفتاة». أما الهدف فهو :

١. العمل على تحقيق المساواة مع الأتراك في الدولة.

٢. إدارة البلاد بنظام حكم يعتمد اللامركزية.

(٢٥) م. س ص١٠٠-١٠١

تزعم الحزب الطالبان المذكوران أعلاه، ثم انضم إليهما رفيق التميمي (نابلس)

بالإضافة إلى الحزبين المذكورين تأسست جمعيات عديدة تدعو بدعوتهما.

وقد عبرت عن هذا التوجه جريدة «الميثاق» فقالت:

«أن أفضل نظام حكم هو الدستوري، وأفضل نظام دستوري هو اللامركزي»

▪ الدعوة إلى الاستقلال

إلى جانب التيار الإصلاحي وتيار اللامركزية في الحكم والحكم الذاتي بدأ يظهر توجّه جديد يدعو إلى الانفصال والاستقلال.

ويمكن تصنيف هذا التيار إلى نوعين:

١- حركات استقلالية - انفصالية من رعايا مسلمين في بلدان عربية

وهذه لم تكن منطلقاتها قومية بل:

أ. دينية مذهبية مثل الحركة الوهابية في نجد وشرق شبه الجزيرة العربية.

وقد دعت إلى إصلاح ديني والعودة بالإسلام إلى منابعه الأصلية ونبذ البدع والشوائب التي علقت به من تحلّل وفساد وشعوذات وتمائم وكرامات.

والحركة المهدية في السودان.

ب. حركات قامت على أرضية طموحات شخصية مثل حركة محمد علي باشا في مصر التي سعى فيها إلى تأسيس ملك وراثي في مصر، وما تستطيع ضمه من البلدان المجاورة [٢٦].

١- حركات استقلالية انفصالية قامت على أرضية قومية عربية. وكان الداعون لها هم الموارنة من جبل لبنان

٢- التيار الماروني اللبناني الداعي للاستقلال:

كان الداعون له مسيحيين موارنة من جبل لبنان (دولة لبنان الصغير). أما بداية ظهور التيار المذكور فكانت بتجمّع فئة صغيرة من النخب المسيحية من الطائفة المارونية في لبنان، ممن درسوا في الكلية السورية الإنجيلية، وكان مطلبهم: تحرير لبنان من الحكم العثماني.

(٢٦) م. س ص٤٥

وقد أنشأوا في سنة١٨٧٦ جمعية ثورية سرّية وأخذوا يعقدون اجتماعاتهم عند الشاطئ الصخري في منطقة «الروشة» برأس بيروت، للتداول في أنجع الطرق لتحقيق استقلال لبنان وانفصاله عن الدولة العثمانية.

وقد لاقت الدعوة الانفصالية الاستقلالية أصداء إيجابية بين الأوساط الشعبية المارونية اللبنانية نتيجة للعوامل التالية:

١. فساد الحكم وضعف السلطة المركزية وانتشار الفوضى وانعدام الأمن.

٢. انتشار التعليم الغربي وما رافقه من إحياء اللغة العربية وآدابها وتأسيس المطابع وإصدار الصحف.

٣. تدفق السياحة الغربية، خصوصًا الفرنسية إلى لبنان.

٤. عودة مهاجرين لبنانيين من المهجر إلى الوطن وهم يحملون آراء وطنية.

٥. ولكن العامل الأساسي في النظرة العدائية للأتراك كان الانتماء الديني. فلقد اعتبر مسيحيو لبنان من الطائفة المارونية أنفسهم غرباء في المحيط الإسلامي الواسع الذي يدين بالولاء للدولة العثمانية. فلم يشعروا أن الحكومة حكومتهم وأن الدولة دولتهم.

٦. وجاءت القشة التي قصمت ظهر البعير ودفعت بالموارنة إلى التوجه الانفصالي، وهي الفتنة الأهلية بين الموارنة والدروز في جبل لبنان عام ١٨٦٠م، وما تبع ذلك من تدخل فرنسي سياسي وعسكري مباشر لحماية الموارنة وتبني مطلبهم بالانفصال والاستقلال.

تدخلت دول الغرب المسيحية، وعلى رأسها فرنسا، مطالبة فصل لبنان عن الدولة ومنحه الاستقلال، وذلك في البروتوكول الذي تبناه سفراء: بريطانيا، فرنسا، روسيا، وبروسيا. وسرعان ما تحوّل البروتوكول المذكور إلى «نظام أساسي» (٢٧) وصدر في ٩ يونيو حزيران تموز ١٨٦١. واضطر الباب العالي إلى الموافقة عليه بشكل جزئي، ولكنه عاد وعدّله في ٢٨ يوليو تموز ١٨٦٨م بنظام «المتصرّفيه» الذي صودق فيه على منح لبنان مركز «سنجق مستقل» يحكمه «متصرّف»، وما تبع ذلك من فصل جبل لبنان عن سوريا. ولم يكن ذلك

(٢٧) Regl'ement Organiqne

استقلالاً كاملاً (٢٨). وإن كان يحمل بعض ملامح الاستقلال، فلقد عرف اللبنانيون الموارنة أنه لا يمكن تحقيق الاستقلال الكامل إلا بالتعاون والانضمام إلى صفوف الأغلبية الساحقة من العرب المسلمين. فهم لا يزيدون عن كونهم قطرة من البحر الإسلامي في الشرق. ولم يكن من قاسم مشترك بين العربي المسلم والعربي المسيحي إلا العروبة أي القومية العربية. وعلى هذا الأساس توصّلوا إلى أن السبيل الوحيد للتحرر من الأتراك، أو في الحد الأدنى تحقيق المساواة، لا يتحقق إلا بتشكيل جبهة عربية إسلامية مسيحية موحدة تقوم على أساس فكر قومي.

ولقد كان المحرّك لهذا التوجه فرع «الحركة الماسونية» في بيروت، فنجح أعضاؤه في إقناع نخب قيادية إسلامية بالانتساب إلى المحافل الماسونية وتبني فكرة القومية، فتأسس عدد من المحافل الماسونية في كل من بيروت ودمشق. وأصدر «محفل الشرق» الفرنسي براءة بتأسيس محفل له في بيروت عام ١٨٦٨م عرف باسم «محفل لبنان» (٢٩).

كذلك فعل المحفل الأكبر الاسكتلندي فأصدر براءة أسس بموجبها فرعًا له في لبنان. وكانت المهمة الأولى للمحافل الماسونية المذكورة: جر قادة مسلمين للانتساب إلى المحافل المذكورة، ثم إدخالهم أعضاء في «الجمعية السرية الماسونية» في وقت لاحق. وقد انزلق بعض القادة المسلمين وتورّطوا بالانخراط في سلك الحركة واشتركوا في وضع خطة عمل ترمي ظاهريًا إلى:

- محاربة الاستبداد الحميدي.
- تحقيق المساواة بين العرب والأتراك.

في حين كانت الحركة تبطن في حقيقتها إلى فصل لبنان عن الدولة العثمانية، ولكن لم يكتب لهذا التيار النجاح. فلم يلبث أن دبّ الخلاف بين عناصرها عندما تكشّفت الأهداف الحقيقية الخفية الباطنية. وقد استمرّ الانشقاق في صفوف الحركة حتى سنتي ١٨٨٢ ـ ١٨٨٣م حين اضطرت إلى إيقاف نشاطها السري وحلت نفسها.

(٢٨) زين ص٣٨

(٢٩) م. س ص٦٠-٦١ ملاحظة ١٧ ص١٩٧

۳ـ نخب مسيحية مستقلة تدعو إلى الاستقلال - نجيب عازوري

وقد قام إلى جانب هذا التيار الانفصالي نخب فكرية مسيحية مستقلة لا تنتمي إلى أيّ تنظيم تنحو النهج نفسه وتدعو إلى الفكرة ذاتها: الانفصال والاستقلال على أرضية قوميّة.

وأبرز من مثّل هذا التيار نجيب عازوري، وهو مسيحي من الطائفة المارونية اللبنانية. فنشأ نشأة فرنسية، وتشرّب حبّ فرنسا، حضارتها ولغتها، منذ نعومة أظفاره. انتقل إلى مدينة القدس في فلسطين سنة ۱۸۹۸م ليشغل وظيفة إدارية رفيعة في الجهاز الحكومي العثماني، هي نائب حاكم منطقة القدس.

خلال عمله أطلع على العديد من الدسائس والمؤامرات التي تحيكها الحركة الصهيونية بالتواطؤ مع رجال السلطة العثمانية المرتشين. وقد اكتشف مطامع الحركة الصهيونية في فلسطين وتأكد من أهدافها القريبة والبعيدة. ولما حاول التصدّي تورّط مع رجال الحكم واختلف معهم، فاضطر إلى الهرب واللجوء إلى القاهرة، وكانت ملجئًا للاجئين السياسيين.

في القاهرة عمل في الصحافة وشنّ من صفحات الصحف المصرية هجومًا شديدًا على حاكم القدس كاظم بك وطاقم موظفيه واتهمهم بالتآمر مع الصهيونيين.

لم يطل المقام بعازوري في القاهرة، فانتقل إلى باريس حيث باشر نشاطه السياسي القومي بزخم شديد فأنشأ «رابطة الوطن العربي» (۳۰) وهي جمعية عربية هدفها تحرير سوريا من النير العثماني. وقد لاقت دعوته أصداء واسعة وتجاوبًا في الأوساط السياسية الأدبية الفرنسية.

وقد رأت السلطات العثمانية في عازوري عدوًا خطيرًا فوجّهت له تهمتين:

۱. التخلي عن وظيفته وتنكره لواجب الولاء لها ولدولته العثمانية.

۲. القيام بنشاط معاد للدولة.

وأصدرت عليه حكمًا غيابيًا بالإعدام.

في سنة ۱۹۰٤م أصدر عازوري كرّاسين: أحدهما بالعربية والآخر بالفرنسية دعا فيهما إلى الاستقلال. وبعد شهرين أصدر كتابه الشهير باللغة الفرنسية:

(۳۰) La Ligue de la Patrie Arabe

«يقظة الأمة العربية في آسيا التركية» (۳۱). دعا فيه إلى الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية، والكتاب عبارة عن بيان شديد اللهجة يقول فيه: إن تركيا تقف على عتبة حقبة جديدة تتميّز بالتحولات الجذرية. أما العرب الذين نجح الأتراك في إخضاعهم لحكمهم الجائر بتفريقهم إلى شيع متناحرة متنابذة على أمور دينية هامشية، أصبحوا يعرفون الآن أنهم أمة واحدة، جمع شملها التاريخ والجغرافية والشعور الوطني ووحدة العرق. وهم يرغبون في الانفصال عن الأتراك الذين أخذ السوس ينخر في دولتهم، ويسعون لتأسيس دولة عربية مستقلة، وأن هذه الدولة سوف تمتد إلى حدودها الطبيعية من وادي نهر دجلة حتى وادي العريش، ومن البحر الأبيض المتوسط حتى بحر عُمان. وهي سوف تكون ملكية دستورية حرّة يحكمها سلطان عربي. أما ولاية الحجاز، ومعها مقاطعة المدينة المنورة، فإنها سوف تصبح إمبراطورية مستقلة يحكمها حاكم يكون في الوقت ذاته خليفة المسلمين أيضًا.

وبهذا التقدير تكون المعضلة الكبرى، أعني فصل الدين عن الدولة المدنية، قد وجدت لها حلاً، وهذا سيكون خيرًا للجميع (۳۲).

أما النقطة الثانية التي طرقها عازوري في كتابه فهي: التناقض العضوي بين تطلّعات كل من القومية العربية والحركة الصهيونية وقال بحتميّة الصراع المستمر بينهما إلى أن تقضي الواحدة منهما على الأخرى. وهكذا تنبأ عن قيام صراع دام بين الحركة الصهيونية والقومية العربية» وأنه مقدّر على اليقظة العربية القومية والحركة الصهيونية أن تتصارعا باستمرار حتى تتغلب إحداهما على الأخرى. وأن مصير العالم كله يعتمد على نتائج هذا الصراع بين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متناقضين» (۳۳). قال: تطفو على سطح الأحداث في آسيا التركية ظاهرتان خطيرتان، وهما في ماهيتهما واحدة وجوهرهما واحد، ولكن كل واحدة منهما تناقض ظاهرتان خطيرتان، وهما في ماهيتهما واحدة وجوهرهما واحد، ولكن كل واحدة منهما تناقض الأخرى. الظاهرة الأولى هي

(۳۱) Le Reveil La Nation Arabe dans l'Asia Turque

(۳۲) زين ص ۷٤–۷٥

(۳۳) הסטוריה של א"י כרך 8 עמ' 187

يقظة الأمة العربية. والثانية هي محاولات اليهود بعث مملكة إسرائيل القديمة. وهؤلاء اليهود يسعون لإقامة دولة تمتد من جبل الشيخ حتى الصحراء العربية (شبه جزيرة سيناء) وقناة السويس.

من الجدير بالذكر أن هذا الكتاب، الذي صدر في فرنسا، أثار صدى واسعًا في كل من أوروبا وفلسطين. وطالما هاجم بن غوريون المؤلف والكتاب، كما هاجم «تلاميذ عازوري الذين لا يضمرون إلا الحقد والكراهية لليهود» ومن هنا اعتبرته الصهيونية ألدّ أعدائها وأخطرهم».

في سنة ١٩٠٨م، بعد نجاح انقلاب تركيا الفتاة وعزل السلطان عبد الحميد ونفيه، صدر عفو عن عازوري فعاد إلى يافا. وبعد سنوات أصدر، بالاشتراك مع رجال فكر فرنسيين، مجلة شهرية أسماها «الاستقلال العربي» [٣٤].

لقد ترك عازوري بصماته واضحة على الساحة العربية عمومًا، والفلسطينية بصورة خاصة، ولكن أهم أثر له كان على الساحة الأوروبية، خاصة الساحة الفرنسية. ولكنه، نظرًا لانتمائه الديني وتشيعه الظاهر لفرنسا وحضارتها، لم ينجح في التعبير عن ضمائر العرب المسلمين، فقد اعتبر فرنسيًا أكثر منه عربيًا. ولكن كتاباته كانت تنمّ عن وعي سياسي ونظرة ثاقبة تخترق حجب المستقبل، خاصة بالنسبة للقضية الفلسطينية والصراع العربي - الصهيوني المستقبلي [٣٥].

▪ تنامي فكرة القومية العربية

ظلت فكرة «القومية العربية» منحصرة في نخب فكرية محدودة منفردة في الطائفة المارونية اللبنانية، في حين ظلّت الغالبية العظمى من الرعايا المسلمين وبعض المسيحيين يتمسّكون بوحدة الدولة التي اعتبروها دولة الجميع وإن كانت بحاجة ماسّة سريعة إلى الإصلاح، ولكنهم رفضوا الانفصال.

وهكذا فإن الأقلية التي دعت إلى الانفصال ظلت صغيرة هامشية منحصرة على وجه التحديد في موارنة لبنان الذين رأوا تبني الفكرة القومية ليقنعوا العرب

(٣٤) Independence Arabe

(٣٥) הסטוריה של א"י כרך 8 עמ' 181

المسلمين مشاركتهم مساعيهم وتطلعاتهم [٣٦].

ولكن هذا الوضع ما لبث أن بدأ يتغير بانجراف عارم من التيار الموالي للدولة والتمسك بوحدة ترابها إلى التيار الانفصالي. والسبب في ذلك يعود إلى ردود الفعل على انقلاب جمعية «الاتحاد والترقي» الحاكمة. في حقيقة الأمر إنه بعد تسلم الانقلابيين الحكم استبشر العرب خيرًا وهتفوا: ها قد تسلّم الحكم أخيرًا دعاة الإصلاح. ولسوف نلمس خيراتهم في القريب العاجل. وعمّا قريب سوف يحقق العرب أحلامهم في اللامركزية وربّما في الحكم الذاتي.

وساد البلاد شهر عسل تركي - عربي فأقيمت الاحتفالات والمهرجانات وهنأ الناس أنفسهم بالنصر. وأنشئت جمعيات «التآخي العربي التركي» التي ضمت مسلمين ومسيحيين ودعت إلى التعايش العربي - التركي وباشرت أعمالها ففتحت فروعًا في مدن الدولة وأصدرت صحيفة. وعند افتتاح البرلمان دخله نواب عرب [٣٧] تجددت الآمال وارتفع شعار:

«ها قد استبدلت دكتاتورية عبد الحميد بديمقراطية الاتحاد والترقي».

وقد وضعت لجنة الاتحاد والترقي برنامجًا إصلاحيًا نال رضا الجميع:

١. الإصلاح.
٢. محاربة الفساد.
٣. المحافظة على وحدة التراب العثماني.
٤. التصدي لمؤامرات الغرب.

وبدأت حملة تقارب عربية تركية بعد أن أعلنت السلطة الجديدة عن إصلاحاتها فأعادت المشروطيّة (الدستور) وأعلنت عن انتخابات برلمانية، وأطلقت حريّة التعبير فصدرت الصحف وكان أوّلها صحيفة «الأصمعي». وبوشر بمدّ سكة حديد الحجاز، وأعلن عن تعيين الشريف حسين أميرًا على مكة.

تنفس الجميع الصعداء وقالوا: ها قد عادت المياه إلى مجاريها، وها هو الإخاء العربي العثماني قد استعاد زخمه. ولكن الرياح لم تجري بما تشتهي السفن، وأسفر المستقبل عن وجه عابس للعلاقات المذكورة.

(٣٦) زين ص١٠٤

(٣٧) כהן עמ' 77 - 78

«الاتحاديون» ينهجون سياسة «التتريك»

ولكن ما أن تسلمت السلطة الجديدة من الاتحاديين - جمعية «الاتحاد والترقي» - الحكم حتى تفجّرت المشاكل الداخلية.

- أعلنت بلغاريا الاستقلال عام ١٩٠٨.
- أقدمت النمسا على ضم إقليمي البوسنة والهرسك، بعد سلخهما عن الدولة العثمانية. وأيقن رجال الحكم أن الدولة تسير في طريقها إلى التفكّك والانحلال.

وكان من نتائج هذه الهجمة الأوروبية تقوية الجناح القومي المتطرف في الحكم من أوساط النواة الصلبة الأصولية السلفية لجمعية «الاتحاد والترقي».

ولم تكن هذه بالأساس متجانسة متناغمة، كذلك لم تكن كلّها من ثوب واحد، بل كانت خليطًا متنافرًا متناقضًا من أجناس شتى ومذاهب مختلفة ومشارب متنوعة، فمن أعضائها كان أتراك وعرب ويهود، كما انجذب إليها أيضًا رعايا من أعراق وقوميّات أخرى. وكانت تركيبة المسئولين من رجال الدولة عجيبة غريبة بعثت الشكوك والريب في نفوس العرب، فلقد كان معظم قادتها من «البنائين الأحرار» [٣٨]، الحركة الماسونية، المعادين للإسلام.

والعقيدة الإسلامية تتعارض مع مبادئ ودعوات الماسونية.

بالإضافة إلى ذلك شكّل يهود مدينة سالونيك اليونانية جزءًا عضويًا من هذا التنظيم. وقد كتب سيتون واطسون [٣٩]: إن الحقيقة التاريخية في تكوين جمعية «الاتحاد والترقي» أنها لم تكن تركيبة إسلامية بتاتًا، كما أنه عند تأسيسها لم يبرز من قادتها وزعمائها عضو واحد من أصل تركي.

فانور - مثلاً كان ابن رجل بولندي مرتدّ عن دينه. أما جاويد - فكان من الطائفة اليهودية التي اعتنقت الإسلام والمعروفة باسم «الدونمة». وكراسو - (قره صو) كان يهوديًا من أصل أسباني ممن استقرّوا في سالونيك. وكان طلعت - بلغاريًا من أصل غجري اعتنق الإسلام. أما أحمد رضا - فكان نصفه تركيًا ونصفه الآخر مجريًا، إلى جانب كونه من أتباع مدرسة كنت الفلسفية [٤٠].

---

(٣٨) Free Maisons

(٣٩) Settom Satson : The Rise of Nationalism in Balkan p 135

(٤٠) زين ص٨٦

وقد خلص واطسون إلى القول إن أصحاب العقول المحرّكة في الجمعية كانوا من الدونمة (اليهود المتأسلمين). أما الداعم المالي لها فكان يصل عن طريق يهود الدونمة ويهود سالونيك الأثرياء. بالإضافة إلى ذلك كانت تصلها معونات مالية من أصحاب رؤوس الأموال الدولية، أو الشبيهة بالدولية، من العواصم الأوروبية: فينا، بودابست، برلين، باريس، ولندن.

ويقتبس يسري فودة (م. س) ص ص ٤١-٤٢ د. حسّن حلاق أستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية «إذا حاولنا دراسة الذين أسسوا جمعية الاتحاد والترقي، وهي جمعية علمانية لا تزال مبادئها متجذرة في تركيا حتى اليوم. نجد أن الوثائق الدبلوماسية البريطانية متمثلة في مراسلات السفير البريطاني في اسطنبول إلى وزارة الخارجية البريطانية تؤكد الارتباط الكلي الوثيق بين الماسونية والحركة الصهيونية ويهود الدونمة «وجمعية الاتحاد والترقي».

وقد انقسمت الجمعية إلى تيارين:

١- تيار المتطرفين: ويضم ذوي التوجهات العسكرية اليمينية المتطرفة، ويدعو إلى انتهاج سياسة القبضة الفولاذية مع شعوب الدولة وإغراق كل محاولة تمرّد بالدم.

٢- تيار المعتدلين: يضم ذوي التوجهات المعتدلة العقلانية البراغماتية ويدعو إلى حل المشاكل بالتفاهم والحسنى. وانتهى الصراع الدائر بين التيارين بانتصار التيار الأول، وإخماد صوت الشوفينية المدعوة بـ «الطورانية» [٤١]، راميًا بتطلعات الشعوب وأمانيها عرض الحائط. وقد راقب العرب هذا التطور الخطير فذهلوا، وهم يرون هذا الانعطاف الحاد.

- فها هم يرون الطورانية القبلية تحل محل عالمية الإسلام.
- والجامعة الطورانية تحل محل الجامعة الإسلامية.
- والأمة الطورانية محل أمة الإسلام.
- والإخوة الطورانية محل أخوة الإيمان.
- والقومية محل الدين.

---

(٤١) نسبة إلى طوران وهو الموطن الأصلي للأتراك في سهول أسيا

وها هي الروح القومية التركية القبلية تنفجر بالكراهية والحقد على كل من هو غير تركي وكل ما هو إسلامي. رأى العرب «جمعية تركي أوجاقي» (الموقد التركي) القومية المتعصبة تفتح لها فروعًا في اسطنبول وشتى مدن وقرى الأناضول. ولم تلبث الطورانية أن أخذت تتسرب إلى صفوف الجيش وتؤجج العداوة بين الضباط العرب والأتراك على أرضية قومية. كما أخذت تحاول الابتعاد عن الدين الإسلامي ورموزه. وتسعى إلى إحياء الديانة الوثنية الجاهلية التي كان يعتنقها الأتراك قبل دخولهم الإسلام.

وكانت آخر الإبداعات الطورانية في مضمار العداء للعرب كتاب «قوم جدد» وهو محشو بالتهجمات والانتقاص من العرب ويدعو إلى الطورانية وإلغاء ما سواءها. كما قامت الصحيفة التركية«أقدام» بنشر سلسلة من المقالات العنيفة التي تحرّض على العرب. فما كان من الطلاب العرب الذين يدرسون في العاصمة إسطنبول، حيث تصدر الصحيفة، إلا أن قاموا بمظاهرات عارمة هاجموا فيها بنايتها. وأصدروا بيانًا يشجبون فيه المقال. وبعثوا بنسخة منه إلى الصدر الأعظم. ولم يبق الوضع المحتقن مقصورًا على العاصمة، بل تعداه إلى الولايات والأقاليم العربية فانبرت الصحف العربية تهاجم الصحيفة وتدافع عن العرب[٤٢].

ومع ذلك فإن أحدًا من العرب لم يرفع صوته داعيًا إلى الانفصال عن الدولة أو تقويضها، بل على العكس من ذلك فقد ظهر في هذه الفترة بالذات أحزاب عربية تدعو إلى الإصلاح ولكن ضمن إطار الدولة والتآخي العربي - العثماني. مثل الحزب العثماني للامركزية الإدارية.

وعند دخول الدولة الحرب العالمية الأولى وقف الجميع العرب والأتراك صفًا واحدًا مؤيدين ومعلنين ولاءهم لها واعتبروا أن أي خروج عن طاعتها في هذه الظروف العصيبة خيانة عظمى للدين الإسلامي الحنيف. فلا عجب أن لا تسجل الأحداث في الفترة المبكرة أية خيانة أو أية تآمر على الدولة وسلامة أراضيها.

ولكن لم يمض زمن طويل حتى أخذت الآمال من السلطة الحاكمة التركية تخبو، فلا مساواة ولا أتونوميا ولا حقوق. حقًا نهجت السلطة نهج السلطان عبد الحميد

(٤٢) زين ص١٠٨-١٠٩، وأيضًا ملاحظة ٧٤ ص ٢١-٢١٦

في المحافظة على سلامة التراب العثماني، ولكن ليس تحت ظل السيادة الإسلامية بل تحت ظل سيادة العنصر التركي المتمثل في الطورانية. وقد بدأ النظام الجديد في عملية الطورنة (نسبة إلى القومية الطورانية التركية) أو التتريك، فتشدد رجاله وابتدعوا سياسة تمييز جديدة ضد العرب فشرعوا يغربلون الموظفين العرب من الوظائف الحكومية. كما أخذوا يشددون على استبدال اللغة العربية باللغة التركية كلغة رسمية وحيدة في المؤسسات الحكومية والمحاكم والمدارس.

وقد تزامن هذا الإجراء مع ظهور مقالات في الصحف التركية تشيد بالقومية الطورانية وتحط من شأن القومية الأخرى. كما بدأت تصدر كتب تركية تتطاول على رجالات الإسلام وتطعن في عظمائهم وكتب أخرى تشكك بالعقيدة الإسلامية وأركان الدين الإسلامي وغيرها وغيرها.

وقد ركز عقانديو الحركة النورانية على مهاجمة العرب، فقام خطباؤهم يدعون إلى نبذ كل ما هو عربي. وبدأ جو معاد للعرب يغلف الدولة ويظهر الاستهتار والحط من شأنهم حتى أن أحد المسئولين الرسميين أطلق على العرب «كلاب الأمة التركية».

ردود الفعل العربية

بعد أن استفاق العرب من الذهول لهذا التحول أخذوا يحاولون الدفاع عن أنفسهم إزاء هذه الهجمة الطورانية منفلتة العقال. تدارسوا، كيف رد الاتحاديون الأيدي العربية الممدودة لهم وكيف رفضوا، بفظاظة، تصل درجة الإهانة، التطلعات العربية وسرعان ما بدأوا يتوجهون إلى معاداة السلطة الحاكمة وبدأت أفكار عازوري الانفصالية - الاستقلالية وغيره تلقى أصداء في الأوساط العربية: الإسلامية والمسيحية. فلقد تحالفت المحاذير التي كانوا يخشونها من الاتحاديين وزمرتهم. لقد كشرت الطورانية عن أنيابها وراحت تتحدى العرب في أعز ما يملكون، دينهم الإسلامي ولغتهم العربية [٤٣].

وكانت ردود الفعل في البداية لطيفة حاولت رأب الصدع وتلافي الانشقاق وإيجاد قاسم مشترك مع السلطة، فحاول بعض رجال الفكر تدارك الموقف. قالوا إنهم

(٤٣) زين ص٨٧

متمسكون بوحدة التراب العثماني ورافضون لدعوات الانفصال والاستقلال وانعكس هذا التوجه في المقالات التي كان ينشرها «محمد كرد علي» في صحيفة «المقتبس» ويدعو فيها إلى المطالبة بحقوق العرب ضمن إطار الدولة العثمانية الموحدة.

وكذلك محمد رشيد رضا حين زار العاصمة اسطنبول في أوج هذه الأجواء العكرة دعا إلى:

- إزالة سوء التفاهم بين العرب والأتراك.
- إقامة معهد إسلامي في اسطنبول للدعوة والإرشاد.

وقد حاول طمأنة الأتراك، في زيارته المذكورة، إن شكوكهم ووساوسهم من قيام حركة انفصالية عربية ومحاولة إحياء خلافة عربية في شبه جزيرة العرب، ما هي إلا أوهام ليس لها أساس من الصحة».

والجدير بالذكر أن هذا التوجه التوفيقي التصالحي لم يكن مقصورًا على العرب المسلمين. بل تعدّاه إلى المسيحيين العرب كذلك، فقد تجند عدد كبير منهم، داخل حدود الدولة وخارجها، لدعمها والمحافظة على سلامة أراضيها، والسعي إلى مصالحة عربية عثمانية. ففي سنة ١٩١٠م أقام السوريون المقيمون في القاهرة حفل وداع لسليمان البستاني مندوب بيروت في البرلمان التركي. وقد ألقى رفيق العظم كلمة الاحتفال أتهم فيها السلطة التركية بسلب العرب حرياتهم وحقوقهم واحتقار لغتهم. وقد رد عليه المحتفي به البستاني، وهو مسيحي لبناني، رافضًا الاتهامات، داعيًا إلى التمسك بأهداب الدولة. وأهم من ذلك ما دعا إليه الأديب يعقوب صرّوف، وهو مسيحي لبناني أيضًا، في وجوب التعاون مع الأتراك والتفاهم معهم وإزالة أسباب الخلاف وقال: واجبنا مساعدتهم في جهودهم لصهر جميع الأعراق والأديان في بوتقة صهر واحدة ضمن إطار الوحدة العثمانية.

تنظيمات عربية كرد على سياسة التتريك

أما تيار «الإخاء العربي العثماني» الذي قضت عليه السلطة العثمانية، تمشيًا مع سياستها في القضاء على كل نشاط سياسي علني عربي، فلقد استمر في نشاطه في لباس آخر. فقد عمد مع المنظمات العربية المحظورة إلى تكتيات جديدة تجمع بين النشاط العلني والعمل السري.

كما انتقل قسم من الرموز الفكرية والعربية إلى الخارج لمتابعة نشاطهم، ففي صيف ١٩٠٩ أسسوا «المنتدى الأدبي» في العاصمة استمرارًا لجمعية «الإخاء العربي العثماني» واتخذ هذا المنتدى صبغة ثقافية وأنشأ له فروعًا في المدن السورية وتحول بذلك إلى خلية سرية سياسية تمارس النشاط السياسي.

وفي نهاية ١٩٠٩ أسس عبد الكريم الخليل رئيس «المنتدى الأدبي» جمعية سرية أسماها «القحطانية» تعمل بالسياسة، مقابل النشاط الثقافي للمنتدى، وانتشرت الجمعية بين الضباط العرب الذين يخدمون في الجيش التركي، وأبرزهم عزيز علي المصري، الذين كانوا ساهموا مساهمة فعالة في انقلاب تركيا الفتاة، قبل أن يتحولوا عنها. وقد قالت الجمعية أن العرب أمة واحدة قائمة بذاتها. أما الدولة فيجب صياغتها لتعبر عن إمبراطورية ثنائية القومية عربية - تركية، أسوة بالإمبراطورية النمساوية - الهنغارية، حيث يتربع على قمة حكم الدولة الجديدة سلطان تركي هو ملك العرب، الذين يتمتعون بحكم ذاتي في وطنهم ضمن إطار الدولة الموحدة، ويكون لهم برلمان خاص وحكومة محلية ولغة رسمية [٤٤].

ولكن كل محاولات التفاهم ورأب الصدع التي أبداها العرب لم تُثن رجالات الاتحاد التركي عن التمادي في سياستهم القومية. وكان ردهم على تلك المحاولات أن أطلقوا صيحة هجوم جديدة على العرب متهمينهم بموالاة السلطان المعزول عبد الحميد. وقد ركزوا الهجوم على عزت باشا القائد وأبو الهدى الصيادي وغيره من العرب الذين كانوا مقربين من البلاط السلطاني [٤٥].

---

(٤٤) كيالي ص ٥٤-٥٥

(٤٥) م. س ص٥٤

٢. العلاقات التركية ـ الصهيونية :

راوحت سياسة السلطة العثمانية تجاه الحركة الصهيونية في فلسطين بين قطبين: تعاطفت معها، فسهلت طريقها وأنعمت عليها بالدعم أحيانًا.
وجابهتها ورفضتها وعرقلت مساعيها وتحركاتها ونشاطاتها أحيانًا أخرى.

ويمكن تقسيم هذه السياسة إلى فترتين زمنيتين:

أ. فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ ـ ١٩٠٨م.

ب. فترة حكم «الاتحاد والترقي» ١٩٠٨ ـ ١٩١٤م.

أ– فترة حكم السلطان عبد الحميد:

نهج السلطان المذكور، منذ اليوم الأول لاعتلائه على عرش السلطنة، سياسة إسلامية ثيوقراطية في إدارة شئون البلاد.
كان مؤمنًا أن مبرر وجود الدولة العثمانية واستمراريتها يكمن في خدمتها لقضية الإسلام وتبني أهدافه، وعلى رأسها هدفان:
ـ الدفاع عن دار الإسلام ـ نشر حدود الإسلام.
وقد آمن أن قدر الدولة العثمانية قيادة «أمة الإسلام» في وطنها «دار الإسلام».
وعلى هذا الأساس رأى أن واجبه المقدس يقتضيه الحفاظ على التراب الإسلامي. واعتبر ذلك من الثوابت التي لا يمكن التنازل عنها أو تجاوزها أو الانتقاص منها. وهذه القاعدة تنطبق على ديار الإسلام عامة، وعلى فلسطين بصورة خاصة، فقد اعتبر ترابها مقدسًا، وهي بمثابة القلب من الجسد الإسلامي. ومن هنا يكمن رفضه القاطع للمشروع الصهيوني ولعروضه السخية المغرية. وحين كانت الضغوط الصهيونية ـ الأوروبية ـ الأمريكية تزداد عليه لتعديل سياسته في هذا المجال كان يناور محاولاً تبريرها بقوله:
يجب التمييز بين فئتي اليهود. فهناك اليهود الشرقيون السفراديم، وهم رعاياه وأهل ذمته، ويجب التعامل معهم بالعدل والإنصاف ومنحهم كافة الحقوق.
أما اليهود الغربيون، الاشنكاز فهم رعايا دول أجنبية معادية في كثر من الحالات فهم غرباء عن الدولة في تطلعاتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم. وهم يرفضون التخلي عن جنسياتهم وجوازات سفرهم الأوروبية، بالإضافة إلى تمسكهم

بالصهيونية أيضًا. فهم بمثابة طابور خامس في الدولة. وولاؤهم وانتماؤهم لدولهم الأوربية، لا للدولة العثمانية.
وقد اتهمهم السلطان بأنهم متآمرون يشكلون رأس جسر لغزو أوروبي متوقع. كما أنهم يتمتعون بامتيازات منحتهم إياها «اتفاقية الامتيازات»، الأمر الذي يتجاوز القانون العثماني والشريعة الإسلامية أيضًا [٤٦].

ومن هذا المنطلق نهج السلطان منذ ١٨٨٢ سياسة متشددة تجاه الحركة الصهيونية تمثلت في:

١– تحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين فحظر دخول مهاجرين يهود من روسيا، صربيا، بلغاريا ورومانيا.

٢– تحديد انتقال ملكية الأراضي الفلسطينية إلى ملكية يهودية.

٣– إيقاف الاستيطان اليهودي في فلسطين.

ولكن أيًا من هذه الإجراءات لم تطبق على الصعيد الميداني نتيجة لـ :

١– عجز الجهاز البيروقراطي التنفيذي وشلله.

٢– استعمال الرشوات الصهيونية لشراء ذمم الموظفين الذين أغمضوا عيونهم عن تلك الحركة.

٣– ضغوط الدول الأجنبية على السلطات العثمانية بحجة أن هؤلاء المهاجرين هم مواطنوها والواجب حمايتهم. وحين ازدادت الضغوط الأجنبية على السلطان قال لممثلي تلك الدول: «لماذا يتوجب علينا استقبال أولئك الذين أدار الأوروبيون المتحضرون ظهورهم لهم وطردوهم من بلادهم؟»».

وقد ساند السلطان في سياسته شرائح من المجتمع العربي في فلسطين، وعلى رأسهم النخب المثقفة والبرلمانيون العرب، فأقاموا الدنيا وأقعدوها ورفعوا الاحتجاجات وقدموا الاستجوابات في البرلمان واعترضوا على الانفلات والتسيب الميداني في مجالات: الهجرة والاستيطان وانتقال الأراضي، خاصة بعد أن أذهلتهم موجات الهجرة الأولى.

---

(٤٦) הסטוריה של א"י כרך 8 עמ' 40

وتأكيدًا لسياسته في مناهضة الحركة الصهيونية والمحافظة على سلامة التراب الإسلامي عمد السلطان إلى تعيين والٍ تركي جديد لسنجق القدس هو رؤوف باشا. وكان معروفا بوطنيته التركية وصلابته وقسوته وتشدده، فوقف سدًّا منيعًا في وجه الصهيونية وبرامجها.

كان على الحركة الصهيونية العالمية أن تواجه هاتين العقبتين:
سياسة السلطان. وإجراءات رؤوف باشا في الميدان الفلسطيني.

واجهت الخطر الأول باستعداء روسيا على السلطان. وتجاوبت الحكومة الروسية مع ضغوط الحركة ونجحت في ليّ ذراع السلطان كي يخفف من قبضته الخانقة على اليشوف. وانحنى السلطان وأصدر فرمان سنة ١٨٨٧م الذي سمح فيه بالزيارة المحدودة المشروطة لليهود بزيارة البلاد كسيّاح فقط. فأمر بإصدار جوازات سفر حمراء لكل سائح يهودي يود زيارة البلاد. ويظل الجواز الأحمر ساري المفعول لمدة أقصاها ثلاثة أشهر فقط، يعيده السائح إلى السلطة، ويسترد جواز سفره الأصلي الذي كان أودعه حين تسلم الجواز الأحمر المؤقت.

واستمرأ الطوفان الصهيوني والجهاز الحكومي لعبة القط والفأر فقد لبيت مطالبهما، فالمهاجرون اليهود يدخلون البلاد تحت غطاء قانوني والموظف المرتشي بدأ يشرعن الهجرة تحت تغطية قانونية وهكذا تم إلغاء معظم الإجراءات كما تم تجاوز القوانين والقيود.

وهكذا رأت الحركة أن هذا الإجراء حلّ لنصف المشكلة، فقد تجاوز حظر اليهود دخول البلاد وسمح للسياح اليهود بالزيارة. ثم تقدّمت الحركة الصهيونية لحل النصف الآخر من مسألة الهجرة. استغلت الإجراء المذكور وأرسلت آلاف المهاجرين تحت غطاء «سيّاح يهود يزورون فلسطين» ثم عمدت إلى رشوة الموظفين المسئولين ليتحوّل هذا السائح، وبقدر قادر وتوقيع الموظف المرتشي، إلى مواطن عثماني من أهالي البلاد.

أما الخطر الثاني المتمثل في رءوف باشا وإجراءاته فقد تحوّلت الحركة في الوقت ذاته لمعالجة الوالي المعادي. فحرّكت ضده قناصل بريطانيا، فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية فرفعوا ضده الشكاوى واتّهموه بتعطيل مصالح الدولة وبتجاوز صلاحياته والتجرؤ على القانون العثماني.

رضخ السلطان للضغوط وأمر بعزله واستبداله بوالٍ جديد، هو رشاد باشا. وكان مرتشيًا واسع الذمة والدين والضمير والجيب. فتعاون مع الحركة وسهل مشاريعها.

لكن العرب الفلسطينيين لم يصمتوا إزاء هذه الكارثة الجديدة. ففي سنة ١٨٩٠م قام خمس مائة من زعماء البلاد، وعلى رأسهم زعماء مدينة القدس، بتقديم الشكاوى، بحق هذا الوالي الفاسد واتهموه بإهدار حقوق الدولة وتلقي الرشاوى وطالبوا بعزله وإيقاف الهجرة والاستيطان وانتقال الأراضي.

وفي ٢٤ حزيران يونيو ١٨٩١ طيّروا برقية إلى الصدر الأعظم مطالبين بنفس المطالب.

أما يوسف بك الخالدي فقد كتب محذرًا الدول الغربية من التآمر على عروبة فلسطين، وذكرها أن فلسطين ملك لأصحابها العرب.. «أما أنتم ففتشوا في بلادكم وطنًا للصهيونية. وأن أحلام الصهيونية في استيطان فلسطين سوف تصطدم بمقاومة عنيفة منا نحن الغرب».

وبعد عقد من الزمن، ومع انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل ١٨٩٧م، ازداد نشاط الحركة وتدفقت الهجرة اليهودية إلى فلسطين. فأقام زعماء فلسطين العرب ضجّة في سوريا الكبرى وعقدوا المؤتمرات وطيّروا البرقيات وأعربوا عن احتجاجهم واستنكارهم فاضطرت السلطات العثمانية إلى الرضوخ للطلبات فأنشأت لجنة من عرب فلسطين يرأسها مفتي القدس محمد طاهر الحسيني. وقد اتخذت اللجنة إجراءات حالت دون تملك الحركة دونمًا إضافيًا واحدًا من الأراضي العربية.

كذلك استجاب السلطان لطلبات الزعماء الفلسطينيين فسارع إلى إصدار فرمان جديد، للمرة الثالثة، يحظر الهجرة إلى فلسطين، ليس على اليهود وحدهم، وإنما على رعايا الدول الأجنبية أيضًا.

وتدخّلت الدول الأوروبية والولايات المتحدة مرة إضافية ونجحت في إكراه السلطان على إعادة العمل بالبطاقة الحمراء ابتداء من ١٧ مايو أيار ١٨٩٨م، وقد زاد على ذلك بأن منح كل من كان وصل إلى البلاد في وقت سابق الإقامة الدائمة وسمح لهم بابتياع الأرض.

وقد ظلّ نظام البطاقة الحمراء ساري المفعول حتى سنة ١٩١٣م، حين صدر في تموز يوليو ١٩١٤م فرمان جديد يحظر دخول مهاجرين من رعايا دول أجنبية ويأمر بطرد من بقي من السياح اليهود في البلاد بعد انقضاء مدة الأشهر الثلاثة. ولكن هذه الإجراءات ظلت حبرًا على ورق فإن الأوامر لم تنفذ نتيجة لتدخل الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية، ونجحت في تجميد الفرمان وشلّه. أما اليهود المتبقون في البلاد، بعد انقضاء المدّة، فقد وضعوا تحت الحماية القنصليّة (٤٧).

ب- فترة حكم جمعية «الاتحاد والترقي» ١٩٠٨ - ١٩١٤:

في الصراع الذي نشب بين السلطان عبد الحميد وحركة وجمعية «الاتحاد والترقي» رأى قادة الحركة الصهيونية الانحياز إلى السلطان فدعموه وأيدّوه لأنهم كانوا على قناعة بانتصاره وتغلبه على خصومه. وكان النصر، غير المتوقع، للاتحاديين صدمة مذهلة ومفاجأة صاعقة للحركة، ومع ذلك ظلّوا مصرّين على موقفهم الداعم للسلطان لوثوقهم من رجحان كفته في نهاية المطاف.

وقد وصل بهم الحد من تحفظهم من السلطة الجديدة أن ماكس نوردو، وهو من أبرز قادة الحركة، رفض مقابلة زعماء الانقلاب وأصرّ على الموقف التقليدي. لكن حين وطدت الحركة أقدامها وأحكمت قبضتها على الحكم ونجحت في عزل السلطان ونفيه إلى خارج البلاد، خبت آمال الحركة في عودته إلى سدّة الحكم، حوّلت دعمها وتأييدها للنظام الجديد وأصبحت من دعاته.

وقد أرسلت المنظمة الصهيونية ممثلها د. فكتور يعقوبسون ليوطد العلاقات ويعزّز التفاهم. وما أن حلّ هذا العاصمة اسطنبول حتى بادر إلى العمل. اتصل بزعماء الاتحاديين وعمل على إقناعهم بالبرنامج الصهيوني ولوّح لهم بالنفوذ المالي والاقتصادي والإعلامي لليهود في القارّتين الأوروبية والأمريكية. ثم قام ببذل الأموال لشراء الذمم واكتساب رجال الحكم والسياسة والإدارة والصحافة. وقد نجح في السيطرة على العديد من الصحف مثل صحيفة «أويرور» التي

(٤٧) الأحد ص٧٧

تصدر باللغة الفرنسية وصحيفة «همفسير» التي تصدر بالعبرية (٤٨). كما نجح في تجنيد صحف قائمة مثل صحيفة «التمبو» وصحيفة «التركي الفتى»(٤٩) التي ضاعفت عدد صفحاتها لتفسح المجال لأقلام الصحفيين ورجال الحكم والسياسة المؤيّدين للصهيونية. ووصل العاصمة اسطنبول اثنان من أبرز الصحفيين الصهيونيين هما دافيد يعقوبسون وفلاديمير جبوتنسكي. وقاما بالدعوة للنظام والترويج له وعملا على إقناعه بأن الحركة الصهيونية لا تسعى لاقتطاع فلسطين أو أي جزء آخر من الوطن العثماني، وإنما يقتصر هدفها على إقامة مركز يهودي في فلسطين يعمل تحت مظلّة الدولة وفي إطارها.

وحين عاد جيبوتنسكي إلى بلاده روسيا نشر في الصحيفة الروسية «رازفيت» تصوره للواقع الميداني:

١. وجوب هجرة يهودية إلى فلسطين حتى لا يبقى العرب يشكلون أغلبية سكانية.
٢. الحصول على براءة دولية لإقامة دولة يهودية في فلسطين.
٣. ابتياع أراضي عربية فلسطينية وإقامة مستوطنات يهودية عليها.
٤. تهويد فلسطين بكل ما ينطوي عليه الأمر من تهجير سكان واقتلاعهم (٥٠).

وقد تصاعدت المطالب الصهيونية في اسطنبول إثر زيادة التقارب التركي - الصهيوني. وساعد على هذا التوجه أن كثيرًا من قادة الاتحاديين كانوا إما من اليهود أو من المتعاطفين معهم من طائفة الدونمة والماسونية، حتى أن كثيرًا من أولئك القادة الاتحادين عرّفوا أنفسهم بأنهم صهيونيون يسعدهم المساهمة على تحقيق البرنامج الصهيوني. وقد وصل تجرؤ الحركة الصهيونية إلى حد المطالبة بفلسطين وطنًا قوميًا للشعب اليهودي، الأمر الذي فتح عيون بعض رجال الحكم وتنبهوا إلى خطورة الوضع فبدءوا بردود فعل معاكسة، فإن هذه المطالب تتناقض مع الثوابت الوطنية التركية ومع مصلحة الدولة وسياستها المعلنة، وهي سلامة التراب العثماني وتوحيد شعوب الدولة تحت سقف التتريك» (٥١).

(٤٨) המבשר
(٤٩) JEUNE Turque
(٥٠) כהן עמ' 79
(٥١) אותו עמ' 89 - 90

ويذكر بار زوهر (م. س) ص٤١ عن الحركة الصهيونية في ظل الأوضاع المذكورة فيقول «لا شك أن انفلات الحركة الصهيونية وتجرؤها على الاندفاع في طموحاتها كانت ثورة الشبان الأتراك التي بدأ في كوستا (القسطنطينية أي اسطنبول ز. ف) في الصيف الماضي واضطر السلطان المسن عبد الحميد، تحت ضغط الجيش، على التوقيع على إعلان إطلاق الحريات. وأدى الانقلاب إلى إثارة موجة من الحماس في جميع أرجاء الإمبراطورية العثمانية. ورأى بها اليهود أيضًا احتمالاً لتحقيق أحلامهم الصهيونية. وقد أتضح مع مرور الزمن أنه لا أساس من الصحة لهذه الآمال».

والنتيجة، تخفيف السلطة من غلوا تأييدها واندفاعها ومسايرتها للحركة وبرامجها. وقد لاقى هذا التحفظ التركي دعمًا من الأوساط العربية والأوساط التركيّة التقليدية: الدينية والقومية.

٣. العلاقات العربية ـ الصهيونية:

تنازعت على فلسطين وتصارعت عليها قوّتان: العربية الفلسطينية والحركة الصهيونية. وقد تراوحت العلاقات بينهما بين مرحلتين متباينتين:

١ـ مرحلة العودة اليهودية الدينية. ٢ـ مرحلة العودة الصهيونية.

١. مرحلة العودة اليهودية الدينية :

استمرّت من يوم الشتات اليهودي حتى سنة ١٨٨١م وتميزت بقبول عرب فلسطين لليهود العائدين والترحيب بهم على كلاً من الصعيدين: الحكومي الرسمي والشعبي المحلّي.

فعلى الصعيد الأول قامت السلطة العثمانية باستقبال المهاجر اليهودي العائد وسهلت له العودة والإقامة في فلسطين. واعتبرت اليشوف اليهودي بأسره أهل ذمّة تتوجب تأمين سلامتهم وأموالهم وممتلكاتهم ودمائهم.

وعلى الصعيد المحلّي لم يراود العرب أي شكل من أشكال النفور أو العداء، فلم يكن استقبالهم لأولئك العائدين أقل ترحيبًا وحماسة من الصعيد الحكومي.

وقد نوّه القنصل البريطاني في مدينة القدس في عام ١٩٠٢م في تقاريره عن أوضاع اليهود في فلسطين عن مدى تسامح العرب، خصوصًا المسلمين، مع القادمين اليهود، فقد سمحوا لهم بالإقامة معهم في أحيائهم الإسلامية. ومدّوا لهم يد العون [٥٢].

٢. مرحلة العودة الصهيونية:

بدأت عام ١٨٨١، إثر موجة العداء لليهود والتي اجتاحت القارة الأوروبية، وقد بدأت العلاقات بين المهاجرين اليهود والسكان العرب بحال وانتهت بحال أخرى. بدأت بالتعايش والتعاون وانتهت بالعداء المرير.

كان المهاجر اليهودي، على قناعة تامة، بأن مشكلته الأساسية تكمن في التعامل مع السلطة العثمانية الحاكمة، وليس مع العرب المحليين. فقد أقنعته الحركة الصهيونية ألا يحسب لهؤلاء العرب أي حساب لأنهم شرذمة متفرقة، ومجموعات من القرى المبعثرة، وقبائل البدو التي لا وطن لها. وطالما رفعت الحركة شعارها «أرض بدون شعب لشعب بدون أرض» [٥٣].

كان المعتقد الذي ساد الأوساط الصهيونية في الفترة المذكورة أن اليهود قادمون إلى بلاد خالية خاوية من السكان. وقد فوجئوا حين رأوا أهلها العرب يعمرونها ويملأونها بمدنهم وقراهم ووجودهم وحضارتهم. وقد ذهل اليهودي المهاجر إزاء هذا المنظر الذي لم يكن يتوقعه، فلم يكلّف أحد نفسه قبل ذلك بإطلاعه أن الأرض الموعودة مأهولة بأبنائها.

وقد كتب يوسف برنر، أحد أدباء الهجرة الثانية، على لسان أحد أبطال روايته: «قبل وصولي البلاد كنت أتخيلها عبارة عن مدية واحدة تغصّ باليهود العلمانيين الأحرار يستصلحونها ويحيونها، وتحيط بهم الحقول الواسعة المبوّرة والأراضي المهجورة التي تنتظر من يحييها». وقد كتب أحاد هعام أثناء زيارته لفلسطين سنة ١٨٩١ والتي استمرت ثلاثة أشهر: «إننا درجنا على الاعتقاد أن فلسطين خاوية خالية تقريبًا وهي عبارة عن صحراء قفر غير مفتلحة. ولكن الحقيقة هي

(٥٢) الخولي ص ٤٧
(٥٣) מוריס עמי 49

عكس ذلك، فحيثما تجولت في البلاد لا تجد فيها سهلاً أو مرجًا قابلاً للزراعة وهو غير مزروع. إن أكوام الحجارة هي وحدها غير المفتلحة».

أما موشيه سميلانسكي من مؤسسي مدينة رحوبوت فقد كتب عند بداية الحركة الصهيونية: «رأيت الدعاية الصهيونية تصف البلاد التي سوف نهاجر إليها بأنها خاوية وهي عبارة عن صحار وبراري وقفار موحشة مهجورة تنتظر من يجيء لإحيائها.

ومن هنا، وحتى مع وجود شراذم متفرقة من العرب، كان لا بد من التوصل إلى النتيجة الحتمية بوجوب إجراء عمليتي إجلاء وإحلال. فالمهاجر اليهودي لا بد من أن يحل محل المواطن الذي لن يقبل الأمر وسوف يهب مدافعًا عن وطنه وأرضه وقريته.

أما العرب فلم يفطنوا إلى هذا الخطر فاستقبلوا اليهود وحاولوا استيعابهم. وقد كتب موشيه منوحين أحد مهاجري سنة ١٩٠٢م وكان معاصرًا للأحداث وشاهد عيان لها: «إن كل يهودي هاجر إلى فلسطين، في الفترة المذكورة، من روسيا، بولندا، هنغاريا أو غيرها لم توصله إلى البلاد إلا سواعد العرب الفلسطينيين. وقد كان هؤلاء ودودين، مهذبين، لطفاء وإنسانيين. ولم يكّنوا أي شعور عدائي تجاه اليهود. لقد كان بإمكانهم القضاء علينا بضربة واحدة وبلمح البصر لو أنهم كانوا يبيتون لنا سوء نيّة أو يبطنون الغدر».

ثم يستطرد واصفًا النزهات البحريّة مع بحّارة مدينة يافا العرب حين كان طلاب الكليّة (كلية هرتسليا ز. ف) يبحرون إلى عرض البحر يتمتعون ويتنزّهون ثم يعودون، وهم محمّلون بالهدايا والفواكه المتنوعة، مما تزيد قيمتها عن الأجر الزهيد الذي دفعوه. «لقد أحببنا هؤلاء البحارة فما من مرة أساءوا فيها إلينا».

أما دافيد ولفسون ١٨٥٥ـ ١٩١٤م، المعاصر للأحداث، وهو الرئيس الثاني للمنظمة اليهودية، فقد انتبه إلى وجود عرب في فلسطين فقال عام ١٩٠٨م: « يجب علينا أن نولي اهتمامنا للعرب المحليين، فهم أصحاب البلاد. كما يتوجّب على المنظمة الصهيونية توخّي الحذر والحرص على عدم إثارة حفيظتهم وكراهيتهم».

لكن شهر العسل الفلسطيني - الصهيوني لم يستمر طويلاً فسرعان ما تنبه العرب إلى نوايا الحركة الصهيونية المبيّتة من اقتلاع وتهجير واستيلاء على الأراضي الزراعية.

وفعلاً شرعت الحركة الصهيونية تبتاع الأراضي الفلسطينية وتقيم عليها المستوطنات اليهودية مقتلعة القرى العربية والفلاح العربي ملقية به بين السماء والطارق، فيفترش الأرض ويلتحف السماء ويستجدي العمل والمأوى. فلم يبق لديه أرض تقلّه ولا سماء تظلّه. وبدأت طبيعة العلاقات تتبدّل وتكتسب طابع العداء.

وقد زاد من تخوف العرب من المهاجر الصهيوني عوامل إضافية منها: جهل المهاجر باللغة العربية وبعده عن العادات والتقاليد ونمط المعيشة العربية وقد زاد الهوة اتساعًا فظاظة ذلك المهاجر وخشونته في التعامل مع العربي.

كذلك باعد بين العربي الأصيل والمهاجر الطارئ أن الأخير آمن بمعتقدات وعقائد غريبة عن المنطقة فمعظمهم اشتراكيون فوضويون، متمردون، ومتحررون من كافة القيود وملحدون. وكانوا في بلادهم الأصلية قد تمردوا ورفضوا العادات والتقاليد المحلية واليهودية. كما أنهم تمردوا على القيصر والسلطة الحاكمة وكفروا بالله ورفضوا الإيمان به. وحين هاجروا إلى فلسطين لم يخفوا شيئًا من عنفوانهم وغطرستهم وتسرعهم وتمردهم وإلحادهم ونيّتهم في هدم القديم وإنشاء عالم جديد. وكل هذه الأمور تناقض ما يؤمن به العربي المحلي ويدعو إليه. وقد ذكرت صحيفة عربية سنة ١٩١٤ أن الهجرة الثانية كانت تتشكل من عناصر ثورية ألمانية وفوضوية روسية بالإضافة إلى فوضويون هدامين رُحل من شتى الأمصار.

الشكوك والمخاوف تتعاظم، وهوة الخلاف تتعمق:

ـ بداية الصدام الصهيوني الفلسطيني:

لقد تمحور الصراع العربي الفلسطيني - اليهودي الصهيوني حول نقطتين مركزيتين: الجغرافية والديموغرافية «السكان». والجغرافية بالنسبة للحركة تعني ابتياع الأراضي العربية وتحويلها إلى ملكية يهودية صهيونية.

والديموغرافية تعني عملية اقتلاع الفلاح العربي من أرضه تليها عملية إحلال سكاني.

كان من الطبيعي أن يقاوم الفلاح العربي هذه العملية، فلا عجب أن تطفو على سطح الميدان الفلسطيني هبّات محلية موضوعية قام بها فلاحون عرب ضد المهاجرين المستوطنين اليهود على أرضية:

١ ـ تملك أولئك المهاجرين الطارئين أراض عربية كان يملكها فلاحوها العرب.

٢ ـ تنفيذ المشروع الصهيوني في الإجلاء (العربي) والإحلال (اليهودي). ومعناه اقتلاع الفلاح العربي الأصيل وإحلال المتوطن اليهودي الصهيوني الطارئ مكانه.

كانت أولى الهبّات التي قام بها فلاحو القريتين العربيتين يهود وملبس سنة ١٨٨٦ ضد مستوطني بيتح تكفا.

في السنة التالية سنة ١٨٨٧ حدث الصدام التالي بين فلاحي القرية العربية قطرة والمستوطنة اليهودية غديرا. وفي سنة ١٨٩٢ كانت الهبّة العربية ضد مستوطنة رحوبوت.

وفي سنة ١٨٩٦ تم اقتلاع سكان القرية العربية الدرزية المطلة لصالح مستوطني المستوطنة اليهودية التي تحمل الاسم ذاته. وبعد صراع مرير ومقاومة شديدة نجحت الحركة الصهيونية في اقتلاع أهالي المطلة العربية - الدرزية.

وفي عيد البوريم ربيع ١٩٠٨ هاجم مهاجرون يهود من أصل روسي مجموعة من العرب في مدينة يافة.

ثم تكررت الاشتباكات في العديد من المناطق، وكانت كلها تنتهي بتدخل الدرك التركي المنحاز إلى الجانب الصهيوني بعد أن ملأ جيوبه بالرشاوى الصهيونية. كما أن قناصل الدول الأوروبية انحازوا هم أيضًا إلى الجانب الصهيوني بحجة أن اليهود المهاجرين هم مواطنو تلك الدول ويحملون جنسيتها. وفي مدينة يافا ضغط القناصل ونجحوا في إقالة القائمقام بحجة أنه استعمل العنف مع الشبان اليهود الذين اعتدوا على العرب.

ويذكر أنه لم يكن الفلاح العربي هو المتضرر الوحيد من هذا الدخيل بل تضرّرت كذلك شريحتا التجار والعمال المهنيين، وجلّهم من المسيحيين. وقد قام هؤلاء بالاتصال مع نجيب الحاج رئيس تحرير صحيفة «أبو الهول» القاهرية، الذي كان يزور فلسطين عام ١٨٩٥م، فكتب متهمًا الغزاة الجدد بمصادرة موارد الرزق. كما أثرت مخاوف العرب المسيحيين على مجلة «المقتطف» القاهرية، فأبدت تخوّفها من النتائج الاقتصادية الوخيمة التي سوف تتمخض عن الهجرة اليهودية [٥٤].

وقد تزايدت المخاوف من المهاجرين الصهيونيين مع قدوم الهجرة الثانية التي حملت معها بذور تهويد البلاد وانتهاج سياسة مبنيّة على التعصب القومي والشوفينية العرقية. وكان الزخم الصهيوني قد أخذ يتنامى بشكل يدعو للقلق، فبالنسبة للتكاثر السكاني الذي بدأ بستة آلاف نسمة تضاعف مع الهجرتين الأولى والثانية فوصل إلى ٦٠-٨٠ ألف نسمة أي بزيادة تربو عن ١٠٠٠% [٥٥].

ولم يقتصر التنامي على الناحية السكانية فقط، وإنما تعدّاه ليشمل مساحات الأراضي التي ابتاعتها الحركة في أفضل مناطق فلسطين خصوبة وموقعًا: السهل الساحلي بين مدينتي يافا وحيفا، مرج بن عامر، غور نهر الأردن، أصبع الجليل، الجليل الأسفل، الجليل الشرقي والغربي وقد بلغ مساحة ما استملكته الحركة الصهيونية بين السنوات ١٨٧٨ ـ ١٩١٨م ما لا يقل عن ٤٠٠ ألف دونم من أصل مساحة فلسطين البالغة ٢. ٦٣٢. ٢٤٤ دونم. وأقاموا عليها ٤٥ مستوطنة يهودية [٥٦]. كانت بدايتها في سنوات الثمانين حين أقيمت عشر مستوطنات، ٤ في الشمال هي: زخرون يعقوب، روش بينا، يسود همعلاه، بات شلومو [٥٧]، و٦ في الجنوب: ريشون ليتسيون، نس تسيونا، عقرون، بئر طوفيا، بيتح تكفا الجديدة وغديرا [٥٨].

وأضيفت في سنوات التسعين عشر مستوطنات، ٧ في الشمال: الخضيرة، شفيه،

(٥٤) كيالي ص ٤٧
(٥٥) מוריס עמ' 45
(٥٦) מוריס עמ' 46
(٥٧) זכרון יעקוב , ראש פנה , יסוד המעלה , בת שלמה
(٥٨) ראשון לציון , נס ציונה , עקרון , באר ט וביה , גדרה

عين زيتيم، إيلانيه، المطلة، مشمار، هيردين ومحنايم، ٣ في الجنوب رحوفوت، موتسا وهرطوف [٥٩].

هذا بالإضافة إلى مستوطنة «بيتح تكفا»، التي لم يلبث أن هجرت ثم أعيد استيطانها، ومدرسة «مكفة يسرائيل».

وكانت الأرض هي المطلب الأول للحركة الصهيونية، فبدونها يستحيل تنفيذ المشروع الصهيوني: من هجرة واستيطان وتهويد. وقد عبّر عن ذلك مناحيم أوسيشكن [٦٠] أحد زعماء محبّة صهيون البارزين. فقال في ١٩٠٤م أنه بدون استملاك الأرض لن تقوم دولة يهودية في فلسطين مهما بلغ عدد اليهود فيها

وحين سئل: ولكن كيف نستملك الأرض؟

أجاب: هناك ثلاث طرق:

١. باستخدام القوة.

٢. بالابتياع القسري.

٣. بالابتياع القطوعي.

واستأنف: ونحن الآن لا نملك إلا البديلين الثاني والثالث. ولكن هذا الوضع لن يستمر طويلا. أنه ترتيب مؤقت إلى حين نصبح سادة البلاد.

أما الأراضي فقد تم ابتياعها من مصادر مختلفة من مالكين فلسطينيين وغير فلسطينيين، ومن عرب وغير عرب.

وقد تلا بيع الأراضي مشاكل عويصة: اقتلاع الفلاح من أرضه التي انتزعت منه ببيع الخديعة وسخّر فيها المحاكم والدرك والموظف التركي. واضطر الفلاح المظلوم للخنوع لسلطان السيف العثماني الذي خضع بدوره لسلطان الذهب الصهيوني ونفوذه السياسي.

وقد وصف كريستوفر سايكس الوضع فقال: إن مشكلة الأراضي في فلسطين قد نجمت عن بيع مساحات شاسعة من الأراضي من قبل مالكين غائبين إلى أفراد أو شركات يهودية.

---

(٥٩) חדרה , שפייה , עין זיתים , אילניה , משמר הירדן , מחנים , רחובות , הר טוב ,מוצא

(٦٠) מנחם אוסישקין מוריס עמ' 46

وقد ورد شرط في صكوك البيع يتعهد بموجبه البائع بإخلاء الأرض من كل من يشغلها من الفلاحين أو المزارعين.

وهكذا وجد الفلاح العربي البائس، الذي عاش حياته على مرّ الأجيال على تملك الأرض، نفسه مطرودًا من أرضه محرومًا من التعويض ومن مصدر رزق.

وتورد الأدبيات الصهيونية وبروتوكولات جلسات المستوطنين الأوائل صورًا رهيبة عن الموجة الأولى من الاقتلاع والتشريد في مدرسة مكفه يسرائيل، بيتح تكفا، غديرا، المطلة وغيرها [٦١].

وفي الحقيقة، لا نكاد نجد مستوطنة يهودية واحدة أقيمت على الأراضي الفلسطينية من دون معاناة وكوارث وتذوّق العرب صنوف العذاب.

وقد ازداد الوضع سوءًا مع وصول الهجرة الثانية وما تمخض عنها من عداء ساف للعرب ونظرة استعلائية تجاههم فصورتهم بأنهم بدائيون، متوحشون ومتغولون تنقصهم الأمانة والمصداقية والاستقامة.

ولم تكن هذه النظرة، في حقيقة الأمر، إلا انعكاسًا للنظرة التقليدية للمستعمر الأوروبي تجاه الشعوب المستعمرة.

وقد ضاعف من الاستهانة والاستهتار بالفلاح العربي ما كان يعانيه من فقر مدقع وجهل مطبق وإهمال مزمن وأمراض فتاكة. فلا عجب أن يتعامل المهاجر الصهيوني مع العربي المحلي باستعلاء وغطرسة، فالعربي لا يزيد عن كونه مادة خامًا وأجيرًا خنوعًا رخيصًا ممكنا استغلاله بضمير مرتاح. أنه ذلك العبد الذي يقبل، بخنوع، استبداد السيد المهاجر الصهيوني، ويتحمّل لسانه المر وعصاه وصفعته وسوطه.

وقد وقف أحاد هعام على غطرسة المستوطنين وطغيانهم واعتدائهم على العرب فشجب تصرفاتهم وحذر من عواقبها [٦٢].

وقد شهد على مثل هذه التصرفات يهود ودبلوماسيون وأجانب أوروبيون. فقد اتهم، على سبيل المثال، قنصل بريطانيا في القدس إدوارد بلتس الشبان اليهود

---

(٦١) جارودي ص ٢١٦

(٦٢) כהן עמ' 65 – 66 شوفاني ص ٣٠٠

في مدينة يافا أنهم كانوا يجوبون الشوارع العربيّة مسلّحين بالهروات والأسلحة البيضاء، ويتصرّفون بصلف وعدوانية. وقد أتهم أولئك الشبان بأحداث مدينة يافا الدامية في سنة ١٩٠٨م [٦٣].

ففي شهر آذار مارس من السنة ذاتها ذهل سكان يافا العرب من تدّفق موجات عارمة من اليهود إلى المدينة. وقد ارتفعت حدّة التوتر عندما أخذ شبان مسلّحون من عناصر الهجرة الثانية يجوبون الشوارع والحارات، وهم مسلّحون بالخناجر والهراوات. ثم قام مجموعة من الشبان اليهود الروس بمطاردة عرب عابري سبيل. وشرعوا يقومون بالاعتداء على الممتلكات ويدمّرون ما يعترض طريقهم ويخربون كل ما تصل إليه أيديهم. وقد تركوا عربيًا ملقى على قارعة الطريق وقد مزقت جسمه ١٤ طعنة سكين.

وقد هرب المهاجرون والتجئوا إلى «فندق سكتور» وتمترسوا فيه، إلا أن الشرطة التركية اقتحمت الفندق، بعد أن أخذت إذنًا من القنصل الروسي (لأن صاحب الفندق مواطن روسي)، وتم إخلاء الفندق ممن لجئوا إليه واعتقل بعض المتحصّنين [٦٤].

أما عن تصرفات موظفي البارون مع الفلاح العربي فكانت أسوأ بكثير من معاملتهم للمستوطن اليهودي. وقد وصف بعض زعماء المستوطنين تصرّفاتهم مع العرب فقال: إن هؤلاء الموظفين قساة القلوب وأجلاف علوج فاسدون. فهم يقبضون الرشوات ويتحايلون ويختلسون ويسرقون ويتعاملون مع العرب بفظاظة على الرغم من اعتمادهم المطلق على الحراسة العربية.

وينقل أحد مستوطني مستوطنة «ريشون ليتسيون» عن أحد موظفي البارون قوله: أتذكّر الرعب الذي كنا ننزله بهم (بالفلاحين العرب ز. ف) في السنوات الأولى. فلقد كانت تنتابهم الرجفة خوفا منّا. لم يتجرأ أيّ منهم أن ينبس ببنت شفة أو يبوح بكلمة واحدة من النقد أو التذمّر؛ فعلى العربي أن يفهم أن اليهودي هو «الخواجا» السيد، ومن واجبه تقديم آيات الطاعة والخنوع له، وإلاّ

(٦٣) אותו עמ' 64 ספר תולדות ההגנה א עמ' 73

(٦٤) מוריס עמ' 62

فالقصاص نصيبه. ثم يشكو ذلك الموظف انقلاب الوضع فيقول: أما اليوم فلا تستطيع أن تضرب العربيّ لأنه سوف يشكوك إلى بلوخ (أحد كبار موظفي البارون ز. ف) فيقوم هذا باستدعاء المشتكي عليه بحضور المشتكي ويقوم بتغريمه [٦٥].

وفي الحقيقة أخذ الوافدون الجدد من المستوطنين، رغم كونهم أقلية في البلاد، يتصرّفون وكأنهم سادتها وحكامها المطلقون. وكثيرًا ما كانوا يلجأون إلى استعمال السياط والعصي للضرب والجلد على أقل هفوة. وقد عزا محللون هذا السلوك بأنه ناجم عن الشعور بالضعف وعقدة النقص التي عانوا منها في بلاد الشتات. وها هم الآن سادة أقوياء «يهود العضلات المفتولة»، فلعلّ ذلك يعوضهم عن ماضيهم البائس. لقد أصبحوا الجزارين بعد أن كانوا الضحايا.

بالإضافة إلى ذلك طرأ عامل إضافي ساهم في توسيع الهوة بين المهاجر الطارئ والعربي الأصيل، الذي شعر بالغربة والخوف من هذا القادم الغريب المجهول. فهؤلاء الوافدون، خاصة الروس منهم، من عناصر الهجرة الثانية، كانوا اشتراكيين قوميين متطرفين ملحدين.

كانوا من الرافضين الذين رفعوا رايات العصيان والرفض حتى وهم في بلادهم الأصلية. لقد رفضوا وتمرّدوا على العادات والتقاليد والحكم القيصري.. . وعلى الله أيضًا. وقد قاموا بنقل أفكارهم وتصرفاتهم إلى فلسطين [٦٦].

وقد ذهل العرب الفلسطينيون، المسلمون منهم والمسيحيون، لهذه المعتقدات الإلحادية الغريبة. وقد أوردت إحدى النشرات العربية التي صدرت سنة ١٩١٤م أن الهجرة الثانية كانت مؤلفة من عناصر انقلابية ألمانية، وفوضوية روسية، ورحّل متنقلون من دول أخرى [٦٧].

وقد صوّرت هذا الوضع الشكوى التي رفعها أعيان عرب على تصرّفات جمعية «محبة صهيون» فكتبوا أن أعضاء هذه الجمعية: يفعلون ما يحلو لهم، وكأنه لا وجود لأية سلطة ولا اعتبار لأية ضوابط أو حدود. يقومون ببناء البيوت

(٦٥) כהן עמ' 69

(٦٦) מוריס עמ' 52 – 53

(٦٧) אותו עמ' 53

ويغرسون البيّارات دون استصدار رخص أو تصاريح بذلك. ويدرجون على إهانة العرب وإذلالهم. وهم يعتنقون قيمًا تناقض قيمنا [٦٨].

والخلاصة: هم يختلفون عنّا في العادات والتقاليد والمأكل والمشرب والملبس. ويشكلون نقيضًا لكل ما نؤمن به. وما هو موجود لدينا.

عن نظرة الاستعلاء الفوقية الصهيونية، في المرحلة المذكورة، لم تولد من الفراغ، بل كان يقف خلفها ويشرّعها أيديولوجية متكاملة تدعو إلى ترحيل العرب واضطهادهم وتعكير حياتهم فقد دعا زانغويل إلى طرد العرب ودفع تكاليف طردهم.

كما قال نوردو بحل مشكلة عرب فلسطين حلاً جذريًا بتهجير نصف مليون يهودي إلى فلسطين دفعة واحدة ليصبحوا أغلبية سكانية ويقيموا الوطن القومي اليهودي.

وابشالوم فاينبرغ [٦٩] ١٨٥٥ - ١٩١٥، وهو من رجال بيلو، قال: ليس هناك شعب أكثر خسّة وجبنًا ونفاقا وكذبًا من هذا الجنس، ويقصد العرب.

وحاييم حيسين [٧٠] وهو من البيلويين أيضًا، قال: إن العرب لا يعرفون المشاعر القومية أنهم شعب يسير بخطى حثيثة نحو التعفن والتحلل والاضمحلال.

وموشيه سميلانسكي، وهو من مستوطنة «رحوفوت» ومن زعماء حركة الاستيطان الصهيوني، وقد تميّز بتوجه ازدواجي المعايير نحو العرب فقد تنكّر لهم وأنكر حقوقهم من ناحية، وأجلّهم واعترف بحقوقهم من الناحية الأخرى. قال مظهرًا وجهه المعادي للعرب: لا يجوز لنا أن نتعامى عن الحقيقة، وهي أننا نتعامل مع شعب بدائي تتركز طبيعته من حقيقة واحدة هي أنه إذا استشعر بقوتك فإنه يبتسم لك ويخضع ويخفي حقده في قلبه، أما إذا استشعر بضعفك فإنه يتسلط عليك.

أضف إلى ذلك أن هذا الشعب قد طوّر، بتأثير السياح الأوروبيين وسكان المدن من المسيحيين، رذائل لا تكون عادة جزءًا من مقومات الشعب البدائي. فتراه

---

(٦٨) אותו עמ' 53

(٦٩) אבשלום פיינברג

(٧٠) חיים חיסין

يتعامل بالكذب والغش والخداع والنفاق وكيل التهم والكراهية الشديدة لليهود. إن هؤلاء الساميين معادون للسامية.

وقد خلص سميلانسكي إلى نتيجة تقول برفعة اليهود وسمّوهم وانحطاط العرب وخسّتهم.

وقد تسابق منظرو الصهيونية في المزايدة في مجالي التطرف القومي والانتقاص من شأن العرب الفلسطينيين. فمنذ الفترة المبكرة كتب فلاديمير دوفنوف [٧١] في سنة ١٨٨٢م: هدفنا النهائي الاستيلاء التدريجي على فلسطين وإعادة الشعب اليهودي إلى أرض الميعاد وتحقيق الاستقلال السياسي الذي حرم منه طيلة آلاف السنين. وسوف يحين ذلك اليوم الذي يقوم به اليهود، وسلاحهم بأيديهم إذا لزم الأمر، ليعلنوا أنهم سادة وطنهم التاريخي. ويذكر أن هذا الكاتب المتحمّس عاد إلى روسيا بعد فترة قصيرة من مكوثه في البلاد [٧٢].

وقبل ذلك كتب بن يهودا في مدينة القدس في أيلول سبتمبر ١٨٨١م: إن ما يتوجّب علينا الآن القيام به هو تقوية أنفسنا واحتلال البلاد بالتدريج والأناة، على أن ننفذ ذلك بالخفاء والسريّة التامة بحيث لا يشعر العرب بما نقوم به وما نخفيه في خبايا ضمائرنا. علينا ابتياع كل ما يتوجب علينا ابتياعه، وبهذه الطريقة يمكننا احتلال البلاد. فلا عجب أن تتزايد شكوك العرب ومخاوفهم. وقد تنبه أحاد هعام لهذه الظاهرة سنة ١٨٩١ فكتب متنبئًا: حين يحين الوقت الذي يتخذ فيه أبناء شعبنا يزاحمون أبناء البلاد ويزيلونهم عن مواقعهم، فإن هؤلاء لن يسمحوا بحدوث مثل هذا الأمر.

على كل حال يلخص لنا السكاكيني (م. س) ص ٦٨ في يوميات ١٤ آذار ١٩١٩ مجمل شكاوى العرب الفلسطينيين من الحركة الصهيونية.

وقد عبّر عن هذه الشكاوى في الحوار الذي دار بينه وبين يهودي صهيوني متنفذ أسماه الخواجا أبري (عبري ز. ف)

يقول السكاكيني لمحاوره:

---

(٧١) ולדימיר דובנוב

(٧٢) מוריס עמ' 56

«لو كنت تقرأ الجرائد العربية، أو تسمع ما يقوله الناس ويعتقدونه فيكم، لرأيت أن هناك عداوة بينكم وبين الوطنيين تعظم كل يوم. وتبعة ذلك عليكم وسببه:

١ ـ مقاطعتكم الوطنيين، فلا تعاملون إلا بعضكم بعضا، بالأمس قاطعتم البردقان (البرتقال ز. ف) الوطني، فلا تشترن البردقان إلا إذا كان من بيارات يهودية. ولا تركبون عربية إلا إذا كان الحوذي يهوديًا. وقد قصد يهودي أن يشتغل بالعربات فوضع علامة فارقة لعرباته ليعرفها اليهود، ولم يستخدم إلا يهودًا. البنك اليهودي كل مستخدميه يهود.

إذا أردتم أن تبنوا دارًا جربتم جهدكم أن تحصروها في اليهود من نجارين وبنائين وحدادين ونحاتين. ولا تكادون تأخذون وطنيًا إلا إذا لم يكن عندكم يهودي مثله.

ولا تعاملون الوطنيين إلا اضطررتم إلى ذلك اضطرارًا. على حين نرى الوطنيين لا يفتكرون بذلك. تراهم يعاملون اليهود ويستخدمونهم في كل شيء.

٢ ـ لا تراعون إحساسات الوطنيين في شيء، فاللغة العربية تشوهونها، والأزياء الوطنية أو المستحسنة لا تراعونها احتقارًا لغيركم واستخفافا بهم. ولا تراعون النظافة، فجيرانكم الوطنيين، يتأذون من مجاورتكم، وهم لا يحسبون ذلك عدم مبالاة منكم بالنظافة لئلا يجاوركم منهم مجاور.

٣ ـ تحاولون تنفير المسلمين من المسيحيين، والمسيحيين من المسلمين. وتقولون للمسيحيين: نحن لا نستطيع أن نثق بالمسلم، فضلاً عن الامتزاج به، لأنه منحط الأخلاق، فاسد المبادئ، همجي الطباع، لا يراعي أصول التمدن بل يحتقره ويعاديه.

وتقولون للمسلمين: إن المسيحيين أعداء الوطن يتمنون دائمًا أن تتقسمه الدول الأوروبية ولا تستطيع الامتزاج بهم لأنهم ليسوا شرقيين فمنهم من هم بقايا الصليبيين، ومنهم يونانيو الأصل. أما نحن وأنتم فشرقيون من أرومة واحدة.. ..

وإلى غير ذلك من الأقوال التي تنفر القلوب وتجعل الوطنيين من مسلمين ومسيحيين يتقارصون بينهم النظر الشزر، ويعتقدون بعضهم لبعض العداوة.

■ الوجه الإيجابي الآخر لليشوف

من ناحية أخرى برز وجه آخر لليشوف. فلقد تحقظ قسم من المستوطنين، خاصة النخب الفكرية، من هذا التوجه الفظ المتطرّف، ومن المعاملة اللاإنسانية للعرب. وكانت هذه الشريحة الصهيونية المعتدلة العقلانية أكثر معرفة وأوسع ثقافة وأعمق إطلاعًا من سائر عناصر اليشوف. كانوا يعلمون أن البلاد مأهولة بسكانها العرب. ففي التوجيهات التي أصدرتها حركة بيلو للمهاجرين سنة ١٨٨٣م نبّهت إلى وجود مجموعات بشرية و«الواجب تجنب إثارة حفيظتها وغضبها»، وأضافت: «كما يتوجب علينا تدريس اللغة الدارجة في البلاد (فلسطين ز. ف) ويتوجب علينا أيضًا أن نتعلم كيفية التصرف والتعايش مع سكان البلاد، بدل مناصبتهم العداء».

وقد أظهر إسحق أبشتاين ١٨٦٢ ـ ١٩٤٣م في محاضرة له في بازل السويسرية وعيًا على الحركة العربية التي تتجاهلها الحركة الصهيونية. وقد أبدى قلقه الشديد من اقتلاع دروز قرية المطلة سنة ١٨٩٦م وأضاف: أنه في المرحلة الحالية تتمحور المشكلة بقضية الشعب العربي الذي يقطن هذه البلاد ويفلح أراضيها ويعتبر نفسه سيّدها ومالكها.

وقد وجه نقده للحركة الصهيونية «لأنها تقوم بابتياع الأراضي الزراعية من الأفندية وتطرد الفلاحين»، وأضاف أن فلسطين ملك لشعبين، ونحن نخطئ حين ننكر وجود هذا الشعب الأصيل ونتجاهل حقوقه في وطنه. وقال: «إن واجب الحركة الصهيونية الحصول على موافقة العرب الفلسطينيين على كل خطوة وكل مرحلة من مراحل المشروع الصهيوني، وعليها أن تولي اهتمامها أيضًا لما فيه مصلحة كل من الشعبين». وقد نصح بفتح أبواب المستشفيات والمدارس، والمكتبات العامة لكلٍّ من العرب واليهود [٧٣].

وقد شارك ابشتاين أحاد هعام في رأيه بوجوب التعايش مع العرب، وأبدى قلقه على مستقبل الحركة الصهيونية في فلسطين. وقال إنه إذا استمرّ تجاهل العرب وإلحاق الظلم والأذى بهم فإن العواقب سوف تكون وخيمة لا تحمد عقباها.

---

(٧٣) אותו עמ' 63

وقد كان أحاد هعام قد كتب في المقال الذي نشره في صحيفة «هميليتس» تحت عنوان «الحقيقة من أرض إسرائيل» وخصصه ليهود أوروبا سنة ١٨٩١م. وقد كتب انطباعاته عن فلسطين وشعبها بعد زيارته الأولى في السنة المذكورة، وهو على متن الباخرة التي أعادته من البلاد إلى وطنه في روسيا.

كتب: «إننا اعتدنا أن نقنع أنفسنا أن أرض إسرائيل خاوية، خالية ومقفرة. وهي عبارة عن صحراء قاحلة غير مزروعة وأراضيها معروضة للبيع لكل مشترٍ. ولكن الحقيقة غير ذلك! ففي جميع أرجاء فلسطين لا تكاد تجد حقولاً أو مروجًا غير مزروعة أو غير مفتلحة. أما المناطق المهجورة فلا تتعدى أن تكون كثبانًا من الرمال وأكوامًا من الحجارة».

كذلك عارض أحد هعام طريقة التعامل الصهيونية الاستعمارية الشوفينية القومية الاستعلائية تجاه العرب المحليين. وعمل على نقض الطرح الصهيوني السائد الذي يقول بأن السكان العرب عبارة عن مجموعات بشرية، بدائية، شبه بربرية متوحشة. وهم يشعرون بالامتنان والشكر للصهيونيين الذين يقدمون إلى البلاد، وهم محملون بالذهب والثروات.

وأضاف في مقاله: «إننا معتادون أن نؤمن، في خارج البلاد، أن العرب برابرة صحراء وأنهم شعب أشبه بالحمير (تشبيه الناس بالحمير كان شائعًا في الأدبيات اليهودية. وقد ورد في التلمود: إن الشعب المختار الذي يستحق الحياة الأبدية هم اليهود، وأما باقي الشوب فمثلهم كمثل الحمير. ولا قرابة بين اليهود والأمم الخارجة عن الدين اليهودي لأنهم أشبه بالحمير وبيوت عبادتهم كزرائب الحيوانات) لا يرى ولا يفهم ولا يدري ما يدور حوله وفي محيطه. ولكن هذا التصور خطأ فادح. وإنني أقول: إذا نجح أبناء شعبنا، في وقت من الأوقات، من التطور والتقدم بحيث يتمكنون من إزالة شعب البلاد من موقعه، فإنهم سوف يتأكدون أنه لن يخلي هؤلاء أوطانهم ببساطة وبسهولة. فالعرب، كغيرهم من بني البشر يتمتعون بذهنية حادة وفكر ثاقب ودهاء عظيم، فأنى تجولت في أرجاء بلاد الشام ومدن سوريا وأرض إسرائيل تر التجار الحاذقين في استثمار رؤوس أموالهم. وهم يتعاملون بذكاء: يصانعون ويساومون ويناورون مع كل من له علاقة، تمامًا كما هو الشأن في أوروبا.

إن العرب المحليين، وخاصة سكان المدن، يرون أعمالنا ويفهمون نياتنا ومقاصدنا، ولكنهم يغضون الطرف ويتجاهلون ما يشاهدون، وهم يعون أن ذلك يشكل خطرًا عليهم وعلى مستقبلهم. إن هؤلاء العرب يجنون من الأرباح من وجودنا في البلاد، وأخص بالذكر منهم كبار ملاكي الأراضي الذين تغمرهم السعادة لأنهم يقبضون مبالغ طائلة ثمنًا لأراضيهم».

وأضاف في المقال نفسه محذرًا من استفزاز «شعب البلاد» (٧٤): يجب علينا أن نتعلم من ماضينا ونستخلص منه العبر لحاضرنا، فنحاذر أن نستثير غضبهم بأعمال مشينة».

وأضاف: « يتوجب علينا توخي جانب الحذر حين نحاول السكنى بين ظهراني شعب غريب. كما يجدر بنا التعايش معه بمحبة ووئام واحترام.

ولكن ماذا فعل إخواننا في الديار المقدسة؟

إنهم يفعلون نقيض ذلك!

لقد كانوا في بلد الشتات عبيدًا، ولكنهك يجدون نفوسهم الآن وهم ينعمون حرية مطلقة لا حدود لها، إنها حرية فرعون!

وأن هذا التحول الفجائي، من النقيض إلى النقيض، ولد في نفوسهم نزعة الطغيان وحب الاستبداد، وهذا ما يحدث للعبد الذي يصبح ملكًا.

وها هم الآن يتصرفون بعدوانية وقسوة. يقومون بالاعتداء على العرب دون مبرر، أنهم يشبعونهم ضربًا وينهالون عليهم بأصناف النكال دون موجب».

وقد أنهى مقاله: «ولكن حين يحين الوقت الملائم وتتطور الأوضاع بحيث يعي العرب، الذين بشاركوننا العيش في فلسطين، أننا نستولي على أملاكهم ونزيلهم عن مواقعهم فلن يسلموا بذلك أبدًا، ولن يتنازلوا لنا بسهولة» (٧٥).

بذلك يكون أحاد هعام قد اقترح الحل: تعايش وتحالف يهودي فلسطيني في حياة مشتركة ووطن مشترك. وكانت تلك هي العبرة التي استخلصها أعظم أدباء اليهود في زيارته الميدانية الأولى في فلسطين.

---

(٧٤) عنوان אמת מארץ ישראל الحقيقة من فلسطين מוריס ע' 53

(٧٥) עם הארץ

وقد لخص أحاد هعام النهج الفكري التياري ي مقدمة الطبعة الثالثة بمجموعة مقالاته فكتب: إن الحق التاريخي لشعب إسرائيل على أرض إسرائيل لا يمكن أن يغلي حقوق السكان الآخرين في البلاد، فأرض إسرائيل هي أيضًا وطنهم القومي، ومن حقهم تطوير طاقاتهم قدر إمكانياتهم.

أما الاستنتاج الآخر من طروح أحاد هعام، فربما كان تنبه إدارات بعض المستوطنات اليهودية إلى المعاملة غير الإنسانية التي يتعامل بها المستوطن اليهودي مع الفلاح المستخدم العربي.

وقد أصدرت اللجنة الإدارية لمستوطنة رحوبوت تعليمات صارمة، شذت فيها عن المستوطنات الأخرى، فحظرت استعمال الضرب مع المستخدم العربي.

وقد غرّم أحد المستوطنين اليهود في تلك المستوطنة سنة ١٨٩٨م بمبلغ ٣٩ قرشًا (أجرة أسبوع كامل) لأنه اعتدى على عربي بالضرب المبرح لأن هذا كان قد عبر بعربته من داخل كرمه. وبعد سنة غرّم مستوطن آخر من المستوطنة ذاتها بمبلغ ٤ ليرات عثمانية لقيامه بضرب عربي. وقد اقتطعت ٣ ليرات ودفعت للمعتدى عليه، والربع المتبقي دفعت لمصاريف العلاج الطبي.

لذا ذاع اسم المستوطنة المذكورة بالخير والعدل وانهمرت الشكاوى، التي قدّمها العمال العرب لهذه اللجنة، على مشغّليهم اليهود الذين ألحقوا بهم الظلم والأذى والعسف.

ومع ذلك يجب القول إن هذه الحالات الإنسانية كانت استثناء. أما القاعدة فظلت التعامل مع العربي بالقسوة والإذلال. وحين قصّ سميلانسكي على آحاد هعام أخبار هذه التصرفات ردَّ بقوله: إذا كان الحال على هذا المنوال في هذه المرحلة فكيف سيصير عندما نصبح سادة البلاد؟ [٧٦].

وانتهى الأمر بالحركة الصهيونية أنها أصبحت منقسمة في العقد الأخير من القرن التاسع عشر بين تيارين متناحرين:

١. تيار الصهيونية العملية الطلائعية الذي قادته حركة «محبة صهيون»، فباشرت الاستيطان الميداني على التراب الفلسطيني.

---

(٧٦) כהן עמ' 69 و ملحق صحيفة هارتس تاريخ ٢/٥/٢٠٠٦

٢. تيار الصهيونية الثقافية - الروحانية ومنظره الأول أحاد هعام المذكور. وقد قال فيه إنه ليس ضروريًا أن تشكل الدولة اليهودية المستقبلية ملجأ قوميًا أتنيًا عِرقيًا لكافة يهود العالم، وإنما يكفي أن تشكل لهم مركزًا ثقافيًا - روحانيًا كوسيلة لتأليف قلوب اليهود قبل هجرتهم إلى فلسطين، فالدولة المذكورة تنحصر وظيفتها في تقديم حل للمشكلة الروحانية للشعب اليهودي وليس لمشاكله الاقتصادية والقومية.

وقد ظل هذا التيار هامشيًا محشورًا محصورًا في الزاوية تتجاهله وتقلل من أهميته وقيمته الروايات الرسمية الصهيونية ومؤرخو البلاط الرسميون، لا عجب أن يكون في طليعة المتصدين له أبرز رجالات الحركة: هرتسل وصديقه - حليفه لنداو.

وكان من أهم الطروحات التي عرض لها هذا التيار:

فلسطين ليست بلادًا قفرًا خاربة خالية من السكان بل هي، في حقيقة الأمر، بلاد عامرة تامرة تغص بأهلها وسكانها العرب الأصليين.

وخلاصة القول: إن الهوة الساحقة التي فصلت بين التيارين المذكورين: تيار الصهيونية الطلائعية العملية وطروحاتها الاستعمارية الاستيطانية الاستعلائية، وتيار الصهيونية الروحانية الثقافية بطروحاتها الواقعية البراغماتية العقلانية قد أدى إلى الوصول إلى استنتاجات ووقائع ميدانية مختلفة.

ففي حين نهج التيار الأول طريقًا يؤدي إلى:

- دولة ذات أغلبية سكانية يهودية.
- دولة تعتمد سياسة إجلاء سكاني.
- دولة تنتهج سياسة تمييز وقمع ضد مواطنيها العرب.
- دولة تعمل على إقامة جدار حديدي يحول دون أية إمكانية للتعايش والتفاهم.
- دولة تعتمد سياسة السيطرة والهيمنة على مقدرات العرب ومستقبلهم.
- دولة تحاول أن تضفي على العرب صورة شيطان رجيم.
- دولة تقاوم أية إمكانية للتعاون والاعتراف بالآخر.

دعا التيار الثاني إلى التعايش والتفاهم واحترام الآخر ومنحه كافة حقوقه.

وقد تطور تصور هذا التيار إلى الدعوة إلى عدم إقامة دولة يهودية، بل الدعوة إلى دولة ثنائية القومية يعيش تحت كنفها كلا الشعبين العربي الفلسطيني واليهودي.

▪ **توسع هوة الخلاف:**

رأينا أنه لم يُجمع المستوطنون اليهود كلهم على علاقات عدائية مع العرب، فقال البعض بوجوب التعايش معهم، ولكن الأغلبية الساحقة من المهاجرين ألصقوا بالعرب صفات سلبية، فقد وصفوهم بالبدائية وعدم الاستقامة والكسل وعدم المبالاة والاستسلام للقضاء والقدر. وخلاصة القول إن العرب هم برابرة علوج لا يمكن التعامل معهم إلا بالاستهانة والاحتقار. وهم بذلك يكونون قد نقلوا نظرة المستعمر الأوروبي السيد إلى السكان الأصليين في البلاد المستعمرة في آسيا وأفريقيا إنها نظرة السيد المولى للمولد المستكين فهو خادم عبد مستسلم ولا ضير في استغلاله. فهو يتقبل عن طيب خاطر أي استبداد وتعسف باستكانة واستسلام وانعكس ذلك في أقوال زعماء اليشوف اليهودي فقد عبر حاييم حيسين سنة ١٨٨٦: «إن العربي يفتقر إلى الشعور بالوطنية والعرب عمومًا شعب هابط في طريقه إلى الانحلال والزوال.

وقد كتب أبشلوم فاينبرج (أحد عناصر شبكة التجسس نيلي التي عملت لصالح بريطانيا أثناء الحرب) لا شعب أجبن وأشد نفاقا أو أعرق في التزييف من هذا العرف العربي».

أخذت هوّة الخلاف بين المهاجر اليهودي والمواطن العربي تتسع وتتعمّق، نتيجة للنظرة الاستعلائية للأول، وجلبه معه عادات وأنماط معيشة مختلفة وجهله لعقلية أهل البلاد وطرق معيشتهم ولغتهم وتقاليدهم وعقائدهم الدينية. حقًا لقد غادر ذلك المهاجر الغريب وطنه واتجه إلى عالم مليء بالمجاهيل والمخاطر، غريب عنه في الطباع والتقاليد واللغة وفي المأكل والمشرب والملبس والجنس والدين.. . وفي كل شيء تقريبًا. بالإضافة إلى ذلك كانوا على جهل مطبق بالأنظمة المعمول بها محليًا، خاصة في قطاعات: الزراعة، حقوق الرعي ونظام المشاع وحق المرور.. .. .. ، الخ.

فعلى سبيل المثال كان حق الرعي من أهم نقاط الخلاف، فقد جرى العرف والعادة في المنطقة أن تفتح السهول والمروج بعد موسم الحصاد لقطعان المواشي لترعى الحصيد، وفي الوقت ذاته تقوم بتزبيل الأرض وتسميدها بروثها. فتعمّ الفائدة لكلا الطرفين: صاحب الأرض وصاحب القطيع.

ولكن المهاجر لم يتفهّم هذا الحق واعتبر دخول المواشي حقوله تعديًا، انتهاكًا وتجاوزًا للحدود فحاول منعها من الدخول.

أمّا أصحاب المواشي فاعتبروا ذلك مساسًا خطيرًا بعادة قديمة متأصّلة يرجع تاريخها إلى مئات السنين، و«العادة محكّمة» ومرتبتها توازي مرتبة القانون.

والجدير بالذكر أن بعض المستوطنين تفهّموا هذا الحق وقبلوا به واستغلوه، فمستوطنو ريشون لتسيون، الذين غرسوا معظم أراضيهم بالبساتين والبيّارات، المثمرة، اعتادوا إطلاق مواشيهم لترعى في الأراضي العربية المجاورة [٧٧].

وقد قال بليقاند أحد زعماء المستوطنة المذكورة. إن الصدامات التي جرت بيننا وبين العرب المحليين كانت نتيجة جهلنا. وكان بإمكاننا تفاديها لو أننا عرفنا لغة البلاد وتقاليدها.

ويشير المؤرخ موريس في كتابه «قربنوت» (ضحايا) ص ٥٥: إن الأوضاع المشحونة المهددة التي تزامنت مع الهبّات الفلاحية استمرت أكثر من عقد من الزمن، من سنة ١٨٨٢ حتى ١٩١٤، لم تنجم عن سلسلة من الخلافات وسوء التفاهمات أو عن فروق كبيرة في العادات والمعتقدات أو عن نظرة التعالي والاستكبار التي أظهرها المستوطن للعربي وغيرها من الجزئيات المفرقة، بل إن تلك الأوضاع هي نتيجة لظروف موضوعية - تاريخية كما هي وليدت التنافس التناحري والتناقض الجوهري في المصالح المتصادمة والتطلعات المتناقضة بين مجتمعين يمثلان قوميتين العربية واليهودية. فالعرب قالوا بعروبة فلسطين وإسلاميتها وتمسكوا بحقوقهم المتوارثة عبر قرون وقرون ورفضوا التخلي عنها أو التفريط بها.

---

(٧٧) מוריס עמ' 54 – 55

أما الحركة الصهيونية فكانت تسعى لقلب الأوضاع السائدة ووسيلتها:

١- ابتياع أكثر كمية من الأراضي العربية.

٢- إقامة مستوطنات يهودية عليها.

٣- استقدام هجرة يهودية كثيفة.

وباختصار سعى العرب الفلسطينيون إلى تثبيت الوضع الراهن متمسكين بعروبة فلسطين وإسلاميتها. والحركة الصهيونية سعت إلى تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود كما صرح بذلك مرارًا وتكرارًا منظروها ورجالاتها.

وقد تجمّعت كل العوامل المذكورة لتولّد انتفاضة فلاحية كانت في بدايتها محدودة وموضعية، ولم تتعد كونها ردود فعل تلقائية. فالمآسي كانت في البداية موضعية محلية. فكل قرية ومشكلتها الخاصة وكل إنسان ومصيبته. ولكن حين تكرّرت ظاهرة سلب الأراضي واقتلاع الفلاح وعمت، تحوّلت ردود الفعل من فردية محلية إلى شعور عام وإحساس وطني بالخطر الداهم. فأخذ الجميع يحاولون التجمع تحت سقف واحد لمحاولة دفع البلاء، «فكلنا في الهم شرق»، خصوصًا مع قدوم الهجرة الثانية.

وقد كتب سلمان ناطور تحت عنوان (هذا الاجتياح)في مجلة (قضايا إسرائيلية) وهي مجلة فصلية تصدر عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار) ربيع - صيف ٢٠٠٢ ص ٧: «يمكن القول إن المستوطنين اليهود الأوائل قدموا بما يسمى الهجرات اليهودية يحملون الأفكار الأوروبية الاستعلائية عن الشرق والعرب والمسلمين واصفين هذه البلاد بأنها صحراء قاحلة وأهلها متخلفون. وقد كبرت الأدبيات الصهيونية التي رفعت من شأن هذا المستوطن الجديد وقللت من شأن أهل البلاد العرب:

أولاً : لإبراز الرسالة الحضارية لهذا المستوطن في الدفاع عن حضارة الغرب إزاء وحشية وبدائية الشرق.

وثانيًا : لنزع شرعية الوجود العربي الفلسطيني في وطنه، فالعرب لا يستحقون بلادًا «كهذه كانت مهدًا للحضارة الإنسانية وتقع وسط قارتين، وهي محط أنظار الغرب»».

وقد تصاعدت شقة الخلاف إلى حد القطيعة فالعداء. وقد عبر عن ذلك أحد المستوطنين فقال: إن السكان العرب يناصبوننا العداء، لأنهم على قناعة تامة أنه ما جئنا إلى البلاد إلا لطردهم وإجلائهم عن ديارهم.

على كلٍّ، يمكن تلخيص وتتبع تطور موقف عرب فلسطين من قضية انتقال الأراضي الزراعية لملكية يهودية بأنه في بداية الأمر بدأ تظهر بوادر مقاومة لهذه الظاهرة التي تدعو إلى القلق، ألا أنها لم تتخذ طابع العنف، كما أنها لم تكن منظمة، مخططة ومدروسة. وفي معظم الحالات لم تتجاوز كونها مقاومة فردية مقتصرة على عدد محدود من الفلاحين المتضررين مباشرة، كما أن المقاومة لم تكن عامة شاملة اشتركت فيها جميع أنحاء البلاد، بل كانت محلية موضوعية.

وكان الاحتجاج الأول الذي قدمه عرب فلسطين في عام ١٨٩١م حين بعث عدد من وجهاء مدينة القدس وأعيانها إلى الحكومة في العاصمة طلبوا فيها فرض القيود على الهجرة والحيلولة دون انتقال ملكية الأرض.

وقد استجابت الحكومة ففرضت القيود على الهجرة وحظرت السماح للمهاجرين اليهود الإقامة الدائمة لليهود في فلسطين لأكثر من ثلاثة أشهر، وبموجب جواز سفر أحمر بدلاً من جواز السفر الأصلي.

وقد شهدت الساحة الفلسطينية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الكثير من مظاهر الاحتجاج وتطيير البرقيات للحد من الهجرة اليهودية أو إيقافها والعمل على الحيلولة دون انتقال ملكية الأراضي. كما تمت المطالبة أيضًا بتوزيع الأراضي الزراعية على العرب بأقساط سنوية.

في بداية القرن العشرين تمحورت المقاومة بالأساس حول قضيتين مركزيتين:

١- قضية بيع أراضي سرسق للحركة الصهيونية.

٢- قضية أراضي «الجفتلك» المسماة أيضًا «الأراضي المدوّرة». وهي أراضي السلطان عبد الحميد الثاني.

ويذكر أن القضية الأولى ثارت حين جرت المحاولات لابتياع أراضي عائلة سرسق الواقعة في منطقة طبرية بين مدينتي الناصرة وطبريا سنة ١٩٠١م.

وقد تصدى للصفقة وحاول تجميدها قائمقام منطقة طبرية أمين أرسلان بدعوى

أن انتقال الأراضي لملكية يهودية يضر بالمصلحة القومية العربية، بالإضافة إلى أن الاستيطان اليهودي، الذي يتلو ابتياع الأراضي مباشرة، سوف يؤدي حتمًا إلى تغيير طبيعة المنطقة، خاصة من الناحية السكانية.

ولكن مساعي القائمقام فشلت بعد أن أصرت الحكومة التركية على إتمام الصفقة، فانتقلت مساحة ٣١ ألف دونم «لجمعية الاستيطان اليهودي». وكان المتضرر الرئيس من تلك الصفقة القرى العربية التالية: لوبية، العبيدية، عرب الدليكات وعرب الصبيح. وبعد سنوات شرعت الحركة الصهيونية تفاوض عائلة سرسق لابتياع أراضي قريتي: الفولة والعفولة في وسط مرج ابن عامر سنة ١٩١٠م، والمساحة ١٠ آلاف دونم.

وقد انبرى أهالي مدينة الناصرة ممثلين بمندوبي مختلف الأديان والطوائف وطيروا برقية احتجاج لحكومة اسطنبول وتبعهم في ذلك أهالي مدينة حيفا ممثلين بأعيانها ووجهائها.

ونتيجة للجهود التي بذلها قائمقام الناصرة شكري العسلي نجح في إعاقة عملية البيع. وقد رفض تقاضي رسوم انتقال أراضي الفولة قائلاً: أنه سوف يقاتل حتى آخر قطرة في دمه ليحول دون بيع الأراضي لليهود.

وقد نجح في تجميد الصفقة وشلها عامًا كاملاً، لكن الحركة الصهيونية تمكنت من عزله وإقالته من منصبه لينتخبه شعبه نائبًا في البرلمان العثماني. وقد أقر القائمقام الجديد أمين عبد الهادي صفقة البيع وبلغت قيمتها ٢٠ ألف ليرة عثمانية.

أما القضية الثانية: وهي أراضي الجفتلك، فكانت بدايتها ١٩١٠م حين حاولت الحكومة تأجير أراضي جفتلك غور - بيسان لنجيب الأصفر، أحد أعضاء مجلس إدارة بيروت، لمدة ٩٩ سنة، على أن يقوم بتسليف الحكومة مبلغًا من المال ويتكفل باستصلاح الأراضي المذكورة وبيعها بعد مدة للفلاحين المستأجرين.

عارض الفلاحون تأجير الأراضي للأصفر، وعُرضت القضية أمام مجلس «شورى الدولة» في عدة جلسات استمرت أربع سنوات دون اتخاذ قرار حاسم.

وكان للوزير العربي سليمان بستاني دور هام في إقناع الحكومة برفض الاستجابة لمطالب الأصفر والاستجابة لطعون الفلاحين ومعارضتهم.

وقد شنت الصحف العربية الصادرة في فلسطين وسوريا ولبنان حملة على الحكومة لتواطئها في القضية المطروحة. وتصدرت الحملة الصحفية كل من الصحف التالية : الكرامل، المقتبس، المفيد، الحقيقة والرأي العام. فأخذت تنشر المقالات التي تهاجم الحكومة والحركة الصهيونية وفضحت الحقيقة، وهي أن المستهدف الرئيس في هذا المشروع، هو الأراضي الأميرية في فلسطين. في منطقتي بيسان وأريحا التي بلغت مساحتها ٨٠ ألف دونم. ونوهت أن العراب لمشروع الأصفر هو شركة بلجيكية تقف من ورائها الحركة الصهيونية.

وانهالت برقيات الاحتجاج العربية على الحكومة المركزية في اسطنبول تستنكر منح الامتياز المذكور للأصفر، وتبين أن الأرض ملك لهم وأن السلطان عبد الحميد الثاني قام باغتصابها منهم بالقوة.

وفي شهر آب ١٩١٣ عقد اجتماع كبير في مدينة نابلس حضره العديد من الوجهاء والفلاحين احتجاجًا على امتياز الأصفر، وأصدر المؤتمرون بيانًا طالبوا فيه الحكومة صرف النظر عن المشروع، والشروع في توزيع الأراضي على الفلاحين بأقساط سنوية.

▪ الدفاع عن الحق العربي:

وقد انبرى للدفاع عن الحق العربي الفلسطيني كل من:

١- الصحافة على نوعيها.

أ- الصحافة العربية غير الفلسطينية.

ب- الصحافة الفلسطينية.

٢- نواب البرلمان العرب.

٣- القوى والحركات الوطنية.

٤- النخب الفكرية الفلسطينية العربية.

٥- وبعض رجال الحكم.

٦- الأحزاب والهيئات الفلسطينية.

١- الصحافة العربية والفلسطينية:

تصدّت الصحافة العربية والفلسطينية للمشروع الصهيوني وقاومته ودافعت عن الحق العربي الفلسطيني، وقد عملت في مجالين:

أ. الصحافة العربية غير الفلسطينية. ب. الصحافة الفلسطينية.

وكان للصحافة ذراع طويلة في الدفاع عن الحق العربي في فلسطين وكانت الدولة العثمانية قد عرفت حملات إصلاح متعددة كان أبرزها إصلاحات مدحت باشا أبي الدستور العثماني. وقد تسلم الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء) وشرع في عملية إصلاح عامة شاملة. وكان أهم معالمها الصحافة الحرة. وقد صدرت العديد من الصحف في أنحاء الدولة بما فيها الوطن العربي. فظهرت الصحف اليومية والدوريات الأسبوعية والشهرية التي أصبحت منبرًا حرًا للمثقفين العرب.

وقد بدأ إصدار الصحف في سنوات الستين والسبعين من القرن التاسع عشر في اسطنبول، دمشق وحلب، القاهرة وباريس.

في القاهرة أصدر فارس النمر ويعقوب صرّوف مجلة المقتطف سنة ١٨٧٦، وكان قد سبقتها جريدة «الوقائع الرسمية» كصحيفة رسمية في سنة ١٨٢٨م، وصدرت في مصر أيضًا صحيفة «وادي النيل» ١٨٧٥م.

و«الأهرام» القاهرية لصاحبيها الأخوين سليم وبشير تقلا اللبنانيين. وفي سنة ١٨٩٩م أصدر صاحب المقتطف مجلة «المقطم» [٧٨].

أ. الصحافة العربية غير الفلسطينية:

وانبرت بعض الصحف المصرية تشد أزر الفلاح العربي الفلسطيني وتهاجم الحركة الصهيونية. وكانت أول ظاهرة رصدت في هذا الباب ما نشره «نجيب الحاج» محرر جريدة «أبو الهول» القاهرية. فلقد قام بزيارة ميدانية لفلسطين للإطلاع على حقيقة الوضع.

وحين عاد شرع ينشر مقالاته: روى فيها معاناة الفلاح العربي الفلسطيني المعدم، المسحوق المقهور والمقتلع. وانتقد غطرسة المستوطن الصهيوني

(٧٨) شوفاني ص ٢٢٨

واستعلاءه وتجبره. ثم اتهم الغزاة الجدد بمصادرة الأرض وتهويد مصادر الرزق في كلا القطاعين الريفي والمدني.

ولم تلبث «المقطم» القاهرية أن حذت حذو «أبو الهول» وهاجمت الحركة الصهيونية ودافعت عن الفلاح وعن عروبة فلسطين أيضًا.

أما «المقتطف» فقد نشرت في سنة ١٨٩٨م مقالاً مناهضًا للصهيونية تنبأت منه بفشل برنامج مؤتمر «بازل»، الذي كان قد عقد قبل سنة، وذلك بسبب معارضة الدولة العثمانية. ودعت الصحيفة إلى حل مشكلة اليهود في أوطانهم الأوروبية.

في السنة ذاتها نشرت «المنار» مقالاً لمحمد رشيد رضا حذرت فيه من مخاطر الصهيونية على العرب في حاضرهم ومستقبلهم، وخلصت إلى أن هدف الحركة المذكورة يتجاوز تأمين مأوى وملجأ لليهود إلى إيجاد وطن قومي يهودي في فلسطين.

أما في بلاد الشام فكان من أوائل الصحف الصادرة «حديقة الأخبار» ومحررها خليل الخوري وصحيفة «الجنان» البيروتية وصاحبه بطرس البستاني وكان شعارها «حب الوطن من الإيمان» [٧٩].

ب. الصحافة الفلسطينية [٨٠]

وجاء دور الصحافة الفلسطينية للتصدي للصهيونية وبرامجها، وأصبحت رأس الحربة وكتبة الصدام الأولى في مناهضتها، فساهمت في خلق وتكتيل رأي عام عربي فلسطيني يتسم بالوطنية ويدعو إلى رص الجماهير لمواجهة المخاطر.

وصدرت العديد من الصحف أهمها:

«الكرمل» صدرت سنة ١٩٠٨ لصاحبها نجيب الخوري نصار.

«فلسطين» صدرت سنة ١٩١١م لصاحبيها الأخوين عيسى.

«الأصمعي» وصدرت سنة ١٩١١م أيضًا.

و«المنادى» صدرت في ١٩١٢م.

و«الرأي العام» صدرت في ١٩١٢م أيضًا.

(٧٩) شوفاني ص ٢٢٨

(٨٠) م. س ص٣٠١

أما أهم الصحف المذكورة وأكثرها انتشارًا وأعمقها أثرًا فكانت الصحيفتان «الكرمل» و«فلسطين».

أما الأولى فقد تميز صاحبها نجيب نصار بأنه كان من أنشط المناهضين للصهيونية وأكثرهم تفهمًا لمخاطرها.

ونصار عربي فلسطيني من مواليد مدينة طبرية، مسيحي من طائفة الروم الأرثوذكس، قبل أن يتحول إلى المذهب البروتستانتي لاحقًا.

ويتهم نصار بأنه تورط في عملية بيع أراضي للحركة اليهودية «يكا» في المنطقة التي أقيمت عليها لاحقًا مستوطنة «يفنئيل». ولكن سرعان ما استدرك خطأه وتاب عن فعلته وانقلب إلى ألد أعداء الصهيونية، وأشدهم معارضة لها وأشرس المهاجمين لمن أسماهم «بياع الأراضي» العرب.

وقد كرس حياته وصحيفته لمقاومة هذا الاندفاع الصهيوني والتسرع العربي في بيع الأراضي. وقد حذر أيضًا من رهن أراض عربية للشركة «الأنجلو فلسطينية» لأنها شركة يهودية صهيونية.

انطلقت الصحيفة في طريقها تلعب دورًا رياديًا في مقارعة الحركة الصهيونية من ناحية، وفي توعية الجمهور العربي الفلسطيني بصورة عامة، والفلاحين بصورة خاصة، محاولة الحيلولة دون بيع الأراضي في مناطق: مرج ابن عامر، غور بيسان، منطقة طبرية. ففي شهر آب أغسطس ١٩١٣م نشرت على صفحاتها الأولى نبأ قيام مظاهرة كبيرة في نابلس ضد اعتزام الحكومة بيع أراضي منطقة بيسان لليهود. ودعت إلى رص الجهور وتنظيم الصفوف لمكافحة الصهيونية. ودعت كذلك إلى تنظيم مظاهرات شعبية احتجاجًا على نية الحكومة بيع أراض أميرية للحركة الصهيونية بالمزاد العلني في مناطق شتى من البلاد، وطالبت بالمحافظة على حقوق الفلاحين في أراضيهم التي اغتصبتها منهم الحكومة. وقد اقترحت خطة لإنقاذ تلك الأراضي: إن يسدد الفلاحون ديونهم بأقساط سنوية مريحة وقد أخذت الصحيفة تكسب المؤيدين والأنصار.

وفي ٤ تشرين الثاني نوفمبر سنة ١٩١٣م نشرت الصحيفة نص برقية اعتبرت كل من يتعاون مع اليهود خائنًا. وفي ٨ من الشهر ذاته نشرت قصيدة للشيخ «سليمان التاجي الفاروقي» من قادة «الحزب الوطني» تحت عنوان «الخطر

الصهيوني» ندد فيها بالمخططات الصهيونية لاغتصاب فلسطين. كما ذكّر الحكام بواجبهم في حماية فلسطين ومقدساتها.

ولم تلبث الصحيفة أن هاجمت المحاكم اليهودية الخاصة التي تعمل في المستوطنات اليهودية وقالت أن هذا العمل يتضمن بذور خلق دولة ضمن دولة فلسطين [٨١]. وفي الأسبوع الأول من شهر كانون الأول ديسمبر ١٩١٣م نشرت مقالاً عرّت فيه الكثير من حقائق الوضع السياسي.

كما قيمت نتيجة حملتها ضد الصهيونية طوال أعوام تأسيسها. وأشادت بالجهود التي يقوم بها البرلمانيون العرب في مجلس «المبعوثان» العثماني، وخصّت شكري العسلي وروحي الخالدي بالذكر، على جهودهما في مكافحة الصهيونية، داخل البرلمان وخارجه. ثم حملت على أولئك الزعماء الذين يتظاهرن بالسهر على المصلحة الوطنية، في الوقت الذي ينغمسون فيه في عمليات البيع والسمسرة على الأراضي.

وقد لاقت دعوة نصار أصداء واسعة وتأييدًا عامًا على المستويين.

- الوطني الفلسطيني. - القومي العربي.

وكان لها أثرها الفعال المباشر على دعم المواقف الوطنية الجريئة لمسئولين حكوميين كبيرين هما [٨٢]:

- شكري العسلي قائمقام منطقة الناصرة الذي حاول إحباط صفقة بيع مساحات شاسعة من أراض مرج ابن عامر للحركة الصهيونية.

- وأمين أرسلان قائمقام منطقة طبرية الذي حاول إحباط صفقة بيع مساحات شاسعة في المنطقة الواقعة بين الناصرة وطبرية بين قريتي السجرة ومسحة.

لم يكتف نجيب نصار بنشاطه الصحافي، بل تعداه إلى تأليف الكتب ففي عام ١٩١١م ألف كتابًا كشف فيه حقيقة الصهيونية وعرى مخططاتها. وكان هذا أول كتاب باللغة العربية يتناول القضية المذكورة. وقد شدد في كتابه على بعض النقاط:

---

(٨١) كيالي ص٧١-٧٢

(٨٢) م. س ص٦٧ מוריס עמ' 69- 70

- اعتماد الصهيونية قاعدة عسكرية لتنفيذ مشاريعها.
- إقامتها مؤسسات حكم، والعمل في فلسطين كحكومة داخل حكومة في الخفاء، مع كامل رموز الدولة المستقلة من علم وشعار ونشيد قومي (٨٣).

وفي الخلاصة يمكن القول إن نصار حذر في جميع كتاباته من الخطر الصهيوني على فلسطين، ومن إمكانية تهويدها وطمس هويتها العربية وخلص إلى القول إن هدف الصهيونية السيطرة على البلاد، بما في ذلك الأرض والسكان، ومصادرة موارد الرزق. ودعا إلى اعتماد آلية للدفاع عن البلاد تتلخص، كنقطة انطلاق، في عقد مؤتمر وطني لمواجهة المخاطر. ثم يقوم المؤتمر بانتخاب قيادة وطنية حرة تدير الصراع.

أما الحركة الصهيونية فكان من الطبيعي ألا تقف موقف المتفرج وتترك الساحة لنصار يصول ويجول فيها، فقد اعتبرته عدوًا تتوجب محاربته. فقامت باستعمال نفوذها وحرّكت الدول الأوروبية، وشكت إليها الصحيفة وصاحبها وكالت له شتى التهم. وقد استجابت تلك الدول للتوجهات الصهيونية ومارست ضغوطًا على الباب العالي، فأمر بإغلاق الصحيفة سنة ١٩٠٩م. لكن هذا الإغلاق كان مؤقتًا، إذ سرعان ما أعيد إصدارها فعادت وعاد محررها نجيب نصار إلى ممارسة نشاطه، أكثر حماسًا وأشد إيمانًا بعدالة موقفه. وقد استمرت الصحيفة في الصدور حتى سنة ١٩٤٢م (٨٤).

أما الصحيفة العربية الفلسطينية الثانية التي تصدت للمشاريع الصهيونية فكانت صحيفة «فلسطين» اليافاوية لصاحبيها الأخوين عيسى، وهما مسيحيان من الطائفة الأرثوذكسية وقد صدرت «فلسطين» ٣ سنوات بعد صدور زميلتها «الكرمل». وقد اختلفت الصحيفتان في نقطة أساسية واتفقتا في نقطة أخرى. أما نقطة الخلاف فكانت الموقف من الدولة العثمانية، فقد أيدت صحيفة «فلسطين» الدولة ومؤسساتها ودعت إلى المحافظة على وحدة التراب العثماني، ضمن إطار الدولة كإطار جامع لكافة شعوبها. ومن هذا المنطلق عارضت دعوة اللامركزية في الحكم بحجة أنها «عملية تفكيك» للدولة وتحطيم إطارها العثماني الجامع،

(٨٣) הסטוריה של א"י כרך 8 עמ' 192

(٨٤) אותו עמ' 192- 193 و كيالي ص٥٩

و«فلسطين» تكون بذلك قد خالفت زميلتها «الكرمل» التي أبدت تحفظًا من الدولة وسياستها وطالب بحركة إصلاح عامة شاملة تبدأ باللامركزية وتنتهي بالحكم الذاتي.

أما نقطة الالتقاء بين الصحيفتين فكانت في التوجه نحو المشروع الصهيوني والتعامل معه. فقد اتفقتا على شن حرب بلا هوادة فيها على المشروع الصهيوني، كما اتفقتا على ضرورة نقل العمل الوطني من الإطار النظري إلى الإطار الميداني العلمي. والآلية لذلك: انتخاب لجنة عربية فلسطينية تمثل كافة شرائح المجتمع العربي الفلسطيني تقود النضال وتختار أفضل الطرق وأنجعها لمكافحة الخطر الصهيوني.

وفي الخامس من حزيران يونيو ١٩١٣ نشرت الصحيفة صورة برقيتين طيرهما وجوه قرى بيسان وشيوخ قبائلها إلى بيروت أوضحوا فيهما أن الأرض في غور بيسان قد اغتصبت منهم وسجلت زورًا باسم السلطان، وأن الدولة تنوي بيعها للأجانب. وقد ورد في إحدى هاتين البرقيتين: «إننا نؤثر الموت دفاعًا عن أرضنا وعن ممتلكاتنا على أن نضطر للهجرة من بلادنا إلى أماكن مجهولة، والموت جوعًا».

ونشرت الصحيفة في النصف الثاني من شهر آذار مارس ١٨١٤م ثلاث مقابلات صحفية مع أعضاء البرلمان: سعيد الحسيني، سليم الحسيني وراغب النشاشيبي، وجميعهم نبّهوا إلى مخاطر الصهيونية ودعوا إلى مقاومتها.

وقد تعهد الثاني بمواصلة مناهضة المشروع الصهيوني في البرلمان إذا أعيد انتخابه وانتقد الحكومة على تخلفها وتقاعسها في محاربة المشروع.

وقد نشرت الصحيفة مقالاً في نيسان أبريل ١٩١٤ نبّهت فيه إلى المخاطر الصهيونية وأعربت عن رضاها وامتنانها للحملة المناهضة التي تقوم بها الصحف العربية في القاهرة، دمشق وبيروت. وقد أكد كاتب المقال على الدور الهام الذي تقوم به صحيفة «الإقدام» التي تصدر في القاهرة وواسعة الانتشار في فضح الصهيونية وكشفها للرأي العام. ويذكر أن الصحيفة المذكورة هي صحيفة أسبوعية يصدرها محمد الشنطي، وهو فلسطيني ينشط في القاهرة.

كما شادت الصحيفة بالدور الطليعي الذي تقوم به زميلتها «الكرمل»، ومن بعدها الصحف «القبس»، «الرأي العام»، «فتى العرب»، و«الإصلاح» في مناهضة المشروع الصهيوني. كما نددت بالصحف العربية القليلة المتبقية التي تقاعست عن المساهمة في المجال المذكور، واتهمتها بأنها تتلقى الأموال والفوائد المادية الأخرى من الحركة الصهيونية (٨٥).

ويذكر أنه بعد المؤتمر الصهيوني السادس تأججت المشاعر العربية في فلسطين على المشروع الصهيوني ممّا اضطر الصحف إلى زيادة عدد صفحاتها لتتمكن من نشر العديد من العرائض والاحتجاجات المتزايدة.

ويمكن تلخيص عمل الصحيفتين بأنهما لاقتا صدى واسعًا وانتشارًا عامًا بين أوساط الجماهير العربية الفلسطينية. وعلى الرغم من فشلهما في إحباط عملية بيع الأراضي العربية، إلا أنهما فتحتا العيون على مخاطر هذا الباب، وحذرتا السلطات أن تلك العمليات تثير النقمة وتؤجج المشاعر. فأصبح من الصعوبة تنفيذ صفقات إضافية، فالعيون مفتوحة، والعقول واعية وأقلام النقد سيالة، والمعارضة شديدة. وأصبح الموظف المسئول يحسب مليون حساب قبل أن يقر أية صفقة إضافية لصالح الحركة الصهيونية. كما نجحت الحملات الصحفية في:

- إحباط صفقات بيع إضافية كانت في مراحلها الأخيرة مثل بيع أراضي الجفتلك سنة ١٩١٢م وأراضي غور بيسان ١٣ ـ١٩١٤م. كما تم:
- إحباط المشروع الصهيوني لتجفيف مياه بحيرة الحولة.
- والمشروع السياحي لاستغلال بحيرة طبرية.
- كما كان من أثر تلك الحملات إحجام السلطات العثمانية عن تخفيف القيود على الهجرة اليهودية.

وتحركت الحركة الصهيونية لكمّ فم «فلسطين»، كما فعلت سابقًا مع صحيفة «الكرمل»، فاستعملت نفوذها وأموالها ونجحت في تجنيد دول أوروبية والولايات المتحدة الأمريكية لهذا المجهود. لكن الجهود جميعها باءت بالفشل مع الصحيفة، وإن نجحت مع «الكرمل». فاستمرت في الصدور حتى سنة ١٩٤٨م

(٨٥) كيالي ص ٧٠

عام النكبة الفلسطينية (٨٦).

وقد نهجت صحف فلسطينية أخرى نهج «الكرمل» و«فلسطين» ودعت بدعواهما بالنسبة للبرنامج الصهيوني. والصحف المذكورة هي:

صحيفة «المنتدى» وصحيفة «المنادي» وصحيفة «الأصمعي» التي أصدرها رجل الأعمال اليافاوي حنا عبد الله العيسى، ودأب فيها على اتهام الحركة الصهيونية بضرب الاقتصاد العربي الفلسطيني، خصوصًا في قطاعي التجارة والحرف. وأشار إلى أن الصهيونيين معفون من دفع الضرائب بصفتهم رعايا أجانب يتمتعون بالامتيازات (٨٧).

أما صحيفة «الرأي العام» فقد ساهمت في مقاومة الحركة الصهيونية. وقد نشر «محمد صالح الصمادي الحسيني» من القدس مقالاً في الصحيفة كشف فيه مخاطر الصهيونية العشرة.

١- الهجرة.
٢- الاستيطان.
٣- انتقال ملكية الأراضي.
٤- عودة الأموال اليهودية إلى الجيوب اليهودية باستخدام أماكن الترفيه، اللهو، القمار، البغاء وما شابه. فما يقبضه العرب باليد اليمنى من الحركة الصهيونية يعيدونه إليها باليد اليسرى.
٥- إخضاع السكان المحليين لليهود.
٦- هيمنة المدارس اليهودية على مرافق التعليم في البلاد.
٧- تحكم المصارف والمؤسسات المالية اليهودية بالصناعة والتجارة.
٨- تصفية أعداء الصهيونية وكل من يشكل خطرًا عليها.
٩- السيطرة السياسية على فلسطين.
١٠- السيطرة الاقتصادية عليها (٨٨).

(٨٦) م. س ص٥٩
(٨٧) م. س ص٥٩-٦٢
(٨٨) م. س ص١٥

وفي غضون الشهور السبعة الأولى من عام ١٩١٤م لعبت الصحف المذكورة دورًا هامًا في توعية الجماهير، ومهدت للقيام بأعمال مخططة منظمة ضد الصهيونية. كما دأبت على التنديد بموقف الأثرياء الذين لا هم لهم إلا مصالحهم الذاتية متعامين عن الخطر المحدق. ونعتتهم بأنهم «يؤثرون حاضرًا ذهبيًا على حساب مستقبل مظلم لأولادهم». ثم نبهت إلى أن «من يسيطر على الاقتصاد هو السيد الحقيقي. أما السيد السياسي فما هو إلا جرم تابع له يدور في فلكه».

إزاء الحملات الصحفية العربية العنيفة على الحركة الصهيونية ومشروعها انبرت هذه لشن هجوم مضاد، فقامت باستعداء الدول الأوروبية والولايات المتحدة على تلك الصحف. وأخذت أدبياتها تشن هجماتها موجهة سهام نقدها إلى الصحف العربية والصحفيين العرب، وبصورة خاصة المسيحيين بينهم. بدأت بعملية تحريض واتهمتهم باللاسامية والتجني على الصهيونية. ويقول كوهين: «ما إن سمحت الدولة العثمانية بحرية التعبير حتى شرعت الصحف الفلسطينية تكتب ما يحلو لها وتهاجم اليهود في الصحف المسيحية وتشن حملة دعاية معادية للصهيونية والمستوطنات اليهودية في فلسطين» (٨٩).

كما نشر دافيد بن غوريون في صحيفة «أحدوت» في أيلول ١٩١٠: «إننا نرى في هذه الأيام العديد من الصحف العربية: الفلسطينية والسورية والمصرية تشن هجمة شعواء على الصهيونية». ثم تطرق في المقال إياه إلى نجيب عازوري و.. .. «حملته المسمومة» على الحركة، وتوجه بعد ذلك إلى دول الغرب فقال: «أما الصحافيون المحليون في فلسطين، وأهمهم تلاميذ عازوري، فلا يتوجهون إلى دول الغرب، وإنما يستعدون علينا الشعب العربي والحكومة التركية».

والجدير بالذكر أن يعقوبسون، مندوب المنظمة الصهيونية في اسطنبول لفت نظر رجال الحكم إلى أن من يقف وراء العرب المسيحيين ويقدم لهم العون والمساندة هي روسيا القيصرية، العدو اللدود للدولة العثمانية، وهي تقوم باستغلال المسيحيين في الشرق وتستخدمهم ركيزة لها. وقد لاقت أقوال يعقوبسون آذانًا صاغية في العاصمة.

(٨٩) אותו ע 63

ويمكن تقدير مدى تأثير الصحافة العربية على المشروع الصهيوني بالتقرير الذي أرسله كلفاريسكي إلى المسئولين في الحركة الصهيونية، وكانت مهمته الرئيسة ابتياع الأراضي العربية من منطقة الجليل، وهو أحد النشطاء والعاملين في المجال الصهيوني. كتب «إنني أعتقد أنه لم يخلق بعد ما سبب لنا أضرارًا فادحة وعمل على إفساد العلاقات المتبادلة بين العرب واليهود أكثر من الصحافة العربية. فهذه صحيفة «الكرمل» لم تتوقف منذ أنشئت حتى يومنا هذا عن مهاجمتنا وكيل التهم لنا وتشويه سمعتنا. وقد نجحت، بنهجها العدائي لنا، في تكريس الكراهية العميقة التي يكنّها العرب لنا، كما نجحت في تسميم الأجواء ليس في كافة أنحاء فلسطين فقط، بل في سائر أرجاء البلاد العربية» ويقترح في نهاية برقيته العمل على بذل الأموال لشراء أقلام وذمم الصحفيين.

٢ـ البرلمانيون العرب يتصدّون للصهيونية:

لم تكن الصحافة العربية الفلسطينية هي العنصر الوحيد الفعال في الميدان، فلقد واكبها برلمانيون عرب، هم منتخبو «مجلس المبعوثين»، البرلمان العثماني، ولم ينقل هؤلاء المشاعر الوطنية العربية في داخل البرلمان فقط، إنما قادوا النضال الميداني أيضًا.

كان طليعتهم يوسف ضيا الخالدي ١٨٤٢ـ ١٩٠٦م وهو ممثل منطقة القدس في البرلمان. والخالدي سليل عائلة عريقة. كان ذا نفوذ واسع في القدس ومنطقتها وسائر أرجاء فلسطين. وقد تثقف ثقافة أوروبية متحررة وانتخب عضو برلمان ١٨٧٦ ـ ١٨٧٨م. كان من زعماء المعارضة. وعارض الحكومة لمخالفتها مواد الدستور. وقد فر من بطش السلطان عبد الحميد ومن زبانيته والتجأ إلى فرنسا، ثم عمل أستاذًا للغة العربية وآدابها في جامعة فيينا (٩٠).

أدرك أخطار الحركة الصهيونية وأهدافها وحذر السلطات أن تحقيق المشروع الصهيوني سوف يؤدي إلى إراقة الدماء بسبب معارضة السكان.

وكان على درجة من الوعي والفكر المتنور إلى درجة أنه ميّز بين الصهيونية واليهودية. فقال إن الأولى حركة سياسية يتوجب على العرب التصدي لها

(٩٠) כהן עמ' 85

وإحباطها، بينما الثانية عبارة عن ديانة سماوية، ولا يوجد للعرب أي إدعاءات أو شكاوى ضدها.

وقد بعث برسالته إلى الحاخام الأكبر ليهود فرنسا صدوق كاهان في آذار مارس ١٨٩٩م أشار فيها إلى أن تحقيق الحلم الصهيوني سوف يؤدي بالضرورة إلى صدام دموي بين العرب واليهود.

ثم قال في الرسالة ذاتها: مع كل الاحترام والتقدير للمشروع الصهيوني اعتقد أن اليهود لا يمكنهم الاستيلاء على فلسطين إلا عن طريق القوة واستعمال السلاح، لأن ذلك البلد مقدس لدى كل من المسلمين والمسيحيين. بالإضافة إلى أن ذلك يثير حفيظة السلطات العثمانية وغضبها. لذا أرى أن يبحث اليهود عن مناطق أخرى خارج فلسطين. وقد حث الخالدي الحاخام إقناع هرتسل بالعدول عن مشروعه (٩١).

وفي موضع آخر حذر أن المشروع الصهيوني سوف يثير عداء كل من العرب والدولة العثمانية معًا، لأن استملاك الأرض والاستيطان الصهيوني، وهما العمود الفقري للمشروع، لا يمكن أن يتما إلا باقتلاع السكان العرب وتهجيرهم.

أما ثاني البرلمانيين فكان سعيد الحسيني ١٨٦٠ - ١٩٤٥م وكان يشغل منصب رئيس بلدية مدينة القدس، درس في مدارس الأليانس في القدس، وكان يتقن اللغة العبرية، الأمر الذي ساعده على فهم الصهيونية وادعاءاتها.

انتخب للبرلمان التركي في دورتين: المرة الأولى ١٩٠٨م، وعند ترشحه للمرة الثانية تعهد بمواصلة الكفاح ضد الصهيونية.

كرس جهوده منذ سنة ذ٩٠٥م للحيلولة دون انتقال الأراضي العربية لملكية يهودية في مدينة القدس ومنطقتها.

وفي البرلمان انبرى لمناهضة الصهيونية داخل البرلمان وخارجه، خاصة على أعمدة الصحف وقال: إن الصهيونية لا تشكل خطرًا على فلسطين وحدها، بل على الدولة العثمانية بأسرها. وكان يصرح لليهود في أحاديث خاصة معللاً موقفه المناهض للصهيونية بأنه لم يكن مبنيًا على قناعة ذاتية فقط، وإنما نتيجة

(٩١) شوفاني ص٣٠٤

للضغوط العربية أيضًا. فإن صح هذا القول اتضح أن مقاومة الصهيونية كانت حالة شعبية عامة، وليست محصورة على النخب فقط (٩٢).

وقد حذر الحسيني من أن الحركة الصهيونية لن تكتفي بفلسطين وطنًا قوميًا يهوديًا، فمطامعها تمتد إلى سوريا والعراق أيضًا. وهو لم يبتدع هذه الفكرة من بنات أفكاره ولم يتجنّ على الحركة، وإنما كان قوله تكرارًا لما كان يصرِّح به زعماء الحركة من أن الدولة العتيدة سوف تمتد حدودها في المرحلة النهائية من النيل إلى الفرات، وأنها سوف تكون وكيلة للحضارة الأوروبية وامتدادًا لها في الشرق. كما عبَّر عن ذلك نوردو (٩٣).

وقد تبنى الحسيني المطالبة بتحسين حالة الفلاح وتمليكه الأرض التي يفلحها كي يتعلق ويرتبط لها ولا يتخلى عنها بتاتًا.

وقد قام بانتقاد الحكومة على تقاعسها عن محاربة الصهيونية التي تشكل خطرًا اقتصاديًا، وسياسيًا على السواء. وحذّر من أن إهمال الخطر سوف يؤدي حتمًا إلى عواقب وخيمة.

ويذكر أن الحسيني عيّن، بعد الحرب العالمية الأولى وانتصار الثورة العربية الكبرى وزيرًا للخارجية في حكومة الأمير فيصل الذي نودي به ملكًا على فلسطين وسوريا في الثامن من آذار مارس ١٩٢٠. وبعد انهيار الحكومة وطرد فيصل عاد إلى مسقط رأسه القدس معتزلاً السياسة: توفى ١٩٤٥م (٩٤).

أما ثالث البرلمانيين العرب فكان روحي الخالدي ١٨٦٤ - ١٩١٣م وهو مقدسي تلقى تعليمه الابتدائي فيها، والثانوي في بيروت والعالي في مدرسة العلوم السياسية في اسطنبول ثم في باريس حيث درس العلوم الإسلامية في جامعة السوربون.

كان من روّاد النهضة الحديثة، وعين دبلوماسيًا عثمانيًا وشغل منصب قنصل في بوردو (فرنسا) لمدة عشرة سنوات. وكان نشيطًا في الحلبة الدبلوماسية والأوساط السياسية الأوروبية وفي أوساط النخب المثقفة الفرنسية.

(٩٢) הסטוריה של א"י כרך 8 עמ' 192
(٩٣) מורים עמ' 68
(٩٤) الدباغ ج١٠ ق٣ ص٣٨٠

عاد ليُنتخب عضوًا في البرلمان عن منطقة القدس. وتولى مهمة مناهضة الحركة الصهيونية داخل البرلمان وخارجه. وأبدى مخاوفه أن الحركة سوف تبتلع فلسطين وتشرّد أهلها.

وقد تعاون مع نائب دمشق شكري العسلي، قائمقام منطقة الناصرة سابقًا وأشهر من قاوم عملية نقل الأراضي لليهود. وأثار الاثنان في شهر مايو أيار ١٩١١م قضية الهجرة اليهودية إلى فلسطين وكان العسلي مهّد للجلسة بتوزيع طوابع بريدية تحمل صورًا لهرتسل ونوردو، وأشار إلى أن للصهيونية في فلسطين أندية خاصة وعلمًا ونشيدًا. وهم يسعون لابتياع الأراضي الواقعة على سكة حديد الحجاز. كما أنهم يسعون للتوسّع من فلسطين إلى سوريا فالعراق [٩٥].

كان قد ألقى في الجلسة إياها خطبة استشهد فيها بنصوص التوراة عن أماني اليهود وتطلعاتهم. وقد كشف عن خططهم لإقامة دولة في فلسطين. كما نبّه إلى ازدياد أعدادهم في متصرّفية القدس حتى بلغ مائة ألف نسمة. كما نوّه أن أغنياءهم ابتاعوا نحو مائة ألف دونم، وأشار إلى أن القوانين التي سنّتها الحكومة لإيقاف سيل الهجرة والترتيبات الخاصة بذلك، مثل نظام جوازات السفر والبطاقات الحمراء، لم تنجح في إيقاف ذلك السيل الجارف. وقد صرّح الخالدي والحسيني لإليعاز بن يهودا من صحيفة «هتسفي» [٩٦] أن فلسطين لا تتسع لمهاجرين يهود، وهي غير مهيأة لاستقبالهم. وأن قدومهم سوف يضر بالبلاد عمومًا، وباليهود بصورة خاصة.

وقد حذّر الخالدي أن اليهود الاشكناز يهددون بطرد الفلاحين العرب من أراضيهم وقراهم. وختم تصريحه بالقول: إننا لا ندين لكم بأيّ شيء. لقد فتحنا البلاد من البيزنطيين وليس منكم [٩٧]. وقد اكتسبت هذه التصريحات أهمية خاصة على أرضية الاستيطان المجدّد. فلقد أقيمت مدرسة بن شيمن ١٩٠٦م، وتأسست مستوطنات خلدة ١٩٠٧م، بئير يعقوب ١٩٠٧م، عين غانيم وكنيرت ١٩٠٨م، دغانيا ١٩٠٩م [٩٨]، كما شهدت الفترة ذاتها بداية تأسيس مدينة تل أبيب.

(٩٥) م. س ص٣٦٣-٣٦٤
(٩٦) הצב
(٩٧) הסטוריה של א"י כרך 8 עמ' 192 - 193
(٩٨) בן שמן , חלדה , באר יעקוב , עין גניה , תל אבוב

أما رابع البرلمانيين الفلسطينيين فكان حافظ بك السعيد ١٨٤٣- ١٩١٦م. انتخب عضو برلمان عن منطقة يافا منذ ١٩٠٨م بعد خدمة طويلة في سلك الوظائف الحكومية.

في البرلمان أثار مشكلة الهجرة والاستيطان اليهودية وطالب بإغلاق ميناء يافا في وجه الهجرة. وقدّم استجوابًا للحكومة في ١٩٠٩تساءل فيه:

هل تتماشى مصلحة الدولة مع الصهيونية؟

هل تنسجم الحركة الصهيونية مع سياسة الدولة؟

ثم كرّر ما كان قاله سابقًا عن تحايل المهاجرين اليهود على نظام جوازات السفر والبطاقات الحمراء. وقال إن اليهود الدخلين إلى البلاد يصرّون على الاحتفاظ بجوازات سفرهم الأصلية، ولا يسلمونها إلى الدوائر المختصة لاستبدالها بالبطاقات الحمراء. وهم يعتبرون أنفسهم رعايا لدولة أجنبية. وقد اعترف بتقديم اليهود في مجالات الزراعة والتجارة والفنون وأعلن أنه لا يعارض هجرتهم إلى تركيا، ولكنه يعارض ذلك إلى فلسطين. وقد طلب توطينهم في مناطق بعيدة عن فلسطين على أن تيجنّسوا بالجنسية العثمانية [٩٩].

في سنة ١٩١٥م أعتقله أحمد جمال بتهمة الترويج للقومية العربية والتآمر على الدولة وحكمت عليه محكمة عالية العسكرية بالإعدام مع أربعة من أبرز زعماء فلسطين. ولكن الحكم خفف إلى السجن المؤبد نظرًا لشيخوخته، ولكنه لم يلبث أن توفى في السجن. ولم يلبث نواب البرلمان أن صعّدوا احتجاجاتهم ضد الحركة الصهيونية ومشاريعها فأثاروا المسألة في «جمعية الاتحاد والترقي» الحاكمة وطالبوا طلعت باشا وزير الداخلية بالتشدد في مسألة الهجرة.

إزاء هذه الضجة لم يتجرأ أي عضو برلمان يهودي من الدفاع عن الحركة الصهيونية وبرنامجها، فما كان من يعقوبسون، ممثل المنظمة الصهيونية في العاصمة اسطنبول، إلا أن جنّد أحد النواب البلغار هو ديمتري فلاخوف، وكان يساريًا اشتراكيًا، فأقنعه يعقوبسون بالقيام بالدفاع عن اشتراكية اليهود في فلسطين في مواجهة الإقطاع العربي الفلسطيني [١٠٠].

(٩٩) دباغ ج١٠ ق٢ ص٣٧٦
(١٠٠) شوفاني ص٣٠٤

٣. القوى والحركات الوطنية الفلسطينية والعربية تتصدى

دعم نضال البرلمانيين العرب والصحف العربية الفلسطينية تحرّكات وطنية ميدانية فأثناء انعقاد جلسة برلمانية في سنة ١٩١١ طيّر ١٥٠ من زعماء مدينة يافا برقية إلى السلطات يشتكون فيها تقاعس رجالات الحكومة عن التدخل في شئون البلاد وما يجري على الساحة من مؤمرات، وذكروا أن الميدان سائب منفلت متروك دون راع، الأمر الذي مكّن الحركة الصهيونية من خلق «دولة داخل دولة»، فأنشئوا المحاكم الخاصة، والمنظمات شبه العسكرية، ورفعوا علمهم الخاص بلونيه الأبيض والأزرق، وأنشدوا نشيدهم القومي. وقد ختموا برقيتهم منوهين: «وهم يرفعون شعار صهيون جهرًا علنًا في مظاهراتهم ومسيراتهم. ويصدرون كذلك طوابع بريد خاصة بهم تحمل صور قادتهم». وعرضوا أحد هذه الطوابع وهو يحمل كلمة «قاقل» بأحرف عبرية (وهي مختصر كلمة قيرن قييمت ليسرائيل أي الصندوق القومي الدائم لإسرائيل) تتوجه صورتا هرتسل ونوردو.

وانبرت قيادات محلية مناهضة للصهيونية تندد ببيع الأراضي وبناء المستوطنات للاحتجاج على الحركة ومشروعها، فلقد شعرت المدينة أنها تختنق بعد أن طوقتها سلسلة من المستوطنات الجديدة التفت حول عنقها من منطقة الجنوب، والشرق. ابتدأت من مستوطنة مرحافيا إلى كفار طابور إلى الشجرة اليهودية وتفرّع جيب منها إلى بحيرة طبريا مكونًا من مستوطنتي يفنئيل وملاحميا.

ولم تكد هذه العاصفة تهدأ حتى تجدّدت بصفقة بيع أراضي جديدة من مرج ابن عامر أيضًا برمتها عائلة سرسق. فطيّر زعماء الطوائف الإسلامية والمسيحية (مسلم واحد وستة مسيحيين يمثلون الطوائف المسيحية) برقية في سنة ١٩٢٠م ركّزت على بيع الأراضي والهجرة اليهودية وذكرت البرقية «اليهود يخططون لطردنا من أراضينا. نواياهم بالنسبة لنا لا تعني إلا الموت» (١٠١).

وردّ عزمي بك حاكم منطقة القدس: «إننا نرحب بكل الغرباء فنحن لا يمكن أن

(١٠١) כהן עמ' 63 מובא ע"פ אלסבאג' מתוך המשרד הציוני המרכזי

نكون معادين للسامية. كما إننا نعترف بالتفوّق المادي اليهودي في المجال الاقتصادي، ولكن ليست هناك أية أمة أو أية حكومة ترحب بمجموعات بشرية تسعى إلى سلب فلسطين منا» (١٠٢).

ووجه قادة فلسطينيون نداء إلى أعضاء «المنتدى الأدبي» في اسطنبول وإلى جريدة «بيام» التركية. قالوا فيها « إذا لم يهبّ المخلصون لإنقاذ فلسطين، فإن مصير الفلسطينيين سوف يكون مشابهًا لمصير الهنود الحمر في أمريكا». فالصهيونية تشكل دولة داخل دولة، وتهدّد مصلحة العرب وصميم وجودهم في فلسطين.

ونبّه أحد زعماء الأحزاب في فلسطين (الحزب الوطني) وهو الشيخ سليمان التاجي الفاروقي، إلى مخاطر وقوع فلسطين في دائرة النفوذ الصهيوني. وقال إن الحركة تشكل في فلسطين حكومة داخل حكومة، ولها قوانينها ومحاكمها الخاصة، ولها علمها الخاص ونظامها الخاص. ويقوم المهاجرون اليهود بتزويدها بالمال والعمل. أما الفلسطينيون فمهدّدون بالفقر والطرد والاقتلاع.

وانهالت العرائض والاحتجاجات ونشرت المقالات مطالبة بوجوب مقاطعة البضائع اليهودية ردًا على شعار العمل العبري وتهويد الاقتصاد. وشعرت السلطات التركية والحركة الصهيونية بأن البلاد تغلي. وقد أشار المؤتمر الصهيوني العاشر سنة ١٩١١م على لسان كبلانسكي إلى العداء العربي العام واتهم العرب المسيحيين بتأجيج العداء. كما اتهم أصحاب الأراضي العرب أيضًا بذلك.

٤. والنخب الفكرية الفلسطينية والعربية تتصدى أيضا

وقد انبرى كذلك رجال فكر وأدب وتربية يتصدّون للصهيونية كان أبرزهم نجيب عازوري الذي سبق ذكره وخليل السكاكيني ١٨٧٨- ١٩٥٣م وهو مقدسي من الطائفة الأرثوذكسية من أسرة عربية عريقة يرجع تاريخها إلى أربعة قرون. تخصّص في التربية والأدب. أتم دراسته في «مدرسة الشبان»(مدرسة صهيون لاحقًا). وقد ولع باللغة العربية ووقف نفسه على إحيائها.

(١٠٢) מוריס עמ' 68

مارس التدريس وأنشأ في القدس «المدرسة الدستورية» سنة ١٩٠٩م، التي ضمّت لأول مرة في تاريخ البلاد أبناء الديانات والطوائف العربية المختلفة، وكانت منبرًا لنشر الوعي القومي العربي ومركزًا لنشر روح مناهضة الصهيونية. وقال في إحدى مقابلاته الصحفية لصحيفة «الإقدام» في ١٩١٤/٣/٢٩ «إن الصهيونيين ينوون احتلال فلسطين التي هي قلب الأمة العربية، وهي بمثابة القلب في الجسد العربي، والحلقة الوسطى التي تربط شبه الجزيرة العربية بأفريقيا، وكأنهم ينوون بذلك أن يقطعوا هذه السلسلة ويشطروا الأمة العربية إلى شطرين يصعب بعدها اتحادهما. إن احتلال الحركة الصهيونية لفلسطين لا يعني في النهاية إلا القضاء على الوطن العربي بأسره. فإن انتصرت الحركة الصهيونية عجز العالم العربي عن تحقيق الوحدة وبقي مشطورًا شطرين منفصلين، الأمر الذي يؤدي إلى بقاء الأمة ضعيفة عاجزة عن تحقيق وحدتها أو تضامنها على الأقل. وأنك إن شئت أن تقتل شعبًا ما فاقطع لسانه واحتلّ أرضه، وهذا بالضبط ما يحاول الصهيونيين أن يفعلوه بالأمة العربية [١٠٣].

في الحرب العالمية الأولى اعتبرته السلطات التركية عدوًا فاعتقلته، ولكنه نجح في الفرار والتحق بالثورة العربية. وبعد الحرب وهزيمة تركيا عمل محاضرًا في الجامعة المصرية بالقاهرة، ثم الجامعة الأمريكية في بيروت. وعاد بعدها إلى فلسطين حيث عيّن مفتشًا للغة العربية في حكومة فلسطين سنة ١٩٢٥م. في سنة ١٩٣٨م أحيل إلى التقاعد. وقد ساهم في تأسيس «كلية النهضة الثانوية» في القدس، وعمل مديرًا لها حتى سنة ١٩٤٨م.

وبرز أيضًا على الساحة الفلسطينية جميل شكري الحسيني وهو أحد الطلاب العرب المقدسيين الذين أسسوا «المنتدى الأدبي» في اسطنبول في شهر شباط ١٩١٥م، في خريف ١٩١٤م عبّر في مقابلة صحفية: إن مكافحة الصهيونية مقدّمة على مل شيء. لأن الصهيونية تلحق الضرر بشعب البلاد وتهدف إلى تجريده من وطنه. وتساءل ولكن أنى لهذا الشعب مقاومتها ومحاربتها وهي تحظى بتأييد السلطات في حين تهمل الضعفاء.

(١٠٣) הסטוריה של א"י כרך 8 עמ' 193

وخلص الحسيني إلى القول متهمًا موظفي الحكومة بالتواطؤ وتسهيل استيلاء الصهيونيين على البلاد. وقد استمر في نضاله وعمله كمحام حتى توفي.

وراغب النشاشيبي دعا إلى وضع تشريع يرمي إلى منع الصهيونيين من تملك الأرض وأعرب عن استيائه من أن الكثير منهم هم رعايا أجانب ويستغلون ما منحهم القانون من امتيازات، وقد تعهد بمواصلة محاربة الصهيونية دون الإساءة إلى اليهود [١٠٤].

وسليم الحسيني أعرب عن ضرورة التعلم من الحركة الصهيونية وأخذ العبر منها وطالب بسن تشريع خاص يحظر انتقال الأرض [١٠٥].

أما محمد المحمصاني فهو بيروتي، اشتهر بمقالاته التي كان ينشرها في صحيفة «فتى العرب» التي كان أحد محرريها. درس في باريس وتخصص في المسألة الصهيونية ونال شهادة الدكتوراه عن أطروحته «الصهيونية ومخاطرها»[١٠٦].. وخلص فيها إلى النتيجة أن في الصهيونية حياة شعب وهلاك آخر. ومما قاله: «المسألة الصهيونية والمسألة العربية أمران مختلفان ولا قيام للواحد إلا على أنقاض الآخر. وعلينا أن نبين للذين نزعوا من نفوسهم كل رجاء في نهضة الأمة العربية كيف أن زعماء الصهيونية أوجدوا من الميت حيًا بالإقدام والعمل وأننا نقاوم كل ما به مساس بالقومية العربية لأنه خليق بالأمم الماثلة للنهوض أن تتفانى جيلاً بعد جيل في خدمة المصلحة العليا والمستقبل المجيد»[١٠٧].

وقد اعتقل المحمصاني في مداهمات أحمد جمال في الحرب العالمية الأولى، وحوكم في المحكمة العسكرية في مدينة عالية وحكم عليه وعلى شقيقه بالإعدام ونفذ الحكم فيهما.

(١٠٤) كيالي ص٧٩

(١٠٥) كيالي ص٧٩

(١٠٦) الأطروحة المذكورة فقدت بعد أن داهم الجنود الأتراك منزله وعبثوا في محتوياته ثم قاموا باعتقال المذكور

(١٠٧) دباغ ج١٠ ق٢ هامش ص٣٦١-٣٦٢

٥. وبعض رجال الحكم :

أما كبار الموظفين الحكوميين الذين شغلوا أعلى المناصب وأرفعها في الجهاز الإداري العثماني فقد تصدى بعضهم لمقاومة الهجمة الصهيونية على بيع الأراضي فعادوا بذلك مرؤوسيهم في سبيل الدفاع عن أراض فلسطين العربية.
وقد حاولوا جهدهم الحيلولة دون تسرّب الأراضي العربية لملكية صهيونية وكان أبرزهم اثنان: أمين رسلان وشكري العسلي.

أما أولهما أمين رسلان فهو عربي درزي من لبنان. عمل قائمقام (حاكم مدني) لمنطقة طبرية مقره مدينة طبرية.

في سنة ١٩٠٠م كان وضع الفلاحين العرب في المنطقة أسوأ ما يكون، فإن كثيرًا من أراضيهم قد انتزعت منهم وتسربت لملكية صهيونية. وكان أربع قرى عربية في المنطقة هي شعّاره، السجرة، كفر سبت ولوبية (تقع في منتصف الطريق بين مدينتي طبرية والناصرة) قد انتقلت إلى ملكية الأمير عبد القادر الجزائري الأول، الثائر العربي الجزائري على الاستعمار الفرنسي في الجزائر. وبعد فشل ثورته نفي إلى سوريا حيث استقر فيها وأنجب عائلة. أما عبد القادر الصغير، الذي عاصر الأحداث في بداية القرن العشرين، فهو حفيد الجد ووريثه.

وقد أبرم الحفيد صفقة بيع أراضيه في القرى المذكورة للحركة الصهيونية شركة «يكا» وتعهد عند توقيع العقد بتسليم أراضي القرى الأربعة خالية من سكانها، كما تعهد بنقلهم إلى سوريا.

انتشرت أنباء الصفقة، وسمع بها القاصي والداني، فالتهبت المشاعر غضبًا ومرارة، فالضربات الثلاثة متتالية موجعة:
بيع الأرض، اقتلاع الأهل، وترحيلهم إلى سوريا.

وللوجود الجزائري على التراب الفلسطيني قصة أتى عليها حسين منصور ود. جوني منصور في مؤلفهما الرينة: التاريخ والذاكرة والواقع، دون ذكر اسم المطبعة. الناصرة ٢٠٠٧ ص ص ١٦٤ - ١٦٦. يذكر المؤلفان أن عبد القادر الجزائري كان أبرز قادة الثورة الجزائرية على الاستعمار الفرنسي في القرن التاسع عشر. وهو ينتسب لآل البيت. وقد نجحت القوات الفرنسية في قمع ثورته بعد أن استعانت

بقوات مراكشية مرتزقة إثر تحالفها مع سلطان مراكش.
وقد وقع الأمير عبد القادر في الأسر فنفته السلطات الفرنسية وبطانته إلى الأستانة ثم إلى دمشق سنة ١٨٨٨م واتخذ مقره في منطقة تدمر.

وقد أخذت الهجرة الجزائرية تتدفق من الجزائر إلى الدولة العثمانية التي استقبلت الوافدين في قرى قضاء صفد وقضاء طبريا ولواء عكا بعد أن منحتهم أراض محلولة لا يفلحها أحد ليعتاشوا منها. وقد أدى تدفق الهجرة الجزائرية إلى ظهور قرى جديدة جميع سكانها من الجزائريين مثل علما، والرأس الأحمر، وديشوم في لواء صفد.
وفي قضاء طبريا قرى كفر سبت، شعاره، عولم، ومعدر.
وفي لواء عكا القرى هوشه، دلاته، ديشون، تليل، والحسينية.

وقد قام الأمير عبد القادر بتسجيل جميع الأراضي التي منحته الحكومة العثمانية: نصفها على اسمه والنصف الآخر على اسم من قدم معه من الجزائر.
وقد حافظ الجزائريون على هويتهم واستمر شيوخهم يتكلمون اللغة البربرية حتى نهاية القرن التاسع عشر.

وقد كانت نصف قرى كفر ثابت، معدر، شعاره وعولم ملكًا لعلي ابن عبد القادر.
وقد باع هذا قرية كفر ثابت وشعاره للوكالة اليهودية على الرغم أن أراضيها كانت مشاعًا يملكها الفلاحون بشكل جماعي. وقد أعرب هؤلاء عن رفضهم لعملية البيع. ففلاحو شعاره قد رفضوا من البداية عملية البيع، ولكن بعد سنوات وافقوا على تسليم أراضيهم مقابل ضعف مساحتها من الأراضي في سوريا قرب القرى الجزائرية القائمة هناك.

حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين اشترت الوكالة اليهودية حوالي ٣٥٠ ألف دونم من الأراضي التي يملكها الجزائريون، حيث كانت المفاوضات تجري مع ورثة الأمير عبد القادر الذين كانوا يعيشون في سوريا.

في أيار - حزيران سنة ١٩٢١ باع تسعة مالكين من كفر ثابت أراضيهم للوكالة وكان من بين البائعين زينة ابنة عبد القادر. كما أجري سعيد ابن عبد القادر الذي كان يعيش في سوريا مراسلات مع حانكين وباع أراضيه للوكالة في تموز

١٩٢٠. وقد ذكر حانكين أن الأمير سعيد وعد بالقدوم إلى طبريا ومعالجة كافة الأمور التي تدور حول صفقة بيع أراضيه في منطقتي صفد وطبريا وفي قرية عولم. وكان ورثة الأمير عبد القادر يملكون ١٠١٧٥ دونم والفلاحون يملكون ٨٢٢٥ دونم. وفي ٢٠ حزيران ١٩٢٤ تم توقيع عقد بين ورثة الأمير علي مع تصديق الأمير سعيد وبين ممثلي الوكالة تتعلق ببيع أراضي الأمير. وبعد سنة باع ١٤ فلاحًا ٢٢٠٦ دونم للوكالة.

وتشكلت جبهة إسلامية مسيحية واسعة ضمت إليها فلاحين منكوبين. وبدأت محاولات التصدي لمؤامرة البيع. وتصدر المتصدين القائمقام أمين رسلان. وقد حاول إحباط الصفقة وقد ركز معارضته على نقطتين (١٠٨):

١- عدم جواز إحلال قومية يهودية مكان قومية أخرى، هي العربية.

٢- الجور الواقع على الفلاحين من فقدان مصدر الرزق، والاقتلاع والتشريد.

في الوقت ذاته قامت شركة «يكا» الصهيونية بشراء مساحات أراضي في المنطقة من مالكين لبنانيين يقطنون بيروت دشرعت بإقامة المستوطنات التالية: السجرة اليهودية (إيلانيه) يفنئيل (يمّة)، كفار تابور (مسحة)، بايت فغان وملاحميا (مناحميا لاحقًا) (١٠٩).

وانبرى أمين أرسلان محاولاً إلغاء الصفقة، ففشل، خاصة وأن حاكم مدينة طبرية التركي رءوف باشا المرتشي، دعم الحركة وصادق قانونيًا على الصفقة وعلى طرد الفلاحين بعد أن ملأ جيوبه بالذهب الصهيوني.

إلا أن أمين أرسلان واصل جهوده محاولاً إيقاف الاستيطان على الأقل، ولكنه فشل في هذا المجال أيضًا بسبب معارضة والي بيروت رشيد بك. وتحول فلاحو المنطقة إلى حراثين، عمال زراعيين أجيريين (١١٠).

وقد طلب كبير موظفي البارون ورتشيلد المسمى أوزوبتسكي من والي بيروت اقتلاع الفلاحين وطردهم فاستجاب الوالي بعد أن قبض الرشوة. لكن أمين أرسلان استمر في معارضته متصديًا للوالي وللحركة الصهيونية فما كان من

(١٠٨) הסטוריה של א"י כרך 8 עמ' 192 – 193

(١٠٩) כהן 67

(١١٠) אוזוביצקי

الوالي إلا أن عزل القائمقام المتمرد واستبدله بقائمقام آخر. وكان هذا مطيعًا مرتشيًا فصادق على الصفقة (١١١).

وحين حانت ساعة الاقتلاع والطرد حضر الدرك التركي، مدججًا بالسلاح، لتنفيذ أوامر الوالي وقائمقامه المرتشين. ولكن أمين أرسلان، ومن خلفه من الفلاحون المتضررون، تصدوا لهم بأجسادهم، وكادت تقع مجزرة لولا أن تدارك أوزوبتسكي الموقف فأغرى الفلاحين المرابطين بالذهب الرنان، وأقنعهم بقبول حل وسط: التخلي عن الأرض والبيت مقابل حفنة من الدراهم ولما لم يجد الفلاحون بدًا من القبول رضوا بالأمر الواقع.

أما أهل الشعّارة فقد أبدوا عنادًا وتصلبًا ورفضوا التخلي عن الأرض فأجزل عليهم أوزوبتسكي عروضه، وضاعف مبلغ التعويض. ووعدهم بتمليكهم دونمين من الأرض في سوريا مقابل كل دونم يتنازلون عنه في قريتهم شعاره. وقبلوا العرض وحملوا متاعهم وعيالهم وارتحلوا إلى سوريا. وكان هذا أول ترانسفير جماعي فلسطيني.

أما القرية الأخرى فكانت يمّه العربية التي تحولت إلى يفنئيل اليهودية، بعد أن حصلت شركة «يكا» على حكم قضائي ضد الأهالي يقضي بتسليم الأرض للشركة ومغادرة القرية. وقد رفض الفلاحون التنفيذ واعتبروه مساويًا لحكم الإعدام. وقامت السلطة العثمانية بإلقاء القبض على شيخ قبيلة «الدليكات» واسمه الشيخ عطا، وزجت به في السجن بتهمة التحريض على عصيان أوامر المحكمة، وقد وافق أفراد العشيرة، في نهاية المطاف، على تسليم الأرض والجلاء عن القرية مقابل سراح شيخهم.

أما شكري العسلي ١٨٦٨ - ١٩١٩م قائمقام منطقة الناصرة، ومقره مدينة الناصرة فقد شغل وظيفته المذكورة من ١٩١٠ - ١٩١١م. وهو مسلم سني دمشقي. أتم دراسته في اسطنبول في «المدرسة الملكية العليا». وقد درج في سلك الوظائف الحكومية حتى وصل إلى منصبه كقائممقام.

كرس وظيفته وعرّض حياته للخطر للحيلولة دون انتقال أراض عربية في مرج

(١١١) כהן עמ' 68

ابن عامر لملكية يهودية، فقد تزامن تسلمه منصبه مع إبرام صفقة بيع أراض قرية الفولة (مجاورة لقرية سولم العربية اليوم). وللصفقة تاريخ حافل.

ففي سنة ١٨٦٩م كانت السلطات العثمانية قد باعت أراض القرية المذكورة مع جملة قرى أخرى في المرج إلى عائلات سرسق، تويني، فرح، وبسترس اللبنانية. وقد اشترى سرسق حصص بسترس وحصصًا أخرى حتى أصبح معظم المرج ملكًا له. وسرسق هذا من كبار تجار بيروت وأصحاب المصارف فيها.

وفي ٢٤ كانون الثاني يناير ١٩١١م. قام ببيع ٩٥٠٠ دونم من أراض المرج للحركة الصهيونية، وقبض الثمن ٢٠ ألف ليرة فرنسية. ولما حاولت الحركة نقل الملكية على اسمها في دائرة الطابو جوبهت بالرفض القاطع للقائمقام العسلي. وقد أمر بعدم تسجيل الصفقة رسميًا وأصر على موقفه الرافض، حتى وإن تجاوز صلاحياته وليكن ما يكون! ولما عجزت الحركة عن تسجيل الصفقة حاولت تجاوز هذا القائمقام المتمرد العنيد فاتصلت بوالي بيروت، وطلبت منه الضغط على موظفه العسلي. واستجاب الوالي بعد أن غرق بمال لصهيونية وذهبها. أرسل إلى القائمقام يأمره بإتمام الصفقة وتسجيلها، ولكن هذا أصر على موقفه فما كان من الوالي إلا أن طرده واستبدله، بموظف مطيع لم يتوان عن تسجيل الصفقة وإقرارها.

وقد ثارت ثائرة كل من أهالي الناصرة وحيفا فطيّروا برقيات الاحتجاج والاستنكار للعاصمة، وطالبوا بتجميد الصفقة، وقد ذكر أعيان مدينة حيفا في برقيتهم أن مئة ألف مهاجر يهودي وصلوا البلاد في الآونة الأخيرة «وهم يستولون على قرانا وحقولنا».

ولم تلبث برقيات الاحتجاج أن انهمرت من كافة أنحاء البلاد خاصة من مدينة حلب ومنطقتها، إلا أن كل ذلك لم يثن السلطة عن إقرار الصفقة وتسجيلها [١١٢].

لكن الجماهير العربية لم تنس وطنية العسلي فكافأته وانتخبته ممثلاً عن دائرة دمشق في البرلمان العثماني.

واستأنف العسلي مكافحته للصهيونية، وهذه المرة من منابر البرلمان ومن

(١١٢) מוריס עמ' 67

صفحات الصحف، فدبّج الخطب والاستجوابات البرلمانية وكتب المقالات الصحفية مطالبًا المحافظة على أراضي فلسطين، ومحذرًا من مغبة بيعها للحركة الصهيونية. وكان يوقع مقالاته باسم مستعار هو «صلاح الدين» محاولاً الربط بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية.

وكانت نهاية العسلي مريرة، شأنه في ذلك شأن كافة القادة الوطنيين. فقد ألقى أحمد جمال السفاح القبض عليه، وحوله إلى المحكمة العسكرية في عاليه حيث حكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم فيه شنقًا في بيروت [١١٣].

٦. الأحزاب والهيئات الوطنية الفلسطينية والعربية تتصدى للصهيونية:

كذلك انبرت الأحزاب والجمعيات، والهيئات الوطنية الفلسطينية لتساهم على التأكيد على عروبة فلسطين وتتصدى للصهيونية ومشاريعها.

أما الأحزاب فدعت إلى عروبة المنطقة بأسرها، لأنها وحدة جغرافية - سكانية متكاملة وأبرز هذه الأحزاب:

«حزب عصبة الوطن العربي» تأسس ١٩٠٥م وكان شعاره «بلاد العرب للعرب».

«حزب العربية الفتاة» تأسس ١٩٠٨م وقال إن فلسطين جزء عضوي من الوطن العربي.

«جمعية العهد» تأسس ١٩٠٨م وكان ذا صبغة عسكرية. عمل بالسر في صفوف الجيش العثماني.

«حزب الإخاء العربي العثماني» تأسس ١٩٠٨م.

«الحزب الوطني العثماني» وأصدر كراسًا خاصًا موجهًا لعرب فلسطين ورد فيه: (الصهيونية هي الخطر المحدق بالوطن، وهي الموجة الرهيبة التي تهدد بإغراق شواطئ بلادنا، إنها تدبر بنفينا عن وطننا)

أما الجمعيات والهيئات الوطنية فقد نشرت صحيفة فلسطين في عددها الصادر في ١٤ حزيران يونيو ١٩١٤م رسالة من الشيخ راغب أبو السعود كشف فيها النقاب عن أسماء وبرامج ٤ مؤسسات وطنية خيرية أسست حديثًا في مدينة

(١١٣) הסטוריה של"י כרך 8 עמ' 192 – 193

القدس من أهم أهدافها التصدي للصهيونية والوقوف في وجه أخطارها الوشيكة التي تهدد البلاد بالدمار. أما هذه المؤسسات الأربعة فهي:

١ـ «الجمعية الخيرية الإسلامية».

٢ـ «جمعية الإخاء والعفاف».

٣ـ «شركة الاقتصاد الفلسطيني العربي».

٤ـ «شركة التجارة الوطنية الاقتصادية».

وفي شهر حزيران يونيو ١٩١٢م أيضًا نشرت صحيفة «الإقدام» القاهرية رسالة من بيروت تذكر أن الطلبة العرب في اسطنبول قاموا، مع طلاب شبان من مدينتي صور ومرج عيون، بتأسيس جمعية هدفها: توحيد كلمة العرب وجمع قلوبهم، خاصة الفلسطينيين منهم، للسعي في سبيل مصلحة البلاد، ولا سيما مقاومة الصهيونية بشتى الوسائل، فإن لم تيّسر ذلك بالمال فمن خلال رجال العلم والأدب والإخلاص [١١٤].

وفي تموز ١٩١٤م نشرت الصحيفة العبرية «هحيروت» [١١٥]، نبأ عن تشكيل جمعيتين برعاية نجيب نصار:

الأولى في بيروت وكان عدد الأعضاء المؤسسين مائة شاب من المثلث الفلسطيني، نابلس، طولكرم وجنين يدرسون هناك وأطلقت على نفسها «الشبيبة النابلسية».

والثانية: تضم أعضاء مسلمين ومسيحيين من مدينة حيفا وأطلقت على نفسها اسم «المنتدى الأدبي» وأخذت على عاتقها مقاومة الصهيونية.

كذلك تأسست في سنة ١٩١٢م «هيئة الإصلاح».

وفي ١٩١٣م «جمعية مكافحة الصهيونية»

وقد ذكرت صحيفة «الإقدام» في عددها الصادر في ١٩١٤/٧/١٩ أن مؤسسيها كانوا من الطلبة الفلسطينيين الذين يدرسون في الأزهر الشريف.

وكان من أهدافها، بالإضافة إلى مكافحة الصهيونية:

---

(١١٤) كيالي ص٧٣

(١١٥) הסטוריה של"י כרך 8 עמ' 192-193

- تأسيس فروع للجمعية في شتى المدن العربية والفلسطينية.

- مؤازرة ودعم المشروعات الاقتصادية والتجارية والزراعية العربية الفلسطينية.

- نشر روح الوحدة العربية.

- العمل على توعية المزارع العربي لحماية نفسه من مخاطر الصهيونية [١١٦].

وتوالى تأسيس التنظيمات ذات الطابع الوطني - الاقتصادي والخيري.

والملفت للنظر أن كافة تلك الهيئات الفلسطينية كان أعضاؤها من العرب المسلمين والمسيحيين، ففي نهاية نيسان أبريل ١٩١٤ نشرت «صحيفة الكرمل» إن العرب مسلمين ومسيحيين في اسطنبول أسسوا جمعية لمكافحة الصهيونية. وفي الوقت ذاته ذكرت مصادر صهيونية عن وجود بعض أعضاء من الشباب من كل من القدس ويافا من المسلمين والمسيحيين من على أهمية الاستعداد لمحاربتنا لجميع الوسائل [١١٧].

وكان أبرز هذه الهيئات:

«المنتدى العربي» وقد تشكل أول الأمر تحت اسم «جمعية العرب الفلسطينيين».

جمعية الإحسان العاملة».

«جمعية يقظة الفتاة».

«الجمعية الخيرية الإسلامية».

«جمعية الإخاء والوفاء».

«الشركة الفلسطينية العربية».

«شركة الاقتصاد والوطنية».

«شركة التجارة الوطنية الاقتصادية».

وقد أصدرت المنظمات الوطنية الفلسطينية بيانًا عامًا إلى أهالي فلسطين نشرته «صحيفة الكرمل» في عددها الصادر في ٧ تموز يوليو ١٩١٤ ورد فيه:

«هل تقبلون أن تصبحوا عبيدًا للصهيونية الذين ما جاءوا إلا لطردكم من بلادكم

---

(١١٦) كيالي ص٧٤

(١١٧) كيالي ص٧٣

مدّعين إنها بلادهم؟

أيرضيكم ذلك أيها المسلمون والسوريون العرب؟

إننا نؤثر الموت على أن نسمح بحدوث ذلك».

ثم دعا البيان إلى تنفيذ ما يلي:

- الضغط على الحكومة العثمانية لتنفيذ قانون حظر انتقال الأراضي.
- العمل على تطوير الصناعات والمهن الوطنية المحلية.
- مقاطعة المنتجات اليهودية.
- التحذير من بيع الأراضي والعمل، ولو باستعمال القوة، للحيلولة دون ذلك.
- العمل على منع الهجرة اليهودية.
- مطالبة الأوقاف بفتح مدارس دينية وصناعية ومهنية وزراعية وعلمية تطبيقية.

وانتهى البيان: «عليكم أن تجندوا الرأي العام لتتمدنوا من تحقيق هذه الأهداف. وليس لكم أن تلوموا الصهيونيين بقدر ما ينبغي أن تلوموا زعماءكم وموظفي حكومتكم الذين يبيعون الأراضي ويعملون سماسرة لهم.

أوقفوا هذه المبيعات أوقفوا الحركة الصهيونية» [١١٨].

وكان لهذا التحرك العربي الفلسطيني أثره على كل من الحركة الصهيونية والسلطة العثمانية فأوكلت الحركة إلى مندوبها في العاصمة يعقوبسون محاولة تهدئة مخاوف الحكومة العثمانية فباشر اتصالاته مع قادة الحكم وأصحاب الحل والعقد، أعضاء «الاتحاد والترقي» وحاول استمالتهم بالإقناع والذهب.

وقال: إن من يقف خلف التحركات الفلسطينية ويدعمها هي حكومة روسيا القيصرية العدو اللدود للدولة.

أما بالنسبة لعرب فلسطين فأوكلت الحركة مهمة طمأنة الفلسطينيين «للمكتب الفلسطيني الذي كان مركزه في مدينة يافا تحت إدارة آرثر روبين. وقام هذا، بدوره، بالاتصال بالنخب الفلسطينية من قادة وزعماء ورؤساء عشائر وممثلي العائلات الثرية الكبيرة وبرلمانيين ورجال أعمال وحاول إقناعهم بالمشروع

---

(١١٨) م. س ص ص ٧٥-٧٦

الصهيوني، وأن الحركة عبارة عن حركة سليمة هدفها التعايش السلمي.

في خضم هذه الدوّامة من الصراع الفلسطيني الصهيوني استجابت السلطة العثمانية للتحركات الفلسطينية وقامت بتعيين أحد كبار موظفي وزارة الداخلية ورئيس قسم الشؤون اليهودية في شهر أيلول سبتمبر ١٩١٤م، وهو بهاء الدين، قائمقامًا لمدينة يافا، وأوكلت إليه مهمة التصدي للنشاط الصهيوني. وبهاء الدين هذا شاب نشيط مليء بالحيوية ووطني مخلص غير قابل للبيع والشراء، وأن قيّمته الصهيونية عكس ذلك، واتهمته بالدكتاتورية والقسوة ومعاداة اليهود.

بدأ باستقصاء الأوضاع وقدم تقريرًا للمسئولين مفاده:

- الصهيونيون يخططون لإقامة دولة يهودية مستقلة استقلالاً ذاتيًا كما فعلوا في فترة الإمبراطورية الرومانية.
- هم يحلون مشاكلهم بهيئاتهم الخاصة.
- ويحتفظون بجنسياتهم الأوروبية.
- ولهم طوابع بريد خاصة بهم، يصرفون ريعها على منافعهم ومصالحهم.
- لهم علمهم الخاص بلونيه الأبيض والأزرق.
- يبثون في طلابهم العقيدة الصهيونية وكراهية الدولة العثمانية.
- ينصرفون إلى ابتياع الأراضي
- لا يستعملون إلا اللغة العبرية.
- يؤسسون الأندية الرياضية للتدريبات العسكرية.

ثم انصرف إلى مقاومة الحركة ميدانيًا فقام بـ:

- مداهمة مؤسساتها.
- أمر بإنزال اليافطات العبرية وسمح بالكتابة العلنية باللغتين: التركية والعربية فقط.
- حاول إيقاف الهجرة، حتى من اليمن التي هي جزء من الدولة العثمانية، والهجرة منها لا تعني إدخال عناصر أجنبية، وإنما تحرك سكاني داخلي فقط.
- أخضع جميع المستوطنات اليهودية الواقعة في قضاء يافا للتفتيش وأمر بجمع الأسلة وإبعاد كل يهودي يحمل جنسية دولة أجنبية.

وحين وصل أحمد جمال باشا قائدًا عامًا للمنطقة في كانون الثاني يناير ١٩١٥م قام بالمصادقة على الإجراءات التي فرضها بهاء الدين وعممها على كافة أرجاء فلسطين، فصودرت الأعلام اليهودية، ومنعت الشعارات الصهيونية وفرضت الغرامات المالية على كل من بحوزته طوابع بريدية. كما أغلق «بنك أنجلو فلسطين» اليهودي، وصودرت الأسلحة غير القانونية ويروى أنه منع اليهود من الصلاة أمام حائط المبكى بحجة أنهم يبكون ويصلون لإعادة هيكلهم وتأسيس دولتهم.

لكن السياسة العليا في العاصمة لم تصمد في وجه الضغوط الألمانية - الأمريكية التي حركتها الحركة الصهيونية، فحاولت تخفيف الإجراءات وإلغاء بعضها.

أما بهاء الدين، عدو الصهيونية اللدود، فقد أقصى عن عمله وعزل عن منصبه، لكن أحمد جمال باشا ألحقه به كسكرتيره الخاص.

في ظل هذه الأوضاع المتكهربة المتأزمة نشبت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ لتمنح الحركة الصهيونية حياة جديدة وتكيل لعرب فلسطين ضربة قاتلة.

الفصل الحادي عشر

الحرب العالمية الأولى

١٩١٤ - ١٩١٨م

{ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ }

قرآن كريم ١-٢-١٠١/٣

اندلعت الحرب العالمية الأولى في ٢٨ تموز يونيو ١٩١٤م، وكانت في بدايتها بين دولتين هما النمسا وصربيا، ولكن سرعان ما تداعت دول أوروبا وبعض دول العالم للانضمام إلى القتال الواحدة تلو الأخرى. فهذه تنضم إلى هذه الدولة والأخرى إلى تلك الدولة، وانقسم العالم إلى قطبين متحاربين:

١ـ دول المركز ٢ـ دول الوفاق

فيما يلي دول كل قطب وسنة دخول الحرب:

دول المركز	سنة الدخول للحرب	دول الوفاق	سنة الدخول للحرب
الإمبراطورية النمساوية الهنغارية (الأوسترو- هنغارية)	١٩١٤/٧/٢٨	صربيا	١٩١٤/٧/٢٨
ألمانيا	١٩١٤/٨/١	روسيا	١٩١٤/٨/١
بلغاريا	١٩١٤/١٠/١٤	فرنسا	١٩١٤/٨/٢
الإمبراطورية العثمانية	١٩١٤/١١/٢	بلجيكا	١٩١٤/٨/٣
		إنجلترا ودول الكومنولث	
		كندا	١٩١٤/٨/٤
		الهند	١٩١٤/٨/٤
		أستراليا	١٩١٤/٨/٤
		جنوب إفريقيا	١٩١٤/٨/٤
		اليابان	١٩١٤/٨/٢٣
		إيطاليا	١٩١٥/٥/٢٣
		رومانيا	١٩١٥/٨/٢٧
		الولايات المتحدة	١٩١٧/٤/٦
		البرازيل	١٩١٧/٤/٦
		بولندا	١٩١٧/٤/٦
		بيرو	١٩١٧/٤/٦
		الأكوادور	١٩١٧/٤/٦
		وغيرها	

▪ خلفية الحرب

عشية الحرب المذكورة بلغ التنافس الاستعماري التناحري والتسابق على حيازة مستعمرات وراء البحار بين دول أوروبا ذروته. وكان الصدام العسكري حتميًا، فلقد تكاملت كافة عوامله: فالحطب الجاف قد تكدس والنفط قد صبّ عليه إلى درجة الإشباع، ولم يبق إلا الشرارة التي تشعل هذا الجحيم.

لقد كانت الحرب متوقعة، والدول الاستعمارية على أهبة الاستعداد لخوضها وتأمين مصالحها وهيمنتها على الدول المستضعفة.

▪ شرارة الحرب

انطلقت الشرارة في إقليم البوسنة الخاضع للاحتلال النمساوي. والإقليم المذكور صربي الانتماء والميول والعرق. ولم يكفّ صرب البوسنة عن المطالبة بالانفصال عن النمسا والعودة إلى أحضان الأم صربيا.

وقد صادف أن قام ولي عهد النمسا، الأرشيدق فيردنند، بزيارة إلى البوسنة ثم عرّج خلالها على عاصمتها سيراييفو. فقام شاب وطني صربي يدعى جبرائيلو برنسيب بإطلاق رصاصتين عليه سقط على أثرهما قتيلاً مضرجًا بالدماء.

ثارت ثائرة النمسا وادعت أن المجرم الحقيقي هي دولة الصرب، فهي التي حرّضت وأوحت وخططت ودبرت عملية الاغتيال، فهي المسئول المباشر وليست اليد التي أطلقت النار. وتوالت الأحداث بسرعة البرق.

أعلنت النمسا الحرب على صربيا في ٢٨ تموز / يوليو ١٩١٤ وتداعت دول أوروبا للانضمام إلى أحد القطبين المتحاربين بموجب التزاماتها، فأعلنت روسيا القيصرية، حليفة صربيا، الحرب على النمسا في ١٩١٤/٨/١، أما ألمانيا، حليفة النمسا فتعهدت بمهاجمة صربيا إن قامت هذه بمهاجمة النمسا، ولم تتوان في إعلان الحرب في اليوم ذاته. ولم تتأخر فرنسا، حليفة روسيا فقد أعلنت الحرب على ألمانيا في اليوم التالي ١٩١٤/٨/٢.

وتوالى مسلسل تداعي الدول للحرب والانضمام إلى أحد المحورين. وتحولت حادثة الاغتيال من حادث فردي إلى حرب عالمية.

▪ الإمبراطورية العثمانية تزج بنفسها في الحرب «على نفسها جنت براقش»

تصرفت الدولة العثمانية بحكمة وتعقل أول الأمر، فالتزمت موقف الحياد ولم تنجر إلى أي من الطرفين. ولكن لم تلبث أن تلاحقت بشكل سريع لتجد نفسها متورطة في حرب ضروس.

كانت بداية التورط درامية حين انطلقت بوارج حربية بريطانية تطارد بارجتين حربيتين ألمانيتين هما برسلاف [1] وغوبين [2]، فالتجأتا إلى المياه الإقليمية التركية بعد أن أذنت لهما السلطات بذلك.

طلبت البوارج البريطانية المطاردة الأذن من السلطات التركية بدخول المياه الإقليمية للقضاء على البارجتين الألمانيتين. ولكن الطلب رفض. وكان رد الحكومة البريطانية عنيفًا سريعًا. أمرت بحجز سفينتين حربيتين إنجليزتي الصنع، كانت الحكومة التركية قد ابتاعتهما من الحكومة الإنجليزية ودفعت ثمنها، انتظارًا لتسلمهما من المسافن الإنجليزية.

ولم يتأخر رد الحكومة التركية: ابتاعت البارجتين الحربيتين الألمانيتين اللتين لجأتا إلى مياهها الإقليمية. واستأجرت طواقمها الألمانية أيضًا، وأدخلتهما في عداد القوات البحرية العثمانية بعد أن تم تغيير اسميهما إلى «السلطان سليم» و«المديللي»، ثم قامت الحكومة بتعيين قبطان البارجتين الألماني قائدًا عامًا لسلاح البحرية العثماني، مكان سلفه الإنجليزي الذي قامت الحكومة بطرده.

انطلقت البارجتان، بناء على أوامر من أنور باشا وزير الحربية، من ميناء اسطنبول في مهمة حراسة قافلة سفن تركية مبحرة إلى البحر الأسود، وفي ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٤ فتحتا نيران مدافعهما على سفن روسية كانت راسية في موانئ روسية على البحر الأسود [3].

---

(١) Breslau

(٢) Goeben

(٣) Lenczowski George : The Middle East in World Affairs p 38

ويشرح السكاكيني (م. س) ص ١١٥ تورط تركيا في الحرب فيكتب في يوميات ٣١ ت ١ سنة ١٩١٤، أي قبل يومين من دخول تركيا الحرب، أما الأسطول العثماني الذي كان يتمرن في البحر الأسود فتعرض له الأسطول الروسي ونشب القتال بينهما. ثم توجه الأسطول العثماني وضرب بعض الموانئ الروسية وأغرق بعض سفنها. ويستأنف المؤلف قائلاً «الشائع أن تركيا هي التي تحرشت بروسيا. ويقال إن الطرّادين الألمانيين هما اللذان تهجما على روسيا بدون علم الباب العالي، فإذا صح ذلك تكون ألمانيا قذفت بنا إلى هذه الحرب لمصلحتها».

وفي اليوم التالي ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر طلب السفير البريطاني في اسطنبول استعادة جواز سفره، وفي اليوم الثالث في تمام الساعة ٥:٠٥ من توقيت غرينتش طيرت وزارة البحرية البريطانية البرقية التالية:

إشارة لبدء الحرب مع الدولة العثمانية.

«من وزارة البحرية إلى جميع السفن: باشروا بالعمليات الحربية ضد تركيا. أرسلوا تصديقًا بتسلمكم البرقية» (٤).

ولم تلبث روسيا أن أعلنت الحرب على الدولة العثمانية، فردّت هذه بإعلان الحرب على روسيا في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٤، أي بعد مرور ثلاثة أشهر على بداية الحرب.

وهكذا وجدت الدولة التركية نفسها طرفا في أتون الحرب، تقاتل إلى جانب دول المركز والأسئلة التي تطرح بعد هذا التورط:

ما دوافع الدولة التركية لدخول الحرب؟

ما الأجواء التي اتخذ فيها قرار دخول الحرب؟

كيف تم اتخاذ القرار المصيري؟

عشية اندلاع الحرب كان يتربع على عرش الدولة التركية سلطان عجوز، شعيف مهزوز النفسية، اسمه محمد رشاد الخامس، خليفة السلطان المخلوع عبد الحميد الثاني. وكان السلطان الجديد شيخًا هرمًا تجاوز السبعين من العمر، حين أجلس على سدة الحكم، كان معلولا قضى أكثر من ٣٢ سنة من حياته سجينًا

(٤) زين ص١٥٣

حبيسًا في قصر من قصور العاصمة بأمر من السلطان عبد الحميد. وحين نجحت «تركيا الفتاة» بالإطاحة بالسلطان عبد الحميد عينت محمد رشاد هذا سلطانًا صوريًا. وحين نشبت الحرب شغل منصب الصدر الأعظم (رئيس الحكومة) الأمير المصري سعيد حليم. وكان هو الآخر حاكمًا صوريًا، اسميًا مجردًا من الصلاحيات، فالسلطة الحقيقية كانت بيد «جمعية الاتحاد والترقي» وعلى وجه التحديد بيد «ثلاثي الباشوات» الذي يقود البلاد ويسيّر أمورها:

- أنور باشا : وزير الحربية.
- طلعت باشا : وزير الداخلية.
- أحمد جمال باشا : وزير الحربية (٥).

أنور باشا أقوى الثلاثة وأكثرهم نفوذًا، كان ميالاً لألمانيا معجبًا بها وبنظامها وقوتها العسكرية وشخصية قيصرها فردريك ويليام الثاني، ولا عجب أليس هو الحليف والصديق الذي يتمتع بمنزلة الأولوية. ودولته المزود الرئيسي للواردات الصناعية، والمشرفة المباشرة على تسليح الجيش العثماني وتدريبه؟ فقد قام ٤٢ ضابطًا ألمانيًا يترأسهم الجنرال ليمان فون ساندرز بمهمة الإشراف على الجيش وتدريبه (٦).

أما السلطة التركية فقد كانت منقسمة على نفسها في مسألة الحرب فتيار الأغلبية يرى اتخاذ موقف الحياد. وتيار الأقلية ويتزعمه أنور يضغط للانحياز إلى جانب ألمانيا. وقد رجحت كفة الأقلية خصوصًا بعد أن تمكن أنور من إقناع زملائه طلعت وجمال وجاويد باشا وزير المالية بوجهة نظره، فقررت الجمعية الانحياز إلى جانب ألمانيا في الحرب وكانت دوافعها ومبرراتها:

١. الاقتناع بحتمية انتصار ألمانيا في الحرب، وانتصارها يعني ضمان وحدة الدولة وسلامتها الإقليمية.

ويؤكد السكاكيني (م. س.) ص ١٠٠ على قناعة السلطات العثمانية بحتميّة النصر الألماني فيقول: «إن الحكومة العثمانية لم تقدم على هذا العمل إلا وهي تعتقد أن الأمة الألمانية ستخرج من الحرب منتصرة.. ولست أدري على أي شيء تستند

(٥) Lenczowski p37

(٦) Lenczowski p37

في ذلك، فإن صحت فراستها فقد ضمنت مصلحتها وإلا فقد عرضت نفسها للخطر.. والله أعلم».

٢. الاشتراك لاحقًا مع المنتصرين في تقاسم غنائم الحرب بعد انتهائها.

٣. القناعة بأنه في حالة انتصار دول الوفاق فسوف يتم تفكيك الدولة التركية وتقاسم أشلائها. سواء دخلت الحرب أو لم تدخلها. وقد عبر عن هذه الفكرة توفيق باشا سفير تركيا في لندن عشية الحرب حين قال للسيد وندام ديذز «إننا موقنون أن انتصار الوفاق في هذه الحرب سوف يؤدي إلى تفتيت الدولة التركية فتكون سوريا من نصيب فرنسا، وأرمينيا من نصيب روسيا، والخليج الفارسي، والبلدان الواقعة على شواطئه من نصيب بريطانيا».

والحقيقة إن دخول تركيا الحرب، كما أثبتت الأحداث اللاحقة، كان خطأ قاتلاً لأنها، بذلك، حكمت على نفسها بالموت المحقق. وبدا كان «الرجل المريض على البوسفور» قد ضاق بالحياة وقرّر الانتحار[7]. وقد عبرت عن ذلك صحيفة «الديلي ميل»[8]. في عددها الصادر في ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٤ «لا يخامرنا أدنى شك في حتمية زوال الإمبراطورية العثمانية من أوروبا، وأن ممتلكاتها التي أخذت بالسيف لن تسترد إلا بالسيف» [9].

وكان حزب اللامركزية قد تنبأ في ٢٠ أغسطس آب ١٩١٤ أي قبل دخول تركيا الحرب: «إذا انضمت تركيا للحرب الحالية فلن تخرج منها سالمة». ومن المؤكد أن هذه الحرب سوف تؤدي بالدولة إلى مصيرها المحتوم».

أما «الديلي نيوز»[10] فقد كتبت في عددها الصادر في تشرين الثاني نوفمبر ١٩١٤: «إذا هزمت ألمانيا في هذه الحرب فإن قصاص تركيا على دخولها الحرب إلى جانبها سيكون القضاء عليها كدولة قضاءً مبرمًا».

أما جريدة «التايمز» [11] فقد كتبت في عددها الصادر ٣ تشرين الثاني / نوفمبر

(٧) הסטוריה של א"י אותו עמ' 44
(٨) Daily Mail
(٩) زين ص١١٣
(١٠) Daily News
(١١) Times

١٩١٤ «إن تركيا، بدخولها حربًا غشومًا ضد الوفاق، خانت الإسلام وحكمت على نفسها بالموت الزؤام». والنتيجة كانت كارثية، فقد دخلت الحرب بحال وخرجت منها بحال أخرى [12].

وقد علق «أسكويت [13]»، رئيس الحكومة البريطانية، عندما أعلم بدخول تركيا الحرب قائلاً: «إن الإمبراطورية العثمانية قد انتحرت».

« The Ottoman Empire has committed suicide »

وكان في تقييم هذا الأمر الكثير من الصحة وبُعد النظر:

١. لأن الدولة أصبحت تقاتل على أراضيها، وصدق من قال: «ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا». وتحولت بلاد الشام وغيرها إلى ساحة قتال دمّر الأخضر واليابس وقضي على الزرع والضرع.

٢. فسحت المجال لنشوب «ثورة عربية»، وإن كانت محدودة، ودفعت العرب إلى معاداتها بسبب:

أ. المآسي التي جرّتها الحرب.

ب. السياسة الحمقاء التي نهجتها سلطة «الاتحاد والترقي».

ج. الإجراءات الدموية التي ارتكبها قائد المنطقة وحاكمها أحمد جمال باشا.

وتحول الصديق العربي إلى عدو، والولي الحميم إلى خصم لدود.

هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى فإن التيار الذي ظل ينادي بأمة الإسلام تحت ظل الراية العثمانية والمصير المشترك للعرب والأتراك أخذ يضمحل ويتلاشى بالتدريج.

٤. فسحت المجال لدول الغرب الاستعمارية بالتحلل من التزاماتها بالمحافظة على وحدة الدولة العثمانية بموجب «مبدأ المحافظة على الوضع الراهن». ويذكر أنه حتى سنوات الثمانين من القرن التاسع عشر ظلت بريطانيا تدعم المحافظة على الوضع الراهن. (ستاتوس كو) بالنسبة للدولة وقد وقفت سدًا منيعًا في وجه أطماع باقي الدول الأوروبية الاستعمارية التي كانت تطمع بضم

(١٢) زين ص١١٣
(١٣) Esquith

الأراضي التركية، وكانت دوافع بريطانيا لانتهاج هذه السياسة تتلخص في المحافظة على التوازن الدولي، فالتسابق الأوروبي على اقتسام مناطق الدولة التركية قد يثير الحروب الأوروبية - الأوروبية. ومن الناحية الأخرى سعت بريطانيا للمحافظة على مستعمراتها، خاصة في مصر، وتأمين طريق الهند - انكلترا، وكفى المؤمنين شر القتال.

٥. فسحت المجال للحركة الصهيونية لتحقيق أطماعها وتنفيذ مشروع الوطن القومي لليهود في فلسطين. والحقيقة أن هذا البند كان أخطر ما تمخضت عنه الحرب. فلقد كان إيذانًا بميلاد الوطن القومي الذي مهد له تصريح بلفور البريطاني، كما أنه أيقظ النشاط الصهيوني العالمي وأكسبه زخمًا بعد فترة عانى فيه العراقيل.

ويقدر السكاكيني (م. س.) ص ص ١١٩ - ١٢٠ « إن هذا القرار التعس عاد بأوخم العواقب على الدولة العثمانية خصوصًا وأنها لم تكن مهيأة لخوض هذه الحرب الضروس لا سياسيًا ولا عسكريًا».

أما عن وضع الجيش التركي فيلخصه السكاكيني كالتالي: «حين دخول الدولة العثمانية إلى الحرب لا يزال ينقص الجنود العثمانيين أشياء كثيرة منها:

١. لا يزال الجانب الأكبر من ضباطها من الطراز القديم.

٢. لا تزال بلادها قليلة الحصون والقلاع الحربية وقليلة المواصلات.

٣. لا يزال سكانها وجندها قريبي العهد بالاستبداد وزمان الجهل والانحطاط.

٤. لا يزال الجهل مخيمًا على أكثر بلادها، ولا تزال الوطنية ضعيفة، ولا يزال الشقاق متحكمًا بين عناصرها المختلفة.

.. ولا تدخل أمة في حرب إلا إذا اعتقدت أنها قوية أولاً وإذا كان هناك شعور عمومي بوجوب هذه الحرب».

ثم يتساءل السكاكيني عن الأوهام التي تعشش في عقول مقرري السياسة في الدولة: «كيف تعتقد الأمة العثمانية أنها قادرة على الدخول في هذه الحرب وهي تعرف أن الجنود العثمانية قليلة بالنسبة لغيرها، وأن خزائنها فارغة. فمن أجل تدارك هذا الأمر جعلوا يوهمون الشعب، وهو بسيط جاهل، أن الحكومة تستطيع أن تجند عشرة ملايين. ومنهم من يعتقد أنها تجند عشرين مليون. ومن

المتطوعين البدو لا يقل عن أربعة ملايين. وأن العالم الإسلامي سيثور كله، لأن مسلمي روسيا أرسلوا إلى الحكومة العثمانية أنهم ينتظرون الجنود العثمانية لينضمّوا إليهم. وأن إيران ستنضم إلى تركيا في هذه الحرب. وأن الأفغان سيزحفون على الهند. ثم أن المراكشيين والتونسيين والسنوسيين يثورون.. . وإلى غير ذلك من ما يعتقد معه المسلم البسيط الجاهل أن الحكومة العثمانية ستملك العالم.. . ثم من الناحية الأخرى يهولون بقوة ألمانيا واستعدادها للحرب، ولا يذكرون لها إلا التقدم والانتصار. كما أنهم يحطون من شأن الدول الأخرى ولا يذكرون لها إلا الانكسار تلو الانكسار.

أما عن الاختراعات الحربية الحديثة فحدث ولا حرج. يقولون إنهم اخترعوا نوعًا من المدافع إذا نصبوه على شواطئ بلجيكا ضربوا به بلاد الإنجليز. وإنهم اخترعوا سائلاً إذا وضعوه في البحر تحول إلى بلور وأوقفوا فيه الأسطول الإنجليزي. وإنهم هيأوا أسطولاً هوائيًا (جويًا ز. ف) من مئة طيارة من طيارات زبلن فإذا أخذوا كاليه (مدينة فرنسية) اتخذوها قاعدة حربية لهذه الطيارات وهاجموا بها الأسطول الإنجليزي. وأن الغواصات الألمانية ستعمل العجائب. فإذا كان الإنجليز ملكوا البحر بمدرعاتهم وطرّاداتهم ونسّافاتهم وغيرها فإن الألمان ملكوا ما تحت سطح البحر بغواصاتهم، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا يتردد الشعب البسيط الجاهل في تصديقها، بل يزيد عليها ويبالغ فيها».

مع دخول تركيا الحرب سارعت الحكومة البريطانية باعتماد إستراتيجية بريطانية للموقف الجديد. وقد تلخص ذلك الموقف في ثلاث نقاط رئيسة:

١. احتلال منطقة سوريا الكبرى (الشرق الأوسط) كدرع واق لمصالحها وممتلكاتها في المنطقة.

٢. تأمين إنكلترا الهند وهو الشريان الرئيس الذي يمد الإمبراطورية البريطانية بالحياة.

٣. الحيلولة دون اختراق أية دولة أوروبية خاصة روسيا، فرنسا، ألمانيا، والإمبراطورية النمساوية حدود الدولة العثمانية والتوسع على حسابها.

وفي سبيل ذلك اقترح كتشنر إقامة حزام أمن شمالي يمتد على طول الحدود التركية - العراقية - الإيرانية ليقف سدًا منيعًا يكبح أي توسع روسي محتمل.

▪ إعلان الجهاد

لم تكد تمضي إلا أيام معدودة على إعلان تركيا الحرب حتى اتخذت سلطاتها إجراءين لكسب رضا العالم الإسلامي وتأييده.

- الأول: إلغاء اتفاقيات الامتيازات [١٤] المكروهة من قبل رعايا الدولة.

والامتيازات عبارة عن حقوق منحتها السلطات العثمانية لرعايا الدول الأجنبية النازلين في إرجائها أو السائحين فيها أو المارين بها مرورًا. وهي امتيازات لم تكن تمنح للعثمانيين أنفسهم. ومن أشهرها إعفاء هؤلاء الأجانب من الضرائب المباشرة، ومن جزء كبير من الرسوم الجمركية. كما أن السلطات العثمانية لم تكن تستطيع ولوج بيت رجل أجنبي مهما كان السبب حتى لو ارتكب جريمة في ذلك البيت فما كان للسلطات العثمانية أن تتدخل في التحقيق، بل إن الذي كان يتولى التحقيق هو الحاكم الفعلي، وهو قنصل الرجل الذي يسكن ذلك البيت. إن البيت الذي يقطنه رجل إنجليزي أو فرنسي أو يوناني أو سويدي أو برازيلي كان يعتبر جزءًا من فرنسا أو اليونان أو السويد أو البرازيل.. . الخ.

كذلك كان لكل أجنبي أن يتجول في أرجاء البلاد كما يشاء، فإن ناله سوء، ولو قضاء وقدرًا، فإن حكومته تطالب بالتعويض أضعافا مضاعفة.

- أما الإجراء الثاني: فإعلان الجهاد، الحرب المقدسة، الذي يدعو إلى استنفار واستنصار العالم الإسلامي وحشد طاقاته ضد العدو.

وقد تم إعلان الجهاد من ثلاثة منابر متقاربة متلاحقة.

أ- في ٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٤م، أي بعد دخول تركيا الحرب بخمسة أيام فقط. أعلن «شيخ الإسلام» وهو أكبر مرجعية دينية في الدولة، الجهاد وعمم إعلانًا بذلك:

- والجهاد، في هذه الحالة، فرض عين واجب على كل مسلم ومسلمة في جميع أنحاء العالم، بمن فيهم المسلمون الذين يعيشون تحت الحكم البريطاني، الفرنسي والروسي.
- الإعلان دعا إلى استنفار واستنصار المسلمين للقتال في صفوف الدولة

(١٤) Captulation. النواوي محمد عبد الغني ص١٣٧

العثمانية والتجند في قواتها المسلحة.

- الاتحاد والوقوف صفًا واحدًا، كالبنيان المرصوص، في وجه الدول المعادية وقتالها والامتناع عن تقديم أية مساعدة لها.

ب- وبعد إعلان شيخ الإسلام بـ ٤ أيام، وعلى وجه التحديد في ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٤م، أذاع السلطان محمد رشاد الخامس بيانًا على القوات المسلحة التركية البرية والبحرية وعلى رجال الجيش يحرضهم للدفاع عن دولة الإسلام والعمل على تحرير المسلمين المستضعفين.

ج- وبعد ١٢ يومًا من المرحلة الثانية، أي في ٢٣ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٤م. أصدر شيخ الإسلام ووعّاظ الجيش وعلماء الدين فتوى موقعة من ٢٨ عالمًا يطلبون من المسلمين الامتثال لطاعة الله والاستجابة لأوامره والمبادرة للدفاع عن بيضة الإسلام وحماية الأماكن المقدسة [١٥].

وكان إعلان الجهاد من أفضل الوسائل وأنجحها لتجنيد المسلمين وحشدهم للقتال، وقد تأمل رجال الحكم في الدولة أن يهب المسلمون هبة رجل واحد ملبين النداء فيصلون العدو الكافر نارًا وكبريتًا. وكان أملهم أن الدعوة سوف تزلزل أركان العدو، وتقلب موازينه رأسًا على عقب وتحول المعركة لصالح الدولة.

كانوا يأملون في تحرك العناصر الإسلامية التالية:

- مسلمو الهند الذين بلغ تعدادهم ٧٠ مليون نسمة. وكان بإماكنهم ضرب بريطانيا في صميم ممتلكاتها وأعظم مصادر قوتها وثروتها.
- مسلمو أفريقيا ٢٠ مليون.
- مسلمو روسيا والقفقاس ٢٠ مليون.
- الحركات الدينية الإسلامية مثل السنوسية في ليبيا والمهدية في السودان والوهابية في شبه الجزيرة العربية.

وفي الحقيقة كان أخشى ما تخشاه بريطانيا أن تنجح دعوة الجهاد فتؤدي إلى انتفاضة عارمة وثورة هادرة في شتى أنحاء العالم الإسلامي [١٦].

(١٥) انطونيوس جورج : يقظة العرب ص٢٢٢
(١٦) انطونيوس جورج : يقظة العرب ص٢١٥-٢١٦

إلا إن الآمال التي عقدتها الدولة على إعلان الجهاد سرعان ما خبت. ومخاوف الوفاق، خاصة بريطانيا، من هذه الدعوة لم تتحقق، لأنها لم تلق الاستجابة المرجوّة ولم تحقق حتى الحد الأدنى منها.

إن صمت أهل القبور الذي واجهت به الشعوب الإسلامية دعوة الجهاد كان محبطًا مخيبًا لآمال الدولة، فإن أحدًا لم يتحرك.

فابن سعود، سيد نجد وزعيم الحركة الوهابية، كان متحالفًا مع بريطانيا.

وشريف مكة الحسين وخادم المقدسات الإسلامية في الحجاز، وهي أشرف بقاع الأرض في نظر المسلمين، وسبط رسول الله وصاحب أعلى قيمة دينية في العالم الإسلامي، فضل عدم الاستجابة وآثر الوقوف موقف المتفرج [١٧].

حقًا لم يكن ذلك الشريف يملك المال والرجال، ولكنه كان يملك التأثير الديني والنفوذ المعنوي ولاشك أن انضمامه إلى الجهاد كان سيضفي عليه زخمًا وشرعية ومصداقية ولكن الشريف أحجم متذرعًا بـ:

الخشية من قيام بريطانيا، وهي سيد البحار بإغلاق موانئ الحجاز وقصفها بالمدفعية الثقيلة بعيدة المرمى، الأمر الذي يعني تدمير الأماكن المقدسة وحصار الحجاز وما يتمخض عنه من مجاعة في الديار الحجازية.

أما السبب الحقيقي فيكمن في أن الشريف ارتأى الوقوف على الحياد والانتظار متفرجًا إلى أن تتضح الصورة الحقيقية وينجلي الموقف عن نصر طرف وهزيمة الآخر، فيعلن عندها انحيازه إلى الطرف المنتصر [١٨].

ويعلق ليمان فون [١٩] ساندرز القائد الألماني في كتابه «خمس سنوات في تركيا» على دعوة الجهاد قائلاً:

إن الجهاد الذي أعلنته تركيا كان أمرًا غير واقعي، ذلك لأن الأتراك أنفسهم كانوا حلفاء دولة مسيحية هي ألمانيا. بالإضافة إلى ذلك كان ضباط ألمان ونمساويون مسيحيون يعملون في صفوف الجيش التركي.

أما الأديبة التركية خالدة أديب فقالت: من مهازل القدر أنه كان في الجيش

(١٧) انطونيوس جورج : يقظة العرب ص٢٢٢

(١٨) ولسون ماري عبد الله وشرق الأردن بين بريطانيا والحركة الصهيونية ص٥٤

(١٩) Liman Von Sandres

الفرنسي مسلمون يحاربوننا، وكذلك أيضًا في الجيش الروسي، في حين أن رعايا تركيا من المسلمين خاصة من العرب، كانوا مرتبطين بالمعسكر المعادي لنا [٢٠].

ولا شك أن فشل دعوة الجهاد يعود، إلى حد كبير، إلى موقف العرب العام الذي أحجم عن الاستجابة احتجاجًا على سياسته التتريك والقمع التي نهجتها لجنة «الاتحاد والترقي» الحاكمة.

ويلخص السكاكيني (م. س.) ج١ ص ص١٣٠-١٣٢ رأيه عن عبثية إعلان الجهاد. فقد دوّن في يومياته ١٨ ت ٢ ١٩١٤، أي بعد تورط تركيا بأسبوعين فكتب:

١. «لا بد أن أشير إلى بعض الملاحظات التي عنّت لي. كانت الحكومة العثمانية تهدد أوروبا بإعلان الجهاد الديني، ولم تعلم أوروبا مبلغ هذه الدعوة من الخطر لأن الحكومة العثمانية كانت تهدد بها ولم تعلنها قبل اليوم، ولم يعد أحد يعبأ بها.

٢. لو انفردت الحكومة العثمانية في هذه الحرب فلربما راجت هذه الدعوة، ولكن كيف تدعو إلى الجهاد الديني وهي تحارب مع دولتين مسيحيتين جنبًا إلى جنب.

٣. لو كانت الخدمة العسكرية مقصورة على المسلمين دون المسيحيين والإسرائيليين لعمّت هذه الدعوة. ولكن كيف يعتقد الجندي المسلم أنه يجاهد ويرى إلى جانبه الجندي المسيحي والإسرائيلي؟

٤. كانت تصح هذه الدعوة لو كانت الدولة المسيحية هي البادئة بالعدوان. أما وقد كانت الدولة العثمانية هي التي دخلت غمار هذه الحرب لغير سبب إلا مساعدتها لألمانيا والنمسا فمن المنتظر ألا يكون لهذه الدعوة الأثر المطلوب.

٥. يظهر من الروح الجديدة التي دبّت في تركيا أن العنصر التركي يحاول أن يؤسس دولة تركية عظيمة، فهو لا يهتم إلا بنفسه. وقد قال أحد رجاله في محاضرة ألقاها في شهر رمضان الفائت في أحد منتديات الآستانة (اسطنبول ز. ف): «أنا تركي أولاً ثم مسلم. إن إسلاميتي قد أغيرها واعتنق مذهبًا آخر، وأما تركيتي فلا». فالدعوة إلى الجهاد الديني اليوم لا يقصد منها إلا الدفاع عن العنصر التركي وتأييد سلطته لا الدفاع عن الدين الإسلامي.

(٢٠) زين ص١٢٢

٦. إن الدعوة إلي الجهاد الديني قد تضر بالعالم الإسلامي أكثر من غيره لأنها قد تدعو الدول المسيحية إلى دعوة دينية مماثلة.

.. أضف إلى ذلك أن الدعوة إلى الجهاد الديني قد تصرف العالم الإسلامي عن اتخاذ الأسباب الحقيقية للتقدم.

٧. إن هذا العصر الذي انتشرت فيه المدنية الأوروبية وتنبهت العاطفة الدينية ونزع فيه كل عنصر إلى الاستقلال بنفسه لا تروج فيه مثل هذه الدعوة.

٨. أضف إلى ذلك ما تقيمه الدولة المعادية لتركيا من الحواجز لتحول دون انتشار هذه الدعوة وما تتخذه من الاحتياطيات لتحول دون تحقيقها».

■ موقف العرب من الحرب

لم يكن موقف العرب موحدًا بالنسبة للحرب، ويمكن تصنيفه كالتالي:

تيار موال للدولة، ودعا إلى تأييدها والاستجابة لدعوة الجهاد.

وتيار معارض رافض، يدعو للانحياز ضدها إلى جانب دول الوفاق طمعًا بتحقيق الاستقلال.

أما الغالبية العظمى فمالت في بداية الحرب إلى التيار الموالي المتعاطف ودعت لتحقيق حلم الجامعة الإسلامية وأمة الإسلام في دار الإسلام. ولكن حين خابت هذه الآمال نتيجة لسياسة جمعية «الاتحاد والترقي» وأدائها الأرعن المتهور عدل أنصار هذا التيار عن موقفهم المعلن، ومع ذلك لم ينضموا إلى التيار المعادي للدولة، بل فضلوا الجنوح لاتخاذ موقف المتفرج، وكأن الأمر لا يعنيهم لا من قريب ولا من بعيد. فالأمر لديهم سيان سواء دخلت الدولة الحرب أم لم تدخلها، وإن ربحتها أم خسرتها.

ولم يلبث شعور العداء والغربة أن تزايد بعد إجراءات أحمد جمال باشا الدموية وظروف الحرب القاسية (٢١).

(٢١) Lenczowski p47

جبهات القتال

مع بداية القتال كان تعامل الدول المتحاربة متباينًا من جبهة القتال في الشرق. فدول الوفاق، تمشيًا مع سياسة رئيس حكومة بريطانيا أسكويت، اعتبرت أن جبهة القتال الرئيسية هي الجبهة الأوروبية، في حين اعتبرت جبهة الشرق ثانوية هامشية.

أما دول المركز فلم تعتبر هذه الجبهة إلا جبهة مساعدة هدفها الرئيسي تخفيف الضغط العسكري عن الجبهة الأوروبية. أما الدولة التركية فقد اعتبرت جبهة الشرق، جبهة رئيسية يحسم على أرضها مصير الحرب فلا عجب أن دفعت بمعظم قواتها وأسلحتها إليها. وخاض جيشها أشرس المعارك وأشدها ضراوة وقاتل ببسالة واستماتة على أمل أن يحسم المعركة. وقد شنت الدولة القتال على أربع جبهات في الوقت ذاته (٢٢).

١- جبهة القفقاس ضد روسيا القيصرية

وكانت تلك أولى الجبهات.

تقدمت القوات التركية شرقا فاخترقت الأناضول وتوقفت على الحدود المتاخمة لروسيا وإيران. في بداية المعارك نجحت القوات التركية في إحراز نصر سهل وتقدم سريع في اتجاه الشرق فالشمال مخترقة حدود إيران، فاقتحمت أذربيجان ووصلت مشارف مدينتي باتوم وتبريز.

ومن هذا الموقع المتقدم أطلقت دعوتها لتجنيد عناصر إسلامية خاضعة للحكم الروسي وحثها للانضمام للقوات التركية لتحرير وطنها المحتل. وهذه العناصر هي من الشعب الأجري (مسلمو جورجيا) والأذربين (مسلمو أذربيجان) (٢٣).

مع توغل القوات التركية أصبح القتال شرسًا دمويًا، قاتل فيه الأتراك قتال الأبطال لشق طريقهم عبر جبال القفقاس الشاهقة وممراتها الصخرية الوعرة.

أما الجيش القيصري الروسي فدافع دفاع المستميت وتحول القتال سجالاً بين نصر وهزيمة، وكر وفر: ولكن النتائج كانت رهيبة كارثية بالنسبة لطرف ثالث:

(٢٢) ibid p39

(٢٣) ibid p55

هو الشعب الأرمني في منطقة أرمينيا الواقعة تحت الحكم التركي. فقد رأى الأرمن الفرصة سانحة لتحقيق الانفصال والاستقلال فثاروا على الدولة معتمدين على دعم ونجدات روسية مأمولة، ولكنها لم تصل بتاتًا. أما ما جرى بعد ذلك فأمر مختلف فيه:

الرواية الأرمينية تتهم الجيش التركي بالفتك بالأرمن. وقد شهدت أرمينيا الويلات، المصائب، والمذابح والتهجير. كانت تلك نكبة الأرمن ومذبحتهم الكبرى التي استمرت من حزيران يونيو ١٩١٥م حتى ١٩١٦م. وقد عانى خلالها الشعب الأرميني القهر والقمع والتقتيل والاقتلاع والتهجير.

وقد بدأ الترانسفير الجماعي من الوطن إلى شمال سوريا، عبر صحار قفراء وأراض قاحلة. تدفق المقتلعون كالسّيل العشوائي الجارف. لقد كانت تلك جريمة حرب ومحاولة إبادة شعب. وقدرت ضحايا الأرمن بين ٦٠٠ ألف - ١.٥ مليون نسمة، ويقول الأرمن إن هذه الجريمة هي وصمة عار تلطخ جبين الدولة التركية وتجلل هامتها بالعار إلى أبد الآبدين. أما المسئول المباشر عن تنفيذها فكان وزير الداخلية طلعت باشا [٢٤].

أما النص التركي فمختلف فهو يعترف بالويلات والكوارث والضحايا الأرمن، ولكن ينفي أن تكون العملية مدبرة عن سبق إصرار ومخطط لها، وإنما هي نتيجة مباشرة للحرب وللمعارك التي دارت في المنطقة. وهل تتمخض ساحات القتال إلا عن الدماء والويلات والدموع؟

على كلٍّ، في شتاء ١٩١٥م شنت روسيا هجومها المعاكس ونجحت في إجلاء الأتراك من المناطق التي كانوا اجتاحوها، وطاردوا فلول الجيش التركي المتقهقر إلى بحيرة فان شرق الأناضول.

فشلت خطة أنور باشا في تحرير الشعوب الإسلامية الواقعة تحت الحكم الروسي وبدا كأن القوات الروسية عازمة على مواصلة تقدمها غربًا واجتياح الأناضول والوصول إلى العاصمة اسطنبول. ولكن الهجوم توقف فجأة أثر نجاح ثورة ١٩١٧م الشيوعية الروسية.

---

(٢٤) ibid pp 48-49

وأعلن الثوار البلشفيك إيقاف القتال على كافة الجبهات وانسحاب روسيا من الحرب بدعوى أنها حرب استعمارية لا ناقة لروسيا الشيوعية فيها ولا جمل [٢٥].

٢- جبهة الدردنيل ربيع ١٩١٥م:

اعتمدت القوات البريطانية خطة عسكرية تقضي مهاجمة العدو التركي في عقر داره وطعنه في صميم فؤاده في عاصمته. وكان الهدف من هذا التحرك:

- تخفيف ضغط القوات التركية في الجبهة الروسية.
- سد الطريق في وجه الحليف الروسي من الوصول إلى المياه الدافئة، وقصدت السياسة البريطانية بذلك استباق الأحداث وتسديد ضربة تجهض الجنين الروسي فوصول الروس إلى تلك المياه يعتبر خطًا أحمر لا يمكن لبريطانيا أن تسمح به.

في ربيع ١٩١٥م، وبالتحديد في ٢٥ آذار مارس، اقتحمت قوات مشتركة إنجليزية - أسترالية - نيوزيلاندية - فرنسية، تحت قيادة القائد البريطاني السير إيان هملتون، مياه المتوسط وعبرت إلى بحر إيجه فمضيق الدردنيل حيث قامت بمحاولة إنزال من البحر واختراق خط الدفاع التركي ثم الزحف لاحتلال العاصمة قبل وصول الروس إليها. وكانت تلك هي خطة السير ونستون تشرشل [٢٦].

أما الدفاع التركي فقد تولى قيادته الجنرال ليمان فون ساندرز الألماني.

اصطدمت القوتان: المهاجمة والمدافعة في غاليبولي حيث دارت أشرس المعارك وأشدها ضراوة ودموية، واستبسل الأتراك في الدفاع وقاتلوا بعنف وشراسة وعناد وصمدوا في مواقعهم ونجحوا في صد الهجوم وتحطيم الموجات المتتالية من الهجمات وأذاقوا العدو الويل والدمار وكبّدوه خسائر فادحة بلغت ٢٥ ألف إصابة. واضطر المهاجمون إلى الانسحاب في شتاء ١٩١٦ كانون الثاني / يناير متخلين عن غاليبولي [٢٧].

---

(٢٥) ibid p55

(٢٦) Tibawi Amodern history of Syria p215

(٢٧) لا يزال شيوخ بلادنا الذين شاركوا آبائهم في القتال إلى جانب القوات التركية يتداولون حتى يومنا هذا أخبار القتال في الجبهة المذكورة، فلقد رواها الجد إلى الابن والابن إلى الحفيد، وفيها يروون أخبار بطولاتهم في غاليبولي التي يسمونها شنق قلعى.

٣– جبهة العراق :

وللعراق أهمية جغرافية ـ اقتصادية ـ عسكرية بالغة الأهمية بالنسبة لبريطانيا نظرًا لـ:

- ثروتها النفطية: فهي أكبر خزّانات النفط الخام في العالم.
- وقوعها على شريان التجارة والمواصلات الرئيس بين بريطانيا ومستعمراتها في الشرق الأقصى، وخاصة الهند.
- موقعها المجاور الملاصق لإيران والخليج الفارسي ومواردهما النفطية غير المحدودة.
- دعم القوات البريطانية المرابطة في الخليج خاصة في المحمرة والكويت.
- نقطة ارتكاز للالتحام بالقوات الروسية الحليفة التي تقاتل على جبهة القفقاس.

وبذلك يتم الإطباق على القوات التركية في شرق الأناضول بكماشة عملاقة: أحد فكّيها القوات البريطانية في العراق والفكّ الآخر القوات الروسية في القفقاس.

تقدمت القوات البريطانية قادمة من الهند وقامت بعملية إنزال من البحر في ميناء الفاو على شط العرب جنوب البلاد. وقد تولى قيادة الحملة بالتتابع كل من الجنرالات: دولمين فالجنرال باريه، وأخيرا الجنرال مودي [٢٨].

في الشهر نفسه تقدمت القوات البريطانية من ميناء الفاو ونجحت في احتلال البصرة، عاصمة الجنوب، وقدمت شمالاً باتجاه بغداد. ولم يكن تقدم القوات البريطانية سهلاً ليّنا فقد جوبه بمقاومة شديدة. وكانت قمة المعارك وأشدها ضراوة معركة « كوت العمارة» حيث تم إيقاف تقدم القوات الزاحفة ودحرها في ٢٥ نيسان / أبريل ١٩١٦ بعد أن أوقعوا في صفوفها ١٣ ألف جندي قتيل.

على كل لم يستسلم البريطانيون، بل أصروا على المثابرة والقتال حتى النصر، فهاجموا الكرّة بعد الأخرى، معززين بأثقل الأسلحة وأكثرها عصرية وفتكًا. وتمكنوا آخر الأمر من احتلال بغداد تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٨ تحت قيادة الجنرال مودي [٢٩].

---

(٢٨) Dolmain , Barrett Mode

(٢٩) Lenczowski p59-60

٤– جبهة السويس:

منذ نشوب الحرب وقفت كل من مصر وسوريا على جانبي المتراس، فمن ناحية كانت مصر واقعة تحت الاحتلال البريطاني من ١٨٨٢م وسوريا تحت السيادة العثمانية منذ ١٥١٦م. أما شبه جزيرة سيناء المصرية، منذ سنة ١٩٠٦م، فتحتجز بينهما. وكان يرابط في سوريا الجيش الرابع التركي الذي بلغ تعداده الكامل ٥٦ ألف جندي مقسمين على فيلقين (كل فيلق ٣ ـ ٤ فرق عسكرية) تساندهما حامية ألمانية صغيرة.

وقد اتصف الجيش التركي المذكور بـ :

- الشجاعة والبسالة وروح التضحية والاستماتة في القتال.
- سوء التسلح والتدريب والتموين والانضباط.
- قيادة مشتركة تركية ألمانية.

أما القوات البريطانية المرابطة في مصر فبلغ تعدادها ٩٠ ألف مقاتل يتميزون بـ:

- جودة التدريب والتموين والتسليح.
- التفوق التكنولوجي، فأسلحتها من أحدث الأسلحة العصرية، يتوجها سلاح مدفعية وسلاح بحرية وسلاح جو. فالصورة لم تكن مشرقة بالنسبة للقوات التركية وميزات القوى، غير متكافئ من حيث الكم والكيف والعداد والعدة.

تعيين أحمد جمال باشا [٣٠].

كتب أحمد جمال باشا في مذكراته أنه بعد إعلان الحرب بعشرة أيام استدعاه صديقه أنور باشا إلى بيته وأخبره أن الدولة تعاني العنت من الثوّار العرب. وهم يبدون نشاطًا ملحوظًا في قتال الدولة ويثيرون الاضطرابات والقلاقل في كافة أرجاء سوريا. ثم سأله: إن كان سعادته، انسجامًا مع صدق وطنيته، يرغب في تولي قيادة الجيش الرابع، المربط في سوريا، إلى جانب القائد الألماني لجيش الشرق، الكولونيل فون كرسنشتين [٣١]. الملحق العسكري في دمشق سابقًا.

---

(٣٠) هو غير جمال باشا وزير الحربية

(٣١) FRIEDRIC frie Herr Kressenstein. הסטוריה של א אותו עמ' 41

لم يتردد أحمد جمال بقبول العرض وتوجه مباشرة إلى دمشق فوصلها في أوائل كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٤، وتسلم منصبه كقائد أعلى للجيش الرابع إلى جانب القائد الألماني. وحال وصوله نقل مقر القيادة إلى دمشق، ثم شرع في إعادة تنظيم الجيش.

وضع أحمد جمال هدفين مباشرين:

المحافظة على الأمن والنظام والاستقرار في سوريا.

استمالة العرب وكسب تعاطفهم وتأييدهم بانتهاج سياسة تسامح وصفح وملاينة.

وتبنى الشعار «ألن جانبك يحبوك». فسعى إلى التقرب من الإصلاحيين واستمالتهم فعين عبد الرحمن شاهبندر طبيبًا خاصًا له وفتح أبواب مكتبه للنخب العربية وأغدق الأموال على محرري الصحف وأبرزهم محمد كرد علي عبد الغني العرويسي.

وفي بيان له أصدره من دمشق في أوائل كانون الثاني / يناير ١٩١٥، بعد فترة قصيرة من وصوله، قال: «أيها السادة! إن البرنامج الإصلاحي، الذي يستهدف خير العرب، والذي ينوي حزبنا (ويقصد جمعية الاتحاد والترقي) تحقيقه تحقيقًا تامًا أوسع نطاقا وأكثر شمولاً مما تستطيعون أن تتصوروا.

أنني أنا شخصيًا من أولئك الذين يعتقدون أنه ليس بالأمر الضار لنا جميعًا أن يكون الشعبان، العربي والتركي، شعبًا واحدًا متحدًا، في الوقت الذي يحافظ كل منهما على شخصيته القومية، شريطة أن يخضعا لسلطة الخليفة.

وأنني الآن في وضع أسمح لنفسي فيه أن أؤكد لكم أن أهداف العرب والأتراك لا تتعارض، بل نحن أخوة في نضالنا الوطني. لا بل أنني أذهب إلى أبعد من هذا فأقول أن جهودنا يعضد بعضها بعضًا».

وفي نهاية بيانه قال: «إن هذه الحرب التي تخوضها الدولة هي حرب مقدسة للدولة والإسلام وغايتها الحفاظ على سلامة دولة إسلامية كبرى هي الدولة العثمانية» (٣٢).

(٣٢) زين ص١١٩

أما عن شخصية أحمد جمال فالآراء متضاربة، فهناك من يقول إنه لم يكن عضوًا مؤسسًا في جمعية «الاتحاد والترقي» ولم يكن مؤمنًا بدعوتها القومية الطورانية ولم يكن من أولئك الذين يحملون طابعها، بل كان رمزًا من رموز الدعوة الإسلامية، فكان يخالف الداعين إلى الطورانية والتتريك، ويجاهر بالبديل: وهو العثمانية المؤسسة على الدين.

من الناحية الأخرى كان هناك من يعتقد أنه لم يكن مؤمنًا بدعوى الإسلام، وإنما كان يتظاهر بذلك ويحاول الظهور بمظهر القائد المؤمن. ولكن ذلك كان نفاقا وشعارًا كاذبًا يتغطى به كسبًا لتأييد المسلمين. وعندما وطأت قدماه أرض سوريا حاول أن يظهر نفسه أنه مسلم مخلص وعثماني وطني، ولكن تصرفاته أثبتت أنه يفتقر إلى هاتين الصفتين، فقد كان حتى أواخر سنة ١٩١٥م، يجري اتصالات سرية مع الروس لعقد سلام منفرد مع دول الوفاق، والثمن تأمين حكم وراثي له ولنسله من بعده، على بلاد الشام والعراق. وقد فشلت مساعيه الخيانية بسبب فض إنجلترا وفرنسا للعرض لأن لهما أطماعًا إقليمية في هذين القطرين (٣٣).

وقد عزز توجهه المذكور ميله إلى فرنسا وكراهيته لألمانيا.

أما قدراته العسكرية، فلم تكن قد عرفت بعد في هذه المرحلة المبكرة، ولكن تفاصحه بالعبارات الفخمة في خطبته الأولى، وفي بلاغاته للقوات المسلحة تدل على تفاهة باطنه.

وقد برهن خلال السنوات الثلاث التي قضاها في بلاد الشام أنه قائد متوسط وإداري ماهر وسياسي متقلب، مزاجي، لين العريكة سريع الانخداع. وأنه حيث يثور غضبه، وكثيرًا ما كان يحدث ذلك، فإنه يصبح كالثور الهائج ولا يتورع عن ارتكاب أية حماقة (٣٤).

على كل حال بعد أن استقر به المقام في دمشق باشر في مشروعه الكبير:

الهجوم الشامل الكبير على قناة السويس.

(٣٣) انطونيوس ص١٣٤

(٣٤) م. س ص٢٣٥

أ- الحملة الأولى على السويس [٣٥] شتاء ١٩١٥ :

لم تلقَ سياسة أحمد جمال الرامية لكسب عطف وتأييد العرب النجاح المأمول، إلا أنه، رغم ذلك، ظل مصممًا على استمالتهم ووصلهم ودعوتهم للجهاد. فأخذ يضرب على وتيرة الدين: فتوجه إلى شريف مكة يطلب التأييد والبركات وأرسل له مذكرات لا تزال محفوظة حتى يومنا هذا، تدل على ما كان عازمًا عليه من الصبر والتحمل وبذل المجهود لاكتساب قلب الشريف.

في تلك اللحظات تسلم تقارير رسمية من الاستخبارات التركية تبعث على القلق. فلقد أبلغ أنه لدى تفتيش القنصليتين الفرنسيتين في كل من بيروت ودمشق، وكانتا قد أغلقتا مع إعلان الحرب بصفتيهما قنصلتي عدو، تم العثور على وثائق ومستندات وتسجيلات خطية تفيد أن نخبًا عربية بارزة قد اتصلت بالسفير الفرنسي وعرضت عليه خدماتها وتعاونها ضد الدولة.

وكانت القنصليتان المذكورتان قد عهدتا بالأوراق والمستندات إلى القنصلية الأمريكية لحفظها وصيانتها لئلا تقع بأيدي السلطة العثمانية، لكن نتيجة للتسيب والإهمال تركت تلك الوثائق في القنصليتين، فوقعت بأيدي السلطات العثمانية.

استمع أحمد جمال إلى التقرير وكظم غيظه، وأبدى قدرة فائقة على التسامح ورأى أن يغض الطرف عن هذه الخيانة، فلقد كان عاقدًا العزم على أن يخلق في النفوس أثرًا حسنًا، فاكتفى بإعلام الشريف عما وجده وأخبره أنه دفن الأوراق والمستندات في أحد الأدراج وأقفل عليها «بالضبة والمفتاح» وأنه ليس في نيته تضخيم المسألة. وعفا الله عما مضى! وانهى توجهه للشريف بإعلامه أنه عازم على الزحف على مصر.

كان هدفه الأول قناة السويس. ويقول السكاكيني (م. س.) ص٩٧ إن السويس هدف استراتيجي رأت القوات العثمانية أنه لا بد من احتلاله. ففي فترة مبكرة، وقبل تعيين أحمد جمال قائدًا للمنطقة، شعر السكان المحليون بالتحركات العسكرية العثمانية. فيقال إن الحكومة العثمانية أرسلت قوات كبيرة إلى حدود مصر وستلحقها بقوات أخرى آتية من الشام.

---

(٣٥) المحليون في بلادنا يطلقون عليها الترعة

الناس يتحدثون بغزو مصر حتى أن قائد فرقة الفرسان، بينما كان يتناول الغذاء مع فرسانه في قرية المالحة (من القرى المجاورة لمدينة القدس) وقد تناول قليلاً من الخمر، لم يتمالك أن قال: إن شاء الله سنتناول الغذاء الثاني في القاهرة.

إن صح هذا فإن هذا تهور من الحكومة العثمانية لأسباب عديدة:

أولاً: لأن الحكومة الإنجليزية لا تتخلى عن مصر مهما كلفها ذلك.

ثانيًا: لأنه لا طريق للجيوش العثمانية لتغزو مصر إلا من ترعة السويس، وهي قصبة سيناء، والخط لا يتجاوز العشرين كيلو مترًا، فإذا وضعت الحكومة الإنجليزية قوة صغيرة هناك تستطيع أن ترد الجيوش العثمانية مهما زادت عليها عددًا. فإذا لم تكن هناك قلاع وحصون تستطيع أن تضع مدرعتين أو ثلاثة في الترعة تقذف قنابلها إلى بعد عشرة كيلومترات.

ثالثًا: لأن كل الأراضي بجوار ترعة السويس قفار رملية لا ماء فيها، ولا سيما في مثل هذه الأيام الحارة، فلا بد أن تجد الحكومة العثمانية صعوبة كبيرة في تدبير ماء لجيوشها.

رابعًا: لأنه لا جسر على ترعة السويس، فكان الترعة، على هذه الصورة، حصون طبيعية ترد عن مصر الجيوش المهاجمة.

خامسًا: لأنه لا أسطول للحكومة العثمانية، والعمدة في حروب هذه الأيام على الأساطيل.

سادسًا: لأن الحكومة العثمانية، وإن تكن قد تنبهت من غفلتها وبالغت في تدريب عساكرها فإنها لم تبلغ من التدريب والاستعداد ما يؤهلها لأن تصبح دولة عظمى.

على كل حال بعد اتخاذ القرار العسكري باقتحام سيناء ومحاولة احتلال مصر قدم أحمد جمال باشا مقر قيادته من دمشق إلى القدس. وقد انتقل هو وهيئة أركان حربه وجيشه إليها.

ويصف السكاكيني ج١ ص ١٣٩- ١٤١ في يوميات ١١ ك١ ١٩١٤ مشهد قدوم أحمد جمال على رأس قواته إلى القدس فيقول: «بنحو الساعة الخامسة قدم جمال بك في أتومبيله ووراءه أوتومبيلان آخران فيهما أركان حربه. وكان متصرف القدس ماجد بك بجانبه.. . أما بقية الجيش فستتوافد تباعًا. إن هذه

الأيام في تاريخ القدس مشهودة. كيف التفتَّ لا ترى إلا ضباطًا وجنودًا وهجانة وخيالة وجمالاً تحمل المؤونة وقطع المدافع والرصاص وعربات تنقل معدات القتال وأوتومبيلات تروح وتجيء تصفر وفيها الضباط».

وبعد أربعة أسابيع من وصول أحمد جمال إلى القدس قادمًا من دمشق تحرك إلى الجبهة فكتب السكاكيني (م. س.) ص ١٤٨ في يوم ك٢ سنة ١٩١٥: «سافر اليوم الجند ومعهم العلم النبوي، إلى الجنوب. وبعد الظهر جاء جمال باشا ناظر الحربية وقائد هذه الحملة. وكانت السماء ماطرة، فلم يخرج أحد لاستقباله.

وفي اليوم التالي توجه للصلاة في الحرم القدسي وطلب من الناس مرافقته ومن يتخل يُجازَ. وعند الظهر نزل جمال باشا في حاشيته وركبوا العربات وذهبوا للحرم... وجمال باشا «قصير القامة ممتلئ الجسم ذو لحية قصيرة على الشكل الفرنساوي»».

في ليلة ٢-٣ من شهر شباط / فبراير ١٩١٥م انطلقت القوات التركية باتجاه العريش فشبه جزيرة سينا، وسينا هي دهليز مصر الحربي وقيمتها الإستراتيجية بالغة الخطورة والأهمية افتتح الزحف ببلاغ عسكري، مقلدًا فيه خطبة طارق بن زياد عشية فتح الأندلس، قال «أيها الجنود أن الصحاري تمتد من ورائكم، والعدو الجبان يقف أمامكم، ومصر الخصبة خلف هذا العدو. وهي مشتاقة للترحيب بكم. فإن ترددتم فلن يكون نصيبكم إلا الموت. فإلى الأمام فإن الجنّة أمامكم» (٣٦).

ويصف السكاكيني (م. س) ص ص ١٠٣-١٠٤ اقتحام سيناء (التابعة لمصر الواقعة تحت الحكم الإنجليزي) : «سمعنا أن فرق العساكر الموجودة في القدس ستسافر غدًا صباحًا إلى الجنوب، فلم يشك أحد أن الحرب واقعة، فاستولى القلق على الناس وأظلمت الدنيا في وجوههم. غدًا يسافر الجيش، مشيًا على الأقدام تحت أشعة الشمس المحرقة، يحملون أثقالهم على ظهورهم يقطعون المسافات الشاسعة لا يجدون ماءً ولا ظلاً. ثم يدخلون الصحراء فيقاسون ما يقاسون من الحرب والعطش والتعب والجوع إلى أن يصلوا إلى حدود مصر حيث يلتقون

(٣٦) انطونيوس ص٢٣٦

بجيوش الأعداء. من الناس من يعتقدون أن جيوشنا لا تصل حدود مصر إلا وهي منهوكة من التعب والعطش والجوع والحّر، فلا تقوى على مقابلة الأعداء. ومنهم من يقول إن الجيوش العثمانية ستتمكن، بمساعدة البدو المخيمين في تلك النواحي، من طمر ترعة السويس بالرمال لتعبر منها إلى مصر وتستولي عليها».

وقطعت القوات التركية سيناء على ظهور الإبل. ولا شك أن هذا الاجتياز يعتبر بحد ذاته، إنجازًا عسكريًا رائعًا فعبور مئات الكيلومترات من الصحراء الرملية القاحلة الملتهبة ليس بالأمر الهين اليسير. وطالما أدعى الخبراء العسكريون إن سيناء منطقة غير قابلة لعبور قوات عسكرية ضخمة. وفوجئ البريطانيون على الشاطئ الغربي للقناة بظهور القوات العثمانية على الضفة الشرقية (٣٧).

تواجهت القوتان غير المتكافئتين على ضفتي القناة، فهنا ترابط القوات البريطانية متعددة الجنسيات، المسلحة والمدربة والكبيرة (٩٠ ألف جندي) وهناك القوات العثمانية المتعبة، المنهكة، سيئة التسلح، والتدريب والتموين والانضباط العسكري وقليلة العدد نسبيًا (حوالي ٣٠ ألف جندي إن أحمد جمال ترك نصف قواته في المؤخرة تحسبًا لثورة عربية متوقعة).

شرع أحمد جمال بهجوم كاسح شنّه عند محطة طوسون. وقد مدت القوات التركية جسرًا خفيفًا منصوبًا على زوارق من الألمونيوم، ولما أتموا تركيبه بدأوا العبور عليه فتصدت لهم القوات البريطانية، تعاونها كتيبة من الجيش المصري تحت قيادة الملازم أول أحمد حلمي (٣٨).

فشل الهجوم وتم صد القوات المهاجمة، فما كان منها إلا أن تعاود الهجوم الكرّة بعد الأخرى. وفي كل مرة كان يبوء بالفشل متكبدًا الخسائر الفادحة في الأرواح، فلقد رجح التفوق العددي والتكنولوجي.

ومن جبهة القتال طيّر جمال باشا برقية حاول فيها تبرير الهزيمة فأبرق أنه بعد أن تعرف على قوات العدو الهائلة ارتد عن الترعة ريثما يستكمل الاستعدادات

(٣٧) הסטוריה של א"י כרך 8 עמ' 44

(٣٨) الخولي ص ص ١٦٦-١٦٧

اللازمة (سكاكيني م. س.) ج١ ص ١٥٤. وصدرت أوامر جمال باشا بالانسحاب والتقهقر إلى فلسطين.

ولم يلبث أن وصل إلى القدس، ويصف السكاكيني(م. س) ج١ ص١٥٨ وصوله مهزومًا فيقول «نزل في لوكندة الألمان على جبل الزيتون ومع وصوله وصلت فرقة أزمير، وهي من الفرق المقاتلة الممتازة المشهورة بحسن البلاء». وقد رجعت من الصحراء وواصلت سيرها إلى الشمال. ولكن لا تسل كيف كان مرجعها. جاءت جديدة الثياب والأحذية وعلائم الفتوة والحماسة بادية على وجوه كل واحد منها. وكانت تنشد الأناشيد الحماسية منتفخة الأوداج، محمر الأحداق، ورجعت من الصحراء رثة الثياب، ممزقة الأحذية، فاترة القوى، منهوكة الأجسام، مسودّة الوجوه. تلوح على وجوهها علائم الشيخوخة».

وبعد عشرين يومًا أي في ٢٧ آذار ١٩١٥ عاد إلى الشام بعد أن اشترى هدايا عديدة «كأنه راحل عن هذه البلاد غير راجع إليها... والله أعلم» (م. س) ص١٥٨.

تراجع أحمد جمال إلى قاعدته في دمشق وهو مهزوم مدحور، مطأطئ الهامة، مثخن بالجراحات، عصبي المزاج، يغلي كالبركان الثائر. كان في وضع نفسي مترد، وهو موشك على الانهيار. وكان لا بد من خلق المبررات للهزيمة المنكرة[٣٩].

حاول لحظة وصوله دمشق أن يخفف من وقع الهزيمة بالادعاء أن ما قام به لم يكن هجومًا، بل مجرد حركة استطلاع وجس نبض تمهيدًا للهجوم الشامل القريب. ولما لم تقنع ادعاءاته أحدًا رأى أنه لا بد من البحث عن سبب آخر. يجب أن يبحث عن كبش فداء يحمله تبعة الهزيمة ويفرغ عليه جام غضبه، وينفث فيه سمومه [٤٠].

وهنا تذكّر مستندات القنصليتين فتفتق ذهنه عن اتهام العرب بتسبب الهزيمة، خصوصًا وأنه اضطر إلى ترك نصف قواته في المؤخرة تحسبًا لطعنة في الظهر قد يسددها العرب.

---

(٣٩) زين ص١١٩

(٤٠) انطونيوس ص٣٢٦

مجازر أحمد جمال السفاح

أصدر أوامر بعقد مجلس عرفي (محكمة عسكرية ز. ف) في مدينة «عالية» اللبنانية لمحاكمة المتهمين العرب بتهمة الخيانة العظمى في وقت الحرب [٤١].

وكان باكورة ضحايا تلك المحكمة الصورية قسيس ماروني من جبل لبنان، اسمه يوسف الحايك، وقدمت لائحة اتهام ودليل: مراسلات جرت بين القسيس المذكور ورئيس البرلمان الفرنسي.

وصدر الحكم : الإعدام شنقًا. وتم التنفيذ في ٢٢ آزار / مارس ١٩١٥م.

تبع ذلك صدور مذكرات بإلقاء القبض على زعماء عرب ممن وردت أسماؤهم في الوثائق المضبوطة. وحوّل الجميع إلى محكمة عالية العسكرية والتهمة: الخيانة العظمى والضلوع في مؤامرة تستهدف الدولة زمن الحرب. وفي السجن تم استجواب المتهمين تحت التعذيب والتنكيل.

ثم جرت المحاكمة وصدرت، الأحكام في صيف ١٩١٥م: الحكم بالإعدام على ١٣ متهمًا حضوريًا و٤٥ غيابيًا تواجدوا حينذاك خارج البلاد، أو كانوا مختفين عن الأنظار. كما حكم على متهمين آخرين بالسجن مددًا متفاوتة أو بالنفي.

في فجر ٢١ آب / أغسطس ١٩١٥ نصبت ١١ مشنقة في الميدان الرئيس في بيروت في ميدان الحرية، كانوا عشرة من المسلمين ومسيحي واحد. وقد جئ بهم من أنحاء مختلفة من بلاد الشام: بيروت، وبعلبك، وحماة ودمشق وجنين.

كان معظمهم في ربيع العمر وقد أحسنوا استقبال الموت وتقدموا إلى المشانق، أراجيح الأبطال، بخطى ثابتة وقلوب مفعمة بالوطنية والإيمان.

وكان من أبرز المشنوقين «محمد المحمصاني» وهو من الخريجين النابهين في مدرسة الحقوق بباريس وأحد الأعضاء المؤسسين لحركة «العربية الفتاة». وقد تعرض لجميع أنواع التنكيل ليفشي أسرار الجمعية ويبوح بأسماء أعضائها. لكنه صمد ولاقى وجه ربه صابرًا محتسبًا دون أن ينطق بحرف.

وكان من ضمن المشنوقين رشدي الشمعة وسليم الجزائري. والأخير ضابط لامع في الجيش التركي. وسيف الدين الخطيب من حيفا وكان قاضيًا. والأمير عارف

---

(٤١) زين ص١١٩

الشهابي من حاصبيا في لبنان، وكان محاميًا واعدًا. وأحمد طبّارة من بيروت، وهو صاحب جريدة وأديب وأحد المندوبين في المؤتمر العربي في باريس. وعلي عمر النشاشيبي من القدس ومحمد الشنطي من يافا جورج حداد من لبنان والأمير عمر الجزائري من دمشق، وهو من نسل الأمير عبد القادر الجزائري، بطل المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي [٤٢].

وكانوا جميعًا من النخب المميزة. وقد أرجئ تنفيذ حكم الإعدام في اثنين من الـ١٣ هما: حافظ بك السعيد من يافا وكان عضو برلمان. ومن الوطنين المخلصين ومن أشد المناهضين للصهيونية. والشيخ سعيد الكرمي من طولكرم. وقد خفف عنهما حكم الإعدام إلى السجن المؤبد لكبر سنهما.

أما الأول فمات في السجن والثاني ظل رهين الحبس إلى أن أطلق سراحه بعد الحرب العالمية الأولى.

ولم يكن الدم الطاهر المراق ليروي ظمأ السفاح فأخذ يبحث عن ضحايا جديدة.

وفي أوائل كانون الثاني / يناير ١٩١٦م عمت البلاد موجة اعتقالات جديدة. ألقي القبض على مجموعة من أعيان المسلمين والمسيحيين بتهمة الخيانة العظمى. وعقدت المحكمة العسكرية في عالية بجلساتها، واستمرت المحاكمات عدة شهور وأديرت بقسوة تخللتها أصناف الإساءات والتعذيب والتنكيل كانت صورة من صور محاكم التفتيش [٤٣].

واتصل الشريف الحسين، متوسطًا لدى جمال السفاح، ورجاه حصر العقوبات بالسجن المؤبد وتجنب الإعدام. وتوجه إليه ملمحًا بتهديد مبطن «وإلا فإن الدماء تستثير الدماء».

أما فيصل فاتصل بجمال راجيًا مستعطفًا مسترحمًا، ولكن شفاعة الوالد والابن لم تجدِ. وكان أول الضحايا في الموجة الجديدة جوزيف هاني من زعماء المسيحيين في بيروت وقد شنق علنًا أمام الجمهور في ٥ آذار أبريل ١٩١٦.

وبعد شهر شنق علنًا أمام الجمهور أيضًا ٢١ آخرون: ١٧ في دمشق و٤ في بيروت وكان بينهم: عبد الحميد الزهراوي من دمشق، رئيس المؤتمر العربي

(٤٢) انطونيوس ص ٢٨٢–٢٨٣

(٤٣) زين ص١١٩

في باريس. و٣ من أعضاء البرلمان التركي من بينهم شفيق المؤيد، وشكري العسلي قائمقام منطقة الناصرة ١٩١٠ - ١٩١١ الذي رفض نقل أراض مرج بن عامر إلى ملكية يهودية.

وأصدرت المحكمة حكمها بنفي ١٢٠ من الزعماء العرب إلى أصقاع الأناضول. وكان أحدهم، نخلة مطران باشا مسيحيًا، تهمته التآمر مع قنصل فرنسا لسلخ بعلبك وضمها لجبل لبنان. وحكم عليه بالنفي الأبدي، وقد شهّر به في شوارع دمشق وتوفى وهو في طريقه إلى المنفى.

أما المحكومون بالإعدام فلم يعلموا بساعة التنفيذ إلا قبل الشنق، حين دخل السجّان في ليلة التنفيذ قاعة السجن في عالية وقرأ أسماء ٢١ من المتهمين وأمرهم أن يرتدوا ملابسهم ويتبعوه، ثم نقلوهم بالقطار إلى دمشق وسيقوا إلى «ساحة المرجة» حيث نصبت سبع مشانق، أما الآخرون فاقتيدوا إلى بيروت في مركبات، وقد أحسوا بمصيرهم، فأخذوا ينشدون في الظلام أناشيد الحرية والوطنية. وكان راكبو كل مركبة يجاوبهم زملاؤهم. وفي الفجر وصل الموكب إلى ميدان الحرية وتوقف هناك.

وفي الساعة السادسة من صباح حزيران/يونيو ١٩١٦م كانت المجزرة قد ارتكبت وتأرجحت الأجساد الطاهرة من أعواد المشانق وصعدت الأرواح البريئة المظلومة إلى ربها.

وكان الحصيلة هذه المرة ٢١ مشنوقا منهم ١٧ من المسلمين و٤ من المسيحيين. أما حصيلة المشنوقين في الدفعتين فبلغت ٣٢ (١٧ شنقوا في دمشق و١٥ في بيروت)

اهتزت البلاد وارتعدت فلم يكن أيٌ كان يتوقع هذه القسوة الدموية، ولا حتى أولئك الذين كانوا يعرفون ما انطوت عليه طبيعة أحمد جمال من وحشية.

وزاد من هول المصيبة أن هذه الأحكام عمت البريء والمذنب.

ومن المصادفات أن الأمير فيصل كان ضيفًا على آل البكري في مزرعتهم بالقابون من ضواحي دمشق حين نفذت أحكام الإعدام. وكان يتناول طعام الإفطار عندما اقتحم القاعة رسول يحمل أنباء الشؤم فأصيب الجميع بالذهول وصمتوا

كأن على رؤوسهم الطير. وفجأة هب فيصل واقفا، وبحركة مسرحية، كمن به مسٌ من الجنون، انتزع كوفيته وعقاله على رأسه وصاح «الآن طاب الموت!»[٤٤].

وقد حاول أحمد جمال تبرير فعلته الدموية في وقت لاحق في مذكراته في «الكتاب الأحمر» [٤٥] الذي أصدره في العاصمة اسطنبول سنة ١٩١٦ ونشر فيه صورًا فوتوغرافية ومجموعتين من الرسائل والمستندات والوثائق المتبادلة بين زعماء عرب والحكومة الفرنسية وقد حاول أن يبرهن أن أولئك الزعماء لم يكونوا إلاّ حفنة من الخونة الذين يعملون في الخفاء مع أعداء الدولة والدين ويقومون بالاتصالات السرية مع العدو، ولا سيما فرنسا. وأشار كذلك إلى أن سوريا كانت على أبواب ثورة عارمة.

وحقيقة الأمر، كما يقول زين زين، إن بعض الزعماء العرب قاموا لاحقًا بالاتصالات مع الحكومة الفرنسية بالقنوات الدبلوماسية السرية، ولكن ليس هناك أي دليل على قيام خيانة أو مؤامرة، فالاتصالات كانت تجري قبل الحرب، وكانت تجري ضمن إطار المطالب الشرعية التي تتراوح بين: مطالب الإصلاح والحكم الذاتي في إطار الدولة العثمانية وتحت سقفها، ولم يجز أي ذكر لثورة أو انفصال أو غير ذلك. أما اتهامات أحمد جمال فليست إلا نزوة شيطانية وفردية ابتدعها سفاح دموي المزاج متعطش للدماء»

ويقول زين: «إنه بعد الإطلاع على المذكرات وعلى الكتاب الأحمر توصل إلى نتيجة وهي أن الوثائق المنشورة لا تبرر الاتهامات الخطيرة التي وجهت للزعماء، وليس فيه أي إثبات أو دليل على خيانة أو عدم ولاء للدولة».

كما أن قسمًا من هذه الوثائق المنشورة ينقض بعضه بعضا، وبعضها يدل دلالة واضحة أن أصحابها لم يطالبوا بالانفصال، وإنما بالحكم الذاتي فقط.

لقد كان للإجراءات الدموية التي ارتكبها السفاح ولسياسته الدموية أبعاد خطيرة على العلاقات العربية ـ التركية فلقد بدأ العرب يشعرون أنهم جسم غريب عن

---

(٤٤) م. س ص٢٨٤

(٤٥) أصدره تحت عنوان "إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى توقيعها بديوان الحرب القومي المتشكل في عالية" مطبعة الطنين اسطنبول ١٣٣٤هـ

الدولة، وأنهم هدف للاضطهاد والمطاردة الأمر الذي كان عاملاً أساسيًا في العداء للدولة ونشوء القومية العربية وتطور فكرتها. وبدأت المطالب القومية تتصاعد من الإصلاح إلى الحكم الذاتي، فالانفصال والاستقلال [٤٦].

ب- الهجوم التركي الثاني على السويس

كان الهجوم التركي الثاني على السويس في حملتين:

الأولى حملة سنة ١٩١٦، والثانية سنة ١٩١٧

١. حملة سنة ١٩١٦ :

وقد بدأت الحملة بتحرك عسكري بريطاني من مصر. وكانت القوات البريطانية في مصر تحت قيادة الجنرال الإنكليزي أرشيبالد مري.

عبرت القوات البريطانية لقناة السويس وتقدمت شرقا باتجاه سيناء عند نقطة التقاء قناة السويس بالبحر المتوسط وتموضعت في موقع رمانة (روماني) شرقي القناة معتبرة إياها نقطة الانطلاق لاجتياح سيناء والتقدم لاحتلال فلسطين.

من الناحية المقابلة تقدمت القوات التركية تحت قيادة القائد الألماني الكولونيل فون كرسنشتين من فلسطين وشنت هجومًا مضادًا في يوليو أغسطس ـ تموز آب ١٩١٦.

اتجهت القوات التركية غربًا متقدمة مع خط الساحل، والهدف القوات البريطانية في رمانة. وفي المعركة البرية الشرسة فشل الهجوم التركي واندحرت قواته وانسحبت إلى قواعدها.

أما الجنرال الإنكليزي فقد انتهز فرصة تقهقر القوات التركية وتقدم شرقا مع خط الساحل ونجح في اقتحام مدينة العريش عاصمة سيناء في ديسمبر ـ كانون الأول ١٩١٦م.

انتشى الجنرال الإنجليزي مري من نصره على القوات التركية فقرر استغلال زخم النصر لاحتلال فلسطين. وقد شن هجومين كاسحين: الأول في آذار ١٩١٧

---

(٤٦) زين ص١٢١

والثاني في نيسان من السنة ذاتها. إلا أن الهجومين تحطما إزاء صمود خط الدفاع التركي الممتد من غزة حتى بئر السبع.

٢. حملة سنة ١٩١٧

بدأ عام ١٩١٧م بتحولات جذرية على الساحة الشرق أوسطية:

ففي كانون الثاني / يناير ١٩١٧ استقال الصدر الأعظم سعيد حليم المصري من منصبه كرئيس وزراء وخلفه في منصبه طلعت باشا. وكان هذا عاقدًا العزم على افتتاح عهده بإحراز أي انتصار وتحقيق أي إنجاز.

وفي تشرين الأول / أكتوبر من السنة ذاتها نجحت الثورة الشيوعية في روسيا وانتقل الحكم إلى النظام الشيوعي. وأعلن النظام الجديد أن الحرب هي صراع استعماري لا دخل لروسيا الشيوعية فيها. وأنه مصمم على الانسحاب من القتال ولم يعد طرفا في الحرب. وبهذا تنفست الدولة التركية الصعداء فلقد تخلت من القتال على الجبهة الروسية وأصبح بإمكانها سحب قواتها وتحويلها إلى جبهات أخرى.

وصدرت الأوامر للقوات التركية التي تقاتل على الجبهة الروسية بالتوجه إلى جبهة العراق في عملية عسكرية أطلق عليها «يلدرم» أي الصاعقة. ولكن إزاء الوضع الخطير الذي كان سائدًا في سيناء وتوقع هجوم بريطاني شامل ارتأت القيادة تحويل تلك القوات من العراق إلى جبهة سيناء.

صدرت الأوامر لقوات يلدرم بالتصدي للحملة البريطانية وتحطيمها واحتلال سيناء وعبور القناة. ومن أجل ذلك استدعى الجنرال فالكنهاين (٤٧) من ألمانيا في آيار / مايو ١٩١٧م، ومعه ٦ من كبار القادة العسكريين الألمان. وأسندت إليه قيادة قوات يلدرم، والجدير بالذكر أن أحد قادة تلك القوات كان مصطفى كمال (أتاتورك لاحقًا) الذي كان قد تميز بشجاعته ومهارته في القتال في جبهة غاليبولي. وقد باشر فالكنهاين عمله فور تسلمه القيادة فأعاد تنظيم القوات:

جعل مركز القيادة العام في مدينة حلب شمال سوريا.

قسّم القوات المقاتلة في سوريا إلى قسمين:

(٤٧) General Falkenhyn

- القوات المقاتلة في جنوب فلسطين من خط عرض القدس جنوبًا وجعلها تحت قيادة الكولونيل كرسنشتين وأوكل إليه اقتحام سيناء وغزو مصر وقد نقل هذا مقر قيادته من دمشق إلى القدس (٤٨).
- القوات المقاتلة في باقي أرجاء سوريا وتشمل المناطق الواقعة بين القدس ودمشق وشرق الأردن وشمال الحجاز. ووضعت تحت قيادة محمد جمال الملقب بالصغير (٤٩).

أصدر فالكنهاين أوامره باقتحام سيناء في الخامس من آب / أغسطس ١٩١٧ واندفعت القوات التركية متجهه إلى الزاوية الشمالية الغربية لسيناء لمهاجمة القوات البريطانية المتمركزة في رمانة وكان هدف هذه الحركة:

١. احتلال رمانة والتخندق فيها لتجميد القوات البريطانية في مواقعها مقابل القوات التركية للحيلولة دون توجيهها للجبهة الأوروبية.

٢. عرقلة الملاحة في قناة السويس وضرب الشريان الحيوي الرئيس لبريطانيا.

وفي رمانة دارت أشرس المعارك وأشدها ضراوة ودموية بين قوتين متكافئتين كمًا وكيفًا. وكان سلاح القوات التركية: الشجاعة والاستبسال، ولكن التفوق العددي والتكنولوجي حسم المعركة ولم يتبقّ للقوات التركية المهاجمة إلا الانسحاب بعد أن تكبدت خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات.

قررت القيادة الألمانية والتركية إعادة حساباتها من جديد، ولم تعد تفكر بمغامرة إضافية لاجتياح سيناء واعتمدت إستراتيجية دفاع وأخذت تستعد لصد هجوم شامل قد تقوم به القوات البريطانية لغزو فلسطين.

(٤٨) Lenczowski p 56

(٤٩) لا يخلطن أحد بين أحمد جمال الكبير السفاح حاكم سوريا ومحمد جمال الصغير هذا

فلسطين في أتون الحرب

الهجوم البريطاني من سيناء على فلسطين آذار / مارس ١٩١٧

بعد فشل الحملة التركية التي قادها القائد الألماني الكولونيل فون كريسنشتين سنة ١٩١٦ وقبل حملة الجنرال الألماني فالكنهاين سنة ١٩١٧ بدأ القائد البريطاني أرشيبالد مري[٥٠]. استعداداته لاقتحام فلسطين، فأرسل قوة بريطانية تقدمت عن طريق ساحل البحر المتوسط شمال سيناء لاقتحام فلسطين، فأرسل قوة بريطانية تقدمت عن طريق ساحل البحر المتوسط شمال سيناء وتموضعت في موقع متقدم في مدينة العريش المصرية. وكان يساير هذا التقدم مد خط سكة حديد وأنبوب مياه لتقديم الخدمات اللوغستية للجيش. ولم تكن هذه العمليات صعبة خطيرة. فالمنطقة خاضعة للسيادة المصرية التي هي تحت الاحتلال البريطاني منذ ١٨٨٢م.

قام العمال المصريون بتعبيد الطرق على امتداد آلاف الأميال في شمال شبه جزيرة سيناء، ورصفوها بالحجارة تحت وهج الشمس الحارقة في ظروف مناخية صعبة، وجعلوها صالحة لسير السيارات العسكرية والمركبات. كما مدوا خطوط السكك الحديدية في الصحراء القاحلة الملتهبة وحفروا الرمال صيانة لها ونقلوا الذخائر إلى مسافات شاسعة.

بعد معركة رمّانة تقدمت القوات البريطانية شرقا عن طريق الساحل إلى العريش، وكان زحف الجيش بطيئًا ثقيلاً بسبب مقاومة جيوب المقاومة للقوات التركية المنتشرة على امتداد طريق الزحف.

وصلت القوات البريطانية المتقدمة إلى مدينة العريش، عاصمة سيناء وبوابة مصر إلى فلسطين في ديسمبر - كانون الأول ١٩١٦ وتمركزت في العريش لتعيد تنظيم صفوفها وتستعد لاقتحام فلسطين. أما الأتراك، من الجانب المقابل، فقد استكملوا كافة استعداداتهم الدفاعية في خط عسكري يمتد من غزة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في الغرب إلى مدينة بئر السبع. عاصمة منطقة النقب الفلسطيني، في الشرق.

(٥٠) A. Murray

في ٢٦ آذار/ مارس سنة ١٩١٧ حانت ساعة الصفر فانطلقت القوات البريطانية لاقتحام فلسطين.

وجه الجنرال مري هجومه لاختراق خط الدفاع عند مدينة غزة. والجنرال المذكور كان على قدر كبير من الغرور والاستكبار. وصمد الأتراك في مواقعهم ودافعوا دفاع المستميت. وفشل الهجوم، رغم التفوق العددي والتكنولوجي وتراجعت القوات المهاجمة التي بلغ تعددها ٧٠ ألف جندي إلى قاعدتها في مدينة العريش.

وبعد شهر حاول الجنرال إياه إعادة الهجوم ثانية في ٢٩ أبريل / نيسان ١٩١٧م ولم يكن نصيبه هذه المرة أفضل من نصيبه في المرة الأولى، وعاد أدراجه وهو يجر ذيول الخيبة والهزيمة. والخلاصة أن المشروع البريطاني باحتلال فلسطين الذي تمثل في هجومين في ٢٦ مارس آذار و٢٩ أبريل نيسان مُني بالفشل الذريع والخسران المبين.

بعد هذه الهزائم رأت القيادة العامة البريطانية استبدال الجنرال مري بالجنرال أدموند اللنبي[٥١] في حزيران / يونيو ١٩١٧ بعد أن رقي من رتبة كولونيل إلى رتبة جنرال تمهيدًا لتسلم منصبه الجديد. تلقى الأمر الأول من القيادة العسكرية: وجوب احتلال القدس قبل عيد الميلاد في ١٩١٨ ليكون أفضل هدية عيد ميلاد تقدم للعالم المسيحي.

اللنبي يقتحم فلسطين أواخر ١٩١٧

في أكتوبر تشرين الأول ١٩١٧م أنهى الجنرال اللنبي اللمسات الأخيرة لخطته العسكرية لاقتحام فلسطين، وقد رأى أن كون نقطة انطلاق قواته من العريش باتجاه مدينة غزة متخذًا طريق الساحل.

وقد اتخذ قراره بالهجوم على ضوء الأوضاع العامة مستغلاً: فترة الجمود النسبي التي سادت جبهات القتال في أوروبا. تخفيف الضغط عن القوات البريطانية التي تقاتل في العراق.

(٥١) General Lord Edmond Allenby

وصول أنباء تفيد أن القوات العثمانية المرابطة في جنوب فلسطين انضمت إلى قوات يلدرم تحت قيادة فون كرسنشتين استعدادًا لهجوم مضاد شامل على القوات البريطانية المرابطة في العريش، فرأى اللنبي استباق الهجوم بضربة إجهاضية.

كانت خطة اللنبي تشمل تحريك محورين متوازيين:

- شن هجوم بري شامل تسنده القوات البحرية لاجتياح فلسطين من غربي نهر الأردن.
- في الوقت ذاته شن هجوم متزامن تقوم به قوات فيصل من شرقي نهر الأردن.

وكان فيصل يعتبر قائدًا غير نظامي في القوات البريطانية ويخضع لأوامرها (٥٢).

قضت الخطة أن ينطلق الهجوم العربي الفيصلي من مدينة العقبة ويتوجه شمالاً ليجتاح منطقة شرقي الأردن وسوريا.

وبدأ الهجومان المتزامنان:

هجوم اللنبي في فلسطين.

وهجوم فيصل في شرقي الأردن.

تقدمت قوات اللنبي من العريش عن طريق الساحل باتجاه مدينة غزة، ولكنها جوبهت بمقاومة عنيفة في خط الدفاع الطويل الحصين الممتد من غزة إلى بئر السبع. ولم تكن المقارنة متكافئة بين القوتين من حيث العدد فكانت النسبة ٢ : ١ لصالح القوات البريطانية، أضف إلى ذلك تفوق تلك القوات من حيث الجاهزية والتموين والتسليح والشروط الصحية ونوعية السلاح، بالإضافة إلى الفوضى والبلبلة والاضطراب وعدم الانضباط العسكري التي سادت القوات التركية، وإلى كل ذلك أضيفت الثورات العربية التي عمت مناطق عديدة في: أنحاء العراق بضاحية حوض الفرات الأوسط والأدنى. دمشق وغوطتها. جبل العرب. جبل لبنان. وأخذت هذه تسدد الطعنات النجلاء إلى ظهر القوات التركية الغارقة في القتال.

على كل حال لما تيقن اللنبي استحالة اختراق خط الدفاع التركي عند غزة تحول شرقا باتجاه بئر السبع ليحاول اختراق الدفاعات في ذلك الموقع. بدأ الهجوم

---

(٥٢) Via Maris

على بئر السبع في ٣١ تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٧ ونجح في اختراق الدفاعات وتقويضها، وسقطت المدينة بيد اللنبي وقواته البريطانية، فكانت أولى المدن الفلسطينية التي تسقط بيد القوات الغازية.

من بئر السبع تدارس اللنبي، وهيئة أركان حربه، الوضع العسكري وكيفية استمرار التحركات العسكرية. وتوصلوا إلى صعوبة عملية احتلال فلسطين بمحور عسكري وسطي ينصف البلاد وينطلق من بئر السبع شمالاً، لأن ذلك يترك جناحي المحور المتقدم مكشوفين لهجمات القوات التركية. لذلك ارتأى اللنبي أن الخطة الأصوب لاحتلال البلاد يجب أن تنطلق عن طريق الساحل، وهو الطريق التاريخي القديم لعبور الجيوش.

ارتدت القوات البريطانية من بئر السبع واتجهت غربًا، وشنت هجومًا كاسحًا على مدينة غزة ومنطقتها مستعملة كافة أسلحتها وقواتها ونجحت في احتلال المدينة في ٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧م (٥٣)، ثم تقدمت قوات اللنبي من غزة شمالاً دون مقاومة وبيسر وسهولة، فالقوات التركية اعتمدت خطة استراتيجية جديدة تقضي بإخلاء المنطقة وتركيز الدفاع على امتداد نهر العوجا اليركون من منبعه في رأس العين إلى مصبه شمال مدينة يافا.

في ١٥ تشرين الثاني نوفمبر ١٩١٧ نجحت قوات اللنبي في احتلال مدينة يافا، لكن القوات التركية صمدت على نهر العوجا. فرأى اللنبي أن يقوم بحركة التفافية متجاوزًا الدفاعات التركية واتجه بقواته شرقا إلى مدينة اللد فاحتلها واستأنف الزحف شرقا باتجاه القدس (٥٤).

سقوط القدس ٩ كانون الأول / ديسمبر ١٩١٧م

دخلت القوات البريطانية مشارف المدينة من جهة الغرب، تمامًا كالجيوش الصليبية عام ١٠٩٩م. وتكامل عددها في كانون الأول / ديسمبر ١٩١٧. فقام اللنبي بمهاجمة المدينة ثلاث مرات متتالية، وقد فشل الهجومان الأول والثاني بسبب:

---

(٥٣) הסטוריה של א"י אותו עמ' 45

(٥٤) Tibawi p249

أ. طبوغرافية المنطقة الجبلية الوعرة التي تعرقل المواصلات وتشكل صعوبات لوغستية.

ب. الظروف المناخية، فالوقت كان بداية فصل الشتاء والبرد قارس، وصبارة القر على أشدها في جبال المدينة.

ج. الإنهاك الشديد الذي أصاب القوات الغازية.

أما وضع القوات التركية المدافعة فلم يكن أحسن حالاً، فلقد عانت أكثر مما عانت منه القوات البريطانية من تردي أوضاعها حتى وصلت شفا الانهيار. وكان واضحًا أنها في طريقها إلى خسران المعركة وأنها سوف تقوم بإخلاء المدينة وتركها لقمة سائغة في فم البريطانيين إن عاجلاً أم آجلاً.

أما خط الدفاع عن القدس فكان في غاية الهشاشة والضعف، فإنه لم يزد عن خط واحد من الخنادق المحفورة حديثًا، وفي أرض كلسية طباشيريّة يكشف ترابها المستخرج حديثًا، ببياض لونه، خط التحصينات. بالإضافة إلى ذلك كانت المدينة تفتقر إلى الزاد والعتاد، كما أنها لم تجهز بمدافع الحصار الثقيلة.

أما الدفاعات البشرية فلم تزد عن فيلق واحد، هو الفيلق العشرون، بقيادة علي فؤاد باشا، الذي لم يكن مقتنعًا بإمكانية الصمود نظرًا لقلة عدد المدافعين، وسوء تزويدهم وتسليحهم وإنهاكهم ومعنوياتهم الهابطة ونقص المعدات والذخائر والمؤن وسوء التغذية وتردي الأوضاع الصحية فتساقطت الدفاعات كالورق الجاف في فصل الخريف.

في هذه الأوضاع المتردية للقوات التركية المدافعة بدأ اللنبي هجومه بعد أن تدفقت عليه نجدات بريطانية تمهيدًا لاقتحام المدينة [٥٥].

بدأ الهجوم الثالث من جهات الشمال والجنوب والغرب واستماتت الأتراك في الدفاع وكَبّدوا المهاجمين خسارة فادحة على الرغم من أوضاعهم الصعبة.

ويصف السكاكيني (م. س.) ص ١٧٣ الهجوم على المدينة من ناحية الغرب، كما يصف حالة الجنود فيقول: «لم ينقطع المطر وأنا أفكر بحالة المحاربين على قمم الجبال وفي بطون الأودية وراء مدافعهم. وكنت أذهب بالفكر من الجيش

(٥٥) دباغ ج١٠ ق٢ ص١٦٥-١٦٨

العثماني إلى الجيش الإنجليزي. اتصور الجندي الإنجليزي متدثرًا من رأسه إلى قدميه بالصوف والخيام المصلدة فكل حاجياته متوفرة بالقرب منه من طعام وشراب. وهو ممتلئ الجسم صحة وحياة. ثم اتصور الجندي العثماني جائعًا، رث الثياب، ممزق الحذاء ولا شيء يقيه من المطر والبرد، قائمًا في العراء وراء مدفعه يتقفف من البرد ويتضوّر من الجوع، فلا يجد غير كسر الخبز اليابس».

ويسجل السكاكيني (م. س.) ص ١٧١ الهجوم البريطاني على القدس وانهيار الدفاعات التركية فيقول: «استيقظنا على أصوات المدافع تدوي من بعيد، ولعلها من الجهة الغربية. ثم لم تلبث أن ظهرت طيارة من بعيد من الجهة التي تدوي بها أصوات المدافع. في الوقت ذاته ظهرت ثلاث طيارات في سماء القدس ووجهتها طريق نابلس.

مرّت كواكب كثيرة من الخيالة والهجّانة فذهبت في طريق جبل الزيتون ثم تركت الطريق واجتازت في الحقول إلى طريق نابلس.

.. . ومرت بنا عدة أيام ونحن لا نأكل غير الخبز والزيتون.

وعادت المدفعية فاشتدت بعد الظهر إلى هبوط الظلام. ويقال إن أهالي لفتة (قرية ملاصقة للقدس من جهة الغرب ز. ف.) كانوا يرون بريق المدافع ودخان القنابل والغبار الذي تثيره حين تنفجر منذ وقوعها، مما يدل على أن المعارك قريبة جدًا، ولكن استمرار المدفعية من الصباح إلى المساء يدل على ثبات المدافعين وشجاعتهم ومنعة مواقعهم».

وبعد يومين يسجل السكاكيني (م. س.) ص ١٧٤: «بعد فترة قصيرة عادت المدفعية ليلة أمس إلى الضرب، واستمرت الليل كله فكانت القنابل كأنها تنطلق عند أذني. وما إن لمع الفجر حتى أخذت تشتد، فصعدنا إلى الغرفة العليا وشاهدنا ما طالما سمعنا به أو رأيناه مصورًا في الجرائد الحربية. كنا نرى القنابل تتساقط بالقرب من قرية النبي صموئيل فيتصاعد دخانها كقطع الغيوم ويلمع شرارها. وبعضها كان يقع وراء الجبل».

يأس الأتراك من الصمود وقرّر القائد التركي الانسحاب، وقبل ذلك استدعى متصرف القدس عزت بك في ليلة السابع - الثامن من شهر كانون الأول /

ديسمبر ١٩١٧ ومفتي المدينة ورئيس لديتها بالوكالة حسين سليم الحسيني وكاشفهما بخطورة الوضع: فالجنود الإنجليز يطوقون المدينة ولا مفر من سقوطها بأيديهم. وقال لهم: «وأنا سأغادر المدينة بعد ربع ساعة وسألقي على عاتقكم هذا الحمل الأدبي الثقيل».

ثم عهد إليهم بحمل رسالة إلى قيادة الجيش البريطاني يقول فيها: «منذ يومين والقنابل تتساقط على القدس المقدسة، والحكومة التركية، حفاظًا منها على الأماكن الدينية من الخراب، قررت سحب عساكرنا من المدينة وإقامة موظف للمحافظة على الأماكن الدينية مثل كنيسة القيامة والمسجد الأقصى على أن تكون المعاملة من قبلكم أيضًا على هذا الوجه» [٥٦].

وانسحبت القوات التركية في طابورين: طابور عن طريق أريحا، والآخر عن طريق نابلس.

ويصف السكاكيني (م. س.) ص ١٧١ انسحاب القوات التركية « ولم يزل الجندي العثماني منذ الصباح إلى الآن (الساعة الثانية بعد الظهر) ينسحب إلى نابلس بخيله ورجاله وسياراته وعرباته وعِدده ومدافعه.

وفي الساعة ٩:٠٠ من صباح يوم الأحد ١٩١٧/١٢/٩م خرج رئيس البلدية ترافقه حاشية من أعيان المدينة يحملون راية بيضاء، كانت عبارة عن شرشف أبيض انتزع من المستشفى الطلياني في المدينة. والتقى الوفد بمجنزرة بريطانية متقدمة باتجاه القدس من جهة الغرب في مكان قرب قرية الشيخ بدر، فسلموها الراية وأعلنوا الاستسلام.

ولما تأكد البريطانيون أن القوات التركية قد انسحبت بالكامل دخلوا المدينة الساعة ١٠:٣٠ من صباح ذلك اليوم [٥٧].

وقد آثر اللنبي التأخر يومين كاملين خارج المدينة قبل دخولها. وفي ١١ كانون الأول / ديسمبر ١٩١٧م دخلها مترجلاً في زيه العسكري من باب الخليل أسوة بالمحتلين الصليبيين ورافقه قائدا الفرقتين الإيطالية والفرنسية والملحقان العسكريان: الفرنسي والإيطالي والملحق العسكري الأمريكي. ودخل معه كذلك

(٥٦) الخولي ص١٧

(٥٧) دباغ نفسه ص١٧٢

لورنس وهو بزي ضابط بريطاني، وليس باللباس العربي، وبصفته ضابطًا من قوات الأمير فيصل العربية [٥٨].

ويذكر أن الموقف المذكور خلا من أي تمثيل لقوات فيصل، وذلك استجابة لطلب كل من كلايتون، ووينغيت البريطانيين المتصهينين لأن ذلك يعني الاعتراف بشراكة القوات العربية في القتال والاحتلال والنصر. الأمر الذي يمنحها حقوقا عند تقاسم غنائم الحرب. وهذا يتناقض مع اتفاقية سايكس بيكو وتصريح بلفور [٥٩]. وقد أثار سقوط القدس بهذه السهولة الكثير من التساؤلات. ويذهب البعض إلى القول إن القيادة العسكرية الألمانية طلبت من قيصر ألمانيا فردريك وليم الثاني عدم تحويل المدينة إلى ساحة معارك وميدان قتال.

أما الأتراك فقد وافقوا على تجنيب المدينة شر القتال وآثروا تسليمها دون مقاومة تذكر.

توجه اللنبي بعد دخوله القدس إلى قلعة داود وأصدر منها بيانه الأول لسكان القدس والمنطقة باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والعبرية واليونانية والروسية. وللبيان أهمية عظمة لأنه تطرق إلى نقاط في غاية الخطورة وقدم التزامات باسم بريطانيا:

١- إخضاع المدينة للحكم العسكري وللأحكام العرفية.

٢- بيان سياسة الاحتلال العسكري البريطاني بالنسبة لفلسطين.

٣- تعهد الاحتلال البريطاني بالتزام سياسة «الوضع الراهن» خاصة تجاه الأماكن المقدسة [٦٠].

أما نص البيان فكان التالي:

«إن اندحار الأتراك أمام القوات البريطانية أدى إلى احتلال مدينتكم من قبل جيوشنا. وفي الوقت الذي أذيع فيه عليكم هذا البيان أعلن الأحكام العرفية وهي ستبقى سارية المفعول ما دامت ثمة ضرورة لذلك. ولئلا ينتابكم الفزع، كما انتابكم من الأتراك المنسحبين، أريد أن أخبركم أنني أرغب في أن أرى كل واحد

(٥٨) הסטוריה של א אותו עמ' 46

(٥٩) Tibawi A. L : Modern History of Syria pp 250-251

(٦٠) طنوس عزت، الفلسطينيون ص٥١

منكم قائمًا بعمله بموجب القانون، وأن لا يخشى أي تدخل من قبل أي من كان.
وفضلاً عن ذلك: بما أن مدينتكم محترمة في نظر أتباع الديانات الثلاث الكبرى.
وبما أن هذه المدينة قد أمنتها وكرستها جماهير الحجاج والأتقياء من أبناء الديانات الثلاث، عبر صلواتهم منذ قرون وأجيال فأني أعلن:
كل مكان مقدس وكل مكان أثري أو أية بقعة مقدسة أو أي مكان عبادة أو أي وقف أو أية وصية دينية أو أي مكان آخر جرى عليه العرف للصلاة أو ما شابه ذلك من معتقدات الديانات الثلاث، سوف يبقى على ما كان عليه: يحمى حسب الأعراف القائمة وحسب عقيدة أولئك الذين يؤمنون بقدسيتها»[٦١].

لقد كان هذا البيان التزامًا قطع باسم القوات البريطانية المسلحة تماشيًا مع الأنظمة والأعراف العسكرية الدولية المفروضة على المناطق المحتلة في أية بقعة من بقاع العالم: المحافظة على الوضع الراهن والامتناع عن اتخاذ أي إجراء قد يخل بذلك الوضع.

وبطبيعة الحال فإمّا أن اللنبي تجاهل الوعود المتناقضة، أو أنه لم يكن على علم بالوعود الممنوحة والتعهدات المقطوعة وبالمتاهات المضللة التي قطعتها حكومته والرامية إلى تغيير الوضع الراهن، مثل معاهدة سايكس بيكو وتصريح بلفور وما يتبع ذلك من تغييرات جغرافية سياسية وديموغرافية أساسية.

بعيد الاحتلال بدأ المحتل يكشف القناع عن وجهه القبيح ومكنوناته الحقيقية:
دعا اللنبي إلى حفلة التعارف التي أقامها في مقره بالقدس رئيس البلدية حسن سليم الخالدي ومفتيها كامل الحسيني وكبار رجال الدين المسلمين والمسيحيين ووجوه المدينة والمنطقة.
دخل المدعوون واللنبي، صاحب الدعوة، لم يصل بعد، وأخذ الجميع ينتظرون إطلالته.. في هذه الأثناء رفع العلم البريطاني، في وسط القلعة، دون رفع العلم العربي.
وكان اللنبي، حين دخل القدس قد رفع الأعلام البريطانية والفرنسية والإيطالية فقط.

(٦١) دباغ نفسه ص١٧٤-١٧٥

وأخيرًا، بعد طول انتظار، دخل القائد القلعة ممتطيًا صهوة جواده تحيطه ثلة من حرس الشرف الإنجليز، ويرافقه ضابط عربي للترجمة هو جبرائيل باشا.
لم يعتذر اللنبي عن التأخير، بل اقتحم القاعة وألقى التحية بغطرسة واستكبار وقال: «الآن انتهت الحروب الصليبية وإلى الأبد».[٦٢]
هنا انسحب رئيس البلدية احتجاجًا وتبعه العديد من الوجوه.
وكان تصرف اللنبي استهتارًا بالقوات العربية الحليفة التي تقاتل إلى جانب البريطانيين، كما إنه استهتار فاضح بفيصل وقواته، بالإضافة إلى إهانة ممثلي القدس ومنطقتها[٦٣].

ومع ذلك يجب الإشارة إلى أن كثيرًا من زعماء فلسطين ابتلعوا الإهانات وصمتوا صمت أهل القبور وتغاضوا عن الصفعات وكأنهم لا يرون ولا يسمعون ولا ينطقون.

ومن الغريب أنه حين أنشأت القوات البريطانية مكتبًا لتسجيل المتطوعين الذين يودون التطوع في جيش فيصل، حليف اللنبي، تبدّى الفتور وعدم الاستجابة للدعوة. ولم يتقدم للتطوع في جيش الاحتلال إلا قلة قليلة. وقام شاب من إحدى الأسر العربية العريقة وهو أمين الحسيني (الحاج أمين مفتى القدس ورئيس اللجنة العربية العليا لاحقًا) يجوب المدن والأرياف داعيًا للتطوع، إلا أن الاستجابة كانت ضعيفة هزيلة فلم يتجاوز عدد المتطوعين من كافة أرجاء فلسطين.. . الألفين فقط.

أما في الغرب فقد هللت الصحف بهذا النصر الصليبي العظيم فقد أصدرت صحيفة «التايمز» اللندنية عددًا خاصًا بمناسبة احتلال القدس الذي أسمته بيوم «خلاص القدس» ووصفت ذلك بأنه أعظم حدث في تاريخ المسيحية. وقد افتتحت عددها بمقال يشيد باحتلال اللنبي للمدينة وشبهته بفتح صلاح الدين وقالت: لقد دخل صلاح الدين القدس منتصرًا، كما فعل الجنرال اللنبي اليوم[٦٤].

(٦٢) الأحمد ص١٢٦
(٦٣) Tibawi p285
(٦٤) ibid p250

أما لويد جورج رئيس حكومة بريطانيا، فقد أصدر بيانًا في صحيفة «التايمز» في ٧ آب/ أغسطس ١٩١٩م قال فيه: لقد قاتل اللنبي وانتصر في أعظم انتصارات الصليبيين.

وفي لندن اعتبر البريطانيون حملة فتح فلسطين حملة صليبية جديدة رغم احتجاج المسلمين الهنود من سكان المدينة (٦٥).

وصمت عرب فلسطين وخرس عرب «الثورة العربية الكبرى» وكأن على رؤوسهم الطير!

سقوط النصف الشمالي من فلسطين

شباط / فبراير ١٩١٨م

بعد سقوط القدس بادرت القوات التركية إلى شن هجوم مضاد في منطقة الساحل في أواخر الشهر نفسه، ولكنه كان ضعيفًا فقد كانت القوات المهاجمة تعاني من نفس الأوضاع المزرية من النواحي: التسليحية والتموينية والصحية والتنظيمية القيادية والمعنوية فلا عجب أن يفشل ذلك الهجوم من قبل أن يبدأ.

وعاد اللنبي إلى القدس للاحتفال بعيد الميلاد وعيد رأس السنة الميلادية الجديدة.

وفي كانون الثاني / يناير ١٩١٨ قام بمحاولة لاحتلال عمان معتمدًا على مؤازرة مفرزة بدوية من جيش فيصل. غير أن الحملة فشلت لأن القوات العربية عجزت عن القيام بالدور المنوط بها. وعادت القوات البريطانية أدراجها إلى القدس (٦٦).

لزم اللنبي القدس حتى ١٥ شباط/ فبراير ١٩١٨ واستأنف بعدها هجومه العسكري لاحتلال النصف الشمالي من فلسطين الواقع شمالي خط عرض يافا - القدس، كان هدفه الأول في حملته الجديدة احتلال مدينة أريحا وقد نجح في ذلك.

ورأى أن يتوقف فيها ليثبّت خط انتشاره العسكري الممتد من يافا وارسوف على ساحل المتوسط في أقصى الغرب ثم يتجه شرقا مع مجرى نهر العوجا حتى

(٦٥) ibid p250

(٦٦) انطونيوس ص٣٣١

منابعه في رأس العين فصنجيل فجسر دامية في أقصى الشرق. وأصبح هذا الخط هو الفاصل بين قوات اللنبي التي ترابط جنوبه والقوات التركية المرابطة شماله.

وبدأت الاستعداد للهجوم الأخير لاحتلال شمال فلسطين، وفي هذا الباب أجريت في آذار / مارس ١٩١٨ تعيينات جديدة أساسية في القيادة التركية:

- وكان فالكنهاين قد توفى بعد سقوط القدس.
- أما أحمد جمال فتم إقصاؤه عن القيادة.
- وكرسنشتين نقل إلى جبهة القفقاس.

انتشار القوات المتحاربة

كان انتشار القوات المتحاربة استعدادًا للمعركة النهائية الحاسمة كالتالي:

- تعيين ليمان فون ساندرز قائدًا عامًا مكان المتوفى الجنرال فالكنهاين. وقد قام هذا بعملية تنقلات في قواته:

١. نقل مقره من دمشق إلى مدينة الناصرة في منطقة الجليل شمال فلسطين.

٢. عين قيادة أركان جديدة مكونة من:

أ- محمد جمال باشا (جمال الصغير) قائدًا للجيش الرابع « يلدرم».

ب- مصطفى كمال (أتاتورك - لاحقًا) قائدًا للجيش السابع.

ج- جواد باشا قائدًا للجيش السابع.

٣. قسّم البلاد السورية المتبقية تحت السيادة العثمانية إلى ثلاث مناطق:

أ- شمال سوريا وتشمل المنطقة الممتدة بين مدينتي دمشق - حلب. وتخضع للجيش التركي الثاني. ومركز قيادته مدينة حلب، ويتولى أمر الدفاع عن شمال سوريا.

ب- منطقة شرق الأردن وتواجه فيها جيشان:

الجيش الرابع «يلدرم» التركي ويقوده محمد جمال الصغير ومقره مدينة عمان، ويقابله قوات فيصل ومقرها مدينة معان كما ذكرنا.

ج- أما في فلسطين فكان الخط الفاصل يمتد من مدينة يافا الساحلية غربًا حتى جسر دامية على نهر الأردن شرقا. وقد انتشر على هذا الخط جيشان تركيان:

١) الجيش السابع ويقوده مصطفى كمال أتاتورك لاحقًا، ومقره مدينة نابلس

ويقابله الفيلق البريطاني العشرون كما ذكرنا.

٢) الجيش الثامن ويقوده جواد باشا ويغطي المنطقة الممتدة بين مدينـة طولكرم وساحل المتوسط ومقره مدينـة طولكرم. ويقابلـه من الجنوب الفيلـق البريطـاني الحادي والعشرون كما ذكرنا.

كانت قوات اللنبي المكونة من الفيلقين ٢٠ و٢١ تتـألف من ٨ فرق مشاة، و٤ فرق من الفرسـان من بينها لـواء فرنسي ومفرزة إيطاليـة صغيرة أما النسبة العددية بين القوتين فكانت ٢:١ لصالح البريطانيين (٦٧).

شرع المعسكران يضعان اللمسات الأخيرة استعدادًا لخوض المعركة النهائية:

أما الجانب التركي فكان أول ما قامت بـه القيادة الجديدة أن أتصل قائـدها محمد جمال بالأمير فيصل وعرض عليه:

١ ـ استقلال الوطن العربي مقابل العودة إلى أحضان الأم ـ الدولة التركية وإنهاء الثورة.

٢ ـ خلافة عربية عثمانية على غرار الإمبراطورية ثنائيـة القوميـة الإمبراطوريـة الأوستروهنغارية.

٣ ـ سحب القوات التركية المتموضعة جنوب مدينة عمان.

٤ ـ نقل الضباط العرب الذين يخدمون في القوات العثمانية إلى قوات فيصل (٦٨).

٥ ـ في حالـة اشتراك العرب فـي القتـال إلـى جانب الأتـراك فـإن القيـادة العربيـة تحتفظ باستقلالها.

٦ ـ تسليم جميع المستودعات والمؤن والعتاد الموجود في سوريا لقوات فيصل.

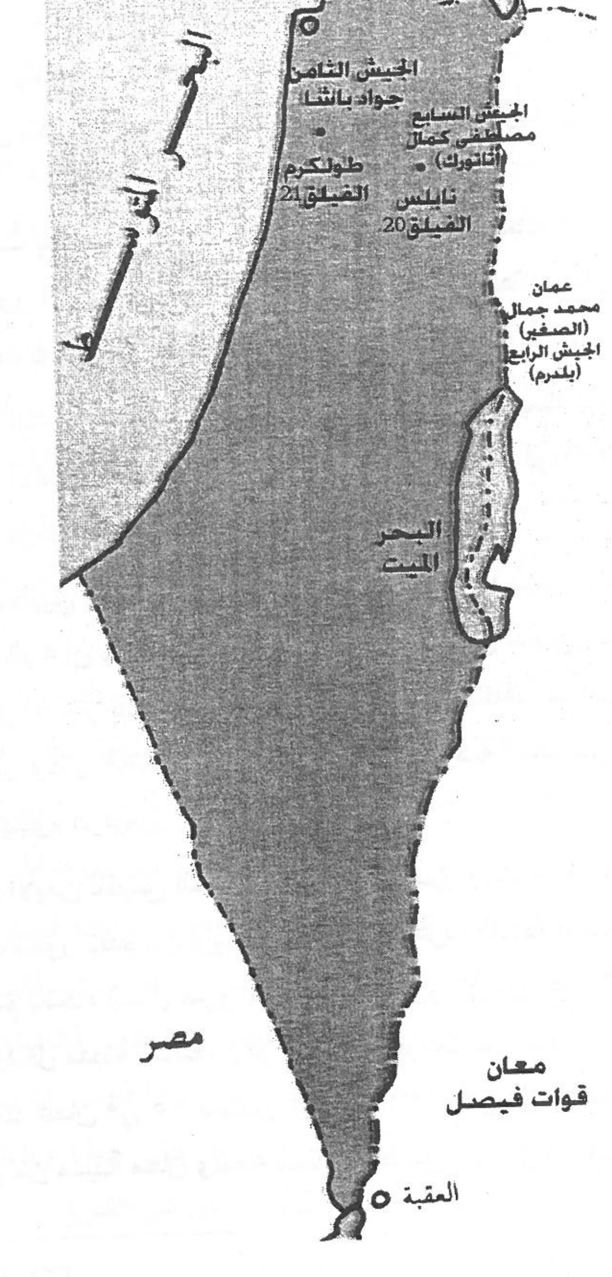
ولكن لورنس البريطاني، الـذي كـان مستشارًا لفيصل، وفـي الواقـع كـان صـاحب الأمر والنهي، علم بالاتصالات وأحبط مساعي التفاهم ومحاولات رأب الصدع.

أما قوات اللنبـي فقد أنهت استعداداتها وباتت على أهبـة الانطلاق شمال الخط الفاصل.

---

(٦٧) م. س ص٣٣٦

(٦٨) Tibawi p264



ـ انتشار القوات المتحاربة عشية احتلال القسم الشمالي من فلسطين ـ

وكان المخطط أن يبدأ الهجوم في ربيع ١٩١٨ ولكنه تأخر إلى خريف السنة المذكورة لأن اللنبي اضطر إلى تحويل فرقتين من قواته لإمداد الجبهة الأوروبية في فرنسا وأخذ يترقب وصول نجدات بشرية من الهند والعراق لسد النقص [٦٩].

على كل حال في صبيحة ١٩ أيلول / سبتمبر ١٩١٨م انطلق الهجوم البريطاني، بالنسبة لاحتلال المنطقة قضت الخطة العسكرية اقتحام البلاد بثلاثة محاور:

١- محور غربي يتقدم مع الساحل.

٢- محور شرقي يتقدم من مدينة أريحا باتجاه مدينة نابلس ويحاول شطر البلاد من وسطها.

٣- المحور الثالث بالنسبة لاحتلال شرق الأردن فقضت الخطة أن تنطلق قوات اللنبي باتجاه غور الأردن ثم تعبر إلى شرقي نهر الأردن لتحتل عمان. في الوقت ذاته تنطلق قوات فيصل من مدينة معان وتتقدم شمالاً باتجاه درعا فدمشق.

وقد قدر اللنبي أنه إذا لم يكتب للخطة النجاح الكامل فإنه يمكنها، على الأقل، استدراج القائد الألماني العام فون ساندرز إلى تحويل بعض قواته المرابطة في فلسطين لنجدة درعا فتضعف بذلك قواته المدافعة عنها.

بدأ اللنبي بالتطبيق الميداني ففتح هجومه بخدعة أراد بها أن يوهم القيادة التركية - الألمانية أن تتوقع الهجوم من الجناح الأيمن للفيلق العشرين على الجناح التركي الأيسر للجيش السابع المتمركز في منطقة نابلس تحت قيادة مصطفى كمال. وكان قصده إيهام الأتراك، في تحركه التضليلي هذا، أن هذا المحور هو الهجوم الرئيس.

انطلق الجناح الأيمن للفيلق العشرين البريطاني من أريحا متجهًا شمالاً وتقدّم بمحورين: ١- محور تقدم من أريحا باتجاه شمال غرب قاصدًا مدينة نابلس.

٢- محور تقدم باتجاه شمال شرق متوجهًا إلى غور الأردن فعبر النهر واخترق جبال مؤاب ودخل مدينة السلط، وهو يواجه صعوبات لوغستية - مناخية ثم تقدم القوات فاحتلت عمان في ٢٥ سبتمبر أيلول ١٩١٨. في ذلك الحين كانت قوات فيصل تنطلق من مدينة معان وتتجه شمالاً بخط مواز ومتزامن مع قوات اللنبي

(٦٩) انطونيوس ص٣٣٦

المتقدمة. نجحت قوات فيصل باحتلال درعة ومحطة سكة حديدها ذات الأهمية الإستراتيجية، فهي أخر مفرق طرق جنوب دمشق، ففصلت بذلك سوريا عن شرقي الأردن وفلسطين.

على كل حال لم تكن حركة المحورين المذكورين إلا حركة تضليلية، كما أسلفنا، لأن الهجوم الحقيقي كان من نصيب الفيلق الحادي والعشرين على الجناح الأيمن التركي - الجيش الثامن - المتمركز في مدينة طولكرم في المنطقة الواقعة بين تلال السامرة وشاطئ المتوسط.

فوجئ الجيش الثامن التركي بالحركة غير المتوقعة ودبت فيه الفوضى واضطر إلى الانسحاب العشوائي تاركًا خلفه السهل الساحلي، ذا الموقع الاستراتيجي، مكشوفًا غير محمي.

انتهز اللنبي فرصة البلبلة والاضطراب وتفكك القوات التركية فرمى بفرسانه الخيالة في الثغرة التي انفتحت. وفي أقل من ٢٤ ساعة كانت فرقة الخيالة قد شقت طريقها عن طريق الساحل بسهولة ويسر ووصلت منطقة مدينة الناصرة واحتلتها دون مقاومة في ٢٠ أيلول / سبتمبر ١٩١٨م، في حين كان القائد العام ليمان فون ساندرز وهيئة أركان حربه لا يزالون مشغولين بأمر الدفاع عن درعا وإمدادها بالنجدات والمعدات والذخائر.

من مدينة الناصرة، توجهت قوات الخيالة البريطانية فاحتلت العفولة، وهي بقعة استراتيجية تتوسط مرج ابن عامر، وتسيطر على المنطقة بأسرها وعلى وسط فلسطين وشمالها، وفيها محطة سكة الحديد، وهو الفرع الفلسطيني الذي يتفرع من سكة حديد الحجاز، فيمر في سمخ والعفولة وينتهي في حيفا.

استغلت القوات البريطانية فرصة انهيار الدفاعات التركية فسارعت في اليوم ذاته واحتلت مدينة بيسان وأصبحت بذلك تسيطر على ثلاث أضلاع المستطيل الفلسطيني الذي يشمل جنوب ووسط فلسطين وشمالها: فالضلع الجنوبي من المستطيل يمتد من يافا على البحر المتوسط إلى أريحا فجسر دامية في الشرق. أما الضلع الغربي فيمتد من ساحل البحر من يافا حتى حيفا. والضلع الشمالي، يمتد من حيفا في الغرب إلى بلدة سمخ نحو الأردن إلى الشرق.

وبذلك لم يبق مفتوحًا للقوات التركية إلا الضلع الرابع الممد من جسر دامية في الجنوب حتى جنوب بحيرة طبرية على طول غور الأردن في الشمال.

وقد تداركت قوات اللنبي هذه الثغرة فعملت على إغلاق كافة المسالك المؤدية إليها، في حين كان بقية الفيلق العشرين يتقدم بالمحورين المذكورين:

الأول باتجاه مدينة عمان في الشرق.

والثاني باتجاه مدينة نابلس والضلع المفتوح غربًا.

ونشبت المعركة الفاصلة بين فلول الجيشين السابع والثامن التركيين وقوات الفيلقين البريطانيين العشرين والحادي والعشرين في منطقة مجدو - اللجون وأسفرت عن هزيمة ساحقة نهائية للقوات التركية فتفرقت بين قتيل وجريح وأسير وشارد عشوائيًا هائمًا على وجهه باتجاه درعا.

وقد ذكرت مجلة «مساع احير» الشهرية في ملحق عددها الصادر في أيلول / سبتمبر ٢٠٠٥ أن هذه المعركة الفاصلة كانت أخر معارك سلاح الفرسان في التاريخ الحربي العالمي. وأإن ملك بريطانيا أنعم على اللنبي بلقب لورد مكافأة له على انتصاره وأمر أن يرفق بلقبه اسم مجدو ليصبح اللورد اللنبي لورد مجدو(٧٠).

وهكذا انتهى الوجود العثماني في فلسطين، وكانت النتيجة كارثية:

تم القضاء المبرم على جيشين تركيين هما السابع والثامن، وسلم جيشان هما الرابع «يلدرم» المرابط في شرقي الأردن والثاني المرابط في شمال سوريا. أما المحصلة النهائية للخسائر في ساحات القتال في فلسطين وحدها فكانت:

- أسر ٧٢ ألف جندي تركي و٤ آلاف جندي ألماني.
- خسارة ٣٦٠ مدفعًا والعديد من غنائم الحرب: آليات ومعدات وذخائر.

أما خسائر البريطانيين فبلغت ٨٥٣ قتيلاً و٤٤٨٢ جريحًا.

(٧٠) מסע אחר מטילים עמ' 45

سفر برلك *

أخي إن عاد يحرث أرضه الفلاح أو يزرع

ويبني، بعد طول الهجر كوخًا، هدّه المدفع

فقد جفت سواقينا وهدّ الذل مأوانا

ولم يترك لنا الأعداء غرسًا في أراضينا

سوى أجياف موتانا

ميخائيل نعيمة

مرَّ الوطن العربي خلال أربع سنوات الحرب في أتون مستعر، تحولت البلاد إلى ساحة حرب مدمرة تدوسها أقدام المتحاربين وتتركها خرابًا يبابًا وقاعًا صفصفًا. ولقد تجرعت الجماهير العربية في بلاد الشام والعراق الويلات والمصائب. وقد عم الخراب الشامل البلاد، ولكن أكثر المناطق تضررًا كانت فلسطين. وكان أفدح الأثمان تلك التي دفعها شعب فلسطين، فلقد تحولت بلاده إلى ساحة معارك أتت على الأخضر واليابس وأهلكت الزرع والضرع فلم تبق ولم تذر. واعتبر العامة أن هذه الكوارث ليست إلا سخطًا من الله وغضبًا ربانيًا ولا حيلة لهم في دفعه ولا يسعهم إلا الحوقلة والاستخارة والاستعاذة (٧١).

يمكن تصنيف الكوارث التي انصبت على المنطقة كالتالي:

١. ويلات الحصار البحري المفروض على المنطقة.
٢. ويلات الحرب.
٣. عسف الجهاز الحكومي.
٤. ويلات الكوارث الطبيعية.
٥. انتشار الأوبئة والأمراض.
٦. تردي الآداب العامة.
٧. المجاعة.

* كلمتان تركيتان ومعناهما النفير العام

(٧١) برغوثي وطوطح تاريخ فلسطين ص٢٧٤

١ـ الحصار البحري :

مع بداية الحرب فرضت دول الوفاق، خاصة بريطانيا، سيدة البحار حصارًا بحريًا محكمًا على شواطئ المنطقة. وقد تسبب ذلك في خنق الصادرات والواردات وساهم في تقويض الاقتصاد وتحطيم الصناعة والتجارة ورواج السوق السوداء، فتردت الأوضاع الاقتصادية والمعيشية إلى الدرك الأسفل، خاصة في السنتين الأخيريتين من الحرب.

ولعل أقدح الأضرار أصابت الزراعة في فلسطين، خصوصًا فرع الحمضيات الذي يعتمد على التصدير. فتركت معظم الثمار على أشجارها دون قطاف وتحولت منطقة زراعة الحمضيات بين مدينتي يافا وغزة إلى بيارات مبورة يلتهمها الشوك والدردار. أما المنتوج الزراعي فقد عانى الكساد والبوار، وتكدست الغلات الزراعية في عنابر التخزين.

٢ـ ويلات الحرب :

ساهمت الإجراءات والتدابير التي فرضتها السلطة على الشعب في تدمير البلاد وإفقار الناس. فبعد نشوب الحرب، ودخول تركيا فيها، أعلنت الحكومة النفير العام، «سفر برلك» وشرعت بعمليات مصادرة جميع ما يلزم الحكومة، وما هو موجود عند الأهالي من لباس ومأكل وحيوان ركوب أو عربة نقل [٧٢].

وفي حقيقة الأمر شعر الناس بالضائقة الاقتصادية حتى قبل دخول تركيا الحرب فيذكر السكاكيني (م. س) ص ٢٩٧ في يوميات ١٥ أيلول ١٩١٤ أي قبل دخول تركيا الحرب بشهر ونصف فقال: « قد علمتنا هذه الحرب العمومية الاقتصاد، بل التقتير. فإننا، منذ نشبت إلى اليوم الأخير أي منذ حوالي شهر ونصف، لم يتجاوز مصروفنا القرشين أو الثلاثة. فقد كانت تمر علينا أيام لا نأكل فيها غير الخبز والعنب والسلاطة. أما اللحم فلم يدخل دارنا».

وبعد أن دخلت الدولة الحرب منحت الأولوية للمجهود الحربي «ولا صوت يعلو على صوت المعركة» وقضت أن كافة موارد البلاد الاقتصادية والعسكرية وثرواتها الطبيعية يجب أن تكرس للقتال.

(٧٢) برغوثي وطوطح ص٢٧٤

ولا شك أن أخطر ما واجه سكان المنطقة من ويلات كان الواجب المفروض عليهم بإعالة القوات التركية المرابطة في المنطقة في الوقت الذي كانوا هم في أمس الحاجة إلى من يعليهم ويكفيهم قوت يومهم.

وزاد الوضع ترديًا أن تلك القوات كانت هزيلة التموين ضئيلة الإمداد خاصة المواد الغذائية وقد زاد من انهيار الأوضاع أن تلك القوات كانت تفتقر إلى الانضباط والطاعة.

وكانت باكورة المصائب تعيين أحمد جمال باشا قائدًا عسكريًا وحاكمًا عامًا للمنطقة بعد أن منحته الحكومة سلطات غير محدودة، فقام بإعلان الأحكام العرفية العسكرية والعمل بموجب أنظمة طوارئ.

ألغى مجلس الولايات والمحاكم المدينة والاستقلال الذتي(الأوتونوميا) للبنان الجبل، وحظر النشاطات السياسية. ثم أعلن نظام السخرة والتجنيد الإجباري.

وقد أدى تطبيق هذين النظامين إلى أفدح الأضرار.

فنظام السخرة ينص على تجنيد مواطنين بالقوة والإكراه للعمل المجاني في المشاريع العامة الحيوية للدولة. ويقول برغوتي وطوطح [٧٣]، وهما شاهدان على العصر، «عجزت الحكومة أن توصل الأرزاق والمعدات الحربية إلى الجند على ظهور الجمال في وقت الحاجة، فأمرت بإنشاء الطرق وجمعت ضعفاء الجنود والعجزة الذين لم يتمرنوا ولم يتدربوا على حمل السلاح، وأطلقت سجناء القدس وشكلت منهم طوابير «فرق عمل» وجهزتهم بما يلزم من الأدوات والآلات وأمّرت عليهم الضباط المتقاعدين، وجعلت بعضهم لتعبيد طرق العربات، وبعضهم لمد السكك الحديدية وإنشاء المؤسسات فمدوا طريق القطار من العفولة إلى بيرين جنوبي الحفير يقطعها الراكب في ثمانية أيام. وأوصلوا طرق العربات بكل مركز عسكري أو نقطة حربية. وداومت عملها حتى سئم الجنود وفروا فأجبرت الحكومة أهل القرى على تقديم عمال إليها».

- وقد عمل السخرة في شق الطرق وتعبيدها.
- حفر خنادق واستحكامات ودشم عسكرية.
- مد جسور وقناطر وغيرها.

(٧٣) م. س ص ص٢٧٩

أما «التجنيد الإجباري» فهو تجنيد مواطنين، بالأسلوب نفسه، للقوات المسلحة، ومن أجل تنفيذ هذا الأمر كانت قوات الجيش أو الدرك تغير على الأحياء السكنية وعلى القرى والدساكر وعلى الأماكن العامة مثل المقاهي والمضافات وتقوم بجمع المواطنين وتصنيفهم: فهذا للتجنيد العسكري (أعمار ٢٤-٣٥ ثم ٢١-٤٥ سنة ثم وسع المدى من ١٨-٥٠ سنة) أما الباقون فلأعمال السخرة.

بعد جمع الكتل البشرية كانت تحشر بوسائل النقل العامة، خاصة القطارات حيث يسفر المقبوض عليهم إلى أهدافهم وهي أماكن مجهولة لا يعرفها إلا الله.. . والمسئولون الأتراك. ولم يكن يعود من غربة السخرة والتجنيد إلا طويل العمر، «فالداخل مفقود والخارج مولود والناس فيهما دود على عود».

وكانت ظروف معيشة المجندين اليومية، والتطويح بهم من مكان لآخر في عربات نقل مكدسة بالكتل البشرية، لا تكاد تحتمل، فالأغذية غير متوفرة، والرعاية الصحية معدومة والأدوية والعقاقير والمطهرات من الكماليات المفقودة، والأعمال الجسدية منهكة وقاتلة.

كان مجندو السخرة يساقون كالسائمة من موقع لآخر وهم يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، حفاة عراة صيفًا وشتاءً، ليلاً ونهارًا وكان من المناظر المألوفة رؤيتهم يغسلون ثيابهم الوحيدة التي لا تكاد تستر عريهم، في القنوات ومجمعات المياه الجارية والراكدة ويبقون عراة في حمارة قيظ الصيف وصبّارة برد الشتاء [٧٤].

أما مجندو الجيش فلم يكن وضعهم أفضل. وكانت الحكومة قد أعلنت التجنيد الإجباري لمن تتراوح أعمارهم بين الرابعة والعشرين والخامسة والثلاثين. كان الجنود يتنقلون وأجسادهم تعلوها الجراح الغائرة والندب الزرقاء والأمراض الجلدية والجنسية.

أما ثيابهم وشعورهم فتعج بالطفيليات: كالقمل والبراغيث والبق. كانوا يتساقطون في ميادين القتال أو على قارعات الطرق، فمن يقتل أو يسقط أو يعجز عن إكمال السير يلق به فريسة هنيئًا مريئًا، للجوارح والضواري.

---

(٧٤) انطونيوس ص ١٩٩-٣٠٠

ويصف السكاكيني (م. س.) ص ١٥٨ حالة الجيش فيقول في مذكرات يوم ٧ آذار ١٩١٥: «لا يمر يوم إلا واستحكمت حلقات الضيق. الجنود في حالة يرثى لها من رثاثة الثياب وغثاثة المأكل. ويقال إن كثيرين يعترضون الناس في طريقهم ويطلبون إحسانهم ويطوفون على البيوت يطلبون أكلاً. وإذا قدم لهم طعام التهموه كان لهم أيامًا بدون أكل ويقال إن الذين يشتغلون في الطرق فهم لا يأكلون غير العدس بدون خبز وإن كثير منهم يفرون من الجوع».

وحتى في فترة مبكرة من القتل في يوميات ٢٠ ك١ سنة ١٩١٤ بعد دخول تركيا الحرب مباشرة نشرت إحدى المجلات الأوروبية صورة من حرب البلقان، وهي تمثل البلغار من ناحية والأتراك من ناحية أخرى (كلتا الدولتين: التركية والبلغارية كانتا تقاتلان في معسكر واحد هو معسكر دول المركز) زاحفين إلى ساحات القتال في معركة حاسمة. البلغار يسافرون في السكك الحديدية بينما الأتراك ينتقلون مشيًا على الأقدام. البلغار كانوا يركبون الخيول المطهمة، الكبيرة المدربة، أما الأتراك فكانوا يركبون خيول العربات التي جمعوها في العاصمة وغيرها، وهي خيول هزيلة ضعيفة صغيرة. وكان يرى حصان هذا بدون لجام وحصان ذاك بدون ركاب وحصان الثالث بدون سرج.

البلغار كانوا ينقلون مدافعهم وكل معدات القتال في السكك الحديدية والأوتومبيلات. أما الترك فكانوا ينقلونها على كارات تجرها الجواميس والثيران.. .. إلى أخر ما هنالك من فروق.

لم يكن أمام المجندين أي بصيص أمل في النجاة من الموت المحقق إلا بإحدى ثلاث طرق:

أ- دفع البدل أي إعفاء المواطن من الجندية إذا دفع بدلاً نقديًا مقداره ألفًا فرانك (٤٠ إسترلينية). فكانت العائلات تبيع أعز ما تملك: مصاغها، أثاثها، حيواناتها، أرضها لتدبير مبلغ البدل لإنقاذ عزيزها من موت محقق ومن ذهاب دون إياب.

ومن يدبر البدل ينج ومن يعجز يهلك.

ب- إلحاق العاهات المستديمة بالجسم. فكان المطلوب لخدمة العلم يلحق العاهة أو العجز الدائم بجسمه لينحو من الجندية، فالمصاب بعاهة أو عجز معفي من

الجندية، فكان البعض يطلق الناس على عضو من جسمه والآخر يبتر عضواً آخر.

ج- الفرار من الجندية قبل التجنيد أو بعده. وقد أطلق على هذه الظاهرة اسم «الفراري» فكان المطلوب للجندية يفر وينطلق هائمًا على وجهه في القفار والصحاري، والجبال والوديان والغابات والمغائر، ولا يعود إلى مسقط رأسه أو تنفرج الأزمة ويقضي «الله أمرًا كان مفعولاً».

٣ـ عسف الجهاز الحكومي:

تزامن مع هذه المصائب الحكم الدموي لأحمد جمال وزمرته، فقد أشرف على هذه السياسة ثالوث من الطواغيت الجبارين:

١ ـ أحمد جمال باشا رأس الهرم والقائد العام.

٢ ـ حسن بك قائد حامية مدينة يافا العسكري.

٣ ـ بهاء الدين قائم قام مدينة يافا ثم سكرتير الجيش (٧٥).

• ويليهم طاقم من الموظفين القساة غلاظ القلوب والرقاب.

وقد فرضوا جوًا إرهابيًا دمويًا على البلاد فأخضعوا الناس للمحاكم العرفية العسكرية فعلقوا المشانق ودكوا المعتقلات والسجون بالناس وأباحوا الاختطاف والتعذيب.

وتروى المصادر صنوفًا عجيبة غريبة في فنون وأساليب التعذيب مثل الوخز بالإبر، جَلد الرجلين بالفلقة إدخال بيض مسلوق شديد الحرارة تحت الإبطين، وأعمال اغتصاب وغيرها إلى حد محو غير المرغوب فيهم من الوجود.

أما « الديوان العرفي» فكان أشبه ما يكون بمحاكم التفتيش وهو مؤلف من مجلسين: هيئة تحقيقية ومحكمة عرفية. وكان عبارة عن جحيم وبلية للبشر. وأعضاؤه ضباط عسكريون تربوا عل سفك الدماء فهان عليهم القتل وسهل لديهم احتقار البشرية وآلامها.

كان في حكمه القضاء المبرم والموت العاجل، فإذا سيق المتهم إلى الهيئة التحقيقية استنطقه الضرب بالسوط وسائر أنواع التعذيب.

---

(٧٥) כהן עמ' 113

وأثناء كل ذلك لم يكن سيل الإهانة والإذلال ينقطع، فيعترف بالجرم المنسوب إليه، وإن لم يكن فاعله، لأن الموت العاجل أخف من العذاب.

ولم تلبث السلطة المذكورة أن أضافت عمليات ترانسفير « نقل سكاني» من مساقط الرؤوس إلى أماكن أخرى، ففي عام ١٩١٧ تم اقتلاع قسم كبير من سكان مدينة غزة وطردهم إلى مصر كما طرد قسم من سكان مدينة يافا.

أما سكان الساحل الفلسطيني فرحلوا إلى داخل البلاد خوفًا من أن يقيموا اتصالات مع العدو. وبعد ذلك انهمرت المصائب (٧٦).

ـ مضاعفة الضرائب القديمة وفرض ضرائب جديدة. الأمر الذي هد حيل المواطن وقوض كيانه وأوصله إلى حافة الإفلاس.

ـ إعالة القوات التركية المرابطة في سوريا. فكان على المواطنين أن يقوموا بإعالة هذه القوات ودفع نفقاتها والتكفل بمصاريفها وتأمين معيشتها.

وقد قدرت المصادر أنه كان على أربعة من المدنين أن يعملوا ليقوموا بتكاليف مجند واحد.

ـ سياسة المصادرات فقد شرع بتنفيذ مصادرات « لصالح المجهود الحربي » وقد عينت الحكومة لجانًا لجمع الذخيرة (المؤن. ز. ف.) فصاروا يطوفون الحوانيت ويأخذون منها ما أرادوا، ويجمعون الحيوانات والدواب والأرزاق ويقدرون الأثمان ويعطون لأصحاب السلع سندات ورقية بقيمتها (٧٧).

وقد صودرت وسائط النقل ودواب العمل والمواشي، والدواجن المنزلية. ويقدر طوطح والبرغوثي ما صودر: ما يربو على ٤٠ ألف جمل غير عجلات النقل وطوابير الحمير والبغال والحمالين وقسمتها إلى شعب وطوابير وأقوال (مجموعات) مرتبطة بعضها ببعض، وربطتها بمفتش ورقيب ألماني. فكانت هذه القوافل تسير من أقصى فلسطين إلى جوف الصحراء محملة بالأرزاق والآلات(٧٨).

---

(٧٦) برغوثي وطوطح ص٢٨٥

(٧٧) م. س ص٢٧٧

(٧٨) م. س ص٣٧٨

وقد اقتحم الجنود البيوت والمخازن وأفرغوها من مؤنها، ولم تسلم الأشجار الحرجية والأشجار المثمرة أيضًا من الأذى التركي، فتم قطعها لاستخدامها في مد السكك الحديدية وللوقود للآلة الحربية. فتحولت مناطق شاسعة من جنان خضراء إلى أرض قاحلة جرداء. وأخيرًا أضف إلى ذلك نهب الأموال وفرض العقوبات والغرامات الجماعية (٧٩).

ويصف السكاكيني (م. س) ص١١٥-١١٦ بعض المصادرات التي كان هو شاهد عيان عليها. ففي يوميات ٣١/ت١/١٩١٤ أخذت السلطات العسكرية تستولي على الدراجات «فلم يكن أحد يمر من باب الخليل (أحد بوابات مدينة القدس وتقع في الجهة الغربية من الصور) على دراجته إلا أنزلوه وأخذوها منه.

أما بالنسبة للمصارف فقد «ألقت الحكومة يدها على بنك كريديه ليونه والبنك الإنجليزي وغيرهما من المصارف الصغيرة التي تخص رعايا الروس أو الإنجليز أو الفرنسيين.

كما استولت الحكومة على السكك الحديدية بين القدس ويافا. كذلك استولت على المستشفيات الإنجليزية والفرنسية والروسية.

وأخلى الرهبان والراهبات الكاثوليك كل أديرتهم خارج المدينة، فوضعوا الرهبان في عمارة نوتردام والراهبات في الدار الجديدة «ووصل تردّي أوضاع الحكومة أن طلبت من الناس أن يقدم كل واحد منهم صندوق جاز فارغًا وصفيحتين فارغتين وكيس من الخيش (سكاكيني م. س. ص١٣١ يوميات ١٧/ت٢/١٩١٤).

٤. ويلات الكوارث الطبيعية

اكتملت حلقة المصائب بحلول سنوات عجاف أمحلت فيها السماء، وانحبست الأمطار، وعمَّ الجفاف، فأهلك الحيوانات والنباتات وحوّل الأخضر يابسًا.

فمع حلول سنة ١٩١٦ عمّت البلاد موجات شديدة من ارتفاع درجات الحرارة فأحرقت ما تبقى من المزروع والمغروس وأهلكت ما تبقى من الدواب والمواشي والدواجن (٨٠).

---

(٧٩) عن الأوضاع العامة زمن الحرب Friedric von herr Kressenstein : Mit den Turken zum Canal

(٨٠) زين ص١٢٠

وكان قد غزت البلاد في السنة السابقة ١٩١٥م أسراب كثيفة من الجراد غطت السماء وحجبت نور الشمس في رابعة النهار. وحطّ الجراد على الأرض وألقى بيضة في الأخاديد والقنوات والسهول والجبال. وفرخ البيض جيشا جديدًا غمر الوادي والسهل والجبل والبيوت والطرقات والأشجار والنباتات. والتهم الورق والنباتات وقشور الأشجار وأوراق الشجر الجافة وترك كل شيء أثرًا بعد عين.

وقد رحل في أخر السنة المذكورة ١٩١٥م ولكنه عاد ليظهر ثانية سنة ١٩١٦م.

وجاء في تقرير قنصل أمريكا نقلاً عن شاهد عيان من القدس، نكبت فلسطين سنة ١٩١٥م بجراد لم ير الجيل الحاضر مثيلاً له في كثافة أسرابه، فقد غطى الحقول وامتد إلى أسوار القدس فكان منظر الشارع الواقع أمام القنصلية الأمريكية، وجيوش الجراد السوداء الخضراء زاحفة كمنظر نهر جار.

وفى أوائل ١٩١٦م الحكومة لجنة لمكافحة الجراد بإدارة د. هارون اهرنسون مدير محطة التجارب الخاصة باليهود. وأصدرت أمرا يقضى على كل ذكر من السكان من سن ١٥-١٦ سنة أن يجمع ٢٠ كغم من الجراد أو يدفع بدلاً قدره ليرة عثمانية. ولكن ذلك لم يجدِ نفعا (٨١).

أما طوطح وبرغوثى (٨٢) فيقولان : لم يكفِ الناس ما حل بهم من البلايا حتى فاض عليهم طوفان من الجراد فأكل الزرع والأثمار ورعى العشب وقشر الأشجار ثم غرس في الأرض وباض وفرخ. فاستعد السكان لدفعه وقاوموه (٨٣).

ولكن حاولوا عبثًا، فانتشر ثانية زاحفًا في الأرض وطائرًا في الفضاء لا يأتي على شيء إلا ذهب به، ففزعت الحكومة وعينت جنودًا ومأمورين ملكيين حكوميين لتلافى ضرره، وكلفوا أهل البلاد بإتلافه فعجزوا عن رد غائلته، وفى الحقيقة أن من كان يراه سابحًا على الأرض يتوهم أنها مادت به أو أن هناك بحرًا رجراجًا فتضعضعت الحالة الاقتصادية وساءت الحركة التجارية فزاد البلاد واشتد الفقر وقحطت الأرض وقاسى الفقير الويل والعذاب ولم يترك الجراد إلا الرمال والتراب والصخور. لقد خيل للجميع أن يدًا ربانية تعمل لإهلاك الحرث والضرع، والنتيجة..

---

(٨١) دباغ نفسه ص١٦١

(٨٢) م. س ص١٦١

(٨٣) م. س ص٢٨٢

٥. انتشار الأوبئة والأمراض :

نتيجة لسوء التغذية وانعدام الرعاية الصحية والخدمات الطبية ووسائل الوقاية. وقد ساهم على انتشار الأمراض المعدية والأوبئة تنقلها مع الجيش، بالإضافة إلى ذلك سوء، أو انعدام شبكات تصريف المياه فانتشر التيفوس والجدري والزُهري والكوليرا. (٨٤)

٦. تردى الآداب العامة:

ونتيجة لكل هذه الأوضاع لا نعجب من انحطاط الأخلاق العامة وانتشار الفساد والموبقات وتجارة الرقيق الأبيض، مما دفع برغوثى وطوطح إلى القول إنهما: « زهدا من الحياة، فإنهم نحروا الفضيلة وأقاموا الرذيلة وتبذلوا مفتخرين بالعيوب والمساوئ».

«وقد ازداد الوضع تردياً مع قدوم الجنود الألمان والنمساويين الذين كانوا أحط منا وأجرأ على ارتكاب الموبقات فحوقلنا ومقتنا أعمالهم وأخلاقهم المنحطة وسلوكهم الحيواني».

«وكانت ثالثة الأسافى قدوم الجيوش الإنجليزية بعد الاحتلال وهى مزيج من عناصر الأرض فوجدناها أدنى وأحط، فلا عيب تتوقاه ولا حرام تأباه».

٧. المجاعة :

اختفت المواد التموينية الأساسية من الأسواق وارتفعت الأسعار وراجت السوق السوداء، وقد استغل تجار السوء الاحتكاريون الضائقة فحولوا البضائع والسلع إلى مخازنهم، بعد أن ملأوا جيوب المسئولين بذهب الرشاوى وباعوها بالغلاء(٨٥). ويقول البرغوثى وطوطح (٨٦): «أعلن النفير العام فانقطعت الواردات الخارجية وغلت أيدي أهالي فلسطين ودخلوا في الجندية فأهملت الأرض وقلت الحاصلات (الغلات ز. ف). لا سيما أن الحكومة أخذت تجبى ضرائبها عيناً، فتأخذ من الغلال حصتها وتشترى ثلاثة أضعافها. وزاد مع ذلك ظلم المأمورين

(٨٤) מקרים עמ' 86
(٨٥) انطونيوس ص ض ٢٩٩-٣٠٠
(٨٦) طوطح برغوثي ص٢٨٣

وتقديرهم الكمية بأكثر مما هي. ولم تقف أيضًا عند هذا الحد، بل صادرت جميع الحاصلات وعينت لكل فرد من الأهالي منونته وبذاره فقط، واحتكرت البقية فسنم الزارع ومل الصانع وفرغ حانوت التاجر، فعمت الطامة وحلّت المصيبة وارتفعت الأسعار أربعة أضعافها وتعددت حوانيت الأثاث المستعمل. فصار كل محتاج يعرض ما لديه ليبيعه بثمن بخس يشترى به قوتًا لعائلته الجائعة.

وعظمت الرزايا بهبوط أسعار الورق النقدي، فإن الليرة العثمانية نزلت إلى ١٨ قرشًا (٨٧). أي أقل من ٥% من قيمتها الأصلية. وقد صوّر شهود عيان، بمن فيهم سفراء وقناصل أجانب ومسئولون غربيون وصحفيون، الأوضاع الرهيبة في شتى أنحاء البلاد خاصة في لبنان.

وكان من آثار المجاعة وانتشار الأوبئة والأمراض في لبنان أن تفشت ظاهرة جديدة هي هجر قرى كاملة وارتحال أهلها عنها تاركينها قرى أشباح وإطلالاً ينعق فيها الغراب والبوم، وكان المرتحلون يهيمون على وجوههم، وهم سائرون، حفاة عراة، على الأقدام، يتساقطون على قارعات الطرق دون أن يروهم أحد، حتى ولا نساؤهم وأطفالهم الساغبون الجائعون.

وقد ذكر أحد المصادر وهو يقتبس شهادة مقيم أمريكي ذي شأن حين انطلق في تموز ١٩١٧، في رحلة استغرقت يومين في لبنان بصحبة رئيس الصليب الأحمر الأمريكي، قال: «في بيروت زرنا بيوتا في العديد من القرى وتفقدناها بيتا بيتًا.. . وكانت المناظر مما يعجز عنه الوصف، رأينا عائلات تتلوى من آلام الجوع المبرح، وهى ملقاة على المصاطب الحجرية العارية في أكواخها البائسة.

كنا نسمع الأنات من طرف الحي إلى طرفه الآخر. لقد باع هؤلاء كل قطعة من أثاث بيوتهم ليبتاعوا الخبز وفى كثير من الأحيان نزعوا أجر السقوف لمثل ذلك أيضًا (٨٨). كانت مئات المنازل التي مات أصحابها خالية آلية للسقوط.

أما القنصل الأمريكي العام فقد أرسل في مذكرة إلى حكومته في ١٥ تموز يوليو ١٩١٦: «حالة الفقراء في هذا البلد (لبنان ز. ف) تستثير الحزن والأسى

(٨٧) انطونيوس ص٣٤٤
(٨٨) انطونيوس ص٣٤٤

والرثاء، فالشوارع مكتظة بأطفال ونساء جياع. الحكومة صماء عمياء متبلدة الأحاسيس إزاء آلام ومعاناة هؤلاء المساكين الغلابة. ثم أنها لا تسمح للصليب الأحمر الأمريكي بمد يد العون لهم، وكثيرًا ما شاهدت خلال تجوالي في أوقات الأصائل جثث الموتى ملقاة على قارعات الطرق»

ووردت برقية من القائم بالأعمال الأمريكية في تركيا إلى وزير خارجية بلاده من أيار/مايو ١٩١٦ :

«يبدو أن الأتراك ينهجون سياسة التتريك في سوريا والولايات المجاورة، ويقال إنه ألقى القبض على وجهاء من المسلمين والمسيحيين وألقى بهم في غياهب السجون. وحكم عليهم بالإعدام وقيل أن الحجة التي تذرع بها الأتراك لمعاقبة رعاياهم العرب في سوريا هي أن العرب لا يدينون بالولاء للدولة، وأنهم عقدوا اجتماعات سرية في مصر وفى أماكن أخرى ليبحثوا أمر فصل سوريا عن الدولة، ويتخذوا التدابير الكفيلة بتحقيق هذا الأمر»(٨٩).

وتقرير آخر صادر عن الحاكم العسكري البريطاني الجديد ستورز في كانون الثاني/يناير ١٩١٨ أي بعد احتلال القدس يقول فيه:

«وصل النقص في الأغذية إلى حد المجاعة!. جماهير من الكتل النسائية العربية مزقن ثيابهم ليكشفن عن عظامهن المعروفة البارزة تحت جلودهن، وهن يتجمهرن أمام مكتبي ويأخذن في الصياح والعويل والنحيب. كما أنني شاهدت أطفالاً منتفخي البطون والأعضاء بسبب سوء التغذية» (٩٠).

أما الصحافة العالمية فلم تتوان عن كشف الصورة الرهيبة.

صحيفة التايمز نشرت مقالاً في عدد ١٢ آب/أغسطس١٩١٦ بقلم مراسل محايد موضوعي غادر سوريا في السنة المذكورة : «إن حالة الأهالي في سوريا لا تكاد تصدق.. هنا يتعرض المسلمون الناطقون باللغة العربية لإرهاب جديد ويقدر عدد اللذين قضت عليهم المجاعة في شمال سوريا فقط بين ٦٠-٨٠ ألفًا»(٩١).

(٨٩) م. س ص٣٠٠

(٩٠) מוריס עמ' 86

(٩١) انطونيوس ص٣٠٠

وبعد شهور كتبت الصحيفة نفسها في عددها الصادر بتاريخ ١٨ أيلول / سبتمبر ١٩١٧ بقلم سيدة أمريكية كانت تعيش في بيروت وغادرتها في السنة ذاتها أيضًا : « في حقيقة الأمر بدأت حالات الجوع تظهر قبل حلول الربيع وقد وجد ناس مطرحين في الشوارع وقد غاب وعيهم ونقلوا إلى المستشفيات. لقد مررنا بنساء وأطفال لقي على جوانب الطرق وعيونهم مغمغمة ووجوههم شاحبة ترهقها صفرة الموت. وكم كنا نجد أناسًا يبحثون في أكوام القمامة عن العظام وقشور البرتقال وغيرها من الفضلات ليأكلوها إن وجدوها، وفى كل مكان كانت النساء يشاهدن وهن يبحثن في جوانب الطرقات عن جذور وأعشاب تصلح للأكل من الحشائش النامية على مدى الطرقات» (٩٢).

ولعل أكثر التقارير مصداقية ما كتبه شاهد من أهلها. وهو القائد العام الألماني ڤون كرسنتشين نفسه فقال : «إن القائد التركي مصطفى كمال أرسل مذكرة إلى القيادة العامة للقوات التركية مؤرخة في أيلول/سبتمبر ١٩١٧م يصف فيها الأوضاع العامة فيقول : «إن كافة الاتصالات بين الشعب والحكومة في سوريا قد انقطعت والشعب لم يتبق منه إلا النساء والمعوقون والأطفال، وهم مقتنعون أن الحكومة هي التي دفعت بعم إلى أحضان الفاقة والعوز والموت».

وأضاف : «الحياة العامة مشلولة تعمها الفوضى. إن كل إجراء تقوم به الحكومة لا يزيد إلا الكراهية والحقد. إن جميع عناصر الجهاز البيروقراطي فاسدة مرتشية. أما الجهاز الاقتصادي فقد تفوض، وجهاز الأمن قد انهار وقوات الشرطة لم تعد قادرة على القيام بواجبها.

الاقتصاد انهار أيضًا، والمواطنون لا يبدون أي نوع من التفاؤل ولا يرون أي بصيص أمل يلوح في الأفق البعيد. أن غريزة حب البقاء دفعت بالبعض حتى أكثر الناس طهارة واستقامة وأمانة، إلى الابتعاد عن الفضيلة والتخطي عن كل فكرة سامية شريفة.

«إن كل شيء يتحطم ويتهشم إلى شظايا متناثرة» (٩٣).

(٩٢) م. س ص٣٠١

(٩٣) صحيفة هارتس سس عدد١٨ سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٤

ومع تزايد التذمر تزايد القمع، والقيادة العامة تقرر إبقاء نصف الفرق المقاتلة في المؤخرة لقمع أية بادرة تمرد محتملة.

ومع عودة بعض المجندين العرب للأوطان من جبهات القتال أخذوا يجنحون للاتجاه المعارض الناقم. وبدأت بوادر التململ وعدم الارتياح تعم أوساطهم وكثيرا ما انعكس الأمر في عصيان الأوامر وحالات عدم انضباط عسكري.

وشعرت قوات عربية من الجيش تتظاهر بالمدن السورية والعراقية، خاصة في مدينتي النجف وكربلاء وكان رد فعل القيادة التركية أن أرسلت خيرة الفرق العربية العاملة في الجيش التركي إلى أخطر المواقع في مهمات شبه انتحارية.

وكان من نتائج هذا الوضع الرهيب أن بلغ عدد من ماتوا من الجوع خلال سنتين في لبنان وحدها لا يقل عن ١٢٠ ألف، ومجموع من ماتوا جوعًا في سائر أرجاء سوريا في السنوات الثلاث الأخيرة من الحرب تراوح من ٣٠٠٠-٣٥٠ ألف نسمة أي ١٠٪ من مجموع عدد السكان. أما مجموع من اختفوا بسبب الجوع ومن المفقودين والقتلى فبلغ نصف مليون نسمة من أصل ٤ ملايين هم مجموع عدد السكان أي نسبة ١٢. ٥٪

والنتيجة في فلسطين تناقص عدد السكان إلى ٦٧٥ ألف نسمة منهم ٥٢٧ ألف نسمة، منهم ٧ آلاف درزي، ٨١ ألف مسيحي، ٦٠ ألف يهودي [٩٤].

في سنة ١٩١٨ تناقص العدد إلى ٦١٨ ألف نسمة من بينهم ٧٠ألف مسيحي عربي و٥٩ ألف يهودي.

مع ذلك لم يسارع العرب بمعاداة الدولة. ولم يعلنوها ثورة عارمة شاملة، فقسم كبير من السكان كان لا يزال يؤمن بالجامعة الإسلامية، حتى وإن كفرت حكومتها وسلطتها الحاكمة ورجالاتها بهذا المبدأ وتنكرت له.

من الناحية الأخرى لم تكن الأغلبية العظمى من الشعب العربي تؤمن بصدق نوايا دول الوفاق خاصة بريطانيا وفرنسا، بل كان هناك شبه إجماع بأن انتصار تلك الدول يؤدى إلى تمزيق الوطن العربي وتفتيت وحدته وكيانه. والنتيجة أن جماهير الشعب العربي لم تتخل عن ولائها للدولة ولم تعلن أية مجموعة أو

(٩٤) מוריס עמ' 86

شريحة سكانية عداءها للدولة وتسارع إلى الارتماء في أحضان الحلفاء. وحين تسامع الناس بثورة الشريف قابلوها بالوجوم والصمت المطبق ولم يسارع معظمهم إلى الانضمام إليها أو المجاهرة بتأييدها.

لقد كان هذا وضع العرب في فترة الحرب.. فكيف كان وضع اليشوف اليهودي في فلسطين والحركة الصهيونية العالمية ؟

اليشوف اليهودي والحركة الصهيونية العالمية في فترة الحرب

مع دخول تركيا الحرب سارع زعماء اليشوف اليهودي إلى الإعلان عن تأييدهم وتعاطفهم مع الدولة التركية، وقاموا بشجب وإدانته دول الوفاق، وكان ذلك ظاهريا فقط. لقد كان رجالات اليشوف يعلمون أن أي تحرك معادٍ للدولة سوف يثير غضب القيادة التركية فتصب جام غضبها عليهم. كان شعارهم «دارهم ما دمت في دارهم». أما قيادة الحركة الصهيونية العالمية فكان أن تتعامل مع مشكلتين رئيستين يتوقف عليهما - مصير اليشوف.

المشكلة الأولى : كيف تتعامل مع اليشوف اليهودي في فلسطين وتعمل على تخفيف ضائقته؟

والمشكلة الثانية : كيف تتعامل مع الأطراف المتحاربة؟ والى أي من المعسكرين تنحاز ؟

حالة اليشوف في فترة الحرب

إن المحن والويلات التي حلت بفلسطين في فترة الحرب عمت العرب. كما عمت اليشوف اليهودي. فلقد عانى كلا الوسطين من المصائب المشتركة. نقص المواد الغذائية - التموينية - البطالة - الكساد، تردى الأوضاع الصحية - عبء الضرائب - أعمال السخرة والتجنيد الإجباري.. . الخ.

إلا أنه يمكن القول، ومن البداية، أن معاناة اليشوف اليهودي كانت أخف بكثير من معاناة العرب، وذلك للأسباب التالية:

١. تداعي الجاليات اليهودية في أرجاء العالم لمساعدة اليشوف في محنته.

٢. تداعي الدول التي تقيم علاقات طيبة أو الحليفة للدولة العثمانية لتخفيف

ضائقة اليشوف والحد من معاناته. فالعديد من عناصر ذلك اليشوف كانوا مواطنين لدول أجنبية يتمتعون بالحماية والرعاية في ظل اتفاقيات.

٣. التنظيم الداخلي لليشوف، فلقد تم إنشاء هيئات ومؤسسات وجمعيات عامة وتعاونيات هدفت جميعها إلى تقديم المساعدة والدعم.

بدأت ضائقة اليشوف مع نشوب الحرب وتعيين أحمد جمال باشا «قائدًا» عامًا للمنطقة. وكانت الشكوك والمخاوف تراود السلطة العثمانية ورجالاتها من اليشوف، فمعظم عناصره من أصل روسي وروسيا من أعدى أعداء الدولة

كانت إحدى المصائب الأولى التي حلت باليشوف انقطاع الإمدادات الأوروبية وتوقف الدعم المادي والبشرى. وقد أوصدت أبواب الصادرات والواردات، وأقفلت معظم الحوانيت والمتاجر والمشاغل (٩٥).

ثم تلا ذلك قدوم أحمد جمال باشا حاكمًا، ومع وصوله سارع إلى دعوة للاجتماع مع ممثلي اليشوف، وقد تركهم ينتظرون أياما على أعصابهم قبل أن يأذن لهم بالمقابلة، ووجه إليهم التهم التالية:

١. إقامة محاكم يهودية خاصة مستقلة عن المحاكم العثمانية.

٢. التمسك بجنسياتهم الأجنبية.

٣. التداول بالعملات الأجنبية، والتخلي عن التعامل النقد العثماني المتداول، وقد أتهم بنك أنجلو ـ فلسطين(٩٦). اليهودي بالترويج لهذه العملات. وقد سارع بإصدار أوامره بحظر الأوراق النقدية التي أصدرها البنك المذكور.

٤. استعمال رموز قومية يهودية مثل : العلم، النشيد، وطوابع البريد.

٥. سلب أراضى عربية وتحوليها لملكية يهودية.

٦. اقتلاع الفلاحين العرب من الأراضي التي تم الاستيلاء عليها من قبل الحركة ومؤسساتها.

٧. طرد العمال العرب من أماكن عملهم.

٨. استخفاف واستهتار بالدولة، بسلطاتها ومؤسساتها.

---

(٩٥) אותו עמ' 87

(٩٦) בנק אפיק

٩. استعمال ألقاب أجنبية غير تركية.

١٠. تبني مناهج تدريس بروح قومية يهودية معادية للدولة، والتدريس باللغة العبرية.

١١. إقامة مؤسسات حكم ذاتي وسلطات تنفيذية مستقلة.

١٢. محاولة اقتطاع فلسطين وبترها عن جسم الدولة (٩٧).

وقبل أن يأمر بفض الاجتماع أصدر أوامره:

١- حظر استعمال اللغات الأجنبية في المراسلات (معظم اليهود كانوا يتراسلون بالايديش) وقصر المراسلات على اللغة التركية فقط.

٢- حظر انتقال الأراضي من ملكية عربية لملكية يهودية.

٣- وجوب التدريس باللغة التركية في المدارس اليهودية.

٤- حظر المحاكم والمؤسسات اليهودية.

٥- حظر رفع العلم اليهودي والشعارات والرموز القومية اليهودية.

٦- حظر أي نشاط عسكري، أو شبه عسكري يهودي.

٧- إلغاء استعمال دفاتر الطابور الداخلية الخاصة باليهود.

٨- حل جميع الشركات، بما فيها الدينية غير المسجلة بموجب قانون الشركات العثماني.

٩- حظر حمل السلاح واستعماله وتسليم أسلحة اليشوف للسلطات.

ثم أنهى الاجتماع بالإعراب عن نيته تسفير بعض الزعماء اليهود للعاصمة اسطنبول للمثول أما المحكمة العسكرية. وأبلغ الحاضرين بنفي ١٥ من مجموع ٣٢ منهم إلى مدينة طبرية لمدة ١١ يوما.

وفى ١٧ تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٤ أصدر أمرًا حكوميًا بطرد اليهود من رعايا الدول الأجنبية التي هي في حالة حرب مع الدولة.

وقد أوعز إلى بهاء الدين حاكم يافا المشهور، بإلقاء القبض على اليهود الأجانب وشحنهم على سفن إيطالية من ميناء يافا إلى الإسكندرية في مصر، وقد بلغ عدد

---

(٩٧) כהן ע' 114

المطرودين ٧٠٠ نسمة. وقد تطوعت الولايات المتحدة الأمريكية بتسهيل عملية النقل، فأرسلت السفينة الحربية «تنسي» وشرعت بنقل اليهود من يافا إلى الإسكندرية[٩٨].

وفى أواخر سنة ١٩١٥ بلغ مجموع هدد المطرودين اليهود ١٢٣٠٠ نسمة وانخفض عدد اليشوف من ٨٥ ألفا إلى حوالي ٦٠ ألفا. أما الخبير الدميوغرافي للشئون الفلسطينية غاستو ماك كارتى[٩٩] فيقول إن هذا العدد مبالغ فيه. وهو يقدر عدد المطرودين اليهود من ٣-٤ آلاف نسمة.

بعد ذلك تحول أحمد جلال لمطاردة زعماء الحركة ورموزها.

وقد كتب السكاكينى في ك ١٩١٥٢ (م. س.) ص ١٤٨ «إنه في اليوم المذكور أصدر جمال باشا إعلانًا يهدد فيه الصهيونيين إذا لم يدفعوا للحكومة الأعلام الصهيونية والبول (طوابع البريد ز. ف.) التي يتعاطونها في مدة ١٥ يومًا، وإلا فمن وجد معه شيء من ذلك يعدم رميًا بالرصاص.

وكذلك يأمرهم بإلغاء حراسهم ومحافظيهم وجمعياتهم. لقد بلغني أنه قال للحاخام باشي اليهودي إنه سيفتح فلسطين قبل أن يفتح مصر. وقد فهمت أن هذه السياسة مبنية على قرار الجمعية (الاتحاد والترقي ز. ف.) ويقصد بها اصطناع العرب وتألفهم. ففي شباط/فبراير ١٩١٥ تم اعتقال أبرز الزعماء:

مانيا وإسرائيل شوحط / دافيد بن غورين / إسحق بن تسفى ... وغيرهم.

ثم أصدر أوامره بنفي آخرين.

وفى حقيقة الأمر بدأت الضائقة تشتد على اليشوف مع اشتداد الحرب. فبالإضافة إلى تشكك الحكومة في ولاء اليهود والصهيونيين في البلاد، خسر الدعامتين اللتين كان يعتمد عليهما وهما:

١. المساعدات والتبرعات الاقتصادية ليهود الخارج خاصة يهود أوروبا والولايات المتحدة.

٢. انقطاع تدفق المهاجرين اليهود خصوصًا من روسيا التي كانت تشكل الخزان البشرى الرئيسي للهجرة اليهودية.

---

(٩٨) אותו ע' 113

(٩٩) General Mc. Carhthy

وحلت أخيرًا الضربة القاسية للاقتصاد اليهودي (والعربي أيضًا) بإيقاف تصدير الحمضيات الفلسطينية. وتلا ذلك إقفال المصارف.

ويمكن تلخيص هذه الجزئية الاقتصادية بأن الأضرار التي أصابت اليشوف كانت أقسى من الأضرار التي أصابت الاقتصاد العربي الفلسطيني، لأن الأول كان أكثر تطورًا واعتمادًا للوسائل العصرية في التعامل والاقتراض والتصدير. فقد كان مرتبطًا باقتصاد الدول الأوروبية الذي استوعب المنتوج الزراعي من الحمضيات الذي بلغ ٥ ملايين فرنك فرنسي (كل ٢٥ فرنك يساوى جنية إسترليني واحد) ومن النبيذ الذي بلغ مباعه ٢ مليون فرنك بالإضافة إلى صادراته من اللوز.

استشعرت الصهيونية العالمية بالمخاطر التي تطبق على اليشوف اليهودي في فلسطين في فترة الحرب، فسارعت إلى مديد المساعدة والعون. وقد تمثل ذلك في صعيدين:

١- صعيد التدخل لدى السلطات العثمانية لتخفيف ضائقة اليشوف وحمايته من أي اعتداء وتعسف. وقد جندت في هذا السبيل كافة الدول التي تقيم علاقات مع الدولة العثمانية. وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية. والدول المتحالفة مثل ألمانيا.

٢- صعيد الدعم بالمعونات والمساعدات المادية والعينية، في سبيل المحافظة على سلامة اليشوف وأمنه وضمان بقائه واستمراريته.

ولم تلبث أن أنشئت صناديق المعونات اليهودية وأهمها : «لجنة صناديق المعونة»[١٠٠]، «اللجنة لتخفيف الضائقة» [١٠١].

وأخذت هاتان المنظمتان تحولان الأموال والمعونات إلى مدينة يافا أول الأمر، ثم عممتاها لتشمل لاحقًا كافة قطاعات اليشوف. وقد شمل ذلك النشاط.

١. تنظيم يهود الولايات المتحدة. وكان اليشوف قد سارع مستصرخًا وطالبًا النجدة من الولايات المتحدة بالذات لأنها كانت حتى حينه دولة محايدة غير مشتركة في الحرب والعلاقات بين واشنطن واسطنبول على خير ما يكون.

---

(١٠٠) ועדת קופת העזרב המאמריקאית

(١٠١) הועד להקלת המשבר

٢. جمع الأموال من شتى المصادر من تبرعات واشتراكات وتحويلها لليشوف.

٣. تجنيد القناصل الأجانب : الأمريكيين والأوروبيين لخدمة اليشوف. فبعد إغلاق القنصليات البريطانية وحليفاتها بسبب الحرب حلت محلها الحماية القنصلية الأمريكية والألمانية.

وقد بلغ مجموع ما تسلمه اليشوف اليهودي في فلسطين خلال الحرب من المعونات اليهودية العالمية المنهمرة نصف مليون دولار أمريكي.

ويذكر في هذا المجال أن سفير الولايات المتحدة في اسطنبول مورغنتاو، وهو يهودي غير صهيوني، حول مبلغ ٥٠ ألف دولار أمريكي كان قد جمعها من الولايات المتحدة لصالح اليشوف. وأوصل المبلغ بسفينة «نورث كاورلينا»(١٠٢) التي كانت مبحرة إلى فلسطين وهي ترفع العلم الأمريكي. وسلمه إلى القيادة الصهيونية لتوزعها على اليشوف. وكانت هذه دفعة واحدة من مجموعة دفعات التي أرسلت لليشوف وبلغت ١,٢٥ مليون دولار.

كذلك نجحت الحركة في تخفيف القيود والملاحقات. فتم إيقاف عمليات طرد اليهود من رعايا الدول الأجنبية. كما نجحت في إقالة العدو اللدود لليشوف بهاء الدين حاكم يافا فنقل من منصبه ليشغل منصب سكرتير جمال باشا.

ولم يكن دعم الصهيونية لليشوف اليهودي في فلسطين أثناء الحرب هو العامل الوحيد لبقائه، فإن التنظيم الداخلي كان كفيلاً هو أيضًا بالمحافظة عليه وضمان استمراريته (١٠٣).

■ **التنظيم الداخلي لليشوف**

بعد أن تلقى اليشوف الصدمة الأولى من تعيين أحمد جمال باشا حاكمًا عامًا أخذ يستوعب إجراءات ذلك الحاكم.

ويقول بار زوهر (م. س.) ص٥٢: إن جمال باشا ضرب الحركة القومية العربية وشنق بعض القادة الغرب في بيروت. وبعد ذلك حان دور الحركة الصهيونية في أرض إسرائيل ـ فلسطين (ز. ف.). وقد قرر جمال باشا أن غالبية اليهود في

(١٠٢) North Carolina

(١٠٣) כהן עמ' 115

أرض إسرائيل هم صهيونيون، والصهاينة أعداء تركيا. وكل من تواجد لديه هوية صهيونية سيعدم. بعد ذلك جاءت الاعتقالات وتم التحقيق مع بن غوريون وبن تسفي مطولاً حول علاقاتهم مع الحركة الصهيونية العالمية، بعد ذلك بوقت قصير أصدر ضدهم أمر طرد من الإمبراطورية العثمانية.

وقد رأى اليشوف أن العوامل الضاغطة عليه وزادت من ضائقته كانت على مستويين، عوامل سياسية داخلية وعوامل خارجية. لم يكن الوضع يبشر بالخير. وكانت الصورة تزداد قاتمة وسلبية. فالحصار البحري الذي فرضته دول الوفاق على شواطئ البلاد حال دون الاستيراد والتصدير، فانقطعت التجارة مع أوروبا وتوقفت الصادرات الزراعية. وكانت النتيجة أن الثمار والبضاعة تكدست في الأسواق المحلية وتركت دون قطاف على أشجارها. الأمر الذي جر في أعقابه البطالة والكساد وإغلاق المتاجر والحوانيت والمشاغل(١٠٤).

وقد فاقم أيضًا من الضائقة الاقتصادية تجميد وسائل الدفع الحكومية. فقد أعلنت الحكومة مع بداية الحرب عن فترة موريتاريوم، أي تأجيل دفع كافة الديون والالتزامات والمستحقات المالية الحكومية، فانهارت تبعًا لذلك شبكة المعاملات المالية واختفت السيولة النقدية وتوقفت المعاملات المصرفية وشبكة التسليف وحلقت الأسعار وتدهورت قيمة العملة إلى الحضيض واختفت المواد التموينية والغذائية، خاصة الخبز، وراجت السوق السوداء.

ويضيف بار زوهر (م. س.) ص٥٢ واصفًا حالة اليشوف اليهودي مع دخول الدولة العثمانية الحرب فكتب: «في البلاد مثل أمامهم مشهد من الانهيار واليأس فقد انضمت تركيا للحرب إلى جانب ألمانيا العنصرية، وامتد الخوف والارتباك والضائقة إلى أوساط الاستيطان اليهودي. وكان هناك من هرب بالسفن والقطارات إلى مصر وأوروبا، فقد فرض الأتراك المتشككون قيودًا جديدة على الاستيطان اليهودي فصادروا السلاح وجمعوا جزية كبيرة وبدأوا يطردون اليهود ذوي الجنسيات الأجنبية من البلاد ووقف المشروع الصهيوني أمام خطر الفناء».

(١٠٤) אותו עמ' 112

على كل حال لم يقف اليشوف مكتوف الأيدي إزاء هذه الأوضاع الخطيرة فلقد شمّر عن ساعديه وسارع إلى تنظيم نفسه داخليًا للصمود في وجه العاصفة، ومحاولة اجتيازها بسلام.

بدأ اليشوف ينشئ الهيئات والمؤسسات والجمعيات والتعاونيات التي تهدف إلى تقديم العون والمساعدة خصوصًا في قطاع التموين والتغذية، فأنشأ شركة مساهمة اسمها «همشبير» [١٠٥](المزوّد) لتزويد الأغذية، وكان المبادر للمشروع منير روتنبرغ.

بعد ذلك رأى اليشوف انتهاج سياسة المصانعة والمسايرة والمداراة مع الدولة، فلقد قررت زعامته الانحناء في وجه العاصفة وسعت إلى تقرب من رجال الحكم ومحاولة كسب ودهم ورضاهم وتعاطفهم، فأعلنت الولاء المطلق للدولة وأبدت استعدادها للانخراط في المجهود الحربي، خصوصًا وأن العدو المشترك لليشوف وللدولة هو روسيا.

على كل حال يمكن تلخيص وضع اليشوف اليهودي في فلسطين في فترة الحرب أنه لم يكن متردیًا في الحضيض، ولم يصل إلى الدرك الأسفل الذي وصل إليه العرب فلذلك لا نعجب أنه حتى في تلك الأوضاع القائمة نجحت الحركة الصهيونية في إنشاء أربع مستوطنات يهودية جديدة:

١ ـ ايليت هشاحر

٢ ـ تل حي

٣ ـ الحماره

٤ ـ كفار جلعادي [١٠٦].

وجميعها في أقصى الجليل الأعلى، شمالي فلسطين على الحدود اللبنانية.

ومما ساعد اليشوف على المناورة أن الحركة الصهيونية العالمية، لم تكن قد أعلنت انحيازها السافر إلى أحد المعسكرين.

(١٠٥) המשביר

(١٠٦) איילת השחר תמרה כפר גלעדי

بعد أن اطمأنت الحركة الصهيونية على سلامة اليشوف في فلسطين تحولت لاتخاذ قرارها بشأن الانضمام إلى أحد المعسكرين.. وكان يتنازع الحركة تيّاران:

١ ـ تيار يميل إلى الانحياز إلى جانب ألمانيا ودول المركز. وكان دعاته يهود ألمانيا ويهود الولايات المتحدة المنحدرين من أصل ألماني. وكان هؤلاء يشكلون الأغلبية داخل المجلس الصهيوني العام الذي كانت تسوده اللغة والثقافة الألمانيتان. وكان الصهيونيون الألمان يكنون العداء المرير لروسيا فوجدوا بذلك مبررًا للتعاون مع المحور الألماني والتحالف معه للحصول على امتيازات واسعة ثمنًا له. وقد بذل هذا التيار مساعيه لجر الولايات المتحدة إلى جانب ألمانيا في الحرب الصهيونية مطالبها. وعلى هذا الأساس بعثت الحكومة الألمانية في بداية الحرب. بتعليمات إلى سفيرها في اسطنبول للتدخل من أجل فتح بنك «أنجلو ـ فلسطين». كما سعت إلى ثني السلطات العثمانية عن قرارها ترحيل اليهود الروس من فلسطين.

بالإضافة إلى ذلك ساهم النفوذ الألماني في العاصمة اسطنبول في حماية الجالية اليهودية من أية إجراءات قمعية محتملة، أو على الأقل التخفيف منها.

ولم تكد تمضي سنة على الحرب حتى نجح الصهيونيون الألمان في التوصل إلى اتفاق مع ألمانيا أعربت بموجبه الحكومة عن تعاطفها مع النشاط الصهيوني الذي يهدف إلى تحسين أحوال اليهود الاقتصادية، ويؤمن تقدمهم الثقافي في تركيا. كما أن الحكومة الألمانية أعلنت أنها تنظر بعين العطف إلى استيطان وهجرة يهودية في فلسطين.

واستمرت الجهود الصهيونية للحصول على وعد ألماني بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. إلا أنه من المؤكد أن خطاب موفنتاو في مدينة سنسناتي الأمريكية الذي جاء فيه أنه بالإمكان تأمين ترتيبات لابتياع فلسطين من الأتراك لصالح اليهود بعد انتهاء الحرب. قد أثار غضب السلطات التركية.

ويذكر أن اقتراب اليهود الألمان من النجاح في الحصول على وعد ألماني بوطن قومي لليهود في فلسطين كان من جملة العوامل الضاغطة على حكومة بريطانيا لإصدار تصريح بلفور لاحقًا [١٠٧].

(١٠٧) كيالي ص٩٥ و رشتاين وعد بلفور ص٢١٢-٢١٣

٢ـ أما التيار الآخر، فهو تيار الأقلية، فيرى الانحياز إلى بريطانيا ودول الوفاق في الحرب، وكان يتزعم هذا التيار شاب صهيوني واعد، متحمس هو الدكتور حاييم وايزمان. وقد رأى بثاقب بصيرته وفهمه أن ميزان القوى العالمية يرجح كفة بريطانيا وحلفائها في الحرب، فدعا إلى الانحياز إلى هذا المحور واستبدال محور برلين ـ اسطنبول بمحور القدس ـ لندن. وكان يرى أن موقع الحركة الصهيونية هو إلى جانب هذا المحور خاصة في سنوات ما بعد الحرب، في مهرجان اقتسام غنائم الحرب.

وقد لاقت مهمته ومسعاه طريقًا سالكة ممهدة. فمنذ سنوات ١٩١٥-١٩١٦ المبكرة وجد لغة مشتركة وتفاهمًا مشجعًا مع حكومة الظل البريطانية بزعامة لويد جورج، وأبرز رموزها ارثور بلفور واللورد روتشيلد.

وقد ساعد هذا التوجه ورجاحة كفة التيار المذكور على حل مشكلة اليهود القاطنين في إنجلترا المنحدرين من أصل روسي وقد بلغ عددهم ٢٥ ألفًا. فقد طلبت روسيا القيصرية من رعاياها المنتشرين في دول الوفاق المسارعة للانخراط في جيوش الدول التي يعيشون فيها، لكن هذه الدعوة جوبهت بالفتور والرفض من قبل يهود روسيا القاطنين في إنجلترا، ولكن بعد الثورة الروسية في منتصف ١٩١٧ التي سبقت ثورة أكتوبر الشيوعية تم عقد صفقة بين الحكومة الروسية برئاسة كيرنسكي والحكومة البريطانية تمت بموجبها تسوية قضية تجنيد يهود إنجلترا من الروس القاطنين في بريطانيا في أعمال خيرية، الأمر الذي أتاح الدفعة النهائية لفوز تيار وايزمان في هذا الصراع، وانحازت الحركة إلى جانب دول الوفاق.

وكان أول ثمرة من ثمار رجحان كفة هذا التيار نقل مقر الحركة من برلين إلى كوبنهاجن. وقد تجندت الحركة الصهيونية إلى يمين دول الوفاق على ٣ أصعدة:

١ـ الصعيد السياسي.

٢ـ الصعيد العسكري.

٣ـ الصعيد التجسسي.

١ـ الصعيد السياسي:

فعلى الصعيد السياسي المذكورة توجت جهود الحركة بالمشروع الكبير: جر الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحرب إلى جانب دول الوفاق وضد دول المركز. وكانت المكافأة التي دفعتها بريطانيا للحركة تصريح بلفور.

٢ـ الصعيد العسكري:

لم يقتصر النشاط الصهيوني عند حدود العمل السياسي، بل تعداه إلى النشاط العسكري والتجسسي [١٠٨].

فعلى الصعيد العسكري كان باكورة التفكير بهذا الاتجاه دعوة زئيف جبوتنسكي [١٠٩] منظر الصهيونية التصحيحية وزعيمها إلى تشكيل قوة يهودية تقاتل مع دول الوفاق.

ويقول بار زوهر (م. س.) ص٣٣٩ أنه «في لندن والقاهرة دعا زعماء صهيونيون كوايزمن وجبيوتنسكي يهود البلاد إلى الوقوف مع دول الحلفاء (الوفاق ز. ف.) برئاسة إنجلترا وفرنسا. وقد عارض بن غوريون وبن تسفي بكل قوة هذه الدعوة، فقد تأثروا وإلى حد ما بأن أحد أعضاء معسكر الحلفاء هي روسيا العنصرية اللاسامية وصاحبة المذابح المنظمة كما أنهما خشيا بصورة رئيسية أن يقوم الأتراك بالعربدة ضد اليهود في أرض إسرائيل (فلسطين ز. ف.) ويقتلونهم»».

ولكن زعامة اليشوف في فلسطين خشيت من هذه الخطوة وعدّتها تسرعًا سابقًا لأوانه، فتحفظت من الدعوة خوفًا من ردود فعل تركية غاضبة قد تؤدي باليشوف إلى مهاوي الهلاك، فأسقطتها وحالت دون تنفيذها.

لم يستسلم جبوتنسكي فسافر سنة ١٩١٤ إلى مصر محاولاً إقامة كتائب عبرية [١١٠] من اليهود الذين فروا من فلسطين والتجنوا إلى مصر، وهناك التقى الضابط اليهودي الروسي الفار من الجيش القيصري يوسف ترومبلدور ١٨٨٠ـ

---

(١٠٨) شوفاني ص٣٥٩

(١٠٩) זאב גיבוטנסקי

(١١٠) גידודים עבריים

١٩٢٠م [١١١]. الذي كان قد امتاز في القتال في الحرب الروسية اليابانية، وثم هاجر إلى فلسطين سنة ١٩١٢. وتجنس بالجنسية العثمانية في محاولة للحيلولة دون طرده من البلاد. وكان قد قدم إلى مصر عارضًا خدماته على الجيش البريطاني المقاتل في جبهة السويس.

بدأ الاثنان يجندان متطوعين من أولئك اليهود الذين لجأوا إلى مصر، ويقول بار زوهر (م. س) ص٥٣ أن كليهما «ترومبلدور وجبيوتنسكي» كان حازمًا في رأيه بإقامة فيلق يهودي مقاتل ينضم للجيش البريطاني. وقد حلم جبيوتنسكي بجيش من المقاتلين العبريين يحرر البلاد من الأتراك. وسبب له البريطانيون خيبة أمل جديدة عندما لم يوافقوا إلا على إقامة وحدة مقاتلة هي «كتيبة قادة البغالة» [١١٢] ترسل إلى جبهة الدردنيل، فرفض جبيوتنسكي الفكرة بغضب، لكن ترومبلدور لم يكن كذلك حيث اعتبر مجرد إقامة وحدة عسكرية يهودية في نظره إنجازًا هامًا حتى وإن لم تحارب ولم ترسل إلى جبهة القتال في أرض إسرائيل (فلسطين ز.ف).

والجدير بالذكر أن بن غوريون وبن تسفي عارضا ترومبلدور في رأيه لأن تجنيد عشرات الآلاف من اليهود في البلاد قد يؤدي إلى خراب اليشوف. وقد نجحا في نهاية الأمر في إقامة وحدة عسكرية تعمل في إطار القوات البريطانية هي وحدة البغالة (وحدة سائقي البغال) تحت قيادة الكولونيل البريطاني بترسون [١١٣] ونائبه ترومبلدور. وبلغ عدد عناصر هذه الوحدة ٦٠٠ عنصر من اليهود، وأرسلت الوحدة إلى غاليبوني على مضيق الدردنيل في مهمة لوغستية: نقل الذخائر والمؤن والمعدات إلى الجبهة على ظهور البغال تمهيدًا لعملية الإنزال العسكري.

وبعد فشل الحملة حلت الوحدة وألحقت بإحدى الكتائب البريطانية بعد أن انتقل قسم من عناصرها إلى الهند وآخرون إلى لندن، وبقي بعضهم في مصر ودخلوا فلسطين مع القوات البريطانية الغازية.

استمرّ جبوتنسكي في مجهوده لإقامة قوّة عسكرية يهودية ضمن القوات

(١١١) יוסף טרמפלדור

(١١٢) יחידת נהגי הפרדות Zion mule crops

(١١٣) Peterson

البريطانية فسافر إلى إيطاليا ليعرض خدماته لكنه جوبه بالرفض. فتوجه إلى بريطانيا ليواصل مساعيه لكن معارضة اليشوف في فلسطين اشتدت ضد مشاريعه العسكرية. وقد ساندهم في ذلك يهود ألمانيا. تابع جبوتنسكي ضغوطه في الاتجاه المذكور ونجح في نهاية الأمر بمساعدة وزير الداخلية البريطاني اليهودي الصهيوني هربرت صموئيل. في إقامة:

- «كتيبة القناصة الملكية ٣٨» التي أقيمت في لندن آب/أغسطس ١٩١٧ تحت قيادة الكولونيل بترسون وانتقلت إلى فلسطين عبر فرنسا فمصر وشاركت في حملة الجنرال اللنبي في احتلال البلاد. وكانت مؤلفة من كتيبتين بلغ مجموع عناصرها ٢٥ ألف متطوع.

- «كتيبة القناصة الملكية ٣٩» من المتطوعين اليهود الأمريكيين. وقد ساعد في إقامتها كل من دافيد بن غوريون، واسحق بن تسفي اللذين كانا قد طردا من فلسطين ولجأ إلى الولايات المتحدة الأمريكية في كانون الثاني يناير ١٩١٨م.

بالإضافة إلى ذلك تشكلت وحدة عسكرية يهودية إضافية في فلسطين بعد احتلال اللنبي جنوب فلسطين في ١٩١٧م. إذ قام قائد الوحدة الاسكتلندي الجنرال هيل بعرض الفكرة على اليشوف فقبلوها. والياهو غولومب من أبرز زعماء الهاجاناة لاحقًا.

بعد أن تشكلت الوحدة في فلسطين نقلت إلى مصر ولم تدخلها إلا بعد انتهاء الحرب.

٣ـ الصعيد التجسسي :

في خريف ١٩١٧ اكتشفت السلطات التركية شبه تجسس يهودية اسمها «نيلي» [١١٤] تعمل لصالح «العدو» (دول الوفاق).

وكانت الشبكة قد بدأت نشاطها التجسسي في ربيع ١٩١٥م حين أنشأ مؤسساها «أهرون أهرنسون وأبشالوم فاينبرغ» شبكة تجسس في فلسطين وكان مركزها مستوطنة زخرون يعقوب. وقد تمكنت من تزويد القوات البريطانية بمعلومات في غاية السرية والخطورة عن انتشار القوات المسلحة التركية والحامية الألمانية

(١١٤) נילי – وهي مختصر للكلمات נצח ישראל לא ישקר أي رب إسرائيل لا يكذب

وتشكيلاتها ومعسكراتها وتسليحها وخطط دفاعها ومواطن الضعف فيها، وقد تم اختيار عناصر الشبكة من غلاة المتطرفين اليهود الصهيونيين. وكان أهرون هذا من أصدقاء القائد العام أحمد جمال وموضع ثقته ومحط أسراره فعهد إليه بمنصب مدير «دائرة مكافحة الجراد» في سوريا ومركزها «محطة التجارب الزراعية» في عتليت على شاطئ البحر الأبيض المتوسط جنوب مدينة حيفا وغربي زخرون يعقوب.

وقد كانت السلطات التركية قد منحت تلك المحطة وأراضيها للحركة الصهيونية إكرامًا للصداقة الحميمة التي تربط أهرون بجمال.

بدأ أهرون يجوب البلاد من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها ضمن إطار عمله. وأثناء تجواله يدأب على جمع المعلومات السرية، من أوائل أيلول سبتمبر ١٩١٥م. ويرسلها إلى مصر عن طريق خليتي اتصال:

الأولى بواسطة زميله فاينبرغ (١١٥).

الثانية بقناة تديرها شقيقته سارة.

وكانت المعلومات ترسل مشفرة إلى السفير الأمريكي في اسطنبول، وهذا بدوره يحولها إلى الاستخبارات العسكرية البريطانية في القاهرة.

عشية سنة ١٩١٧م غادر أهرون فلسطين والتحق بالقيادة البريطانية في مصر ومن هناك أخذ يدير عمليات التجسس التي توسعت وشملت نواح عديدة أهمها:

- النشاطات التجسسية المتعلقة بالقوات التركية والحامية الألمانية.
- تحويل الأموال الطائلة التي كان يدفعها البريطانيون لليشوف حيث يتم توزيعها.
- شن حرب أعصاب على القوات التركية وتقويض معنوياتها.
- إثارة موجات من الشائعات والشكوك والمبالغات والأكاذيب عن أعمال وتنكيل يقوم بها الأتراك، والغرض من ذلك إثارة حفيظة العرب وتحريضهم على الأتراك.

في سنة ١٩١٧م انكشفت الشبكة وتم ضبطها بعد سلسلة من الحوادث:

- أولها مصرع فاينبرغ على يد مسلحين، عند محاولته عبور الحدود الفلسطينية إلى سيناء في منطقة رفح للوصول إلى القوات البريطانية الأمر الذي فتح عيون

(١١٥) פינברג

السلطات ودعاها إلى التحقيق والملاحقة.

- ثانيها في أوائل أيلول/سبتمبر ١٩١٧ م وقعت بيد السلطات التركية حمامة زاجلة كانت في طريقها إلى مصر وهى تحمل رسالة مشفرة.
- وثالثها في أواخر الشهر نفسه ألقى القبض على نعمان بليقاند(١١٦) أحد عناصر الشبكة وهو يحاول العبور للخطوط البريطانية في منطقة النقب، وفي التحقيق انهار وكشف الشبكة وعناصرها وأسرارها، وبعد ساعات في أوائل تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٧م، فرضت السلطات طوقا محكمًا على زخرون يعقوب وألقت القبض على عناصر الشبكة وعلى رأسهم سارة.

أثناء التحقيق انتحرت سارة، أما بليقاند وشخص آخر اسمه يوسف ليشنسكي(١١٧) فقد حوكما واعدما شنقًا في دمشق.

وآخرهم أهرون قتل في حادث سقوط طائرته في ظروف غامضة فوق بحر المانش أثناء رحلة جوية من باريس إلى لندن. وكانت تلك نهاية الشبكة، أما زعماء اليشوف فقد سارعوا إلى التنصل منها وإنكارها واستنكارها وأعلنوا براءتهم منها براءة الذنب من دم يوسف.

(١١٦) בליקנד

(١١٧) לישנסקי

الفصل الثاني عشر

الثورة العربية الكبرى

٥ حزيران / يونيو ١٩١٦م

العرب وقود للمدافع

"يداك أوكتا، وفوك نفخ!"

(من الأمثال العربية القديمة،
ويضرب لمن يجلب الهلاك على نفسه)

رأت بريطانيا أنه في سبيل تحقيق أهدافها، لابد لها من إيجاد حليف عربي من المنطقة وعلى هذا الأساس بدأت الاتصالات البريطانية الهاشمية قبل الحرب سنة ١٩١٣ واستمرت أكثر من سنتين أخريين تقرر فيهما مصير المنطقة بعد مفاوضات ومداولات سرية وفي الغرف المغلقة وقد وصف اسكويث، رئيس الحكومة البريطانية تلك المداولات بأنها أشبه «بعصابات القراصنة».

أعلن الشريف حسين بن علي الثورة على الدولة العثمانية في الخامس من حزيران ١٩١٦م حين كانت هذه مشتبكة بالقتال مع أعدائها من دول الوفاق. وقد أطلق على تلك الثورة «الثورة العربية الكبرى» ومن المؤكد أن التسمية واسعة فضفاضة أكبر من مقاس الثورة المذكورة، فهي أقل شأنًا وأصغر حجمًا من أن تكون «ثورة عربية كبرى». فإنها لم تكن كسائر الثورات الشعبية ذات بناء هرمي متدرج من الأسفل إلى الأعلى أو من القاعدة العريضة إلى قمة الهرم والقيادة وإنما كانت ثورة حبكت، ودبرت، ونسجت، وخطط لها ونفذت من الأعلى بناء على شبه تفاهم سرابي سري بين بريطانيا العظمى من ناحية والشريف حسين ومعه بعض النخب القومية العربية من الناحية الأخرى.

والثورة لم تتسم بالطابع القومي ولم تشمل طبقات واسعة عريضة من جماهير الشعب العربي في المنطقة، كما لم تشارك بها المدن والقرى. ولم تستجب لها الأرياف والحضر والبدو، ولم تنضم إليها وحدات عسكرية كانت تقاتل في صفوف القوات التركية. وإنما اقتصرت على بعض القبائل من الحجاز وشرقي الأردن وسوريا. وقد ساندتها بعض السفن العسكرية البريطانية التي كانت تجوب مياه البحر الأحمر. كما ساعدها بعض المستشارين العسكريين البريطانيين وأولهم لورنس الجاسوس الإنجليزي وأحد ضباط جهاز الاستخبارات البريطانية، ودعمتها كميات كبيرة من الذهب البريطاني المدفوع للشريف وقد بلغ ١١مليون جنية إسترليني (في أيامنا ٥٠٠ مليون دولار). وانضم إليها بعض المنظمات والنخب القومية العربية فقد كانت الغالبية العظمى من الجماهير العربية لا تزال تؤمن «بالعثمانية» و«الجامعة الإسلامية».

حقًا كان الولاء للدولة العثمانية قد فقد كثيرًا من زخمه نتيجة لعوامل عديدة أهمها :

١ـ فساد الحكم

٢ـ سياسة التتريك والقمع القومي التي نهجتها «جمعية الاتحاد والترقي» الحاكمة.

٣ـ مذابح السفاح جمال باشا.

٤ـ ظروف الحرب العصيبة في فترة السفر

إلا أن المسافة لإعلان ثورة عربية شعبية شاملة عامة كانت لا تزال بعيدة.

إن الأدبيات التاريخية تجمع أن الموقف الشعبي العربي العام من الحرب كان منذ البداية اللامبالاة والوقوف موقف المتفرج وعدم الاستجابة لدعوة الجهاد، وذلك تعبيرًا عن الموقف الاحتجاجي على السياسة الجائرة.

والبعض يقول إن إعلان الثورة كان استجابة للمطلب البريطاني ولتحقيق مصالح بريطانية أكثر منه استجابة لحاجات قومية أو تجاوبًا مع ضرورات ميدانية عربية. وقد تولت بريطانيا وظيفة «عراب الثورة العربية» فأمدت قائدها بالتمويل والأسلحة والتدريب العسكري والمعونات العينية. أما حلقة الاتصال بين البريطانيين والشريف فقد عهدت إلى الجاسوس الإنجليزي ت. أ لورنس الذي أطلق عليه لاحقًا «لورنس العرب» [1].

وأما حماية الثورة في الحجاز فأوكلت للبوارج الحربية البريطانية التي كانت تجوب مياه البحر الأحمر وتسهر على إمداد بما يلزمها وتؤمن سلامتها.

أما دوافع بريطانيا لتبني الثورة فكانت:

١ـ إضعاف الموقف العسكري العثماني وتشتيت القوات التركية.

٢ـ السيطرة على نفط العراق.

٣ـ إبطال دعوة الجهاد.

٤ـ رب النفوذ الألماني في الدولة العثمانية.

٥ـ المحافظة على مصالحها في الشرقيين :الأوسط والأقصى التي يهددها مد سكة حديد بغداد ـ برلين [2].

---

(١) T.A Lawrance of Arabia مؤلفة المترجم إلى اللغة العربية تحت عنوان " أعمدة الحكمة السبعة" المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر بيروت — لبنان الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥

(٢) مؤرخ مجهول ص٤٥

أما دوافع الشريف المعلنة فكانت «استقلال الوطن العربي تحت التاج الهاشمي».

وكان قد اقترح قبل إعلان الثورة على حلفائه البريطانيين خطة عسكرية تتضمن شقين:

١ـ إعلان ثورة متزامنة في الحجاز والشام.

٢ـ وفي اليوم ذاته تقوم قوات بريطانية بعملية إنزال بحرية في ميناء الإسكندرية، وبذلك يتم تطويق القوات العثمانية ـ الألمانية في بلاد الشام بطوق محكم، وحصرها بين فكيّ كماشة عملاقة: البريطانيون من الشمال وقوات الشريف من الجنوب.

وحين رفضت القيادة البريطانية الخطة أعلن الشريف ثورته في ١٩١٦/٦/٥.

وكان مخططًا أن تبدأ في موعد سابق، لكنه تم تأجيلها إثر:

١ـ نقل قوات عربية عاملة ضمن القوات التركية من سوريا إلى غاليبولي، وبذلك سحب البساط من تحت قدميه.

٢ـ أحكام الإعدام التي نفذها أحمد جمال بحق النخب والزعامات الوطنية.

٣ـ فشل عملية الإنزال البريطاني في غاليبولي التركية. الأمر الذي اعتبر نصرًا للقوات التركية [3].

اللمسات الأخيرة للثورة

شرع الشريف بوضع اللمسات الأخيرة على الثورة:

أوفد ابنه الأمير فيصل إلى دمشق. القلب النابض للقومية العربية، في عملية جس نبض واستطلاع وتحضيرًا للثورة، ومحاولة إيقاد نار ثورة بين صفوف الكتائب العربية التي تقاتل في صفوف القوات التركية. وبين الجماهير عند أول إشارة من والده.

دخل فيصل دمشق ترافقه حاشية مكونة من ٤٠ مقاتلاً معظمهم من أسرة الشريف. وكان ذلك أوائل كانون الثاني/يناير ١٩١٦م وقد أوضح فيصل لأحمد جمال القائد العام للجيش أن هؤلاء الأربعين هم طليعة الجيش الحجازي القادم

---

(٣) Tibawi p241

للانضمام إلى القوات التركية. وقد استقبلهم أحمد جمال أحسن استقبال وأكرم وفادتهم وأقام لهم المآدب والمهرجانات.

وفي دمشق أطلع فيصل على الأوضاع والعلاقات المتردية بين القيادة التركية وأهالي سوريا بسبب الإجراءات القاسية بحق العرب فقد:

١ ـ نقلت الكتائب العربية في الجيش التركي إلى جبهة غاليبولي الخطرة الدامية.

٢ ـ نفذت أحكام الإعدام شنقًا بحق القيادات العربية ونفي الآخرين وسجنهم، وكان ذلك صدمة لفيصل، إذ أنه خسر بذلك الدعامة الرئيسية التي يمكن أن يعول عليها في دعوته، وبعد أيام من تنفيذ أحكام الإعدام عاد فيصل إلى مكة لينضم إلى والده ويطلعه على الأوضاع (٤).

أما الشريف فوزع أبناءه:

ـ أوفد الابن البكر على إلى المدينة المنورة ليرقب عن كثبٍ واليها التركي ويرصد تحركاته. وفي الوقت ذاته يكون على اتصال بشيوخ القبائل المجاورة ويطلعهم على السر، وموعد انطلاق الثورة.

ـ الابن الثاني عبد الله أبقاه إلى جانبه ليساعده في التخطيط للثورة وتنفيذها.

ـ وأما الابن الرابع زيد، ابن الزوج التركية، ولم يكن قد بلغ مبلغ الرجال بعد فقد ادخره والده ليوكل إليه الأعمال الطارئة المستجدة (٥).

ولم يلبث الشريف أن اتخذ بعد التشاور مع الابن الثالث فيصل وباقي الأبناء، الخطوة التالية: أن تكون ساعة الصفر لانطلاق الثورة ١٩١٦/٦/٥.

إطلاق الرصاصة الأولى والعمليات العسكرية الأولى

وفي الخامس من حزيران ١٩١٦ ركب الإخوان على رأس ١٥٠٠ مقاتل من القبائل البدوية إلى قبر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حيث أعلنوا باسم الشريف استقلال العرب والانفصال عن الدولة العثمانية، ثم انطلقوا جميعهم جنوب المدينة إلى مكان التجمع والانطلاق (٦).

(٤) انطونيوس ص٢٨٨
(٥) م.س ص٢٧٧
(٦) م.س ص٢٨٩

انطلقت الثورة وتحرك الشريف فأرسل ابنه عليًا لمحاصرة «المدينة المنورة». وعبد الله إلى «وادي عيص» لعرقلة مواصلات الأتراك وقطع خطوط إمداداتهم وخط انسحابهم إلى الشمال أما فيصل فتوجه شمالاً إلى «الوجه».

وكان مجموع القوات البدوية التي انضوت تحت لواء الثورة يتراوح بين ٣ـ٤ ألف عنصر مسلح بعشرة آلاف بندقية، ولا شيء لديهم من المدافع أو الرشاشات الخفيفة (٧).

وفي مكة تقرر يوم السبت العاشر من حزيران /يونيو ١٩١٦م موعدًا لبدء العمليات العسكرية. وكان والي الحجاز قد غادر المدينة المنورة إلى مدينة الطائف للتصييف والاستجمام وأبقى في المدينة المنورة ومكة ١٤٠٠ ضابط وجندي.

وفي اليوم المذكور، العاشر من حزيران وقف الشريف في شرفة قصره في مكة وأطلق رصاصة باتجاه الثكنات العسكرية التركية وكانت تلك هي الإشارة المتفق عليهم لبدء العمليات العسكرية وقد تعجل الشريف بإعلان الثورة قبل أن يتم الاستعداد لها، ولم يأخذ برأي أولاده بضرورة التريث والتأجيل، لأن الإنجليز كانوا خدعوه بأن حملة عسكرية ألمانية بقيادة شتوتزنغن قد وصلت إلى ميناء ينبع على البحر الأحمر لتشترك مع الأتراك لمهاجمة اليمن، وتدعم الوجود العسكري التركي في شبه جزيرة العرب ثم تفتح ميادين قتال جديدة ضد بريطانيا في أريتريا فالسودان فالصومال.

وفي يوم ١٥ يونيو ١٩١٦م كتب الشريف منشورًا بعنوان «منشور عام من شريف مكة وأميرها إلى جميع إخوانه المسلمين» استهله بالآية الكريمة «ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين».

وعدّدَ الأسباب التي أدت به إلى إعلان الثورة واعتمد ركيزتين:

١ـ الدين الإسلامي.

٢ـ والقومية العربية (٨).

(٧) م.س ص٢١٣
(٨) الحوفي ص١٥٨

وصدرت الأوامر في العاشر من حزيران، بعد إطلاق رصاصة الثورة بمهاجمة حامية مكة. وقد قاومت هذه طيلة خمسة أسابيع كاملة، وفي الأيام الأخيرة من الهجوم نشبت معركة ضارية استسلمت على أثرها الحامية التركية وسقطت معها بعض الثكنات العسكرية الرئيسية في المنطقة. واستسلمت كذلك «قلعة جياد» بعد مقاومة ٣ أسابيع إضافية [٩].

وأما مدينة جدة فقد تعرضت لهجوم في الوقت ذاته الذي هوجمت به مكة وكانت حامية جدة تعد ١٥٠٠ ضابط وجندي. أما عدد المهاجمين من العناصر البدوية فقد بلغ ٣٥٠٠ من قبائل بن حرب. وقد صمدت الحامية التركية في جدة وقاتلت ببسالة إلا أن البوارج الحربية الإنجليزية. التي كانت تجوب شواطئ المنطقة، قصفت المدينة من البحر، ثم ألحقته بقصف جوي استسلمت على أثره المدينة في حزيران / يونيو ١٩١٦م.

بعد ذلك توجهت قوات الشريف البدوية المسلحة بأسلحة إنجليزية خفيفة إلى رابغ وينبع وقنفذه فاستسلمت كلها الواحدة بعد الأخرى.

أما الأمير عبدالله فقام بشن هجوم على مدينة الطائف، حيث يستجم الوالي وحاشيته، لكن المدينة صمدت وصدت الهجوم فحاميتها كانت جيدة التسليح، لكنها اضطرت في نهاية المطاف إلى الاستسلام. واستسلم غالب باشا في ٢١ أيلول / سبتمبر ١٩١٦م.

بعد أيام من سقوط الطائف وصل جده لورنس ليعمل مستشارًا في الظاهر وموجها ميدانيًا مباشرًا في الواقع. وأصبح حلقة الاتصال بين السلطات البريطانية والثورة العربية والرأس المفكر والعقل المدبر واليد المنفذة، صاحب الحل والعقد في كل شؤون الثورة، يساعده في ذلك ريجنالد وينغيت قائدًا للقوات العربية المسلحة.

وقد أصابت ثورة الحسين المفاجئة الحكومية التركية بالذهول، وكان رد فعلها متدرجًا:

- في البداية أنكرت وقوع أي نوع من التمرد أو العصيان.

---

(٩) انطونيوس ص٢٩٠

- ثم أصدرت أمرها بطرد الشريف حسين من منصبه واستبداله بالشريف علي حيدر.

- وأخيرًا أعلنت مصادر رسمية خبر التمرد، لكنها ادعت أنه عمل فردي تحركه أصابع إنجليزية. وانتهت بأن قوات الدولة تشق طريقها إلى وكر العصيان للقضاء على الفتنة [١٠].

وشنت الصحف التركية هجومًا كاسحًا على الشريف واتهمته بالخيانة والعمالة. أما أحمد جمال فلقد جن جنونه وقام بحملة مداهمات واعتقالات تلتها أوامر نفي بالجملة إلى أصقاع الأناضول، ولعل الرادع الذي حال دون ارتكابه حماقات حمام دم بحق العرب كان تهديد الشريف أنه في حالة ارتكاب مذابح فإنه سوف يكيل الصاع صاعين ويرد بالمثل، وينفذ أحكام الإعدام بحق الأسرى الأتراك الذين وقعوا في أسره في معارك الحجاز.

ومع دخول النصف الثاني من سنة ١٩١٦م كانت كافة مناطق الحجاز عدا المدينة المنورة بيد ثورة الشريف.

والآن حان دور المرحلة القادمة الانتقال شمالاً عبر الحدود الأردنية. تقدم فيصل على رأس القوات البدوية الحجازية فاقتحم مدينة «الوجه» في كانون الثاني يناير ١٩١٧م، وهي آخر مدينة حدودية حجازية تقع على الشاطئ الشمالي من البحر الأحمر. وقد مهد للاحتلال قصف بحري قامت به البوارج البريطانية.

- الثورة تقتحم الحدود السورية:

في الوجه بدأت قبائل جنوبي شرق الأردن وسوريا: بني عطية - الحويطات - والرولة تتوافد للانضمام إلى قوات فيصل. فمنهم من حضر بنفسه ومنهم من أناب عن حضوره. وكان أبرز الشيوخ الوافدين الشيخ عودة أبو تايه من التوايهة، وهم بطن من الحويطات. ولم يكن الشيخ عودة كما يصفه انطونيوس، شيخ قبيلة مقاتلة باسل فقط، بل كان قبيلة من رجل. وكان مقدمًا في مجالس

---

(١٠) م.س ص٢٩٨

الشورى كما هو مقدم في ساحات القتال [١١]. وكان حينذاك في الخامسة والخمسين من العمر ولا يزال، وهو في ذلك السن قويًا أحوذيًا ومن أشجع الفرسان والمقاتلين.

أما مظهره فإنه كان يذكر الناظر إليه بالنسر: آنف أشغى كأنه قوس ربع دائرة، ورأس مائل إلى الخلف، وعينان كبيرتان ناعستان ونظره إلى المدة البعيد يرسلها في خيلاء. وكان لوصوله هزة في جنبات المعسكر.

وتتابع انضمام القبائل البدوية. وانهمر معه سيل الذهب البريطاني ترافقه حملات إعلامية ومحاولات الإقناع بوجوب مساعدة دول الوفاق، لأن ذلك يعني الاستقلال.

من الوجه زحفت القوات الفيصلية واخترقت حدود شرقي الأردن ودخلت تخوم بسوريا وكان الهدف الأول مدينة «العقبة» وكان رأس الحربة في التقدم الشيخ عودة.

في هذا الوضع الجديد لم يبق للحكومة التركية إلا أن تعزز دفاعاتها في جنوبي شرق الأردن. فأمدت المنطقة بقوات مسلحة بلغ تعدادها سبعة آلاف مقاتل.

وقد سبق الزحف طليعة يقدر عدد عناصرها بـ ٥٠٠ عنصر من بدو الحويطات، يقودهم الشيخ عودة أبو تايه وتقدمت الطليعة إلى مركز «الجفر» ثم غربت مجتازة سكة حديد الحجاز وأخذت تقوم بأعمال تخريب هدفها خط سكة الحديد: نزع قضبان السكة، تحطيم جسور، نسف قناطر، تدمير قاطرات وعربات قطار، انقضاض على محطات السكة، غارات على قوافل عسكرية تحمل الذخائر والإمدادات والمؤن والأدوية والأدوات الطبية.

أخذ المهاجمون يغيرون في تشكيلة حرب عصابات فيقتلون، يأسرون. وفي تموز يوليو ١٩١٧م هاجموا مركز حامية «الأثل» الواقعة بين العقبة ومعان، وانزلوا ٥٠٠ إصابة بين القوات التركية بين قتيل وجريح وأسير ولا ناج» [١٢].

---

(١١) م.س ص٣٢٠

(١٢) م.س ص ٣٠٢-٣٢٣

- سقوط العقبة

بعد أربعة أيام، أي في ٦ تموز / يوليو ١٩١٧م، نجح فيصل باحتلال مدينة العقبة. وكان احتلالها نقطة تحول في سير القتال، فلقد كانت الثورة حتى حينه مقتصرة على الحجاز ولكن الميدان انتقل الآن إلى سوريا وأصبح على القادة اعتماد خطة جديدة في القتال.

كانت الخطة الجديدة من وضع بريطاني وتنفيذًا لإستراتيجية بريطانية. وقضت أن تحدد المهمة الرئيسة لقوات فيصل في استخدامها طليعة ورأس حربة تشق الطريق أمام القوات البريطانية.

مكث فيصل في العقبة ستة شهور حتى نهاية ١٩١٧م استغلها في إعادة تنظيم قواته واستيعاب متطوعين جدد في محاولة لتشكيل جيش نظامي مكان القوات البدوية غير النظامية وكان أول من انضم إليه ٦٠٠ عنصر من الفيلق العربي الذي وقع في الأسر البريطاني. وشكل هؤلاء نواة جيش فيصل النظامي. وقد قام ضباط الإنجليز وفرنسيون بمهمة تقديم الإرشاد والمشورة وقيادة فرق خاصة من العربات المصفحة، والطائرات وفرق الهجّانة.

وقد تزامن اختراق القوات العربية الفيصلية جنوب شرقي الأردن مع محاولة القائد البريطاني ارشيبالد مري اختراق خط الدفاع التركي في فلسطين الممتد بين غزة وبئر السبع.

وقد بذل فيصل جهوده لإقناع القبائل البدوية في جنوب فلسطين بمساندة القوات البريطانية الزاحفة شمالاً فبعث برسالة إلى الشيخ فريح أبو مدين شيخ قبائل مناطق بئر السبع - رفح - غزة يدعوه إلى مساندي القوات البريطانية. وقام الكولونيل البريطاني باركر [١٣] أحد ضباط الأركان في قيادة ارشيبالد مري باستدعاء الشيخ وسلمه رسالة فيصل. وفي ربيع ١٩١٧م كان الشيخ فريح أبو مدين يقود قبائل جنوب فلسطين في قتال مرير ضد الأتراك [١٤].

وقد عرفت القيادة البريطانية قيمة المساعدات العربية وأهميتها، سواء في شرقي الأردن أو في فلسطين، فأخذت تشن حربًا نفسية وتمطر المناشير من

---

(١٣) Purker

(١٤) انطونيوس ص ٣٢٦-٣٢٧

الطائرات البريطانية خلف خطوط القوات التركية داعية القوات العربية التي تقاتل في صفوفها إلى ترك القتال والانحياز إلى القوات البريطانية الحليفة.

وقد فطنت القيادة الألمانية التركية إلى خطورة هذا التحرك فحاولت إحباطه برسائل مضادة إلى شيوخ القبائل، وبالذهب التركي يتدفق إلى الجيوب ليبطل مفعول الذهب البريطاني ومناشيرهم [١٥].

على كل حال لم تلق مساهمة القبائل العربية في جنوب فلسطين في القتال إلى جانب البريطانيين في المرحلة المذكورة نجاحًا، نظرًا لفشل حملة أرشيبالد مري لاحتلال فلسطين وتحطمها إزاء المقاومة التركية.

أما حملات التجنيد الطوعي لقوات فيصل أو للقوات البريطانية فلم تلق هي أيضًا النجاح المأمول، ولم يتجاوز النجاح في هذه الجزئية إلا في أوساط بعض القبائل البدوية [١٦].

ـ سقوط « معان»

بعد أن مكث فيصل وقواته منتظرين في العقبة ستة أشهر استأنفوا الزحف شمالاً في بداية شهر أيلول/سبتمبر ١٩١٧ باتجاه مدينة معان بعد أن أمضوا فصل الشتاء في العقبة. وقد غطى البلاد ببرده القارس وزمهريره المصحوب بالرياح العاتية. الأمر الذي خلف معاناة شديدة لقوات فيصل البدوية التي لم تعتد مثل هذه الأحوال الجوية العاصفة.

حاولت قوات فيصل احتلال مدينة معان عاصمة الجنوب واستماتت القوات التركية في الدفاع عنها لأنها رأت فيها نقطة الدفاع الرئيسية عن سكة حديد الحجاز. وأثناء الحصار دارت معركة دامية في «وادى الحسا» في كانون الثاني/يناير ١٩١٨م، أصيب فيها ٧٥٠ جندي تركي فقتل ٥٠٠، وأسر ٢٠٠ ولم ينج إلا ٥٠. وعادت قوات فيصل تشدد الحصار على المدينة وتشن الغارات على سكة الحديد وأصبح السفر من دمشق إلى المدينة يستغرق خمسة أيام، بعد أن كان في الأيام العادية لا يستغرق أكثر من ١٨ ساعة. وكان لابد للقيادة

(١٥) م.س ص٣١٩
(١٦) م.س ص٣٣١

التركية ـ الألمانية من إمداد المدينة المحاصرة بالنجدات البشرية والذخائر والمؤن والمعدات الطبية. ومن أجل ذلك اضطرت إلى سحب قسم المدينة المنورة ونقلها بالقطار إلى ساحة القتال في معان، على ما في هذا الأمر من الخطورة، نظرًا لما تتمتع به «المدينة المنورة» من مكانة مقدسة، خاصة بعد سقوط المدينتين الإسلاميتين المقدستين، مكة والقدس [١٧].

ولما علم فيصل بالخطة قام بعمل سريع لإحباطها :

١ ـ هاجم خطوط سكة حديد الحجاز وقد اشترك في الهجوم المصفحات الإنجليزية وفرق الهجانة المصرية ـ وهي فرق عربية بتدريب وقيادة بريطانية ـ أرسلتها سلطات القاهرة البريطانية. وقد تم مهاجمة الخطوط بثلاثة مواقع، في الوقت ذاته في الأسبوع الأول من شهر آذار/أبريل ١٩١٨م.

أ. وقد قامت الوحدة الثالثة بتدمير خط سكة حديد معان ـ عمان.

ب. والوحدة الجنوبية بقيادة اللفتانت كولونيل الان، في قطاع ـ المدورة، دمرت الخطوط تدميرًا كاملاً يصعب إصلاحه.

ج. أما الوحدة الثالثة وهي وحدة القلب بقيادة جعفر باشا، فإنها قامت بتدمير الخط الذي يقع جنوب معان وشمالها.

وفي ٢٠ آذار / أبريل ١٩١٨ أصبحت معان معزولة مقطوعة عن محيطها، بعد أن نجحت الوحدات الثلاثة على مدى عشرة أيام في تدمير ٥٠ جسر وقنطرة و٣٠٠٠ مفصلة من الخط، وأسرت ٤٥٠ مقاتل وغنمت الكثير من الذخائر.

٢. شن هجوم شامل على معان:

وقد رد الأتراك بهجمات مضادة ضد «سمنة» التي كانت بيد طابور القلب. ولكن قائد الطابور جعفر باشا والنظامين العرب معه ثبتوا في أماكنهم.

من الناحية الأخرى تم في صيف ١٩١٨م وضع اللمسات الأخيرة للهجوم البريطاني في فلسطين تحت قيادة الجنرال اللنبي [١٨]. عينت ساعة الصفر في ١٩١٨/٩/٩م وقد قضت الخطة العسكرية :

(١٧) م.س ص٣٣٣
(١٨) م.س ص٣٣٦

١ - أن يبدأ الهجوم البريطاني مخترقا خط الدفاع التركي الممتد من مدينة يافا إلى شمال مدينة أريحا.

٢ - استباق الهجوم بعملية قطع خطوط المواصلات التركية بين دمشق ومنطقة الجنوب قبل بداية الهجوم الشامل.

أوكلت المهمة لقوات فيصل. والهدف النهائي احتلال مدينة درعا، وهي المفصل الذي يصل شمال سوريا بجنوبها.

بدأ فيصل استعداداته لتنفيذ المهمة بالتقدم شمالاً بمحور عمودي - جنوبي - شمالي عابرًا شرقي الأردن ومخربًا كل ما يقع في طريق من سكك حديدية، ومصفيًا جيوب المقاومة والحاميات التركية المنتشرة على طوال الطريق.

كان فيصل يقود جيشًا قوامه ٨ آلاف جندي وقد تغيرت تركيبته وتحسنت أوضاعه بعد أن انضمت إليه قوات عربية نظامية من بلاد الشام والعراق ووحدات بريطانية مع عربات مصفحة ورشاشات وفصائل إشارات [١٩].

أما القوات البدوية غير النظامية فلقد تحسنت أوضاعها هي أيضًا بعد انضمام قوات بدوية جديدة من القبائل في المنطقة الواقعة بين خليج العقبة ونهر الفرات.

وحشد نوري الشعلان شيخ مشايخ قبائل الرولة أتباعه للهجوم النهائي.

أما مشايخ الدروز فقد تعهدوا سرًا مساندة الثورة في أريافهم مع بداية الهجوم، قبل الهجوم نقل فيصل قاعدته إلى الأزرق على مسافة ٥٠ ميلاً شرق عمان وقد اختارها مركزًا للتجمع والاحتشاد.

في ١٦ أيلول / سبتمبر ١٩١٨م شن فيصل الهجوم النهائي بعد ثلاثة أيام من بدء الهجوم البريطاني في فلسطين.

وقد شرعت قوات فيصل بأعمال تخريبية في المنطقة الواقعة بين معان ودرعا.

وتلخصت المهمة الموكلة لتلك القوات بالأهداف التالية:

١. حماية ميمنة القوات البريطانية المتقدمة في فلسطين.

٢. تصفية الجيوب التركية المقاومة المنتشرة على طول الطريق.

---

(١٩) م.س ص٣٢٧

٣. مهاجمة طرق المواصلات وتدميرها، خاصة السكك الحديدية التي تحمل الإمدادات البشرية والمؤن والعتاد والذخائر والأدوية للقوات التركية التي تقاتل على الجبهة الفلسطينية.

٤. قطع خطوط انسحاب القوات العثمانية من فلسطين باتجاه دمشق.

٥. قطع طرق الاتصالات بين القيادة في دمشق والقوات المقاتلة في الجنوب.

وقد أوعز اللنبي إلى فيصل أن المفصل الأساسي والموقع الجغرافي المهم في كل المنطقة هي مدينة درعا. فهي النقطة الحيوية في مواصلات القوات العثمانية لأنها المحطة الرئيسية لسكة الحديد الحجازية، انطلقت مجموعات من الوحدات العسكرية النظامية وفصائل صغيرة من البدو تغير على مواقع القوات التركية وتنزل بها القتل والأسر والخسائر كما أخذت تغير على القطارات والقاطرات وسكك الحديد ومحطاتها مدمرة كل ما تجده في الطريق.

شقت القوات العربية طريقها باتجاه درعا ونجحت في الوصول إلى ضواحي المدينة وفرضت طوقا حديديًا حولها. وأخذت تطبق قبضتها الخانقة حول عنقها، أوشكت المدينة على السقوط لولا أن تداركتها نجدات ألمانية معززة بالآليات والأسلحة فدخلت المدينة وتولت الدفاع عنها ونجحت في الصمود وصد الهجمات. وكانت هذه النجدات قد أرسلتها القيادة الألمانية العامة المتمركزة في مدينة الناصرة تحت قيادة ليمان فون ساندرز. وكان لهذا الإجراء عواقبه الوخيمة على جبهة فلسطين. فإن القيادة الألمانية اضطرت بذلك إلى تخفيف قواتها العسكرية في فلسطين وإضعاف قوتها إزاء الهجوم البريطاني على فلسطين تحت قيادة الجنرال اللنبي [٢٠].

وبهذا تكون خطة اللنبي في الضغط على درعا لتخفيف الوجود العسكري الألماني التركي في فلسطين قد نجحت في ١٨ أيلول / سبتمبر ١٩١٨ تزايد ضغط قوات فيصل على درعا وبدأت حملة جديدة شديدة من أعمال التخريب والتدمير، خاصة في خطوط سكة الحديد ومحطاتها الأمر الذي أدى إلى عزل المدينة وتشديد الخناق عليها.

---

(٢٠) م.س ص٣٢٨

وفي غداة اليوم التالي في ١٩ أيلول شن اللنبي هجومه النهائي على شمال فلسطين في الوقت الذي أخذ فيه فيصل يحكم قبضته على قوات الفيلق العثماني المرابط في معان. وعلى بقية الجيش الثامن الذي لقي أفراده القتل والأسر. عدا وحدة ألمانية صغيرة، وقد نجحت بعض طوابير من الجيش السابع من التراجع باتجاه درعا. ولم يبق في الساحة إلا الجيش الرابع في الجانب الآخر من الأردن والفيلق الثاني في معان. والجيش الثاني في شمال سوريا المرابط بين مدينتي دمشق وحلب (٢١).

شرعت القوات العثمانية تتراجع من كل من معان وعمان في ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٩١٨م.

وقد نجح لواء خيالة بريطاني في عبور نهر الأردن من فلسطين في ٢٥ أيلول.

وكان على الجيش الرابع التركي أن يتراجع سيرًا على الأقدام لأن خطوط سكة الحديد الواصلة إلى درعا قد دمرت. وقد ترك القائد الألماني هذا الجيش الرابع يلاقي مصيره المحتوم وبق في عمان ليكفل سلامة الفيلق التركي الثاني المنسحب من معان التي كانت القوات العربية قد احتلتها في ٢٣ أيلول/سبتمبر ١٩١٨م (٢٢).

ـ سقوط درعا :

في الشمال أطبقت القوات الفيصلية على درعا واقتحمتها في ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩١٨م في حين كان مجموعات أخرى يقودها الشيخان عودة أبو تايه ونوري الشعلان تقوم باحتلال أذرع وغزالة. ونجحت في أسر ٣٥٠٠ جندي في يومين، ثم اندفعت شمالاً باتجاه دمشق. في اليوم ذاته شقت فرق خيالة بريطانية طريقها عبر نهر الأردن إلى جنوب بحيرة طبرية وتقدمت باتجاه دمشق.

وحمى الأمير فيصل ميمنة أولئك الأتراك المنسحبين باتجاه مدينة دمشق.

(٢١) م.س ص٣٤٠

(٢٢) م.س ص٣٤٠

ـ سقوط دمشق تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٨م

تقدمت قوات فيصل باتجاه دمشق وكان أول الواصلين إلى ضواحيها الشريف ناصر ونوري الشعلان على رأس قوتيهما. وقد قطعا مسافة سبعين ميلاً في ٢٤ ساعة ووصلا أسوار المدينة في ٣٠ أيلول، ولكنهما لم يدخلاها تلك الليلة نزولاً عند رغبة اللنبي وتعليماته (٢٣).

وكانت مجموعات من القوات البدوية قد سبقت إلى دمشق وأخذت تنتظر قدوم القوات الإنجليزية وقوات فيصل، فوجدوا أن الدمشقيين قد رفعوا العلم العربي وشكلوا حكومة وطنية وأعلنوا الاستقلال بعد حكم عثماني دام ٤٠٠ سنة (٢٤).

وقد اكتفى الشريف ناصر في هذه المرحلة بإرسال مفرزة لتنقل الأخبار إلى الدمشقيين وتدعوهم لانتخاب حكومة. وحين وصلت المفرزة الميدان الكبير وسط المدينة رأت الرايات العربية تخفق والأهالي قد انتخبوا حكومة وأعلنوا الاستقلال.

وحين سمع الناس في بيروت وصيدا الأنباء سارعوا هم أيضًا برفع الرايات العربية، ولم تلبث طرابلس واللاذقية أن حذت حذو المدن السابقة، الأمر الذي سبب لاحقًا أزمة خطيرة مع الفرنسيين.

في صبيحة اليوم التالي الأول من تشرين/أكتوبر ١٩١٨م دخلت دمشق مفرزة من الخيالة البريطانية القادمة من جنوب بحيرة طبرية وشمالها يتبعها الشريف ناصر ونوري الشعلان يرافقهما نوري السعيد ولورنس. وقد دخلوها باسم الشريف وفيصل (٢٥).

وبعد يومين دخل اللنبي المدينة مستقلاً سيارته التي قدم بها من القدس، في حين كان فيصل مع ١٢٠من حاشيته على صهوات خيولهم العارية يدخلون المدينة.

وعم الفرح الدمشقيين وخيل إليهم أنهم نالوا حريتهم بعد قرون من الظلم والعسف والقهر وتصوروا أن تلك الحقبة قد ولت إلى غير رجعة، ولم يكونوا يدرون ما تخبئه لهم الأقدار.

(٢٣) م.س ص٣٤١

(٢٤) Tibawi p269

(٢٥) Via – Maris

- سقوط شمال سوريا

وقبل أن ينقضي شهر تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٨م كان قد تم احتلال سوريا برمتها في حركتين عسكريتين.

الأولى عن طريق الساحل ٢٥ التاريخية منطلقة من حيفا - عكا - صور - صيدا - بيروت فطرابلس، وكانت هذه القوة المقتحمة مكونة من قوات بريطانية. وقد تم اجتياح المنطقة بسهولة ويسر ودون مقاومة تذكر. فسقطت مدينة صور في اليوم الرابع من الزحف، وصيدا في اليوم السادس وبيروت في اليوم الثامن، وبعد ٥ أيام تم احتلال طرابلس [٢٦].

والثانية عن طريق الداخل منطلقة من دمشق - حمص - حماة - حلب وكانت القوة مختلطة أقلية بريطانية وأكثرية عربية نظامية وغير نظامية. وكان تقدم هذا المحور أصعب من المحور الأول والزحف أبطأ والمقاومة أشد وأشرس، فواجهت القوات المتقدمة مقاومة جيوب تركية على امتداد الطريق. وكان عليها أن تقاتل لاحتلال موقع بعد آخر، وكانت معنويات الجنود البريطانيين هابطة. فهم يعانون من الإرهاق وانتشار الأمراض والأوبئة ويواجهون صعوبات لوغستية.

تقدمت القوات البريطانية شمالاً،في حين كانت قوات فيصل تقوم بحماية ميمنتها.

وقد سبق الشريف ناصر القوات البريطانية بيوم واحد في احتلال مدينة حمص من جهة الشرق في الخامس من تشرين الأول/أكتوبر١٩١٨م. وفى اليوم التالي وصل البريطانيون ليجدوا أن القوة التركية قد انسحبت فاقتحمت المدينة فرقة أسترالية تخدم ضمن القوات البريطانية.

تقدمت القوات العربية - البريطانية فاحتلت بعد يومين مدينة حماه دون مقاومة وواصلت زحفها إلى ضواحي مدينة حلب لتصطدم بمقاومة عنيدة شرسة يقودها مصطفى كمال على رأس فيلقه جيد التسليح والتدريب [٢٧].

في عصر ٢٥ تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٨م شرع المهاجمون بهجوم شنته قوات فيصل البدوية ترافقها خيالة بريطانيون، وفي مساء اليوم ذاته تغلغلت

(٢٦) Hinterland

(٢٧) Lenczowski p58

قوات بدوية غير نظامية داخل المدينة وهاجمت القوات التركية المرابطة فيها. فما كان من هذه إلا أن تنسحب، وقامت القيادة التركية بإعادة نشر الفرقتين اللتين تدافعان عن حلب من جهة الجنوب. وفي صباح اليوم التالي ٢٦ تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٨م اقتحم النظاميون العرب والخيالة البريطانيون المدينة في حين كان لواء الخيالة الهندية يحاول صد هجوم شديد شنه مصطفى كمال على بعد أميال شمالي حلب.

في ٢٩ تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٨م احتلت مفرزة من قوات الشريف ناصر محطة «المسلمية»، وهي ملتقى خطوط السكك الحديدية التي تتفرع إلى اسطنبول وسوريا والعراق. وكان هذا آخر موقع تحتله القوات العربية - البريطانية لأنه في ذلك اليوم توقف القتال إثر التوقيع على هدنة «مودروس»[٢٨]. على ظهر البارجة «أغاممنون» في ميناء مودروس في جزيرة «ليمانوس» في بحر ايجة [٢٩].

وجن جنون العرب استبشارًا وفرحًا بالنصر، فأقاموا المهرجانات، وأحيوا الاحتفالات ورفعوا الرايات العربية.

ولكن الفرحة لم تتم فسرعان ما تفجرت الأوضاع في أزمة حادة.

▪ الأزمة الأولى

اعترض الفرنسيون على رفع الأعلام العربية في سوريا ولبنان، فهذان القطران تابعان لفرنسا بموجب اتفاقية سايكس بيكو، فلماذا الأعلام العربية؟ قال الفرنسيون «إنها ليست منطقة سيادة عربية أبدًا ولن تكون كذلك»! واعترضوا قبل أن تمر ٤٨ ساعة على وصول فيصل، وطالبوا اللنبي بصفته القائد العسكري العام:

١- إنزال الإعلام العربية.

٢- سحب القوات العربية التي دخلت بيروت.

(٢٨) Mudros

(٢٩) انطونيوس ص٣٤٣

٣ ـ سحب الجهاز الإداري الذي عينه فيصل وباشر أعماله من قصر «بعبدا» في لبنان.

رفض فيصل الطلبات، وتصاعدت الأزمة حين دعا خطيب صلاة الجمعة في المسجد الأموي بدمشق للشريف حسين وولده فيصل، وكذلك دعا لهما البطريرك الأرثوذكسي في الكنيسة الأرثوذوكسية بدمشق أيضًا.

وقع اللنبي في حيرة من أمره، ولكنه آثر الرضوخ لضغط الحليف الفرنسي والانحياز له فأمر بـ:

١ ـ إنزال الإعلام العربية.

٢ ـ تعيين حكام عسكري للبنان، وبذلك شل الجهاز الإداري الذي عينه فيصل.

٣ ـ تعيين ممثل فرنسي في القيادة العسكرية البريطانية بكامل الصلاحيات في المنطقة الفرنسية الزرقاء (بموجب سايكس بيكو) والتمتع بسلطات واسعة في المنطقة العربية الخاضعة للنفوذ الفرنسي (المنطقة أ في سايكس بيكو)، الأمر الذي لا يعني إلا أمرًا واحدًا: التطبيق العملي للاتفاقية المذكورة.

وقد لاقت هذه الإجراءات استهجانًا عربيًا ومقاومة شاملة فلقد أبت جماهير الشعب إنزال الرايات العربية ورفضت ابتلاع الإهانة وتقبل الصفعة. فما كان من اللنبي إلا أن أمر باستخدام القوّة فقمع الهبة بقسوة وشراسة [٣٠].

وعندما احتجّ فيصل استدعاه اللنبي، وأشار عليهم بالاستكانة والخلود إلى الانصياع والقبول بالأمر الواقع، وسمع فيصل وأطاع!.

وكان لسان حال اللنبي والحلفاء يقول : ليذهب فيصل والعرب إلى الجحيم، فلقد أنجزوا ما أوكل إليهم ولم تعد لهم أية حاجة! وفي حقيقة الأمر لم يكن هذا التصرف البريطاني المنحاز وليد لحظته أو استجابة عشوائية فورية لإلزاميات اقتضتها ضرورات الساعة فقط. وإنما كان أيضًا نتيجة لاتفاق مسبق ومخطط متفق عليه بين لندن وباريس، تحدد بموجبه مراحل الاحتلال وترتيباته، فلقد تم الاتفاق قبل سقوط دمشق على ما يلي:

١ ـ القيادة العسكرية العامة تكون للنبي.

---

(٣٠) Tibawi p276

٢ ـ الإدارة المدنية تقسم مناصفة بين الحليفين.

أ ـ غرب سوريا ولبنان تحت حكم فرنسي مباشر.

ب ـ داخل سوريا مداورة.

ج ـ فلسطين إدارة بريطانية مباشرة.

د ـ شرقي الأردن مداورة.

هـ ـ أما فيصل فتعهد إليه بصورة غامضة، إدارة داخل سوريا، في حين يبقى الشريف حسين حاكمًا على الحجاز [٣١].

وهكذا، في حين كان فيصل والعرب منغمسين في الأفراح والليالي الملاح، كانت الصديقة الحليفة بريطانيا تحيك المؤامرات مع حليفتها فرنسا. ثم يقوم الحليفان بشحذ الخناجر لغرسها في ظهر العربي الساذج. وذبحه من الوريد إلى الوريد تمهيدًا لتمزيق جثته وتقطيع أشلائه، فلقد أخرج الكستناء من النار وقدمها للمحتل الأنجلو ـ فرنسي.

أما المحصلة النهائية لثورة الشريف فكانت رهيبة: فلقد ألحقت أضرارًا فادحة بالدولة التركية وقواتها. وكان مجموع خسائرها بموجب تقديرات معتدلة، حتى نهاية آذار/مارس ١٩١٨م. ٤٨٠٠ قتيل و١٦٠٠ جريح

أضف إلى ذلك شل حامية المدينة، وعددها ١٢ ألف ضابط وجندي. وحامية معان وعددها ٧ آلاف بالإضافة إلى ٣ آلاف في مراكز منتشرة على امتداد الخط، وكلها أعطبها العرب وشلوا حركتها، وبلغ مجموع القتلى والأسرى والمعطلين الأتراك ٣٥ ألف جندي.

ويطرح السكاكيني (م. س) ص ٣٥ في هذا المجال السؤال الافتراضي : هل كان يؤدي إحجام الشريف عن إعلانه الثورة إلى تغيير نتائج ما حدث على صعيد الواقع الميداني؟

الجواب صعب، ولكن يمكن الإشارة إلى أمرين: الخسائر البشرية والمادية الجسمية والمضايقات الخانقة التي سببتها الثورة للدولة خصوصًا وأن الأمة العربية اعتصبت (تحزبت ز. ف) ضد الخدمة العسكرية. وهذا الاعتصاب أضعف

---

(٣١) انطونيوس ص٣٣٣

مواقف الجند العثماني أمام الحلفاء، وإلا فلو أقبلوا على الخدمة بعواطف صحيحة ونيات مخلصة لم يتمكن الحلفاء من الانتصار إلا بخسائر فادحة.

على كل حال انتهت الحرب وانجلت ساحات القتال عن منتصرين وعلى رأسهم بريطانيا وفرنسا. ومهزومين، وعلى رأسهم ألمانيا والدولة العثمانية. وقد باشر المنتصرون يشحذون خناجرهم لتقطيع أوصال الدول المهزومة وتقاسم أشلائها والتهامها قطعة قطعة.

وكان قادة العسكر المنتصر قد احتاطوا سلفًا للأمر، فعقدوا المعاهدات وتوصلوا إلى اتفاقيات وتفاهمات لتقاسم أشلاء الدولة العثمانية وتقطيع جلد الدب قبل اصطياده. وقد عقدوا الاتفاقات السرية تحت جنح الظلام البهيم في مؤامرات دبرت بالليل. وكانت تلك الاتفاقات متناقضة ينقض الواحد منها الآخر. وكلها دارت حول السؤال :

من يأخذ ماذا؟

عن هذا الأمر اقرأ الفصل التالي!

الفصل الثالث عشر

اتفاقيات متناقضة

"وعود عرقوب ،

وكلام الليل يمحوه النهار ،

وما يغزل نهاراً ينقض ليلًا"

أوصل التنافس التناحري الاستعماري الأوروبي العالم إلى جحيم الحرب العالمية الأولى، فقد كان لكل دولة من الدول الاستعمارية الأوروبية : بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، ألمانيا، وروسيا مطامعها في حيازة مستعمرات وراء البحار.

أما بالنسبة للدولة العثمانية فلقد التزمت هذه الدول بالمحافظة على وضعها الراهن[1] حفاظًا منها على التوازن الدولي والسلام العالمي، فسلمت بذلك هذه الدولة من التجزئة والتفكيك، ولكن إلى حين فحين ورطت نفسها في أتون الحرب أسقط هذا المبدأ وانفتحت شهية الدول المذكورة لالتهام أشلائها بعد هزيمتها وقد بوشر بالاتصالات والمداولات السرية والعلنية الأوروبية لتقاسم الدولة حتى قبل أن يلفظ ذلك «الرجل المريض على البوسفور» نفسه الأخير.

وقد أسفرت الاتصالات عن اتفاقيات وتفاهمات لتجزئة الدولة إلى كيانات صغيرة - دول طوائف وخصص لكل دولة استعمارية حصتها.

والاتفاقات التي تناولت هذه التجزئة سبع وهي مرتبة حسب تسلسلها الزمني.

١- اتفاقية الآستانة ١٩١٥/٣/١٨م.

٢- معاهدة لندن ١٩١٥/٤/٢٦.

٣- تفاهمات الشريف حسين - مكماهون وبدأت قبل الحرب في شهر شباط ١٩١٤م وانتهت في كانون الثاني ١٩١٦م.

٤- اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦/٥/١٦م.

والاتفاقان الفرعيان المكملان المنبثقان عنها وهما :

أ- اتفاقية سازانوف - باليولوج، وفيها انضمت روسيا إلى سايكس بيكو.

ب- اتفاقية سان جين دي موريين[2] وفيها انضمت ايطاليا إلى سايكس بيكو.

٥- تصريح بلفور ١٩١٧/١١/٢م.

٦- اتفاقية كليمانصو - لويد جورج كانون الأول / ديسمبر ١٩١٨م.

٧- اتفاقية سان ريمو ١٩٢٠/٤/٢٥م.

وتناولت جميعها أمرين :

١- تفتيت الدولة العثمانية. ٢- تقسيم أشلائها.

---

(١) Status Quo

(٢) St. Jean du Maurene

١ـ اتفاقية الآستانة ١٩١٥/٣/١٨م [٣]

عقدت في بداية ربيع ١٩١٥م بين طرفين، في البداية، هما :

أ ـ بريطانيا وفرنسا من ناحية وأطلق عليهما الطرف الأول.

ب ـ روسيا القيصرية من الناحية الأخرى وأطلق عليها الطرف الثاني.

جرت الاتصالات بين كل من الطرفين المذكورين على شكل رسائل ومذكرات خطية متبادلة بين بطرسبورغ من ناحية، وباريس ولندن من ناحية أخرى. وقد تم الاتفاق على ما يلي :

١ ـ يوافق الطرف الأول أن يستولي الطرف الثاني على النصف الغربي من آسيا الصغرى، وهي الوطن الأم للدولة العثمانية وتضم :

العاصمة اسطنبول، الشاطئ الغربي من مضيق البوسفور، بحر مرمرة، مضيق الدردنيل، تراقيا الجنوبية، الشاطئ التركي (الشرقي ز. ف) من مضيق البوسفور، نهر سقاريا، موقع على خليج أزمير، الجزر الواقعة في بحر مرمرة، جزيرتي امبروزا وتندس. وهكذا تحقق روسيا حلمها التاريخي الوصول إلى المياه الدافئة (مياه البحر الأبيض المتوسط ز. ف) [٤].

٢ ـ مقابل ذلك يحصل الطرف الأول على اعتراف الطرف الثاني بشرعية مطالبه ومصالحه في المناطق غير التركية في الدولة العثمانية (أي الوطن العربي ز.ف).

وباختصار يمكن تلخيص الاتفاقية : إطلاق يد روسيا القيصرية في القسم الغربي من الدولة العثمانية وإطلاق يد كل من بريطانيا وفرنسا في الوطن العربي.

وقد شملت الاتفاقية بنودًا إضافية تقضي بأن تكون :

١. العاصمة اسطنبول ميناء حرًا لكافة دول التحالف ـ الوفاق.

٢. حرية الملاحة في المضائق.

٣. الاعتراف بحقوق كل من فرنسا وبريطانيا (وإيطاليا) في إجراء أي اتفاقيات بينها في آسيا التركية.

٤. وضع الأماكن المقدسة الإسلامية تحت السيادة الإسلامية.

---

(٣) Lenczowski p68- 69

(٤) Dode canes Islands وهي مجموعة من الجزر مكون من ٥٠ جزيرة بين كبيرة وصغيرة واقعة جنوب شرق بحر إيجة مقابل الشواطئ التركية وأشهرها : رودس كربانوس، كوس، كاليمانوس، لاروس، وغيرها.

٢ـ معاهدة لندن ١٩١٥/٤/٢٦م

وهي ذيل لاتفاقية الآستانة المذكورة بعد أن انضمت إيطاليا إليها، وفيها تم تحديد حصتها من غنائم الحرب. وقد نصت الاتفاقية :

١ ـ الاعتراف بالسيادة الإيطالية على جزر الدوديكانيز [٥].

٢ ـ تحويل حقوق وامتيازات وصلاحيات السلطان العثماني إلى إيطاليا.

٣ ـ الاعتراف بمصالح إيطاليا في حوض البحر الأبيض المتوسط والأناضول.

٣ـ التفاهمات الأنجلو ـ هاشمية

« يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب ».

وقد بدأت عشية الحرب العالمية الأولى بين الأمير عبد الله ممثلاً عن والده الشريف حسين، المنتسب إلى فرع عون من العائلة الهاشمية، والمعتمد البريطاني في مصر اللورد كتشنر.

والمفاوضات بمجموعها استمرت قرابة سنتين كاملتين وكان موضوعها : إعلان الشريف، باسم العرب، ثورة على الأتراك بعد التحالف مع بريطانيا مقابل استقلال البلاد العربية.

ويذكر أن الاتصالات لم تتوصل في نهاية الأمر إلى نتيجة محددة، بل ترك موضوع استقلال العرب مفتوحًا مفتقرًا إلى إيضاح وتحديد. ومع ذلك تسرع الشريف بإعلان الثورة.

وقد جرت الاتصالات على مراحل كان فاتحتها :

▪ المشهد الأول :

مع دخول بريطانيا الحرب رأى رئيس حكومتها اسكويت [٦] من حزب العمال إن المجهود الحربي يجب أن يولي للجبهة الرئيسية، وهي الجبهة الأوروبية، على ألا تهمل جبهة الشرق الأوسط. لذا شرع باستدراج العرب إلى جانب دول الوفاق

---

(٥) Lenczowski p68 - 69

(٦) ESQUITH

في الحرب ومحاولة دفعهم إلى استعداء الدولة العثمانية. وفي سبيل ذلك سعى إلى تحقيق هدفين :

١ ـ تحريك العرب ضد السلطات العثمانية.

٢ ـ محاولة عقد تحالفات مع أكبر عدد ممكن من حكام المنطقة. وقد نجح في سنة١٩١٥م في عقد معاهدات مع شيوخ الكويت، أمير نجد السعودي، وإمام اليمن، ثم نجح كذلك في عقد اتفاقيات ومعاهدات صداقة إضافية مع حكام إمارات وشيوخ قبائل على بحر العرب ابتداء من اليمن وانتهاء بعمان. بعد نجاح المهمة تفرغ لمنطقة الحجاز، بلاد الشام والعراق. وكان ذلك أشبه بتمثيلية مسرحية بمشهدين.

كان الشخصية البارزة في المنطقة الشريف حسين بن علي. وكان هو وعائلته محتجزين. كضيوف شرف عند السلطان عبد الحميد في قصر من قصور العاصمة. ولكن حين تسلمت جمعية «الاتحاد والترقي» الحكم اتخذت سلسلة من الإجراءات لاسترضاء العرب، منها تم تعيين الشريف حسين لمنصب شريف مكة وأميرها بعد أن أطلقت سراحه من قفصه الذهبي في اسطنبول.

وقد اعتبر العرب هذا الإجراء دليل حسن نية السلطات التركية فثمنوه عاليًا. وأسهم ذلك في رفع مكانة الحكومة التركية في نظرهم.

رأت السياسة البريطانية زحلقة الشريف بالانحياز إلى جانب دول الوفاق في الحرب الدائرة، فإيقاعه في شركها يعتبر، دون أدنى شك، نصرًا ساحقًا لها.

بادرت الحكومة البريطانية بالاتصال بالشريف عشية الحرب في محاولة لاستمالته. وكان الشريف الذي تميز بالحذر الشديد والمكر والدهاء والحيطة يحتل، إلى جانب منصبه الرفيع كأمير مكة وشريفها، منزلة دينية مرموقة نظرًا لكونه من نسل سبط الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وسلم) وخادم الأماكن المقدسة في الحجاز.

اللقاء التعارفي الأول حدث عندما كان الأمير عبد الله من العاصمة اسطنبول إلى مكة سنة ١٩١٣م. وفي الطريق عرج على القاهرة. وقد استغل اللورد كتشنر، المعتمد البريطاني في مصر، نزول الأمير ضيفًا على الخديوي عباس فزاره وقدم له شكره وامتنانه لرعاية والده الشريف حسين للحجاج الهنود، رعايا بريطانيا.

وكان الاتصال الثاني مع المعتمد البريطاني في مصر «اللورد كتشنر»[٧] شباط/فبراير ١٩١٤م، شهورًا معدودة قبل نشوب الحرب.

وكان الهاجس الذي يقضي مضاجع رجال السياسة البريطانيين هو إنه في حال دخول الدولة العثمانية الحرب، إلى جانب دول المركز، فهل يمكن التعويل والمراهنة على ثورة يقوم بها العرب على الدولة.

أما المكافأة التي كانت تفكر بريطانيا في تقديمها فهي منح الشريف نوعًا ما من الاستقلال في بعض المناطق العربية.

بدأ كتشنر الاتصال بعملية جس نبض واستطلاع نوايا : كان الأمير عبد الله، الابن الثاني للشريف وعضو البرلمان العثماني، عائدًا من العاصمة اسطنبول إلى مكة عن طريق البحر. وفي طريقة ثانية عرج على مصر وزار القاهرة. فقام كتشنر يرافقه رونالد ستورز [٨]، السكرتير الشرقي لدار الاعتماد البريطاني في مصر، بزيارة مجاملة للأمير.

والأمير عبد الله من مواليد سنة ١٨٨٢م ويطيب للمصادر العربية إن تصفه بأنه بدوي مع أنه لا يعرف البداوة. فلقد نشأ في القصور متنقلًا بين مكة واسطنبول وقضى حياته أميرًا ثم ملكًا. وكان للشريف أربعة أبناء علي، عبد الله، فيصل وزايد. والأخير أمه تركية.

وكانت والدة عبد الله قد توفيت إثر ولادة شقيقه الأصغر فيصل، حين كان عمره آنذاك ٤ سنوات. ويصفه أستاذه بأنه كان خبيثًا بالمقارنة مع شقيقه علي وفيصل اللذين كانا أكثر هدوءًا وجدية منه [٩].

بدأ اللقاء بين المعتمد البريطاني والأمير العربي، وفيه شكا الأخير من توتر العلاقات بين والده وحاكم الحجاز التركي وهيب بك [١٠]..

وأثناء الحديث بدأ الأمير يلمح لكتشنر: الأتراك، وعلى رأسهم وهيب بك، يسعون للإطاحة بوالده، وإنه في حالة تنفيذهم عزمهم فسوف تنشب ثورة في الحجاز.

---

(٧) Lord Kitchner

(٨) R - Storss

(٩) ولسون ص٣٢-٣٥

(١٠) انطونيوس ص٢٠٦

وحاول عبد الله إن يجس النبض لمعرفة ماذا سيكون رد فعل بريطانيا في مثل هذه الحالة ؟ وتساءل :

فإذا قامت، يا صاحب السعادة، ثورة في الحجاز فماذا سيكون رد فعل حكومة صاحب الجلالة البريطاني؟

فأجاب كتشنر بدبلوماسية إنجليزية باردة مخادعة متملصًا من تقديم جواب قاطع أو رد شاف أو أي نوع من الالتزام أو التعهد فقال :

من غير المحتمل أن تتدخل بريطانيا ما دامت سياستها التقليدية هي الصداقة مع الدولة العثمانية. وأن أية مساعدة تقدمها سوف تكون ضمن هذه الدائرة مراعاة لتقاليدها العريقة.

واعتبر عبد الله الجواب مثبطًا للعزائم ومخيبًا للأمل، فصمت.

ولكن كتشنر استشف إن لضيفه أقوالا أخرى يود البوح بها، ولكنه يميل، في اللقاء المذكور، إلى التكتم والتحفظ والإحجام عن التصريح البين. فأوعز إلى ستورز إن يقوم بزيارة الأمير واستجلاء نواياه الحقيقية. وقام ستورز بالمهمة، فرد زيارة الأمير ونجح في كسب ثقته، خصوصًا وإنه كان ملمًا باللغة العربية ويحسن لعب الشطرنج، وهي اللعبة التي كان الأمير مولعًا بها. في اللقاء صارحه عبد الله بمكنونات صدره.

أطلعه على الحالة : الوضع متوتر في الحجاز. وإذا ما تجرأ الأتراك على عزل والده الشريف فإنهم سيواجهون مقاومة عنيفة وقطيعة عربية. ثم أسر له إن الحركة القومية العربية تتطلع إلى التخلص من الأوضاع الراهنة. وأنهى حديثه بالاستفسار عن إمكانية مساعدة والده بإمداده بأسلحة رشاشة.

ولكن ستورز، الحذر الحويط، لم يشأ إن يتورط، فرد بجواب مطاطي، مثبط للهمم، مخيب للآمال وأبى أن يلتزم بأي أمر.

وانتهت الجولة دون أن تسفر عن أية نتيجة ملموسة، ولكنها نبهت بريطانيا إلى العداء المستحكم الذي يكنه الشريف للأتراك واستعداده للتحرك ضدهم. فسجل الملاحظة وتركها لحين استغلالها واستثمارها عندما تحين الساعة الملائمة.

في صيف ١٩١٤م، شهر آب/أغسطس، نشبت الحرب. وصادف إن كتشنر وستورز كانا يقضيان أجازتيهما في إنجلترا وقد شرعا يستعدان للعودة إلى وظيفتيهما في مصر ووصلا ميناء دوفر الإنجليزي للإبحار حين تم استدعاء كتشنر إلى لندن لمقابلة رئيس الحكومة اسكويت، هناك أسندت إليه وزارة الحربية. أما ستورز فأكمل طريقه إلى مصر ليستأنف عمله وحيدًا متحملًا كافة المسئوليات في هذه المرحلة العصيبة(١١) وقد استمر يدير الشئون البريطانية وحيدًا طيلة ٤أشهر، حتى مطلع السنة الجديدة ١٩١٥م، حين تم تعيين السير هنري مكماهون (١٢) معتمدًا بريطانيًا في مصر مكان كتشنر.

بعد أن عاد ستورز إلى القاهرة لم يركن إلى الدعة فأخذ يستذكر مواقف عبد الله وشكواه من الأتراك وبدأ يفكر في طريقه لتجيير هذا الوضع لصالح بريطانيا.

وشرع في تحريك الأمور. كتب إلى كتشنر رسالة شخصية اقترح فيها عليه : هل لك أن تفوضني في التأكد من عبد الله عن الاتجاه الذي سوف يسير فيه العرب في حالة دخول تركيا الحرب؟ وأضاف: من الواضح إنه إذا نجحنا في ضم العرب إلى جانبنا فإن الأمر سوف يضفي، بالإضافة إلى الاعتبارات الكبرى، قوة لمركز قواتنا الجناحية (١٣).

ولم يتأخر رد كتشنر فكان تخويله العمل وفق ما يرى. «فالحاضر يرى ما لا يراه الغائب».

وفي ٢٤أيلول/سبتمبر ١٩١٤م - أي قبل دخول تركيا الحرب بستة أسابيع - أبرق كتشنر لستورز أن يعتمد(رسولًا أمينًا إلى الشريف وابنه عبد الله، على أنه مبعوث من قبلي، ليسأله: «في حال نجاح الدبلوماسية الألمانية في اسطنبول على إرغام السلطان والباب العالي دخول الحرب إلى جانبها فهل سيقف فهل سيقف هو وولده وسائر العرب إلى جانبنا أم ضدنا ؟»

قضى ستورز بضعة أيام حتى عثر على رسول ثقة ليسافر إلى الحجاز ويتسلل إلى مجلس عبد الله دون أن يلفت إليه الأنظار.

---

(١١) الخولي ص١٢٩

(١٢) Sir Henry Mc. Mahon

(١٣) انطونيوس ص٢٠٩

ووصل الرسول، وهو تاجر مصري من حي الجمالية في القاهرة اسمه علي أفندي، مدينة الطائف في حوالي منتصف تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٤م حيث كان الشريف وولداه : زيد وعبد الله يتناولان طعام العشاء. وقد قام الرسول بتسليمهم رسالة كتشنر. وهذا نصها «أمرني اللورد كتشنر وزير الحربية البريطاني أن أكتب لسيادتكم لأسألكم فيما إذا كنتم وسيادة والدكم لا تزالون على رأيكم الأول الخاص بالدفاع عن حقوق العرب. فقد سبق أن أجابكم أنه بإمكانه مساعدتكم على تحقيقها، فإنه باستطاعة حكومة صاحب الجلالة الآن أن تقدم لكم المساعدة اللازمة نظرًا لعزم الحكومة التركية على الدخول في زمرة الأعداء وخرق تقاليد الصداقة القديمة بين البلدين».

بعد أسبوعين عاد الرسول فحمل رسالة ثانية: بما أن الأتراك عزموا نهائيًا على دخول الحرب إلى جانب الألمان،وبما أن الفرصة سانحة لكم لتحقيق مطالب العرب فأنا آسف لتركك كتابي بدون جواب، آملاً الإسراع في إرسال الرد على السؤال.

وقد أطلع الأمير عبد الله والده الشريف الحسين على الرسالة وسأله بماذا يجيب؟ فقال له : أكتب إليه «في الصيف ضيعت اللبن».

وقد وضعت تلك الرسالة شريف مكة في موقف حرج جدًا. وكان أمامه خياران :

١ - الانحياز إلى الدولة العثمانية والوقوف إلى يمينها في محنتها.

٢ - الثورة عليها وتسديد طعنة نجلاء إلى ظهرها أثناء انشغالها بقتال العدو.

وكانت عائلة الشريف منقسمة على نفسها بهذا الشأن يتنازعان تياران :

١ - تيار يتزعمه فيصل ويدعو إلى الانحياز للدولة العثمانية والتجند في صفوفها والاشتراك في القتال معها. وكان يستند في موقفه إلى المبررات التالية :

أ - لفرنسا وبريطانيا مطامع استعمارية قديمة في المنطقة. وهما طامعتان في تقاسم الوطن العربي : فالأولى طامعة في سوريا ولبنان والثانية في العراق وثروته النفطية.

ب - افتقار عروض كتشنر إلى ضمانات مقنعة.

ج - عدم جاهزية العرب للحرب فهم غير جاهزين وغير مهيئين وغير ناضجين للقيام بثورة. وفي هذه الحالة فإن إمكانيات فشل الثورة أكثر من نجاحها. وفي حالة الفشل فإن العواقب سوف تكون وخيمة، لا تقل عن مواجهة أسد جريح بأيد

جريحة فارغة من السلاح [14].

٢ - أما التيار الآخر فتزعمه عبد الله وكان يدعو إلى الانحياز إلى جانب دول الوفاق في الحرب ومبرره في ذلك : الأمل أن يستجيب العالم العربي كله للثورة. وكان عبد الله يعترف أن الضمانات التي قدمها كتشنر لتلبية المطالب بالاستقلال ليست مقنعة وغير كافية، ولكنه كان يتأمل في تحسينها عن طريق المفاوضات والحوار [15].

وتخبط الشريف بين هذين القطبين، واتخذ قراره باعتماد حل وسط :

أ - إيفاد مبعوثين إلى سوريا للإطلاع على حقيقة المشاعر الوطنية ومدى استعداد العرب وجاهزيتهم للثورة على الدولة.

ب - عدم قطع الاتصالات مع كتشنر والإبقاء على شعرة معاوية.

كتب رسالة إلى ستورز في القاهرة، قبل نهاية تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٤م على لسان ولده عبد الله يعرب فيها عن:

١ - رغبته في التوصل إلى تفاهم مع بريطانيا.

٢ - اعتذاره عن عدم تمكنه من تغيير موقف الحياد في الوضع الراهن بسبب ما يمليه عليه مركزه المرموق في الإسلام.

تسلم ستورز المذكرة فحولها إلى كتشنر في لندن.

وقد تزامن وصولها مع وصول مذكرة أخرى مؤرخه، ١٦تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٤م بعث بها جون ماكسويل، قائد القوات البريطانية في مصر، يوصي فيها «بالتقرب من العرب المحيطين بمكة واليمن وتأليبهم على الأتراك».

في ٣١تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٤م رد كتشنر على مذكرة ستورز وطلب إيصالها إلى عبد الله وقد نصت المذكرة على ما يلي :

«السلام على الشريف عبد الله.

لقد نجحت ألمانيا في كسب تركيا إلى جانبها عن طريق الذهب بالرغم من إن الحلفاء: بريطانيا، فرنسا وروسيا قد تعهدوا بالحفاظ على سلامة الدولة

---

(١٤) الخولي ص١٣٠ ، كيالي ص٨٤

(١٥) م.س ص١٣٠

العثمانية إذا هي بقيت على الحياد في هذه الحرب. والحكومة التركية، رغمًا عن إرادة السلطان، قامت بغزو الحدود المصرية.

فإذا كانت الأمة العربية على استعداد لدعم بريطانيا في هذه الحرب فإنها تتعهد بعدم السماح لأي كان بالتدخل في شئون جزيرة العرب، وهي تتعهد بتقديم العون ضد أي اعتداء أجنبي خارجي».

كما تعهدت المذكرة بضمان بقاء شريف مكة في منصبه والاحتفاظ بكافة حقوق هذا المنصب، وامتيازاته كما تعهدت بمساعدة العرب على نيل حقوقهم إذا آزروا بريطانيا. واختتمت المذكرة بالتلميح : «إذا بويع الشريف بالخلافة فإنه يستطيع أن يكون مطمئنًا لاعتراف بريطانيا به».

بالنسبة لبريطانيا اعتبر تبادل المذكرات بداية طيبة تبشر بالخير.. وقد عبر عن ذلك حاكم السودان السير ريغنالد [١٦] وينغت فقال: إن تعامل ستورز مع شريف مكة بشير خير للمستقبل. واعتقد أن هذا الأمر من شأنه أن يلحق هزائم قاسية بالأتراك، كما إنه يدفع العرب للمبادرة بالإمساك بزمام الأمور بأيديهم [١٧].

أرسلت المذكرة قبل دخول تركيا الحرب بساعات، ولكنه كان واضحًا لصانع القرار البريطاني إن هذه الخطوة كانت أمرًا مؤكدًا، فإن الحكومة التركية قد صادقت عليها بعد تفجر الموقف بحادث البارجتين الألمانيتين واستعادة القنصل البريطاني في العاصمة اسطنبول جواز سفره ومغادرته البلاد في ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٤م.

تسلم عبد الله مذكرة كتشنر - ستورز في ١٦تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٤م فأشاعت الرضا والطمأنينة في نفسه، رغم أنها لم تقدم ولم تؤخر بأي أمر ذي بال، ولم تتطرق إلا لمسألة الخلافة، وهي أمر لم يكن بوارد أو بحسبان أي كان.

رد عبد الله على المذكرة بجواب أرسله إلى كتشنر بواسطة ستورز. وقد تسرع، فقيد والده قيدًا قاطعًا بتحالف سري مع بريطانيا ضد تركيا، مع العلم بعد مقدرة الشريف على المجاهرة بأي عمل عدواني ضد الأتراك قبل استكمال استعداداته.

(١٦) Sir Regnald Wingate

(١٧) Wingate to Clayton – Clayton papers p64 -71

وقد طلب عبد الله في رسالته «مهلة زمنية» يهيئ خلالها جميع إمكانيات الثورة إلى حين مواتاة الفرصة المناسبة [١٨].

وبهذه الرسالة انتهى المشهد الأول من الاتصالات الأنجلو - هاشمية. ويمكن تلخيصها :

١- مساع بريطانية لجر العرب إلى جانب دول الوفاق.

٢- تعهد بريطاني بحماية الجزيرة العربية من أي اعتداء خارجي.

٣- مساندة الشريف حسين في مطلبه للخلافة.

والغريب في نهاية هذا المشهد تسرع عبد الله، وهرولته للانحياز إلى جانب بريطانيا. ومحاولته إبقاء الأمر سرًا حتى تحين الفرصة المواتية.

وقد تعددت آراء المؤرخين عن دوافع الشريف وإن كان الكثير يجمعون على عاملين :

١- تلهف الحسين على التاج العربي المقنع بشعار استقلال العرب.

٢- خشية الشريف إن يطيح به الأتراك من منصبه، فلقد كان العداء شديدًا بينه وبين والي الحجاز وهيب بك.

وكان محور الخلاف : إصرار الحكومة التركية على مد خطوط سكة حديد الحجاز التي تربط دمشق المدينة المنورة. وقد عارض الشريف هذا المشروع متذرعًا بالحجج التالية.

١- السكة المذكورة سوف تحرم القبائل البدوية الحجازية من مصدر رزقها : النقليات على ظهور الجمال.

٢- إحكام سيطرة السلطة المركزية التركية على البلاد وفرض قبضتها الحديدية الخانقة عليها.

٣- تعزيز هيمنة الدولة على الحج، فالقطار سوف يتوج الحكومة التركية سيدًا على الحج المقدس [١٩] الأمر الذي يمنحها مركزًا دينيًا مميزًا.

(١٨) انطونيوس ص ٢١٤

(١٩) ولسون ص٦٥

■ المشهد الثاني:

في الأول من كانون الثاني/يناير ١٩١٥م، ومع حلول السنة الجديدة اكتسبت الاتصالات الأنجلو - هاشمية زخمًا جديدًا، فلقد تم تعيين معتمد بريطاني معتمد بريطاني جديد في مصر، هو السير هنري مكماهون، في المكان الذي أخلاه كتشنر.

من الناحية الأخرى طرأ على الساحة العربية مستجدات هامة، فلقد أثار الشريف غضب الحكومة التركية بسبب إحجامه عن تأييد الدعوة إلى الجهاد التي أعلنتها السلطات التركية. فأوعزت إلى والي الحجاز أن يمهد السبيل لاعتقال الشريف على ألا يثير ذلك القبائل.

في الوقت ذاته وجهت الحكومة إلى الشريف دعوة تفيض رقة وتدعوه لزيارة دمشق للتباحث مع جمال باشا القائد العام في شئون الحرب. وعندما وصلت الدعوة كان الشريف يجيل في ذهنه زيارة دمشق بإيفاد أحد أبنائه: عبد الله أو فيصل ليتصل بزعماء البلاد والجمعيات الوطنية لاستطلاع آرائهم بخصوص الانحياز في الحرب إلى دول الوفاق وإعلان الثورة على الأتراك.

في تلك اللحظات وصل رسول من «حزب الفتاة»، هو فوزي البكري، إلى مكة، وهو يحمل الرسالة التالية من الزعماء الوطنيين في الشام والعراق، ومن بينهم ضباط كبار من العرب في الجيش التركي يعربون فيها عن ميلهم إلى الثورة على أمل تحقيق استقلال العرب، فهل يوافق الشريف على قيادة الثورة.

أما الشريف الداهية فلم ينبس ببنت شفة واكتفى بتسريح نظره من النافذة كأنه لا يرى ولا يسمع شيئًا (٢٠).

عزم الشريف إيفاد أحد أبنائه إلى دمشق لاستطلاع الأوضاع. وقد اتخذ قراره بعد أن شعر تغيرًا في موقف والي الحجاز منه. وكان لديه من الأسباب ما يدعوه إلى الاعتقاد أن هذا التغير جاء نتيجة لتعليمات سرية تلقاها من مصادر عليا في الحكومة، فبث الشريف عيونه يرصدون الوالي.

(٢٠) انطونيوس ص٢٣٢

وفي أوائل شهر شباط/ فبراير١٩١٥م، وبينما كان الوالي مسافرًا إلى المدينة المنورة، فقدت إحدى حقائبه. وحينما أحضرت هذه الحقيبة للشريف وجد فيها وثائق تتضمن الدليل على مؤامرة تدبرها الجهات الرسمية على حياته (٢١).

فأرسل إلى الصدر الأعظم برقية تفيد بأن لديه ما يقتضي عرضه من الأمور الخطيرة واستأذنه في أن يوفد أحد أبنائه إلى العاصمة لعرض القضية فوافق الصدر الأعظم.

اختار الشريف "فيصل" ليؤدي المهمة وقضى معه الساعات الطويلة يوصيه ويلقنه وأفهمه أن زيارة الصدر الأعظم وتقديم الشكوى ما هي إلا ذريعة للسفر، أما السبب الحقيقي فهو الاتصال بالحركة القومية في دمشق (٢٢).

وصل فيصل دمشق في ٢٦آذار/مارس١٩١٥م ومكث فيها أربعة أسابيع قبل أن يستأنف السفر إلى اسطنبول.

خلال الشهر الذي مكثه في دمشق، وحل فيه ضيفًا على آل البكري في مزرعتهم بالقابون من ضواحي دمشق، اتصل بزعماء الحركة القومية العربية خاصة أعضاء «العربية الفتاة» وأعضاء جمعية «العهد» وجرت مداولات ومباحثات تحورت حول نقطتين (٢٣):

١- الرغبة في الانفصال عن الأتراك.

٢- الخشية على الوطن العربي من مطامع الدول الغربية، خصوصًا بريطانيا وفرنسا.

تركهم فيصل لاستكمال حوارهم، واستأنف رحلته إلى اسطنبول، على أن يعرج إلى دمشق في طريق عودته، ليأخذ خلاصة ما اتفقوا عليه (٢٤).

وصل فيصل، في ٢٣ نيسان/أبريل١٩١٥م، اسطنبول ومكث فيها أقل من شهر واستقبل استقبالا كبيرًا، وكان على رأس المستقبلين الصدر الأعظم نفسه، الأمير سعيد حليم المصري وطلعت وزير الداخلية وأنور وزير الحربية.

(٢١) المصدر نفسه

(٢٢) م.س ص٢٣٤

(٢٣) م.س ص٢٣٦

(٢٤) م.س ص٢٤٢

في العاصمة قابل السلطان، الصدر الأعظم والوزراء فاستمعوا إلى شكوى والده من والي الحجاز. فأجابوا أن الملام في الأمر كله هو الشريف، فإحجامه عن تأييد دعوة الجهاد، وعن الوقوف جلية إلى يمين الدولة هو سبب كل هذه الإشكالات (٢٥).

ـ بروتوكول دمشق (٢٦)

عاد فيصل إلى دمشق ووصلها في ٢٣آيار/مايو ١٩١٥م ليجد رجالات القومية العربية خاصةً "العهد" و"الفتاة" قد توصلوا إلى تحديد الشروط التي يطالبون بتحقيقها كشرط للانحياز إلى جانب دول الوفاق وهي تتضمن استقلال الوطن العربي بحدود رسموها في الوثيقة المسماة "بروتوكول دمشق" والتي تنص :

١ ـ اعتراف بريطانيا، باستقلال البلاد العربية في المنطقة الواقعة ضمن الحدود: شمالًا خط مرسين، اضنه إلى ما يوازي خط عرض ٣٧شمالا على امتداد خط بيرجيك (٢٧) ـ أورفة ـ ماردين ـ مديات (٢٨) ـ جزيرة ابن عمرو ـ الصمادية إلى حدود إيران.

شرقا على امتداد حدود إيران إلى خليج العرب جنوبًا.

جنوبًا ـ المحيط الهندي (باستثناء عدن التي تبقى محمية بريطانيا).

غربا ـ على امتداد البحر الأحمر ثم البحر المتوسط إلى مرسين.

والحدود بشكل عام تشمل جنوب الأناضول ـ سوريا ـ لبنان ـ شرقي الأردن ـ فلسطين ـ العراق ـ شبه الجزيرة العربية (عدا عدن).

٢ ـ إلغاء الامتيازات الاستثنائية الممنوحة للأجانب بموجب «اتفاقية الامتيازات».

٣ ـ منح بريطانيا الأفضلية على غيرها في المشروعات الاقتصادية (٢٩)

---

(٢٥) الخولي ص١٣٤

(٢٦) انطونيوس ص٢٤٢

(٢٧) Berjik وهي نفسها مدينة البيرة

(٢٨) Mediat

(٢٩) انطونيوس ص ٢٤٣، الخولي ص ١٣٤، كيالي ص٨٥ – ٨٦

عاد فيصل ليبلغ والده الشريف خلاصة لقاءاته في دمشق، وقد حمل معه نسخة من البروتوكول كتبها بخط صغير وسلمها لأحد أتباعه فخبأها في حذائه وخاط عليها بطانة الحذاء.

استمع الشريف إلى تقرير ولده فامتلأت نفسه سعادة وحبورًا فلقد أصاب عصفورين بحجر واحد : فمن ناحية وجد له شريكًا في دمشق يشاركه خططه وآماله، ومن الناحية الثانية حصل على مطالب محددة مفصلة مكان المطلب العام القديم الفضفاض «استقلال العرب».

فلقد حدد البروتوكول حدد ذلك الوطن. والآن يستطيع أن يستأنف المفاوضات مع الجانب البريطاني في مصر، وهذه المرة مباشرة مع المعتمد الجديد مكماهون، وليس عن طريق وسيط مثل ستورز.

وقد شملت هذه الجولة من المفاوضات أربع رسائل موجهة من الشريف إلى مكماهون وأربع رسائل رد من مكماهون إلى الشريف.

كانت فاتحة المراسلات في ١٤تموز / يوليو١٩١٥م وانتهت بالجواب الأخير لمكماهون في ١٠آذار/ مارس١٩١٦م أي إنها استمرت ثمانية أشهر بالتمام والكمال.

المذكرة الأولى من الشريف إلى مكماهون (منتصف تموز/يوليو١٩١٥م)

في منتصف تموز/يوليو١٩١٥م بادر الشريف بإرسال مذكرته الأولى إلى مكماهون فوصلت بعد أسبوعين في أوائل آب / أغسطس١٩١٥م. وقد أحيطت بالكتمان الشديد وحملها رسول اسمه عارف بن عريفان من حاشية الشريف الموثوق بهم.

كانت المذكرة غفلاً من أي توقيع ولم تحمل أي تاريخ، وقد أرفقت بها رسالة من الأمير عبد الله إلى ستورز، وفيها ذكر للشروط التي يشترطها العرب لاشتراكهم في الأمر ودخولهم فيه. وقد ورد في المذكرة :

«أقدّم لجنابكم العزيز أحسن تحياتي الودية واحتراماتي، وأرجو أن تعملوا كل ما في وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة إليكم والمتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية.

بهذه المناسبة أصرح لجنابكم ولحكومتكم بحكم المصالح المشتركة (٣٠).
ثم يجب أن لا تتبعوا أنفسكم بإرسال الطائرات أو رجال الحرب، لإلقاء المناشير وإذاعة الشائعات، كما كنتم تفعلون من قبل، لأن القضية قد حسمت الآن. إني لأرجوكم هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية، لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضي المقدسة، مكة والمدينة، التي أوقف إرسالها منذ العام الماضي. وأود أن ألفت نظركم إلى أن إرسال هدايا هذا العام والعام الفائت سيكون له أثر فعال في توطيد مصالحنا المشتركة».

الجدير بالذكر أنه مع تبادل المذكرات كانت المنح والصلات تنهمر على الشريف، فحتى ربيع ١٩١٩ كانت بريطانيا قد أرسلت للشريف ٥٠ ألف ليرة إسترلينية، في حين أوصلت العاصمة اسطنبول من ٥٠-٦٠ ألف ليرة ذهبية له (٣١).

وكان مرفقًا بالمذكرة الأولى الرسالة التي بعث بها الشريف لـ مكماهون وتتضمن مقدمة تؤكد على تصميم الأمة العربية على تحقيق استقلالها السياسي، وتعرب عن قناعة الشريف بأن المصالح بين العرب وبريطانيا متبادلة. بعد ذلك أوردت شروط الشريف للتحالف باسم الأمة العربية، مع بريطانيا، وهي الشروط ذاتها التي نص عليها «بروتوكول دمشق» وقد نصت المذكرة أن عرض الشريف سوف يظل ساري المفعول لمدة ٣٠ يومًا.

أما الشروط الواردة في المذكرة المذكورة فهي :

١. استقلال العرب في وطنهم بحدوده الطبيعية التي أوردها "بروتوكول دمشق"
٢. شروط تختص بالخلافة وتقضي أنه إذا بويع لعربي بها فإن على بريطانيا الاعتراف به.
٣. المساعدات، خصوصًا هبة القمح التي تقدمها مصر في موسم الحج لتوزع على فقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة، والتي توقفت مع نشوب الحرب، تظل سارية المفعول لمدة ١٥سنة، قابلة للتجديد (٣٢).

---

(٣٠) م. س. ص٥٤٣ - ٥٤٤
(٣١) ولسون ص٥٧
(٣٢) انطونيوس ص٢٥٣

جواب مكماهون الأول على المذكرة الأولى للشريف (٣٠آب/أغسطس١٩١٥م)

جاء رد مكماهون على مذكرة الشريف في ٣٠آب/أغسطس١٩١٥م بعد شهر ونصف من مذكرة الشريف. كان الرد مثلًا طريفًا من أمثلة المراوغة والتملص والروغان، فهو لم يتضمن ردًا قاطعًا بالقبول أو الرفض بل ترك كل شيء مفتوحًا، يحمل السلب والإيجاب. واكتفى بتكرار واجترار التعهدات الغامضة الفضفاضة القابلة لكل تفسير وتأويل، تمامًا كمراوغة سلفة كتشنر. وما أشبه الليلة البارحة !

كان أهم ما يلفت النظر في رد مكماهون هو تملصه من تحديد المنطقة العربية التي سوف تحظى بالاستقلال بحجة «إن الوقت غير مناسب لمثل هذا البحث.. . وإن ذلك مضيعة للوقت ورحى الحرب دائرة»(٣٣).

وأنهى الرسالة بإظهار كرم بريطانيا واستعدادها لإرسال الحبوب والصدقات المقررة من البلاد المصرية، وهي ستصل بمجرد إشارة من سيادتكم وفي المكان الذي تعنيونه(٣٤).

ويعلق انطونيوس على هذا الأمر بأنه دليل على الحمق، ليس لما فيه من مخادعة واضحة، فقط، بل لأنه حاول أن يجمع بين متناقضين : اكتساب الشريف للدخول في التحالف مع بريطانيا؛ ومنعه من الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بواسطتها أن يجعل هذا التحالف فعّالا، وهي تلبية مطالبه في الاستقلال (٣٥).

مذكرة الشريف الثانية (٩أيلول/سبتمبر١٩١٥م) بعد رد مكماهون بأربعين يومًا

وفيها يظهر الشريف استياءه وامتعاضه من البرودة والتردد اللذين أظهرهما مكماهون من مسألة البث بأمر الاستقلال وحدود الدولة العربية وقوله أن البحث في هذه الشئون إنما هو مضيعة للوقت (٣٦).

ثم بين له أن هذه المطالب ليست مطالبه الشخصية، بل هي طلبات شعب بأسره.

---

(٣٣) م.س ص٥٤٩
(٣٤) م.س ص٥٤٩
(٣٥) م. س ص٥٥٠
(٣٦) م. س ص٢٥٥

أما مشكلة الخلافة التي يظن مكماهون إنها كافية لإلهاء العرب وإرضائهم بصفتها الدواء الشافي فقد أعلمه إنه يعتبرها أمرًا ميتًا. «وأما الخلافة فليرحم الله روحها ويهب المسلمون العزاء على فقدها» (٣٧).

فليكف مكماهون عن التلويح بها، وفعلًا توقف هذا عن ذكرها ومحاولة إغراء الشريف بها.

حين تسلم مكماهون مذكرة الشريف تأكد أن أسلوب تغطية الموقف والتعتيم عليه وتمييعه بعبارات طنانة جوفاء وتراكيب لغوية فخمة لا تحمل مضمونًا حقيقيًا لم تعد تفيد ولن تخدع الشريف، ولابد من إظهار الحقيقة ووضع النقاط على الحروف. وعلى هذا الأساس أرسل مذكرات الجوابية.

جواب مكماهون الثاني على مذكرة الشريف الثانية

(٢٤تشرين الأول/أكتوبر١٩١٥م)

أرسل مكماهون جوابه المذكور بعد نصف شهر من تسلمه مذكرة الشريف الثانية. وفيها يبدي اعتذاره عن المراوغة في ذكر الحدود والتخوم للدولة العربية المستقلة المقترحة. ويقول إنه لم يقصد بذلك تجاهل الأمر، ولكنه يرى أن الفرصة غير مواتية بعد لطرح الموضوع.

ولكن، « بما أن الشريف يعتبر ذلك مسألة في غاية الحيوية والإلحاح» لذا فقد أسرعت بإبلاغ حكومة بريطانيا مضمون كتابكم وإني بكل سرور أبلغكم، بالنيابة عنها التصريحات التالية التي لا أشك أنها تنزل منكم منزل القبول.

«إن ولايتي مرسين واسكندرونة» وأجزاء من بلاد الشام الواقعة إلى الجهة الغربية من ولايات دمشق، حمص، حماة وحلب لا يمكن أن يقال عنها عربية خالصة، وعليه يجب أن تستثني من الحدود المطلوبة. ومع هذا التعديل، وبدون التعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب نحن نقبل بتلك الحدود "(٣٨).

---

(٣٧) م. س ص٢٥٦

(٣٨) م.س ص٥٥٦

مذكرة الشريف الثالثة لمكماهون (٥تشرين الثاني/نوفمبر١٩١٥م)

بعد أقل من أسبوعين على تسلم الشريف الرد الثاني لمكماهون على مذكرته الثانية أرسل مذكرته الثالثة. وفيها يبدأ مسلسل متواصل من التنازلات فيوافق على استثناء أضنه ومرسين من المنطقة العربية، لكنه يصر على لواء الاسكندرونة والمناطق الواقعة غرب خط حلب - حمص - حماه -دمشق فيكتب «تسهيلًا للوفاق، وخدمة للرعية الإسلامية نترك الإلحاح وإدخال مرسين واضنه.. أما ولايتنا حلب وبيروت وسواحلها فهي ولايات عربية محضة، ولا فرق بين العربي المسلم والعربي المسيحي فإنهم أبناء جد واحد (٣٩).

أما مطالب بريطانيا من العراق فإن ما طلبه مكماهون من التعاون الأنجلو - عربي في الولايات العراقية فإن الشريف لم يقبله جملة، ولكنه وافق على أن تحتل بريطانيا، لفترة ما، على أن يكون مفهومًا أن ذلك الاحتلال لا يعني، بأي شكل من الأشكال، سلخ أية بقعة عربية، وبشرط أن تقدم بريطانيا مقابل ذلك معونة مالية.

وكذلك بالنسبة للعراق، فإن الشعب العربي لا يستطيع التنازل عن هذا القطر، فهو مهد العرب وحضارتهم.. فلا يمكننا إرضاء الأمة العربية وإرضاخها لترك هذا الشرف، ولكن تسهيلًا للوفاق يمكننا الرضا بترك الجهات التي هي الآن تحت الإشغال البريطاني لمدة يسيرة» (٤٠).

رد مكماهون الثالث على مذكرة الشريف الثالثة (١٣كانون الأول/ ديسمبر١٩١٥م)

تسلم مكماهون مذكرة الشريف الثالثة وبعد ٩ أسابيع رد عليها معربًا عن ارتياحه لقبول الشريف استثناء اضنه ومرسين، ولكنه ظل مصرًا على المناطق الساحلية مكررًا ادعائه أنها ليست عربية محضة.

وأضاف حجة أخرى : وجود مصالح فرنسية في تلك المنطقة «سرني.. قبولكم.. إخراج ولايتي مرسين واضنه من حدود البلاد العربية».

---

(٣٩) م.س ص٥٦٠

(٤٠) م.س ص٥٦٠

أما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى. قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيهما فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق. [٤١].

مذكرة الشريف الرابعة إلى مكماهون

١كانون الثاني/ يناير١٩١٦م(بعد ١٧يومًا)

هنا تأكد للشريف أنه وصل إلى طريق مسدود.. فعلى الرغم من تنازله عن مرسين واضنه إلا أنه الحليف البريطاني لا يزال يصر على استثناء المناطق الواقعة غربي خط حلب - دمشق.

عرف الشريف إنه اصطدم بجدار صلب وبصخرة صماء، فإما تنازل إضافي وانحناء الهامة وإما الإصرار على الموقف.. وليكن ما يكون! وكالعادة اختار الرضوخ والاستسلام، وإن احتفظ لنفسه بحق المطالبة بهما ولو نظريًا.

فكان الحل الشريفي المعهود : تأجيل البت في الموضوع وقبول الاقتراح البريطاني. فأخبر مكماهون إنه «حرصًا منه على تجنب ما يعكر صفو العلاقات الأنجلو - فرنسية فهو سوف يطوي هذا الموضوع طالما القتال مستمر». ولكنه أكد على «أن التنازل عن أي شبر من أراضي تلك الجهات أمر مرفوض» ولم يزد عن ذلك حرفا واحدًا، ولم يطلب أي تفسير أو أي توضيح عن أية نقطة من النقاط، واعتبر أن الصفقة قد أبرمت. وختم مذكرته بتكرار عزمه على إعلانه الثورة العربية في أقرب فرصة ممكنة وإنه سوف يقوم بإبلاغ مكماهون في الوقت المناسب، عما يحتاج إليه من أسلحة وذخائر ومؤن وأموال.

جواب مكماهون الرابع على مذكرة الشريف الرابعة

٣٠كانون الثاني/يناير١٩١٦م

وكانت بعد شهر من مذكرة الشريف الرابعة وفيها يقدم مكماهون شكره لما أبداه الشريف من تفهم ورغبة في تجنب كل ما يعكر صفو العلاقات بين فرنسا

(٤١) م. س ص٥٦٣-٥٦٤

وبريطانيا وأشار في ختام المذكرة : «إنه لا يتوقع أي فتور في العلاقات بينهما بعد الحرب».

وهذا معناه إفهام الشريف سلفًا عدم معارضة مطالب فرنسا في الخط الواقع غربي خط حلب - حماه - حمص- دمشق.

ختمت المفاوضات واعتبر الفريقان أن الصفقة في حكم المبرمة. وفي حقيقة الأمر لم يتم تسوية أية نقطة من النقاط الجوهرية التي دار حولها الخلاف بل تركت على حالها وبقيت شقة الخلاف واسعة.

أما الشريف فقد تسرع وأعلن الثورة ودفع ثمن البضاعة قبل أن يتسلمها، وحتى قبل أن يتعرف على مواصفاتها وحجمها وماهيتها ومضمونها. لقد ابتاع سمكًا في بحر ودخل عش الزوجية قبل أن يحدد المهر !

ويحاول المؤرخ انطونيوس أن يعلل تنازلات الشريف وضعفه وتخاذله بالعامل النفسي، فإنه ذلك الشخص الساذج طيب السريرة المصدق للغير والواثق بحسن نوايا الحليفة بريطانيا. وعلى هذا الأساس وافق راضيًا تسليم زمام أمره لها[٤٢].

والخلاصة : ثورة عربية بقيادة هاشمية تطعن الدولة العثمانية في الظهر مقابل وعد غامض، مبهم وغير ملزم بنوع من الاستقلال في بعض مناطق الوطن العربي.

لقد كانت بريطانيا متلهفة على قيام ثورة عربية، وترى في ذلك أهمية إستراتيجية من الدرجة الأولى. فإن مثل هذه الثورة سوف تعمل على شل دعوة الجهاد التركية وإفراغها من مضمونها.

هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى تجنب تلك الثورة بريطانيا مخاطر ثورة عارمة قد يقوم بها رعاياها المسلمون في مستعمرات ما وراء البحار.

ومن ناحية ثالثة فإنها تضفي شرعية على الطرف البريطاني، وتؤمن بذلك ولاء الرعايا المسلمين وتسكت الأفواه المعارضة المناهضة لدول الوفاق [٤٣].

(٤٢) م.س.ص٢٦٤

(٤٣) ولسون ص ٥٦

عقد الشريف العزم على إعلان الثورة، ولكنه كان مترددًا في تحديد ساعة الصفر، وأخيرًا تقرر أن تبدأ بإطلاق الرصاصة الأولى في ١٩١٦/٦/٥م. وكان ذلك التسرع نتيجة لإشاعة مغرضة روجها الإنجليز، وهي أن الأتراك ينوون إرسال قوات عسكرية للحجاز للقضاء على الشريف وذريته. وانطلت الأكذوبة على الشريف وابتلع الطعم ووقع في الشرك.

ومن الجدير بالذكر أن المراسلات الأنجلو - هاشمية لم يعلم بها أحد من أهل الشام. كما أن أحدًا لم يختر الشريف ليكون ممثلا عنه أو الناطق باسمه.

لقد قام الشريف بالتصرف بمناطق العراق، سوريا، لبنان، فلسطين، دون موافقة أحد أو مشورة أحد. وقد بقي أهل هذه المناطق على جهل مطبق بأمر الثورة.

وحين اتفق الأمير فيصل مع وايزمان ممثل الحركة الصهيونية، في وقت لاحق على قبول الوجود الصهيوني على التراب الفلسطيني لم يكلف الأمير نفسه عناء الاتصال بالفلسطينيين لمشورتهم أو الأخذ برأيهم في مصير بلادهم. وكان الأمير يتصرف بالمنطقة كما يشاء وكأنها ملكه الخاص.

وماذا عن فلسطين بموجب المراسلات ؟

كانت أكثر النقاط إثارة للخلاف مصير فلسطين بموجب المراسلات، فهل نصت أن تكون فلسطين ضمن منطقة الاستقلال العربي أو مضمومة إلى إحدى الدولتين: فرنسا أو بريطانيا؟

بريطانيا وافقت على استقلال العرب، «باستثناء المناطق الواقعة غرب خط حلب - دمشق» وبما أن فلسطين غير واقعة غرب هذا الخط، بل في جنوبه الغربي، فلا يشملها الاستثناء وتكون بذلك ضمن المنطقة الموعودة بالاستقلال.

وهناك العديد من الوثائق البريطانية الرسمية السرية التي تدل دلالة قاطعة على دخول فلسطين ضمن الاستقلال الموعود.

إن المذكرة التي قدمها قسم الاستخبارات السياسية في وزارة الخارجية البريطانية في ١٩١٨/١١/١٤م تحت عنوان «التزامات بريطانيا للشريف»، تشكل دليلا قاطعًا على أن فلسطين تقع ضمن منطقة الاستقلال.

كما أن وزير الخارجية البريطاني صرح في جلسة مجلس الوزراء في

١٩١٨/١١/٢٧م : «إن فلسطين تدخل ضمن المنطقة التي اعترفت بريطانيا بعروبتها واستقلالها في المستقبل» [٤٤].

ويؤكد المؤرخ موريس أن فلسطين لم يرد ذكرها في أي من المناطق المستثناة من الاستقلال، وأن الادعائيين؛ البريطاني والصهيوني إنها خارجة عن المنطقة المستقلة هو ادعاء كاذب، لا يعتمد على أي أساس. كما أن فلسطين لم تذكر بتاتًا في الاتفاقية أو في أية وثيقة أخرى.
وأنهى قائلًا : ويبدو لي أن العرب محقون في ادعائهم [٤٥].

أما توينبي المؤرخ البريطاني الكبير فيؤيد النص العربي بأن فلسطين تقع ضمن المنطقة الموعودة بالاستقلال وقال : «في حقيقة الأمر ضم مكماهون فلسطين إلى الدولة العربية المستقلة».

كذلك كتب ليونارد ستن من جامعة ستانفورد في المذكرة التي كشف منها عن الوثائق السرية في سنة ١٩٦٤م : «أما فيما يختص بفلسطين فإن حكومة صاحب الجلالة قد تعهدت بإدخالها ضمن حدود الاستقلال العربي» [٤٦].

ولاشك أن لهذه الجزئية أهميتها البالغة بالنسبة للأحداث اللاحقة، فإنه بناء على كون فلسطين منطقة موعودة بالاستقلال فإن بريطانيا كانت تفتقر إلى الشرعية والحق في إصدار تصريح بلفور الذي يقضي بإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين.

وقد لخص خبير إنجليزي «مهزلة المراسلات» بأنها عبارة عن لقب تذكاري يمنح العرب انطباعًا وهميًا بأنهم إذا دخلوا الحرب ضد الأتراك، فإنهم سوف يكافئون بالاستقلال لجميع البلاد العربية بعد النصر.

---

(٤٤) كيالي ص ٨٩ وز مكتب السجلات العامة cab/٢٤/٢٧
(٤٥) موريس ص ٧٤
(٤٦) جارودي ص٣٤٤

اتفاقية سايكس بيكو[٤٧]

عشرون يومًا غيرت وجه المنطقة

لم يكد يجف الحبر عن تفاهمات الشريف - مكماهون حتى أقدمت بريطانيا وحليفاتها على عملية غدر، خيانة ونقض للعهود والمواثيق، بعقد اتفاقية تقضي بتمزيق الوطن العربي في سوريا والعراق وتفتيته إلى وحدات إقليمية قزمة ودويلات طوائف واقعة تحت الاحتلال الأنجلو - فرنسي. وبذلك تكون قد أطلقت رصاصة الرحمة على التفاهمات الانجلو - عربية ونسفت ما وعدت به الحليف العربي. هذه الاتفاقية هي اتفاقية سايكس بيكو [٤٨].

ومن الغريب أن المدة الزمنية بين التفاهمات العربية البريطانية والاتفاقية المذكورة لم تتجاوز.. الستة أسابيع والأغرب من ذلك إنه لم يكد يمضي على اتفاقية الغدر سايكس بيكو أكثر من ٣ أسابيع حتى تطوع الشريف بإعلان "الثورة العربية الكبرى " دون أن يعلم ما خبأه له الصديق الحليف البريطاني من خناجر مسمومة وعسل ممزوج بالسم الناقع.

■ **تفاصيل الاتفاقية**

بدأت المفاوضات على الاتفاقية المذكورة في ١٩١٦/٤/٢٦م وانتهت بالتوقيع عليها، في ١٩١٦/٥/١٦م، أي أن المفاوضات والمحادثات لم تستغرق أكثر من عشرين يومًا فقط غيرت الخريطة الجغرافية، السياسية للمنطقة وحطمتها إلى كيانات وطوائف قزمة ترزح تحت الاحتلال.

وقد مرت الاتفاقية بأربع مراحل إلى أن استقرت على نصها النهائي.

المرحلة الأولى: اقتصرت على بريطانيا، فكانت مسألة بريطانية داخلية محضة.

المرحلة الثانية : اقتصرت على بريطانيا وفرنسا.

المرحلة الثالثة : انضمت إليها روسيا القيصرية.

المرحلة الرابعة والنهائية : انضمت إليها إيطاليا.

وبذلك بدأت الاتفاقية أحادية القطب وانتهت الاتفاقية الرباعية.

(٤٧) The Sykes Picot Agreement

(٤٨) جارودي ص٣٤٢

- المرحلة الأولى :

مرحلة بريطانية داخلية. كانت السياسة البريطانية التقليدية، حتى عشية الحرب العالمية الأولى. المحافظة على وحدة الدولة العثمانية وعدم السماح بتقسيمها. ولكن هذه السياسة لم تلبث أن تغيرت بدخول الدولة المذكورة الحرب.

كانت شئون البلاد الواقعة تحت السيادة العثمانية تتداولها الوزارات المختلفة في الحكومة البريطانية، فكل وزارة ومصالحها واختصاصاتها، وكثيرًا ما كانت المصالح والقرارات تتضارب، ويناقض بعضها البعض.

مع بداية الحرب ارتأت الحكومة أن تشكل لجنة وزارية مهمتها التنسيق في العمل بين الوزارات. فشكلت لجنة من ممثلي الوزارات المختلفة : الحربية، الخارجية، المستعمرات وشئون الهند. وقد باشرت عملها حتى أواخر سنة ١٩١٥م وأمنت التنسيق والتناغم في النهج والقرارات والتنفيذ[٤٩].

- المرحلة الثانية : (انضمام فرنسا)

في أوائل ١٩١٦م دخلت فرنسا على الخط. وتوسع عمل اللجنة ليشمل التفاهم والتنسيق بين بريطانيا وحليفتها فرنسا. وعينت لجنة لهذا الغرض. وكان ممثل بريطانيا في اللجنة مارك سايكس [٥٠]وكيل وزارة الخارجية البريطانية، وهو مستشرق وخبير في شئون الهند وصاحب كتاب «رحلات في أرجاء الإمبراطورية العثمانية». أما ممثل فرنسا فكان فرانسوا جورج بيكو[٥١] قنصل فرنسا السابق في بيروت فوزير خارجيتها.

واجتمعت اللجنة ووضعت على جدول أعمالها النقطة التالية :

تفكيك الوطن العربي في سوريا والعراق وتقاسم أشلائه بدأت المفاوضات، وبريطانيا تخفي أمورًا خطيرة عن حليفها العربي الشريف حسين وعن حليفتها الأوروبية فرنسا.

(٤٩) انطونيوس ص٣٤٨

(٥٠) Sir Mark Sykes

(٥١) F. G. Bicot

وبعد مداولات تم الاتفاق على تنفيذ النقطة المطروحة وتفتيت المنطقة [٥٢]، وهي الممتدة من جنوب الأناضول - آسيا الصغرى في الشمال إلى سيناء في الجنوب ومن البحر الأبيض المتوسط في الغرب حتى العراق في الشرق إلى خمس مناطق أو كيانات :

١- منطقة حمراء.
٢- منطقة زرقاء.
٣- منطقة سوداء - بنية.
٤- منطقة - أ-.
٥- منطقة - ب -.

- المنطقة الحمراء (لونت باللون الأحمر على الخريطة المرفقة) تضم جنوب العراق من بغداد حتى البصرة.

- المنطقة الزرقاء (لونت باللون الأزرق على الخريطة المرفقة) وتضم الساحل السوري اللبناني ومنطقة كيليكيا جنوب الأناضول.

- المنطقة السوداء- البنية(لونت باللون البني الغامق على الخريطة المرفقة) وتضم فلسطين بالحدود التالية :

من الغرب : البحر الأبيض المتوسط من عكا في الشمال إلى غزة في الجنوب.

من الجنوب : خط يمتد من غزة في الغرب حتى الطرف الشمالي للبحر الميت في الشرق.

من الشمال : الحدود اللبنانية من عكا في الغرب إلى بحيرة طبريا شمال غور الأردن.

من الشرق : من شمال البحر الميت حتى شمال غور الأردن.

ويلاحظ أن النقب أخرج خارج الحدود الفلسطينية وألحق بالدولة العربية الواقعة تحت النفوذ البريطاني.

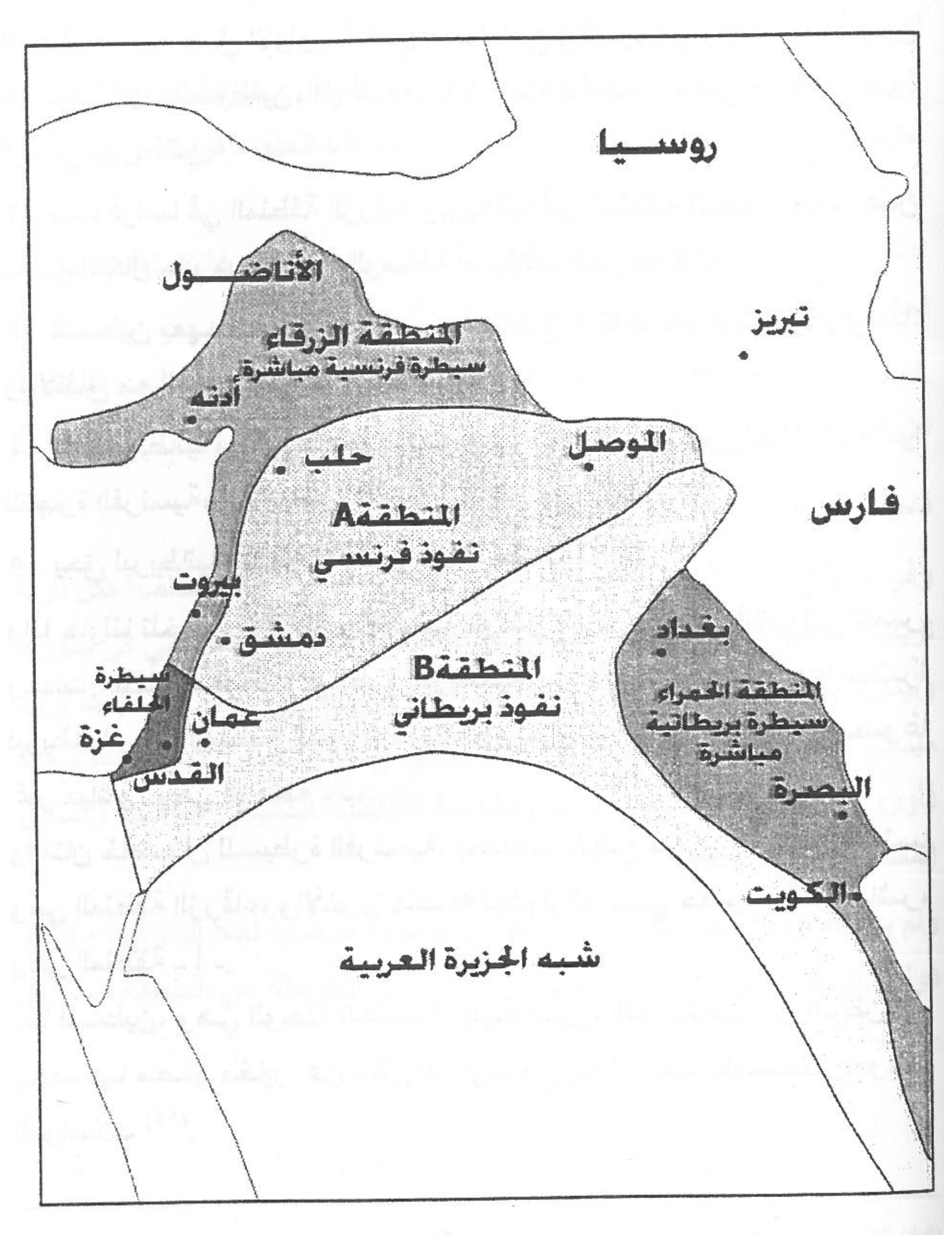
أما من الشمال فقد أخرجت منطقة الجليل خارج حدود فلسطين وأدخلت في المنطقة الزرقاء والمنطقة التالية للحكم الفرنسي المباشر.

---

(٥٢) Lenczowski P70

- المنطقة- أ - : وهي تضم سوريا الداخلية وتشمل القسم الشرقي من بلاد الشام وتمتد حتى جنوبي تركيا.

- المنطقة - ب - : وتضم سوريا الداخلية وتشمل القسم الجنوبي وهي المنطقة المحصورة بين شبه جزيرة العرب والمنطقة - أ -.



- اتفاق سايكس بيكو / ١٩١٦م -

بعد تقسيم المنطقة تضمنت الاتفاقية تقاسمها بموجب البنود التالية :

١ - تعترف كل من بريطانيا وفرنسا بدولة عربية / أو حلف دولة عربية مستقلة برئاسة رئيس عربي، على أن يكون لفرنسا في المنطقة - أ- وبريطانيا في المنطقة - ب- حق الأولوية في المشاريع والقروض والانفراد بتعيين المستشارين والموظفين، أي تقسيم تلك المنطقة العربية إلى منطقتي نفوذ فرنسي وبريطاني.

٢ - تنشأ فرنسا في المنطقة الزرقاء وبريطانيا في المنطقة الحمراء ما ترغبان به من إشكال حكم مباشر، أو بالوساطة أو بالإشراف والمرافقة.

٣ - فلسطين يعهد بها إلى إدارة دولية يتضح شكلها بعد استشارة روسيا، وبالاتفاق مع الحلفاء ومع ممثلي الشريف (٥٣).

٤ - تأخذ بريطانيا مينائي حيفا وعكا، وفرنسا اسكندرونة وتكون حيفا ميناء حرًا للتجارة الفرنسية، والاسكندرونة ميناء حرًا للتجارة البريطانية.

٥ - يحق لبريطانيا إنشاء سكة حديد تربط حيفا بالمنطقة.

وإذا حاولنا تلخيص الاتفاقية وتبسيطها نتوصل إلى أن المنطقة فتتت إلى خمس وحدات: اثنتان خاضعتان للسيطرة البريطانية : إحداهما تخضع خضوعًا مباشرًا لبريطانيا وهي المنطقة الحمراء، والأخرى خاضعة للنفوذ البريطاني خضوعًا غير مباشر، وهي المنطقة - ب-.

واثنتان خاضعتان للسيطرة الفرنسية، إحداهما تخضع خضوعًا مباشرًا لفرنسا وهي المنطقة الزرقاء، والأخرى خاضعة للنفوذ الفرنسي خضوعًا غير مباشر، وهي المنطقة - أ -.

أما فلسطين، وهي الوحدة الخامسة، بنية اللون، فقد سلخت عن الوطن الأم وحدد لها مصير مغاير عن باقي أقطاره، مع إنها وعدت بالاستقلال بموجب المراسلات (٥٤).

---

(٥٣) سويد يس مؤامرات الغرب على العرب ص ٣٤

(٥٤) Lenczowski p

وبموجب هذه الاتفاقية فإن فلسطين تكون قد قسمت إلى خمس وحدات مستقلة.

١ - القسم الشمالي الذي يمتد من شمال بحيرة طبرية حتى عكا على البحر المتوسط، فإنها تكون منطقة زرقاء أي خاضعة لحكم فرنسي مباشر.

٢ - خليج عكا - حيفا وسهل عكا فإنه منطقة حمراء أي خاضع لحكم بريطاني مباشر (٥٥).

٣ - منطقة الوسط وجنوب البلاد وتمتد حتى خط الخليل - غزة فإنه منطقة بنية - سوداء فإنه يكون خاضعًا لسيادة دولية تحت إشراف انجلو - فرنسي - روسي - إيطالي.

٤ - المنطقة الواقعة جنوب المنطقة البنية - السوداء رقم ٣، فإنه منطقة خاضعة لحكم عربي مباشر تحت إشراف بريطاني (٥٦).

٥ - المنطقة الواقعة شرقي نهر الأردن من منبعه حتى يلتقي مع نهر اليرموك في المنطقة - أ - الفرنسية فهو خاضع لحكم فرنسي مباشر.

تدويل فلسطين :

وفي حقيقة الأمر دارت حرب طاحنة على فلسطين بين طرفي التحالف؛ فكل دولة تريدها لنفسها لتكمل وجودها: ففرنسا تريدها تكملة للوجود الفرنسي في سوريا ولبنان، وبريطانيا لتكمل وجودها في العراق وعلى طريق الهند. كما إنها تريد مينائي حيفا وعكا منفذًا يوصل نفط العراق إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط فأوروبا. وقد احتجت كلتا الدولتين بالحجة التقليدية الكاذبة : «حماية الأماكن المقدسة والحج الفلسطيني».

ولم يعد بالإمكان إيجاد حل لهذا التناحر إلا بتسوية مرضية لكلا الطرفين : إدارة دولية لفلسطين. وبذلك تم خلق منطقة جديدة على الخريطة هي المنطقة السوداء - البنية.

---

(٥٥) انطونيوس ص٣٤٨-٣٥٣

(٥٦) הסטוריה של א"י כרך 8 עמ' 12.

- **المرحلة الثالثة :**

كان الحليفان - الشريكان الانجلو - فرنسي على دراية تامة إنه من أجل ضمان موافقة روسيا القيصرية على الاتفاقية لابد من إشراكها في الأمر ومنحها قطعة من الكعكة وحصة من الغنائم.

من أجل ذلك توجه سايكس وبيكو إلى بطرسبورج لعرض مسودة الاتفاقية على الحكومة الروسية وإدخالها شريكًا. وقد شرعا فورًا بمفاوضات فرعية. وقد تولى التفاوض نيابة عن الحكومتين : الروسية والفرنسية سازانوف وزير خارجية روسيا - باليولوج سفير فرنسا في روسيا في ٢٦ آذار/مارس ١٩١٦م(٥٧).

وبعد مفاوضات سريعة انضمت روسيا إلى الاتفاقية، وأصبحت شريكًا ثالثًا، بعد أن ضمنت حصتها من غنيمة الحرب العتيدة. وقد لونت شريحتها باللون الأصفر وتشمل المناطق الداخلية من الأناضول التي تمتد من شمالي منطقة كردستان حتى جنوبي بحيرة فان ومن حدود إيران في مناطق جزيرة ابن عمر، موش، سيرف(٥٨) على خط يمتد من البحر الأسود حتى الموصل ويشمل :

١- أرض روم الواقعة غربي طرازون

٢- العاصمة اسطنبول.

٣- المضيقان البوسفور.

٤- منطقة أورميا الغنية بالرصاص والملح والفضة.

وهكذا منحت روسيا بركاتها للاتفاقية التي أصبحت الآن اتفاقية ثلاثية : سايكس - بيكو - سازانوف.

- **المرحلة الرابعة :**

لم تبق الاتفاقية ثلاثية، بل تحولت إلى رباعية بعد انضمام إيطاليا إلى الحرب والمعاهدة. فحين علمت إيطاليا بالاتفاقية السرية طلبت الاعتراف بمصالحها التي نصت عليها معاهدة لندن لعام١٩١٥م. وقد اضطر الشكاء الثلاثة إشراك شريكهم الرابع الجديد إيطاليا في المعاهدة.. والغنائم.

(٥٧) Sazanov سازانوف هو وزير خارجية روسيا و Paleologue باليولوغ هو السفير الفرنسي في روسيا

(٥٨) Ibn Omar , Mush , S airf

وقد اجتمع رؤساء حكومات : بريطانيا وفرنسا وإيطاليا (٥٩) في سان جين دو مورين (٦٠). في ١نيسان/أبريل ١٩١٧م ومنحوا إيطاليا شريحتها وهي :

١- ولاية أزمير وسناجق منتشه، اضاليا، اتشيلي ومعظم مناطق ولاية قونيا(٦١)

٢- مد سكة حديد في المناطق الجديدة.

٣- أفضلية في التجارة والمشاريع.

٤- تعيين مستشارين وموظفين وطاقم عاملين (٦٢).

بذلك نرى أن كلاً من بريطانيا وفرنسا اقتصرت غنائمهما على الوطن العربي في سوريا ولبنان، في حين تركزت مطامع الدولتين الأخريين. روسيا وإيطاليا على المناطق التركية، في الوطن التركي الصميم.

وكان ذلك لا يعني تصفية الوطن العربي فقط وإنما القضاء المبرم على دولة كبرى، إمبراطورية وأمة عظيمة أيضًا وشطبها من الخريطة الجغرافية للعالم. نعم كان ذلك حكم إعدام بالموت على دول وشعوب بأكملها.

تقييم الاتفاقية

يصف انطونيوس الاتفاقية بأنها رهيبة، وهي كما يقول، «ليست وليدة الجشع في أسوأ صوره، حين يكون مقترنًا بالريب فيؤدي إلى الحماقة، بل هي صورة رهيبة للخداع والمكر» (٦٣).

وقد بين أخطاءها فقال : إن الوطن العربي وحدة جغرافية متكاملة، والسكان متشابهون في الحقائق العامة، توحد بينهم اللغة والثقافة، ويؤثر فيهم جميعًا نمو الوعي القومي. وإن ما فعلته تلك الاتفاقية فهو تقطيع أوصال ذلك الوطن وتكديس العراقيل في سبيل وحدته. وربما كانت هذه الغاية هي المقصودة التي أرادها مهندسو الاتفاقية استجابة لأفكار بالمرستون الحيلولة دون قيام دولة

(٥٩) Lenczowski p 70

(٦٠) St. jean Du Maurene

(٦١) Smyrna, Mentshe, Adalia, Konia , Lenczowski P 72

(٦٢) Lenczowski P 72

(٦٣) م. س ص٣٥٣

عربية موحدة قوية على طريق الهند[٦٤].

ثم يأتي انطونيوس على مجموعة من المغالطات والمفارقات، فيقول إن الاتفاقية خلقت كيانات سياسية منكسة مقلوبة، يصبح فيها المتقدمون متأخرين والمتأخرون متقدمين، وأضاف إنها نوع من أعمال القرصنة ونقض العهود والماثيق، وخفر الدمم.

ويرى السكاكيني المعاصر (م. س) ج ٣ص١١ إن تنفيذ الاتفاقية لا تعني إلا التجزئة. وهذه تقود إلى الضعف والتفكك. إذ «مهما بلغنا من الانحطاط، ومهما اختلفنا في الأخلاق والأذواق والعادات فإن تلافي ذلك ميسور إذا اتحدنا. ولكن إذا تجزأت بلادنا وأصبحت كل قطعة من بلادنا في يد الدولة فإننا لا نلبث أن نصبح أممًا مختلفة لا تزيدنا الأيام إلا اختلافًا.

لا نستطيع أن يكون لنا وجود قومي إلا إذا بقيت بلادنا لنا من أقصاها إلى أقصاها وجمعتنا الوحدة العربية. لا يحترم أحد جانبنا إلا إذا ألفنا وحدة كبيرة. بلادنا واسعة حسنة الموقع كثيرة الشطوط وافرة الخيرات عظيمة الأهمية وعددنا كثير وفينا قابلية أن نتعلم ونترقى. وإذا وجدنا التعلم وبثثنا روحًا عالية في النفوس كنا أمة عظيمة حرى أن يخطب ودها ويخشى جانبها».

ثم أضاف إلى أن التجزأة هي السبيل المؤدي إلى تحقيق أحلام الصهيونية في فلسطين بالإضافة إلى ترسيخ القطرية بين أبناء الشعب الواحد.

أما لويد جورج رئيس الحكومة البريطانية فقد سخر من الاتفاقية واعتبرها وثيقة سخيفة[٦٥] يكتنفها الإبهام ويلفها الغموض، واستغرب أن يقدم شخص بقدرة سايكس على إبرام اتفاقية كهذه وأضاف : حين صيغت الاتفاقية لم يكن الموقف سوى تصور خيالي[٦٦]. وإن هذا التفسير هو الجهل المطبق الذي رسمت به الحدود بموجب الاتفاقية[٦٧].

ويقتبس د. أحمد داود في كتابه «تاريخ سوريا القديم ص٩ الباحث الفرنسي بيير روس عن تفتيت العرب وتجزئتهم فيقول « إنه جنوننا (جنون الغرب ز. ف) المحب

---

(٦٤) م. س ص٣٥٣-٣٥٤

(٦٥) Foolish document

(٦٦) A Story Of Fancy sketsh

(٦٧) جارودي ص٣٤١ ولويد جورج ، The truth about Peace treeties

للخصام الذي فرق الشعب العربي إلى شعوب.. ولماذا؟ لأننا معنيون أن نميز فيهم خصومات عرقية أو طائفية تجبرنا أن نضع بينهم العبرانيين، وذلك لكي نقدم الدليل، بكل ثمن على صحة العهد القديم.

إننا نلمس هنا سجلًا يحمل أفدح أنواع التزوير والتخريب، وليس هناك أصعب من تصحيح مسلمات سيرتنا العقلية التي جمدت في قوالب جامدة من الحقائق».

ـ افتضاح الاتفاقية ـ

تعهد الشركاء المتآمرون الأربعة على كتمان أمر الاتفاقية، والتزموا بعدم تسريب أي خبر عنها، خاصّة للحليف العربي.

بقيت الاتفاقية سرًا مكتومًا طيلة ١٨شهرًا. ولكن حدث في أكتوبر١٩١٧م ما لم يكن بحسبان أحد، فلقد نجحت ثورة أكتوبر الشيوعية في قلب نظام الحكم في روسيا والقضاء على النظام القيصري والإطاحة بالقيصر.

سارع النظام الجديد، بزعامة لينين إلى الانسحاب من الحرب وفضح الاتفاقية، بعد أن عثر على وثيقتها السرية محفوظة في أحد الأدراج المقفلة بوزارة الخارجية الروسية[٦٨].

وكان من أول الأعمال التي قام بها النظام الجديد أن نشر في صحيفة «أزفستينا» (عدد ٢٤نوفمبر١٩١٧م) الاتفاقية بكامل تفاصيلها.

وبعد أيام نشرت الخبر جريدة «المانشستر غارديان» البريطانية. وفي أوائل كانون الأول/ديسمبر١٩١٧م وصل فحواها إلى أحمد جمال فاطلع زعماء العرب وقادتهم عليها. وقام خطيبًا في حشد من الأعيان في مدينة بيروت، فتلا نصوص الاتفاقية وتساءل : أمن أجل هذا قام الشريف حسين بثورته على الدولة؟

ثم انتقد الشريف وطالب بعودته إلى أحضان الخلافة. وقال : إن الشريف سوف يشعر بالتعاسة لأنه استبدل شرف الإمارة الممنوحة له من خليفة المسلمين بعبودية الإنجليز. وأضاف : إذا كان الشريف مسلمًا حقيقيًا ومتصفًا بمزايا العرب وخصائصهم ويشعر بأحاسيسهم، فعليه أن ينفض يديه من الإنجليز ويعود إلى حظيرة الخلافة الإسلامية.

---

(٦٨) الخولي ص٢٤٣

ثم قام بنشر الاتفاقية في صحف بيروت ودمشق. بعد ذلك أوفد رسولاً إلى مدينة العقبة في الأسبوع الأخير من تشرين الثاني/نوفمبر١٩١٧م. وكان الرسول يحمل رسالتين مؤرختين في ٢٦ من الشهر المذكور. الأولى مسهبة موجهة للأمير فيصل، والثانية موجزة موجهة لجعفر العسكري، وهو قائد عسكري بارز من الذين قاموا بالهجوم على مصر. وكان مضمون الرسالتين كالتالي :

١ ـ بريطانيا تمني الشريف بوعود عرقوبية كاذبة.

٢ ـ بريطانيا وضعت مع فرنسا خطة لاقتسام الوطن العربي، فالحلفاء قد خدعوا العرب عندما حرضوهم على الثورة على تركيا وإنهم ينوون السيطرة على المشرق العربي وتقسيمه إلى مناطق نفوذ بينهم.

٣ ـ دعوة الشريف أو من ينوب عنه، إلى دمشق لإجراء مفاوضات تحقق المطالب الوطنية العربية. وكبادرة حسن نية يقترح حكمًا ذاتيًا يحقق فيه العرب أمانيهم القومية، وعفا الله عما مضى [٦٩].

وتسلم فيصل الرسالة ولم يجب عليها، بل أحالها إلى والده في مكة. وكان رد الشريف :

١ ـ أمر فيصل أن يرد بالسلب على عرض أحمد جمال.

٢ ـ حول الرسالتين إلى المعتمد البريطاني في مصر السير ريغنالد وينغت يطلب تفسيرًا. أما وينغت فأحال رسالة الشريف إلى وزارة الخارجية في لندن. فرد الوزير، وهو بلفور، موغلاً في خداع العرب وتضليلهم وطير البرقية التالية للشريف : «إن البلشفيك لم يجدوا في وزارة الخارجية، في بتروغراد معاهدة معقودة، بل محاورات ومداولات بين إنجلترا وفرنسا وروسيا في أوائل الحرب للحيلولة دون وقوع مصاعب وعراقيل أثناء القتال ضد الأتراك. وأن جمال باشا، إما عن جهل أو عن مكر، غير مقصدها الأساسي وأهمل شروطها القاضية بضرورة أخذ رضا الأهالي وحماية مصالحهم»

ثم أردفت الحكومة البريطانية برقية ثانية أوعزت فيها إلى الكولونيل باسيت، المقيم البريطاني في مدينة جدة، زيارة الشريف وقد حاول إقناع الشريف أن

(٦٩) م.س ص ٢٤٠-٢٤٥ ، صبري جريس: تاريخ الصهيونية ص١٧

الحكومة التركية تحاول ذر الخلاف والشقاق بين العرب وحليفتهم بريطانيا وقد زاد باسيت بنقل رسالة من وزير الخارجية بلفور يؤكد التعهدات السابقة بشأن تحرير الشعوب العربية. والمضحك المبكي في موقف بريطانيا هذا إنها لم تحاول أن تنكر الاتفاقية، بل حاولت تفسيرها وتبريرها وتخفيف وقعها، وأصرت على المغالطة المتعمدة وإنكار الحقيقة بعرض صورة مضللة [٧٠].

وكان خاتمة حملة التضليل البريطانية أن أوفدت إلى جدة سايكس [٧١] فاجتمع مع الشريف وغادر جدة ليعود بعد ١٤ يومًا مصطحبًا بيكو ليطمئن بحسن نوايا فرنسا. وفي ١٩ آيار/مايو١٩١٧م عقد الاثنان جلسة مع الشريف وبحثا مستقبل البلاد العربية وكيفية تأمين «المصالح الأنجلو ـ فرنسية» ثم غادرا بعد أن طمأنا الشريف طويل العمر. ويا دار ما دخلك شر.

تصريح بلفور [٧٢] في ٢تشرين الثاني/نوفمبر١٩١٧م

ـ الوثيقة التي حلم بها هرتسل

لم تكتف الميكافيلية السياسية البريطانية، في بداية الحرب العالمية الأولى، بإبرام الاتفاقيتين المتناقضتين المذكورتين آنفًا، بل لم تتورع بعدها عن إصدار تصريح حكومي ثالث يناقضهما. وكان التصريح الجديد بمثابة وعد والتزام يقضي بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، المستقلة بموجب تفاهمات الشريف مكماهون، والدولية بموجب اتفاقية سايكس بيكو. ومن هنا جاء التصريح لينسف ما تقرر بشأنها، ويعد لها مستقبلاً ثالثًا : وطن قومي للشعب اليهودي.

ـ نص التصريح

والتصريح عبارة عن رسالة باللغة الإنجليزية مؤرخة في الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر١٩١٧م وجهها وزير خارجية بريطانيا السير آرثور جيمس بلفور

(٧٠) صبري جريس : م. س ص١٧

(٧١) انطونيوس ص٣٦٤

(٧٢) The Balfour Declaration הצהרת בלפור

١٨٤٣-١٩٢٠م، نيابة عن حكومته، إلى اللورد اليهودي ليونيل ولتر روتشيلد(٧٣) رئيس الاتحاد الفيدرالي الصهيوني. وهذا نصها مترجمًا للعربية :

عزيزي اللورد روتشيلد.

يسرني أن أنقل إليكم بالنيابة عن حكومة صاحب الجلالة، التصريح التالي الذي ينم عن التعاطف مع الأماني الصهيونية اليهودية، وكان قد عرض على الحكومة ونال موافقتها. إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وسوف تبذل جهودها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم بوضوح وجلاء، إنه لن يؤتي بأي عمل من شأنه أن يغير من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية القاطنة الآن في فلسطين، ولا من الحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في الدول الأخرى. أكون شاكرًا لو تفضلتم، بإبلاغ مضمون هذا التصريح إلى الاتحاد الصهيوني.

باخلاص

أرثور جيمس بلفور(٧٤).

أما النص الحرفي الأصلي باللغة الإنجليزي فكالتالي :

Dear Lord Rothschild

I have much pleasure in coveying to you ،on behalf of His Majesty ،Government the following declaration of sympathy with Jewish Zionist aspirations which has been submitted to ، and approved by the cabinet

His magysty government view with favour the establishment in palastin of a national home land for the Jewish people ،and will use the best endeavour to facilitate the achievement of this object ،it being clearly under stood that nothing shall be done which may prejuidice the civil and religious rights of existing non jewish communities in Palestine ،or the rights and political status enjoyed by jews in other countries I should be grateful if

(٧٣) LORD L. W Rothschild

(٧٤) انطونيوس ص٣٧٤

you would bring this declaration to the knowledge of Zionest Federation

Yours sincerely

D. Arthur James Bulfour (٧٥)

وحينما صادقت الحكومة البريطانية على التصريح كان وايزمان يترقب النتيجة، فكتب يقول : « كنت أنتظر خارج مكتب الوزارة البريطانية حينما أحضر لي سايكس الوثيقة مبشرًا » « يا وايزمان إنه غلام ذكر»

وقد علقت الحركة الصهيونية أن المولود هو ابن شرعي، بينما قال العرب : بل إنه ابن سفاح لمؤامرة بريطانية - صهيونية.

ويقول بار زوهر (م. س) ص٥٨ : «لقد كان الإعلان المفاجئ أبعد من أحلام القادة الصهيونيين الأكثر تفاؤلًا».

لقد رفعت هذه الرسالة الصغيرة إلى قمة الحركة الصهيونية نجمًا جديدًا، شخصية كان مقدرًا لها أن تقود الحركة طوال ثلاثين عامًا وهذه الشخصية هي د. حاييم وايزمان الذي رأى فيه الكثيرون استمرارية لهرتسل الذي لقبوه بالملك.

- جذور التصريح

(الحركة الصهيونية تتأرجح بين قطبين) :

عشية الحرب العالمية الأولى كانت الحركة الصهيونية منقسمة بين محورين :

١- المحور الألماني. ٢- المحور البريطاني.

- علو شأن المحور الألماني عشية الحرب العالمية الأولى.

في الفترة المذكورة كان مركز العمل الصهيوني ونشاطه وثقله، يتركز في العاصمة الألمانية برلين مع فروع في لندن وسائر العواصم الأوروبية.

وكانت كفة هذا المحور هي الراجحة نتيجة لعوامل عديدة :

أولاً : لما ليهود ألمانيا من وزن نوعي مادي : نجاح سياسي - اقتصادي - إعلامي.

(٧٥) Lenczowski P 73

وثانيًا : العداء الصهيوني التقليدي لروسيا التي هي عدوتهم وعدوة ألمانيا. وقد حمل المهاجرون اليهود الروس عداءهم المرير لروسيا، ولم ينسوا أن يتهموا الروس أن أيديهم ملطخة بالدماء اليهودية.

وثالثًا : كون ألمانيا حليفة الدولة العثمانية، والقيصر الألماني فردريك ويليم الثاني صديق شخصي للسلطان عبد الحميد. وكان اليهود الألمان على قناعة بأن دولتهم ألمانيا وقيصرهم ويليم سوف يبذلان ما بوسعهما لكل ما فيه خير الحركة ومصلحتها ويعملان على تحقيق أهدافها. وهي سوف تكون أفضل وسيط لدى الحكومة التركية.

ورابعًا : القناعة العمياء بقوة ألمانيا وسطوة قواتها المسلحة، وإن كفتها سوف تكون الراجحة في الحرب (٧٦).

أما ألمانيا فكانت تعي ما للحركة الصهيونية من قوة ونفوذ فسعت إلى كسب رضاها وتأييدها. وقد انعكس ذلك في المنشور الذي أصدرته الحكومة الألمانية ترحب فيه بنية الدولة العثمانية ومساعيها لدعم اليشوف اليهودي في فلسطين. وقد وصفته بأنه يشوف متنام مزدهر ومتطور. والحكومة الألمانية تؤيد حكمًا ذاتيًا وتطورًا حرًا للناحية الثقافية لليشوف اليهودي.

ولم تتوان الحكومة الألمانية أيضًا عن السعي لدى الباب العالي والسلطان لمنح اليهود امتيازات في فلسطين في أوائل ١٩١٧م.

وقد استجاب السلطان فمنح اليهود بعض الامتيازات، وقد ساعده في ذلك أن الحركة كانت تتمتع بنفوذ كبير في أرفع الأوساط الحاكمة في جمعية «الاتحاد والترقي» ونجحت في السيطرة على مجالس الحركة وتحكمت بها. وقد وصل النفوذ الصهيوني في تلك الأوساط إلى حد أن بيتر جيرارد لاوثير، سفير بريطانيا في اسطنبول عشية الحرب أطلق على تلك اللجنة اسمًا جديدًا هو «اللجنة اليهودية للاتحاد والترقي» وكتب أن يهود تركيا هم سادة التلاعب بالسوق السوداء. وهم يتحكمون في عصب الدولة العثمانية (٧٧)، فلا عجب أن طمعت تلك

---

(٧٦) מוריס עמ' 78

(٧٧) מוריס עמ' 78

الجمعية في أن تكسب تأييد الحركة الصهيونية وأملت في انحيازها إلى دول المركز في الحرب إذا علمت على تحقيق المشروع الصهيوني. ولكن تلك المشاريع باءت جميعها بالفشل للأسباب التالية :

١ - المعارضة الشديدة التي أبداها العرب الفلسطينيون خاصَّة النخب منهم : البرلمانيين والصحفيين العرب.

٢ - تمسك أوساط عثمانية حاكمة بسلامة التراب العثماني وجودة أراضيه. والخشية من اقتطاع فلسطين وفصلها عن الدولة. والنتيجة إحجام السلطة الحاكمة عن الانزلاق الكامل في المشروع الصهيوني.

سنة التصريح ١٩١٧م

كانت سنة ١٩١٧م وهي السنة التي أصدر فيها التصريح، مصيرية مفصلية في الحرب وقد تمخضت عن تحولات جذرية في النواحي العسكرية الإستراتيجية والسياسية في الساحة الدولية، وكلها اندرجت سلبًا على دول الوفاق عمومًا، وعلى بريطانيا بصورة خاصة، الأمر الذي اضطرها إلى محاولة التقرب من الحركة الصهيونية لكسب تأييدها وأموالها ونفوذها العالمي، وفي سبيل هذا الهدف كانت على أتم الاستعداد لدفع الكثير وبذل الغالي والرخيص.

١ - الناحية العسكرية الإستراتيجية :

عانت دول الوفاق، وعلى رأسها بريطانيا، من أزمة خانقة في السنة المذكورة، فلقد كانت أسوأ السنوات وأشدها مرارة وخطورة. وبدا مصير تلك الدول أسود قاتمًا. وأخذ شبح الهزيمة يلوح في الآفاق. وكان لابد من إيجاد مخرج ما. وكان المخرج الوحيد الممكن توريط الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب إلى جانب دول الوفاق. ومن يستطيع أن يقنع هذه الدولة الجبارة بالانضمام إلى القتال إلا الجالية اليهودية الأمريكية؟ وهذه الجالية لن تتبرع تلقائيًا لإنجاز المهمة إلا بثمن.. وثمن باهظ، لا أقل من منح الشعب اليهودي وطنًا قوميًا على التراب الفلسطيني.

على كل حال كانت أبرز معالم الحرب السمات التالية :

١ ـ قتال الخنادق [٧٨] : وفيه تمترس كل من الطرفين المتحاربين في خنادق باردة رطبة طويلة وعميقة ممتدة على طول الحدود الألمانية ـ الفرنسية.

وقد عاش الجنود في تلك الخنادق المحفورة في الأرض في أسوأ ظروف. ففيها يأكلون ويشربون ويقضون حاجاتهم. وفيها ينامون ويستيقظون. وفيها يعيشون ويموتون. وكل جندي تجرأ على رفع رأسه فوق مستوى الخندق يجد رصاص قناصة العدو في انتظاره. وهكذا تحول القتال من قتال ساخن متحرك إلى قتال ساكن بارد في الخنادق والاستحكامات والدشم. وقد اشتدت معاناة الجنود المقاتلين واستحكمت ضائقتهم الخانقة وتعاظمت خسائرهم وانهارت معنوياتهم.

٢ ـ تردي الأوضاع الميدانية لدول الوفاق في الجبهة الأوروبية : فقد رجحت كفة المركز وأخذت تكيل الضربات القاتلة المتلاحقة، وبدأت قوات الوفاق تترنح وتفقد توازنها مؤذنة بسقوط وشيك. فمن ناحية فشلت «الحملة الرومانية» التي شنها الروس لاحتلال رومانيا، ومن ناحية ثانية وقفت قوات الوفاق مشلولة عاجزة على الجبهة المذكورة، ومن الناحية الثالثة فشل الإيطاليون في معركة كابورليو.

٣ ـ تردي الأوضاع الاقتصادية : أفرغت تكاليف الحرب الخيالية والهزائم التي منيت بها دول الوفاق في ساحات القتال خزائن تلك الدول وجرتها إلى حافة الإفلاس.

٤ ـ حرب الغواصات الألمانية : وقد زاد من أوضاع دول الوفاق ترديًا خسارتها السيادة في أعماق البحار والمحيطات لصالح الغواصات الألمانية، رغم إنها حافظت على تلك السيادة والهيمنة فوق سطح الماء. وقد نجحت ألمانيا في استحداث عنصر الغواصات الأمر الذي شكل مفاجأة أذهلت دول الوفاق عمومًا، وبريطانيا خصوصًا. فلم يكن في حسابات تلك الدول أن يتحول هذا العنصر سلاحًا فتاكًا مدمرًا رهيبًا. وقد سيطرت الغواصات الألمانية على الأعماق في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي وبحر الشمال. وقد برز مفعول هذا السلاح في قطاعين :

---

(٧٨) المصادر أطلقت عليها اسم "أخاديد الرعب" The Diches of horror

أ ـ ضرب الأسطول الإنجليزي وإغراق العديد من قطعه، وشل البعض الآخر. ويذكر أن كتشنر المعتمد البريطاني في مصر سابقًا، ووزير الحربية لاحقًا، أغرقه مع بارجته طوربيد أطلقته غواصة ألمانية في بحر الشمال.

ب ـ عرقلة الإمدادات التي كانت ترد إنجلترا، خصوصًا من الولايات المتحدة الأمريكية الذي يعني قطع شريان الحياة الذي يغذي الإمبراطورية.

ويذكر أن السبب المباشر الذي دفع الولايات المتحدة لإعلان الحرب على ألمانيا كان إغراق غواصات ألمانية سفنًا تجارية أمريكية تحمل المؤن والعتاد لإنجلترا عن طريق «الشركة المالية» التابعة لمجموعة روتشيلد [٧٩].

وهكذا خسر البريطانيون سفنهم وإمداداتهم التي بلغت ملايين الأطنان من المؤن والذخائر والمعدات [٨٠].

٥ ـ القتال على جبهة قناة السويس حيث ساد الجمود، أيضًا. وكان القائد البريطاني المسئول عن الجبهة، وعن فلسطين، الجنرال مري [٨١] يقف مشلولًا في منطقة العريش في سيناء إزاء خط الدفاع التركي الصامد الممتد من غزة إلى بئر السبع.

٦ ـ معركة غاليبولي على مضيق الدردنيل، وفيها نجح الأتراك في صد الهجوم البريطاني وتكبيده خسائر فادحة في الأرواح والمعدات. وعادت القوات المهاجمة إلى قواعدها مهزومة مدحورة تلعق جراحاتها وتحاول لملمة خسائرها.

٢ ـ الناحية السياسية :

أما من الناحية السياسية فلقد تميزت السنة المذكورة بانقلاب في السلطة الحاكمة في بريطانيا. ففي أواخر كانون الأول/ديسمبر ١٩١٦م جرت الانتخابات البرلمانية. وقد خسرت فيها حكومة اسكويت العمالية لصالح حزب المحافظين الذي ترأسه لويد جورج.

---

(٧٩) الخولي ص١٩٠

(٨٠) شوفاني ص٣٦٥

(٨١) General Murray

حكومة لويد جورج الجديدة[٨٢]

كانت هناك فروق جذرية عميقة تفصل بين سياستي الرئيسين :
اسكويت، الذي خسر رئاسة الحكومة بعد خسارته في الانتخابات البرلمانية.
ولويد جورج الرئيس الجديد الرابح المنتصر.

وقد برزت الفروق في ناحيتين :

١ ـ الناحية العقائدية الدينية.

٢ ـ الناحية العسكرية الاستراتيجية.

ـ بالنسبة للناحية الدينية العقائدية ـ كان لويد جورج وبعض وزرائه الكبار مثل بلفور، وزير الخارجية، والفريد ميلنر[٨٣] وزير المستعمرات وغيرهم معدودين من المسيحيين الأصوليين من غلاة المذهب البروتستنتي الإنجليكاني. كانوا مؤمنين بالعقيدة الدينية المذكورة وبالجذور اليهودية للديانة المسيحية ونبوءات العهد القديم وعودة المسيح وإقامة الدولة اليهودية. كانوا مؤمنين أن عودة اليهود إلى صهيون أمر حتمي تاريخي وقضاء رباني إلهي[٨٤].

ولعل حماس لويد جورج الديني هو الذي شكل لديه دافعًا للانتقام من الأتراك المسلمين على المذابح التي ارتكبوها بحق الشعب الأرمني، وبحق سكان بلاد البلقان المسيحيين الذين رزحوا ردحًا طويلًا من الزمن تحت النير العثماني. وكان الحلم الأكبر الذي يراوده القضاء على الإمبراطورية العثمانية الإسلامية التي تتنكر للحضارة المسيحية وتقف لها بالمرصاد. ولاشك أن الوازع الديني المسيحي العميق في شخصية لويد جورج هو الذي أشعل نيران الحقد والكراهية على الدولة العثمانية الإسلامية ودفعه إلى محاولة الانتقام للمسيحيين في البلقان الذين سقطوا بالسلاح العثماني في القرن التاسع عشر.

وقد تداخلت في شخصية رئيس الحكومة صفة رجل الدين المتزمت الأصولي بصفة رجل الاستعمار وكونت وخلقت لديه الإيمان بوجوب إعادة إقامة إسرائيل الجديدة، فهو يرى التوافق والتناغم بين الصهيونية والحلم الاستعماري.

---

(٨٢) Lyod George

(٨٣) Alfired Milnes

(٨٤) הסטוריה של א"י כרך 8 עמ' 23

لقد تربى على الإيمان بالعقيدة الإنجليكانية والفكر الصهيوني. وقد توصل إلى نتيجة مفادها أن تحقيق الحلم الصهيوني بإنشاء دولة يهودية في فلسطين تحت المظلة البريطانية يخدم الأهداف الاستعمارية والدينية لبريطانيا العظمى. فالدولة اليهودية ليست تحقيقًا لنبوءات العهد القديم وعودة المسيح وإقامة الدولة اليهودية على التراب الفلسطيني فقط، بل اعتمدت أيضًا على موروث سياسي استعماري أيضًا. ومن هنا كانت الدعوات والمحاولات لإقامة الوطن. وقد شكلت هذه الدعوات الأساس لإصدار التصريح. وكانت الأجواء المادية والسياسية في بريطانيا مواتية لقبول هذه الدعوى.

ويذكر المؤرخ شنهاف في كتابه بالعبرية «الانتداب وحطامه» ص٢٩ أن لويد جورج هذا قد آمن بالصهيونية وأيدها قلبًا وقالبًا، جسدًا وروحًا في الفترة المبكرة من حياته منذ سنة ١٩٠٣م وقبلها حين كان صاحب أحد أكبر مكاتب الحقوق في لندن. وقد استأجر وايزمان خدماته ليمثل المنظمة الصهيونية في مفاوضاتها مع الحكومة البريطانية بخصوص توطين اليهود في منطقة العريش في سيناء.

وقد استمر يقدم خدماته الحقوقية للحركة الصهيونية في الفترة اللاحقة حين قدم رئيس الحكومة جوزيف تشمبرلن اقتراح منح أوغندا وطنًا قوميًا لليهود.

والخلاصة إنه يمكن إطلاق تسمية " الصهيونيين الأغيار " على إتباع هذا التيار.
ولم يكن هذا التوجه يتفق مع توجه حكومة اسكويت، رئيس الحكومة السابق، وكان هذا الاختلاف نابعًا الهوة السحيقة التي تفصل بين توجهات الرئيسين والحكومتين. فبالإضافة إلى الفروق في التوجه العقائدي ـ الديني انعكس الخلاف في استراتيجية القتال وإدارة شئون الحرب أيضًا، فاسكويت لم ير في جبهة الشرق الأوسط جبهة رئيسية، بل مجرد جبهة هامشية ثانوية الأهمية، فالجبهة الرئيسية هي الأوروبية وعلى ساحاتها تحسم المعركة ويتقرر مصيرها ومصير العالم معها.

ومع ذلك لابد من الإشارة إلى أن حكومة اسكويت لم تخل هي أيضًا من عناصر صهيونية أيضًا، كان أبرزها السير هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني. وقد

ذكر في مذكراته التي نشرها سنة ١٩٤٥م تحت عنوان «ذكريات» [٨٥] دعوته لإقامة الوطن اليهودي بعد دخول تركيا الحرب. وقد تحدث مع السير إدوارد غراي[٨٦] وزير خارجية بريطانيا في ٩تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٤م ونبهه إلى احتمال تسابق دول أوروبا على تقاسم أشلاء الدولة العثمانية بعد هزيمتها. وستكون فلسطين محط أنظار دول أوروبية عديدة. والحل الوحيد إزاء هذه المنافسة هو تحقيق الشعب اليهودي مشروعه بإنشاء دولته. واقترح أن تكون بريطانيا راعية هذه الدولة.

وبعد أسابيع وضع مذكرة عنوانها «مستقبل فلسطين» تضمنت اقتراح إقامة دولة يهودية في فلسطين تحت إشراف بريطانيا العظمى وقد عدد الفوائد التي سوف تجنيها من هذه الدولة :

١ـ إبعاد فلسطين عن المطامع والتطلعات الفرنسية. لأن تمركز قوة أوروبية كبيرة، مثل فرنسا في فلسطين ومصر، يشكل تهديدًا خطيرًا على الخطوط والمواصلات الحيوية للإمبراطورية البريطانية.

٢ـ مخاطر إبقاء المنطقة تحت السيادة العثمانية لأن ذلك يلحق أضرارًا فادحة بالمصالح البريطانية.

٣ـ وحذر كذلك من مخاطر تدويل فلسطين، لأن التدويل في هذه الحالة قد يكون خطوة تمهيدية لمحمية ألمانية مستقبلية.

وقد خلص إلى الاستنتاج أن الحل الوحيد المنسجم مع المصالح البريطانية هو إقامة دولة يهودية في فلسطين تكون بمثابة درع لمصر. أما واجبات بريطانيا كما يراها صموئيل فهي :

١ـ تسهيل ابتياع اليهود أراضي عربية فلسطينية.

٢ـ تأمين هجرة يهودية إلى فلسطين.

٣ـ المساعدة في عملية بناء مستوطنات يهودية في فلسطين وتقديم التسهيلات لها.

وبذلك يتم تأمين أغلبية سكانية يهودية.

---

(٨٥) Memories

(٨٦) Edmund Grey

وقد حظى اقتراح صموئيل بتأييد عدد من المسيحيين خصوصًا من صفوف المعارضة مثل لويد جورج وبلفور وغيرهم [٨٧].

ومع سقوط حكومة اسكويت العمالية سقطت سياستها أيضًا وتولى الحكم حزب المحافظين برئاسة لويد جورج، والفرق بين الحكومتين شاسعة وعميقة في شتى المجالات، فعلى الصعيد العسكري توصلت الحكومة الجديدة إلى قناعة باستحالة حسم المعركة على الجبهة الأوروبية حيث الحرب، فرأى التحول إلى جبهة الشرق الأوسط فعلى ساحاتها يمكن زعزعة القوات التركية ـ الألمانية المشتركة تمهيدًا لتوجيه الضربة القاضية وتحطيمها.

وقد صيغت خطة عسكرية على هذه الفرضية وقسمت على مرحلتين :

١ـ القضاء على قوات العدو التركي ـ الألماني في الشرق. فهنا مكمن الضعف، وهنا يمكن اختراق الجبهة والالتفاف خلف ظهر العدو من البوابة الخلفية. وعلى هذا الأساس شن البريطانيون هجومهم العام على العراق وفلسطين وسوريا.

٢ـ التحول بعد ذلك لمهاجمة القوات الألمانية على الجبهة الأوروبية من جهة الشرق، وحصرها بين فكي كماشة عملاقة من كلتا الجهتين الشرقية والغربية.

من ناحية أخرى رأى لويد جورج في الحركة الصهيونية حليفًا ونصيرًا. وحين شرع في عملية تشكيل الحكومة اختار الكثير من وزرائها من المؤيدين للحركة وبرنامجها، وأبرزهم بلفور وزير الخارجية ونستون تشرشل وزير البحرية[٨٨] وألحق ذلك بسلسلة طويلة عريضة من كبار موظفي الجهاز البيروقراطي الحكومي من أنصار هذا التوجه الحكومي وشيعته.

أما الوزيران المذكوران فكانا من غلاة المؤيدين للصهيونية وقد كشف أولها بلفور، عن سياسة حكومته حين صرح : «إن الحكومة بصدد منح اليهود المكان المناسب الذي يستحقونه تحت الشمس.. إذ ليس من العدل، أن يظل شعب عظيم مفتقرًا إلى وطن كبير في فلسطين».

واقترح أن يكون هذا الوطن محمية بريطانية بعد انتهاء الحرب، وقد أبدى

---

(٨٧) كيالي ص٩٨

(٨٨) מוריס עמ' 76

معارضته لإقامة دولة يهودية مستعجلة بعد الحرب مباشرة، لماذا ؟ لأسباب ديموغرافية، فإن عدد السكان اليهود في فلسطين يتراوح بين ٩٠-١٠٠ ألف نسمة في حين يبلغ عدد السكان العرب فيها بين ٤٠٠-٥٠٠ ألف نسمة ممن أسماهم « مسلمين من الجنس العربي».

والحل المقترح : ضخ هجرة يهودية متواصلة إلى أن يصبح اليهود أغلبية سكانية. وقد قدر أن هذه العملية سوف تستغرق لا أقل من.. مائة سنة.

أما الوزير الآخر ونستون تشرشل فكان قد بعث بمذكرة في كانون الثاني/يناير ١٩١٥م لرئيس الحكومة حينذاك اسكويت، قبل سقوط حكومته، يقترح ضم فلسطين إلى الإمبراطورية البريطانية بعد تقسيم الدولة العثمانية واقترح هجرة واستيطان يهوديين إلى فلسطين تحت المظلة البريطانية لاستيعاب ٣-٤ملايين يهودي. وبعد شهور قدم اقتراحه رسميًا إلى الحكومة بعد نيل مباركة رئيس حزبه لويد جورج.

وكانت الحركة الصهيونية تعترف لبلفور وتشرشل بمجهودهما المؤيد، واعتادت أن تصفهما بأنهما " رجلانا في الحكومة البريطانية " [٨٩]

أما عن مساهمة تشرشل للمشروع الصهيوني فقد استعرضت صحيفة هارتس في ملحقها بتاريخ ٢٠٠٧/١٠/٣١م الكتاب الذي صدر مؤخرًا بعنوان «Churchill and the Jews» (تشرشل واليهود) للمؤرخ البريطاني مارتن جلبرت (Martin Gilbert) وفيه يكشف توجه وانحياز تشرشل المحموم للصهيونية والهرولة الدؤوبة لخدمة مشروعها فتقول :

الكتاب الذي صدر مؤخرًا يتناول الدور المركزي الذي قام به تشرشل في سبيل إقامة دولة إسرائيل. هذا الدور الذي لا يقل أهمية عن الدور الذي قام به كل من الملك جورج السادس ووزير الخارجية بلفور.

ويكشف الكتاب عن التأييد المطلق لتشرشل وحماسه المحموم للحلم الصهيوني في إقامة الدولة اليهودية، ولا عجب فإنه كان من أشد الناس اندفاعًا وحماسة وإخلاصًا للشعب اليهودي وقد دأب على هذا النهج من يوم ولادته إلى حين

---

(٨٩) מוריס ע 77

وفاته. كان يحيط نفسه ببطانة من الصهيونيين أو مؤيدي الصهيونية، ولم يخف سياسته في مصادقة من يصادقها ومعاداة من يعاديها. وقد استمر على دأبه هذا حتى حين حث صدام عسكري جوي بين طائرات سلاح الجو البريطاني وطائرات إسرائيلية في أجواء منطقة النقب جنوب فلسطين في يناير ١٩٤٩م لم يفتر تأييده وحماسه لدولة إسرائيل.

والجدير بالذكر أن العلاقات الوطيدة التي كانت تربط تشرشل بالحركة الصهيونية لم تكن حديثة العهد ولا وليدة الساعة، بل إنه ورثها عن والده راندولف الذي كان على علاقة شخصية وتجارية وطيدة مع الكثير من زعماء اليهود في بريطانيا، خاصّة نتانئيل روتشلد مؤسس الفرع البريطاني لتلك العائلة ذات الثراء العريض والنفوذ الواسع. وقد عرفت تلك العائلة قيمة الأب فدعمته وقدمته وحرصت على توثيق العلاقات معه. وبعد وفاته استمرت في دعمها للابن ونستون تشرشل خاصّة في أحلك ظروف حياته حين أخذ نجمه يأفل ومنزلته تتقوض في عالم السياسة ووصل إلى شفا الهاوية. في تلك اللحظات العصيبة بادرت عائلة روتشيلد إلى دعمه في حملته الانتخابية سنة ١٩٠٤م في مقاطعة منشستر وسارعت إلى إلقاء طوق النجاة له حين جندت الأصوات اليهودية له، وهي تشكل لا أقل من ثلث أصوات الناخبين.

بعد نجاحه في الانتخابات حفظ تشرشل للعائلة وللناخب اليهودي الجميل واعتبر أن دعمهم له دين يطوق عنقه ويلزمه طوال حياته، فلا عجب أن يسارع إلى وضع نفسه في خدمة الحركة الصهيونية في شتى المجالات. وقد أبدى تعاطفه مع معاناة الشعب اليهودي من اللاسامية إلى المذابح والتهجير الجماعي.

كذلك أبدى إعجابه بالتنظيم والمساندة الداخلية المتبادلة للمجتمع اليهودي في بريطانيا.

كذلك لم ينس الإشادة بتمسك اليهود بعودتهم إلى أرض الميعاد. وقد حافظ كذلك على التزامه لخدمة ناخبيه من اليهود داخل البرلمان البريطاني وخارجه فقاد الحملة المناهضة لتحديد هجرة اليهود إلى بريطانيا.

كما حافظ على إخلاصه وخدمته للمصالح الصهيونية خاصّة عندما تولى وزارة

المستعمرات المسئولة عن الانتداب البريطاني في فلسطين وعن تحقيق تصريح بلفور على التراب الفلسطيني.

الأمر الذي دعا جلبرت إلى القول بأن تشرشل كان المنفذ الحقيقي الأول للحلم الصهيوني كما ورد في التصريح المذكور.

وقد كتب بلفور لتشرشل في فترة لاحقة بعد إقامة دولة إسرائيل : إنك أرسيت أسس الدولة اليهودية فبدون رؤاك النبوئية لما أمكن تحقيق حلم إقامة دولة إسرائيل.

لم يكن هذا الأمر غريبًا على تشرشل فلقد صرح في ١٩٢١م « إن أهم المثل العلى التي أؤمن بها هو المثال الأعلى الصهيوني. وأنا أعترف بأنه ستحوذ على كياني فمنحته عواطفي وتأييدي».

في السنة التالية أثناء زيارته لفلسطين برفقة المندوب السامي الأول هربرت صموئيل ولورانس كشف عن سياسته وتصوراته حين قابل ممثلي العرب الفلسطينيين واليهود الصهيونيين. وقد أبدى معارضته الشديدة وانتقاده اللاذع للموقف العربي المعارض للهجرة اليهودية إلى فلسطين ووصفه بأنه موقف عنصري، في حين أبدى تعاطفه مع الموقف اليهودي الصهيوني، الأمر الذي ترك انطباعات إيجابية لدى اليهود وشدد من عزيمتهم لإكمال مشروعهم الصهيوني. أما بالنسبة للعرب فقد تركت مواقفه خيبة أمل عميقة ومرارة شديدة.

وبعد الانتداب أصدر كتابًا أبيض سمح فيه بفتح بوابات فلسطين للهجرة اليهودية. الأمر الذي مكن خلال الـ ١٤ سنة لاحقة من إدخال ٣٠٠ألف مهاجر يهودي إلى فلسطين. وطالما أكد على موقفه الثابت أن حق الهجرة اليهودية إلى فلسطين هو حق تاريخي وليس منة نابعة من المعاناة اليهودية. وقد استمر على موقفه الداعم للهجرة طوال فترة حكمه كوزير للحربية ثم للمستعمرات وأخيرًا كرئيس حكومة، وذلك رغم معارضة بعض وزرائه.

لم يكتف تشرشل بدعمه للهجرة فقط بل تعداه إلى العمل لتقوية اليشوف اليهودي في فلسطين بشتى الوسائل والإمكانيات. وقد ساعده على ذلك البطانة التي كانت

تحيط به من اليهود الصهيونيين، وعلى رأسهم حاييم وايزمان ومن الصهيونيين من غير اليهود.

والجدير بالذكر أن مواقفه المذكورة لم تكن استجابة لدوافع سياسية مصلحية - شخصية فقط، وإنما دينية أيضًا فقد كان مؤمنًا بالعهد القديم مقتنعًا بالتأييد الرباني للشعب اليهودي والوعد الإلهي بمنحهم الأرض الميعاد.

وكان من آثار هذا الإيمان أنه كان يقتبس ويسترشد بالشخصيات التوراتية ويؤمن بالنبوءات التي أوردتها التوراة.

إلى جانب رئيس الحكومة والوزيرين المذكورين دعم هذا التوجه الصهيوني طاقم من كبار المواطنين في الوزارات ممن خولوا، مجتمعين ومتفرقين، مهمة تشكيل السياسة الخارجية الشرق أوسطية. وكان أبرزهم ثلاثة، السير مارك سايكس، وهو مسيحي صهيوني، ومهندس اتفاقية سايكس بيكو، ويليام أورمسبي غور، وليوبولد ايمري وكلاهما عضوا برلمان، ومن غلاة المتحمسين للصهيونية. وقد وصفهم أحد المؤرخين أنهم : «القوة الدافعة المحركة لحكومة لويد جورج في كافة الأمور التي لها علاقة بالشرق، وخاصّة بفلسطين والحركة الصهيونية، فأولهم كان يضغط منذ ١٩١٥م لإقامة وحدة عسكرية يهودية تشترك في القتال مع دول الوفاق.

وثانيهم كان مسئولًا، أثناء إقامته في القاهرة، عن تفعيل شبكة تجسس يهودية في فلسطين أثناء الحرب، هي شبكة «نيلي».

وقد انضم إلى هذا الثالوث اثنان آخران كانت لهما نفس الاتجاهات الفكرية، وقد عملا في وزارة الخارجية البريطانية وهما : روبرت سيسيل ورونالد غريهام.

كان الثاني قد قام بإقناع بلفور أن ألمانيا على وشك إصدار تصريح مؤيد للصهيونية ومشروعها، الأمر الذي يضمن انزلاق الحركة إلى الجانب الألماني وارتمائها في أحضان دول المركز وسحب البساط من تحت قدمي بريطانيا.

وكان للاثنين مجتمعين الأثر الفعال لاحقًا في استصدار التصريح.

بالإضافة إلى كل هذا الطاقم تسلم عدد من الشخصيات البريطانية المؤيدة للصهيونية مناصب رفيعة في الدومنيونات البريطانية وفي مركز صناعة القرار

البريطاني وأبرزهم : الجنرال أيان سماطس الذي نشأ في جنوب أفريقيا وتربى تربية دينية على العهد القديم وآمن بعودة المسيح وإقامة دولة اليهود.

وقد شكلت هذه المجموعات المتناغمة شبه اوركسترا تدعو وتعمل على تحقيق المشروع الصهيوني، ضاربة عرض الحائط بالشعب العربي الفلسطيني ووجوده وحقوقه وتنكرت له وأسقطته من حساباتها ورفعت شعارها «أما العرب فليذهبوا إلى الجحيم».

ولم تكن حكومة لويد جورج تعمل في فراغ، فلقد كان يساندها في توجهها الصهيوني رأي عام بريطاني موات مساند داعم، وتنظيم صهيوني ضاغط فعال أشرف عليه حاييم وايزمان، الذي كان يعمل جاهدًا منذ ديسمبر ١٩١٤م، لحشد التأييد البريطاني للصهيونية ومشروعها. وقد استعان باثنين من أكبر رموز الحركة هما : ناحوم سوكولوف وتشيلنوف [٩٠].

وبدأوا يسعون لتأمين الحصول على براءة بريطانية لإقامة الدولة، ولكنهم لم يلقوا نجاحًا في بادئ الأمر بسبب الموقف المتحفظ لاسكويت وحكومته. ولكن الأوضاع لم تلبث أن تغيرت مع نشوب الحرب العالمية الأولى وانضمام الدولة العثمانية إلى جانب دول المركز، الأمر الذي أسفر عن تقسيمها وتقاسم أشلائها. وكانت فلسطين من حصة الجانب البريطاني الذي فرض انتدابه عليها، وتسلح بصك الانتداب الذي نص على إلقاء مسئولية إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين على عاتقه [٩١].

ويذكر شنهاف (م. س) ص١٥ أن آحاد عام وصف العلاقات البريطانية - الصهيونية في الفترة المذكورة بأنها فترة شهر عسل صهيوني - بريطاني.

ـ الدوافع المباشرة لإصدار التصريح

عملت الحركة الصهيونية في مناخات مواتية مريحة في بريطانيا، متمتعة بدعم كبير في كل من الأوساط الحكومية والشعبية والكنسية نتيجة لـ :

(٩٠) Tschlnov

(٩١) מוריס עמ' 77

١- التقارب الذي دعا إليه بعض منظري العقيدة البروتستانتية والحركة الصهيونية.

٢- تطابق المصالح البريطانية الاستعمارية مع المصالح الصهيونية وتلاقيهما في نقطة وجوب إقامة وطن قومي للشعب اليهودي على التراب الفلسطيني.

٣- تولى الحكم حكومة لويد جورج المؤيدة للصهيونية.

وقد ساعدت كل هذه الأجواء المريحة الحكومة على إصدار تصريحها لصالح الوطن القومي.

وقد ساهم على إصدار التصريح بالإضافة إلى هذه الأجواء عوامل إضافية منها : مساهمة الدكتور حاييم وايزمان زعيم الحركة، والمحاضر لموضوع الكيمياء العضوية في جامعة مانشستر في إنجلترا، في المجهود الحربي لدول الوفاق، وذلك باختراع طريقة جديدة لإنتاج مادة الأسيتون الصناعي، وهي إحدى مركبات المواد شديدة الانفجار [٩٢] وكان قد توصل إلى اختراعه سنة ١٩١٥م، أولى سنوات الحرب، عندما أدار مختبرًا للكيمياء في جامعة مانشستر الإنجليزية وبعد أن قدم اختراعه لوزير أسطول جلالة الملك ونستون تشرشل اجتمع مع لويد جورج رئيس الحكومة ومع اللورد بلفور وزير خارجيتها لبحث تقنية الاختراع والاستفادة منه.

وقد تجنب وايزمان في هذا اللقاء طرح المشروع الصهيوني. وفي نهاية الاجتماع توجه بلفور إلى وايزمان قائلًا :

«هل تعلم إنك قد تحصل على أورشليمك بعد الحرب ؟» [٩٣]

وفي خطاب للويد جورج في ٢٥آيار/مايو١٩١٥م أورده «جلبر» في كتابه عن تصريح بلفور، أعرب عن امتنانه وتقديره لوايزمان وشاد بمساهمته العلمية الكبيرة التي ساعدت في المجهود الحربي البريطاني.

وأضاف : «إنني أعبر عن امتناني العميق وامتنان حلفائنا للعبقرية العلمية الرائعة للدكتور وايزمان على اختراعه الكيماوي الخطير والهام الذي ساعد

(٩٢) سويد ص٤٤

(٩٣) الخولي ص٢٠٧

بريطانيا في أحلك ساعاتها ! ولما طرحنا عليه بماذا يمكننا أن نساعدكم ؟

أجاب : أمنيتي أن تتاح لي الفرصة أن أخدم شعبي بأية وسيلة من الوسائل ! كان هذا الأمر يساوي الكثير من الشرف والمال. ولكن جميع أمنياته اقتصرت على مسألة البعث القومي لشعبه في وطنه القديم» [٩٤].

ويرفض الخولي هذا الدافع ويقول : إنه يعقل أن يصل تقدير رئيس حكومة بريطانيا لأستاذ جامعي إلى حد تقديم هدية، هي عبارة عن وطن قومي لليهود في فلسطين، مهما كان هذا الأستاذ عملاقا في تخصصه [٩٥].

ويطيب لبعض المؤرخين أن يقدموا دافعًا إضافيًا، وهو ابتياع الحركة الصهيونية سندات ديون الحرب التي أصدرتها الحكومة البريطانية.

والمؤرخ انطونيوس يرفض الادعاء ويصفه بالأسطورة وقال : إن كافة الشواهد لا تؤيد هذه المزاعم «فمعظم اليهود الذين ابتاعوا السندات المذكورة كانوا من المعارضين للحركة الصهيونية ومشروعها» [٩٦].

على كل حال يمكننا أن نلخص : إنه مهما بلغ وزن الدوافع المذكورة، ومهما قل وزنها أو عظم، فلاشك أن أعظمها شأنًا وأرجحها وزنًا كان دافعين :

أولهما محاولة تجنيد يهود روسيا ليحولوا دون انسحابها من الحرب. وقد ترجح هذا الاحتمال مع ثورة آذار ١٩١٧م التي سبقت ثورة أكتوبر الشيوعية من العام نفسه حين رفع النظام الثوري الجديد شعار انسحاب روسيا من الحرب وانكفائها إلى داخل حدودها. وكان لهذا الأمر مخاطره الكبيرة على دول الوفاق، فإنه يكشف قواتها، خاصّة على الجبهة الشرقية، للآلة العسكرية الألمانية ـ التركية من ناحية، ويحرر القوات التركية من أعباء القتال على الجبهة الروسية، ويتيح لها نقل قواتها لمواجهة قوات بريطانيا المتقدمة من مصر لغزو سوريا من الناحية الأخرى.

لقد كان إبقاء الروس قوة مقاتلة حليفة مشتركة في القتال أمرًا ذا أهمية إستراتيجية بالغة. واعتبرته دول الوفاق، خاصّة بريطانيا، مسألة حياة أو موت.

---

(٩٤) انطونيوس ص٣٦٧
(٩٥) م. س ص٣٦٥
(٩٦) جارودي ص٢٠٧

وقد علقت بريطانيا آمالا على يهود روسيا لتحقيق هذا المطلب، خاصّة وأن أبرز المشاركين في الثورة كانوا من اليهود. وقد تمثلوا في القيادة الثورية العليا وأصبحوا من صناع القرار في روسيا ودعامة رئيسية لنظام الحكم الجديد.

أما الدافع الثاني لتقديم بريطانيا تصريح بلفور فكان نجاح الحركة الصهيونية في توريط الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب. كان الوضع العسكري لدول الوفاق قد تدهور في سنة ١٩١٧م وأصبح توريط الولايات المتحدة في الحرب مسألة حياة أو موت لها : فدخولها الحرب أو إحجامها عنها معناه النصر أو الهزيمة. وكان من أوائل من فطن إلى هذه المسألة شخص أرمني اسمه جيمس مالكولم وقد شدد على ضرورة التحالف مع الولايات المتحدة.

ولكن موقف الإدارة الأمريكية كان الالتزام بموقف الحياد بين القطبين المتحاربين وعدم الانزلاق إلى أي منهما، بل إنها رأت أن واجبها يقتضيها بذل مساع حميدة لإيقاف نزيف الدماء. ومن أجل ذلك كلف الرئيس وفدًا أمريكيًا يرأسه هنري مورغنتاو، سفير أمريكا في اسطنبول، وعضوية نيقولا فرانكورتر وليفين اينشتاين وجميعهم من اليهود الأمريكيين من ذوي النفوذ للتوسط لبذل المساعي الحميدة لإيقاف القتال. وقد سافر الوفد إلى جبل طارق في أسبانيا (منطقة محايدة) ليعرض على الأتراك وقف القتال. وهناك انضم إلى الوفد شخص يمثل فرنسا، وكان يهوديًا أيضًا، وفي حقيقة الأمر لم تكن بريطانيا ولا الحركة الصهيونية معنيتين بإنهاء القتال بتسوية : لا غالب فيها ولا مغلوب. وإنما تسعيان إلى حسم عسكري ينتهي بهزيمة ساحقة ماحقة للدولة التركية تفككها، تمهيدًا للاستيلاء على أشلائها وأولها فلسطين، الهدف المباشر للحركة الصهيونية. وقد تعاونت كل من بريطانيا والحركة الصهيونية لإحباط المساعي الحميدة الأمريكية لمحاولة إنهاء القتال، وبالسرعة الممكنة، فأوفدنا الدكتور حاييم وايزمان وعهدنا إليه بمهمة نسف المفاوضات. وقد وصل إلى جبل طارق ونجح في ذلك، فانهارت المفاوضات وتقوضت مساعي الرئيس الأمريكي وإدارته [٩٧].

---

(٩٧) م.س ص٣٦٥

خلصت الحكومة البريطانية إلى القناعة بوجوب جر الولايات المتحدة إلى الحرب، وكانت مستعدة للجوء إلى أية وسيلة ممكنة ودفع أي ثمن لتحقيق هدفها، والغاية تبرر الوسيلة.

توجهت الحكومة أول الأمر إلى فرنسا في محاولة وساطة لإقناع الرئيس الأمريكي بالانحياز في الحرب إلى دول الوفاق. ولكن محاولات فرنسا باءت بالفشل ؛ فالاعتبارات الداخلية الأمريكية تدعو إلى الالتزام جانب الحياد.

أوكلت بريطانيا هذه المهمة إلى إيطاليا، فلاقت المصير نفسه. ولم يبق إلا استعمال الورقة الأخيرة : إقناع الحركة الصهيونية باستخدام اليهود في أمريكا وسيلة ضغط لثني الإدارة الأمريكية عن موقف الحياد. ويهود أمريكا قوة اقتصادية سياسية إعلامية يحسب لها ألف حساب.

وكانت الجالية اليهودية الأمريكية منقسمة إلى ثلاث تيارات متباينة :

١ ـ تيار يميل إلى الانحياز لدول الوفاق بصفتها أفضل ضمان لمنح الحركة الصهيونية مطلبها في وطن قومي يهودي في فلسطين.

٢ ـ وتيار يميل على الانحياز إلى دول المركز، وكان يتشكل من اليهود الذين هم من أصل ألماني أو روسي ممن لا يشكون بأن الحرب سوف تسفر عن نصر مؤزر لألمانيا.

٣ ـ وتيار يرى الوقوف موقف الحياد ريثما تنجلي الحرب عن منتصر ومهزوم[٩٨].

وكانت بريطانيا قد فطنت لما ليهود أمريكا من نفوذ. وقد صرح روبرت كرو، نائب وزير الخارجية، «إنه من الواضح إن الفكر الصهيوني يحمل في طياته إمكانيات سياسية واسعة. إنه بامكاننا أن نتأمل أن القوى اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي الشرق وفي كل مكان آخر ممن يكنون العداء لنا، سوف يتحولون إلى حلفائنا إذا وعدناهم بفلسطين»[٩٩].

أما سايكس فقدم تقريرًا إلى حكومته أبدى فيه ثقته العميقة إنه من الممكن

(٩٨) جارودي ص٢٠٧

(٩٩) מוריס עמ 78

التعويل على اليهود الأمريكان في زج الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب إلى جانب الوفاق إذا منيناهم بفلسطين. وهذا الأمر ممكن إذا نجحت بريطانيا أن تصبح دولة منتدبة على فلسطين بعد الحرب[١٠٠].

وفي الاتجاه المذكور ربطت صلة وثيقة بين المنظمة الصهيونية والمخابرات البريطانية والإدارة الأمريكية، فعقدت سلسلة من اللقاءات والاجتماعات بين قادة الحركة وكبار المسئولين البريطانيين وانتهت إلى اتصال الحركة، بزعامة وايزمان، بالقاضي براندیس وكان يشغل منصب مستشار الرئيس الأمريكي ودرو ولسون. ونقلوا إليه أن الحكومة البريطانية مستعدة لمساعدة اليهود في الحصول على فلسطين مقابل دعم يهودي أمريكي نشيط لقضية الوفاق[١٠١]. وانطلقت الهرولة البريطانية اللاهثة وراء اليهود في أمريكا. والخلاصة أن القيادة البريطانية توصلت إلى قناعه بأن تجنيد يهود روسيا ويهود الولايات المتحدة لصالح الحلفاء سوف ينعكس في إنجازين :

١ ـ الحيلولة دون انسحاب روسيا من الحرب.

٢ ـ جر الولايات المتحدة إلى الحرب إلى جانب الحلفاء.

كما عبر عن مجموعة الأفكار السابقة بخصوص الوظيفة التي يمكن أن تمارسها الحركة الصهيونية على الصعيدين الروسي والأمريكي اللورد بلفور أيضًا في جلسة الحكومة في ٣١تشرين أول/أكتوبر١٩١٧م، بعد الجلسة التي صودق فيها على إصدار التصريح قال :

«يظهر أن الأغلبية الساحقة من يهود روسيا وأمريكا». وفي جميع أنحاء العالم يؤيدون الصهيونية ونحن، إذا تمكنا من إصدار تصريح لصالح مثلهم الأعلى، فإنه بإمكاننا أن نقوم بحملة إدعائية واسعة وناجحة في كل من روسيا وأمريكا.

إن نشاط الحركة الصهيونية لم يقتصر، عشية الحرب، على ألمانيا وبريطانيا، بل تعداهما إلى فرنسا أيضًا وأخذت الحركة الصهيونية تضغط على الحصول على إعلان فرنسي مؤيد مشروع الوطن القومي اليهودي على التراب الفلسطيني.

(١٠٠) هيكل ص٤٣-٤٤

(١٠١) كيالي ص٩٨

وكان أخشى ما تخشاه الحكومة البريطانية أن تسبق ألمانيا أو فرنسا دولتهم بريطانيا في إصدار مثل هذا التصريح وتحوزان على تأييد وعطف وأموال الحركة الصهيونية.

وقد بدأت الحركة الصهيونية تلوح للويد جورج رئيس الحكومة بالبعبع الألماني وإنه قد يفاجئ العالم بإصدار تصريح داعم للوطن القومي اليهودي. رأت الحركة الصهيونية أن الحلقة الأضعف هي فرنسا فوجهت ضغوطها على تلك الدولة لعصرها. وقد أسفرت الجهود عن إقناع حكومتها بتأييد المشروع، فأوفدت في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٥م فيكتور باش [١٠٢] وهو يهودي بارز من جامعة السوربون، إلى الولايات المتحدة الأمريكية وهو يحمل خطابًا من رئيس حكومة فرنسا كليمانصو يعرب فيه عن عزمه على العمل على حماية اليهود وتأمين حريتهم في فلسطين خلال المفاوضات المستقبلية التي سوف تتناول مصير الدولة العثمانية بعد هزيمتها [١٠٣].

بعد أكثر من سنة ضاعفت الحركة الصهيونية من ضغوطها على الحكومة الفرنسية لحملها على تأييد المشروع ففي ٨-٩ شباط/فبراير ١٩١٧م اجتمع قادة الحركة ببيكو الذي كان موجودًا حينذاك في السفارة الفرنسية في لندن. وقد حاولوا في هذا الاجتماع كسب تأييد فرنسا وتجنيدها للمشروع. وكان أبرز أعضاء الوفد الصهيوني سوكولوف [١٠٤] المعروف بميوله الشديد لفرنسا وعلاقته الحميمة مع الأوساط الرسمية وغير الرسمية الفرنسية، فطلب من بيكو السعي لدى الحكومة الفرنسية الموافقة على تحويل فلسطين لانتداب بريطاني مباشر. وكان جواب بيكو الرفض. ولكنه أبدى استعداده تبني المشروع الصهيوني تحت المظلة الفرنسية [١٠٥].

لم ييأس سوكولوف، بل توجه إلى باريس ونجح في إقناع الخارجية الفرنسية إن الوقت ملائم لإصدار تصريح مؤيد للصهيونية. وقد أبدى سوكولوف استعداده،

---

(١٠٢) Victor Basch

(١٠٣) الخولي ص١٨٦

(١٠٤) חיים סוקילינ

(١٠٥) الأحمد ص ١١٨

في مقابل تصريح كهذا، للعمل على تجنيد يهود روسيا لإقناع حكومتهم بعدم الانسحاب من الحرب.

وفي ٤ حزيران/ يونيو١٩١٧م أصدر مدير عام وزارة الخارجية الفرنسية جول كامبون تصريحًا سبق فيه تصريح بلفور بستة أشهر قال : «إنك يا سوكولوف تعتقد إنه إذا تهيأت ظروف مواتية، وإنه إذا أمكن توفير حماية للأماكن المقدسة في فلسطين، فإن بعث القومية اليهودية في تلك البلاد، التي تفجر منها اليهود قبل سنوات عديدة، يكون أمرًا عادلاً ومنصفًا يعوض عن الأخطاء السابقة التي ارتكبت بحقهم».

إن حكومة فرنسا التي تخوض الآن حربًا للدفاع عن شعب واقع تحت الاحتلال، هو الشعب البلجيكي، سوف تستمر في خوضها إلى أن ينتصر الحق والعدل على القوة، وهي لا يمكنها أن تكن التأييد للقضية التي تناضلون في سبيلها، والتي سوف يكون انتصارها مرهونًا بانتصار دول الوفاق» [١٠٦].

ومن مفارقات الأقدار أن هذا التصريح الفرنسي قد مهد الطريق لتصريح بلفور اللاحق الذي كان أحد أهدافه الرئيسية سد الطريق في وجه أي تدخل فرنسي محتمل في فلسطين.

والغريب أيضًا أن هذا التقارب الفرنسي الصهيوني، والتصريح الفرنسي المؤيد للمشروع الصهيوني قد استعمله سيسيل وغيرهم محفزًا لبريطانيا للإسراع في إصدار التصريح [١٠٧]. فقد عمل موقف فرنسا من الوطن القومي اليهودي على إقناع بريطانيا بضرورة الخطوة وإمكانية تنفيذها دون أن يثير الأمر ضجة. فكان لابد لبريطانيا من أن تدخل سوق المزايدات خصوصًا وإنها كانت تعتقد أن الاستحواذ على قلب الحركة الصهيونية سوف يسد الطريق في وجه الحليف اللدود الفرنسي.

ثم توجه سوكولوف إلى الفاتيكان وقابل البابا طالبًا تأييده للمشروع إلا أنه جوبه هنا بالصدود والرفض القاطع. أوصدت أبواب الدول العظمى في وجه الحركة الصهيونية، ولم يبق إلا باب الولايات المتحدة فعسى ولعل..

---

(١٠٦) מורים עמ 78

(١٠٧) מורים עמ 78

فتحركت الآلة الصهيونية وبدأت تضغط على الرئيس الأمريكي وإدارته. ولم تكن المهمة سهلة فليس من السهل إقناع دولة عظمى بحجم الولايات المتحدة زج نفسها في أتون حرب ضروس لا مصلحة لها فيها.

وكان الرئيس ولسون قد خاض الانتخابات الرئاسية في بلاده على أساس برنامج انتخابي :

١ ـ اعتبار الحرب العالمية الأولى حربًا استعمارية، هدفها التسابق على حيازات إقليمية خارج القارة الأوروبية. وتدور كلها تحت عنوان «من يأخذ ماذا ؟» والواجب الأخلاقي يقضي بعدم تورط أمريكا بهذه الحرب الاستعمارية.

٢ ـ العمل على تحقيق مبدأ «حق تقرير المصير للشعوب» فلا يجوز التعامل مع شعوب المنطقة وكأنها فريسة أو غنيمة أو سلعة تجارية أو جثة هامدة يتنازعها الأقوياء، فلكل شعب حقه في تقرير مصيره ومستقبله.

في الوقت ذاته لم يكن الرئيس مقتنعًا بسياسة بريطانيا بالنسبة لسياستها الاستعمارية.

أما بالنسبة للحركة الصهيونية، فلم يشأ مبايعتها على الخير والشر دون قيد أو شرط. لقد رأى بقلق متزايد، التأييد البريطاني الأعمى للحركة فلم يبد ارتياحًا للأمر، خاصةً بعد أن رأى ذلك الصديق البريطاني يضرب عرض الحائط بسياسة الإدارة الأمريكية عمومًا، وبحق تقرير المصير بشكل خاص [١٠٨]، وقد أفصح عن ذلك مساعد الرئيس إدوارد مندل هاوس فقال : «إن البرنامج الذي يدعو إلى تفتيت منطقة الشرق الأوسط، أمر سيئ للغاية وهو رديء وشرير. ولقد قلنا لبلفور إن البريطانيين يؤسسون في هذه المنطقة دفينة لحرب مستقبلية» [١٠٩].

وهنا، وعلى أرضية فشل فرنسا وإيطاليا جر الولايات المتحدة إلى الحرب، وعلى ضوء موقف الرئيس ولسون المتحفظ من السياسة البريطانية برز الدور الصهيوني، فقد شمرت مجموعات الضغط اليهودية الأمريكية عن ساعد الجد، وشرعت تبذل أقصى جهودها لتحقيق الهدف، لي ذراع الإدارة الأمريكية ودفعها إلى خوض غمار الحرب، يدعمها في ذلك حكومة بريطانيا.

---

(١٠٨) מורים עמ 78

(١٠٩) אותו עמ' 77

وقد كانت كل من بريطانيا والحركة الصهيونية، ولكل منها مصالحهما الخاصة المختلفة حينًا والمتفقة حينًا آخر، على دراية بصعوبة تحقيق المساعي، ولكنها صممتا خوض المعركة مع الإدارة الأمريكية، وبدأتا تصلان العمل ليلًا نهارًا لزحلقة الرئيس وإدارته. وكانت الحركة قد رأت أولًا أن تنتزع من بريطانيا وعدًا بإصدار تصريح بوطن قومي لليهود في فلسطين قبل تفعيل وسائل ضغطها على الإدارة الأمريكية، بدأ الضغط الصهيوني على حكومته بريطانيا للاعتراف بالمشروع الصهيوني في آذار/مارس١٩١٧م.

وكان رأس الحربة في الضغوط الصهيونية فرع مدينة لندن، ورئيسه د. وايزمان. وأسفرت الاجتماعات عن لقاء بين بلفور، وزير الخارجية، ووايزمان. وقد تطابقت وجهات النظر. وأثر ذلك سافر بلفور في نيسان ١٩١٧م إلى الولايات المتحدة في محاولة لإقناع الرئيس بالوطن القومي اليهودي.

ومع وصوله بدأ المكبس الصهيوني في البلاد يضغط باتجاهين :

١ ـ ضغوط على بلفور ـ فحال وصوله الأراضي الأمريكية توجه لويس برانديس لمقابلته وأفهمه بصورة لا تقبل الشك أن يتكفل باستمرار تدفق المعونات الاقتصادية الأمريكية الهائلة على بريطانيا، إذا تعهدت هذه بالموافقة على المشروع الصهيوني.

وكان رد بلفور إيجابيًا وأعلن موافقته بشرط أن يضمن القاضي برانديس موافقة الرئيس ولسون على وعد بريطاني بوطن قومي يهودي في فلسطين [١١٠].

٢ ـ ضغوط على صاحب القرار الأمريكي ـ كان أولها انهمار الرسائل والمذكرات والعرائض والتوجهات والمناشدات على الإدارة لتأييد المشروع الصهيوني.

في الوقت ذاته تشكلت لجنة تنفيذية صهيونية يرأسها برانديس، ويساعده كل من الحاخام ستيفن فايس نائب رئيس ويعقوب هس سكرتيرًا لتنسيق العمل وضمان استمراره ونجاعته وكان يدعم اللجنة مجموعات الضغط والنفوذ الصهيوني الأمريكي.

وأثمرت الضغوط، وطأطأ الرئيس ولسون ومنح تأييده وبركاته لخطوة بريطانية

---

(١١٠) الأحمد ص ٤٨

باتجاه المشروع. ولكن عندما طولب بإصدار بيان رسمي بالأمر، رفض الاستجابة بحجة أن بلاده لم تعلن الحرب على الدولة العثمانية. وهو لن يقوم بأية حركة عدائية تجاهها، مثل مباركته على اقتطاع فلسطين وتحويلها وطنًا قوميًا للشعب اليهودي.

بعد تأمين التأييد الرئاسي للخطوة البريطانية انتقل الضغط إلى المرحلة الثانية :

إقناع الإدارة الأمريكية بإعلان الحرب على دول المركز. وفي الشهر ذاته في السادس والعشرين من نيسان/ أبريل١٩١٧م صدر إعلان الحرب على ألمانيا دون تركيا. وكانت الحجة إغراق الغواصات الألمانية سفنًا أمريكية تحمل الإمدادات لانجلترا. وأصبحت الولايات المتحدة طرفًا في القتال، ولم تتأخر المكافأة للحركة الصهيونية فأصدرت الحكومة البريطانية بيانًا رسميًا عن أهداف الحرب في منطقة الشرق الأوسط عبر مندوبها في لقاء مع زعماء الحركة الصهيونية.

وجاء في البيان :

١ - إن بريطانيا تعتبر فلسطين وطنًا قوميًا للشعب اليهودي.

٢ - للمستوطنين اليهود كافة الحقوق القومية - السياسية.

٣ - فتح باب الهجرة إلى فلسطين.

٤ - منح الاستيطان اليهودي حكمًا ذاتيًا (١١١).

عاد بلفور من الولايات المتحدة إلى إنجلترا وقد حقق أعظم انتصاراته : توريط الولايات المتحدة في الحرب، والآن استحقت الحركة الصهيونية الأمريكية مكافأتها.

وفي حقيقة الأمر اعترفت الحكومة البريطانية بفضل مجهود يهود أمريكا في هذا الأمر. وقد أعرب رئيس الحكومة البريطانية لويد جورج عن امتنانه وعرفانه بالجميل للحركة الصهيونية فقال : إن الحركة الصهيونية قد وعدتنا وعدًا صادقًا إنه إذا التزمت دول الوفاق بتعهداتها، بمنح التسهيلات اللازمة لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، فإن الحركة سوف تبذل ما في وسعها لتعبئة مشاعر

(١١١) شوفاني ص٣٥٨

اليهود وحشد طاقاتهم وإمكانياتهم لدعم قضية دول الوفاق في العالم كله. نعم ! لقد بروا بوعدهم.

وفي مكان آخر يقول لويد جورج إياه في تقرير اللجنة الملكية لفلسطين (١١٢) : لقد حصل زعماء الحركة الصهيونية على تصريح بلفور لأنهم بروا بوعدهم في بذل جهودهم لإيقاظ مشاعر اليهود في كافة أرجاء العالم وتحريضهم لمعاضدة دول الوفاق وقد التزموا بكلمتهم (١١٣).

بعد عودة بلفور من الولايات المتحدة، اجتمعت الحكومة البريطانية لبحث أمر المكافأة التي ستدفعها للحركة الصهيونية مقابل خدماتها. وكانت الأجواء مواتية لصالح الحركة ومشروعها :

فالولايات المتحدة الأمريكية : إدارة وشعبًا، تشتعل حماسًا للحركة الصهيونية.

وفي بريطانيا المناخ موات مريح ومؤيد للحركة.

وفي فرنسا لم يلق المشروع إلا الترحيب والقبول.

وكان قد تم ترتيب لقاء صهيوني - بريطاني - فرنسي في شباط/فبراير١٩١٧م بحث فيه المشروع. وقد قدم روتشيلد اقتراحًا بإنشاء دولة يهودية في فلسطين، صناعة بريطانية، توضع تحت الحماية البريطانية لأن ذلك خير ضمان لنجاحها(١١٤). وكان سايكس ممثل بريطانيا في اللقاء المذكور يعلم أن العرب الحلفاء سوف يعارضون ويتمسكون بعروبة فلسطين ويرفضون دولة يهودية على تراب وطنهم. مع ذلك كان مقتنعًا أنه من الممكن تسوية هذا الخلاف. فقال : «مع أن العرب سوف يعارضون، ولكن بالإمكان التوصل إلى تسوية ما معهم، وخاصة إذا تلقوا مساعدات يهودية في مجالات أخرى».

وبعد اللقاء سافر سايكس إلى الشرق الأوسط بمهمة حكومية. وكان لويد جورج قد أشار عليه قبل سفره «قد تكون المعونة التي يقدمها اليهود أكبر من المعونة التي يقدمها العرب».

(١١٢) The Royal Commission

(١١٣) شوفاني ص٣٥٦ ، جارودي ص٣٢٦

(١١٤) Lenzowski p79

أما في روسيا وإيطاليا فلم تكن الأجواء أقل حماسة للمشروع، وقد دعمت البرنامج الصهيوني نخب متنفذة من الأوساط الحاكمة والشعبية.

انفتحت الطريق أمام إصدار التصريح فالساحتان : الأوروبية والأمريكية تؤيدان وتباركان، والأجواء الدولية مواتية.

ـ صياغة التصريح :

بدأت اللمسات الأخيرة لوضع مسودة التصريح :

في آب /أغسطس١٩١٧م أي قبل أقل من ٣ أشهر من صدوره، قدم وايزمان المشروع الصهيوني بإقامة الوطن القومي بناء على طلب من لويد جورج (وقد صاغ نصه آحاد هعام وسوكولوف) لرئيس الحكومة المذكور :

١ ـ حكومة صاحب الجلالة تصدر التصريح الذي يضمن اعتبار فلسطين وطنًا قوميًا للشعب اليهودي.

٢ ـ تتعهد حكومة صاحب الجلالة ببذل قصارى جهودها لإعادة بناء أرض إسرائيل كوطن قومي لليهود.

٣ ـ وفي سبيل ذلك تناقش الآليات والوسائل اللازمة مع المنظمة الصهيونية.

ولكن الصيغة المذكورة لم ترض الخارجية البريطانية التي وافقت على القبول بمبدأ الاعتراف بفلسطين وطنًا قوميًا للشعب اليهودي، لكنها أصرت على تحديده بالاتفاق مع المنظمة الصهيونية وتفصيل الوسائل والآليات لتحقيق الأمر.

ويضيف شنهاف שנהב في كتابه «الانتداب وحطامه» המנדט ושברו ص١٦ أن الحكومة البريطانية رفضت النص المذكور خوفًا من أن تفسر الجملة بأن إعادة أرض فلسطين لسيادة الشعب اليهودي تعني الاعتراف بحقه التاريخي في فلسطين بدون الأخذ بعين الاعتبار حقوق العرب السكان الحاليين، فكأن الحقوق القديمة لليهود تلغي الحقوق الآنية للسكان الحاليين.

في الشهر نفسه تقدم اللورد ملنر[١١٥]، وزير المستعمرات في حكومة لويد جورج، ومن أشهر المحامين الإنجليز بنص جديد : «تقبل حكومة صاحب

(١١٥) Lord Milner

الجلالة بالمبدأ القائل بوجوب إقرار أية فرصة لإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وسوف تبذل قصارى جهودها لتسهيل تحقيق هذه الغاية. ولسوف تكون الحكومة على أتم الاستعداد للنظر في أية مقترحات ترغب المنظمة في عرضها بهذا الخصوص» وقد تم رفض هذه الصيغة أيضًا، فتقدم بلفور بنص ثالث « تقبل حكومة صاحب الجلالة بالمبدأ القائل بإعادة فلسطين وطنًا قوميًا للشعب اليهودي. وسوف تبذل حكومة صاحب الجلالة أقصى جهودها لتحقيق هذه الغاية. وسوف تكون على أتم الاستعداد للنظر في أية مقترحات حول هذا الموضوع التي قد ترغب المنظمة في عرضها».

وقد رفضت الحركة الصهيونية هذه الصيغة أيضًا.

وفي ٤ تشرين الأول / أكتوبر١٩١٧م قبل شهر من الوعد قدم ملنر وايمري نص اقتراح رابع «تنظر حكومة صاحب الجلالة بعين العطف إلى تأسيس كيان سياسي للجنس اليهودي، وسوف تبذل مساعيها الحميدة لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليًا أنه لن يؤتى بأي عمل من شأنه الانتقاص من الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا من الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أية دولة أخرى من الذين هم راضون أشد الرضا بجنسياتهم الحالية».

وقد تم الاعتراض على هذه الصيغة أيضًا واقترح برانديس إجراء تعديلات :

١ ـ استبدال عبارة كيان سياسي بوطن قومي.

٢ ـ استبدال عبارة الجنس اليهودي بالشعب اليهودي.

٣ ـ استبدال عبارة مساعيها الحميدة ببذل جهودها[١١٦].

اتخذت الحكومة البريطانية قرارها بإصدار تصريح بعد أن شكلت لجنة مشتركة لصياغة النص النهائي. وكان ممثلو الحكومة : لويد جورج ومارك سايكس ومالكولم أورمسبي غور والسير ايمري وممثلو الحركة الصهيونية وايزمان وتشيلنوف، هربرت صموئيل وجيمس روتشيلد. وقد تم الاتفاق على إجراء ٣ تعديلات على النص المقترح.

(١١٦) سويد ياسين : مؤامرات الغرب على العرب ص٤٥-٤٨

١ ـ استبدال الجملة التي تنص على أن «فلسطين وطن قومي لليهود» إلى جملة تنص على «إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين» (١١٧).

والفرق شاسع بين الجملتين : فالنص الأول يعتبر فلسطين بأسرها وطنًا قوميًا لليهود، بينما التعديل ينص على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين (١١٨)، وليس شرطًا على مساحة فلسطين كاملة. كما إنه يمكن أن تكون فلسطين وطنًا لليهود وغير اليهود.

وقد تفجر الخلاف حين أصر وايزمان أن تكون فلسطين كلها وطنًا قوميًا لليهود، في حين أصرت الحكومة البريطانية على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، فلقد شعرت أنها تجاوزت حدودها واجتازت الخطوط الحمراء في كرمها للصهيونية على حساب العرب فرأت أنه يقتضي الوقوف عند هذا الحد دون أن تتجاوزه.

٢ ـ التعديل الثاني اختص بتغيير النص الذي يقول «إقامة وطن لليهود» فأضيفت كلمة قومي لتصبح الجملة «إقامة وطن قومي لليهود» وكان ذلك بضغط من الحركة الصهيونية التي أصرت على زيادة تلك الكلمة.

٣ ـ أما التعديل الثالث فكان بزيادة الفقرة الثالثة بكاملها لضمان حق اليهود في الدول التي يعيشون فيها (١١٩).

ومع ذلك روعي الغموض والإبهام والهلامية في العديد من التعابير والمصطلحات، فلم يتم تحديد معنى ودلالة وماهية الوطن القومي ولا حدوده. كما لم تحدد تلك «الحقوق المدنية والدينية التي يحظر المس بها».

وبعد أن تم إقرار الصيغة النهائية أرسلت نسخة من مسودة التصريح للرئيس الأمريكي ولسون، ولزعيم الجالية اليهودية الأمريكية القاضي برانديس، للإطلاع والتعليق كما أنها عرضت أيضًا على شخصيات عالمية من الأوساط اليهودية والصهيونية والمعادية لها.

---

(١١٧) Palestine as a national homeland for the jewish people

(١١٨) Anational homeland for jewish people in Palestine

(١١٩) انطونيوس ص٣٧٤

وبعد مداولات أخيرة اعتمد النص النهائي للتصريح الذي صيغ بأسلوب دبلوماسي ذكي، وروعي فيه التنقيط وعلامات الترقيم ووزنت كل كلمة وكل فاصلة مرارًا وتكرارًا. وصودق على القرار بعد سنتين من تفاهمات الشريف مكماهون، وبعد سنة ونصف من إعلان الشريف «ثورته العربية الكبرى».

سرعان ما تداعى اعتراف الدول بالتصريح، فبعد أمريكا، أصدر وزير خارجية فرنسا تأييده للتصريح وتبعته حكومة روسيا فالصين واليابان وأثيوبيا وسيام.

ولابد من الإشارة في هذا المكان إلى أن بريطانيا أصدرت تصريحها وهي على دراية تامة أن اليهود غير مجمعين على المشروع الصهيوني، بل إنه حتى كثيرًا منهم يعارضون الصهيونية ومشاريعها وعلى رأسها الوطن القومي.

ـ المعارضة اليهودية للتصريح

كان من أبرز المناهضين للمشروع الصهيوني يهود من أوساط : رجال الدين، يساريين، اشتراكيين، دعاة الاندماج وأثرياء.

ظهرت كذلك معارضة شديدة من أوساط يهودية صهيونية. وكان اعتراضها ليس على المشروع ذاته وإنما على دور بريطانيا فيه. وكان أبرز رموزها يهود «دول المركز»، خاصة يهود ألمانيا وتركيا، وشرائح واسعة من يهود الولايات المتحدة المنحدرين من أصول ألمانية ـ هنغارية.

ولم ير جميع هؤلاء حرجًا في عرقلة مساعي الصهيونية وبريطانيا العظمى.

أما في بريطانيا فقد استقبلوه بتحفظ وحذر شديدين، وقد أبدوا مخاوفهم وشكوكهم من نتائجه وتبعاته. وكان أبرز رموز المعارضين أدوين مونتاغو، الوزير اليهودي الوحيد ـ وزارة البريد ـ في حكومة اسكويت، وعضو مجلس الحرب، وحاكم الهند سابقًا. وكانت منطلقاته في معارضته : مبدئية وأخلاقية وبراغماتية. ففي المذكرة التي رفعها إلى الحكومة في أعقاب إصدار التصريح قال : «لا توجد أمة يهودية. أن أفراد أسرتي، الذين عاشوا في هذا البلد منذ أجيال، لا تربطهم بأية أسرة يهودية في أية دولة من دول العالم أية رابطة أو أي اتصال أو رأي أو رغبة، ولا يجمعهم بهم أي أمر أكثر من أنهم يعتنقون، بدرجات متفاوتة، الديانة نفسها. ولا يصح القول إن اليهودي في إنجلترا

واليهودي في المغرب ينتميان لأمة واحدة، كما لا يصح القول إن المسيحي في إنجلترا والمسيحي في فرنسا ينتميان لأمة واحدة» [١٢٠].

أما من الناحية الأخلاقية فكتب في مكان آخر: «إذا أقدمت فرنسا على احتلال تونس غدًا فإننا لن نعترض ولن نحتج، ولكنني أجد صعوبة في أن نصدر وعدًا علنيًا بذلك الآن. يجب أن نتجنب تقديم أملاك الغير والتبرع بها دون موافقة أصحابها [١٢١].

وقد استقطبت المعارضة للصهيونية ومشروعها نخبًا بارزة من اليهود أهمهم :
كلود مونتفيوري رئيس الجمعية البريطانية اليهودية.
دافيد الكسندر رئيس لجنة المبعوثين اليهود.
وولف وناتان وغيرهم.

وقد أذاع هؤلاء معارضتهم حتى قبل صدور التصريح في بيان نشروه في صحيفة «التايمز» في٤آيار/ مايو١٩١٧م قالوا فيه إنهم يؤكدون على الإخلاص«للصهيونية الحضارية» التي تهدف إلى جعل فلسطين مركزًا روحيًا تجد فيه العناصر اليهودية فرصة للتطور الخاص بها، الأمر الذي اعتبر دعوة «لليهودية الروحية» ومعارضة الصهيونية القومية السياسية.

والبيان يعارض ويحتج على الفكرة الصهيونية التي تدعو أن تحمل المستوطنات الطابع القومي ـ الديني ـ السياسي، وأن المستوطنين يجب أن يمنحوا حقوقا خاصة على أساس الامتيازات السياسية والاقتصادية. وقد تنبأ البيان أن انتشار قومية يهودية في فلسطين لابد أن يسم اليهود بسمة الغرباء في بلادهم الأوروبية وفي مجتمعاتهم ويساهم في تقويض مركزهم وحقوقهم من حيث هم مواطنون متساوو الحقوق في بلادهم [١٢٢].

وكان قسم معتبر من يهود بريطانيا يشاطرون الرأي ذاته ويعارضون مثل إصدار هذا التصريح فهم يعتبرون أنفسهم بريطانيين، وانتماؤهم وولاؤهم لوطنهم

---

(١٢٠) كنعان ص١٥
(١٢١) الخولي ص٣٣٧
(١٢٢) الطونيوس ص٣٧٣

بريطانيا فقط. وأن هذا الأمر لا يتعارض مع كونهم يهودًا، لأن اليهودية في نظرهم دين وليس قومية [١٢٣].

ولم يلبث أن انضم إلى هذه المعارضة برلمانيون في مجلس العموم وشخصيات رسمية وشعبية يهودية وغير يهودية. وقد عبر عن ذلك الوزير كرازون في جلسة الحكومة في ٤تشرين الأول/أكتوبر١٩١٧م (شهر واحد قبل إصدار التصريح) فقال : إن فلسطين بلد فقير لا يمكن أن تؤمن مستقبلًا للشعب اليهودي. ثم أضاف أن الصهيونية حركة مثالية عاطفية غير قابلة للتطبيق الميداني. وأنهى بالإشارة إلى استحالة استئصال عرب فلسطين واقتلاعهم. فإنهم أكثر عددًا من اليهود. ولم تلبث أن انضمت «الجمعية الانجلو ـ يهودية» إلى هذه المعارضة وقالت إنها تمثل الغالبية العظمى من اليهود. ورأيها هو رأي الأكثرية.

من ناحية أخرى تلقف زعماء الحركة الصهيونية التصريح، وكأنه هدية ربانية. وكانوا يعلمون حق العلم إنه إذا أحسن استغلاله فسوف يتمخض عنه وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، الأمر الذي لا يعني إلا إقامة دولة يهودية قومية ذات سيادة، أما إذا لم يحسن استثماره فلا تساوي قيمته أكثر من الحبر الذي كتبت به.

---

(١٢٣) سويد ص٨٩

التصريح في الميزان

التصريح عبارة عن رسالة بعث بها اللورد بلفور، وزير خارجية بريطانيا، باسم حكومته إلى اللورد ليونيل روتشيلد رئيس «الاتحاد الصهيوني» في بريطانيا وأحد أكبر أثرياء اليهود. ويقول د. عبد الوهاب الكيالي في كتابه «تاريخ فلسطين الحديث» أن التصريح شهادة زواج غير مقدس بين الإمبريالية والحركة الصهيونية الاستعمارية على حساب شعب فلسطين ومستقبل الأمة العربية بأسرها(١٢٤).

ويعتبر الكيالي في المصدر نفسه أن وعد بلفور من أغرب الوثائق الدولية في التاريخ الحديث وبموجبه منحت دولة استعمارية هي بريطانيا، أرضًا لا تملكها، هي فلسطين، إلى جماعة لا تستحقها، هي الحركة الصهيونية، على حساب من يملكها ويستحقها، هو الشعب العربي الفلسطيني. وقد أدى الأمر إلى اغتصاب وطن وتشريد شعب في سابقة لا مثيل ولا نظير لها في التاريخ.

والرسالة التي هي تصريح حكومي رسمي موجه من شخصية حكومية إلى شخصية يهودية لا تتمتع بأية صفة حكومية رسمية، لا يمكن إدراجها ضمن العلاقات الشخصية، بل هي وثيقة رسمية تحمل مدلولات قانونية حقوقية.

والتصريح يحمل معنى الالتزام والوعد، فلا عجب أن يطلق عليه اسم «وعد بلفور» أيضًا. وقد اعتبرت الحركة أنه البراءة الدولية أو الامتياز التي سعى إليها هرتسل، وتوفي دون تحقيقه، وهو المطلب ذاته الذي نص عليه البند الرابع في برنامج بازل.

وقد أصرت الحركة الصهيونية على تسمية الولد باسمه «.. ليس وطنًا قوميًا، بل دولة قومية». ففي كانون الأول/ديسمبر ١٩١٨م اجتمع ممثلو اليشوف، حين كان القتال دائرًا في فلسطين، وقرروا بأغلبية ٥٥ صوتًا ضد ١ أن هدف الحركة هو السعي لإقامة دولة عبرية، لا وطن قومي(١٢٥).

كما أكد على ذلك اللورد بلفور في السابع من شباط/فبراير ١٩١٨م حين صرح

(١٢٤) كيالي ص٨٣

(١٢٥) מוריס עמ' 79

في اجتماع لليهود: «كلي أمل أن ينجح اليهود في إقامة "دولة يهودية" أن الأمر منوط الآن بهم وحدهم، وأما نحن فلقد قمنا بما علينا. لقد حققنا لهم الفرصة الكبيرة(١٢٦).

من ناحية أخرى كثرت الانتقادات وتعددت أسباب التجريح والطعن على هذا التصريح فهو مكون بالأساس من شقين:

الشق الأول: إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين.

الشق الثاني: المحافظة على الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين.

والمقصود بـ«الطوائف غير اليهودية» العرب الفلسطينيين الذين يشكلون ٩٠% من السكان. فهم الأغلبية الساحقة وقد اعتبروا، مسلميهم ومسيحييهم، مجرد طوائف. أما المقصودون بالتصريح هم اليهود الذين لا يزيد نسبتهم عن ١٠% من السكان فقط.

وهكذا تكون بريطانيا قد انحازت بتصريحها الجائر انحيازًا أعمى إلى الجانب الصهيوني. فرجحت كفة ١٠% من السكان على كفة ٩٠% منهم بالإضافة إلى ذلك فإن التصريح تعامل مع الأقلية اليهودية على أساس قومي، بينما تعامل مع أغلبية ٩٠% على أنهم طوائف وشيع، ليس لهم أن يتطلعوا لأكثر من الحقوق «الدينية والمدنية» فقط دون الحقوق السياسية القومية. وهكذا تطرق التصريح إلى الحق القومي للشعب اليهودي في إقامة وطنه، بينما تجاهل الحقوق القومية للعرب، فهم ليسو شعبًا ولا أمة وإنما «مجرد طوائف».

وفي حقيقة الأمر طالما كانت تلك مصيبة العرب الفلسطينيين، فقد كانوا يدرجون في خانة الطوائف البدائية من المولدين المغمورين. لقد صوروا كغزاة متبربرين اغتصبوا البلاد عنوة وقسرًا، وبغفلة من الزمن، واستولوا على بلاد لا يستحقونها. أما اليهود فهم أصحاب البلاد الشرعيون، وهم المتحضرون المتمدنون. وقد حوى التصريح كذلك شقين ينقض الواحد منهما الآخر. فإن تحقيق الوطن القومي لا يمكن أن يتم دون إلحاق الضرر بمصالح العرب

(١٢٦) אותו עמ' 80

وحقوقهم. أضف إلى ذلك فإنه من الغريب المستهجن أن من منح هذا التصريح لم يكن يملك حبة تراب واحدة من أرض فلسطين، ولم يكن يملك أية حقوق عليها ولا أية ادعاءات أخلاقية أو أدبية أو قانونية فيها. ففلسطين ليس إنجلترا.

ويقول السكاكيني (م. س) ج٣ص١٦ -١٧ إن صياغة التصريح كان يلفه غموض متعمد، وهذا ما جعل الفلسطينيين واليهود كل يفسره على هواه. لقد فهم اليهود من هذا الوعد أنهم أصحاب البلاد، وإن العرب ليسوا إلا دخلاء، وهم ضيوف غرباء ثقلاء غير مرحب ولا مرغوب بهم.

قال وايزمان : وهو الزعيم الصهيوني الذي نجح في استصدار هذا التصريح من الحكومة البريطانية : «إن فلسطين يهودية كما أن إنجلترا إنجليزية وأمريكا أمريكية». كما قال «سنرجع إلى فلسطين بلدنا، لا نذهب إليها» أي أنها كانت لنا، فإذا هاجرنا إليها من مشارق البلاد ومغاربها فإنما نحن راجعون لا ذاهبون»

وقال الفريد مولنر : الوزير في الحكومة البريطانية : سأستقيل من منصبي في الحكومة وأكرس بقية حياتي لإعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى ومسجد الصخرة.

أما العرب فقد فهموا من هذا الوعد بقرينة ما فهم اليهود منه وبقرينة ما قامت به الحكومة من الأعمال في سبيل إنشاء الوطن القومي (اليهود ز. ف) وأن هذا الوعد يجردهم من حقوقهم السياسية، أي الاشتراك في الحكم والإدارة. فإذا كان للبلاد مجلس تشريعي فلا يحق للعرب أن يكونوا ناخبين أو منخوبين. وإذا تألفت إدارة فلا يحق للعرب أن يكون منهم أحد فيها، بل لا يحق لهم أن يشغلوا منصبًا في دوائر الحكومة، بل لا يحق لهم أن ينشئوا الشركات ويؤسسوا المصارف.

لقد توقع السكاكيني أن تفسر بريطانيا كل حركة عربية بأنه «خارج مضمون الوعد» فقد يقال : إذا خرج اليهودي من بيته ليلًا فإن العربي يجب أن يمشي بين يديه يحمل له قنديلًا، وإذا نام اليهودي فلا يسهر العربي على باب بيته يحرسه، أو إذا كان في بيت اليهودي عرس فلا يبادر العربي إلى حمل الماء ونقل الحطب، أو إذا أراد اليهودي الاستيلاء على بيت العربي أو أرضه أو دكانه أو حماره أو بقرته أو دجاجه فلا يبادر العربي إلى التنازل عن حقه طائعًا مختارًا، أو إذا جاوز

العربي اليهودي، لا سمح الله، فنبح كلب العربي أو صاح ديكه أو غط العربي في نومه، أو إذا أراد اليهودي أن يعبد الطريق إلى قريته فلا يبادر العربي إلى تعبيدها وعلى نفقته، فإنه يكون قد أخل بالنظام.

أما عن الشكوك في شرعية التصريح فقد كتب المؤرخ الإنجليزي توينبي أنه لامناص من إدانة بلاده على التصريح معلنًا أنه كإنجليزي يشعر بالخجل والندم على سياسة حكومة بلاده التي لا تنم عن ازدواجية المعايير الأخلاقية التي حكمت سلوكها حين أقدمت على ارتكاب هذه الفعلة المنكرة [١٢٧].

أما عن الأزمة الأخلاقية التي تورطت بها بريطانيا فيمكن الإشارة إلى سابقة تاريخية حين توجه وزير خارجية فرنسا إلى وزير خارجية بريطانيا اللورد سالزيوري في ٢٣تموز/يوليو ١٨٧٨م طالبًا منه مباركة بريطانيا وموافقتها على احتلال بلاده لتونس، فأجاب الوزير البريطاني «نحن لا نستطيع أن نمنح ما لا نملك» [١٢٨].

ولكن هنا في تصريح بلفور منحت بريطانيا مالا تملك. وقد كتب آرثور كوستلر: إن التصريح عبارة عن وثيقة تعهدت فيها قومية أولى لقومية ثانية بوطن هو ملك لقومية ثالثة بعد انتزاعه من قومية رابعة هي التركية وكم بالحرى حين تكون القومية الثانية المستفيدة ليس بالأساس قومية، بل هي عبارة عن مجموعة دينية، والأنكى من ذلك، وحين يكون ذلك التصريح قد أعطى في غياب صاحب الحق الشرعي، أو على الأقل دون استشارته أو الأخذ برأيه [١٢٩].

أما جارودى فيقول إن التصريح عبارة عن مستند وعدت به أمة واحدة أمة ثانية ببلد تملكه. أنها منحة من لا يملك لمن لا يستحق [١٣٠].

وقد تفجرت الانتقادات في البرلمان البريطاني وخارجه لدى مناقشة أمر الإفراج عن المراسلات والاتفاقيات وكشف سريتها. وقد جرى، بعد النقاش، التصويت. وكانت الحكومة ترى إبقائها سرًا مكتومًا، لكنها خسرت، فقد صوت ٢٩ عضوًا

---

(١٢٧) شوفاني ص٣١٤

(١٢٨) Nous he pouven pas donner ce queen nous appartient ، الخولي ص٢١٢

(١٢٩) جارودي ص٤٠

(١٣٠) م.س ص ٢٠٨-٢٠٩

على الإبقاء على سريتها، في حين صوت ١٥٠ عضوًا على إذاعتها. والملفت للنظر أن الفرح عم العرب في أرجاء فلسطين والناس يظنون أن هذا هو بداية الإنصاف وانتظروا عبثًا، البقية التي لم تأت: إلغاء التصريح.

وقد اعترفت لجنة موم (١٣١) وهو قاضي القضاة، المكلفة ببحث أمر الاتفاقيات، بعدم شرعية التصريح وقالت : إن حكومة صاحب الجلالة لم تكن تملك الحق بحرية التصرف بفلسطين دون أن تأخذ بعين الاعتبار رغبات سكان البلاد ومطالبهم ومصالحهم.

أما وزير الخارجية اللورد غراي، الذي كان شاهدًا على المراسلات، فقد صرح في مجلس اللوردات : «أنا مقتنع أن القول بأن التصريح منسجم مع تعهداتنا السابقة في الشرق غير صحيح. أما مسلكنا في هذا الشأن فهو غير شرعي».

أما عن افتقار التصريح إلى الشرعية فقد أشار الكثير من البريطانيين :

١ - افتقار كافة المعاهدات والاتفاقيات عشية الحرب وأثناءها إلى الشرعية نظرًا لأنها كلها متناقضة، فجميعها باطلة.

٢ - إدراج فلسطين ضمن منطقة الاستقلال العربي، وهذا هو مصيرها. ولا يجوز لأية دولة أن تعدها لمصير آخر. وقد صرح اللورد اشنغتون (١٣٢)، عضو مجلس اللوردات البريطاني، إنه لا يمكن القبول بالانتداب البريطاني على فلسطين لأنه يتناقض مع التعهدات التي قدمت للعرب بموجب مراسلات الشريف مكماهون.

أما اللورد باكماستر (١٣٣) فقال : لو كانت هذه الحقائق صحيحة، وأنا مضطر إلى القول بأنها كذلك، فهي، كما أوحى لنا اللورد غراي، وزير الخارجية، لم تكن تناقضات عادية وتصريحات أعطيت في أزمنة مختلفة، بل تعهدات مدروسة أعطيت من ناحية وأهملت من ناحية أخرى.

ويقول مكماهون صاحب مراسلات الشريف حسين - مكماهون في تصريح لجريدة «التايمز سنة ١٩٣٧م، أي بعد عشرين سنة من الأحداث»، أرى من واجبي أن أعلق على نحو رسمي صريح أنه لم يكن في نيتي إدخال فلسطين في

(١٣١) Lord Maughm Lord Chancellor

(١٣٢) Lord Ishington

(١٣٣) Lord Buckmaster

إطار المنطقة العربية حين قدمت الضمانات للشريف حسين. وليس هناك من دليل أوضح على سوء نية بريطانيا. فلقد وعدت الشريف بفلسطين ضمن الدولة العربية المستقلة، بينما لم يكن في نيتنا الوفاء بذلك(١٣٤).

أما في عصبة الأمم المتحدة فقد أكد بعض أعضائها على بطلان الوعود والمواثيق والتصريحات السابقة، لأن الميثاق الحالي للعصبة يجب الالتزامات ويبطل الاتفاقيات التي تتناقض مع الميثاق. وإذا كان أحد الأعضاء قد التزم، بوقت لاحق، بأية التزامات تخالف بنود الميثاق فعليه أن يتخذ الإجراءات اللازمة التي تحرره من هذه الالتزامات.

ولعل أشد نقاط النقد للاتفاقية كانت تلك التي بها المناهضون لها ووصلوا بها إلى حد اتهام حكومة لويد جورج باللاسامية، وأن التصريح ما هو إلا وسيلة لاقتلاع اليهود من بريطانيا وترحيلهم إلى وطن بعيد وراء البحار. وقد عبر عن هذه الفكرة الوزير السابق مونتاغو إياه فقد حذر قائلًا : أنا لا ألمح أن الحكومة (حكومة لويد جورج ز. ف) معادية للسامية عن عمد وسبق إصرار، ولكني أشدد على أن سياسة هذه الحكومة معادية للسامية بنتائجها، فهي تكون أرضية لتجميع أعداء السامية في العالم كله. وأنا أرى الصهيونية عقيدة مشئومة غير مقبولة لدى مواطن مخلص أمين محب لوطنه الحقيقي : المملكة المتحدة(١٣٥).

كذلك انتقد التصريح وعارضه رجالات الدبلوماسية البريطانية في وزارة المستعمرات البريطانية الذين قالوا بأن تأمين المصالح البريطانية الاستعمارية في المنطقة، تقضي إقامة سلسلة من الإمارات والمشيخات والدويلات العربية تدور في فلك السياسة البريطانية وتخدمها وتعزز وجودها في المنطقة. وفي إطار مجهوداتها لتحقيق الهدف المذكور تجاهلت تلك الدبلوماسية البريطانية مسألة الوطن القومي اليهودي في فلسطين خشية أن يثير الأمر مشاعر العداء العربية ضد بريطانيا (١٣٦).

(١٣٤) شوفاني ص٣٤٤

(١٣٥) جارودي ص٣٦٩

(١٣٦) כהן עמ' 167

وفي حقيقة الأمر تضاربت الآراء وتباينت المواقف في الأوساط البريطانية غير اليهودية. ويؤكد شنهاف أن الأوساط التي كانت حريصة على المحافظة على مصالح بريطانيا في البلاد العربية، خصوصًا في البرلمان البريطاني وفي وزارتي الخارجية والمستعمرات، رأت في هذا التصريح خطرًا دائمًا قد يقوض تلك المصالح ويهدمها. وقد أنذروا وحذروا من مغبة إدخال أقلية عرقية - دينية غريبة إلى بلاد الشرق الواسعة التي يقطنها المسلمون والمسيحيون.

بالإضافة إلى أن ذلك التصريح قد يشكل بؤرة ومصدرًا للاحتكاك والتناحر الذي قد ينتهي بسفك الدماء.

وقد أدلى جبوتنسكي[١٣٧] بشهادته أمام لجنة التحقيق الملكية ١٩٣٦م وأجاب ردًا على أسئلة أعضاء لجنة التحقيق:لا حاجة لمشورة العرب الذين يشكلون ٣/٢ السكان، فوعد بلفور أعطى بدون التشاور معهم، وبشكل مستقل عن رغباتهم [١٣٨] بالإضافة إلى ذلك يؤخذ على التصريح مآخذ إضافية أهمها :

إنه يضيف تناقضًا على التناقضات السابقة.

- أ- فسايكس بيكو نقضت اتفاقيات الشريف مكماهون.

ب - وتصريح بلفور نقض كل من الاتفاقيات الشريفية - المكماهونية وسايكس بيكو معًا.

ففلسطين عربية بموجب المراسلات، وهي دولية بموجب سايكس بيكو وهي وطن قومي يهودي بموجب التصريح.

- اقتطاع عضو من الوطن العربي وتحويله إلى قاعدة للعدوان على ذلك الوطن.

التصريح يجزئ الأمة العربية ويستنزف قواها.

- وهو يتجاهل إرادتها وتطلعاتها المستقبلية للاستقلال والحرية والتقدم.
- وهو تغييب للشعب العربي الفلسطيني ماديًا وسياسيًا وحضاريًا، وقطع صلته بوطنه الكبير وإنكار حقوقه القانونية والتاريخية والشرعية.

---

(١٣٧) גיבוטנסקי

(١٣٨) شهادة جبوتنسكي إصدار وكرمان ٢٥,٥

على كل حال يظهر أن اللورد بلفور صاحب التصريح، قد شعر بعدم أخلاقياته فحاول تبريره بأن الرئيس الأمريكي ولسون وقع في المطب أيضًا فقال :

«يصعب على أن أفهم كيف يوفق الرئيس ولسون بين قبوله بالصهيونية وبين مبدأه في حق تقرير المصير».

افتضاح التصريح

كانت خطة الأطراف التي عملت على إبرام التصريح إبقاء أمره سرًا مكتومًا. وكانت تلك مهمة شبه مستحيلة. فلقد كان ذلك التصريح ثمرة مفاوضات واتصالات استمرت سنوات، فقد طرح الموضوع عشية الحرب ولكنه صدر في ٢تشرين الثاني/نوفمبر١٩١٧م. فكيف يمكن المحافظة على سرية قضية عامة استغرق تداولها كل هذه الفترة ؟ كما شملت الاتصالات شرائح واسعة وأوساطًا حكومية وشعبية ورؤساء دول ونخبًا. والسر، كما يقال، إذا تجاوز الاثنين شاع. وها هو يتجاوز المئات ! مع ذلك حاولت الحكومة البريطانية الإبقاء على سريته وإخفائه عن أصحاب العلاقة المباشرة من العرب والفلسطينيين. ولعل قمة المهزلة والتصرفات المتناقضة للسلطات البريطانية كانت حين شددت التكتم على الموضوع في الوقت الذي نشرته وأعلنته على ظهور الإشهاد حين قامت الطائرات الحربية البريطانية بإلقاء منشورات تزف خبر التصريح إلى قوات دول المركز المعادية، للتأثير على العناصر اليهودية التي تقاتل في صفوفها لتجتذبهم إلى جانبها. وقد ورد في المنشورات المذكورة : «أن فلسطين يجب أن تعود وطنًا قوميًا للشعب اليهودي. وأن الدولة العثمانية، العضو في قوات المركز، تحول دون عودة اليهود إلى وطنهم وهي تغلق بوابات فلسطين في وجوههم».

وختمت بمناشدة الجنود اليهود «أن توقفوا عن قتال قوات دول الوفاق التي تخوض الحرب من أجلكم ؟ وتذكروا أن نصر دول الوفاق معناه عودة الشعب اليهودي إلى صهيون» [١٣٩].

والمنشورات مكتوبة بلغة الايديش(أرشيف وايزمان) ولم تلبث أن نشرت

---

(١٣٩) כהן עמ' 124

صحيفة «المقطم» المصرية خبر التصريح ونصه في عددها الصادر في العاشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١١م - أي بعد إصداره بأسبوع واحد فقط. وقد عنونت خبرها بالبنط العريض «الإسرائيليون في فلسطين» وكانت قد نقلت الخبر عن الصحيفة اليهودية «جويش كرونكل» (١٤٠).

وقد أعادت الصحيفة المذكورة نشر الخبر للمرة الثانية بعد يومين في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر تحت عنوان آخر هو «الإسرائيليون وفلسطين» وهذه المرة نقلًا عن وكالة الأنباء رويتر.

وعندما تأكدت بريطانيا أن سر التصريح قد انكشف، وأنها لن تنجح في إبقاء الأمر طي الكتمان، حاولت تخفيف وقعه. لم تنف ولم تنكر، بل عمدت إلى سلسلة من الأكاذيب وأساليب الخداع والتضليل وأعلنت أن الأمر كله لا يعدو كونه إشاعات مغرضة (١٤١).

أما العرب، خصوصًا الفلسطينيون، فقد صعقوا لدى سماع النبأ وكذبوا ما رأت عيونهم وسمعت آذانهم. لقد شككوا بمصداقية الخبر وصحته فلم يتصوروا أن صديقتهم وحليفتهم بريطانيا تغرز خنجرًا مسمومًا في ظهورهم. ولكن حين تأكدوا من صحته ذهلوا وانتابتهم موجة عارمة من الغضب والشعور بالمرارة. وكان لابد أن يتحرك الشريف فاتصل «بالأصدقاء والحلفاء الأوفياء الانجليز» مستفسرًا جلية الأمر وأحرج المسئولون البريطانيون ماذا يقولون. وكيف يبررون؟ وبماذا يجيبون ؟

اتصلوا بلندن يطلبون الجواب وكيف يتصرفون، فسارعت هذه بإيفاد هوغارت، أحد رؤساء المكتب العربي (١٤٢) في القاهرة. فوصل جدة في أول كانون الثاني/يناير ١٩١٨م.

وفي حقيقة الأمر فإن كلاً من بريطانيا وفرنسا اللتين كانتا تستعدان آنذاك لخوض المعركة الأخيرة الحاسمة من الحرب لم تكونا في وضع يسمح لهما بإثارة سخط العرب وعداوتهم في تلك المرحلة فلذلك عمدتا إلى إصدار

(١٤٠) Jewish Chronical

(١٤١) انطونيوس ص٢٤٧

(١٤٢) The Arab Bureau

التصريحات والبيانات الهادفة لإزالة شكوك العرب وحملهم على الالتزام بالهدوء إلى أن تنتهي الحرب على الأقل.

التقى هوغارت الشريف وأسمعه الرسالة الشفهية التي حملتها له لندن. وكانت كلها من ألفها حتى يائها، كتلة من الأكاذيب. لم ينكر الخبر، بل حاول تحميله معان غريبة عن روحه ونصه، حاول إيجاد التبريرات والتقليل من شأن التصريح والجنوح به عن معناه الحقيقي وتحميله تفسيرات مضللة خاطئة (١٤٣).

قال للشريف : «الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يكون مسموحًا به إلا بقدر ما يتفق ذلك مع حرية السكان العرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية» (١٤٤).

ثم أضاف «أنه واثق من كرم العرب ونخوتهم، وإن الفلسطينيين سوف يرحبون بالاستيطان اليهودي حين يكون منصفًا قائمًا على المبادئ الإنسانية».

سمع الشريف وتنفس الصعداء بعد أن هدأت مخاوفه واطمأنت نفسه فقبل الجواب. وغط في سبات عميق مطمئن البال قرير العين.

أجاب الشريف : ما دامت الغاية من التصريح تأمين ملجأ لليهود المشردين المضطهدين فإنه سوف يبذل قصارى جهده ويستعمل نفوذه لتحقيق الغاية المذكورة، وسوف يوافق على أي تدبير يراه مناسبًا من ناحية الأماكن المقدسة والإشراف عليها من قبل إتباع كل مذهب من المذاهب التي تملك معابد في فلسطين، ولكنه لن يرضى بالتنازل عن السيادة العربية (١٤٥).

أما بريطانيا فاستأنفت بدورها حملات الخداع وغسل الدماغ، فوجهت إلى المنطقة لجنة بريطانية - صهيونية يرأسها د. وايزمان ومن أبرز أعضائها أورمسبي غور، مندوبًا عن وزارة الخارجية البريطانية.

وصلت اللجنة القاهرة في آذار/مارس ١٩١٨م وقامت بالاتصال بعدد من الشخصيات المصرية محاولة الطمأنة وإزالة المخاوف والشكوك، واستعملت الذهب الصهيوني دعمًا لمحاولات الإقناع. فقابلت الدكتور فارس نمر أحد

(١٤٣) الخولي ص٢٥٠ ، صبري جريس م.س ص١٦

(١٤٤) כהן עמ' 138

(١٤٥) انطونيوس ص٣٦٧

محرري «الأهرام» القاهرية، فقام هذا بتسخير قلمه لتبديد مخاوف العرب ودعاهم إلى التفاهم مع اليهود [١٤٦].

بعد القاهرة واصلت اللجنة طريقها إلى فلسطين لإتمام مهمتها : محاولة تهدئة مخاوف الفلسطينيين. ولكن كل ذلك كان عبثًا فإن الشكوك كانت كبيرة والمخاوف أضخم من أن تخمدها محاولات الإقناع والتطمين.

لم تكل بريطانيا عن محاولاتها تبييض صفحة التصريح، خاصة وأن المخاوف كبيرة فاستعانت بالشريف وطلبت منه أن يبذل جهوده للطمأنة فشمر عن ساعد الجد وشرع في الطمأنة والتهدئة.

أرسل رسالة إلى مصر لإعلام القيادات الوطنية الفلسطينية أنه تسلم وعدًا قاطعًا من بريطانيا : إن الهجرة اليهودية لا تتناقض مع الاستقلال العربي.

ثم قام بإرسال مذكرة إلى الزعماء العرب وإلى قادة الثورة، بمن فيهم ابنه الأمير فيصل الذي كان معسكرًا غرب مدينة العقبة، وأكد لهم فيها تأكيد حكومة صاحب الجلالة البريطانية «أن هجرة بعض اليهود لن تضر بالمصلحة العربية ولا تتعارض مع الاستقلال العربي» [١٤٧].

ثم طلب من الجميع الشروع بحملة إعلامية لتطمين الشعوب العربية وأوساط الثوار العرب بعدم وجود أي تشويش على استقلال العربية، ولا توجد أية شائبة على تصرفات الصديق الحليف البريطاني.

وقد خلص الشريف باستنتاجاته إلى نقطتين في غاية الأهمية :

١ ـ توطين اليهود في فلسطين لا يتعارض مع الاستقلال العربي ولا يضر بمصلحة العرب.

٢ ـ استمرار التحالف والعلاقات الودية مع بريطانيا في سبيل الصالح العام.

بعد ذلك توجه الشريف إلى صعيد آخر : تسخير الدين والقرآن الكريم لتضليل العرب وتبييض صفحة بريطانيا. قام بنشر نداء في صحيفة «القبلة» المكية في عددها الصادر في ٢٣ آذار/مارس ١٩١٨م يذكر عرب فلسطين أن كتبهم المقدسة

(١٤٦) الأحمد ص١٢٣

(١٤٧) כהן עמ' 138

وعاداتهم وتقاليدهم الإسلامية توصيهم بواجب الضيافة والتسامح، وتحضهم على الترحيب باليهود المهاجرين ومعاملتهم كإخوان لهم. وقد ذكر القرآن الكريم والشريعة الإسلامية السمحاء تأمر المسلمين بواجب إكرام الضيف، وأن اليهود هم إخوان للمسلمين ويجب التفاهم معهم من أجل المصلحة المشتركة [١٤٨].

ويؤكد انطونيوس أن كلمات النداء كانت من إنشاء الشريف نفسه. ومع ذلك أخذت الشكوك تتصاعد وتتعمق. فأوكلت السلطات البريطانية مهمة تهدئة الأوضاع للورنس، صاحب الحظوة والمنزلة الرفيعة في البلاط الفيصلي.

شرع لورنس في مهمته واستعمل في سبيل ذلك حجتين :

الأولى سياسية ، والثانية اقتصادية.

فأما الأولى فهي أن التصريح هو الطريق الوحيد لإحباط مطامع فرنسا وعرقلة خططها التوسعية في سوريا. وقد قال لورنس لفيصل أن تصريح بلفور يسقط ادعاءات فرنسا ويشل خططها نظرًا لما تتمتع به الحركة الصهيونية من قوة ونفوذ خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي الدولة الوحيدة التي بإمكانها كبح جماح فرنسا وإخراجها من المنطقة.

والثانية ما نقل على لسان وايزمان أن في نية الحركة الصهيونية تطوير فلسطين، الأمر الذي يعود بالفائدة على العرب أيضًا.

وقد كتب وايزمان في مذكراته «لقد أعرب فيصل عن موافقته على أفكاري، كما أعلمنا لورنس بذلك في فترة لاحقة».

وقد اقتنع فيصل بمرافعة لورنس فأرسل إلى والده بأقواله وحين سمع الشريف ذلك غضب غضبًا شديدًا، وأرسل إلى ولده يعزره ويوبخه وينبهه إلى أن فلسطين تحوي مدينة القدس المقدسة. وهي بلد عربي وجزء من الوطن العربي وتقع ضمن الدولة العربية الموعودة بالاستقلال ومع ذلك فهو لا يعارض منح اليهود حق ممارسة شعائرهم الدينية في الأماكن المقدسة لهم [١٤٩].

(١٤٨) כהן עמ' 138

(١٤٩) الأحمد ص١٢٨

ولعل أهم محاولات التطمين كان الجواب البريطاني على المذكرة المعروفة «بمذكرة السبعة» والسبعة هم من أبرز رموز ورجالات الحركة الوطنية الفلسطينية المقيمين في القاهرة.

وكان هؤلاء قد بعثوا بمذكرة إلى حكومة بريطانيا طالبين أن تبقى أسماؤهم طي الكتمان مستفسرين عن سياسة الحكومة تجاه الوطن القومي اليهودي في فلسطين. وجاء رد الحكومة على المذكرة بأنها سوف تمنح العرب الاستقلال، ولن تفرض عليهم أي حكم يتنافى مع حريتهم. أي بما معناه منحهم حق «تقرير المصير» (١٥٠). واطمأن السبعة، وطابت نفوسهم، ودفنوا رؤوسهم في الرمال كما يفعل النعام، وكما فعل قبلهم الشريف حسين.

وكان أخر محاولات التطمين حين صدر بيان حكومي بريطاني - فرنسي مشترك في أعقاب عمليات قمع جرت بحق العرب الذين انتفضوا محتجين على التصريح وفي هذا البيان، الذي قامت القيادة البريطانية بنشره، أكدت فيه الحكومتان وعودهما بالتحرير الكامل للشعوب التي طالما ناءت بأعباء الظلم التركي، كما وعدتا بإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطاتها من الاختيار الحر والإرادة المستقلة للأهالي الوطنيين (١٥١).

وانتهت بذلك حملات الإقناع ولكن موجات الاحتجاج الشعبية على التصريح لم تلبث أن استؤنفت ففي تشرين الأول /أكتوبر١٩١٨م، أي سنة كاملة بعد إصدار التصريح، قدم أعيان من العرب الفلسطينيين وممثلو الهيئات السياسية والثقافية عريضة الاحتجاج ترفض التصريح وتدينه. وتقول إن العرب يتعاطفون مع اليهود المضطهدين ويشاركونهم آلامهم على مصيرهم المرير، ولكن هناك فرق شاسع بين التعاطف والموافقة على أن يتحكموا بمصيرنا ويسيطروا على مقدراتنا(١٥٢).

ويلاحظ أن لغة المذكرة كانت لغة مصالحة وركوع في وجه العاصفة وقد تضمنت الرفض الخجول الحي.

---

(١٥٠) انطونيوس ص٣٧٨-٣٨٢ ، صبري جريس م.س ص١٨

(١٥١) م.س ص٣٨٢

(١٥٢) מורים עמ' 80

٥- اتفاقية كليمانصو

لويد جورج كانون الأول / ديسمبر١٩١٨م

ولم يكد العرب يفيقون من هول تصريح بلفور حتى فوجئوا بكارثة جديدة هي اتفاقية كليمانصو - لويد جورج التي نقضت اتفاقية سايكس بيكو وقد اختصمت بفلسطين والعراق فقط، وعلى وجه التحديد منطقة الموصل في شمال العراق حيث منابع النفط الغزير، وبحوره الزاخرة.

تمخض الاحتلال البريطاني للعراق عن أزمة حادة بين الحليفين البريطاني - الفرنسي، فلقد شمل الاحتلال البريطاني منطقة الموصل شمال العراق، وهي منطقة نفوذ فرنسي بموجب اتفاقية سايكس بيكو، والمحتلة بريطانيا. وقد أسفر الاجتماع عن اتفاقية تنص على موافقة فرنسا على التنازل عن مطالبها في منطقة الموصل مقابل حصة من أرباح نفط المنطقة وقيمتها ٢٥% من الأرباح وضم تلك المنطقة إلى العراق (١٥٣).

كما تضمنت الاتفاقية الاعتراف بالسيطرة الفعلية البريطانية على فلسطين «من دان إلى بئر السبع».

٦- اتفاقية سان ريمو

التي تقع في إيطاليا ١٩٢٠/٤/٢٥م

وتم بموجبها نقض بنود سايكس بيكو وإعادة تقسيم منطقة الشرق الأوسط بموجب نظام الانتدابات بين المحتلين الإنجليز والفرنسيين فقط.

---

(١٥٣) Lenzowski p73 ، صبري جريس م.س ص١٩

على كل حال يمكن القول إن هذه الاتفاقيات المتناقضة كالت للعرب ضربة قاصمة قاتلة وقضت على آمالهم وتطلعاتهم. وقد أثارت دهشة وانتقاد العديد من رجال السياسة في بريطانيا.

وقد لخص رمزي مكدونالد، أحد زعماء حزب العمال البريطاني ورئيس حكومة بريطانيا مرات عديدة، هذه الفوضى والبلبلة في خطاب له ألقاه في منطقته الانتخابية :

«أنه في أثناء الحرب خولت حكومة بريطانيا ممثليها في المنطقة، منطقة الشرق الأوسط، إعلام العرب عن موافقة بريطانيا إقامة دولة عربية مقابل دعمهم لنا في الحرب.

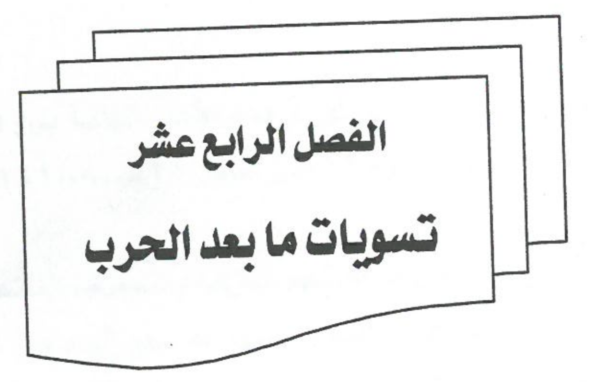
ولكن في الوقت ذاته وعدنا اليهود بإعطائهم البلاد لتكون وطنًا قوميًا لهم وتسهيل الهجرة اليهودية ليصبح اليهود أغلبية سكانية في فلسطين.

وفي الوقت ذاته عقدنا اتفاقية ثالثة وهذه المرة مع الفرنسيين تقضي بتقطيع سوريا الكبرى والعراق وتوزيعهما بين إنجلترا وفرنسا.

وهكذا يا سادتي تعهدنا بثلاث اتفاقيات كل واحدة منها تناقض الأخرى». [١٥٤]

---

(١٥٤) כהן עמ' 167 לפי דוח מאת פרופ מ. בובר מאסיף על פרשת דרכ'נו עמ' 125



"إنهم لا يخلفون إلا الدمار، ويسمونه سلامًا"

تاكيتوس

مؤرخ روماني قديم

« المنتصرون يمزقون الضحية، يقطعون أوصالها ويتقاسمون أشلاءها،
والمهزومون لا يترك لهم إلا عيونهم لتذرف الدموع »

« أخي إن ضجَّ بعد الحرب غربي بأعماله
وقدس ذكر من ماتوا وعظم طعن أبطاله
فلا تهزج لمن سادا ولا تشمت بمن دانا
بل اركع صامتًا مثلي بقلب خاشع دام
لنبكي حظ موتانا »

(ميخائيل نعيمة)

وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وعقدت الهدنة بين دول الوفاق ودول المركز الساعة ١١ من يوم ١١ من شهر ١١ سنة ١٩١٨م وتنفس العالم الصعداء.
انكفأ المنهزمون يلملمون جراحاتهم النازفة وانصرف المنتصرون يحضرون لاحتفالات النص. أما العرب فلقد أوهموا أنفسهم إنهم من عداد المنتصرين فأخذتهم نشوة النصر وشرعوا يحيون مهرجانات النصر ويقيمون الاحتفالات والليالي الملاح يمنون أنفسهم بالمستقبل الزاهر الواعد.
وكان على رأس المحتفلين المنتشين الشريف وأولاده، خاصَّة الأمير فيصل، الذي قاد العمليات العسكرية ضد الأتراك.
وكان أول الداخلين إلى مدينة دمشق دخول المنتصرين ولسان حاله يقول : لقد دفعنا الثمن وساهمنا في تحقيق النصر فيحق لنا الآن قطف ثماره: استقلال الوطن العربي تحت التاج الهاشمي.

ولكن الرياح لم تجر بما تشتهي السفن، فلقد كانت آمال وتوقعات العرب ومخططات دول الوفاق المنتصرة تختلف اختلافًا كليًا : اعتبروا أن العرب، تحت قيادة فيصل، قد نفذوا المهمة الموكلة إليهم، ولم تعد لهم أية فائدة، بل أصبحوا

عبئًا ثقيلًا يقتضي التخلص منه أو إهماله، وكأن لسان حالهم يقول: ها قد أنجز العرب مهمتهم فليذهبوا الآن إلى الجحيم ! [1]. لقد أنجز العبد المهمة الموكلة إليه فليرنا الآن عرض كتفيه.

تقسيم المنطقة المحتلة

باشرت الدولة المحتلة بريطانيا باتخاذ الإجراءات العسكرية لتنظيم أمور المناطق المحتلة وإدارة شؤونها، دون استشارة الحليف العربي أو الأخذ برأيه. لم يعتبروها مناطق محررة، بل مناطق عدو محتلة وأطلقوا عليها «مناطق العدو المحتلة»[2]

أخضعوها للأحكام العسكرية التي يترأسها القائد العام للقوات المحتلة الجنرال اللنبي. وقد مدد سريان مفعول الأحكام العسكرية المذكورة إلى حين التوصل إلى تسوية سلمية نهائية وتسليم الحكم إلى «أيد أمينة».

وقد قسمت المناطق المحتلة من الوطن العربي (سوريا والعراق) إلى منطقتين :

١ – العراق المحتلة.   ٢ – بلاد الشام المحتلة.

وكانت هناك فروق شاسعة بين هاتين المحتلتين من حيث نوعية الإدارة وطواقم الموظفين: فلقد اعتبر العراق وحدة إقليمية واحدة تخضع لحكومة مركزية يديرها مندوب سام مدني بريطاني يترأس سلطة مدنية مركزية قطرية.

أما بلاد الشام فلقد قسمت إلى ثلاث مناطق احتلال منفصلة لكل منها إدارتها المستقلة :

١ – «إدارة منطقة العدو المحتلة ـ القسم الجنوبي » وسميت اختصارًا «المحتلة جنوبًا» وإدارتها بريطانية خالصة. والمنطقة تشمل فلسطين بحدودها الحالية ورئيس إدارتها الجنرال كلايتون.

٢ – «إدارة منطقة العدو المحتلة القسم الشرقي » وسميت اختصارًا «المحتلة شرقا » وتشمل سوريا الحالية وإدارتها عربية. والمرشح للحكم الأمير فيصل، يحكم بموجب صلاحيات يخولها له القائد العام اللنبي.

(١) Tibawi p278

(٢) Oeta – Occupied Enemy Territorial Adminstration

٣ – «إدارة منطقة العدو المحتلة القسم الغربي» وسميت اختصارًا «المحتلة غربًا» وتضم الساحل اللبناني ـ السوري ابتداء من مدينة صور وانتهاء بكيليكيا. وإدارتها فرنسية خالصة.

وكانت هذه التقسيمات نذيرًا بالنيات المستقبلية الخبيثة المبيتة للمنطقة وما ينتظرها من تفتيت وتفكيك وتقطيع أوصال وتقاسم أشلاء. وقد انفتح المجال الآن بعد انتهاء الحرب، لتنفيذ الوعود والاتفاقيات السرية. أما العرب فلم يترك لهم إلا خيار واحد: أن يأكلوا مما أعد لهم من طعام، ويلبسوا مما فصل لهم من ثياب[3].

إن هذه التقسيمات لم تضرب بأماني «الحليف العربي» عرض الحائط فحسب، بل إنها كانت انتهاكًا صارخًا واستهتارًا فاضحًا للقوانين والمواثيق الدولية التي تفرض على الاحتلال إلا البقاء على الوضع الراهن في البلاد المحتلة، وعدم إجراء أي تغيير في المبنى الجغرافي ـ السياسي فيها.

أثارت التقسيمات المذكورة حفيظة كل من العرب والحركة الصهيونية، فالعرب اعتبروها تمزيقًا للوطن، والحركة اعتبرتها إغفالًا للوطن القومي.

انتفض العرب يعربون عن معارضتهم واحتجاجهم مهددين بمقاومة عنيفة ضد المحتل الفرنسي في المنطقة غربًا. لقد شعروا بالمرارة والإحباط وهددوا باللجوء إلى السلاح. وقد شعرت الدولتان المحتلتان : بريطانيا وفرنسا بالخطر فحاولتا تفاديه بإصدار تصريح مشترك حاولتا فيه التهدئة والتطمين. كان ذلك التصريح «الأنجلو ـ فرنسي» الصادر في تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٨م. قد سارع الجنرال اللنبي إلى الإعلان بأن التقسيمات المذكورة مؤقتة اقتضتها الضرورات العسكرية المستعجلة الملحة. ثم طمأن العرب أن مستقبل البلاد سوف تقرره ترتيبات جديدة تأخذ بالحسبان أمنيات السكان ومصالحهم، وسوف تنفذ بالقريب العاجل. وكان الأمير فيصل يثق ثقة عمياء بالجنرال المذكور ويصدق كل كلمة من كلماته ويؤمن بكل تصريح تصريحاته وكأنها آيات سماوية مقدسة، فلا عجب أن سارع إلى الانضمام إلى حملات التهدئة فاستكانت النفوس واطمأنت القلوب ولكن إلى حين.

(٣) Status Qno

■ مؤتمر الصلح في فرساي

مضى على التصريح الأنجلو- فرنسي أسبوعان. وبدأت التحركات الأوروبية لعقد مؤتمر النصر الذي أطلقوا عليه، تجنيًا، مؤتمر الصلح في فرساي، أشهر ضواحي العاصمة الفرنسية باريس. وفي حقيقة الأمر لم يكن المؤتمر المذكور مؤتمرًا للصلح ولا للسلام، وإنما مؤتمر للمنتصرين، وهدفه تقسيم غنائم الحرب. لقد كان مؤتمر الطيور الجارحة والوحوش المفترسة لتتقاسم أشلاء دول المركز المهزومة، وعلى وجه الأخص أشلاء الدولة التركية، ذلك الرجل المريض على البوسفور. وتحركت الحكومة البريطانية واقترح رئيسها لويد جورج على الشريف حسين، بتوصية من لورنس، إيفاد مندوب عنه إلى المؤتمر وأوعز له بانتداب ابنه فيصل.

أبرق الشريف إلى فيصل: «حليفتنا بريطانيا العظمى، الوفية لنا، ترغب حضورك نائبًا عن مصالح العرب، وكل ما يكون أساسًا لحياتهم، خاصّة، بكل ما يتعلق والإدارة. وحيث أن رابطتنا الوحيدة هي العظمة البريطانية، ولا علاقة لنا ولا مناسبة مع سواها في أساستنا السياسية، فكل ملاحظاتك، وكل ما تراه في هذا الموضوع تبديه لنوابها وعظمائها الأمجاد وتجنب كل ما سوى ذلك. هذه هي درجة مأذونيتك عما يختص بالمجتمع وخير الأهالي بالمصلحة والقصد. والله يتولاك».(٤)

أبحر فيصل من بيروت قاصدًا باريس في ١٩١٨/١١/٢٢م على ظهر الطراد غلوستر ووجهته ميناء مرسيليا. ولم يكن الأمير فيصل الساذج، سليم النية والطوية، على دراية بالتيارات الاستعمارية الداخلية وبموازين القوى العالمية، كما لم يكن واعيًا على المخاطر والمطبات والمنزلقات التي تتربص بالوطن العربي في المؤتمر والتي تتلخص في:

- مطامع فرنسا في سوريا.
- مطامع بريطانيا في العراق وفلسطين.
- مطامع الحركة الصهيونية في فلسطين.

(٤) الحولي ص٢٩٠

فيصل في فرنسا

حزم فيصل أمتعته استعدادًا للتوجه إلى فرنسا. وقد وصل ميناء مرسيليا الفرنسي في ١٩١٨/١١/٢٦م بعد أربعة أيام إبحار

وطئ الأمير الأراضي الفرنسية بحال، وخرج منها بحال أخرى. فلقد وصل والآمال الوردية ومشاعر التفاؤل تملأ قلبه. ولم يكن يدري بالحبائل والإشراك المنصوبة له بكل خبث وإحكام في دهاليز المؤتمر وحقيبته السرية.

كان عليه مواجهة ٣ مؤتمرات دولية: بريطانية - فرنسية - صهيونية. فلكل منها مصالحها. فبريطانيا تسعى للهيمنة على لواء الموصل في شمال العراق طمعًا بنفطه، كما تسعى للهيمنة على فلسطين لتحقق تصريح بلفور. وفرنسا تسعى للهيمنة على سوريا ولبنان. والحركة الصهيونية تتطلع إلى فلسطين وطنًا قوميًا للشعب اليهودي.

ولم يكن فيصل البسيط الساذج الضعيف ليصمد أمام هذا الكم الهائل من المصالح، أو ليواجه عمالقة السياسة الدولية وأعلام الدبلوماسية.

كان على جهل مطبق باللغتين الإنجليزية والفرنسية، كما كانت تنقصه الدراية العميقة في علوم التاريخ والعلاقات الدولية والقانون، ولا يفقه الفرق بين الألفاظ والمصطلحات الدبلوماسية والسياسية. كما كان على جهل تام بالدهاليز والإشراك السياسية والأوروبية. ولم يكن يتابع المقابلات والحملات والأنباء التي تنشرها الصحافة الأوروبية والدعاية الصهيونية. كان قدره أن يواجه أساطين السياسة الدولية السياسة الدولية وأقطاب المكيافيليه السياسية العالمية(٥).

وأولهم - لويد جورج رئيس الحكومة البريطانية وتحدوه في سياسته أفكاره ومعتقداته الدينية البروتستانية، والنظرة الاستعمارية التي تتلخص في:

١- السعي لحيازة مستعمرات جديدة وراء البحار.
٢- المحافظة على المصالح الحيوية للإمبراطورية البريطانية.
٣- السعي لإقامة وطن قومي للشعب اليهودي على الأراضي الفلسطينية.

(٥) م.س ص ٢٩٥-٢٩٤

وحين حان دور البث في مصير فلسطين وحدودها في أبحاث المؤتمر قال : إن الدولة (اليهودية ز. ف) يجب أن تقام بموجب العهد القديم. وأن حدودها سوف تمتد من دان في الشمال حتى إيلات في الجنوب.

ثم أصر أن توضع هذه الرقعة من الأرض تحت الانتداب البريطاني.

وثانيهم ـ كليمانصو رئيس حكومة فرنسا وتحدوه مصالح فرنسا الاستعمارية وأطماعها في الشرق، بما فيها تبني مسيحي لبنان من الطائفة المارونية ومسيحي الشرق عمومًا من الطائفة الكاثوليكية وحيازة مستعمرات جديدة.

وثالثهم ـ ودرولسون الرئيس الأمريكي وكان أنقاهم معدنًا، وأصفاهم طويه، وأخلصهم نية.

فقد كان متحررًا من أية مطامع استعمارية وكان يحدوه مبدأن :

١ـ إقامة منظمة دولية مهمتها الحفاظ على السلام العالمي ومساندة الشعوب المحتاجة (عصبة الأمم لاحقًا).

٢ـ والمحافظة على حقوق تلك الشعوب المستضعفة وتلبية مطالبها وتأمين اختيارها الحر لنظام الحكم الذي تختاره بموجب «حق تقرير المصير للشعوب».

ـ فيصل يتلقى الصفعة الأولى (٦)

لم تكد قدما فيصل تطآن ميناء مرسيليا حتى واجهته الصدمة الأولى. كان يؤمن أنه معدود على معسكر المنتصرين، وأنه جاء ممثلاً لجميع العرب في وطنهم الكبير. أما فرنسا فلم تكن تنظر بعين الرضي والارتياح لهذا الأمير الطامع في عرش سوريا الكبرى والموالي لبريطانيا. فلا عجب أن أعدت له استقبالا فاترًا مهينًا. وجد فيصل في استقباله على أرض الميناء ضابطين فرنسيين، في حين كان يتوقع استقبالاً رسميًا يحضره كبار الوزراء والمسئولين وتصدح فيه الموسيقى ألحان النصر، وهو يخطو على بساط أحمر في حين تطلق المدفعية طلقات الترحيب.

تقدم الضابطان واعلماه بمنتهى الأدب. والبرودة إن الحكومة الفرنسية ترحب به كزائر عادي، ولكنها لا تستطيع اعتباره ذا صفة رسمية تمثيلية. وامتقع وجه

(٦) م.س ص٢٩١

الأمير وابتلع ريقه الجاف وامتص الإهانة تغاضى عن الصفعة فلم ينبس ببنت شفة وآثر صمت أهل القبور.

ـ والصفعة الثانية :

ثم جلجلت الصفعة الثانية : فبدلًا من مرافقة الأمير الضيف إلى فرساي، حيث ينعقد المؤتمر وحيث تتخذ القرارات المصيرية طوّف به مرافقوه في جولة سياحية إلى الأقاليم الفرنسية، فزار مدينة ليون وقدمت له هدية هي عبارة عن أقمشة حريرية. ثم رتبت له زيارة لساحات القتال في منطقة الالزاس. وقلّده الجنرال غورو، قائد الجيش الرابع المرابط في شتراسبورغ، وسام الشرف الفرنسي. وقد فهم فيصل أن مضيفيه يضيعون الوقت في زيارات لا طائل منها، وأنهم لا ينوون سفره إلى فرساي، وأنهم يبيتون إنهاء زيارته، فرتبوا له زيارة باريس ومقابلة مع رئيس الجمهورية في ٧كانون الأول / ديسمبر ١٩١٨م ثم سفّروه بحرًا إلى لندن حيث يجري ترويضه وتدجينه وخلع أنيابه وتقليم مخالبه.

ـ فيصل في لندن :

وصل فيصل إلى لندن فرتبت له السلطات لقاء مع جلالة ملك بريطانيا الذي ألقى عليه محاضرة طويلة عن تاريخ العائلة المالكة الإنجليزية.

في اليوم التالي الموافق ١١/١٢/١٩١٨م قام فيصل بزيارة لوزير الخارجية اللورد بلفور، وكان يرافقه صديقه ومستشاره لورنس مترجمًا. لم يذكر فيصل شيئًا عن مضمون اللقاء، ولكن بلفور قدم أربعة تقارير رسمية عما دار بينه وبين فيصل. والغريب أن "فيصل" لم يتطرق بكلمة واحدة عن المهمة التي جاء من أجلها : مستقبل الوطن العربي، وتصريح بلفور.

أما التقارير الأربعة التي قدمها بلفور فكانت :

تقريرًا للملك ، وثانيًا للحكومة البريطانية ، وثالثًا للحكومة الفرنسية ، ورابعًا للمندوب السامي البريطاني في مصر.

من التقارير يتضح المواقف التي أبداها فيصل :

١ـ العداء المرير لفرنسا.

٢ـ التأييد المطلق لبريطانيا.

٣ـ شكوى على الجنرال اللنبي بخصوص مسألة إنزال العلم العربي.

٤ـ تهديد بأنه إذا ما لجأ الفرنسيون إلى استعمال العنف مع العرب فإن العرب سوف يردون بالمثل ويكيلون الصاع صاعين، بحيث يكون الرد شديدًا مؤلمًا. وأن قواته العربية تفضل الشهادة على الاستسلام للفرنسيين.

٥ـ عدم التطرق إلى سياسة بريطانيا في المنطقة (٧).

ـ وصفعة إنجليزية:

في لندن بدأت تتكشف الكارثة الرهيبة لفيصل وبدأت تتضح الهوة السحيقة التي جرَّ إليها العالم العربي بالثورة العربية.

١ـ تبين له هناك أن اتفاقية سايكس بيكو ليست «أكذوبة أفتراها الخيال البلشفي المتآمر» بل هي حقيقة ميدانية وواقع مرير. ولم يكد يصحو من هول الصدمة حتى هوت الضربة التالية.

٢ـ إن تصريح بلفور لا يعني «منح اليهود المستضعفين ملجأ يأوون إليه ومأوى يستظلون به لممارسة شعائرهم الدينية. وإنما هو وعد بوطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين». وعدٌ ينفذ ميدانيًا على التراب الفلسطيني.

بالإضافة إلى هاتين الكارثتين بدأ فيصل يعي بعدًا إضافيًا جديدًا للقضية وهو الصراع التناحري بين حليفي الأمس خصمي اليوم ؛ بريطانيا وفرنسا.

أما محور الصراع فيدور حول من يأخذ ماذا ؟

لقد انتهى شهر العسل الأنجلو ـ فرنسي وبدأ التناحر فكل طرف يسعى للكف من نفوذ الآخر وتقليص مناطق هيمنته وحيازاته الإقليمية.

وقد تلخصت نقاط التناحر بالأمور التالية :

١ـ فرنسا تعترض على حضور فيصل مؤتمر فرساي، وتعتبره صنيعة بريطانية وإن أقصى ما يمكنها الاعتراف له به «الإدارة المحتلة شرقًا» فقط، وقبوله في المؤتمر ممثلًا عن الحجاز لا عن كل العرب. ودول الوفاق لم تعترف بالحجاز طرفًا حليفًا شريكًا معها في الحرب.

(٧) Tibawi p285

٢ـ بريطانيا ترى أن اتفاقية سايكس بيكو قد لفظت نفسها الأخير وأصبحت في خبر كان، وفي حكم الملغاة، فقد انسحبت روسيا من الحرب ومن الاتفاقية فقوضت بذلك أركانها وحولتها أثر بعد عين. أما فرنسا فترى أن الاتفاقية لا تزال حية سارية المفعول، فانسحاب روسيا من الحرب لا يقدم ولا يؤخر، ولا يغير شيئًا من بنود الاتفاقية التي تم الاتفاق عليها سابقًا بين الحليفين الإنجليزي والفرنسي.

٣ـ أما نقطة الخلاف الثالثة فدارت حول مطامع بريطانيا في منطقة الموصل والنفط، وحول فلسطين كمرحلة لتنفيذ تصريح بلفور. والموصل بموجب سايكس بيكو منطقة فرنسية. أما فلسطين فدولية بموجب الاتفاقية ذاتها. وبعد مداولات ساخنة وخلافات حادة تم الاتفاق على حل وسط : فرنسا تتنازل لبريطانيا عن منطقة الموصل ونفطها وترضى بتحويل فلسطين إلى انتداب بريطاني مقابل تعويض بريطاني لفرنسا بحصة سمينة من نفط الموصل (٨).

ذهل فيصل إزاء هذه الصفعات المتتالية وامتلأت نفسه بالمرارة واليأس طوال الأسابيع الثلاثة التي قضاها في لندن. وكيف لا يصاب بالانهيار؟ وهو ذلك الإنسان البدوي البسيط الساذج الذي قضى حياته متنقلًا بين القصور، مترفهًا بالنعم. لقد بلغ منتصف العقد الرابع من عمره ولم يعد، بعد ذلك الفتى الناضر في ريعان الشباب. وهو، بعد، يجهل اللغتين الإنجليزية والفرنسية، كما اسلفنا، يشرف عليها أدهى دهاة العصر. ولعل الأمر من كل ذلك أنه ترك وحيدًا، شبه منفرد بين تلك الأفاعي السامة، فلقد تخلى عنه الصديق والحليف البريطاني وسلمه لقمة سائغة، وشربه هنيئة مريئة للفرنسي القاسي فأصبح «أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام».

شعر فيصل أنه أضحى رهينة في بلاد الغربة. لقد وقع في الشرك الذي لا فكاك منه، فالمطالب المتراكمة الفرنسية ـ البريطانية ـ الصهيونية شبه مستحيلة، ومن غير الممكن الاستجابة لها. وهاهو واقع بين كل الضغوط البريطانية ـ الفرنسية ـ الصهيونية من ناحية وضغوط الحركة الوطنية العربية التي تلح على

(٨) انطونيوس ص٣١٢

الاستقلال. لقد أصبح ريشة في مهب الريح ووقع ضائعًا بين المطرقة والسندان. وقع في حيرة وعراة الاكتئاب وأوشك على الانهيار. إلى من يتوجه؟ بمن يستعين؟ ولم يجد بدًا من اللجوء إلى الإنجليز، الحليف الخائن ! الصديق اللدود ! الخصم والحكم ! فعسى ولعل !

وفي حقيقة الأمر كان المسئولون البريطانيين قد أجروا له شبه عملية غسل دماغ وأقنعوه أن درعه الوحيد وملاذه الآمن هو الحضن البريطاني، وأن طوق النجاة هو لويد جورج.

سلّم الأمير أموره إلى بريطانيا فاستغلت استسلامه لتدفع به إلى أحضان الحركة الصهيونية، ممثلة بالدكتور حاييم وايزمان، وتقنعه بقبول تصريح بلفور وتدفعه للاتفاق مع المنظمة الصهيونية والموافقة على الإجراءات الكفيلة بتنفيذ التصريح[٩] وقد افهموه أن عدم موافقته على هذا الأمر سوف يسيء إلى علاقته مع حكومة صاحب الجلالة. كما أغروه بأن التحالف مع الحركة المذكورة سوف يعود بالفائدة على القضية العربية وأنها سوف تستخدم نفوذها وذهبها عند الدول المعنية لتحقق له بعض المطالب. وقد أفهمه البريطانيون أن هذه هي نصيحتهم الوحيدة وكلمتهم الأخيرة، وهم لا ينوون ولا يستطيعون تقديم نصائح إضافية. عليه القبول أو الرفض.

أذعن فيصل ووافق على الاجتماع بالدكتور وايزمان والاستماع لمطالبه.

ـ اتفاقية فيصل وايزمان

اجتمع الأمير مع وايزمان في ٣كانون الثاني / يناير ١٩١٩م.
مكان الاجتماع فندق كارلتون ـ لندن.
الحضور : فيصل، ولورنس ترجمانا ود. حاييم وايزمان رئيس الحركة الصهيونية العالمية.
موضوع البحث : إقامة الوطن القومي اليهودي على التراب الفلسطيني.

---

(٩) الخولي ص٢٩٦

وفي حقيقة الأمر لم يكن هذا هو اللقاء الأول، فلقد سبقه لقاء قرب مدينة العقبة، حين كانت رحى الحرب دائرة في فلسطين.

وكان هذا اللقاء الأول في بداية سنة ١٩١٨م حين كان جنوب فلسطين واقعًا تحت الاحتلال البريطاني، بينما النصف الشمالي لا يزال تحت السيادة التركية.

في هذه المرحلة المبكرة شرعت السلطات البريطانية تمهد لتحقيق التصريح، فأوفدت إلى فلسطين « لجنة المندوبين » المؤلفة من تسعة أعضاء يرأسهم وايزمان، ويدير شئونهم البريطاني المسيحي المتصهين أورمبسي غور.

أما هدف الزيارة فكان البحث عن أفضل الطرق لتحقيق التصريح.

وقد تم ترتيب اللقاء بين فيصل ووايزمان بعد أن شن البريطانيون حربًا نفسية على فيصل ليتمكنوا من تركيعه وتطويعه، فلوّحوا له بخطر الفرنسيين ومطامعهم الإقليمية في الشرق. ثم انتقلوا إلى الضغط عليه ليصل إلى تفاهم مع وايزمان ليحبط المخططات الفرنسية.

وانكسر فيصل ووافق على الترحيب بالمشروع الصهيوني وإقامة الوطن القومي اليهودي على التراب الفلسطيني. ويا دار ما دخلك شر فالطرفان العربي والصهيوني قد خرجا راضيين ترعاهما بركات العراب البريطاني. وقد توج هذا الاتفاق الميمون بصورة فوتوغرافية يظهر فيها وايزمان إلى جانب فيصل بكوفيته وعقاله وعباءته.

وقد كتب وايزمان لزوجته فيرا واصفًا فيصل بأنه «الزعيم العربي الحقيقي الذي تشرف بلقائه وهو مستقيم، ذكي وفي غاية الجمال والأناقة. كما أنه لا يبدي أي اهتمام بفلسطين فكل اهتمامه موجه إلى سوريا ودمشق.

وقد تكلم الأمير بغضب شديد عن الفرنسيين الذين يسعون جاهدين لوضع أيديهم على سوريا وهو يتوقع انجازات كبيرة من الصداقة مع اليهود. وهو يتطلع كذلك بازدراء واستهانة للعرب الفلسطينيين الذين لا يعتبرهم عربًا أقحاحًا ».

أما اللقاء الثاني الحالي فكان «لقاء » المذكور أعلاه وكان وايزمان منذ صدور تصريح بلفور يسعى إلى تحقيق هدفين :

١ـ تأمين دعم دولي وتأييد عالمي للتصريح.

٢ـ التوصل إلى تسوية ونوع من الاتفاق مع الحركة القومية العربية وهو يتصور أن ممثلها وعنوانها الأوحد الوحيد الأمير فيصل.

ولا شك أن وايزمان كان مخطئًا في توجهه الأخير، فقد آمن أن "فيصل" هو الزعيم والرمز الفرد، الآمر الناهي القادر على كل شيء. وأن كلمته هي القول الفصل. وإقناعه بالمشروع الصهيوني وبالوطن القومي اليهودي يعني بالضرورة إقناع الحركة القومية العربية، وبالتالي الشعب العربي. لقد كان مقتنعًا أنه بإقناع فيصل، سوف يحل كافة المشاكل مع العرب، وبجرة قلم. لقد تصور أنه سوف يحل العقدة الغوردية العربية بإشارة من فيصل. ولم يكن يدري أن هناك حركة قومية عربية واعية تسعى إلى تحقيق المطالب القومية العليا، وعلى رأسها استقلال الوطن العربي ووحدة عربية قومية شاملة.

على كل حال وجد وايزمان "فيصل" يتخبط في لندن في دوامة فكرية نفسية، فلقد كانت تتنازعه عوامل متناقضة أوقعته فريسة لها فكان هناك :

١ـ النصر الوهمي الذي كان يعتقد أنه أحرزه.

٢ـ الثقة العمياء بالصديق الحليف البريطاني الذي تحول إلى خصم وحكم ن فأعطى الوعود المتناقضة التي تعكس خيانته لحليفه العربي واستهتاره به.

٣ـ الخوف من الفرنسيين وتشككه في أنهم يحاولون سرقة نصره والحيلولة دون قطاف ثماره، والسعي لانتزاع ملكه وحرمانه من حقه.

والنتيجة تسليمه المطلق غير المشروط بكافة مقاليد أموره إلى البريطانيين. وكان هذا ما تأمله وايزمان ؛ فالبريطانيون حلفاء الحركة الصهيونية وهم أصحاب التصريح.

ولم يصل إلينا من نبأ لقاء لندن هذا وتفاصيله، إلا النص الذي رواه د. وايزمان، وهو أشبه ما يكون بالدعاية الصهيونية، يروي وايزمان أنه تكلم مشددًا عن نقاط الالتقاء المشتركة بين فيصل ووايزمان وهي :

١ـ العداء لاتفاقية سايكس بيكو ورفضها.

٢ـ النفوذ الكبير الذي يتمتع به اليهود في الولايات المتحدة ومدى تأثيرهم الواسع على الرئيس الأمريكي ويلسون وإدارته وإمكانية تجنيده لإلغاء الاتفاقية.

بعد ذلك يروي وايزمان أنه انتقل إلى الموضوع التالي، وهو العلاقات المتوترة بين فيصل والفرنسيين. وكان فيصل على دراية تامة بالنفور الذي يسود العلاقات بين الطرفين. وتساءل وايزمان بذكاء ومكر إنه إذا كان فيصل لا يمانع في تحويل فلسطين إلى «محمية بريطانية». وهو المطلب الذي طالما سعت إليه الحركة الصهيونية لضمان تنفيذ التصريح وادعى وايزمان أن "فيصل" أبدى له وأن فلسطين تتسع للشعبين العربي واليهودي.

ثم همس وايزمان في أذن فيصل أنه يأمل أن يعرف مؤتمر السلام في فرساي بالحقوق السياسية والقومية للشعب اليهودي في فلسطين وأن تخصص مناطق في فلسطين لتوطين اليهود بحجم ٤ـ٥ مليون نسمة مع ضمان عدم المساس بحقوق الملكية للفلاحين العرب.

وادعى وايزمان أن "فيصل" وعد أن يحاول إقناع العرب أن إدخال اليهود إلى فلسطين من شأنه أن يعود بالخير العميم على البلاد وشعبها وأنه يؤيد بكل قواه، المطالب الصهيونية، وأنه سوف يعلن في مؤتمر فرساي إن الحركتين: الصهيونية والقومية العربية توأمان يكمل الواحد منهما الآخر، وهما سوف تتعايشان معًا بتناسق وتناغم بعد أن وعد فيصل وايزمان أن بإمكانه إقناع العرب أن قدوم اليهود إلى فلسطين لا يحمل إلا الخير العميم للبلاد.

في ٣ كانون الثاني/ يناير سنة ١٩١٩م توصل الطرفان في هذا اللقاء إلى اتفاق وقعه كل من فيصل ووايزمان وقد نصت ديباجته على التالي :

«إن صاحب السمو الملكي الأمير فيصل، ممثل المملكة العربية الحجازية والقائم بالعمل نيابة عنها، والدكتور حاييم وايزمان، ممثل الصهيونية العالمية والقائم بالعمل نيابة عنها، إدراكًا منهما لقرابة الدم والروابط القديمة بين الشعبين العربي واليهودي، واعترافًا بأن الوسائل الأكيدة لتحقيق مطامحهم الوطنية هو عبر التعاون الوثيق في تطوير الدولة العربية في فلسطين. ورغبة منهما في تأكيد التفاهم القائم بينهما، اتفقا على ما يأتي»

ثم تأتي بعد ذلك بنود الاتفاقية وكان أهم البنود وأخطرها الثالث والرابع والسادس.

فالبند الثالث يقضي بتنفيذ تصريح بلفور.

والبند الرابع يدعو إلى تشجيع الهجرة والاستيطان اليهوديين في فلسطين بالصيغة التالية: «سوف تتخذ جميع الإجراءات اللازمة لتشجيع وتسريع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على نطاق واسع وبأسرع ما يمكن، وسوف يتم توطين المهاجرين اليهود في الأرض من خلال إقامة مستوطنات لهم وتكثيف استغلال الأرض وسوف تصان حقوق المزارعين والسكان العرب وتقدم لهم المساعدات لتطوير اقتصادهم».

أما البند السادس، فبالإضافة إلى وضع الأماكن المقدسة الإسلامية تحت إدارة إسلامية، التزم الطرفان بتحويل كل ما قد ينشب بينهما من نزاع إلى الحكومة البريطانية للتحكيم. أي تصبح تلك الحكومة الخصم والحكم بالنسبة للطرف العربي.

وتم التوقيع الرسمي على الاتفاقية في الثالث من كانون الثاني/ يناير ١٩١٩م والموقعان فيصل بن الحسين وحاييم وايزمان(١٠).

وقد فطن فيصل، بعد أن وقع الاتفاقية، أن عليه أن يضيف التحفظ التالي في ذيل الاتفاقية، فكتبه باللغة العربية وبخط يده. وقد قام لورنس بترجمة ما كتب فيصل إلى اللغة الإنجليزية. وهذا ما كتبه فيصل :

«إن نال العرب استقلالهم وفقًا للمطالب التي تضمنتها مذكرتي المؤرخة في الرابع من يناير ١٩١٩م المرسلة إلى وزارة خارجية بريطانيا العظمى كان هذا الاتفاق صالحًا (ساري المفعول ز. ف) ولكن إذا وقع أي تعديل أو تحويل فيجب عندها ألا أكون مقيدًا بأية كلمة وردت في هذه الاتفاقية التي يجب اعتبارها ملغاة، ولا قيمة قانونية لها، ويجب ألا أكون مسئولًا عنها مهما كانت».

والخلاصة ينبغي التنويه بالنقاط التالية :

١ـ وقَّع فيصل على الاتفاقية على أمل أن يحظى بتأييد الحركة الصهيونية لمشروعه في الحصول على التاج الملكي على سوريا.

---

(١٠) الخولي ص٣٠٦ ، جون نورتون مور الصراع العربي الإسرائيلي في المفاوضات العربية الإسرائيلية، رئيس التحرير رجاء سري الدين

٢ـ تجاهل الأمير فلسطين وتغاضى عن ذكرها.

٣ـ لم يرفض الأمير إقامة الدولة اليهودية أو الهجرة اليهودية.

٤ـ ظلت هذه الاتفاقية حبرًا على ورق ولم تتمخض عن أي إنجاز ميداني، فمصير البلاد لم يقرره غير المنتصرين المجتمعين في مؤتمر الصلح، فحتى قبل لقاء وايزمان ـ فيصل خارج المؤتمر في كانون الأول / ديسمبر١٩١٨م أي قبل افتتاح المؤتمر بشهر واحد اتفق القطبان: الفرنسي والبريطاني على إدراج فلسطين ضمن الانتداب البريطاني تمهيدًا لتنفيذ التصريح.

- تقييم الاتفاقية

قام فيصل ووايزمان بالتوقيع على الاتفاقية والتحفظ. ولاشك أن "فيصل" باتفاقه مع وايزمان وموافقته على المشروع الصهيوني، أنزل أفدح الأضرار بالقضية القومية وبنفسه أيضًا وقد سطر بذلك في تاريخه فصلًا حالك السواد. فلقد أخطأ مرتين :

مرة حين وثق بالإنجليز وسلمهم زمام أموره.

وأخرى حين وقع الاتفاقية المذكورة مع وايزمان في الوقت الذي لم يكن يملك فيه حق التوقيع نيابة عن فلسطين (١١) أو عن غيرها، فلقد كان يفتقر إلى أية صفة تمثيلية.

ويطيب لبعض المؤرخين أن يتهموه أنه لم يضع نصب عينيه في تلك المواقف المصيرية إلا العرش والتاج. وقد تصرف بعقلية رئيس عشيرة بدوية وليس قائدًا وطنيًا لا تهمه إلا المصلحة العامة ؛ بغض النظر عن المطامع الشخصية والنزوات الخاصة والتطلعات الحالمة بتاج وعرش وتأمين ألقاب الشرف والمرتبات العالية والامتيازات العريضة. وبذلك فشل في الدفاع عن القضية العامة عمومًا، والقضية الفلسطينية بصورة خاصة وأوقعهما في مخاطر جسيمة، فلقد وافق على سلخ فلسطين عن سائر الوطن العربي في المشرق، الأمر الذي مهد لاقتطاعها وتمزيقها في وقت لاحق.

---

(١١) سري الدين ص٢١

كما أن موافقته على تصريح بلفور لا يعني إلا الاعتراف بشرعية الوطن القومي اليهودي في فلسطين بكل ما يتضمنه من مخاطر ومطبات من انتقال الأراضي من ملكية عربية إلى ملكية يهودية والهجرة والاستيطان اليهوديين [١٢].

بالإضافة إلى ذلك تقضي الاتفاقية على ضرورة التنسيق بين الوفدين العربي والصهيوني في مؤتمر فرساي، في الفترة المقبلة وإضفاء الشرعية، بمباركة فيصلية، على المشروع الصهيوني وتصريح بلفور.

ولاشك أن عوامل عديدة تكالبت على فيصل حتى قوضته وزلزلت كيانه في نهاية المطاف، فمن ناحية لم يكن الأمير مبنيًا للمقاومة والتصدي والصمود، وإنما كان ذا شخصية ضعيفة مترددة، عرضه للتأثيرات الخارجية والضغوط الجانبية. ومن الناحية الأخرى وقع في ظروف صعبة للغاية. فلقد كان وحيدًا معزولًا في مدينة الضباب.

بالإضافة إلى ذلك قام لورنس بدور هام في إقناع فيصل بالتوقيع، وكان لورنس موضع ثقة الأمير ؛ ورأيه مقبول وكلمته مسموعة، ويشهد وايزمان على الدور الذي قام به لورنس ومساهمته الفعالة في إنجاز الاتفاقية. ومن غير المستبعد أن يكون لورنس عميلاً لبلفور، مروجًا لتصريحه، خصوصًا وأن "فيصل" كان يحلم بتحالف صهيوني ـ عربي يساعده في تجنيد الأموال والنفوذ الصهيونيين في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد استشعرت كل من بريطانيا والحركة الصهيونية نقاط ضعف الأمير فوجهتا عليه ضغوطات وتهديدات وصلت حد الابتزاز.

والنتيجة الحتمية انهيار فيصل واستسلامه لإملاءات بريطانيا وأولها المشروع الصهيوني.

---

(١٢) الخولي ص٣٠٧

ـ فيصل ينكر الاتفاقية

أثار نبأ الاتفاقية مع وايزمان المرارة والذهول في الأوساط العربية، فلقد اعتبرتها خطأ قاتلاً بحق العرب عمومًا، وبحق عروبة فلسطين بصورة خاصة.

كثرت التجريحات والطعون والانتقادات واشتدت المعارضة، الأمر الذي اضطر "فيصل" إلى إنكار الاتفاقية والتنصل منها.

ففي شباط / فبراير ١٩١٩م، أي بعد حوالي الشهر من توقيعها، أنكر فيصل أي اتفاق مع وايزمان [١٣]

ويمكن أن نعزو هذا التراجع إلى معارضة والده الشريف حسين ومعارضة الحركة الوطنية في العالم العربي عمومًا، وفي فلسطين خصوصًا.

وفي آذار /مارس١٩١٩م، أي بعد شهرين من التوقيع، نشرت الصحيفة الفرنسية "لاماتان" مقابلة مع فيصل صرح فيها «إن اليهود سوف يتم استقبالهم بترحاب في فلسطين، ولكن كلاجئين. أما إذا طالبوا بحقوق قومية أو سياسية فإني أخشى وأتوقع صراعًا مريرًا داميًا بينهم وبين سائر القوميات الأخرى».

ولم يهدأ بال الحركة الصهيونية إزاء هذه التصريحات فبدأت استيضاح الموقف وزيادة الضغوط.

ثارت ثائرة الحركة الصهيونية فأوفدت رجل القانون الأمريكي فيليكس فرانكفورتر، أستاذ القانون في جامعة هارفارد ومن زعماء الصهيونيين في الولايات المتحدة، لاستجلاء الوضع. وقد قابل فرانكفورتر "فيصل" وخرج مطمئن البال بعد أن أوضح له فيصل شفهيًا موقفه الرسمي الداعم للاتفاقية وقد ألح الوفد الصهيوني إلى مؤتمر الصلح أن يرسل فيصل كتابًا خطيًا إلى فرانكفورتر يعرب فيه عن تعاطفه مع الحركة فرضخ للطلب وأرسل ذلك الكتاب في الخامس من آذار/مارس ١٩١٩م إلى صحيفة «نيويورك تايمز» يقول فيه :

«إننا، نحن العرب، خاصة المثقفين، ننظر بعين العطف والتأييد للحركة الصهيونية. وإن وفدنا في باريس يؤيد بالكامل المقترحات التي تقدمت بها

---

(١٣) מוריס ע 85

المنظمة الصهيونية لمؤتمر الصلح. وأن هذه المقترحات تعتبر معتدلة معقولة. ونحن سوف نبذل كل جهودنا للمساعدة على قبولها والمصادقة عليها.

إننا نبارك، بكل قلوبنا، عودة اليهود إلى الأوطان ونرحب بهم أجمل ترحيب وإننا نعمل سوية من أجل شرق أدنى متجدد، فإن حركاتنا تكمل الواحدة منهما الأخرى. وإن الحركة اليهودية حركة قومية ليست استعمارية وفي الأرض متسع لنا ولكم » (١٤).

ولاشك أن "فيصل" سجل على نفسه بذلك ترحيبًا بالصهيونية، وكأنه لم يشعر منذ البداية بالخطر الكامن المتربص بفلسطين.

وفي زيارة فيصل للندن في أواخر أيلول/سبتمبر ١٩١٩م، أي بعد توقيع الاتفاقية بتسعة أشهر، أجرت صحيفة «جويش كرونكل» (١٥) مقابلة معه صرح فيها أن فلسطين جزء لا يتجزأ من سوريا، وهو يعارض فصل الواحدة عن الأخرى. ثم أردف أنه يضمن لليهود حقوقا كاملة في الدولة العربية، ويؤمن لهم حكمًا ذاتيًا في كافة شئونهم الدينية والتعليمية. كما يمكنهم أن يشكلوا لواء (١٦) جغرافيًا في إمبراطورية عربية.

وقد أكد أنه يؤيد هجرة يهودية منظمة منضبطة. ثم نوه محذرًا من الصدام مع العرب نتيجة للمطالب المتطرفة لأوساط يهودية متشددة بإقامة دولة يهودية في فلسطين.

بعد ذلك ختم حديثه للصحيفة بالقول إن العرب سوف يقاتلون حتى الخندق الأخير ضد أية محاولة ترمي إلى فصل فلسطين عن سوريا أو إخضاعها لسيادة دولة أجنبية غير عربية (١٧) وقد سارعت الحكومة البريطانية في أعقاب تصريح فيصل المذكور إلى تشكيل لجنة لاستجوابه عن مضمون أقواله ومغزاها.

وكان أحد المستجوبين هربرت صموئيل، وكان أحد مستخدميها والمأتمرين بأمرها وقد استهل استجوابه بالاستفسار عما إذا كان ما نقله الصحفي صحيحًا ؟

---

(١٤) الخولي ص٣٣٦-٣٣٧

(١٥) Jewish Chrinical

(١٦) District

(١٧) מוריס ע 85

وكان الصحفي قد كتب أنه سأل "فيصل": إن الحركة الصهيونية تسعى لإقامة دولة يهودية في فلسطين فورًا. فهل يوافق فيصل على ذلك ؟

وقد أنكر فيصل موافقته على إقامة دولة يهودية. «كما أن الدكتور وايزمان لم يطلب أمرًا كهذا».

الصحفي : الدكتور وايزمان رجل سياسي، وأن ما تسعى إليه الحركة الصهيونية إقامة دولة يهودية على الفور.

فيصل : لا أستطيع الموافقة على سيطرة أقلية من سكان فلسطين على أغلبية سكانها العرب.

هربرت صموئيل : «الحركة الصهيونية لا تطالب إقامة دولة يهودية على الفور. وإن الأمير فيصل في توجهه وسياسته نحو الصهيونية لم يتغير. لقد أجرى اتفاقا مع الدكتور وايزمان وقد اطلع على المقترحات الصهيونية ووافق عليها وأنا اعتقد إنه لا يقرأ مقال الصحيفة، وحين يصله سوف يقوم بقراءته بتمعن».

وقد أعرب هربرت صموئيل عن رأيه أن أقوال فيصل نجمت عن سوء تفاهم بين فيصل والصحفي ولكن الصحيفة أصرت على أقوالها ولم تنف أو تنتقص حرفا واحدًا منها. وأكدت أن نصها صحيح كامل مائة في المائة.

ومع ذلك استمر فيصل في إنكار تصريحاته في الصحيفة.

وفي الحقيقة تكررت تناقضات فيصل فتارة يعترف بالاتفاقية وأخرى ينكرها تبعًا للظروف والمناخ السياسي.

ففي ١٩٢٠م قبل طرده من دمشق، طلب تسليم فلسطين للعرب.

وفي ١٩٢١م بعد طرده قال لموظفي وزارة الخارجية البريطانية: إن فلسطين مشمولة ضمن الدولة العربية المستقلة بموجب مراسلات الشريف حسين - مكماهون (١٨).

على كل يمكن تلخيص موقف فيصل من الاتفاقية ومن الحركة الصهيونية أنه كان متقلبًا، مزدوج المعايير، يظهر أمرًا ويبطن آخر. فيقول قوله في الصباح ثم ينقضه في المساء؛ حسب المناسبات والأوضاع والمواقع ومقتضى الحال.

---

(١٨) מוריס ע 85

أما علاقته بالحركة الصهيونية ومشروع الوطن القومي، فكان أخر اتصال له مع ممثل الحركة الدكتور ايدار حين عاد الأمير فيصل خائب الرجاء خاسرًا من مؤتمر الصلح في آذار / مارس ١٩١٩م. وقد عرج في طريق عودته إلى دمشق على مدينة حيفا الفلسطينية الساحلية وقد توجه فيصل إلى ايدار مناشدًا مساعدة الحركة الصهيونية ضد فرنسا في المجالين السياسي والإعلامي(١٩).

وكانت المقابلة كريهة، مريرة ذات وقع أليم على فيصل. فإن جواب ايدار كان كيل اللوم والتقريع والتوبيخ. وقد اتهم "فيصل" أنه يتكلم بلسانين ويكيل بمكيالين : ففي أوروبا يؤيد الحركة الصهيونية ويدعم مطالبها، بينما في البلاد العربية يعاديها ويرفض مطالبها. وقد أفهمه أيضًا أن الحركة الصهيونية تؤيد قيام دولة عربية قومية موحدة ولكن خارج حدود فلسطين.

استمر ايدار في تقريع فيصل وأفهمه أن السياسة لا تحكمها اختيارات عاطفية شخصية، فإن تخاصم فيصل مع فرنسا فإن الحركة لا يمكنها أن تخاصم فرنسا تبعًا لذلك، لأن الحركة تعمل بموجب مقررات مؤسسيه. ثم قال : «وعلى فرض أن قررت اللجنة التنفيذية للمنظمة تقديم المساعدة والعون فإن تلك المساعدة لا يمكن أن تزيد عن تدخل غير رسمي وعلى مستوى شخصي كتدخل وايزمان أو سوكولوف في لندن أو برانديس في الولايات المتحدة الأمريكية.

أما بالنسبة لتأييد وسائل الإعلام ودعمها فقد اعتذر ايدار بأن الصحافة حرة ومستقلة، ولا يمكن لأي كان أن يفرض آراءه عليها أو يحملها على أي أمر هي غير مقتنعة به أو يوجهها وفقًا لميوله، وأنهى ايدار محاضرته على فيصل بنصحه :

ـ الاعتراف بالمصالح اليهودية في فلسطين.
ـ الاعتراف بالانتداب الفرنسي على سوريا.
ـ التوقف عن الدعوة لوحدة عربية تشمل فلسطين.
ـ استعمال نفوذه لكبح الدعايات المناهضة للحركة الصهيونية». (٢٠)

(١٩) דרי ד. אידר
(٢٠) כהן ע 161 , ארכיון ציוני תיק 32/ 27/ 29

وقد حاول بعض المؤرخين ورجالات الأمير فيصل تبرير الاتفاقية بشتى الطرق :

جورج انطونيوس وهو المؤرخ الفلسطيني، المعروف برزانته، موضوعيته ووطنيته حاول تبرير الاتفاقية بعدم خبرة فيصل في الحلبة السياسية، وخضوعه للضغوط الأنجلو ـ صهيونية التي أوقعته فريسة سهلة.

أما المحامي عوني عبد الهادي فحاول الدفاع عن فيصل والطعن في مصداقية الاتفاقية في معرض شهادته أمام اللجنة الملكية في ١٢ آذار/مارس ١٩٤٦م وكان مندوبًا عن اللجنة العربية العليا. قال في شهادته :

«كنت السكرتير الخاص للأمير فيصل سنة ١٩١٩م وقد رافقته في سفرته إلى لندن. في الطريق أوضحت له إن الحكومة الفرنسية لا تستطيع أن تضمن له مكانًا في مؤتمر فرساي لأن دول الوفاق لا تعترف رسميًا بحكومة الحجاز، لأنها لم تكن طرفًا في القتال.

وحين وصل الأمير لندن أطلع للمرة الأولى، على اتفاقية سايكس بيكو. وكان في وضع حرج للغاية، ففرنسا تقف منه موقف المعارض. ولندن توجه عليه ضغوطًا رهيبة للاتفاق مع الشعب اليهودي زد على ذلك إنه كان يتهدده الخوف من خسارة عالمه كله.

وقد قامت الخارجية البريطانية بتقديم اقتراح، بواسطة المرحوم لورنس وأصدقاء شخصيين للأمير، لترتيب لقاء مع الدكتور وايزمان، وقد أفهموه إنه إذا تصرف بسخاء وكرم فبإمكانه إنقاذ بلاد الشام. وقد تم إقناعه أن المشكلة اليهودية لا تتعدى إيصال يهود لاجئين مضطهدين إلى فلسطين، وإن هذا الأمر لا يمكن أن يسبب الضرر للحكومة (العربية الفيصلية ز. ف) فضلًا عن ذلك فقد تم التشديد على أن اليهود كانوا يسكنون دومًا في البلاد العربية والمشكلة الآن لا تنحصر إلا في تزويدهم بعدد محدود من تصاريح الهجرة.

وقد عرضت الاتفاقية باللغة الإنجليزية (٢١) في الوقت الذي كان فيه فيصل يجهل تلك اللغة جهلًا مطبقًا. وقد قام لورنس بشرح بعض بنودها مشددًا، المرة تلو الأخرى، إن الاتفاقية لا يمكن أن تضر بالحقوق العربية بأي شكل من الأشكال.

(٢١) אותו כרך ע 144

ورغم كل هذه التأكيدات فقد توخى فيصل جانب الحذر فأضاف تحفظه بيده في ذيل الاتفاقية.

وأنهى عوني عبد الهادي قائلًا : «أنني أؤكد لكم إنه ليس صحيحًا أن "فيصل" قبل بالاتفاقية حال الانتهاء من صياغتها خطيًا. وفي حقيقة الأمر لم يفهم حتى ما نصت عليه بنودها»

وهنا قاطعه أحد أعضاء اللجنة :

- هل تدعى أن لورنس قام بتضليل فيصل ؟

- بالتأكيد. فلقد أجرى فيصل محادثة مع الدكتور وايزمان بدون حضور أي شخص عربي مع العلم أن الأمير "فيصل" كان قد أحضر ٧ - ٨ أشخاص ممن يتقنون الإنجليزية ولكن الكولونيل الحذر (لورنس ز.ف) لم يسمح لأي منهم بحضور اللقاء، وإنني أذكر جيدًا هذا المساء حين قصَّ علينا فيصل تفاصيل اللقاء مع وايزمان... وكان كل ما قاله : إن بعض اليهود المضطهدين الملاحقين المطاردين يريدون العودة إلى فلسطين، الأمر الذي لا يسبب أي ضرر ولا يشكل أي تهديد لحقوق العرب في فلسطين.

لقد تلخص دفاع عوني عبد الهادي بالنقاط التالية :

١- أن "فيصل" وقع الاتفاقية دون أن يعرف مضمونها لأنها كتبت بالإنجليزية التي كان يجهلها.

٢- الكولونيل لورنس قام بعملية تضليل فلقد تولى ترجمة الاتفاقية ترجمة مضللة. كما إنه لم يسمح لمرافقي فيصل، الذين كانوا يتقنون الإنجليزية، بالإطلاع عليها قبل توقيعها.

وكانت مرافعة عبد الهادي المدافعة عن فيصل فاشلة ضعيفة فلم تقنع أحدًا.

يقول الخولي : إن هذا المحامي الكبير عوني عبد الهادي جانبه التوفيق في هذا التبرير. وكان عليه أن يذكر الحقيقة عارية، وهي أن "فيصل" تجاوز صلاحياته واختصاصاته في توقيع الاتفاقية، وإن الشريف رفضها ورفض المصادقة عليها.

وحين توترت الأوضاع بين العرب واليهود في فترة لاحقة امتنع فيصل عن تأكيد خبر الاتفاقية أو حتى مجرد وجودها، بل أنكرها كل الإنكار.

فيصل.. عودة من لندن إلى فرساي [٢٢]

انتهت زيارة فيصل لندن وكانت محصلتها النهائية كارثية فقد توجه إليها تهدهده الآمال الوردية بتحقيق مطلب العرب في الاستقلال، معتمدًا على دعم الصديق الحليف ورفيق السلاح البريطاني. ولكنه عاد مهزومًا مهيض الجناح مكسور الخاطر بعد أن فشل في تحقيق أي مطلب، بل صدم بسايكس بيكو وبخطر تسليم فلسطين للحركة الصهيونية بعد أن لاكه حلفاؤه البريطانيون ومضغوه ولفظوه وألقوا به لقمة سائغة للفرنسيين والصهيونيين.

أبحر فيصل من إنجلترا متوجهًا إلى فرنسا لحضور مؤتمر الصلح في فرساي. وقد بدأت فرنسا تكشر له عن أنيابها وتعتبره شخصية غير مرغوب فيها وهو لا يزال في عرض البحر، فشرعت تفتعل المشاكل بحجة أنه لم يعلم حكومتها، بسفره، وأنه يتجاهلها عمدًا. وأوعزت إلى المعتمد الفرنسي في مدينة جدة الاتصال بالشريف والإعراب عن استهجانها لتصرف فيصل، وإنها سوف تقوم باستقباله بصفته ابن ملك صديق وتعامله معاملة ضابط برتبة جنرال، ولكنه يتعذر عليها أن تعترف له بأية صفة رسمية [٢٣].

وصل فيصل باريس في كنون الثاني/ يناير ١٩١٩م ليجد في مواجهته مشكلتين:

- الأولى : إصرار الحكومة الفرنسية على موقفها بعدم السماح له بحضور المؤتمر وعدم الاعتراف به لأنه حسب الادعاء الفرنسي، ممثل عن الحجاز فقط. والحجاز ليس من دول الوفاق، وهي ليست طرفا في الحرب.

وبعد جهد جهيد وتدخل بريطاني مباشر أمكن التغلب على هذه المشكلة ن فقد ضغطت الحكومة البريطانية على الحكومة الفرنسية لسحب معارضتها والموافقة على فيصل ممثلا رسميًا عن الحجاز فقط، وأن يمنح هذا القطر تمثيل في المؤتمر وقد اضطرت الحكومة الفرنسية إلى الرضوخ ووافقت على منح الحجاز مقعدين في المؤتمر : شغل الأمير فيصل أحداهما، بينما شغل المقعد الثاني رستم بك حيدر.

---

(٢٢) الخولي ص٣٠٩

(٢٣) م.س ص٢٩١-٢٩٢

ولكن ذلك لم يثن الحكومة الفرنسية عن الاستمرار في مناصبه فيصل العداء طوال فترة إقامته في فرنسا وطوال الفترة اللاحقة.

- والثانية : مطالب الحكومة الفرنسية بالاستفراد بحكم القطر السوري بكامله وفرض هيمنتها على كافة أرجائه من أقصى الشمال حتى أقصى الجنوب، ومن الشرق حتى الغرب، لا على الساحل السوري اللبناني فقط، كما نصت اتفاقية سايكس بيكو.

أما الوضع الميداني في سوريا فكان تعيسًا أيضًا فلقد تلت الحرب تقسيمات فرضت واقعًا جيو بوليتيكيًا جديدًا :

١- على امتداد الساحل السوري اللبناني انتشرت قوات فرنسية.

٢- وفي المنطقة الشرقية، الممتدة من حلب شمالًا حتى العقبة جنوبًا، انتشرت قوات عربية خاضعة للأمير فيصل.

وقد قام فيصل في حينه، قبل أن يتوجه إلى أوروبا، بتقديم احتجاج للحكومة البريطانية على وجود قوات فرنسية، وعلى محاولات فرنسا منذ احتلالها إلى كافة الساحل السوري. وكان جواب الحكومة البريطانية مخادعًا مراوغًا كالعادة. أجابت : إن هذه الإجراءات جميعها إجراءات مؤقتة اقتضتها الضرورات العسكرية وسوف تنتهي مع انتهاء القتال حين تطبق ترتيبات جديدة.

في هذه الأجواء العكرة افتتح مؤتمر الصلح في فرساي في ١٨ كانون الثاني/يناير ١٩١٩م تزينه كوكبة لامعة من رؤساء الدول الحكومات ورجال السياسة والاقتصاد والحرب.

- فيصل في مؤتمر فرساي

بقي فيصل منتظرًا دوره للكلام في المؤتمر. وفي ٢٩ كانون الثاني / يناير ١٩١٩م حان دوره فوقف خطيبًا باللغة العربية وقدم المطالب العربية، كما تصورها فيصل، وأبرزها :

١- الاستقلال الشامل باستثناء فلسطين.

٢- وضع فلسطين تحت انتداب دولة من الدول الكبرى، وبذلك يكون قد أخرجها من الاستقلال.

فتح خطابه قائلًا : «جئت للمؤتمر ممثلًا لوالدي الذي قاد الثورة العربية ضد الأتراك، تلبية لرغبة كل من بريطانيا وفرنسا.

إنني أطالب أن تكون الشعوب الناطقة باللغة العربية في آسيا، من خط الاسكندرونة حتى ديار بكر في الشمال، والمحيط الهندي في الجنوب، معترفًا باستقلالها وسيادتها بضمان عصبة الأمم المتحدة، ويستثنى من ذلك الحجاز بصفتها دولة ذات سيادة، وكذلك نجد بصفتها محمية بريطانية [٢٤].

إنني استند في مطلبي هذا إلى المبادئ التي صرح بها الرئيس ولسون مرفقة بالمذكرة وإنني واثق من أن الدول الكبرى سوف تهتم بأجساد الشعوب الناطقة بالعربية وبأرواحها أكثر من اهتمامها لما لها هي نفسها من مصالح مادية.

ثم ختم خطابه بتقديم آيات الشكر والامتنان لكل من بريطانيا وفرنسا على العون الذي قدمناه للعرب في كفاحهم من أجل الحرية، وطالب بإنجاز الوعود المقطوعة لهم».

وكان فيصل يقصد بإشارته إلى الرئيس ولسون مبدأه «حق تقرير المصير للشعوب» الذي أعلنه في الرابع من تموز / يوليو ١٩١٨م، واعتبره مبدأ أساسيًا من مبادئ التسوية بين الشعوب، وقاعدة من قواعد النظام الدولي الجديد المزمع إقامته بعد انتهاء الحرب.

وقد نص على «إن تسوية أية مشكلة إقليمية، أو أية مشكلة أخرى تتعلق بالسيادة، أو بأية ترتيبات اقتصادية وعلاقات سياسية يجب أن تقوم بالأساس على قبول الشعب المعني بذلك قبولًا حرًا، وليس على أساس مصالح أية أمة أو أي شعب آخر، أو لتحقيق امتيازات أو فرض نفوذ لتلك الأمة أو ذلك الشعب».

وهذا الأمر يعني أن عملية تقرير المصير هي عملية تقوم فيها جماعة من الناس، تمتلك قدرًا من الوعي القومي، بتأسيس دولتها واختيار حكومتها[٢٥].

---

(٢٤) انطونيوس ص٢٩٨

(٢٥) توما اميل : مئة عام على الصهيونية

وقد كثرت الانتقادات على خطاب فيصل ويقول الخولي : «وقد طالب فيصل باستقلال الحجاز. أما سوريا فطالب باستقلالها استقلالًا داخليًا. وإذا احتاجت إلى معونات خارجية فلا تكون مشروطة بتدخل أجنبي. ومعنى هذا إنه لا يريد وضع سوريا تحت انتداب أية دولة من الدول، وإنما تكون الشئون الخارجية تابعة لمملكة الحجاز.

أما قول فيصل إنه قدم للمؤتمر ممثلاً لوالده وللعرب في قارة آسيا، فمعنى ذلك إنه لا يمثل عرب أفريقيا ولا يتكلم باسمهم، فهو حريص كل الحرص على عدم إثارة غضب المستعمر البريطاني في مصر والفرنسي في تونس والجزائر ومراكش والإيطالي في ليبيا.

وقد قبل بذلك تغييب الوطن العربي كوحدة متكاملة، ورضي بتحويله إلى دول وطوائف بحيث تنشغل كل دولة بمشاكلها المحلية الخاصة. وبذلك تتحول القومية العربية القطرية إلى وطنيات محلية والدليل إنه حين تكلم عن الوطن العربي في قارة آسيا لم يأت عليه كوحدة جغرافية إقليمية- سكانية متكاملة، بل عمد إلى ذكر كل دولة على حدة مما كان مقدمة لعملية التفتيت والتفكيك في فترة لاحقة.

أما بالنسبة لفلسطين فلم يعترض الأمير على تصريح بلفور، ولم ير أن يتعرض له عن بعيد أو عن قريب. وكان طلبه وضع فلسطين تحت انتداب بريطاني يتطابق مع مطالب كل من بريطانيا والحركة الصهيونية.

والخلاصة إن خطاب فيصل جاء ضعيفًا، ركيكًا، هزيلًا، حافلا بالعبارات الجوفاء والسفسطة الكلامية والتعبيرات اللفظية الإنشائية التي لا تحمل مضمونًا وكان ذلك عائدًا إلى الافتقار إلى دراسة عميقة وإعداد شامل لكافة عناصر القضية.

وقد تحول فيصل إلى هدف للتهكم والسخرية والتندر في أروقة المؤتمر وقال أحدهم : إن مندوبي الدول لم يهتموا بمطالب العرب، التي عرضها فيصل، اهتمامهم بلباسه وعباءته وعقاله وسيفه.

ويعلق أنيس الصايغ على خطاب فيصل قائلا : «إن رأي فيصل في الصهيونية واضح جدًا فهو صديق حميم لهم، معجب بهم مدافع عن أهدافهم ورسالتهم، وهو يستنكر، تبعًا لذلك، انتفاضة عرب فلسطين ويقزمها ويجرمها ويعتبر فلسطين بلدًا يهوديًا».

ولما جاء دور المناقشة بعد الخطاب تقدم فيصل باقتراح يقضي بالتحقق من رغبات شعوب المنطقة حتى يمكن التوصل إلى تسوية مرضية دائمة.

وكان يشير بذلك إلى المبدأ الذي وضعه الرئيس الأمريكي ولسون في «حق تقرير المصير للشعوب» وكان فيصل يكرر بين الجملة والأخرى : إن كل إجراء يجب أن يتم بموافقة المحكومين. وهي الجملة التي صكها الرئيس الأمريكي ملخصًا بها مبدأه.

والمقصود باقتراح فيصل إقامة لجنة تقصي الحقائق لمعرفة رغبات ومطالب السكان في سوريا، على أن يشرف مؤتمر فرساي على تشكيل اللجنة وعملها.

- الوفد اليهودي في مؤتمر فرساي :

بعد أقل من شهر على خطاب فيصل أمام المؤتمر جاء دور الوفد الصهيوني ليعرض مطالبه. كان ذلك في ٢٣ شباط / فبراير ١٩١٩م. وفي حقيقة الأمر كانت الحركة الصهيونية قد أعدت للمؤتمر عدتها ونظمت حضورها بشكل مثير للإعجاب حيال أداء الوفد العربي البائس.

حضرت الحركة للمؤتمر مجموعتين صهيونتين :

١- المجموعة الأولى : مشكلة من وفود صهيونية تقاطرت من مختلف أقطار العالم، وقد حضرت المؤتمر بشكل وفود غير رسمية، بصفة مراقبين، غير إنه رتبت لها قنوات مفتوحة مع الوفود الرسمية. وبالتالي امتلكت قدرة فائقة على ممارسة النشاطات بشكل مجموعات ضغط وإقناع متعددة الجوانب والاتجاهات كان لها أثر بالغ في الأحداث ومجريات الأمور.

كان أكبر هذه الوفود وأعظمها نفوذًا ونجاعة الوفد الصهيوني الأمريكي. وليس هناك أصدق في التعبير عن مدى نفوذه من تلك المنزلة الخاصة التي كان يتمتع بها أبرز أعضاء الوفد القاضي برانديس والحاخام فايس لدى الرئيس الأمريكي ولسون. وقد وصلت الجرأة بالأول إن طالب إشراك الوفد الصهيوني الأمريكي في المؤتمر مؤكدًا على المطالب الصهيونية، الأمر الذي دعا المندوب الفرنسي إلى الرد على برقية برانديس بقوله : إن القاضي برانديس يتمتع بنظرة مبلغ فيها عن أهميته. ومن المؤكد إنه ما كان ليتمتع بالثقة المفرطة بالنفس، وهو

ليس عضوًا في المؤتمر، لولا الدعم الذي تلقاه من الإدارة الأمريكية، ورئيسها ومن المنظمات اليهودية [٢٦].

٢- المجموعة الثانية : شكلت الوفد الرسمي الذي يمثل المنظمة الصهيونية كان مؤلفًا من خمسة أشخاص يوزعوا العمل وطرح القضايا وهم :

١ - وايزمان

٢ - وسوكولوف، نائبًا عن الجمعية الصهيونية في بريطانيا.

٣ - اوسيشكين مندوبً عن يهود روسيا.

٤ - اندريه سباير مندوبًا عن جمعية الصهيونيين الفرنسيين.

٥ - سيلفان ليفي مندوبًا عن اليهود غير الصهيونيين [٢٧].

وقد تعاقب أعضاء الوفد على طرح القضية كلٌ حسب اختصاصه، ولكن القاسم المشترك للجميع كان المطالبة بإنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين بحدود واضحة تشمل بصورة عامة كل من فلسطين، شرق الأردن، جنوب لبنان وقسمًا من سوريا. وقد أسماها وايزمان «الحدود التاريخية».

كما أجمعت الكلمات على المطالبة بانتداب بريطانيا على فلسطين بعد أن توافق عصبة الأمم رسميًا على هذا الانتداب.

وكان الوفد الصهيوني قد قدَّم إلى المؤتمر ٤ مذكرات على شكل مشروعات قرار وأرفقها بمذكرات فرعية تناولت كل منها جزئية خاصة :

المذكرة الأولى : تناولت الحق التاريخي للشعب اليهودي في فلسطين.

المذكرة الثانية : الحدود المقترحة للوطن القومي المقترح.

المذكرة الثالثة : تخويل السلطة العليا في فلسطين إلى عصبة الأمم، على أن تعمل حكومة بريطانيا كوكيلة عنها.

المذكرة الرابعة : إلزام الانتداب بالشروط التالية :

١ - تشجيع الهجرة والاستيطان اليهوديين في فلسطين.

٢ - حماية حقوق الأهالي الحاليين من غير اليهود.

---

(٢٦) شوفاني ص٢٦٥

(٢٧) الخولي ص٣٢٠

٣- التعاون مع مجلس يمثل يهود العالم وفلسطين.

٤- تنظيم التعليم اليهودي.

٥- إعطاء المجلس الأولوية في أي امتياز بالأعمال العامة أو تنمية الموارد الطبيعية.

٦- تشجيع اتخاذ إجراءات واسعة لتأمين حكم محلي في الأماكن التي يصلح فيها هذا الحكم.

٧- توفير الحماية لأماكن العبادة لجميع الأديان والعقائد.

٨- عدم التمييز بين السكان من ناحية الحقوق المدنية والدينية، وعدم التفريق بينهم من ناحية الجنس واللون والدين.

٩- اعتماد نصوص خاصة تتناول الإشراف على الأماكن المقدسة.

وحين استفسر وزير الخارجية الأمريكي [٢٨] من وايزمان عن مفهوم الوطن القومي أجاب : « في المرحلة الأولى إدارة داخلية تحافظ أيضًا على مصالح غير اليهود، وفي المرحلة الثانية النهائية : دولة يهودية كما إنجلترا إنجليزية » [٢٩].

وقد علق الخولي على مذكرة الوفد بأنها :

- كشفت عن أطماع صهيونية فاقت كل تصور وتقدير [٣٠].

- أظهرت استحالة التعايش أو التعاون بين الحركة الصهيونية والعرب الفلسطينيين، لأن تلك المطالب كانت ستقوض حتمًا الحقوق القومية والسياسية والاقتصادية للعرب. الأمر الذي سوف يؤدي في نهاية المطاف إلى الضياع والاقتلاع والتشرد.

كما إنها عرت ضعف الأمير فيصل، فخطابه الذي ألقاه في المؤتمر لم يكن شيئًا مذكورًا[٣١]، في الوقت نفسه كانت المنظمة الصهيونية قد رفضت الحدود التي ذكرها فيصل للدولة العربية المستقلة. وبعثت بمذكرة في ٣شباط/ فبراير ١٩١٩ إلى مؤتمر فرساي وطالبت بوطن قومي للشعب اليهودي بالحدود التالية :

---

(٢٨) Lansing

(٢٩) الخولي ص٣٢٧

(٣٠) الخولي ص٣٢٧

(٣١) م.س ص٣٣٣

- من الشمال : الحد يبتدئ من مدينة صيدا الساحلية ثم يشرق مع مفارق المياه من سلسلة جبال لبنان حتى يصل بحيرة قرعون، ومنها يتجه إلى بحيرة البيرة متتبعًا الخط الفاصل بين حوض وادي قرعون ووادي التيم ثم يسير في خط جنوبي من المنحدرات الشرقية والغربية لجبل الشيخ حتى جوار بيت جن (السورية ز. ف) ثم يتجه شرقا بمحاذاة مفارق المياه الشمالية لنهر مغنيه حتى يقترب من خط سكة حديد الحجاز [٣٢].
- أما من الشرق : فيحدها خط يسير بمحاذاة سكة حديد الحجاز.
- ومن الجنوب : حدود يجري الاتفاق عليها لاحقًا مع الحكومة المصرية.
- ومن الغرب : البحر الأبيض المتوسط.

وباختصار مبسط فإن حدود الوطن القومي اليهودي، كما طالبت به المنظمة في مؤتمر فرساي، يشمل : فلسطين بكاملها، جنوب لبنان، قسم من سهل البقاع، الجولان برمته والضفة الشرقية لنهر الأردن.

ولعل أوضح مواقف الوفد الصهيوني كان ذلك الذي عبر عنه سوكولوف أمام المؤتمر. طالب الاعتراف بتصريح بلفور وبالحق التاريخي للشعب اليهودي على فلسطين وحق اليهود في إقامة دولتهم في فلسطين ثم أضاف مطالبًا ضم المنطقة تحت انتداب بريطاني بإشراف عصبة الأمم وأنهى خطابه قائلًا: "إن الوطن القومي اليهودي يجب أن يتطور بالتدريج ليصبح مجتمعًا أوتونوميا دون المساس بحقوق غير اليهود من سكان البلاد. وأن حكومة يهودية سوف تقام وتتسلم مقاليد الحكم بعد تأمين أغلبية سكانية يهودية بفضل هجرة يهودية واسعة. وفي حقيقة الأمر لم يكن العرب، خاصّة الفلسطينيون، متفائلين من المؤتمر.

وقد عبر عن هذا الشعور بالمخاطر المقبلة السكاكيني (م. س) ص٦٦ - ٦٧ في يوميات ١ شباط /فبراير ١٩١٩م وقد لخص الشكوك التي تراود العرب فقال : «والبدائل المفروضة على عرب فلسطين احتلال أجنبي (انتداب) أو صهيونية. ولاشك أن أكبر خطر على البلاد هي الحركة الصهيونية فإذا خيرنا بين الاحتلال

(٣٢) سويد ص٨٥-٨٦

الأجنبي أو الاحتلال اليهودي اخترنا الاحتلال الأجنبي لأن الأجنبي لا يتخذ بلادنا وطنًا له. ومهما طال أمد الاحتلال فهو إلى أجل، ولا خوف منه على وطنيتنا، فإننا سنبقى وطنيين مع الاستقلال أو الاحتلال.

وقد احتل قبل اليوم بلادنا نحو جيلين ثم رحلوا، كما احتل الأندلس وكما احتل الروس والألمان والنمساويون بولندا، والترك البلاد العربية واليونانية والبلقان.

وأما اليهود إذا جاءوا إلى بلادنا فإنهم يتنازعون على البقاء فيها ولا يخرجون منها، لذلك لابد من أخذ الأهبة واتخاذ كل ما نستطيع من الأسباب والوسائل لدفع هذا الخطر. ولا واسطة لدفع هذا الخطر مثل الجامعة العربية إذ يشترك العرب قاطبة في مقاومة الحركة الفلسطينية لا فلسطين وحدها».

وفي مذكرات ١٥ آذار ١٩١٩ كتب : «اعتقد إنه إذا قرر مؤتمر الصلح أن تكون البلاد وطنًا قوميًا لليهود، فمهما اتخذنا من الوسائط لحماية صفوف الوطنيين الأصليين فلابد أن يضطروا مع الزمان إلى الجلاء عن هذه البلاد.

يقولون إن عدد الأهالي قليل جدًا بالنسبة إلى الأرض فلا يحق لهم أن يملكوا هذه الأرض ولا أن يستثمروها. ولكن إذا كان عددنا قليلًا اليوم فإنه قابل للزيادة. أما من الداخل، أي إذا تحسنت الأحوال وراعينا الأصول الصحية، زاد النسل وقلت الوفيات، أو من الخارج أي بانضمام غيرنا إلينا من أبناء العرب في البلاد كلها.

فإذا أخذنا الأراضي المهملة من قبل الأهالي فمعنى ذلك الحكم علينا بأن لا نزيد، وإذا زدنا فليس أمامنا إلا الهجرة من هذه البلاد إلى غيرها.

اليهود يحق لهم أن يزيدوا، أما نحن فلا، وهذا حكم جائر.

ثم إن فريقًا من الأهالي لا يملكون أرضًا فماذا يكون حكمهم ؟ وهل يستطيعون أن يقفوا أمام تيار المهاجرة اليهودية ؟ هل يستطيع الصانع أو التاجر أو غيرهما أن يناظر الصانع أو التاجر اليهودي الذي لا يجيء إلى هذه البلاد ليعيش ولكن ليبيد غيره. إذا لم تكن هذه البلاد للعرب فلتكن للأمم كلها. وإذا لم تشاءوا إلا أن تعطوها لليهود فأعطونا حق الدفاع عن أنفسنا حتى تفنى عن آخرنا ذلك خير من أن نموت موت الجبناء، موت الأذلاء.

لجنة كنج كرين [٣٣]

«تمخض الجمل فولد فأرًا»

أثار اقتراح فيصل في مؤتمر الصلح : إقامة لجنة تقصي حقائق لمعرفة رغبات ومطالب السكان في الوطن العربي ردود فعل متباينة من قبل المندوبين في المؤتمر :

- الرئيس الأمريكي ودرو ولسون رحب وايد. وقد أصر أن بلده غير مستعدة أن تقبل بمطالب كل بريطانيا وفرنسا في بلاد لا ترضى بحكمهما، لأن أحد المبادئ الأساسية الثابتة التي تعتمدها الإدارة الأمريكية في سياستها الخارجية هو «حق تقرير المصير للشعوب» [٣٤]

- رئيس حكومة بريطانيا لويد جورج كان يميل إلى رفض الاقتراح، ولكن إزاء الحماس والإصرار الأمريكي عدَّل موقفه من المعارضة المطلقة إلى التحفظ الحذر [٣٥].

- رئيس حكومة فرنسا كليمانصو اتخذ موقفًا معارضًا رافضًا متزمتًا. ولكن الرئيس ولسون كان مقتنعًا بالفكرة، فأصر على تنفيذ الاقتراح. وفي سبيل ذلك دعا إلى عقد اجتماع سري في ٢٥ آذار/ مارس ١٩١٩م في منزل لويد جورج وقد ألح ولسون في الاجتماع على تنفيذ الاقتراح واقترح لجنة تقصي حقائق أعضاؤها مندوبون عن : الولايات المتحدة الأمريكية - بريطانيا - فرنسا - ايطاليا. بحيث يكون لكل دولة من الدول المذكورة عدد متساو من الأعضاء (عضوان) فالمجموع المقترح ٨ أعضاء، وتقوم اللجنة بعد تشكيلها، بزيارة ميدانية إلى سوريا والمناطق المجاورة، إن دعت الحاجة، لتستطلع الحقائق وتستجلي رغبات السكان ومطالبهم ثم تعود لتقدم تقريرها وتوصياتها لمؤتمر الصلح. تبع الاجتماع السري اجتماع آخر لمجلس الدول الأربعة تمت فيه المصادقة على الاقتراح الأمريكي وتقرر أن تعين كل دولة مندوبين اثنين يمثلانها.

---

(٣٣) The King Crane Commission

(٣٤) الخولي ص٣٤٣

(٣٥) انطونيوس ص٣٩٩

وحان دور التنفيذ [٣٦].

١- الرئيس ولسون سمى مندوبيه وهما : دهنري كنغ عميد كلية أوبرلين - د. شارلز كرين رجل أعمال وخبير في شئون الشرق الأوسط.

٢- أما لويد جورج البريطاني فسمى مندوبيه وهما :هنري مكماهون والقائد هوغارت.

٣- كليمانصو الفرنسي رفض تسمية مندوبيه، فلقد كان يعلم أن الرأي العام في سوريا مناهض لفرنسا. بالإضافة إلى ذلك كان يتشكك في نوايا بريطانيا فاعتبر الاقتراح مؤامرة بريطانية للتخلص من فرنسا في الشرق.

٤- أما ايطاليا فأعلنت أنها غير معنية بتاتًا. وكفى المؤمنين شر القتال [٣٧].

وحين سمع فيصل بنبأ اللجنة طار فرحًا، واعتقد أن مشاكله ومشاكل الوطن والأمة العربية قد حلت، وإنه بذلك قد حقق مطالب العرب ومطالب والده. تصور إن الشعب العربي سوف يبلغ اللجنة تطلعه للحرية والوحدة والاستقلال واللجنة سوف تقوم بدورها بتحقيق هذه المطالب.

تصور فيصل أن الحل سوف يكون، بكل هذه البساطة، و«يا دار ما دخلك شر» فلا عجب أن ينتشي طربًا وسعادة فقام يعب الشمبانيا، لأول مرة في حياته، وكأنها الماء الفرات. ثم استقل سيارته فجاز بها مسرعًا كالريح عبر مقر الوفدين ؛ الأمريكي والبريطاني، وهو في نشوة بالغة، وأخذ يقذف فندق الكريون، الذي ينزل فيه، وفندق الماجستيك والكي دو ري سي بالحشايا والوسائد صائحًا إنه لا يستطيع أن يعبر عن مشاعره إلا بهذه الطريقة، ما دام لا يملك القنابل والمتفجرات [٣٨].

---

(٣٦) Lenczowiski p88

(٣٧) כהן ע 153

(٣٨) انطونيوس ص٤٠٠

- فيصل يعود إلى سوريا

اعتقد فيصل أنه أدى مهمته وقام بواجبه خير قيام، فلقد أمَّن إيفاد لجنة تقصي الحقائق وهي سوف تمنح العرب حقهم في الحرية والاستقلال، فتكون الدواء الشافي لكل الأوجاع. ولم يبق على الأمير إلا حزام أمتعته والعودة، على جناح السرعة إلى دمشق ليهيئ الجو لقدوم اللجنة.

غادر فيصل مرسيليا، بعد مكوث في فرنسا دام ثلاثة أشهر. وأبحر منطلقًا إلى حيفا فدمشق وما كادت قدماه تطآن أرض الوطن حتى صعق مذهولًا. فقد شاهد عكس ما كان يتوقع. رأى الدنيا مقلوبة رأسًا على عقب. كان يتوقع استقبال الأبطال المنتصرين، فإذا به يجد الشارع العربي يغلي كالمرجل ومشاعر الغضب والمرارة والإحباط تأكله.

كانت الجماهير تنتظر عودة الأمير حاملًا معه الحرية والاستقلال، فإذا بها تجده عائدًا بخفي حنين، خالي الوفاض، مكبّلًا نفسه بقيود سايكس بيكو، وتصريح بلفور واتفاقية فيصل - وايزمان.

عمت المظاهرات شوارع الوطن العربي. وقد حاول فيصل إخفاء حقيقة الأوضاع وتمويه الحقائق عن الجماهير. بذل جهده ليخفي أمر اتفاقه مع وايزمان واعترافه بتصريح بلفور وتستره على الأطماع الأنجلو - فرنسية في المنطقة.

- الجماهير العربية تواجه "فيصل" [٣٩]

حاول فيصل تهدئة الأوضاع وطمأنة النفوس، فقام يخطب محاولاً طمس الحقائق وتضييع الوقائع ولكن عبثًا ؛ فكان الجميع، وعلى رأسهم الحركات الوطنية، مقتنعين بتخاذل فيصل وتفريطه بالثوابت القومية.

كانت أنباء الأحداث التي جرت وراء الكواليس في دهاليز السياسة في لندن فرساي حديث الساعة. ولم يعد الأمر مقتصرًا، بعد، على المخاطر التي تهدد فلسطين فقط، وهو القطر الذي اعتبره الجميع الإقليم الجنوبي من سوريا وجزءًا لا يتجزأ من الوطن العربي، بل تعداه إلى المستقبل القاتم الذي يتهدد ذلك الوطن من أدناه إلى أقصاه.

---

(٣٩) الخولي ص٣٤٦

هبت الجماهير مطالبة بتفسير لما جرى في كل من لندن وباريس. ولم يكن رجل الشارع البسيط هو الوحيد في ثورته الغاضبة، بل شارك فيها جميع طبقات المجتمع وشرائحه من نخب فكرية ورجالات سياسة وتنظيمات وطنية وقومية.

تكهرب الجو وعمَّ الجو المعادي لفيصل والتحالف الانجلو - فرنسي. عمت الشائعات وطمت، وانتشرت التأويلات في الأماكن الخاصة والعامة، والمحافل والبيوت والمقاهي والنوادي والساحات العامة. وتحلق الناس أفرادًا وجماعات ينتقدون ويهتفون.

وزعت مناشير الاحتجاج والتنديد المناهضة لفيصل وفيما يلي احداها وهو يمثل الجو السائد والشعور القومي، وقد نشر في صحيفة «الصرخة الأولى» في عدد ١٤ شباط/ فبراير ١٩١٩م:

«نداء فلسطين إلى أمم العالم عامَّة والشعوب العربية خاصَّة»

- بنو إسرائيل يشددون الخناق على فلسطين.
- قادتهم، خطباؤهم، نساؤهم، رجالهم، شيبهم، شبانهم يعدون الأيام والليالي لابتلاع فلسطين.
- إنهم يضحون بكل غال ورخيص، حتى بأرواحهم، لتحقيق مطامعهم.
- إنهم يبذلون جهودهم لطمس كل ذكر للإسلام والمسيحية في فلسطين.
- إن فلسطين هجرها يهودها وكل ما تركوه من إنجازات لا يعادل عشر ما تركه العرب.
- اليهود لا حق لهم في هذه البلاد التي جلوا عنها منذ ألفي عام.
- الوجود العربي في فلسطين سبق الوجود الإسلامي، وفلسطين تكمل شبه الجزيرة العربية.
- العرب قاموا بإيواء اليهود ممن طردهم واضطهدهم من شعوب العالم.
- اليهود يخططون لابتلاع فلسطين، لكن العرب مصممون على التصدي».

والأرشيف الصهيوني يحتفظ بالعديد من الشعارات العربية الوطنية المعادية للصهيونية وجميعها كتبت بخط اليد في الفترة المذكورة.

- فلسطين وطننا.
- الصهيونية كارثة على فلسطين.

- الخطر الصهيوني حقيقة لا وهم.
- بيع الأراضي لليهود خيانة وطنية.
- فلسطين هي قلعة سوريا.
- إذا استولى اليهود على فلسطين فالويل لسوريا.
- المسجد الأقصى، ثالث المقدسات الإسلامية، موجود في فلسطين.
- حين تصبح إنجلترا ألمانية، تصبح فلسطين يهودية.
- قوة الصهيونية في أموالها وقوة العرب في وحدتهم.
- يجب منع الهجرة إلى فلسطين.

.. .. وغير ذلك من الشعارات.

وفي أوائل آذار/مارس ١٩١٩م بدأت تظهر حركات فدائية عربية مناهضة للصهيونية مثل «الكف السوداء» هدفها مقاومة الاحتلال البريطاني والصهيونية، والدعوة لفلسطين مستقلة.

وبعد أيام من اتفاقية فيصل - وايزمان تشكلت « اللجنة الإسلامية المسيحية الوطنية» وعقدت أول اجتماع لها في مدينة يافا. وخرجت بقرار تاريخي : مقاومة تصريح بلفور والصهيونية وتوالت بعد ذلك اجتماعاتها ونشاطاتها في كل مكان وافتتحت لها فروعًا شتى في أرجاء البلاد.

وفي نيسان / أبريل١٩١٩م بدأ نشاطوها يجوبون البلاد، يعقدون الاجتماعات الشعبية الوطنية في الأماكن العامة والخاصة وبدأوا يحضرون الرأي العام لقدوم لجنة كنغ - كرين وينبهون إلى مخاطر الصهيونية وبرنامجها، وأخذوا يرفعون شعارات مناهضة لها داعين للتصدي والمقاومة.

أما فيصل فلم ير بدًا من مواجهة العاصفة ومحاولة تفريغ الاحتقان، حول جهده امتصاص النقمة وتهدئة الأوضاع التي توشك على الانفجار.
ناشد الجماهير التحلي بالصبر والتروي. وقال محاولًا تطمين العامة والخاصة إن لجنة كنغ - كرين في طريقها إلى فلسطين، وستقوم بحل كافة المشاكل وتلبي المطالب الوطنية بما يتماشى مع المصلحة العربية ورضا الشعوب وموافقته.

وقال : إن اللجنة لا تحمل في جعبتها إلا الخير والمنفعة.

ولكن هيهات ! فإن المخاوف في ازدياد والشكوك في تصاعد والاضطرابات في تفاقم، فالتوجه السلمي الفيصلي لم يقنع أحدًا. الكل محموم مضطرب، ممتعض من تكتم فيصل ومن المؤامرات التي تحاك بليل. والناس لا يبغون التطمين، بل الحقيقة العارية الكاملة بكل ما جرى، فلماذا هذا التكتم ؟ ولماذا يخفي فيصل عنهم حقيقة الوضع ؟

بدأت سهام النقد والتجريح تتناول "فيصل" بالذات، وأخذ شعور الغداء يتنامى. وارتفعت الشعارات " إني اتهم ".
اتهموا "فيصل" بـ :

- الفشل الذريع في تحقيق أي إنجاز.
- اغتصاب الحركة القومية وتحويلها من مطلب قومي شعبي عام إلى محاولة تحقيق مطالب شخصية تتلخص في الحصول على التاج.
- إهدار جميع التضحيات على مذبح المطامع الشخصية والمنافع المادية.
- استمرار الاستجداء والهرولة على أبواب البريطانيين والفرنسيين والصهيونيين، فهو يتصرف تصرف العبد أمام مولاه.

صاح الناس ؛ أن الفراغ الذي تركه انهيار الإمبراطورية العثمانية لا تملأه إلا القومية العربية [٤٠].

المؤتمر السوري العام الأول

٢حزيران / يونيو١٩١٩م

وقد عكست هذه الصورة المتأزمة الصحيفة العربية الفلسطينية الأولى التي أصدرها عارف العارف ومحمد حسين البشير وسماها «سوريا الجنوبية» (كناية عن فلسطين ز. ف). كتبت الصحيفة ما معناه : في خضم هذا البحر المتلاطم تنادى السوريون إلى عقد مؤتمر لمواجهة المخاطر وإحباط المؤامرات. وكان أبرز الداعين للمؤتمر «حزب الاستقلال» الذي انبثق عن حزب «العربية الفتاة» وقد تقرر عقد مؤتمر عربي قومي سوري يُنتخب أعضاؤه من كافة أرجاء سوريا

(٤٠) כהן ע 146

بأقسامها : المحتلة شرقا (المنطقة التابعة لفيصل)، المحتلة غربًا (المنطقة التابعة لفرنسا)، والمحتلة جنوب فلسطين (المنطقة التابعة لبريطانيا).

وقد تم انتخاب الأعضاء بالتزكية، بحيث خصص عدد متساو من الأعضاء لكل كتلة، فيكون مجموع عدد الأعضاء ٨٥ عضوًا.

أما منتخبو المحتلة غربًا فقد منعتهم السلطات الفرنسية من الحضور إلى دمشق، فاجتمع ممثلو المحتلة شرقا والمحتلة جنوبًا فقط وبلغ عددهم ٦٩ (٤١).

تقاطر الأعضاء إلى دمشق في ٢حزيران / يونيو ١٩١٩م وأطلقوا على مؤتمرهم اسم «المؤتمر السوري العام» وكانت نسبة الأعضاء المسيحيين تفوق نسبتهم العددية في البلاد. ويمكن اعتبار المؤتمر ممثلا شرعيًا لكافة السكان.

وقد عكست مداولات الأعضاء ومناقشاتهم نبض الشارع العربي ومشاعره الحقيقية وعبرت عن ضميره.

تمخض المؤتمر عن انتخاب مجلس وطني (برلمان ز.ف) مكون من ٨٥ عضوًا يمثلون سوريا، لبنان، وفلسطين وقد خرج بالمقررات التالية :

- الاعتراف باستقلال سوريا الكبرى (بما فيها فلسطين) دولة موحدة ذات سيادة يرأسها فيصل ملكًا.
- الاعتراف باستقلال العراق موحدًا.
- رفض الوصاية السياسية التي نصت عليها النظم الانتدابية المقترحة.
- قبول المعونات الخارجية، لفترة زمنية محدودة، على ألا يتعارض ذلك الأمر مع الاستقلال الوطني والوحدة القومية. وتفضل المعونات الأمريكية، فإن تعذر ذلك فالمعونات البريطانية، أما المعونات الفرنسية فمرفوضة رفضًا باتًا.

وقد أعلنت القرارات المذكورة على الجماهير بشكل احتفالي، فقوبلت بالحماس الشديد وانطلقت المظاهرات والمسيرات المؤيدة (٤٢). وأمّت دمشق العاصمة وفود المؤيدين والمهنئين وهي تهتف بحياة المؤتمر وحياة الأمير فيصل.

وتنفس فيصل الصعداء. فلقد هدأت أخيرًا النفوس، ولو مؤقتًا، وحصل على فترة التقاط الأنفاس، لقد كان المؤتمر بمثابة مانعة صواعق لفيصل (٤٣).

(٤١) انطونيوس ص٤٠٥

(٤٢) م.س ص٤٠٦

وصول لجنة كنغ - كرين

قبل وصول اللجنة لابد من التطرق إلى نقطتين بالغتي الأهمية :

- الأولى : استعدادات العرب في فلسطين لاستقبال اللجنة فقبل أسبوع من وصولها أصدرت «الجمعية الإسلامية - المسيحية» منشورًا تضمن وجهة نظرها التي تنوي تقديمها للجنة وتتلخص في :

١. فلسطين هي سوريا الجنوبية، وهي جزء لا يتجزأ من سوريا.

٢. بالنسبة للمشكلة الصهيونية فإن الجمعية تميز بين اليهود الفلسطينيين واليهود الأجانب الوافدين من الخارج. وقالت : إننا نرفض كل الرفض السماح بتحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود، ونحن لا نسمح كذلك لأي يهودي بالهجرة إلى بلادنا. وإننا نحتج بشدة على الحركة ومشروعها. أما اليهود المحليون «المتبلدون» (٤٤) الذين يقطنون فلسطين، فلهم ما لنا وعليهم ما علينا. وهم يتمتعون بكافة الحقوق التي نتمتع بها.

- والثانية : عبثية اللجنة. فلقد قدر لها أن تولد ميتة، فلقد ولدت تحيطها المؤامرات الفرنسية - الصهيونية - محاولة إجهاضها وهي لا تزال في الرحم.

كانت البداية حملة معادية شرسة من الدعايات المغرضة السامة. وقد قاد الأطراف الثلاثة المذكورة حملة تشكيك وتشويه وتضليل. وكان لكل طرف منها أسبابه ودواعيه :

١ـ في فرنسا المعارض الرئيسي - كانت تعلم سلفًا بالعداء العربي، وكانت متأكدة أن نتيجة استطلاع الرأي العام المحلي عن وجودها في الشرق (عدا لبنان) سوف تنجلي عن رفض قاطع.

٢ـ بريطانيا - كانت ترفض سلفًا النتائج المتوقعة، لأن العرب سوف يطلبون حق تقرير المصير ويرفضون الوطن القومي اليهودي على ترابهم الفلسطيني.

كانت كلتا الدولتين تعلمان أن العرب سوف يطالبون كذلك بإلغاء معاهدة سايكس بيكو وتصريح بلفور ويصرون على الاستقلال، وعلى فيصل ملكًا. الأمر الذي ترفضانه كلتاهما.

(٤٣) כהן ע 177

(٤٤) كيالي ص٣٦ ، كيالي كلايتون إلى وج ٢/٥/١٩١٩ و ج ٤٩١-٣٧١

٣- الحركة الصهيونية - التي كانت تعلم أن نجاح اللجنة معناه وأد المشروع الصهيوني وتحويل تصريح بلفور إلى مجرد حبر على ورق.

٤- أما الشريك الرابع ايطاليا، فلم ير له مصلحة في اللجنة، فليس لها في سوريا أية مطامع، ففضلت الانسحاب والوقوف موقف المتفرج وأعلنت إنها غير معنية باللجنة وتوصياتها، وإنها سوف تمتنع عن إيفاد أي مندوب يمثلها.

بقي الرئيس الأمريكي ولسون وحيدًا في الميدان. ولكنه كان مؤمنًا بفكرته مصممًا على تنفيذ مبدأه (٤٥).

لقد نجحت المؤامرة في تعطيل ٣/٤ اللجنة، إذ أن ثلاثة من بين الدول الأعضاء الأربعة امتنعت عن إرسال مندوبيها، ولكنها لم تنجح في تعطيل عمل اللجنة التي أصبحت أمريكية صرفه بعضويها كنغ وكرين.

ولكن المتآمرين نجحوا في تأخير مباشرة عمل اللجنة، فقد كان من المقرر أن تباشر عملها في ٢٥آذار/مارس١٩١٩، لكن نظرًا للعراقيل والمطبات، لم تتمكن من المباشرة بعملها إلا في حزيران/ يونيو ١٩١٩، أي بتأخير أكثر من شهرين.

أصدر الرئيس ولسون إلى مبعوثيه كنغ وكرين، وطاقم العمل الذي يرفقهما، تعليماته بالتوجه إلى الشرق الأوسط. وكان الاسم الرسمي للجنة «الهيئة الأمريكية من اللجنة الدولية لشئون الانتدابات في تركيا» ولكنها عرفت باسمها المختصر «لجنة كنغ كرين» (٤٦).

وصلت اللجنة ميناء حلفا في العاشر من حزيران /يونيو ١٩١٩م لتجد الرأي العام العربي متشائمًا لا يعول الكثير عليها، وهو غيرُ مقتنع بتطمينات فيصل، الذي كان هو أيضًا في قرارة نفسه غير مطمئن لها أيضًا. وقد انعكس ذلك في البرقية التي طيرها من مدينة حلب في نفس اليوم الذي وصلت فيه اللجنة، إلى اللنبي مستفسرًا إذا كانت اللجنة وصلت حقًا. وتساءل عما إذا كانت شكلية صورية فقط وإنها عبارة عن ختم من المطاط وضحك على الذقون. وقد أبدى خشيته من أن يكون مصير المنطقة قد حسم فعلاً.

(٤٥) انطونيوس ص٤٠٧
(٤٦) Lenczowski p88

أما اللجنة فحال وصولها مدينة حيفا أصدرت بيانًا تضمن نقطتين : (٤٧)

الأولى : الشعب الأمريكي ليست له أية مطامع سياسية في أوروبا أو في الشرق الأوسط.

والثانية : هدف اللجنة الوقوف على أحوال السكان ورغباتهم وإطلاع الرئيس ولسون عليهما (٤٨).

لجنة كنغ- كرين في بلاد الشام

قضت اللجنة ستة أسابيع في زيارات ميدانية في جميع أنحاء سوريا. وقد توقفت في ٣ محطات :

- المحطة الأولى في سوريا :

كانت المحطة الأولى في مدينة دمشق، فوصلتها في ٣ تموز/ يوليو١٩١٩م ومكثت فيها ١٥ يومًا قابلت خلالها ٢٢ مندوبًا يمثلون مناطق البلاد وديانتها وطوائفها، بمعدل مندوبين عن كل طائفة.

١- الطائفة الإسلامية على مختلف مذاهبها، وقد تزعم الوفد مفتي سوريا.
٢- الطائفة المسيحية من الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك.
٣- الطائفة الدرزية.
٤- الطائفة اليهودية.
٥- ممثلي الصناعات والحرف الوطنية.
٦- ممثلي بلدية دمشق.
٧ - ممثلي الفلاحين.
٨- ممثلي البدو.
٩- ممثلين عن عائلة الجزائري في سوريا، أحفاد عبد القادر الجزائري(٤٩).

وقد أجمع الجميع على نقطتين :

١. وجوب تنفيذ مقررات المؤتمر السوري العام.
٢. رفض البرنامج الصهيوني، وعلى رأسه تصريح بلفور والوطن القومي اليهودي في فلسطين.

(٤٧) Tibawi p295
(٤٨) الخولي ص٣٥٤-٣٥٣
(٤٩) כהן ע 157

- المحطة الثانية في لبنان [٥٠] :

من دمشق توجهت اللجنة إلى بعلبك في بيروت واستمعت إلى ممثلي الشعب. ومكثت هناك عشرة أيام وسمعت نفس المطالب التي سمعتها في دمشق.

- المحطة الثالثة في فلسطين :

توجهت اللجنة من بيروت إلى مدينة القدس حيث واجهتها المظاهرات الصاخبة وهي ترفع الشعارات :

- نحتج على الصهيونية، ونرفض أن نهاجر من بلادنا.
- فلسطين جزء من سوريا.
- نطالب بالاستقلال الكامل ؛ من جبال طوروس حتى رفح[٥١].

وقد عرجت اللجنة على المدن التالية : القدس، يافا، الخليل، رام الله، غزة، حيفا، عكا، الناصرة، نابلس، وجنين وغيرها.

وكانت الساحة الفلسطينية يتنازعان تياران :

الأول : تيار وطني تمثله «الجمعيات الإسلامية المسيحية» الداعي إلى رفض الوطن القومي اليهودي، وقد أعرب ممثلوه للجنة عن رفضهم القاطع للصهيونية ومشاريعها في الهجرة والاستيطان وابتياع الأراضي، وقالوا : «اليهود إما أن نلقيهم في البحر أو يعيدونا إلى الصحراء».

الثاني : تيار انتهازي نفعي استسلامي، معظمه من برجوازي المدن وأثريائها، ومن عائلات إسلامية ومسيحية من أصحاب الثراء والمصالح المتشعبة ومن شيوخ القبائل البدوية ومخاتير القرى. قالوا بإمكانية التعايش مع اليهود والحركة الصهيونية والتعاون معهم واعتبروا المستوطنين اليهود إخوانًا لهم.

كان عمل اللجنة في فلسطين مسحًا شاملًا واستقصاء عامًا صادقا أمينًا لرغبات السكان.

وقد فتحت اللجنة أبوابها لكل طارق واستمعت لمختلف الآراء والتيارات وقابلت عددًا من الوفود في حوالي ٤٠ مدينة وقضاء وربض. وتسلمت ١٨٠٠

(٥٠) الخولي ص٣٥٥

(٥١) כהן ע 158

عريضة. وكان من أبرز الذين مثلوا أمام اللجنة وأدلوا بشهادتهم التي عبرت عن الرأي العام والمطالب الوطنية العين المقدسي عارف الدجاني وقد قال : «إن نصر الصهيونية معناه عبودية العرب» وأضاف إنه من المستحيل التوصل إلى تفاهم أو تعايش مع اليهود الصهيونيين، فإن تاريخهم وماضيهم يؤكدان استحالة هذا الأمر ثم أنهى «إنه ما لم تصغ عصبة الأمم إلى توجهات العرب فإن البلاد سوف تغرق بالدماء».

وكان مجمل عمل اللجنة عقد ٤٠١ جلسة في كافة المدن.

اللجنة تقابل ممثلي اليشوف في فلسطين

ولم تغفل اللجنة الجانب الصهيوني فعقدت اجتماعًا في مستوطنة ريشون لتسيون حضره رؤساء المستوطنات اليهودية وأعضاء «اللجنة الصهيونية»[٥٢] في فلسطين. وقد أجمع الجميع على تقديم مذكرة، كانت صورة طبق الأصل من مطالب الوفد الصهيوني في مؤتمر الصلح في فرساي.

أما خلاصة عمل اللجنة في فلسطين فتتلخص في :

مجموع الأيام التي قضتها اللجنة ١٥ يومًا زارت خلالها ١٣ مدينة وتلقت ١٨٦٩ عريضة : ١٩ منها تؤيد المشروع الصهيوني و١٨٥٠ ترفضه.

اللجنة في شمال سوريا [٥٣]

بعد الفراغ من مسح فلسطين والنصف الجنوبي من سوريا ولبنان توجهت اللجنة إلى شمال سوريا حيث قابلت في مدينة حلب وفدًا عراقيًا حمل المطلب التالي : الاستقلال ورفض كل نوع من أنواع الانتداب من أية دولة كانت.

(٥٢) الخولي ص٣٥٧

(٥٣) الخولي ص٣٥٧

اللجنة تلخص عملها

توجهت اللجنة بعد ذلك إلى كيليكيا جنوب الأناضول، ومنها انتقلت إلى اسطنبول حيث أتمت صياغة تقريرها ودبجت توصياتها وغادرت إلى باريس في الأسبوع الأخير من شهر آب / أغسطس ١٩١٩م. وسلمت نسخة من التقرير إلى سكرتير الوفد الأمريكي في مؤتمر فرساي [٥٤] وبعد أيام غادر د.كنغ إلى واشنطن ليطلع رئيسه ولسون على ما توصلت إليه اللجنة.

ويذكر انطونيوس إن تقرير اللجنة هو المصدر الوحيد للإطلاع على الرأي العام العربي الفلسطيني وكانت أبرز نقاط التقرير ثلاثة :

▪ الأولى :

أ. اللجنة توصي بنظام انتداب على سوريا (بما فيها فلسطين) وعلى العراق لفترة زمنية محدودة وهدف الانتداب إيصال البلاد إلى الاستقلال بأقصى سرعة ممكنة.

ب. الإبقاء على العراق وحدة جغرافية إقليمية واحدة.

ج. الإبقاء على سوريا وحدة جغرافية إقليمية واحدة كذلك.

د. منح لبنان حكمًا ذاتيًا ضمن إطار الوحدة السورية الشاملة.

هـ. يكون للعراق انتداب واحد ولسوريا انتداب آخر.

و. نظام الحكم في سوريا يكون ملكيًا ـ دستوريًا ويتوج فيصل ملكًا على سوريا.

ز. على العراق ينتخب سلطان عربي.

▪ الثانية :

بالنسبة للانتداب واختيار دولة :

١. بالنسبة لسوريا هناك رفض قاطع لانتداب أو حكم فرنسي، وهي إن رفضت الانتداب، فإنها ترحب بالمعونة الخارجية على أن تكون أمريكية كأفضلية أولى، فإن تعذر ذلك فبريطانية [٥٥] واللجنة تحذر، من فرض انتداب فرنسا على سوريا، لأن ذلك سوف يؤدي إلى ثورة عربية ضد فرنسا.

---

(٥٤) Lenczowski p88

(٥٥) الحولي ص١٥٩

٢. واللجنة توصي أن يكون الانتداب لفترة محدودة تحددها عصبة الأمم، وتكون مهمتها مساعدة الشعب وتطويره وإيصاله إلى الاستقلال.

٣. بالنسبة للعراق يكون هناك انتداب بريطاني.

▪ الثالثة :

أما بالنسبة للحركة الصهيونية وبرنامجها فإن اللجنة تقر وتعترف أنها بدأت عملها وهي متعاطفة ومنحازة إلى الطرف الصهيوني، لكن الواقع الميداني والحقائق في فلسطين اقتضتها تعديل مواقفها، فلقد تنبهت إلى التطلعات الصهيونية، وذلك إن الشهادات التي استمعت إليها من ممثلي اليشوف أقنعتها بما لا يقبل الشك أن الحركة تتطلع إلى انتزاع ملكية الأراضي من أيدي غير اليهود من سكان البلاد بشتى الوسائل.

واللجنة ترى بذلك اعتداء صارخًا على حقوق الإنسان وعلى المبادئ التي تنادي بها دول الوفاق وينادي بها الرئيس ولسون.

وبناء عليه فإن اللجنة تعارض المطالب الصهيونية حتى لو تم ذلك في حدود القانون وإطاره. وهي تطالب بالحد من الأطماع الصهيونية في فلسطين، خاصة الهجرة ولفتت اللجنة النظر إلى إلى أن العداء المرير ضد الصهيونية ليس مقصورًا على فلسطين وحدها، وإنما يشمل سوريا بأسرها أيضًا، فقد كان أكثر من ٧٣% من العرائض التي تلقتها من جميع أرجاء سوريا، والتي بلغ مجموعها ١٣٥٠ عريضة، موجهة ضد المشروع الصهيوني وجميعها تمثلت بمطلبين : وحدة سوريا والاستقلال.

كما ذكرت اللجنة أن ١٠% فقط من سكان فلسطين هم من اليهود، بينما نسبة السكان العرب: المسلمين والمسيحيين تبلغ ٩٠% من مجموع السكان، وهم جميعًا يعارضون الصهيونية [٥٦]

---

(٥٦) الحولي ص٥٥٩ ، كيالي ص١٣٧

اللجنة وتصريح بلفور

وعلقت اللجنة على تصريح بلفور إنه لا يمكن إقامة حكومة يهودية في فلسطين بدون إهدار الحقوق الدينية والمدنية للطوائف غير اليهودية. وقالت إن المبدأ الذي يجب أن يوجهها هو مبدأ ولسون في «حق تقرير المصير» الذي ينص على أن «كل مسألة سواء كانت تتعلق بالأرض أو السيادة أو المسائل الاقتصادية والسياسية يجب أن تبنى على قبول الناس»، وعليه يجب الاعتراف أن السكان غير اليهود في فلسطين، وهم ٩٠% من مجموع السكان، يرفضون البرنامج الصهيوني رفضًا كاملاً.

وحذرت اللجنة مؤتمر الصلح من تجاهل شعور الأهالي العدائي تجاه الحركة الصهيونية، وأعربت عن اعتقادها أن البرنامج الصهيوني لا يمكن تنفيذه إلا بالقوة المسلحة التي توجب تحريك لا أقل من خمسين ألف جندي، وهذا في حد ذاته برهان واضح على ما في البرنامج الصهيوني من الإجحاف بحقوق غير اليهود، إذ أنه «لابد حقًا من الجيوش، في بعض الأحيان لتنفيذ القرارات، ولكن من غير المعقول أن تستخدم الجيوش لتنفيذ قرارات جائرة».

هذا فضلاً عن أن مطالب الصهيونيين الأساسية في حقهم في فلسطين مبنية على كونهم احتلوا البلاد منذ ألفي سنة، وهذه دعوى لا تستوجب الاكتراث أو الاهتمام.

وبالنسبة للأماكن المقدسة، أضافت اللجنة إنه من المستحيل أن يرضى المسلمون والمسيحيون بوضع الأماكن المقدسة تحت الهيمنة اليهودية.

ولخصت اللجنة تقريرها : «وبناء على ما تقدم تشعر اللجنة، مع تعاطفها مع المسألة اليهودية، أن الواجب يقتضيها الإشارة على المؤتمر (مؤتمر الصلح في فرساي ز. ف) ألا يؤيد إلا برنامجًا صهيونيًا معتدلًا يسير العمل فيه بخطوات تدريجية.

وبعبارة أخرى يجب تحديد الهجرة إلى فلسطين خلافًا للخطة الرامية إلى جعل فلسطين حكومة(دولة ز. ف) يهودية».

وقد أنهى التقرير : «إن من يطلبون تحويل فلسطين يهودية لم يحسبوا للنتائج حسابها، ولم يأخذوا بالحسبان مشاعر العداء للصهيونية، ليس في فلسطين وحدها، وإنما في جميع أنحاء العالم العربي الذي تعتبر فلسطين أرضًا مقدسة».

أما توصيات اللجنة بالنسبة للمشروع الصهيوني فكانت :

- تقليص المشروع واختصاره.
- تحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين.
- إسقاط فكرة تحويل فلسطين دولة يهودية.

وأد تقرير اللجنة

قدمت اللجنة تقريرها وتوصياتها وهي مطمئنة البال مرتاحة الضمير، فلقد قامت بعملها بأمانة وإخلاص وأدت واجبها على أكمل وجه. وكان عملها صادقا أمينًا، بصدق وموضوعية، عكس رغبات السكان ومطالبهم وأمانيهم، لكنها صعقت وصدمت إزاء موجات العداء المرير والمؤامرات التي حيكت ضدها من قبل بريطانيا- فرنسا والحركة الصهيونية. وجميعها عملت على إجهاض التقرير وإلقائه في زوايا الإهمال والنسيان. ولكن اللجنة كانت واثقة أن سندها وراعيها هو الرئيس الأمريكي ولسون، وهو عراب اللجنة ودعامتها الرئيسية والضمان الوحيد الكفيل بتنفيذ المقررات كاملة غير منقوصة. ولكن هذه الثقة لم تلبث أن تزعزعت إثر تعاون الأطراف الثلاثة المعادية للجنة وتقريرها وشروعها في إزاحة العقبة من الطريق بالتخلص من الرئيس وإعادته إلى بلاده.

وما حدث في هذه اللحظات الحاسمة مدعاة للعجب والتساؤل ! فلقد تفجرت فجأة مشاكل كبيرة خطيرة في السياسة الداخلية للولايات المتحدة.

أثار الكونجرس الأمريكي، وفجأة في هذا التوقيت بالذات، معارضة شديدة لانضمام الولايات المتحدة «لعصبة الأمم» المنبثقة عن مؤتمر فرساي وكان الأمر في منتهى الخطورة بالنسبة للرئيس الأمريكي، فإن الأمر لم يمس ثقله السياسي فقط، بل مركزه الشخصي أيضًا، فهو كان صاحب فكرة إقامة المنظمة المذكورة وعرابها.

اضطر الرئيس إزاء هذا التحدي، إلى مغادرة باريس وإخلاء مكانه في فرساي. فمؤتمر الصلح، يعتبر في الدرجة الثانية من الأهمية إزاء معركته الأساسية على أرض الوطن، فالبيت يشتعل.

عاد الرئيس إلى واشنطن وسقطت مع عودته الدعامة الرئيسية للجنة، وخلت الأجواء للدسائس الانجلو- فرنسية- صهيونية. فشنوا على اللجنة حربًا مسعورة ولم عن إعلان حرب سياسية- نفسية على الرئيس الغائب ولسون نفسه، وعلى مبدأه في حق تقرير المصير للشعوب، فتحوا على التقرير بوابات الجحيم، وطعنوا في نزاهة أعضاء اللجنة، وكالوا لهم التهم جزافًا مصحوبة بحملة من الأكاذيب والافتراءات.

أما الوفد الأمريكي في المؤتمر الذي بقي في فرساي، بعد رحيل رئيسه، فلقد آثر السلامة البحتة، ولم يجرؤ على تعكير العلاقات مع الأطراف المعربدة. وخطت هذه الأطراف خطوة إضافية أخرى؛ تجاهلت التقرير وتوصياته واكتفت بإيداعه أحد الأدراج المقفلة لتتراكم عليه الأتربة والغبار ويلفه الإهمال والنسيان. ولَّم يعد أحد يتطرق إليه في أي موقف رسمي.

أما بريطانيا وفرنسا فاستفردت، خلال السنوات الثلاثة التالية بالساحة لفرض حلولها التقسيمية بقوة السلاح ضاربتين بالرئيس ولسون ولجنته وحق تقرير مصيره عرض الحائط.

وبذلك حققت تلك الدولتان الاستعماريتان أطماعهما. أما الرئيس ولسون فإنه، على حد قول لويد جورج لأحد المشتركين في المؤتمر، «فقد عاد إلى بلاده مع استينيات (عملة ورقية مالية عديمة القيمة في فترة الثورة الفرنسية). أما أنا فقد عدت إلى بلادي وجيبي عامر، بالجنيهات الذهبية».

فيصل مرة أخرى في لندن

أجهض تقرير لجنة كنج كرين بعد أن عاد الرئيس ولسون إلى بلاده وأصيب مؤتمر الصلح بحال من الشلل ولم يعد يتحرك إلا بأمر من بريطانيا وفرنسا.

أما الساحة في سوريا والعراق فغرقت في حالة من شبه الفوضى وغموض المستقبل بحيث لا يستطيع أحد أن يتكهن بما سوف تتمخض عنه الأحداث من كوارث.

تلخص الوضع على الساحة السورية العراقية كالتالي :

١- العراق يرزح تحت الاحتلال البريطاني، والشعب العراقي يغلي ويهدد بانفجار شامل.

٢- سوريا مقسمة مفتتة مجزأة :

أ. فيصل وقواته العربية يسيطرون على الجزء الشرقي الداخلي : من العقبة جنوبًا حتى حلب شمالًا.

ب. الاحتلال الفرنسي يسيطر على الساحل السوري - اللبناني ومنطقة كيليكية.

ج. الاحتلال البريطاني يسيطر على فلسطين وشرقي الأردن.

٣- الحركة الصهيونية تتحفز لتنتزع فلسطين.

٤- فرنسا تضغط لضم باقي حصتها بموجب سايكس بيكو، غير مكتفية بالساحل السوري اللبناني فقط.

٥- فيصل ضعيف، عاجز متردد محتار. ماذا يفعل؟ وكيف يتصرف؟

وكان المشهد الأنجلو- فرنسي قاتمًا يشوبه العداء والشكوك والاتهامات، خاصةً بكل ما يتعلق بذيول الحرب.

- الصراع مرير بين الحليفتين اللدودتين : بريطانيا وفرنسا حول تنفيذ سايكس بيكو، فلقد شرعت الأوساط السياسية والشعبية الفرنسية تتهم بريطانيا بالتآمر لإلغاء سايكس بيكو وحرمان فرنسا من «حقها» في سوريا ولبنان.

وقد شنت الصحف الفرنسية هجومًا كاسحًا على الحكومة البريطانية واتهمتها بمحاولة طرد فرنسا من المنطقة «وإخراجها من المولد بدون حمص».

- العجز المالي الكبير الذي أخذت تعاني منه الخزينة البريطانية بسبب النفقات المالية الكبيرة والمصروفات الباهظة التي تتكبدها للصرف على القوات البريطانية المرابطة في سوريا وكيليكيا وهما الإقليمان اللذان من المفروض تسليمهما لفرنسا. وبناء على هذه الضغوطات الداخلية والخارجية والإلزاميات التي تورطت فيها الحكومة البريطانية، قررت تنفيذ بنود سايكس بيكو وتسليم فرنسا «شلوها» من القطر السوري ـ اللبناني، وبذلك تصطاد عصفورين بحجر واحد وتتخلص من :
- المصروفات الباهظة وتقلص بذلك العجز في الميزانية.
- الضغوطات الفرنسية.

سارعت الحكومة البريطانية تبشر الحكومة الفرنسية بقرارها وقد عقد الطرفان مفاوضات لتنفيذ الأمر ميدانيًا وتم ذلك بموجب اتفاقية أسميت : مشروع الاتفاق الأنجلو ـ فرنسي لعام ١٩١٩م وباختصار، « اتفاقية كليمانصو ـ لويد جورج».

بموجب الاتفاقية يتم تنفيذ الإجراءات التالية :

١. تنسحب القوات البريطانية من كافة المناطق، التي خصصتها اتفاقية سايكس بيكو، لفرنسا مع بعض التعديل لصالح الحركة الصهيونية. لقد استخدمت بريطانيا الحركة الصهيونية لتعديل معاهدة سايكس بيكو في منطقة شمال فلسطين (الجليل) وبموجب الاتفاقية المذكورة يخضع كل من سوريا ولبنان ومنطقة الجليل في شمال فلسطين من خط عرض عكا ـ طبرية للسيطرة الفرنسية المباشرة. وتدخلت الحركة الصهيونية، بزعامة سوكولوف، بتعديل الاتفاقية بنقل الحدود الفاصلة بين الحكم الفرنسي في سوريا ولبنان والحكم البريطاني في فلسطين وتم سلخ شمال فلسطين عن الحكم الفرنسي ونقله إلى حكم بريطاني. وأصبحت المنطقة المذكورة (الواقعة بين خط طبريا ـ عكا وحتى الحدود اللبنانية) التابعة لفلسطين بدل لبنان.

٢. تحل القوات الفرنسية مكان القوات البريطانية المنسحبة، وبذلك تنتشر هذه القوات بالإضافة إلى المحتلة غربًا، إلى المناطق الجديدة.

٣. قوات فيصل يتحدد انتشارها في المحتلة شرقا في داخل البلاد فقط من المنطقة الممتدة من العقبة حتى حلب، بما فيها شرقي الأردن ومنطقة البقاع.

٤. القوات البريطانية تبقى مرابطة في المحتلة جنوبًا (فلسطين) وتتواجد مع قوات فيصل في المحتلة شرقا. كما أنها تبقى مرابطة في العراق أيضًا وتحتفظ بحقها في مد خط حديد وأنبوبة نفط يصل العراق بفلسطين (ميناء حيفا) حقًا كانت الاتفاقية عجيبة غريبة أشبه ما تكون باتفاقية قرصنة فمن أعطى لا يملك. هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى، لم يكن لوجود هاتين الدولتين أية صفة شرعية سوى صفة الاحتلال فحتى الانتداب لم يكن قد أقر بعد.

وتعانق الحليفان وعادت المياه إلى مجاريها بينهما. ولم يبق إلا إبلاغ الأمير فيصل بالأمر الواقع، وما عليه إلا الرضوخ والاستسلام وتجرع كأس السم حتى الثمالة.

بادر لويد جورج إلى استدعاء فيصل للندن في ١٩ آب/أغسطس ١٩١٩ ليجرعه الكأس الدعاق التي أعدها له. ولم يتوان الأمير فاستجاب للدعوة وركب البحر متوجهًا للندن مرة أخرى، وهو يجهل الكارثة التي تنتظره وحبل المشنقة الذي أعد له بإحكام وخبث ومكر.

أبحر الأمير مع وفد عربي، على متن سفينة حربية بريطانية. وفي البحر تلقى قبطان السفينة أمرًا بالإبطاء في السفر وتأخير وصوله إلى موانئ إنجلترا ريثما تنتهي المفاوضات الأنجلو ـ فرنسية. فتأخر هذا يومين في جزيرة مالطة بحجة إصلاح عطب والتزود بالفحم الحجري ثم أبحر معرجًا على مرسيليا، من مرسيليا انتقل فيصل وحاشيته إلى باريس فوصلها، بعد أن كانت المؤامرة قد حبكت وأبرمت، استأنف الأمير رحلته من باريس إلى لندن.

واجتمع «الصديقان» فيصل وجورج وكانت المفاجأة الصاعقة : أخبر جورج صديقه "فيصل" بخبر الاتفاق الأنجلو ـ فرنسي، وإن عليه التضحية بسوريا وتسليمها لقمة سائغة هنية مرينة للفرنسيين، وما عليه إلا القبول بالحكم الفرنسي على سوريا. تلقى فيصل الصفعة الرنانة فصرخ واحتج وعارض واستنكر ولكن جورج أفهمه بصراحة أن عليه الاستسلام والرضوخ ثم أوضح

له، ببرودة الإنجليزي التقليدي وابتسامته الصفراء، إن الأمر صفقة قد أبرمت لا يمكن التراجع عنها، وإن فرنسا هي الآن سيدة الساحل السوري اللبناني ومنطقة كيليكيا. وأفهمه إن الأمر الوحيد الذي يمكن للأمير القيام به هو التوجه إلى باريس والتفاوض مع العدو اللدود كليمانصو.

وأسقط في يد الأمير الضعيف العاجز المستسلم، ورأى أن يحتج فقدم مذكرة اعتراض قال فيها: أنه وافق على سحب قواته إلى داخل سوريا، بناء على تأكيدات بأن قوات بريطانية سوف تحل محل قواته العربية المنسحبة، إلى حين التوصل إلى تسوية نهائية في مؤتمر الصلح [٥٧].

تسلمت الحكومة البريطانية المذكرة، فلم تعرها أدنى اهتمام، وقررت أنه على الأمير التوجه إلى باريس.

فيصل يهرول إلى كليمانصو

استسلم فيصل. سمع وأطاع ! وتوجه مستكينًا مطاطئ الرأس إلى باريس. كان كمن يسعى إلى حتفه بظلفه، ويدخل طائعًا مختارًا جحر الأفاعي ليتلقى لدغاتها السامة. وصل باريس في ٢٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٩م، وهناك استفرد كليمانصو المفترس بالضحية العزلاء. صاح وعربد وضرب الطاولة بقبضته وأفهمه أن بلاده مصممة على الاستيلاء على سوريا.

وما على الفيصل إلا القبول والرضوخ والإذعان بسرعة وبصمت وهدوء! واستكان الأمير كالتلميذ المطيع أمام أستاذه الجبار واستمع إلى الإملاءات الفرنسية التي سموها تجنيًا «مفاوضات» وأهم بنودها :

١. على الحكومة العربية (حكومة فيصل) داخل سوريا أن تعترف وتحترم الاحتلال الفرنسي للبنان والمناطق الساحلية السورية اللبنانية حتى ميناء الإسكندرونة في الشمال.

٢. الاحتلال الفرنسي لا يشمل منطقة البقاع السورية التي تظل منطقة حرام محايدة بين الإدارتين الفرنسية والعربية.

(٥٧) انطونيوس ص٤١٤

٣. الدولة العربية المحتلة شرقا تلتزم بعدم التوجه إلى أي طرف كان، عدا فرنسا، للحصول على أية مساعدات أو معونات. فهذه المنطقة، وهي سوريا الداخلية، تكون مستقلة، ولكن تحت إشراف فرنسي.

ولم يلبث فيصل أن يلقى الصفعة التالية؛ فوجئ بتعيين الجنرال غورو قائدًا عامًا للجيش الفرنسي في الشرق، (وهو جزار «ميلسون» لاحقًا).

وفي ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٩م حلَّ الجيش الفرنسي مكان الجيش البريطاني المنسحب من المناطق التي نصت على الاتفاقية الأنجلو - فرنسية في غرب خط حلب - دمشق.

فيصل يضطر للعودة من باريس إلى دمشق[٥٨]

تسربت أنباء الكارثة الجديدة إلى سوريا فانتفضت البلاد واشتعلت الروح الوطنية، وعم السخط على بريطانيا وفرنسا وفيصل. وأعلن الناس تمسكهم بالاستقلال وبعروبة فلسطين ورفضهم الاحتلال.

وذعر الأمير زايد أخو الأمير فيصل ونائبه في بلاد الشام أثناء غيابه، ووقف عاجزًا مشلولاً فاغر فاه وهو يرى دمشق تشتعل، وحلب تشتعل وسوريا كلها تشتعل، فأبرق إلى أخيه فيصل بوجوب عودته الفورية لتدارك الموقف المتفجر.
اضطر فيصل إلى قطع زيارته التي كان مقررًا لها أن تستمر لحين حضوره مؤتمر الصلح «ليتم التفاوض باسم العرب جميعًا»، بعد أن يحصل على تفويض بذلك من المؤتمر السوري العام.

أقلع فيصل وحاشيته بحرًا من مرسيليا متوجهًا إلى بيروت فوصلها في كانون الثاني/ يناير ١٩٢٠م وتوجه منها إلى دمشق في ١٤كانون الثاني/ يناير ١٩٢٠م ليجد البلاد تمر غيظًا وغضبًا على المتآمرين والمستسلمين، خاصة فيصل الذي شككت في دوره واستسلامه وطالبته بالحقيقة دون تمويه.

في دمشق جوبه فيصل باستقبال رسمي فاتر بارد، وفي حلب باستقبال عدائي ملتهب، وقد ذهل حين بدأ الشارع السوري يغلي كالبركان، فهذا المحتل الفرنسي ينشر قواته على الحدود تمهيدًا لاقتحام البلاد بقوة السلاح.

(٥٨) الحولي ص٣٧٤

كان الجو العام متشائمًا كئيبًا والناس يسترجعون، وهم ينتظرون المستقبل القاتم الأسود.

اجتاحت البلاد المظاهرات العارمة ترفع شعارات «الوحدة»، «الاستقلال»، « الاستقلال لا يؤخذ بل ينتزع».

وعمد فيصل إلى حلوله السحرية : محاولة التهدئة والطمأنة «ومعالجة الأمور بالحسنى وإعمال العقل والتروي»، فدعا إلى حوار مع الفرنسيين وتجنب العنف.

المؤتمر السوري العام الثاني

تنادى زعماء البلاد إلى عقد مؤتمر سوري في دمشق في الثامن عشر من آذار/مارس ١٩٢٠م وكان من أول أعماله قيادة المظاهرات ومسيرات الاحتجاج وكانت الشعارات المرفوعة تتضمن المطالب الوطنية مثل :

ـ فلسطين دماغ سوريا فكيف يحيا الجسم، والدماغ مسجون.

ـ وموت فلسطين أدبيًا إماتة لسوريا ماديًا.

ـ ولا ساحل للعرب إذا تصهينت فلسطين.

ـ وفلسطين العربية كعبة الإسلام والمسيحية.

وطيّر المسلمون والمسيحيون مذكرات إلى البابا يحتجون فيها على سياسة بريطانيا المنحازة للصهيونية. وذكروا أنهم لن يسمحوا للصهيونية بالاستيلاء على بلادهم، وتصاعدت النقمة وعلت الصرخات منددة بفيصل :

«فيصل سلم سوريا للفرنسيين وفلسطين للصهيونيين».

انعقد المؤتمر، وقد تمخضت جلساته عن القرارات التالية :

١. استقلال سوريا، بما فيها فلسطين، في دولة ملكية دستورية ذات سيادة يرأسها فيصل.

٢. استقلال لبنان بحكم ذاتي ضمن إطار الوحدة السورية.

٣. تشكيل حكومة وطنية يرأسها الركابي.

وحال إذاعة القرارات عمت مظاهرات الفرح كافة البلاد السورية، باستثناء لبنان الجبل وارتفعت أصوات المؤذنين في المساجد وجلجلت أصوات الأجراس في الكنائس مهننة داعية بالتوفيق وتسديد الخطوات.

استمرت المظاهرات ومسيرات الاحتجاج. وقد زاد النار اشتعالًا إجراءان قامت بهما كل من بريطانيا وفرنسا، وكان ذلك بمثابة صب النفط على النيران المشتعلة :

أولهما : قيام فرنسا بتعيين الجنرال غورو قائدًا عامًا لجيش فرنسا.

وثانيهما : قيام بريطانيا بإيفاد هربرت صموئيل، اليهودي الصهيوني، لإعداد دراسة عن فلسطين كانت نتيجتها معروفة مسبقًا فقد قدم اقتراحًا بالسياسة البريطانية المتوجب نهجها تجاه فلسطين، بعد أن تحصل على انتداب عليها.

وملخصها : العمل تحت المظلة الانتدابية لإقامة الوطن القومي اليهودي.

بداية عام النكبة السورية ١٩٢٠م

كان العام الجديد ١٩٢٠م مأساويًا بالنسبة للأمة العربية عمومًا، ولسوريا بصورة خاصة، فلقد تمخضت الأحداث الجسام عن داهية دهمت البلاد. ففي صيف العام المذكور اجتاحت القوات الفرنسية القطر السوري واحتلته بقوة السلاح بعد أن ارتكبت مجزرة دموية.

بدأت السنة بعودة فيصل من باريس بعد أن أبلغ بالاتفاقية الأنجلو فرنسية بتطبيق سايكس بيكو. فاجتاحت البلاد المظاهرات منددة بخيانة بريطانيا، رافضة الاحتلال الفرنسي، متهمة "فيصل" ببيع الأوطان.

حاول فيصل التنصل والإنكار فألقى خطبة حافلة بالافتراءات وإنكار الحقائق وقال: لقد قمت بالثورة ضد الأتراك وغايتي الوحيدة استقلال الأمة العربية، ولكن بعض الناس يظنون إنني عقدت اتفاقا في باريس. ولكن ليس لهذا الوهم نصيب من الصحة : «فأنا ابن محمد ! وأنا ابن أولئك الأمجاد الكرام ! ولن أسير على غير خطتهم، ولا أرضى بأي اتفاق سوى استقلال البلاد العربية. وأنا لا أسعى لاستقلال سوريا فقط، وإنما لاستقلال البلاد العربية كلها. [٥٩]

وحال وصوله أصدر بيانًا للشعب السوري قال فيه :

« يا أبناء سوريا العزيزة !

(٥٩) م.س ص٣٨٢

ها قد عدت إلى الوطن بعد أن فارقته طيلة خمسة أشهر، وقد أبلغت العالم المتمدن ما انتدبتموني إليه من بيان مطالبكم، فتقرر مبدئيًا استقلال بلادكم، وبهذا ترون إنه تم القسم الأعظم من المهمة الخارجية التي نعمل من أجلها، وذلك بحسن نيات الحكومات الأربعة المعظمة وصدقهم في أقوالهم وتمسكهم بالمبادئ السامية التي جعلوها دستورًا لأعمالهم، وطبقًا لأماني الأمة» (٦٠).

ولكن "فيصل" كان في واد والجماهير السورية في وادٍ آخر.

كانوا مقتنعين بنية فرنسا احتلال البلاد وتجزئتها ولو باستعمال السلاح وإغراقها بحمامات الدم. أما محاولات فيصل للبحث عن حلول سلمية فما هي إلا عبارة عن ضحك على الذقون واللهاث وراء سراب خادع.

أما في العراق فقد عقد مؤتمر وطني على نمط المؤتمر السوري، وأعلن هو الآخر استقلال البلاد في مملكة دستورية يرأسها الأمير عبد الله شقيق فيصل.

وكان ظاهرًا للعيان أن هذه القرارات لا تزيد عن كونها حبرًا على ورق ؛ فالتنفيذ بيد من يملك القوة والوسيلة من قوات انجلو ـ فرنسي على مقررات المؤتمرين بالرفض «نحن لا نعترف بالمؤتمر وبقراراته».

مؤتمر سان ريمو ١٩ نيسان / أبريل ١٩٢٠م

نظام الانتداب ـ استعمار مقنع

ساد المنطقة حالة جمود وانتظر الجميع الخطوة التالية لتحريك الجمود.

وقد بادرت إليها دول الوفاق ففي ٢٠نيسان / أبريل١٩٢٠م، أي بمرور ٣٣ يومًا على المؤتمر السوري الثاني، أجمع المجلس الأعلى لدول الوفاق في مدينة سان ريمو في إيطاليا، حين كان فيصل غائبًا في دمشق وكان المؤتمر في حقيقته تعبيرًا عن مصالح الدول المنتصرة.

كان الموضوع المطروح على بساط البحث : مصير الدولة العثمانية والمقصد الحقيقي تفكيك الدولة، وتقطيع أوصالها وتقاسم أشلاءها كغنية حرب.

لقد كان المؤتمر في حقيقته مؤتمرًا عقدته الدول الاستعمارية لتحقيق أطماعها في حيازة مستعمرات جديدة خارج القارة الأوروبية.

(٦٠) م.س ص٣٤٦ و جريدة الكواكب عدد ١٤٠ مجموعة السنة الثالثة

ولكن لما كانت فكرة الاستعمار مرفوضة، فإن المؤتمرين اضطروا إلى مسايرة ومصانعة الفكر السائد الذي دعا إليه الرئيس الأمريكي ولسون وقال فيه بوجوب تصفية الاستعمار وتنظيم حياة الشعوب وفق مبدأ حق تقرير المصير وقد دعم هذا التوجه الإنساني النزعة أممية الجديدة التي بدأت بالانتشار بعد نجاح الثورة البلشيفية في روسيا والقائلة أيضًا بمنح الشعوب حقوقها، بعد القضاء المبرم على الاستعمار.

فما كان من المؤتمرين إلا مسايرة الرأي السائد والقبول، ظاهريًا فقط، باستبدال الاستعمار بنظام آخر، يكون مقبولًا وقابلًا للتسويق عالميًا، وأطلقوا عليه «نظام الانتداب» الذي بقي في مظهره نظام وصاية تقوم بموجبه دولة متطورة برعاية دولة أو دول متخلفة وتساعدها على النهوض والتقدم وتوصلها إلى مرحلة حكم نفسها بنفسها.

أما المعنى الباطني فيتضمن نظام استعمار مقنع ؛ بحيث تصبح الفروق بين نظام الاستعمار ونظام الانتداب شكلية صورية فقط وبذلك تستطيع كل دولة متقدمة متطورة تحقيق مطامعها الاستعمارية التوسعية تحت غطاء إنساني رحيم هو «الانتداب» فتظهر الدولة المنتدبة بصورة دولة إنسانية تتماشى مع روح العصر، ولكنها في الحقيقة لا تهدي إلى الدول المنتدب عليها إلا قبلة الموت، ولا تسقيها إلا العسل ممزوجًا بالسم (٦١)، تحت مظلة الشرعية الدولية المستترة بميثاق عصبة الأمم. فالانتداب حسب ما يعرفه الخولي (٦٢) ما هو إلا استعمار مبطن فرضته الدول المستعمرة في الحر العالمية الأولى وطبقته على الأقاليم التي انحسرت عنها سلطة الدولة المهزومة.

هذا هو نظام الانتداب في حقيقته الميدانية والنظرية البحتة وليس هو في الواقع إلا جزء من نظام عصبة الأمم (٦٣) نص عليه ميثاقها الذي يقول : «إن المستعمرات التي زالت عنها صفقة التبعية للدول التي كانت تحكمها سابقًا نتيجة للحرب الأخيرة، والتي يقطنها أقوام لا يستطيعون القيام وحدهم بمتطلبات الحياة

(٦١) ولسون ص٧٤

(٦٢) انطونيوس ص ٤٠٦-٤٠٨

(٦٣) م.س ص٤١٩

العصرية الحديثة، يجب أن يطبق عليها المبدأ القائل بأن رفاهية مثل هذه الشعوب وتقدمها يعتبر وديعة مقدسة في عنق الحضارة».

وفي المؤتمر المذكور «سان ريمو» تم توزيع أشلاء الدولة العثمانية تحت عنوان «الانتداب» وخضع المستطيل العربي الواقع بين البحر المتوسط غربًا والحدود الإيرانية شرقا، لانتداب أوروبي.

سوريا تقسم إلى ٣ مناطق منفصلة :

١ـ فلسطين تنتدب عليها بريطانيا وقد أضيف إلى هذا البند فقرة في غاية الخطورة تقضي بأن الانتداب على هذا القطر يلزم الدولة المنتدبة بريطانيا بتنفيذ تصريح بلفور.

٢ـ العراق وتنتدب عليه بريطانيا أيضًا، على أن يبقى موحدًا دون تقسيم [٦٤].

٣ـ أما بخصوص المناطق غير العربية من الإمبراطورية العثمانية فقد نصت القرارات على: تقطيع أوصال هضبة الأناضول التركية.

أ ـ سلخ أرمينيا في غرب الأناضول عن الدولة وإقامة دولة أرمنية مستقلة.

ب ـ سلخ منطقة جنوب شرق الأناضول (منطقة ديار بكر) وإقامة دولة كردية مستقلة.

ج ـ سلخ مناطق واسعة من هضبة الأناضول وتركيا الأوروبية عن الإمبراطورية وتسليمها لايطاليا واليونان [٦٥].

وهكذا قضت مقررات المؤتمر بتفتيت الدولة العثمانية وإزالتها من خارطة الوجود، لولا أن قبض الله لها القائد مصطفى كمال أتاتورك لاحقًا الذي أحبط هذا القسم من مؤامرة سان ريمو الذي يختص بالأناضول وتركيا الأوروبية ونجح بعد أن خاض المعارك الطاحنة، في رد كيد العدو والمحافظة على سلامة التراب التركي في هذه المناطق، ولم يتبق إلا سوريا والعراق لتصبحا لقمة سائغة في فم الاستعماريين والانتدابين الأنجلو ـ فرنسي وتطبق عليهما مقررات سان ريمو فهما يتيمان مستضعفان لا نصير ولا ولي ولا بواكي لهما.

---

(٦٤) Lenczowski p91-92

(٦٥) انطونيوس ص ٤١٩ ، Lenczowski P 91-92

والمضحك المبكي في هذا المؤتمر الدولي أن القرارات المصرية اتخذت في غياب الوفد الأمريكي، ففعل الشريكان المتآمران الفرنسي والبريطاني (يدعمهما الشريك الخفي الثالث الصهيوني من وراء الكواليس) ما يحلو لهم وقد استرخى المندوب الأمريكي طوال فترة المؤتمر في جلسات مطولة في حدائق الفندق مستمتعًا بالدعة والراحة يطالع الصحف ويتسلى بقتل الوقت.

مع إعلان المقررات المجحفة بحق الوطن العربي وحق الحليف العربي، رفيق السلاح، في ١٥ آيار/ مايو ١٩٢٠م، بعد تعتيم طيلة أسبوعين كاملين، عم الغليان وتفجرت ردود الفعل وانعكست في أحداث منها :

ـ هجوم عربي على مستوطنة المطلة اليهودية في إصبع الجليل سقط فيه ٦ قتلى من اليهود.

ـ هجوم على القوات البريطانية في بلدة سمخ الفلسطينية.

ـ وهجوم آخر على تلك القوات في مدينة بيسان.

ـ إسقاط طائرة من سلاح الجو الملكي **RAF**.

في الوقت نفسه ارتفعت الاتهامات العربية لدول الوفاق، خاصة بريطانيا، بالتنكر للعهود والمواثيق، والانحياز إلى الصهيونية ومشروعها.

وعاد الغليان الشعبي يعم الشوارع، وقد زاد من حدة الغضب المذكرة التي بعث بها الجنرال اللنبي، وكانت قمة في الخداع، والكذب حاول فيها تسويق مقررات سان ريمو وقد بعثها إلى صديقه فيصل في ٢٣نيسان / أبريل ١٩٢٠م قال له فيها : «إن الدول المتحالفة المجتمعة في سان ريمو قررت الاعتراف بكل من سوريا والعراق دولتين مستقلتين على أن تخضع كل منهما لمساعدة دولة كبرى متقدمة حتى تستطيع هاتان الدولتان الوقوف بمفردهما وبقواهما الذاتية.

وإنه طبقًا لهذه المقررات فقد عهد لفرنسا بالانتداب على سوريا، كما عهد لبريطانيا بالانتداب على فلسطين والعراق وقد ورد في البيان البريطاني الرسمي: إن حكومة صاحب الجلالة تشعر شعورًا قويًا إنه قد آن الأوان للوصول إلى اتفاقية تمكن من التوفيق بين مطالب الشعب العربي السوري وهذه القرارات.

وطبقًا للقرارات المتخذة فإن حكومة صاحب الجلالة مستعدة للاعتراف بسموكم رئيسًا مؤقتًا لدولة سوريا المستقلة. ولكنها في الوقت ذاته تتمسك بأن مؤتمر الصلح هو وحده المخول بإسناد الملكية لسموكم. وعلى هذا فالحكومة البريطانية تلح عليكم بالتوجه دون تأخير إلى أوروبا وعرض القضية على مؤتمر الصلح.

وبخصوص فلسطين قد كنتم دائمًا على علم بأن حكومة صاحب الجلالة تعمل على إنشاء وطن قومي لليهود وهو هدف ارتضته الإدارة، وترى الحكومة إنها مقيدة بهذا الالتزام الذي سوف تؤكده نصوص الانتداب، الرامي إلى المحافظة على مصالح السكان الوطنيين في فلسطين».

وكان للبيان المذكور أسوأ الأثر في نفوس العرب، خاصة الفلسطينيين، لقد أدركوا الشرك الذي أوقعتهم فيه بريطانيا وإنها تنوي تسليم البلاد للحركة الصهيونية، بالإضافة إلى تسليم مقادير البلاد إلى كل من فرنسا وبريطانيا تحت غطاء الانتداب.

بدأت القوات الفرنسية تقتحم الأماكن التي خصصتها لها اتفاقية جورج - كليمانصو وتصاعدت المظاهرات واجتاحت المناطق العربية كلها. وقد وقف الإنجليز موقف المتفرج من كل ما يجري في الميدان.

أما الفرنسيون فلجأوا إلى السلاح لقمع المظاهرات وغسلوا الشوارع والأزقة وأماكن العبادة بدماء الشعب التي سالت غزيرة، وتدهور الوضع إلى اشتباكات مسلحة دامية غير متكافئة بين القوات العسكرية الفرنسية وجماهير الشعب تساندها القوات العربية في الأماكن التي تخليها القوات البريطانية تمهيدًا لدخول القوات الفرنسية.

وكانت أعنف الاشتباكات وأكثرها دموية تلك التي وقعت في مدينتي طرابلس وبعلبك ومنطقتيهما.

أما في الجنوب فجرت إشتباكات مسلحة أيضًا في منطقتي مرجعيون ومنابع نهر الأردن وكانت الجماهير مصممة على الدفاع عن تراب الوطن حتى نقطة الدم الأخيرة، وعدم السماح للمحتل الفرنسي بتدنيس أرضه.

وتوالت المظاهرات والمسيرات والاحتجاجات وطيرت البرقيات وكان أبرزها البرقية التي طيرتها «الجمعية الإسلامية المسيحية في القدس» : نحن أعضاء الجمعية الإسلامية المسيحية الممثلين لجميع أهالي لواء القدس نحتج على القرار الصادر عن مؤتمركم بخصوص مستقبل فلسطين، وإننا نرفضه رفضًا قاطعًا لما فيه من الإجحاف بحقوقنا المقدسة وإننا نعلن إننا لن نكف عن مطالبنا المنحصرة في استقلال سوريا الموحدة من جبل طوروس في الشمال حتى مدينة رفح في الجنوب».

بقية عام النكبة

ميسلون الكرامة.. المنية لا الدنية

العرب يتجرعون الكأس حتى الثمالة

وَلِلحُرِّيَّـــةِ الحَمــراءِ بــابٌ بِكُــلِّ يَــدٍ مُــضَرَّجَةٍ يُــدَق
دَمُ الثُــوَّارِ تَعرفُــهُ فَرَنــسا وَتَعلَــمُ أَنَّــهُ نُــورٌ وَحَــق

أمير الشعراء أحمد شوقي

انتهت الحرب وحان دور تطبيق الاتفاقات السرية وغير السرية، المعلنة وغير المعلنة المعقودة بين الأطراف المنتصرة. قبل مؤتمر سان ريمو كان المفروض أن تتسلم فرنسا حكم سوريا ولبنان بموجب اتفاقية سايكس بيكو ولكن حدث في هذه الأثناء تغير جذري في السياسة البريطانية فبريطانيا، في نهاية المطاف، هي التي احتلت البلاد وليس الفرنسيين.

وقد حاولت أن تتنصل من الاتفاقيات لأنها أصبحت في مركز قوة وليست بحاجة إلى حليف آخر لا فرنسي ولا روسي فبدءوا يطالبون بتجميد الاتفاقيات المذكورة بحجة أنها ترتيبات حمقاء غبية، غير قابلة للتطبيق وغير مرغوب فيها. وقد عبر عن موقف لويد جورج عراب الاتفاقية سكرتير حكومة الحرب البريطاني موريس هانكي قال : إن لويد جورج كان يسعى جاهدًا لإعادة النظر في اتفاقية

سايكس بيكو وتأمين ضم فلسطين ومنطقة الموصل العراقية للحكم البريطاني وترك فرنسا بعيدًا خارج السياج. وقد نجح لويد جورج في سياسته فقد تمكن من ضم فلسطين تحت التاج البريطاني، كما نجح في تنصيب الأمير فيصل ملكًا متوجًا على سوريا وتشكل الحكم الفيصلي الجديد تحت المظلة البريطانية وبمباركة العراب البريطاني وبدأ جهاز بيروقراطي مشكل من العرب السوريين واللبنانيين والفلسطينيين والعراقيين يديروا شئون البلاد.

وقد رضي فيصل بحكم سوريا وتخلى عن فلسطين للحكم البريطاني وهو عالم حق العلم بتصريح بلفور وانحياز بريطانيا للحركة الصهيونية ومشاريعها وحلمًا في إقامة وطن قومي يهودي على التراب الفلسطيني.

أما فرنسا فسكتت على مضض وتجرعت مرارة تنصيب فيصل ملكًا على سوريا تحت المظلة البريطانية، وأخذت تتحين الفرص متربصة به وبحكمه وتعد العدة لتقلب الأوضاع رأسًا على عقب. وقد سنحت لها الفرصة لتحقيق سياستها في صيف ١٩٢٠م، بعد حوالي سنتين من الحكم الفيصلي إثر معاهدة سان ريمو سنحت الفرصة لفرنسا لاحتلال سوريا بقوة السلاح وتطرد "فيصل" وأنصاره.

شرعت فرنسا تدق طبول الحرب وتحشد قواتها لاحتلال الوطن السوري وقد وصلت المواجهة إلى نقطة اللاعودة ووقفت المنطقة على شفيرهار. وتيقن الجميع : أنها الحرب.

توجهت الجماهير السورية : قادة وشعبًا إلى فيصل مطالبة إعلان الحرب على فرنسا ولكن "فيصل" كان يؤثر تفادي الصدام المسلح، فعزم على التوجه إلى لندن يرجو وساطة الصديق الحليف البريطاني، عله يتمكن من تهدئة الإله الفرنسي الغاضب.

في تلك الأثناء، وقبل أن يغادر إلى بريطانيا، تسلم مذكرة خطيرة مريرة، مفاجئة من الجنرال غورو [٦٦]، القائد العام للقوات الفرنسية في الشرق، وكانت مشبعة بالإهانات مفعمة بالتحقير والإذلال والاستخفاف والاستهتار والغطرسة. ملأها غورو، من ألفها حتى يائها، بالإملاءات المهينة التي لا يمكن القبول بها.

(٦٦) G Gouraud

كانت المذكرة بتاريخ ١٤تموز/ يوليو ١٩٢٠م، وهي عبارة عن إنذار خطي وقَّعه غورو نفسه وطيره من بيروت إلى دمشق ليصل في اليوم ذاته. ولما اطلع فيصل على المذكرة - الإنذار غاب صوابه وغامت عيناه، فلقد احتوت على أمر وإنذار.

- الأمر والإنذار الفرنسيان

أما الأمر فكان يأمر "فيصل" بالمكوث في دمشق وملازمتها وعدم التغيب عنها، لأن رسالة ثانية مستعجلة من الحكومة الفرنسية في طريقها إليه.

وأما الإنذار فكان رهيبًا، تضمن خمسة مطالب يتوجب على فيصل تنفيذها، بمدة لا تتجاوز أربعة أيام وإلا فإن الحكومة الفرنسية ترى نفسها مطلقة اليد في التنفيذ مطالب الإنذار الخمسة كانت :

١. تسليم سكة حديد رياق - حلب للقوات الفرنسية، الأمر الذي يعني احتلال مدينة حلب عاصمة الشمال، ومحطات سكة حديد رياق، بعلبك وحمص وحماه. وهذا الخط العمودي يشكل العمود الفقري لسوريا ويشطرها نصفين.

٢. إلغاء التجنيد العسكري لقوات فيصل العربية وتخفيض عدد قوات الجيش العربي.

٣. قصر التعامل النقدي على العملة الورقية الفرنسية.

٤. القبول غير المشروط بالانتداب الفرنسي.

٥. تسليم كل من قام بأي اعتداء على القوات الفرنسية ومعاقبة المعتدين والمجرمين الذين استرسلوا في معاداة فرنسا.

التوقيع : الجنرال غورو

والمقصود «بالمعتدين والمجرمين» الثوار الوطنيين الأحرار وثورتهم الوطنية:

١- ثورة الدنادشة في تلكخ.

٢- ثورة الشيخ صالح العلي في جبال النصيرية.

٣- ثورة الأمير محمود الفاعور في وادي التيم.

٤- ثورة كامل الأسعد في جبل عامل.

٥- ثورة صبحي بركات في أنطاكية.

٦- ثورة إبراهيم هنانو في منطقة اللاذقية وجبل الأربعين وجبل الزاوية.

فهل يستجيب فيصل للمطلب الشعبي بإعلان الحرب على فرنسا ؟

أو هل يقبل بالإنذار الفرنسي ويستسلم دون قيد أو شرط ؟

وحاول فيصل إيجاد مخرج يعالج فيه الأزمة على طريقته الفيصلية التقليدية: رفض المطلب بإعلان الحرب على فرنسا [٦٧].

وبالنسبة للإنذار الفرنسي ردَّ بكتاب احتجاج رقيق خجول وعلم الإله الفرنسي الغاضب غورو إنه ينوي التوجه لأوروبا ليحل المشكلة هناك مع المسئولين الفرنسيين مباشرة. وهو يرجو مهلة محدودة من الزمن لحين عودته.

ولكن غورو أصر على الاستسلام الفوري.

وهنا، ولدهشة الجميع، ابتلع فيصل الإهانة وأدار خده الأيسر للصفعة التالية وقبل، بخنوع، شروط غورو بحذافيرها محتجًا بالمحافظة على أرواح الأبرياء، فأبرق إلى غورو ببرقية العار «رغبة مني في إنقاذ شعبي من ويلات الحرب، وآمّلا في تحقيق سلم موطد لا يتسنى إدراكه إلا بالاحتفاظ بصداقة الحلفاء ومودتهم، خصوصًا صداقة الحكومة الفرنسية، أبلغكم أنني أقبل بمطالبكم».

التوقيع : فيصل

وشرع فيصل بتنفيذ شروط الإنذار بندًا بندًا :

ـ أمر بسحب القوات العربية المتمركزة في مجدل عنجر.

ـ والقوات العربية المرابطة في عقبة الطين عند مضيق وادي القرى شمال غرب موقع ميسلون. وهذان الموقعان يشكلان خط الدفاع عن الجناح الغربي للوطن السوري.

ـ ثم شرع في مشاورات لحل الحكومة الوطنية وتشكيل حكومة جديدة، ترضي الفرنسي، برئاسة يس الهاشمي [٦٨].

لكن غورو لم يمهله فقد كان عاقدًا العزم على اقتحام دمشق بقوة السلاح ووطئها بسنابك الخيول الفرنسية، فسارع على رأس قواته، التي يقودها الجنرال

(٦٧) انطونيوس ص٤٢٢

(٦٨) سويد ص٥٣

غوبيه [٦٩] قائد فرقة المشاة الثالثة، متقدمًا من لبنان إلى دمشق مرورًا بممر ميسلون، البوابة الغربية لمدينة دمشق وكانت الفترة الزمنية التي فصلت بين الإنذار والزحف خمسة أيام فقط.

وصلت القوات الفرنسية الممر، وكانت نظامية، مدربة، مجهزة ومسلحة بأحدث الأسلحة الفتاكة من رشاشات، مدفعية، مصفحات، مجنزرات وطائرات مقاتلة. وفي مواجهتها احتشدت في الممر كتل جماهيرية مدنية غير مدربة وغير مجهزة، لا تملك في أحسن الأحوال أكثر من بنادق صدئة قديمة أكل الدهر عليها وشرب. كانوا شبه عزل لا يملكون إلا الشجاعة والإيمان.

معركة ميسلون

٢٤ تموز/ يوليو١٩٢٠

وقع الصدام المسلح بين قوتين غير متكافئتين. وكان يتقدم المدافعين العرب وزير الحربية يوسف بك العظمة يحاول جمع ما يمكنه من الجنود، فقد كان فيصل قد سرَّح الجيش.

نجح في جمع مجموعة مشاة تقدر بلوائين من الجنود المسرحين المتطوعة الذين بلغ مجموعهم ٣ آلاف فقط. وتقدم بهم إلى ممر ميسلون تحت قيادة القائمقام تحسين الفقير يعاونه شريف الحجار القائد العام. [٧٠]

نشبت المعركة الداعية في ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٠ م وقد مهَّد لها الفرنسيون بقصف مدفعي وجوي، ثم اخترقوا الصفوف بالدروع وسط مقاومة عنيدة شرسة وتساقط الشهداء، وعلى رأسهم الوزير العظمة، وكان يقود ثلة صغيرة من المقاتلين، استقبلوا الشهادة مبتسمين بصدور عارية. وخاض المحتل بدماء الشهداء. كان المدافعون يعلمون أنها معركة خاسرة، فالدم لا يواجه السيف، والعين لا تلاطم المخرز. كانوا متأكدين أنهم سوف يدفعون أرواحهم فداءً للوطن.

(٦٩) J.Goybet

(٧٠) سويد ص ٥٦-٥٧

لكنهم كانوا يعرفون أيضًا أن الواجب المقدس يملي عليهم هذه التضحية ليتركوا للأجيال اللاحقة دروس الفداء. ولتكن ميسلون مدرسة للتاريخ وللأجيال اللاحقة!

انتهت المجزرة واصطبغت أرض الممر وسفوح التلال المحيطة بدم الشهداء وانتشرت جثثهم الطاهرة في ساحة القتال.

انفتح الطريق أمام غورو لاحتلال دمشق. ولكن بقيت عقبة واحدة قد تعرقل هذا التقدم، وهي تصميم حامية دمشق العربية الدفاع حتى نقطة الدم الأخيرة، فالفرنسيون لن يعبروا إلا على جثثهم الهامدة.

ولكن المشكلة حلت بالخنوع الفيصلي التقليدي، فلقد أمر فيصل القائد العام للقوات العربية بتسريح الحامية وعودتها الفورية إلى منازلها. وانفتحت الطريق أمام غورو وزبانيته فدخلوا العاصمة دون مقاومة في اليوم التالي ٢٥ تموز/ يوليو، ووقف على قبر صلاح الدين منتفخ الأوداج ، منفوش الريش وتشدّق "ها قد عدنا يا صلاح الدين". (٧١)

وبعد ميسلون

استقر غورو في دمشق وبدأ يصدر الأوامر التي تهدف إلى تثبيت الاحتلال وتكريسه. وأصدر الأمر الأول: عزل فيصل وطرده خارج البلاد.

و انصاع فيصل وغادر دمشق في ٢٨ تموز/ يوليو ١٩٢٠م بالقطار إلى درعا. وهي المنطقة الفاصلة بين الفرنسيين في الشمال والبريطانيين في الجنوب. ولكن الفرنسيين هددوا بقصف المدينة إن لم يغادرها، فتوجه منها إلى حيفا حيث أبحر إلى إيطاليا. وبقي في عزله في فيلا على شواطئ بحيرة ماجيوري حتى كانون الأول/ نوفمبر ١٩٢٠م، حين انتقل إلى لندن بناء على دعوة تلقاها من الحكومة البريطانية ليعرض عليه تاج العراق. (٧٢)

أما معاونو الأمير وحاشيته ومؤيدوه فقد توزعوا بين مصر وفلسطين.

---

(٧١) سويد ص ٥٦-٥٧

(٧٢) انطونيوس ص٤٢٤

لم تستقر الأحوال بعد الاحتلال الفرنسي ومذبحة ميسلون، ولم تستكن الجماهير العربية. وكان لا بد من رد فعل على كل هذه الصفعات. وفعلاً شهدت الشهور المتبقية من عام النكبة ثورات وانتفاضات فاشتعلت كل من فلسطين وسوريا والعراق.

ففي سوريا انتفض الوطنيون في نواح مختلفة من البلاد، فشهدت كل من دمشق وحلب وانطاكية وشتوره مظاهرات عارمة. ولكن قوات الاحتلال قمعتها وأغرقتها بالدماء.

أما في فلسطين فبدأت الإضطرابات ردًا على الاحتلال الفرنسي لسوريا. ففي عيد الفصح هاجم العرب المقدسيون اليهود، بعد أن أفزعتهم أقوال وأفعال زعمائهم. ولم توضح أسباب الانفجار رسميًا فقد عين القائد الأعلى البريطاني لجنة تحقيق بحثت أسباب الإضطرابات وقدمت تقريرًا عن ذلك، إلا أنه ظلّ سريًا، دون نشر، عدا الاستنتاج، وهو أن أسباب الانفجار - حسب رأى اللجنة- سياسية، وأن جذوره تعود إلى المخاوف التي يشعر بها العرب على مستقبلهم.

ثورة العراق ١٩٢٠م (٧٣)

أما أخطر الثورات وأعنفها وأكثرها دموية، فكانت في العراق في الثورة المعروفة بـ" ثورة سنة العشرين". وقد سبقت أحداث ميسلون بأشهر، ففي فصل الربيع من العام المذكور انتفضت البلاد ضد بريطانيا وانتدابها ورفعت مطلب الاستقلال.

قاد الثورة زعماء "جمعية العهد" من الفرع العراقي، ممن كانوا متواجدين في دمشق بعيدًا عن متناول يد البريطانيين.

وقد واجه الكولونيل ولسرن، المندوب المدني البريطاني بالوكالة، الثورة بإجراءات قمع دموية مستعملاً سياسة القبضة الفولاذية. وسقط القتلى والجرحى من الجماهير العراقية. وشنت حملة من الاعتقالات وتدمير البيوت والنفي بالجملة والمفرق.

---

(٧٣) م.س ص٤٢٩-٤٣١

في هذه الأثناء بدأت تتسرب أنباء مؤتمر سان ريمو فصبت النفط على النيران. تأججت الثورة فرأت الحكومة عبثية سياسة القمع، فاعتمدت سياسة التحايل والكف الحريرية واستخدام اللين والمصالحة ، وصب الماء المثلى على نيران الثورة. فأعلنت في حزيران ١٩٢٠ عن نيتها إقامة/ تأسيس "مجلس تأسيسي" بانتخابات عامة. ولكن هذا النفاق البريطاني لم ينطل على العراقيين، فلم يقبلوا بالرشوة المفضوحة، واستمرت الثورة وبدأت حلقتها في الاتساع بين المسلمين السنة في البداية، ثم لتعم الشيعة الذين أعلنوها حربًا مقدسة في المرحلة التالية.

وتفجرت الثورة في كل من النجف، كربلاء، الحلة والكوفة وتبعتها مناطق الفرات الأدنى والفرات الأوسط، ثم عمت كافة أنحاء البلاد . وقد اشترك فيها كافة طبقات المجتمع من حضر وريف وبدو وانضم إليها رؤساء عشائر وقبائل وضباط سابقون في الجيش التركي والعربي. وفقد الإنجليز سيطرتهم إلا على المدن الثلاثة: الموصل في الشمال، وبغداد في الوسط، والبصرة في الجنوب.

في أوائل تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٠م وصل بغداد السير برسي كوكس مندوبًا ساميًا جديدًا. وقد رأى إجهاض الثورة بمشروع جديد - قديم : يتلخص في تشكيل هيئة عراقية منتخبة تعد قانونًا أساسيًا (دستور ز.ف). وقد نجح في تشكيل هيئة حكم عربية مؤقتة باسم "مجلس الدولة" يتألف من عراقيين بمنصب وزراء بالاسم فقط، وإلى جانبهم مستشارون بريطانيون هم الحكام الحقيقيون. أما السلطة العليا فكانت بيد المندوب السامي البريطاني.

وهدأت الثورة بعد أن سقط فيها حوالي ألف شهيد و٦ آلاف جريح من العرب. بالإضافة إلى عشرات الآلاف من المعتقلين والمنفيين والخسائر المادية الجسيمة. أما خسائر البريطانيين فبلغت ٤٠٠ بين قتيل وجريح.

وكانت أبعاد الثورة خطيرة جدًا وانعكست سلبًا على الحكومة البريطانية، وخاصة على خزينتها فقد تكلفت ٤٠ مليون إسترليني. وهو مبلغ خيالي في تلك الأيام ويوازي ٣٠٠% مما صرفته تلك الخزينة على الشريف في ثورته العربية.

أشرفت الخزينة البريطانية على الإفلاس، وكان لا مفر من تقليص العجز المالي بتخفيض المصروفات والنفقات وتقليص الميزانية. فاتخذت المالية الإجراء التالي: قام وزير المستعمرات ونستون تشرتشل بالدعوة إلى عقد مؤتمر في

القاهرة في آذار / مارس ١٩٢١م لإيجاد الوسيلة الكفيلة بمعالجة الأوضاع الملتهبة المتدهورة في الوطن العربي كوسيلة لخفض المصروفات.

عقد المؤتمر الذي أطلق عليه "مؤتمر القاهرة" ، واتخذ قرارًا بإجراء تغيير جذري في السياسة البريطانية في المناطق المحتلة جنوبًا، وفي طرق الإدارة والحكم .

مؤتمر القاهرة

١٢ آذار / مارس ١٩١٢م

أخذت الحكومة البريطانية تحضر لمؤتمر القاهرة الذي تأملت أن يخلصها من ورطتها في العالم العربي، خصوصًا في العراق. قامت بدعوة فيصل من منفاه على ضفاف بحيرة ماجيوري الإيطالية إلى لندن حيث أجرى مع السير ونستون تشرتشل محادثات حضرها لورنس، الذي كان يعمل حينذاك مستشارًا شخصيًا لوزير الخارجية البريطاني للشؤون العربية. وكانت الحكومة البريطانية قد أقرت بعد الحرب؛ ومن أجل إتمام التسويات، إنشاء دائرة جديدة هي "دائرة الشرق الأوسط" في وزارة المستعمرات التي دعا وزيرها إلى عقد مؤتمر القاهرة.

تمخضت محادثات تشرشل- فيصل في لندن عن تفاهم يقضي بتسليم حكومة بريطانيا إدارة العراق إلى حكومة عربية. وهذه بدورها تستعمل نفوذها لانتخاب فيصل ملكًا على العراق، بشرط أن يتعهد بإبرام تحالف مع بريطانيا، يحل محل الانتداب.

بعد ذلك توجه تشرشل إلى القاهرة، مزودًا بتفاهمه مع فيصل، لعقد مؤتمر القاهرة. وكان أبرز المؤتمرين:

تشرشل رئيسًا، ومعه مستشرقون وخبراء مثل لورنس وكلايتون والسير بيرسي كركس، المندوب السامي البريطاني على العراق، والسير هربرت صموئيل المندوب السامي البريطاني على فلسطين.(٧٤)

وقد تمخض الاجتماع عن القرارات التالية:

---

(٧٤) Lenczowski p96

١. تنفيذ اتفاق تشرشل - فيصل، بما فيه استبدال الانتداب البريطاني على العراق بمعاهدة تحالف، بعد أن يقسم فيصل قسم العرش.

٢. الطلب من فيصل التوجه إلى العراق مرشحًا لعرشها بعد أن ينادى به ملكًا في استفتاء شعبي.

وكانت الأهداف الحقيقية للحكومة من وراء هذا التحرك:

أ- تحويل مشاكل العراق لحكم عربي يتكفل بقمع الثورة ويعيد الهدوء والأمن للمحتل البريطاني، فلا يقمع الثورة العربية في العراق إلا ملك عربي . ولا يفل الحديد إلا الحديد .

ب- التخلص من النفقات الباهظة التي تنوء بها الخزينة البريطانية نتيجة للثورة والتواجد العسكري البريطاني الكثيف. (٧٥)

وقد أضافت الحكومة هدفا ثالثًا هو:

ج- المحافظة على العهد والوفاء بالمواثيق التي قطعتها بريطانيا على نفسها للبيت الهاشمي. وبكلمات أخرى كما قال البريطانيون "الجمع بين الاقتصاد والشرف".

بعد انفضاض المؤتمر توجه تشرشل إلى القدس، فوصلها في ٢٤ آذار/ مارس ١٩٢١م، وكان مطمئنًا أنه قد نجح في تحقيق الهدفين لبريطانيا:

١. تقليص النفقات الحكومية وإنقاذ الخزينة البريطانية من الإفلاس.

٢. قمع الثورة العراقية بأيد ملكية عربية.

ثم تحول لتحقيق الهدفين الأخيرين المتبقيين:

١- تصريح بلفور.

٢- حل مشكلة الأمير عبد الله، ومشكلة مصير منطقة شرقي الأردن.

بالنسبة للمشكلة الأولى كان الحل المثالي تحويل فلسطين إلى انتداب بريطاني يأخذ على عاتقه إقامة الوطن القومي اليهودي.

وباشر تشرشل بحل المشكلة الثانية:

---

(٧٥) Ibid p92-93

الأمير عبد الله وشرقي الأردن

تلخصت المشكلة المذكورة بما يلي :

أمير، هو عبد الله ابن الشريف حسين، يبحث عن دور وتاج في منطقة هي "المحتلة شرقا" (شرقي الأردن) التي تبحث عن ملك.

فهنا أمير يبحث عن منطقة جغرافية يتوج عليها ملكًا، وهنا منطقة جغرافية تبحث عن ملك. وكان الأمير قد ظهر فجأة في جنوبي شرق الأردن مع عدد من الأتباع ورجال القبائل بحجة الانتقام من الفرنسيين الذين ألحقوا بشقيقه فيصل الذل والهوان.

أخذ عبد الله يهدد بمهاجمة الفرنسيين في سوريا بعد أن نجح في عقد هدنة مع خصومه "الوهابيين" في الجزيرة العربية وبدأ يتقدم شمالاً. وكان القوميون السوريون قد دعوه لتحرير بلادهم من النير الفرنسي، فقبل العرض وانطلق من مكة إلى المدينة المنورة في قافلة إبل في ٢٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٠. يرافقه بين ٥٠٠-١٠٠٠ مقاتل بدوي ويحمل في جعبته ٩٠ ألف ليرة إسترلينية: ٧٠ ألف استولى عليها من دائرة جمارك جدة، و ٢٠ ألفًا اقترضها من تجار مكة والمدينة. من المدينة انطلق عبد الله ومرافقوه إلى معان بالقطار فدخلها في ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر، وهناك انتظر طيلة ٣ اشهر تحت المظلة البريطانية. وكانت هناك ثلاث تيارات سياسية بريطانية متضاربة بشأن التعامل مع شرقي الأردن.

١- تيار وزارة الخارجية وينادي بعدم الالتزام بأي تعهد.

٢- تيار ينادي بضم شرقي الأردن إلى فلسطين. وقد دعا إلى هذا التيار الصهيوني السير هربرت صموئيل، المندوب السامي لفلسطين، وذلك تمهيدًا لشملها بالتصريح.

٣- وتيار وزارة الحربية، ويقول باستبعاد استخدام وحدات عسكرية لاحتلال الأردن والمكوث فيها.

وقد تم الاتفاق بين التيارات المتصارعة على حل وسط: تعيين ضباط سياسيين (قوميسارية) من القوات المسلحة البريطانية في المدن ليساعدوا على تنظيم حكم ذاتي وعدم إلحاق شرقي الأردن بفلسطين.

وهكذا أصبحت البلاد تحت إدارة عدد من الضباط العسكريين البريطانيين، وظيفتهم تأمين النفوذ البريطاني في البلاد.

تقدم الأمير عبد الله، مع قواته من معان، فوصل عمان في آذار/ مارس ١٩٢١م وكان تقدمه بطيئًا جدًا، ويظهر أن التقدم البطيء كان متعمدًا. فكان الأمير يتوقف بين المرحلة والأخرى، وقد مكث منتظرًا في عمان طيلة ٣ أشهر، الأمر الذي يؤكد عدم صحة نيته في الانتقام لأخيه، بل يشير إلى أن ذلك كان أقرب إلى تمثيلية هدفها الابتزاز للحصول على دور ووظيفة. (٧٦)

وفي حقيقة الأمر كانت بريطانيا تعاني من مشكلة عويصة بالنسبة للمناطق المحتلة شرقا، فشرقي الأردن، مخصصة لحكم الأمير فيصل بموجب سايكس بيكو، وهي غير واقعة ضمن، المطامع الفرنسية. وعندما طرد فيصل من دمشق بقيت المنطقة المذكورة تعيش في فراغ وتنتظر الحاكم. أما فرنسا فراغبة عن ذلك القطر، ولم يبق لبريطانيا إلا أن تضمها إلى منطقة انتدابها على فلسطين.

درس تشرشل الوضع في شرق الأردن فوجده غير طبيعي، فالبلاد تفتقر إلى من يحكمها ويتولى أمورها. وانتهز تشرشل الفرصة النادرة، فدعا الأمير عبد الله إلى القدس بحجة التشاور. وفي القدس تم اللقاء: تشرشل- عبد الله - لورنس. استمع تشرشل إلى طلب عبد الله: دولة مستقلة في الأردن وفلسطين. فرفض الطلب، لأنه يتعارض مع تصريح بلفور، ففلسطين موعودة للحركة الصهيونية، لا لفيصل ولا غيره. وهنا اقترح عبدالله ضم شرق الأردن للعراق.وقوبل الطلب بالرفض مرة أخرى.

واستمرت المفاوضات وانتهت إلى اتفاق عجيب:

تستغل بريطانيا نفوذها لدى فرنسا لمنح الأمير عبد الله في الأردن إمارة له بشروط:

أ- أن يبقى فيها ولا يغادرها بتاتًا، خاصة باتجاه سوريا.

ب- يتعهد بقمع أي تحرك عدائي قد يقوم به سوريون معادون لفرنسا.

ج- مصالحة نهائية مع فرنسا.

---

(٧٦) ولسون ص٨٢

ونصت الاتفاقية أن يستمر هذا الترتيب طيلة ستة أشهر يتلقى الأمير خلالها دفعات مالية من بريطانيا لإقامة جيش عربي عصري، تكون وظيفته مقصورة على المحافظة على النظام والأمن في شرقي الأردن.

وهكذا تشكلت الصورة النهائية للمنطقة: انتداب فرنسي على لبنان وسوريا، وبريطاني على فلسطين، ولكن انتزعت دولة جديدة من المحتلة شرقاً أطلق عليها اسم "شرقي الأردن" ووضعت تحت السيطرة البريطانية. وبذلك تم فصل ضفتي نهر الأردن الغربية، وهي فلسطين، عن الشرقية، وهي شرقي الغردن.

نجح تشرشل الداهية بتحقيق أهداف بريطانيا الاستعمارية دون أن يضحي بأية مصلحة بريطانية أو فرنسية.

في أوائل نيسان أبريل١٩٢٢ تشكلت أول حكومة أردنية في "إمارة شرقي الأردن". وكان رئيسها رشيد طليع.

وفي٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢١ سافر الأمير عبد الله إلى القدس ليوقع معاهدة بريطانية نصت على التالي:

١. انتداب بريطاني على فلسطين.
٢. انتداب فرنسي على سوريا.
٣. اعتراف بريطاني بشرقي الأردن إمارة، أميرها عبد الله، بالحدود التالية:
   أ- من الجنوب العقبة.
   ب- من الغرب وادي عربة.
   ج-من الشمال الحدود السورية.
   د- من الشرق الحدود العراقية والحدود السورية.
٤. تعهد بإقامة جيش عربي بتدريب وتسليح وتمويل بريطاني.
٥. الاعتراف بفيصل ملكًا على العراق
٦. مساعدات مالية سنوية للخزينة الأردنية.

وأصبح عبد الله أميرًا على شرقي الأردن، وتخلى عن سوريا ونصرة الشقيق، وقبل بخدمة البريطانيين.

وتقول ولسرن إن ما فعله تشرشل في القدس لم يكن في حقيقة الأمر، إلا عملية خداع عبدالله وإغرائه بالبقاء في عمان أميرًا على شرقي الأردن من خلال الوعد بتسوية لم تتحقق أبدًا.

وبهذا الاتفاق تم نهائيا تقسيم الوطن العربي وتمزيق سوريا الطبيعية وتقطيع الروابط المنسوجة عبر القرون على مختلف الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تحت سقف الإمبراطورية العثمانية. (٧٧)

توجه تشرشل ليحصل على موافقة الحكومة البريطانية على الترتيبات مع عبدالله. فلم تتردد الحكومة في الموافقة لأن الخطة لا تستدعي استخدام قوات بريطانية. كما أنها لا تكلف الخزينة البريطانية أعباء مالية لا تتحملها.

أما عبد الله فاكتفى بتعيينه حاكمًا في ظل السلطة العليا للبريطانيين مجردًا من أية سيادة واستقلال. وكانت مساحة التحرك الوحيدة التي تركوها له: حرية الخطابة الهامشية، شأنه في ذلك شأن أي عضو برلمان مؤيد للحكومة، مع الحرص على إبقائه جالسًا على كرسي متهاو مهزوز. كذلك وافقت الحكومة على تخصيص مرتب سنوي للأمير، قدره خمسة آلاف ليرة إسترلينية.

ولعل أهم ما في هذه الاتفاقية كان فصل شرقي الأردن عن فلسطين.

وانصرف عبد الله إلى إثبات كفاءته خلال مدة التجربة (٦ أشهر) الممنوحة له، لأنه بنجاحه يمكن تمديدها إلى ما شاء الله.

وعاد تشرشل إلى لندن، وعبد الله إلى عمان (وكانت مدينة صغيرة يتراوح عدد سكانها ٢٠٠ـ٣٠٠ ألف نسمة ممتدة على طول قاع ضيق، بينما بيوتها معلقة على سفر تل ومعظمها من طبقة واحدة. وأخذت المدينة تتحول إلى مركز إداري ومركز خدمات بعد أن كانت في الأساس قرية سكنها الشركس في القرن ١٩. ومع قدوم الأمير سارعت الأقلية الشركسية بالترحيب به والقبول بحمايته لها. ونزل عبد الله ضيفًا على منزل زعيم شركسي(٧٨) بارز هو سعيد المفتي. وكان قد نزل قبل ذلك في بيت عائلة أبو جابر المسيحية في مدينة السلط فأراد أن

(٧٧) م.س.ص ١٠٧-١٠٨ ، ملاحظة رقم ٤ ص٣٨٥

(٧٨) م.س.ص ١٠٧-١٠٨ ، ملاحظة رقم ٤ ص٣٨٥

يستحم بعد رحلته الطويلة من معان، فُدعي إلى منزل سعيد المفتي لقربه من نبع ماء. وكان عبد الله مصابا باليرقان فأصيب المفتي بالعدوى. وما لبث عبد الله أن أعجب بابنة سعيد المفتي فاضطرت عائلة المفتي إلى الانتقال إلى بيت جديد في عمان. واخذ الأمير ينتقل من بيت لآخر في البلقاء. ثم انتقل إلى سكن المضارب في مأدبا.. إلى أن بنى قصره أخيرًا في عمان ومنها مد باعه إلى "شونه نمرين" (الشونة الشمالية) في غور الأردن فبنى بيتًا ليستعمله مشتى.

ومن الطريف ما يرويه ايمرسون، وهو ضابط ارتباط بين القدس وعمان، انه في إحدى زياراته للأمير. دخل عليه وهو يلعب لعبة الغميضة وشد الحبل، الذنب والحملان وما إليها، مع حاشيته وضيوفه من شيوخ القبائل. (٧٩)

وأصبحت عمان العاصمة بدل السلط. وبدأ الأمير ينفذ التزاماته وكان أولها إقصاء الرموز الوطنية العربية من القوميين العرب المناهضين للحكم الفرنسي وللمشاريع البريطانية والصهيونية. فبعد الزيارة التي قام بها الأمير إلى لندن في ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٢ . استسلم للإملاءات البريطانية ورضخ لأمر الطلاق بينه وبين القوميين والوطنيين العرب. ورضي بان يكون دمية في يد فيلبي الحاكم الحقيقي للبلاد. وقد شرع يخفق علاقاته مع الرموز الوطنية وانتهى إلى موجة كبيرة من الإقصاءات والإبعاد. وكان أبرز الرموز الوطنية المبعدة اثنان: الأمير عادل أرسلان السكرتير الأول للأمير، ونبيه العظمة قائد الشرطة.

وقبل عودة الأمير من زيارته إلى لندن تكرمت بريطانيا بمبلغ ١٥٠ ألف إسترلينية للسنة المالية الجديدة المبتدئة في أول نيسان ١٩٢٣. وقد تم ربط المساعدة بشروط مالية وسياسية قاسية تضمنت شروط الصرف وشروطاً أساسية.

أما الشروط المالية المتعلقة بوجوه الصرف فاقتصرت على:

- القوة الاحتياطية البدوية.
- نفقات الموظفين البريطانيين.
- إصلاح النظام الضريبي.
- ميزانية البلاط الهاشمي.

(٧٩) م.س ص ١٠٨ (ملاحظة رقم٥ ص٣٨٥/٧٠
Confidential Report to Aramson Abramson 20 sep . 1924

أما الشروط السياسية فاشترطت: إنشاء قوات الأمن: قوة الاحتياط ، برئاسة بيك، وقوة الشرطة والدرك. يجري توحيدهما في قوة واحدة أطلق عليها لاحقًا "الفيلق الأردني" . وعين مخلوب باشا قائداً عامًا.

وقد صدر من لندن بيان بريطاني مع عودة الأمير اعترفت بموجبه حكومة جلالة الملك بحكومة مستقلة في شرقي الأردن تحت حكم الأمير عبد الله ابن الشريف حسين.

وحال عودته من لندن زار عمان رئيس القسم السياسي في حكومة الانتداب الفرنسي، وهو أكثر الأشخاص المكروهين، ونسق مع الأمير قوائم الطرد والإبعاد بحق من بقي من الوطنيين القوميين السوريين واللبنانيين والفلسطينيين .(٨٠)

وهكذا قبض الهاشميون في نهاية المطاف الثمن!

- فيصل ملكًا على العراق.
- عبد الله أميرًا على شرقي الأردن.
- و الشريف حسين ملكًا على الحجاز.(٨١)

نهاية الهاشميين في الحجاز

خلال الحرب أعلن الشريف حسين نفسه ملكًا على بلاد العرب، لكن بريطانيا وفرنسا لم تعترفا به إلا ملكًا على المجان فقط.

وقد كانت جزيرة العرب مقسمة بين ثلاث قوى متحاربة:

- الهاشميون في الحجاز،غرب شبه جزيرة العرب.
- ابن رشيد في شمر وسط شبه جزيرة العرب.
- الوهابيون في نجد في شرق شبه جزيرة العرب.

وقد انتهت مرحلة من الصراع بفوز عبد العزيز أل سعود زعيم الحركة الوهابية على خصمه ابن رشيد ليبقى في الساحة الهاشميون والوهابيون.

---

(٨٠) ولسون ص١٣٠-١٣٥

(٨١) م.س ص١٤٨

في نهاية أب/ أغسطس ١٩٢٢م وصل مكة لورنس يحمل وثيقة من الحكومة البريطانية تتضمن الاعتراف بالحسين ونسله من بعده ملوكًا على المجان في مملكة عربية هاشمية، شريطة موافقته على تسويات دول الوفاق لأوضاع سوريا والعراق.

وكانت إحدى النقاط التي عارضها الحسين تصريح بلفور، ولكن بعد أخذ ورد وافق على إضافة جملة على الفقرة الأصلية التي تنص على ألا يضر ذلك (الوطن القومي اليهودي ز.ف) بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية، وهنا أضاف الحسين كلمة والسياسية.

اصطدمت القوتان العربيتان المتبقيتان في جزيرة العرب، الهاشميون والوهابيون وقد بادر ابن سعود الوهابي بالزحف من نجد باتجاه الحجاز. فاستولى أول الأمر على مدينة الطائف في ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٤م. وقد تيقن الشريف أنه القوة الهابطة، وخصمه ابن سعود النجم الصاعد فتنازل عن الحجاز لابنه البكر علي. وبعد عشرة أيام سقطت مكة بيد الوهابيين، فتوجه إلى جدة، وظل صامدًا بها طوال سنة كاملة قبل أن يحذو حذو والده ويتنازل هو أيضًا عن العرش.

التجأ الشريف إلى ولده عبد الله في شرقي الأردن، لكن الإنجليز رفضوا دخوله الأراضي الأردنية، وأمروه بالبقاء معزولاً وحيدًا في العقبة ريثما يتم اتخاذ قرار حكومي بريطاني بشأنه.

ولما حاول الشريف الالتجاء إلى العراق عند ولده فيصل رفض طلبه بضغط إنجليزي. أما الوهابيون فقد تحفظوا من بقائه في العقبة على حدودهم وهددوا بمهاجمتها إن بقي الشريف فيها. وقد استجاب الإنجليز للطلب السعودي الوهابي حفاظًا على علاقاتهم الودية ومصالحهم النفطية فأمروا الشريف الشيخ بمغادرة البلاد، وأمهلوه ٣أسابيع، قاموا بترحيله بعدها، على ظهر باخرة إلى جزيرة قبرص عبر قناة السويس. وقد وصل قبرص في الأول من حزيران / يونيو ١٩٢٥ وهناك عاش مع زوجه الثانية التركية (أم زيد) وبناتها إلى أن أصيب بمرض خطير.

في سنة ١٩٣٠م سمح له الإنجليز، وهو على فراش الموت، بالتوجه إلى عمان ليكون قرب ولديه عبد الله وفيصل. وصمد بعد عودته إلى الأردن ٦ أشهر، وهو

لا يكاد يتذوق الزاد أو ينبس ببنت شفة، إلى أن توفي بنوبة قلبية قاتلة في ١٤ حزيران / يونيو ١٩٣١م وهو في الثامنة والسبعين من العمر ودفن في الحرم الشريف في القدس في مسجد صفير متاخم للمسجد الأقصى. وقد تم فتح نافذة على الحرم لجعل الضريح متصلاً بالحوزة المقدسة. (٨٢)

ويروي انطونيوس أنه قابل الشريف وهو في المنفى في ربيع ١٩٢٢ فيصفه «أنه أصبح الآن شيخًا مسنًا مريضًا لا يقلقه شيء إلا لهفته على توضيح ظروفه. وفي هذه المرارة، التي كان قد جرعها ، كان يعزو جميع مصائبه إلى نقض العهود التي قطعها السيد هنري مكماهون ويكيل المديح لكتشنر، ولم يكن قد قابله قط، ويترحم عليه. وتحدث عن لويد جورج بحدة، كأنما هو بطل الشر في القصة، ولم يقلل من حدة نقده أنه صاغه بالأسلوب الحميدي المهذب الموشى بالزخارف الكلامية المضحكة».

قال: «الإنجليز يا ولدي قوم شرفاء في أقوالهم وفي أفعالهم في السراء والضراء. أقول: شرفاء، ما عدا صاحب السعادة الموقر الهمام لويد جورج فهو أشبه بالبهلوان أو الثعلب، أقول الثعلب حاشا مقامك!! رحم الله صاحب السعادة كتشنر». (٨٣)

أما عبد الله فقد استقر أميرًا، فملكًا في شرقي الأردن، وتزوج من امرأتين: الأولى شريفة مصباح ابنة عمه الشريف ناصر، وهي والدة طلال(ملك الأردن لاحقًا) والثانية تركية من أصل تتري كانت تعمل خادمة في بيت الشريف في اسطنبول. وحين عاد إلى الحجاز عادت معه وتزوجت منه ١٩١٢م وأنجبت له نايف وابنتين: مقبولة ومنيرة. وتقول ولسون إنه بنى له بيتًا في الأغوار يشتّي فيه كل سنة حتى لا تتمكن زوجتاه من اللحاق به. وكان حلم عبد الله عرش سوريا، وظل ذلك الأمر هاجسه طوال حياته ولازمه حتى القبر. (٨٤)

---

(٨٢) م.س ص١٥٢

(٨٣) م.س ص٢٧٥

(٨٤) م.س ص٨٢٠ ، (ملاحظة رقم ٢٩ ٣٨٨٠ أغسطس ١٩٢١) Abramson 6426 Dee dos

ويقول ابرمسون إياه إنه طالما سمع الأمير عبد الله يردد: لقد شبعت حتى التخمة من هذه البادية المعروفة باسم شرقي الأردن.

أما الأمير فيصل ملك العراق فقد توفي في شهر أيلول / سبتمبر سنة ١٩٣٣م في فندق في سويسرا إثر نوبة قلبية. وقد تم نقل جثمانه من سويسرا إلى العراق عن طريق فلسطين.

الفصل الخامس عشر

فلسطين في السنوات الأولى بعد الاحتلال البريطاني ١٩١٨-١٩٢٢م

" ذهب الذين أحبهم   وبقيت مثل السيف فرداً "

فلسطين وحيدة ، يتيمة ، عارية ، تواجه مصيرها المرير ومستقبلها المظلم

الحكم العسكري البريطاني

تمخضت الحرب العالمية الأولى عن تحولات جذرية في المبنى الجغرافي- السياسي لمنطقة الشرق الأوسط (بلاد الشام والعراق) وقد طال فلسطين منها :

١ـ احتلال بريطاني مباشر، وإخضاع البلاد لحكم عسكري يترأس إدارته الميجور جنرال سير أرثور ماني يساعده مستشاره الجنرال كلايتون.

٢ـ الشروع بتنفيذ الاتفاقيات السرية خصوصًا :

- اتفاقية سايكس بيكو القاضية بتمزيق الوطن العربي وتفتيته.
- تصريح بلفور القاضي بتحويل فلسطين العربية وطنًا قوميًا للشعب اليهودي.

أما موقف الحكومة العسكرية فكان واضحًا وحازمًا، فقد ألزمت نفسها بالمحافظة على «الوضع الراهن » وتجنب إحداث أي تغيير في المنطقة المحتلة، الأمر الذي يحمل أبعادًا خطيرة، وهذا يعني ميدانيًا إسقاط تصريح بلفور وإلغاء الوطن القومي اليهودي. وكانت دوافع الحكم العسكري لهذه السياسة :

- التقيد بالأنظمة الدولية والقوانين المتبعة عالميًا التي تضبط أمور البلاد المحتلة. فلا يجوز أن يقوم أي احتلال بتغيير وضع قائم فالقوانين الدولية تلزمه بالمحافظة على الوضع الراهن.
- الخشية من ردود فعل عربية عنيفة قد تصل إلى حد الثورة، الأمر الذي يكلف الاحتلال، والحركة الصهيونية ثمنًا باهظًا. وقد تنبأ بعض كبار المسئولين البريطانيين أن انحياز بريطانيا إلى جانب الحركة الصهيونية سوف يثير العرب ويدفعهم إلى مواجهة بريطانيا والحركة الصهيونية. الأمر الذي قد يؤدي بالمشروع الصهيوني إلى الدمار.

وبطبيعة الحال أثار هذا النهج البريطاني في عدم إحداث أي تغيير في أوضاع البلاد حفيظة الحركة الصهيونية، فاتهمت الحكم العسكري «باللاسامية ومعاداة اليهود». والعمل على تعطيل تصريح بلفور.

وقد عزت الحركة «كراهية الحكم العسكري لليهود» إلى أن معظم هؤلاء اليهود هم من المهاجرين الروس الشيوعيين.

أما سلطات الحكم العسكري فلم تقف مكتوفة اليدين إزاء هذا الهجوم الصهيوني فبادرت إلى شن هجوم إعلامي مضاد. وقام الجنرال ماني باتهام اليهود المقدسيين بتربية أبنائهم في مدارسهم اليهودية على البطالة والدعة، والتهرب من القيام بأي عمل منتج، فهم ينتجون أجيالا من الطفيليين العاطلين البطالين القذرين. ورجالهم ينجبون الكسالى المتبطلين ونساؤهم لا يلدن إلا الزانيات [١]

وأضاف الجنرال أن اليهود هم فئة سكانية أكثر انحطاطًا من الناحيتين، والعقلية والأخلاقية، من السكان المحليين العرب الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين. ولم يتورع ذلك القائد عن توجيه النقد للفلاح العربي الفلسطيني، فوصفه بالجلف الجاهل القذر المفلس. وقد زاد مستشارة كلايتون على ذلك فقارن بين الفلاحين والحضر والبدو وقال «لا يمكن مقارنة الفلاحين من عرب فلسطين بأولئك العرب الحقيقيين الإقحاح سكان الصحراء، ولا بسكان المدن من الحضر في سوريا وفي فلسطين».

مع ذلك ألزم رجال الحكم العسكري البريطاني في فلسطين أنفسهم بحماية العرب من اعتداءات الحركة الصهيونية، فقاوموا كل محاولة ترمي إلى قمع الأغلبية السكانية العربية لحساب الأقلية اليهودية للسببين المذكورين آنفًا.

وقد كان هؤلاء المسئولون مقتنعين أيضًا أن تعهدات حكومتهم البريطانية، بموجب تصريح بلفور، تناقض تعهداتها للعرب بموجب مراسلات الشريف مكماهون. وقد كتب الجنرال ماني للورد كرزون في نيسان / أبريل ١٩١٩م مبررًا سياسته في المحافظة على الوضع الراهن.

«أن الفلسطينيين مصممون على الاحتفاظ بفلسطينهم عربية، وليس لديهم آية نية لفتح بوابات بلادهم في وجه هجرة يهودية من شرق أوروبا ووسطها.

بالإضافة إلى ذلك فإن تصريح بلفور سوف يورط بريطانيا باستخدام السلاح ضد الأغلبية الساحقة من السكان» [٢].

---

(١) מוריס ע" 19

(٢) מוריס ע" 19

لذلك سارع الحكم العسكري باتخاذ إجراء بحق أهم بند من بنود المشروع الصهيوني، وهو الهجرة اليهودية. فأصدر الأوامر المشددة بتقييدها وتحديدها، وشدد على تطبيق الأوامر بصرامة ودقة حتى أنه لم يسمح بدخول فلسطين لأكثر من ٤ـ ٥ آلاف يهودي خلال سنتي حكمه ١٩٢٠ ـ ١٩٢٢ م.

هنا لابد من إضافة عاملين موضوعين ساهما في تقليص الهجرة اليهودية هما:

أ- فشل الحركة الصهيونية في تجنيد الأموال اللازمة لتمويل الهجرة والاستيطان

ب- المقاومة العربية التي بدأت سلمية كلامية احتجاجية، ثم تطورت إلى مقاومة ناشطة فعالة.

وقد تجاذب بريطانيا في الفترة المذكورة نهجان متناقضان يعكسان تيارين سياسيين متناحرين:

- النهج السياسي المركزي في لندن المتعاطف مع الحركة الصهيونية المنحاز إليها والداعي إلى تطبيق برنامجها.

وبهذا الصدد أصدرت الحكومة تعهدًا سياسيًا قالت فيه : إنها قد التزمت بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وهو هدف قد ارتضته وترى نفسها مقيدة بنصوص الانتداب التي تهدف أيضًا إلى المحافظة على السكان الوطنيين. وكان لهذا البيان وقع سيئ في نفوس العرب في فلسطين وفي سائر الأقطار العربية، وقد أدركوا المأزق الذي أوقعتهم به بريطانيا وإنها تنوي تسليم البلاد لليهود [٣].

- والنهج العسكري الميداني في فلسطين المتحفظ من الحركة، والداعي إلى الالتزام بسياسة الوضع الراهن.

وكان لابد من حدوث تصادم بين نهجي السياسة المذكورين. وقد كالت الحركة الصهيونية التهم العديدة للحكم العسكري وأهمها :

- تحريض السكان العرب على مقاومة اليشوف ومهاجمته.
- تشجيع الجمعيات القومية الإسلامية ـ المسيحية المناهضة للصهيونية.
- المشاركة مع الجمعيات المذكورة في تنظيم مظاهرة عربية في القدس في ٢٧شباط/فبراير ١٩٢٠م، ومظاهرة ٨آذار/ مارس من السنة ذاتها. وكان من

---

(٣) الحولي ص٤٢

قادة هذه المظاهرة، التي اشترك فيها أكثر من ألفي نسمة، موسى كاظم الحسيني رئيس بلدية القدس.

وقد أصبحت الجمعيات المذكورة العمود الفقري للجان القومية اللاحقة التي مثّلت فلسطين في المؤتمر الوطني السوري الأول. وقد تكررت اجتماعات الجمعية المذكورة في مؤتمرات فلسطينية عقدت في :

حيفا في كانون الأول / ديسمبر ١٩٢٠م.

وفي القدس في ٢١ تموز / يوليو ١٩٢١م.

وفي نابلس في ١٩٢٢م.

وفي يافا في حزيران يونيو ١٩٢٣م.

وفي القدس ثانية في حزيران / يونيو ١٩١٨م.

وقد تمخض عن هذه الاجتماعات الميثاق الوطني الفلسطيني الذي كان من أهم بنوده المطالبة :

- إيقاف الهجرة اليهودية إلى فلسطين.
- الحيلولة دون انتقال الأراضي من ملكية عربية إلى ملكية يهودية.
- الاستقلال القومي.

على كل حال كان لابد من حسم الصراع بين التيارين البريطانيين المذكورين السياسي والعسكري ولا مفر من انتصار تيار وهزيمة آخر. وانتهى الأمر برجحان كفة التيار السياسي اللندني، فهو المرجع الأخير وصاحب القول الفصل في النظام السياسي البريطاني، فالقرار السياسي يعود إلى السلطة السياسية الحكومية فقط، وما على الجيش والقوات المسلحة إلا السمع والطاعة. فألغى الحكم العسكري في سنة ١٩٢٠م واستبدل بحكم مدني يترأسه مندوب سام، هو السي هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني.

سارع صموئيل حال توليه منصبه الجديد إلى انتهاج سياسة تدور في فلك السياسي البريطاني اللندني وتتطابق مع مطالب الحركة الصهيونية العالمية. وكان لابد من رد فعل عربي فلسطيني وبالسرعة الممكنة.

التحرك العربي الفلسطيني وتصعيد المقاومة

تنبه العرب الفلسطينيون إلى مخاطر تصريح بلفور فبدأت معارضة عربية فلسطينية. تداعت القيادات التقليدية والنخب الفكرية لتشكيل معارضة، فتشكلت «اللجان الإسلامية المسيحية» و«النوادي الثقافية» في أمهات المدن الفلسطينية: القدس، يافا، حيفا، الرملة، نابلس وغيرها، وأخذت على عاتقها الدفاع عن عروبة فلسطين والتصدي للبرنامج الصهيوني. ولكنها آثرت التحرك بروية وحذر، خاصّة وأن شمال فلسطين كان لا يزال تحت السيادة التركية ورحى الحرب لا تزال دائرة في الوقت ذاته تصاعد النشاط الصهيوني، خاصّة بعد مظاهرة الذكرى السنوية الأولى لتصريح بلفور(٢ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٨م) [٤] ويذكر أن عدد ذلك اليشوف كان لا يزال محدودًا لا يزيد عن ٦٠ ألف نسمة. إلا أنه أخذ يخطط للتحول التدريجي من أقلية مستضعفة إلى أغلبية حاكمة الأمر الذي دعا مائة من الأعيان العرب المسلمين والمسيحيين، أبرزهم موسى كاظم الحسيني رئيس بلدية القدس، إلى تقديم عريضة احتجاج إلى ستورز ورد فيها : «شاهدنا بالأمس حشدًا من اليهود يرفعون الرايات ويملأون ساحات المدينة ويهتفون بشعارات تمس المشاعر وتجرح الأحاسيس أنهم يدعون أن فلسطين، التي هي أقدس أقداسنا وضريح أسلافنا، والتي سكناها منذ أجيال وأجيال، هي وطنهم القومي. إننا نعلن على رؤوس الأشهاد أننا على أهبة الاستعداد أن نفديها بدمائنا وأرواحنا».

وقد قامت «الجمعية الإسلامية- المسيحية» في مدينة يافا بتطبير عرائض احتجاج واعتراض واستنكار. وسرعان ما تشكلت جمعيات عربية تعهدت بالشروع بكفاح المسلح، فتشكلت في مدينة يافا سنة ١٩١٩م منظمة سرية أطلقت على نفسها «الكف السوداء» [٥]. وهدفها «سحق البزاقة اليهودية وهي لما تزل في المهد».

---

(٤) الخولي ص٩٨

(٥) الخولي ص٩٨

وتتابع افتتاح فروع للجمعيات الإسلامية المسيحية. تضم جميع التنظيمات المناهضة للصهيونية. وقد توحدت في ١٩١٩م في تنظيم واحد وتحت سقف واحد هو «اللجنة الوطنية الفلسطينية» وبرنامجها :

- فلسطين جزء لا يتجزأ من سوريا.
- استقلال سوريا الكبرى.

وشرعت الجمعيات المذكورة تغرق سلطات الاحتلال بالعرائض والاحتجاجات والشكاوى. الأمر الذي اضطرها إلى الاستجابة الجزئية، فحددت :

أ ـ الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

ب ـ انتقال ملكية الأراضي إلى أيد يهودية.

ج ـ حظر الجهر بنشيد هتكفا [٦] (النشيد القومي الإسرائيلي لاحقًا).

أما الحركة الصهيونية فقامت بالتحرك الثوري واتهمت قادة الحركة الوطنية الفلسطينية بأنهم : إما من المسيحيين، وإما من الأفندية. وكلتاهما لا تمثلان الأغلبية الساحقة من الشعب الفلسطيني. لكن السلطات البريطانية رفضت هذا الادعاء وقالت : إن هذه الظاهرة هي تعبير صادق لمشاعر الجماهير العربية في فلسطين. وقامت الحركة أيضًا بشن حملة مسعورة على الحكم العسكري واتهمته بالانحياز للعرب ضد اليهود.

ولم تلبث المواجهة الكلامية بين العرب والحركة الصهيونية أن تصاعدت إلى مستوى الاشتباك بالأيدي في مهرجان الذكرى السنوية الأولى للتصريح الذي جرى في القدس في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩١٨م.

وفي بداية نيسان / أبريل ١٩١٩م تجددت الاشتباكات في مهرجان النبي موسى، ولم يحل دون سقوط قتلى وجرحى بأعداد كبيرة إلا تدخل قوات بريطانية.

وفي حزيران / يونيو ١٩١٩م ظهر تعبير آخر للمعارضة العربية الفلسطينية، وذلك خلال زيارة «لجنة كنغ كرين» التي أوفدها مؤتمر الصلح في فرساي. وقد أبدى العرب الفلسطينيون معارضة شديدة للوطن اليهودي.

---

(٦) התקיה

وقد صور ابن غوريون في شهادته أمام «اللجنة المؤقتة» (حكومة اليشوف في فلسطين) سنة ١٩١٩م، الوضع في فلسطين وعبر عن وجهة النظر الصهيونية فقال : هناك هوة واسعة تفصل العرب عن اليهود في فلسطين، وهي هوة لا يمكن جسرها. إن تناقض المصالح اليهودية والمصالح العربية في فلسطين لا يمكن حله بالتحايل والمناورات. إنني لا أرى عربيًا يبدي أي استعداد للموافقة أن تتحول فلسطين يهودية. إننا نواجه هنا مشكلة قومية. إننا نسعى أن تكون فلسطين ملكًا خالصًا لنا، أما العرب فيريدونها ملكًا خاصًا لهم. يجب علينا أن نفهم، بشكل جلي مباشر، الشعب اليهودي أنه لا يوجد أي دواء لعلتهم غير فلسطين. ومع ذلك يتوجب علينا ألا نلحق أي ظلم بالعرب"[٧].

وقبل ذلك بسنوات خمس كان موسى شرتوك (وهو حينذاك في العشرين من العمر) قد صرح «إن العلاقات بيننا وبين العرب شائكة وتتكدس الصعاب والعراقيل في مسيرتنا إلى فلسطين، لأنه طوال سنوات متلاحقة لم يلتفت أحد إلى الحقيقة، وهي أننا لم ندخل بلادًا فارغة من السكان، بل دخلناها بنية احتلال أرض يسكنها شعب تسود فيها لغته وحضارته البدائية.

إن الصحف تكتب اليوم وتبحث عن إطار تحقيق المصالح المشتركة العربية واليهودية وعن جسر الهوة وعن ضرورة إحلال السلام بين الإخوة. ولكن علينا القول إنه لا يجوز لنا، بأي شكل من الأشكال، خداع النفس بهذه الأباطيل وأن نمني النفوس بالآمال الكاذبة، بل يتوجب علينا اعتبار فلسطين ملكًا خالصًا لنا. وإذا ما حاولنا إدخال شريك لنا في هذه البلاد فإننا نضيع بذلك فكرتنا الكبيرة. يجب عدم الوقوع في الخطأ القائل بأنه، بدفاعنا عن قضيتنا، يمكننا تحويل العرب من أعداء إلى أصدقاء. العرب لن يصبحوا من محبينا بتاتًا».

وهكذا كشفت الشهادات أمام لجنة كنغ كرين عن عمق الهوة بين الطرفين. فالموقف العربي يتلخص في :

- أن فلسطين عربية وهي جزء لا يجزأ بين سوريا.
- رفض الوطن القومي اليهودي في فلسطين.

---

(٧) כהן ע 174 מוריס ע" 93

أما الموقف الصهيوني فيتلخص في وجوب إقامة الوطن القومي اليهودي على التراب الفلسطيني.

ومع ذلك يمكن تلخيص الأوضاع الداخلية في هذه المرحلة بأن المواجهة العربية الفلسطينية ـ الصهيونية ظلت هادئة مستكينة طوال سنوات الحرب. ولكن بعد انتهائها بدأ يتصاعد العداء وأبرزها في أربعة مواضع.

وسرعان ما شرع العرب الفلسطينيون يتحولون في مناهضة البرنامج الصهيوني من القول إلى العمل المخطط المبرمج الذي يحمل ملامح قومية. وقد انعكس ذلك في أحداث مختلفة في أنحاء مختلفة من فلسطين.

- **أولها : إصبع الجليل**

ففي عام ١٩١٩م لوحظت ردود فعل عربية على المشروع الصهيوني في منطقة إصبع الجليل شمال فلسطين. وكان الوضع في المنطقة المذكورة عجيبًا غريبًا، فالمنطقة عبارة عن جيب فلسطيني مستطيل الشكل، أشبه بالإصبع، يتوغل في العمق اللبناني ويخترقه فتحيط به من الشرق والغرب والشمال أراضي لبنانية. أما من الجنوب فقاعدته تتصل بالأراضي الفلسطينية.

وإصبع الجليل بالأصل هو منطقة لبنانية تابعة للمنطقة الزرقاء (فرنسية)، إلا أن الانتداب الفرنسي عجز عن توفير قوة عسكرية تؤمن فرض سيطرته على المنطقة فتركها دون قوات ودون حماية ودون سيادة. من الناحية الثانية امتنع البريطانيون عن إقحام قواتهم إلى المنطقة لأنها منطقة سيادة فرنسية. وهكذا بقيت المنطقة مكشوفة عزلاء تفتقر إلى الحماية والسيادة، وتحولت بذلك إلى «منطقة حرام» أو «منطقة عازلة» تفصل بين الانتدابين : الفرنسي والبريطاني. وقد أنشأت الحركة الصهيونية أربع مستوطنات في المنطقة وهي : المطلة، كفار جلعادي، الحمارة، تل حي [٨] وقد لازم المستوطنين اليهود شعور دائم بعدم الاطمئنان والخوف الشديد لافتقارهم لحماية قوة فرنسية أو بريطانية.

أما سكان المنطقة الأصليون من العرب، ومعظمهم من العشائر البدوية، وأميرهم الشيخ فاعور، فكانوا موالين للحكم الفيصلي في دمشق. وقد قام هذا بتزويدهم

(٨) מטולה , כפר גלעדי , חמרה תל חי

بالمال والسلاح. وكان فيصل وحكومته موالين لبريطانيا، يدورون في فلكها ويقفون موقف العداء من فرنسا.

بادرت القبائل البدوية في المنطقة بالاتصال بالمستوطنات اليهودية الأربعة وأفهموها أنهم لا ينوون المساس بها، ولا يبيتون لها أي شر، وإنما يريدون ضرب الوجود الفرنسي في المنطقة. وقد عرض رجال القبائل على المستوطنين الانضمام إليهم في جهادهم ضد الفرنسيين.

وكان جواب المستوطنين : أنهم يميلون إلى بريطانيا ويرون فيها حليفهم الطبيعي وسندهم الحقيقي، شأنهم في ذلك شأن العرب، ولكنهم يفضلون الحياد وعدم الانحياز لأي من الطرفين. في تلك الظروف درجت قوة فرنسية مسلحة على التوقف والمكوث، بين الفينة والأخرى، في مستوطنتي المطلة وكفار جلعادي، الأمر الذي أثار حفيظة العرب ونقمتهم واعتبروا ذلك عملًا عدائيًا.

في كانون الثاني / يناير ١٩٢٠م قرر مستوطنو المطلة إخلاء المستوطنة خوفا من تهديدات القبائل البدوية العربية، ولم يلبث مستوطنو الحمارة(جنوب شرق المطلة) أن يتبعوهم في ذلك. ولكن عناصر من المستوطنين الاشتراكيين الطلائعين في المستوطنتين رفضوا الجلاء، وآثروا المكوث.

وانهالت عليهم الإمدادات البشرية المسلحة من تل حي وكفار جلعادي تحسبًا لأي طارئ. وكان أحد هذه العناصر يوسف ترمبلدور [٩] وقرر المستوطنون الذين آثروا البقاء مع النجدات العسكرية الوافدة، المكوث والصمود، وليكن ما يكون ! وقد أيدهم في ذلك رموز صهيونية بارزة مثل : ابن غوريون الذي قال : «إذا هربنا من اللصوص فإننا سوف نضطر عما قريب ليس إلى مغادرة الجليل الأعلى فقط، وإنما جميع البلاد».

ابن تسفي الذي قال : «إن إصبع الجليل هو جزء من الوطن القومي اليهودي». وبيرل كاتسنلسون الذي قال : «إن الانسحاب هو خير دليل على ضعفنا وعجزنا والبرهان الوحيد على حقنا في البلاد الصمود بثبات دون التطلع إلى الخلف».

(٩) יוסף טרומפלדור / תרומפלדור

وأوسيشكن الذي قال : «لو ثبتنا وصمدنا في كل شبر من أرض الجليل الأعلى فإننا سنرى حكومتي إنجلترا وفرنسا أن الجليل الأعلى هو ملكنا وسيظل كذلك إلى أبد الآبدين[١٠]».

مقابل ذلك ظهرت فئة كان أبرز عناصرها، زئيف جيبو تنسكي، دعت إلى الجلاء والإخلاء، لعبثية الدفاع عن المنطقة واستحالة حمايتها. قالوا: أن أية محاولة بهذا الصدد لا تعني إلا الانتحار. حاول المستوطنون اتقاء غضب العرب، فاتصلوا بكل من الملك فيصل في دمشق ومع زعيم المنطقة الشيخ فاعور، وحصلوا على أمان للمستوطنات وتعهد بعدم مهاجمتها[١١].

لكن في الأول من آذار / مارس ١٩٢٠م تأكد للعرب أن المستوطنتين : المطلة وكفار جلعادي قد شحنتا بالمقاتلين (بين ٣٠- ٣٥ مقاتل قدموا نجدة)، بالإضافة إلى مقاتلي المستوطنتين ! وإنهما تؤويان قوات فرنسية نهالت قوات عربية من البدو، ومن أهالي قرية الخالصة (قريات شمونه اليوم)[١٢] للتأكد من خلو المستوطنتين من أية قوات فرنسية معادية. وقد سمح مستوطنو «تل حي» لمجموعة من البدو الاقتراب لتفتيش المستوطنة المحاطة بجدار منيع. وعندما اقتربت القوة العربية من المستوطنة فتح أحد الحراس اليهود النار عليها فردت القوة العربية بالنار وانسحبت وعادت إدراجها لتعيد تجمعها واحتشادها. وحين وصل العرب المستوطنة فتحت عليهم النيران من داخلها ونشبت معركة سقط فيها العشرات بين قتيل وجريح. وقد قتل من المستوطنين اليهود ستة، أحدهم ترومبلدور ومعه مقاتلتان، وجرح عدد منهم. وتردد الرواية الصهيونية أن ترومبلدور قال وهو يلفظ نفسه الأخير : «ما أحلى الموت في سبيل بلادنا»[١٣].

وتحول موقف ترومبلدور ومقولته الأخيرة أحد الأركان الهامة في التاريخ الصهيوني. ولا يزالون حتى يومنا هذا يربون الأجيال على ذلك.

---

(١٠) בירל כצנלסון

(١١) מורס ע" 95

(١٢) קרית שמונה

(١٣) טוב למות בעד ארצנו

مع أن المهاجمين لم يتمكنوا من اقتحام «تل حي»، إلا أن المستوطنين توصلوا إلى نتيجة وهي : استحالة الصمود، فتسللت، تحت جنح الظلام قوة يهودية خارجية إلى داخل المستوطنة لتغطي انسحاب المستوطنين إلى كفار جلعادي، بعد أن أشعلت النيران في المباني المهجورة.

في الثالث من آذار/ مارس ١٩٢٠م بدأ العرب من البدو من أهالي الخالصة يتحفزون لشن هجوم جديد، فقرر ٨٠ ـ ٩٠ من مستوطني «كفار جلعادي» و«المطلة» إخلاء المستوطنتين أسوة بمستوطني تل حي. وأخليت المستوطنات ولم يعد المستوطنون إليها إلا في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٢٠م، بعد أن كان الفرنسيون قد احتلوا دمشق وأطاحوا بالملك فيصل والحكومة العربية وقمعوا الحركة الوطنية العربية.

لم يقتصر الصدام العربي اليهودي على منطقة إصبع الجليل فقط، وإنما تزامن أيضًا مع بؤرتين استيطانيتين :

- **وثانيهما : مستوطنات منطقة الحولة الثلاثة**

ففي جنوبي منطقة الحولة أقيمت مستوطنات يهودية على أراضي عربية بعد اقتلاع سكانها. وهذه المستوطنات هي روش بينا، يسود همعلاه وايليت هشاحر[١٤]. وكانت متاخمة للحدود السورية الفلسطينية. وقد تعرضت هذه المستوطنات لهجمات قام بها قرويون محليون وعناصر من القبيلتين البدويتين المحليتين : عرب الهيب الزنغرية وعرب الكرادة. وقد اشترك أيضًا في الهجوم عناصر بدوية قدمت من وراء الحدود، عبر نهر الأردن وهضبة الجولان. ولم تكن الهجمات منظمة بالمعنى الحرفي، وإنما كانت أقرب إلى غارات «كروفر»؛ اضرب واهرب؛ فلم تشكل أي خطر جدي على المستوطنات.

- **وثالثهما : منطقة القدس**

أما بؤرة الصدام الثالثة فكانت في القدس وشكلت المركز المقاوم الفلسطيني الرئيس. وقد مهد لتصعيد التوتر عوامل مثيرة للغضب العربي؛ ففي ٢٧ شباط /

---

(١٤) ראש פינה , יסוד המעה , איילת השחר

فبراير ١٩٢٠م صرح الجنرال بولز، رئيس هيئة أركان الحكم العسكري في فلسطين، بضغط صهيوني، لصحيفة "مرآة الشرق" العربية إن «في نية حكومة بريطانيا تحقيق تصريح بلفور وإقامة الوطن اليهودي على التراب الفلسطيني»[١٥].

وفي الثامن من آذار / مارس ١٩٢٠م حاول بولز استرضاء العرب بأن طلب من لندن الاعتراف بفيصل ملكًا والعمل على دعمه ومساعدته. ولكن لندن رفضت التوجه. وتساءل كرزون، باسم الحكومة كيف يمكن التوفيق بين الاعتراف بفيصل ملكًا على المحتلة شرقا، بما فيها فلسطين، والمطالب الصهيونية المدعومة بالالتزام البريطاني بموجب التصريح.

وتشاء الظروف أن يزداد اشتعال نيران الغضب العربي على هذه التصريحات بانعقاد المؤتمر السوري الثاني الذي دعا في ٧ آذار/ مارس ١٩٢٠م إلى :

- إعلان فيصل ملكًا دستوريًا على سوريا بما فيها فلسطين.
- تشديد النضال ضد الصهيونية وبرنامجها. وكان هذا المطلب استجابة لإلحاح المندوبين الفلسطينيين في المؤتمر.

وقد توترت الأجواء العربية الفلسطينية. وتزايدت مخاوف العرب الفلسطينيين وبدأت شكوكهم حول حقيقة الأوضاع الميدانية تتحول إلى حقائق..

■ **ورابعهما : موسم النبي موسى (٤-١٠ أبريل / نيسان ١٩٢٠)**

في الأيام العشرة الأوائل من شهر نيسان / أبريل ١٩٢٠م تدفقت جماهير غفيرة من منطقة القدس إلى المدينة للاحتفال بعيد النبي موسى المتزامن مع الفصحين: اليهودي والمسيحي. وكان الموسم يشمل الاحتفالات الإسلامية وهو من المناسبات التي ابتكرها السلطان صلاح الدين الأيوبي ليتجمع فيها المسلمون كوزن مقابل لفصح المسيحيين وفصح اليهود. ويقوم المحتفلون بزيارة مقام النبي موسى الذي يقع على مسافة ٣٠ كم شرقي القدس على طريق أريحا- القدس.

(١٥) מוריס ע" 96

في ٤ نيسان / أبريل ١٩٢٠م أخذ المقدسيون العرب يتحفزون لاستقبال وفود المحتفلين القادمين من منطقة الخليل. وقد اشترك في الاستقبال الاحتفالي أهالي منطقتي القدس ونابلس، بمن فيهم الطوائف المسيحية.

وصل المدينة حوالي ٤آلاف محتفل من منطقة الخليل وحدها. وأخذ المحتفلون يتحفزون لزيارة مقام النبي موسى فتجمعوا واحتشدوا ورفعوا الشعارات الوطنية : الوحدة العربية، الاستقلال، إيقاف الهجرة اليهودية، الدعاء لفيصل. وتلا ذلك خطابات حماسية نارية. واشتعلت المشاعر وتأججت العواطف الوطنية. وهتفت الحناجر مطالبة بفيصل ملكًا، وبفلسطين عربية، جزء لا يتجزأ من سوريا. وقام رئيس بلدية القدس موسى كاظم الحسيني بتحليف الجماهير على افتداء فلسطين بالمهج والدماء. أما عارف العارف محرر صحيفة «سوريا الجنوبية» فصرح : إذا أحجمنا عن استعمال القوة مع الصهيونيين فإننا لن نتمكن من التخلص منهم بتاتًا "[١٦].

اشتعلت الأجواء وتكهربت المشاعر، واصطبغت التحشدات العربية الإسلامية والمسيحية بروح المقاومة، وارتفعت الشعارات، "هل نسلم بلادنا لمن صلبوا المسيح ؟"

ولم يلبث أن التهب الموقف أثر حادث مرور ولكن الموسوعة الفلسطينية ج١ ص٦١٣ تنفي ذلك وتقول بل لأن شابًا يهوديًا اقتحم صفوف الجماهير العربية محاولًا خطف العلم الفلسطيني وتمزيقه، فانقض عليه الجمهور الغاضب وقتله. وتقدم شاب يهودي آخر وحاول اختطاف العلم مرة أخرى فأهوى عليه بعض الرجال بسيفه وقتله. وثارت ثائرة الجماهير العربية فاندفعت إلى القدس العربية حيث الأحياء اليهودية. وهاجمت المحلات التجارية اليهودية في شارع يافا، ثم عادت إدراجها إلى المكان الذي انطلقت منه من القدس الشرقية. وكانت النتيجة تدمير محلات يهودية وسقوط قتلى وجرحى من الفريقين .

انقضى اليوم الرابع من نيسان / أبريل. وفي اليوم التالي تجددت المظاهرات وتواصلت حتى اليوم السادس. وهنا تدخلت القوات البريطانية، ففكت الاشتباكات

(١٦) אותר ע" 97

وأعلنت الأحكام العرفية ونزعت الأسلحة وأعادت الهدوء والنظام [١٧]. وكانت حصيلة الخسائر ٤ قتلى و٩ من اليهود.

وتعتبر أحداث النبي موسى أول تحرك شعبي جماهيري عربي فلسطيني واسع للتعبير عن خيبة أمل العرب من الحكم البريطاني وإجراءاته المنحازة إلى الحركة الصهيونية. وقد كانت الحركة الوطنية العربية في فلسطين حتى حينه تكتفي بالتعبير عن سخطها وخيبة أملها بالمعارضة والاحتجاج وتطيير المذكرات والإدانة، وكلها بترخيص ومباركة من حكومة الانتداب. وتذكر الموسوعة الفلسطينية ج١ ص٦١١ أن خطأ هذا التوجه يكمن في أن القيادات السياسية الفلسطينية ركزت على توجيه الجماهير الفلسطينية ضد الحركة الصهيونية دون التشديد على العلاقة والارتباط الوثيق بين الصهيونية وبريطانيا.

ونتيجة للأحداث والاضطرابات المذكورة رأت الحركة الصهيونية أنه لابد من اللجوء إلى العنف، واستعمال القوة والسلاح.

فبدأت تنشط في إنشاء وحدات ومنظمات عسكرية صهيونية تتصدى للعرب وكان أول تلك المنظمات الهاغاناه.

منظمة الهاغاناه (الدفاع) [١٨]

ردًا على الوضع الملتهب على الساحة الفلسطينية شكلت الحركة الصهيونية ذراعًا شبه عسكرية للرد على العرب وهي «منظمة الهاغاناة» وكانت أولى مهماتها : حماية اليهود، خاصة اليهود المقدسيين ممن يقطنون الأحياء اليهودية الواقعة خارج أسوار المدينة.

أما بداية الهجانة فتعود إلى صيف وخريف عام ١٩١٩م حين تداعت بعض عناصر القيادة الصهيونية، لتشكيل تنظيم عسكري دفاعي وأبرزهم اثنان من مؤسسي منظمة هشومير وهما : راحيل ينانيت وتسفي نداف، وشرعت تلك العناصر في تدريب الأفراد الذين تم اختيارهم للتنظيم العسكري كما شرعت بابتياع الأسلحة والذخائر والمعدات العسكرية.

(١٧) אותו ע" 97-98

(١٨) אר גון ההגנה

في شتاء ١٩١٩م -١٩٢٠م انضم إلى هذه النواة الصغيرة مجموعة من جنود الكتائب العبرية المسرحة العاملة ضمن جنود القوات الأمريكية، بعد أن جلبوا معهم أسلحتهم وذخائرهم. وكان أبرز رموز المنضمين الجدد، زئيف جبوتنسكي، قد سرح من الجيش الأمريكي بسبب نشاطه السياسي وانضم إلى التنظيم العسكري المذكور، ومعه جماعة من شبان المنظمة الرياضية «مكابي» [١٩].

وفي سنة ١٩٢٠م تشكلت في القدس «منظمة الهاغاناة» على شكل مجلس دفاع ليهود المدينة تحت رئاسة جبوتنسكي.

وفي مطلع نيسان/ أبريل١٩٢٠م بلغ تعداد عناصر المنظمة حوالي المائتين، مسلحين بخمسين بندقية وبعض المسدسات والقنابل اليدوية.

وفي السابع من نيسان / أبريل ١٩٢٠م ألقت السلطات البريطانية القبض على جبوتنسكي وأصدرت عليه حكمًا بالسجن خمسة عشر عامًا مع الأشغال الشاقة. وفي الوقت ذاته صدرت أحكام أخرى، بحق أعضاء آخرين من المنظمة [٢٠].

وبعد أن نجحت القوات البريطانية، في فض الاشتباكات بين العرب واليهود في مدينة القدس في موسم النبي موسى لم تهدأ الأوضاع ولم تطمئن نفوس العرب، إذ أنه في الشهر ذاته في ٢٦نيسان / أبريل ١٩٢٠م صادف مؤتمر سان ريمو الذي أسفر عن انتداب بريطانيا على فلسطين وعن وجوب تطبيق تصريح بلفور أيضًا. وكان هذا نصرًا مؤزرًا للصهيونية وهزيمة منكرة للعرب، إذ أن التصريح اكتسب شرعية من القوى الفاعلة العظمى على الساحة العالمية.

وقد ألقى على بريطانيا رسميًا مهمة تحقيق الوطن القومي اليهودي وبعد يومين في تمام ٢٨نيسان / أبريل، أكد الجنرال بولز أن تصريح بلفور يمثل السياسة البريطانية الرسمية. وكان لهذا التصريح خطره إذ أنه صدر عن القائد الميداني المسئول المباشر عن فلسطين. ومع ذلك لم تكتف الحركة الصهيونية بهذا النصر، ولم تعد تثق بالحكم العسكري وممثله بولز، فهي لم تنس الالتزام العسكري بالمحافظة على الوضع الراهن في فلسطين. فبذلت جهودها، ورمت بكل ثقلها، لإلغاء الحكم العسكري واستبداله بحكم مدني مؤيد موال للحركة.

(١٩) מכבי

(٢٠) מוריס ע"ע 98-99

إدارة مدنية بريطانية تخلف الحكم العسكري البريطاني

نجحت الضغوط الصهيونية بالإطاحة بالحكم العسكري البريطاني في فلسطين، ففي حزيران/ يونيو ١٩٢٠م اتخذت الحكومة البريطانية قرارها بإنهاء الحكم العسكري واستبداله بحكم مدني، يرأسه السير هربرت صموئيل، من زعماء حزب الأحرار البريطاني رئيسًا للإدارة المدنية الجديدة في فلسطين وقد تم تغييراسم المنصب في وقت لاحق إلى «المندوب السامي» [٢١].

وتم اختيار الشخصية المذكورة استجابة للطلبات الصهيونية فقد كان يهوديًا قلبًا وقالبًا، جسدًا وروحًا. واستمرت ولايته خمس سنوات متتالية ١٩٢٠ ـ ١٩٢٥م. وكان قبل تعيينه مندوبًا ساميًا، قد قام بزيارة ميدانية لفلسطين، وأبدى إعجابه الشديد باليشوف اليهودي وإنجازاته، وحين عرج على مدينة نابلس حذره أعيانها من ثورة عربية في حال استمرار الهجرة اليهودية. ولكنه لم يعر هذه التحذيرات أدنى التفاته. ولم يخفض ذلك من غلواء تأييده الأعمى للحركة وانحيازه المطلق لها. فقد كان يعتبر منصبه الوسيلة والأداة لتحقيق المشروع الصهيوني في فلسطين.

ويذكر أن التعيين المذكور قد تم رغم معارضة أوساط الجيش؛ وعلى رأسهم الجنرال اللنبي والعرب الفلسطينيين: مسلميهم ومسيحييهم، وبعض أعضاء مجلس العموم البريطاني وعلى رأسهم هيكس [٢٢] الذي هاجم قرار التعيين وقال: إن تصرفات هربرت صموئيل تتناقض مع الموقف المحايد الذي يتوجب على الحكومة انتهاجه. ثم قام بسرد سيرة المذكور وعلاقته بالصهيونية وخدماته الجليلة لها، خلال خدمته كوزير، وعضويته في المنظمات الصهيونية، وقال: إنه لا يكفي أن يكون الحاكم البريطاني فوق مستوى الشبهات، ولكن الأهم أن يقتنع العرب، وهم يشكلون ٩٠% من مجموع السكان، أنه فوق مستوى الشبهات.

ثم استطرد : «ماذا يقول الدكتور حاييم وايزمان ؟ قال : لقد كنت مسئولاً عن تعيين هربرت صموئيل في فلسطين. ولم يكن هناك أحد أكثر تدخلًا وأشد سرورًا

(٢١) High Commissioner

(٢٢) Hichs

مني بهذا التعيين»، ثم نقل عن وايزمان قوله « إن السير هربرت صموئيل صديقي. وقد عمل بإخلاص معنا منذ اللحظات الأولى. وقد قبل هذا المنصب الشائك بناء على طلبنا. وقد ساندناه بتأييدنا الأدبي ووضعناه في هذا المكان. إن صموئيلنا، إنه نتاج يهوديتنا ».

وفي حقيقة الأمر لم يخيب صموئيل هذا الرجاء فقد رأى في منصبه السامي تكليفًا لا تشريفًا [٢٣]. فبادر إلى اختيار طاقم موظفيه من مستشارين ومساعدين، واصطفاهم من غلاة المتحمسين للحركة الصهيونية وبرنامجها. وكان من أبرزهم الجنرال فيندام ديدس الذي عينه نائبًا له. وهو مسيحي صهيوني، وكان يعمل مديرًا للاستخبارات العسكرية البريطانية في قوات الجنرال اللنبي. وفي آيار/مايو ١٩٢٠م كتب ديدس لوايزمان"منذ الساعة وصاعدًا سوف أقوم بتسخير كافة طاقاتي وإمكانياتي التي وهبني الله لتحقيق المثل العليا التي تدعون إليها، كاملة غير منقوصة[٢٤].

ومع ذلك خدم ضمن طاقم العاملين في إدارة المندوب السامي قليل من العناصر المتحفظة من المشروع الصهيوني، والتي تتطلع بخوف وحذر من الاندفاع الأعمى والهرولة البريطانية في تأييد الحركة وتحقيق برنامجها. وكان أبرز هؤلاء الجنرال كلايتون السكرتير الأول لحكومة الانتداب الذي خدم سنتين ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥م وطالما حذر قائلًا «أننا نزج بعنصر غريب مكروه إلى قلب العالم الإسلامي».

بدأ هربرت صموئيل عمله في الأول من شهر آب / أغسطس ١٩٢٠م بسياسة منحازة إلى الصهيونية. فوضع نصب عينيه تحقيق التصريح بخلق ظروف سياسية ـ اقتصادية وقانونية لتحقيق المشروع الصهيوني بمختلف بنوده : ابتياع الأراضي، الهجرة، والاستيطان في فلسطين.

وبذلك حول الإدارة المدنية البريطانية إلى رحم يتشكل فيه الجنين الصهيوني، وإلى دفيئة يترعرع فيها ذلك المولود. وكان نهج المندوب السامي بالنسبة للهجرة، والاستيطان سياسة التحرك البطيء المرحلي الحذر، فقد فضله على

(٢٣) الخولي ص ص٢٢٢-٢٢٤

(٢٤) מוריס ע" 99

التحرك السريع المتلاحق الذي خشي أن يحمل في طياته مخاطر جسيمة وأخطاء قاتلة.

افتتح صموئيل عهده بسلسلة من الإجراءات الميدانية المنحازة للجانب الصهيوني:

- إطلاق سراح المعتقلين الموقوفين اليهود في اضطرابات نيسان / أبريل.
- إعادة فتح دوائر الطابو وسجلات تسجيل الأراضي.
- فتح بوابات فلسطين للهجرة اليهودية فمنح مائة ألف تأشيرة دخول يهودي إلى فلسطين.

ومن المفارقات أن الحركة الصهيونية لم تتمكن استغلال هذا الكرم، فلم تنجح في تجنيد كل هذا العدد الضخم من المهاجرين اليهود أو جمع الأموال اللازمة لتمويل المشروع، أو إيجاد أماكن عمل لهم خاصة بعد أن فرغت الميزانية من الأموال.

اعتبر هربرت صموئيل أنه تجاوز حدوده في الهرولة السريعة والتحيز السافر للحركة الصهيونية، الأمر الذي قد يثير حفيظة العرب. فلم يجد بدًا من اتخاذ بعض الإجراءات الاسترضائية لهم مثل :

١. إصدار عفو عام عن المعتقلين العرب في أحداث هبة النبي موسى. وصدر العفو في ٨ يوليو/ تموز.

٢. السماح للحاج أمين الحسيني وعارف العارف بالعودة إلى فلسطين. وكانا قد فرا إلى خارج البلاد أثر أحداث النبي موسى المذكورة. ثم أنعم عليهما بالوظائف الرفيعة والمرتبات الشهرية العالية. فعين عارف العارف في وظيفة حكومية رفيعة. كما عمل على انتخاب الحاج أمين الحسيني مفتيًا فأصبح رجل الدين الأول والمرجعية الدينية الرئيسية في البلاد. ثم أنعم هربرت صموئيل عليه برئاسة المجلس الإسلامي الأعلى سنة ١٩٢٢ م.

٣. الاعتراف الرسمي باللجنة التنفيذية العربية الفلسطينية التي كانت قد تأسست في ديسمبر / كانون الأول ١٩٢٠م في المؤتمر الفلسطيني الثالث الذي يرأسه موسى كاظم الحسيني.

٤. محاولة التخفيف من وقع تصريح بلفور فقال : إن التصريح المذكور يتألف من شطرين متوازنين :

إقامة الوطن القومي اليهودي، لكن مع المحافظة على الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في البلاد. وقد كان رد الحركة الصهيونية على محاولة الاسترضاء عنيفًا فقررت اتخاذ إجراءات لتقوية الهاغاناة وتعزيز مكانتها وبادرت إلى دمجها في الإطار الهستدروتي.

ظهور الوطنية العربية الفلسطينية

وصلت المطالب القومية العربية الفلسطينية باستقلال سوريا في نيسان/ أبريل ١٩٢٠م وظل الرأي العربي حتى تموز/ يوليو ١٩٢٠م يعتبر فلسطين جزءًا لا يتجزأ من الوطن السوري الكبير وأطلق عليها سوريا الجنوبية أو جنوب سوريا ولكنها أخذت، منذ نهاية الشهر إياه تخبو تدريجيًا وتتحول إلى مسار وطني فلسطيني محلي مع تلاشي

لقد بدأ التسليم بواقع جديد : فلسطين كيان منفصل مستقل عن سوريا. فلقد تأكد للفلسطينيين، بما لا يقبل الشك، إن بتر فلسطين عن الوطن العربي الأم الكبير أصبح أمرًا واقعًا، ومن باب المؤكد الذي لا رجعة عنه. كما تأكدوا أن قدر فلسطين لن تقوم وحيدة في ساحة المعركة، وأن تصبح كيانًا منفردًا وأخذ الناس يشعرون بمرارة وأسى، بتلاشي الأماني القومية وأن الوطن الأكبر «سوريا الكبرى» يبتعد ويغيب رويدًا رويدًا عن الأنظار.

وقد بلغ هذا التحول أوجه في أحداث تموز/ يوليو ١٩٢٠م المأساوية المتلاحقة التي أصابت الناس بالإحباط واليأس فما الذي حدث بين نيسان / أبريل ١٩٢٠م وتموز / يوليو من تلك السنة. تلخصت الأحداث في :

١. تقسيم البلاد إلى دول طوائف : سوريا ولبنان وفلسطين وانقسم الشعب العربي الموحد إلى ثلاثة شعوب ترزح تحت سيادات أجنبية.

٢. خيبة الأمل في قيام ثورة عربية شاملة تطرد المحتل البريطاني والفرنسي.

٣. فرض الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان، والبريطاني على فلسطين والعراق في مؤتمر سان ريمو.

٤. طرد فيصل وحكومته العربية من دمشق، وفرض احتلال عسكري فرنسي على سوريا.

٥. هروب الحاج أمين الحسيني من فلسطين إلى دمشق وكان من قادة التحرك الوطني في فلسطين.

٦. استبدال الحكم العسكري البريطاني المحايد نسبيًا بحكم مدني منحاز كليًا إلى الصهيونية.

٧. انهيار هبة النبي موسى سنة ١٩٢٠م وقمع انتفاضتها.

٨. الإطاحة بموسى كاظم الحسيني عن رئاسة بلدية القدس بسبب مواقفه الوطنية وتعيين المهادن المستسلم للسياسة الانتدابية راغب النشاشيبي.

شعر الفلسطينيون أنهم أصبحوا وحيدين في الساحة، وأن قدرهم مواجهة مصيرهم المجهول الحالك منفردين ؛ فكل منطقة انشغلت بمشاكلها : سوريا ولبنان انشغلتا بهموم الانتداب الاحتلال الفرنسي، والعراق وشرقي الأردن بالانتداب الاحتلال البريطاني.

أما فلسطين فاضطرت أن تواجه خطرين في الوقت ذاته، فبالإضافة إلى مخاطر الانتداب البريطاني كان هناك الخطر الصهيوني ومشروعه في تهويد فلسطين، بعد إلغاء عروبتها بموجب تصريح بلفور، والتزام الانتداب البريطاني، بإقامة الوطن القومي اليهودي. فكان طبيعيًا أن تتمخض الحاجة للدفاع عن الوطن والكيان عن تحرك وطني لتثبيت عروبة فلسطين، فبدأت تظهر الحركات التي تقول بقومية القضية، فهي القاسم المشترك لكل العرب، ولكنها تشدد على الوطنية الفلسطينية النابعة من الظروف الخاصة بالقضية الفلسطينية أسوة بالوطنيات العربية الأخرى المستجدة : الوطنية العراقية، الوطنية السورية، الوطنية اللبنانية وكلها أخذت تجنح نحو الإقليمية مشددة على الناحية المحلية الإقليمية على حساب الناحية القومية القطرية.

وكان من التعبير عن الضائقة الفلسطينية، وجوب الدفاع عن البلاد بوطنية فلسطينية. وقد عبرت عن ذلك المواقف الجديدة لموسى كاظم الحسيني التي بدأت تظهر وتطغى على الساحة الفلسطينية بعد عزله عن رئاسة البلدية وبعد طرد الأمير فيصل من دمشق.

وقد عبر عن هذا التوجه الجديد بقوله : «اليوم يتوجب علينا، بعد الأحداث الأخيرة في دمشق، إجراء تغيير جذري في برامجنا هنا في فلسطين. إن فكرة سوريا الجنوبية لم تعد قائمة اليوم، واجبنا الآن الدفاع عن فلسطين»[٢٥].

وأخذ زعماء فلسطين ورجالاتها يشددون على فلسطينيتهم في معرض الدفاع عن وطنهم الجريح لقد توصلوا على قناعة أن واجبهم الاعتماد على أنفسهم «فأهل مكة أدرى بشعبها» و«لا يحرث الأرض إلا عجولها». وشرعوا في نضالهم الفلسطيني مشددين على انتمائهم القومي العربي. وقالوا إن الوطنية الفلسطينية في نضالها الطويل المرير يجب أن تعتمد أيضًا على بعدها القومي العربي لأنها تستمد جذورها وتستكمل زخمها من جذورها القومية.

وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٠م استنكر المؤتمر الفلسطيني الثالث تصريح بلفور ووصفه بأنه مناقض للشرائع السماوية والقوانين الأرضية.

وفي آذار/ مارس ١٩٢١م، أثناء زيارة وزير المستعمرات البريطاني السير ونستون تشرشل لفلسطين، قابل وفدًا عربيًا فلسطينيًا برئاسة موسى كاظم الحسيني وقد هاجم الرئيس المذكور الصهيونية وتصريح هربرت صمونيل، فرد تشرشل المنحاز إلى الصهيونية برفض أقوال موسى كاظم وطمأن العرب أن اليهود لن يقوموا بطردهم وأضاف «من العدل والإنصاف أن يصبح لليهود المشتتين مركز واحد ووطن قومي يلتئم شملهم تحت سقفه، وأين. ؟ إن لم يكن في فلسطين ؟ إننا نعتقد أنه من الخير للعالم واليهود والإمبراطورية البريطانية والعرب في فلسطين أن يشاركوا في الخيرات التي تجلبها الصهيونية»».

ثم أنهى مخاطبًا الوفد «إنكم تطلبون مني إلغاء تصريح بلفور وإيقاف الهجرة اليهودية. إنني لا أملك الصلاحية لتنفيذ هذا الأمر، كما إني لا أرغب في ذلك، إن ذلك ليست رغبتي ولا إرادتي.»».

واسودت الدنيا في عيون أعضاء الوفد وعيون عرب فلسطين وشعروا بوطأة المستقبل القاتم الذي ينتظرهم، فتداعوا لمواجهة المخاطر والتصدي لمخططات الانتداب ومشاريع الحركة الصهيونية وحيدين منفردين بلا مغيث أو مجير أو

---

(٢٥) אותו ע" 101

نصير، وتأكدوا أن قدرهم مواجهة المعركة المصيرية النهائية ؛ فإما أن يكونوا أو لا يكونوا.. وإما الموت أو الحياة.

وقد كتب السكاكيني (م. س)ج٣ ص١٧ - ١٩ أن العرب الفلسطينيين شعروا بالأخطار المتربصة الداهمة التي تتجمع لإغراقهم والتي تتمثل بعنصرين : حكم الانتداب ومخاطر الصهيونية.

فعن الانتداب كتب محذرًا : «إما الحكومة (البريطانية ز٠ف) التي ادعت أنها دخلت البلاد مخلصة لا فاتحة فقد جعلت تنظر إلى العرب نظرها إلى أعداء ولا تزال تسمى البلاد» إدارة بلاد العدو المحتلة».

مرَّ زمن طويل والبلاد تحت الإدارة العثمانية. البريد وسائر ما يكتب أو يطبع تحت المراقبة الشديدة. وزمان طويل قبل أن تطلق الحكومة سراح الأسرى العرب. كثيرون من أبناء البلاد نفوا في أثناء الحرب أو كانوا في الخدمة العسكرية خارج فلسطين منعوا من الدخول إليها. وكثيرون نفوا منها بإيعاز من اليهود.

أما عن مخاطر الصهيونية فكتب منذرًا :

«إن الخطر الصهيوني يهدد شرقيتنا وتقاليدنا وأخلاقنا وأدبنا وسائر خصائص ومقومات حياتنا. هو الخطر الذي يهدد حريتنا بالاستعباد واستقلالنا بالضياع ووحدتنا بالتجزأة واجتماعنا بالتفرقة وكثرتنا بالقلة واستغناءنا بما لدينا، على قلته، بالفاقة وراحتنا بالتعب وأمننا بالخوف وكرامتنا بالامتهان ولغتنا بالرطانة ووجودنا بالانقراض».

وينهي بالمخاطر الجسيمة القاتلة التي تنجم عندما يتحد العنصران المذكوران ويلخص قائلًا : (م٠س) ج٣ ص١٣

«أما الخطر الصهيوني الدائم المدعوم ببريطانيا دعمًا غير محدود فسوف يهدد العالم العربي بأكمله. فإذا لم نتحد في مقاومة الصهيونية ذهبت فلسطين من أيدينا وعرضنا غيرنا للخطر. وإذا خسرت أمة بلادها فقد خسرت كل شيء. وإذا أردنا أن يكون لنا مستقبلًا فيجب أن نحتفظ ببلادنا، بكل قطعة منها. وما دام لنا بلاد فمستقبلنا مضمون».

مصادر الكتاب

أ. المصادر بالعربية

- القرآن الكريم
- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي -بيروت لبنان ١٩٦٧
- شوفاني إلياس : الموجز في تاريخ فلسطين .مؤسسات الدراسات الفلسطينية بيروت تموز ١٩٨٨
- د. الخولي حسن صبري : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، مجلد ١ دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٧٣
- الدباغ مصطفى مراد : بلادنا فلسطين ،دار الشفق - كفر قرع
- د. كنعان جورجي : العنصرية اليهودية ، دون ذكر الناشر ومكان النشر ١٩٨٣
- جيارودي روجيه : فلسطين أرض الرسالات الإلهية ،مكتبة التراث القاهرة ١٩٨٦
- كيالي عبد الوهاب : تاريخ فلسطين الحديث المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٥
- بديري هند أمين : أراضي فلسطين بين مزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ مطابع جامعة الدول العربية القاهرة ١٩٩٨
- مسيري عيد الوهاب : أسرار العقل الصهيوني ،دار الخيام القاهرة بيروت ١٩٩٦
- الأحمد نجيب : فلسطين: تاريخا ونضالا ، دار الجليل للنشر عمان ١٩٨٥
- زين نور الدين : زين نشوء القومية العربية ، مكتبة ومطبعة السروجي عكا ١٩٧٨
- انطونيوس جورج : يقظة العرب ، دار العلم للملايين طبعة ٢ بيروت ١٩٦٦
- ولسون ماري : عبد الله وشرق الأردن بين بريطانيا والحركة الصهيونية. شركة قوس للنشر والتوزيع بيروت ٢٠٠٠
- د. طنوس عزت : الفلسطينيون مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية بيروت ١٩٨٢
- طوطح خليل والبرغوثي عمر صالح : تاريخ فلسطين مكتبة فلسطين - القدس ١٩٢٣
- سويد يس : مؤامرات الغرب على العرب المركز العربي للأبحاث والتدقيق بيروت ١٩٩٢
- شولش الكزاندر : تحولات جذرية في فلسطين ١٨٥٦ - ١٨٨٢ طبعة ثانية منشورات الجامعة الأردنية عمان ١٩٩٣
- فلسطين تاريخها وقضيتها : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ٢٠٠٢
- توما إميل : مائة عام على الصهيونية

- د. حزما وي محمد : ملكية الأراضي في فلسطين ٩١٨ / ٩٤٨ ،مؤسسة الأسرار - عكا ١٨٩٨
- د. ناجي طلال : محاضرات في القضية الفلسطينية ،مؤسسة الرؤى للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت ٢٠٠٠
- منصور عبد الحكيم : الإمبراطورية الأمريكية ، دار الكتاب العربي دمشق ٢٠٠٥
- النواري محمد عبد الغني الصراع العربي الإسرائيلي. دون ذكر التاريخ ودار النشر ومكان الطباعة
- يوجين روغان - افي شلايم : إعادة كتابة تاريخ ١٩٤٨ ،ترجمة اسعد كامل الياس ،مكتبة العبيكان : المملكة العربية السعودية، الرياض ٢٠٠٤
- مصالحة نور الدين : طرد الفلسطينيين - مفهوم الترانسفير في الفكر والتخطيط الصهيونيين ١٨٨٢ - ١٩٤٨ م .
- د. ياغي إسماعيل أحمد : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث ،مكتبة العبيكان الرياض ٢٠٠٢
- إعداد نواف عبد حسن : خليل السكاكيني بين الوفاء والذكرى- مركز إحياء التراث العربي ، مكتبة الأمل، القدس - ١٩٩١
- خليل السكاكيني : يوميات خليل السكاكيني — ٣ أجزاء- تحرير: أكرم مسلم. مركز خليل السكاكيني الثقافي، مؤسسة الدراسات المقدسية ، رام الله ٢٠٠٤
- فودة يسري : الماسونية . الشركة العالمية للكتاب - لبنان ٢٠٠٣
- ميخائيل بارزوهر بن غوريون - رجل وراء أسطورة (مترجم عن العبرية) . إصدار دار الكتاب . : دون تاريخ أو ذكر مكان الإصدار.
- أوليفانت لورانس : أرض جلعاد . رحلات في لبنان وسوريا والأردن و فلسطين سنة ١٨٨٠ . ترجمة وتعريب: د. أحمد عويدي العبادي. دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمان ٢٠٠٤
- د. أحمد داوود : تاريخ سوريا القديم ، مكتبة الصفدي . دمشق سنة ١٩٩٧

ب- المصادر بالعبرية

מנ"ך

אינציקלופדיה יזרעאל. 15 כרכים. הוצאת סטרים יזרעאל בע"מ ת"א

הסטוריה של א"י. 10 כרכים. בית- הוצאה כתר.י-ם 1998

כהן אהרון - ישראל והעולם הערבי. ספרית הפועלים. מרחביה 1964

ראשית הציונות ספר למוד. משרד החו"ת. י-ם תל"ו

היהוזים בראשית העת החזשה. ספר לימוד. משרד החו"ת. י-ם. תש"ם

מוריס בני קורבנות

ספרית אפקים. הוצאת עם עיבד.פ"ת 1995

קימרלינג ברוך מהגרים ומתישבים ילידים. על מא עם עובד – ת"א 2004

אל רואי גור אמייגרנטים – הוצאת יד יצחק בן צבי י-ם 2004

מלון ספיר

עתון הארץ – יומי

כתב העת "מסע אחר" – חודשי

הנס לברכט הפלסטינים עבר והווה

תרגום לגרמנית מפעלים אוניברסיטאים

הוצאה לאור בע"מ י-ם 1987

כהן הללצבא הצללים הוצאה עברית י-ם 2004

שנהב חיים המנדט ושברו. הוצאת ספרים עם עובד בע"מ – ת"א 2007

ج- المصادر بالانجليزية

1. Lenvzowski George
The Middle East Worls Affairs
3d edition Cornell University
N.U. 1962

2. Tibawi A.L: A Modern History of Syria
Maryin's Press 1965

3. Kenneth D.Stein
The Land Question in Palestine 1917-1939
University of North Carolina Press, Chapel Hill and London
1948

▪ زهير عبد المجيد الفاهوم

▪ ولد في ٢٠ شباط ١٩٣٥ في الناصرة لعائلة الفاهوم

▪ ترعرع في الناصرة متنقلاً بين المدينة واندور في مرج ابن عامر.

▪ أنهى المدرسة الثانوية عام ١٩٥٤ ومن ثم عمل مدرسًا في حيفا ١٩٥٤، ثم في الناصرة وابطن وبير المكسور وغيرها من البلدات الفلسطينية ١٩٥٨.

▪ أنهى دراسته الجامعية في الجامعة العبرية بالقدس عام ١٩٦١ وحصل على اللقب الأول بموضوعي تاريخ البلاد الإسلامية والتربية.

▪ عمل مدرسًا في الناصرة وقضاها لسنوات طويلة إلى أن شغل منصب مدير لمدرسة الإعدادية عام ١٩٧٥ ما يقرب الثلاثين عامًا عرفت بين الناس باسمه مدرسة زهير الفاهوم.

▪ كما وعمل منقحًا لغويًا للعديد من كتب التاريخ واللغة العربية، وخلال سنوات طويلة كتب الكثير من المقالات في تاريخ فلسطين وقراها.

▪ عام ١٩٩٤ أقدم على التقاعد المبكر ليتفرغ للكتابة بمجال اختصاصه تاريخ الشرق الأوسط، فأصدر ثلاثة كتب وهي:

- الحروب الصليبية - يوم حطين.. .. وثمار النصر الناصرة تموز ١٩٩٦

- الحروب الصليبية الحملة الصليبية الثالثة صلاح الدين الأيوبي ورتشارد قلب الأسد ١٩٩٨

- فلسطين ضحية وجلادون الجزء الأول: فلسطين في أواخر العهد العثماني حزيران ٢٠٠٩. حيث كان يفترض أن يكون لهذا الكتاب جزءان آخران إلا أن المنية وافته.

▪ له عدة مآثر منها:

"من لا أرض له لا وطن له وهو أشبه باليتيم على مائدة اللئيم"

وفي أخر نصحه لإحدى بناته أن قال لها:

يا أبي احدري ولا تقربي الشوك.

فسألت وما هو الشوك

فقال : الشراكة والوكالة والكفالة.

ومن أكثر ما شجع عليه وآثره طلب العلم والتمسك بالجذور فقال :"هنا ولدنا وهنا نموت ".

▪ عرف عنه الطبع الحاد فلم يؤمن بالتسويات كذا والمسلمات، ورفض الحلول المبنية على التنازلات فكان ممن لم يؤمن بأوسلو.

▪ عرف عنه من أول من قاوم منهاج التعليم الإسرائيلي للطالب العربي وبالرغم من فرض التشديدات عارضه وعلم ما يريد.

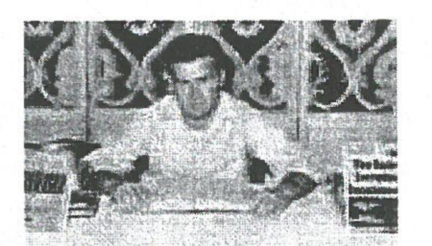
▪ آمن باللغة العربية وترسيخها أدبيًا وقوميًا في ذهن طلابه.

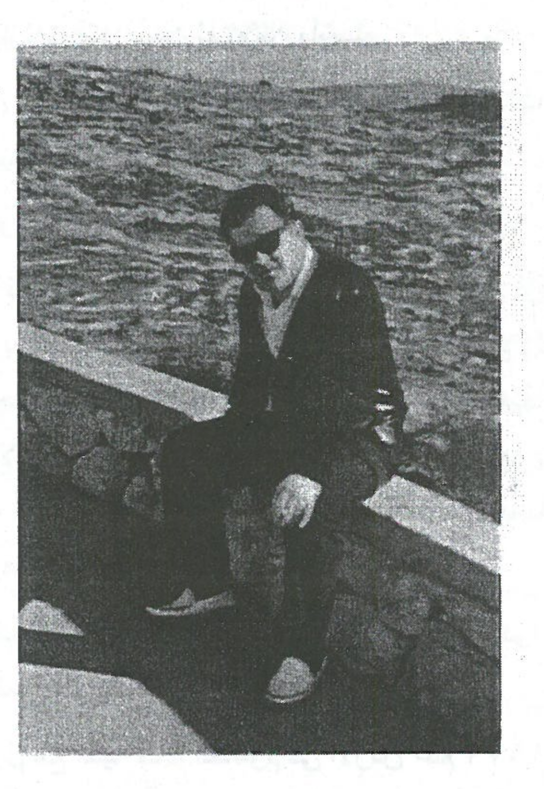
▪ عائليًا- عرف كرفيق والده وقضى الكثير من الوقت في قريته اندور وأحب حياة الفلاحين وبساطتها فتنقل بينهم ورافقهم في مشاويرهم وتنقل بينهم فارسًا على فرسه وواحدًا منهم في أرضه لهذا لم يهتم بحياة الرفاهية ولم تسرقه حياة التمدن فتعلق بالأرض وأصبحت جزءًا منه، وعرف عنه ولعه باندور لدرجة انه لم يقدر زيارتها أرضًا محتلة وقرية مدمرة بعد الـ ٤٨ إلا بمناسبات نادرة جدًا تغزل باندور ووصفها كأنها بروفانس فلسطين.

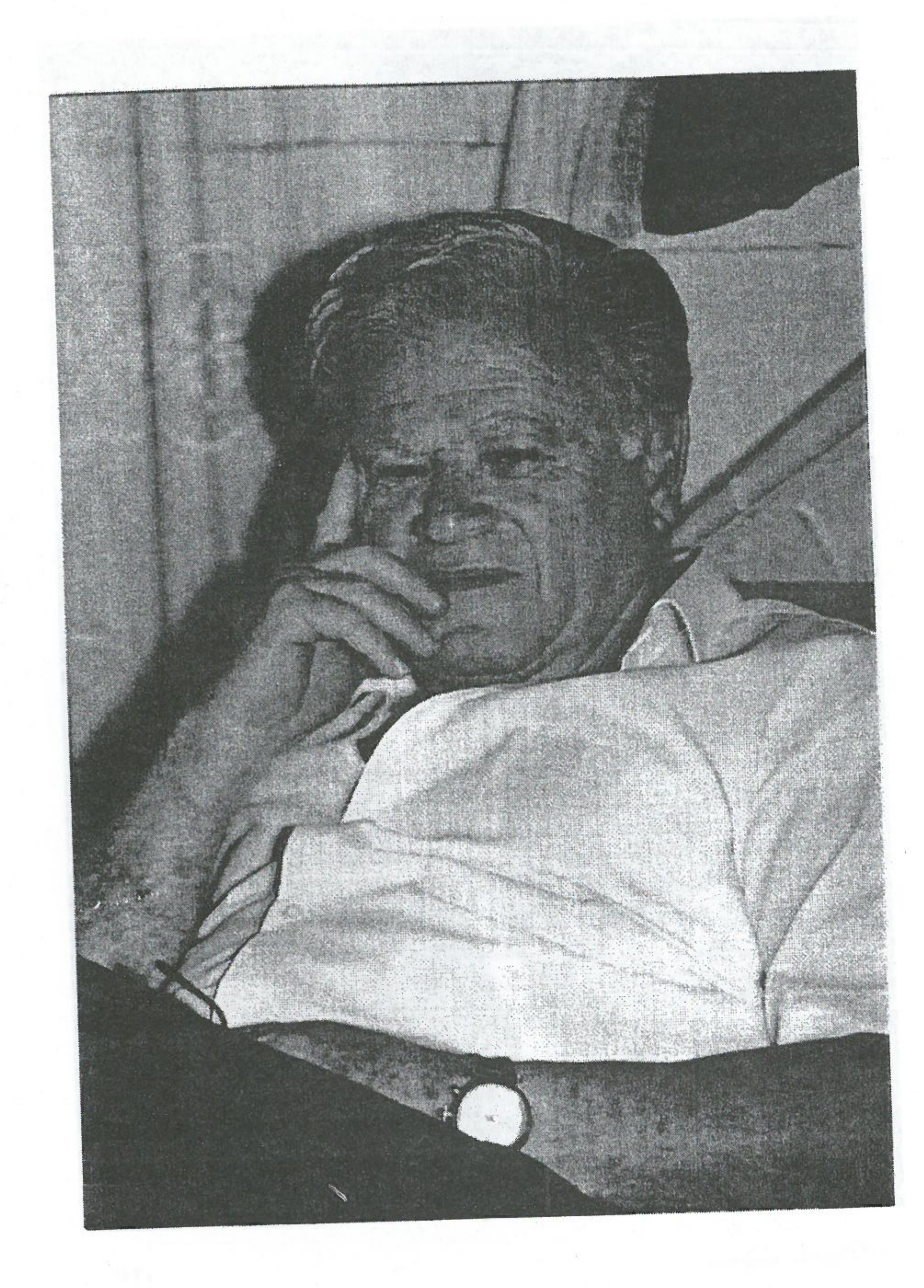
▪ في الـ ٤٨ غادر مع عائلته لبرج البراجنة في لبنان ليعودوا بعد فترة وجيزة رفضًا للذل وتفضيلاً الموت في فلسطين ولو محتلة.

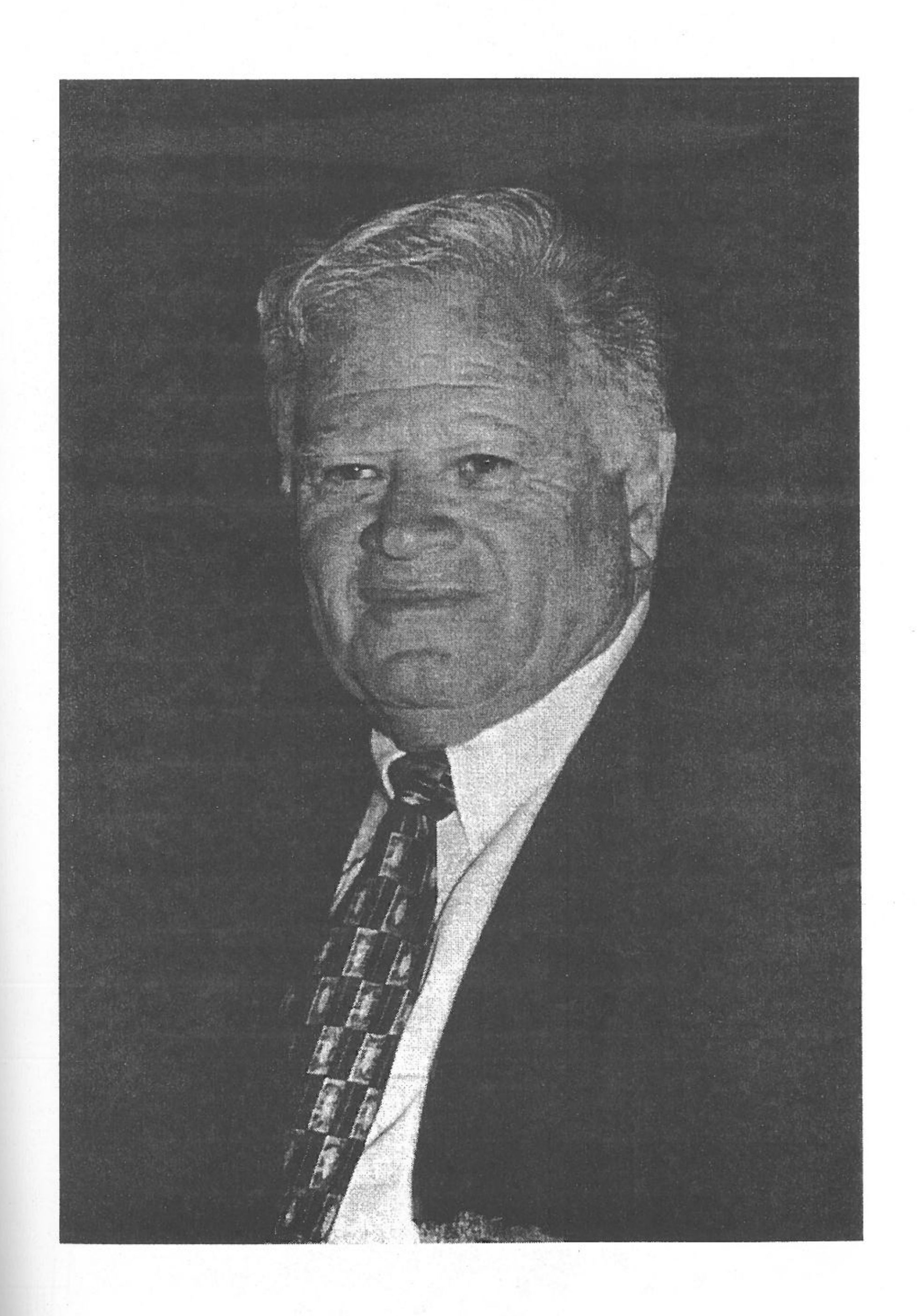
▪ كان لقاؤه الأول مع أخيه خالد الفاهوم في الأردن عام ١٩٧٩.

▪ توفي في ٢٥ تموز ٢٠٠٩ في حيفا ونقل جثمانه للناصرة ليدفن فيها.









محتويات الكتاب

شمس للنشر والإعلام



رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر،تأسست "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، وبين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات، تتمثل في:

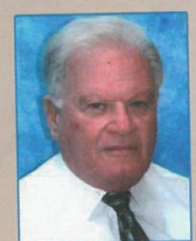
- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على إبرازها.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.
- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام
www.shams-group.net
(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065
www.shams-group.net



قال التلميذ الفتى لأستاذه الشيخ: لقد أسميت كتابك "فلسطين ... ضحية وجلادون".
ولقد عرفنا أن فلسطين هي الضحية، فمن هم الجلادون؟
أجاب الأستاذ الشيخ: إنهم كثيرون.

- أولهم، الحركة الصهيونية العالمية المستفيد الأول والمنتفع الرئيس.
- وثانيهم، بريطانيا العظمى التي كانت أول من فكر بإقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين. فسبقت بذلك الفكر الصهيوني ومشروعه. وهي التي أصدرت تصريح بلفور سنة ١٩١٧ وحولته من تصريح نظري إلى واقع ميداني، بعد أن نجحت في فرض انتدابها على فلسطين وأصبحت السيد المطلق وصاحب القول الفصل في كل ما يتعلق بالبلاد. ثم تحولت إلى حاضنة أمينة للحركة الصهيونية وبرنامجها في الوطن القومي اليهودي على التراب الفلسطيني.
- وثالثهم، عصبة الأمم التي صادقت على انتداب بريطانيا وأرفقته بصك الانتداب الذي يحدد مهمة ذلك الانتداب بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وبذلك تكون قد منحت الانتداب والتصريح ومشروع الوطن القومي اليهودي شرعية دولية.
- ورابعهم، هيئة الأمم المتحدة التي أقرت سنة ١٩٤٧ تقسيم فلسطين إلى دولتين: واحدة عربية والأخرى عبرية. وقد تم انتزاع ذلك القرار بالابتزاز والتهديد والرشوة والتخويف.
- وخامسهم، الولايات المتحدة الأمريكية التي حولت أروقة الأمم المتحدة ودهاليزها مسرحًا لسياسة العصا والجزرة، والترغيب و الترهيب لإكراه الدول المعارضة والمترددة على تأييد التقسيم، وبذلك ابتزت موافقة ثلثي أعضاء الجمعية العمومية في الأمم المتحدة. وفي حقيقة الأمر لم تمثل الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الشأن إلا دور راعي البقر - الكاو بوي - الذي يحمل الهراوة بيد والذهب باليد الأخرى موزعة الوعد والوعيد.
- وسادسهم، الدول العربية "الشقيقة" الإخوة الأعداء، الحلفاء اللدودون، الخصم والحكم؛ التي وقفت موقف المتفرج وهي ترى فلسطين العربية تتحول إلى أيد صهيونية. وكان أقصى ما ساهمت به أول الأمر دفع ضريبة كلامية من تأييد ودعم لا رصيد لهما. وبعد إقرار التقسيم وجلاء بريطانيا عن البلاد أرسلت جيوشًا لم تكن مهيأة لدخول حرب مع اليشوف اليهودي، لا من ناحية عددية ولا من ناحية عسكرية: من تجهيز وتدريب وتسليح وقيادة. فكانت النتيجة المتوقعة هزيمة منكرة. هذا فضل على أن بعض هذه الجيوش انصاعت لأوامر قياداتها السياسية التي تآمرت مع الحركة الصهيونية على دخول فلسطين لتنفيذ التقسيم.
- وأخيراً وآخراً؛ سابعهم، تلك الشرذمة من أهل البلاد العرب الفلسطينيين الذين باعوا دينهم وذممهم وضمائرهم وانضووا في خدمة الحركة الصهيونية، كان منهم الصحفيون وأصحاب الأقلام المأجورة والسياسيون المرتزقة وتجار السلاح وبياع الأراضي والسماسرة وغيرهم وغيرهم. إنهم "الطابور الخامس" أو "جيش الظلال"؛ كما يسميهم المؤرخ هليل كوهين في كتابه.


ISBN 9789774931017
9 789774 931017